قال المقدسي : وقد جعلنا العراق ستّ كور وناحية ، وكانت الكور في القديم غير هذه إلا حلوان ، ولكنا أبداً نجري الأمر على ما عليه الناس ، وأدخلنا الكور القديمة والقصبات في الأخبار واسم هذه الكور والقصبات واحِد فأولها من قبل ديار العرب : الكوفة ثم البصرة ، ثم واسط ثم بغداد ثم حلوان ثم سامرًا[١] .

وأما المدن التي بالعراق : فمنها هيتُ ، والحيرة والأنبار والكوفة وواسط وحلوان والجلة والنهروان والأبلة والقادسية وعبادان والبصرة وبغداد والكرخ والموصل[٢] .

فإقليم العراق منبع العلماء ، ومختار الخلفاء أخرج أبا حنيفة فقيه الفقهاء وسفيان سيد القراء ، والفراء وأبو عمر وصاحب القراءة وحمزة والكسائي وكل فقيه ومقرئ وأديب ، والمدينة فيه كثيرة الفقهاء والقراء والأدباء والأئمة والملوك بخاصية بغداد والبصرة[٣] .

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي ص١٠٣ .

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي ٣٣٣/٤ ـ ٣٣٧ .

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسي ص١٠٣ ، ١١٢

٢ ـ الخريطة السياسية للشام والعراق فى القرن الرابع الهجرى :

لقد تعمقت ظاهرة التدهور السياسى للخلافة الإسلامية خلال القرن الرابع الهجرى فى كل من الشام والعراق ، وأصبحت دويلات متناثرة ، فقد اتسم ذلك القرن بانقسام الملك وانتشار الفوضى ، وذيوع الفتنة ، والاضطراب ، والعبث بسلطان الخلفاء والتحكم فى مصائرهم ، وفقدت البقاع الإسلامية ولاءها السياسى للدولة العباسية ، كما نلمس فى بداية ذلك القرن عوامل زادت من ضعف الدولة العباسية :

الأول : تفاقم خطر الدويلات المنشقة المستقلة ، **الثانى** : بداية عهد أمراء الأمراء وسيطرتهم على الدولة ، **الثالث** : سلطان الجنود الترك ، وثورات العامة فى المدن ، ودسائس الشيعة والإسماعيلية فى كل مكان ، وأصبح الترك حجاباً فى قصور الخلفاء، وصار لهم سلطان إلى جانب سلطان الخلفاء ، ونزلت مكانة الخلفاء ولم يبق لهم إلا مكانة دينية ، لذلك فقد كانت الحالة التى وصلت إليها الدولة العباسية خلال القرن الرابع الهجرى ، بيئة صالحة لنمو كثير من العناصر التى ناوأت الخلافة ، فقد قامت بكل إقليم حكومة قوية نهضت بإداراته ، ودافعت عنه باسم الخلافة البعيدة[١] .

بينما كانت الخلافة العباسية تجتاز أزمة الخضوع للقواد الأتراك فى بغداد حتى سنة ٣٣٤هـ، استطاع البويهيون زرع حكمهم فى عاصمة العباسيين نفسها وبجانب الخلفاء ، ولمدة تزيد على مائة سنة ، واستقلوا بالعراق ما عدا الموصل[٢] منذ عصر الخليفة العباسى المستكفى بالله عبد الله بن المكتفى الذى استقبل أحمد بن الحسين ابن بويه ولقبه بمعز الدولة ، ولقب أخاه أبا الحسن بعماد الدولة ، وأخاه أبا على الحسن بركن الدولة[٣] . فى الوقت الذى كانت فيه الموصل خاضعة لسيطرة الدولة الحمدانية ما بين ٣١٧ ـ ٣٦٩هـ[٤] .

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر العباسى للدكتور حسن محمود والدكتور أحمد الشريف ص٣٨٧ ـ ٣٨٨ .

(٢) الموصل : مدينة مشهورة بالعراق وسميت بذلك لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق . انظر معجم البلدان لياقوت ، فى مادة (عراق) .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٥/١١ .

(٤) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٦٩/١ .

فكما أن ظاهرة التدهور السياسى استمرت حتى شملت القرن الرابع الهجرى فثمة ظاهرة أخرى ، قد نشأت خلال ذلك القرن بإقليم الشام ، وهى نشوء ثلاث دويلات استطاعت أن تتحكم فى مصير الشام وهم الدولة الحمدانية والدولة الإخشيدية والدولة الفاطمية .

فقد خضع للحمدانيين شمال الشام ما بين سنة ٣١٧ ـ ٣٩٤هـ، وظهر الإخشيديون على دمشق ما بين سنة ٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ، ثم قدم الفاطميون على جنوب الشام منذ ٣٥٩هـ وظلوا مسيطرين طيلة قرن من الزمان[١] .

لقد تتابع عدد من الخلفاء العباسيين ليس بقليل على أمر الحكم خلال ذلك القرن فابتداه المقتدر بالله جعفر بن المعتضد ٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ، ثم القاهر بالله محمد ابن المعتضد ٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ، والراضى بالله محمد بن المقتدر ٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ، والمتقى لله إبراهيم بن المقتدر ٣٢٩ـ٣٣٣هـ، والمستكفى بالله عبد الله بن المكتفى ٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ، والمطيع لله الفضل بن المقتدر ٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ، والطائع لله عبدالكريم بن المطيع ٣٦٣ ـ ٣٨١هـ، والقادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر ٣٨١ ـ ٤٢٢هـ .

إننا لا نقلب صفحات التاريخ السياسى لذلك القرن حتى نقرأ حركات الجند الأمراء مطالبين بأرزاقهم ، وإلا خلعوا الخلفاء وولوا غيرهم[٢]، ونقرأ خروج الأخ عن طاعة أخيه ، واستعانته بالجند ضده ، وخروج القائد عن سلطان أميره[٣]. وزيادة نفوذ الأعاجم وتدخلهم فى شئون الدولة ، وإنه ليعدَ من أقوى العوامل التى أدت إلى إصابة الخلافة العباسية بالوهن ، لقد كانت ولاية الخليفة المقتدر ٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ أبلغ آيات الفساد ، إذ تولاها وعمره ثلاث عشرة سنة ، فانتشر الفساد فى الحكم ، وغلبت كلمة جوارى القصر وخدمه على كلمة القادة والأمراء ، وأنفقت الأموال العامة فى غير

---

(١) اتحاف الأخصا لمحمد بن شهاب الدين السيوطى ٢١١/٢ ـ ٢١٢، والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٦٩/١ ، ١٧٠ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٠٠/٣ .

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٤٥٠/٨ ـ ٤٥١ .

وجوهها ، وتقلص نفوذ الخليفة حتى أصبح رئيساً دينيًا مجرداً من كل سلطان فعلى ، ووقع تحت رحمة حراسه من الجند الأجانب ، الذين كانوا يأتمرون بأوامر قوادهم من الأتراك ، وغيرهم من الذين كانوا يشعلون الثورة بين الحين والحين ، وثار القرامطة[1] فى مدينة الكوفة بالعراق وأنحائها ، وفى عهد نفر مؤنس القائد من قبضته ، وحارب بنى حمدان فى الموصل ، ثم زحف على بغداد فخرج له الخليفة المقتدر فقتل سنة ٣٢٢هـ وتركت جثته مكشوفة على الطريق أياماً[2]. فتلاشت هيبة الخلفاء بعد ذلك وكان قد تولى فى عهده وزراء كثيرون عزل بعضهم ، وسجن البعض الآخر ، وكان الخليفة فى ذلك الوقت دائم الرجوع إلى قول النساء والخدم والتصرف وفق إرادتهن[3]. وقد ظهرت فى عهده فتنة عبد الله بن المعتز ، ووقع النهب والقتل ببغداد، وثار العيّارون والسفل ينهبون الدولة ، لأن صاحب الشرطة كان ممن بايع ابن المعتز ، وانتهت هذه الفتنة التى ازداد بها ضعف الخلافة وسقوط هيبتها ، لأن المقتدر حين ولى كان شابًا غراً ، لا يعرف من السياسة ولا من الشجاعة شيئًا ، فتلاشت هيبة الخلفاء بعد ذلك . وتولى الخلافة بعده القاهر بالله ٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ، فورث الفتن الداخلية والحروب ، ووقع الخلاف بينه وبين رجاله كمؤنس الخادم والوزير ابن مقلة أبو على محمد بن على بن الحسين ت٣٢٨هـ، ثم خلع سنة ٣٢٢هـ وحبس وسملت عيناه إلى أن مات سنة ٣٣٨هـ، وفى أيامه كان مبدأ الدولة البويهية ، ثم تولى من بعده الخليفة الراضى بالله ٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ، وكانت الحال فى عهده تزيد إدباراً واضطرابًا ، فأصحاب السلطان فى العراق يتنافسون ويقتتلون ، وكانت الكلمة العليا فى أول عهده لوزيره ابن مقلة[4]. وكان آخر خليفة له شعر يدوّن ، وقد انفرد

---

(١) القرامطة : فرع من فروع الإسماعيلية ، ينتسبون إلى حمدان بن الأشعث ، وقد لقب بقرمط لقصر فيه ، وانتشر عنه أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة فى اليوم والليلة وأنه يدعو إلى إمام من أهل البيت فاجتمع حوله جمع كبير . انظر الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى للدكتور محمد أحمد الخطيب ص١٣٥ .

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٢٤٢/٨ .

(٣) المناقب العباسية لمؤلف مجهول مخطوط رقم ٤٢٤ (تاريخ) الصفحة (١١٦) .

(٤) الدولة العباسية للشيخ محمد الخضرى ص٣٧٧ ـ ٣٧٨ ، ٤٠٤ ـ ٤٠٥ .

بترتيب الجيوش والأموال[1]. وكانت سيرته سيرة استسلام ، وهو آخر خليفة كانت تجرى شئونه على قواعد الخلفاء المتقدمين ، ثم يتولى بعده الخليفة المتقى لله ٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ، وكان الحال فى عهده بيد أمير الأمراء ووزيره ، وليس للخليفة ولا لوزيره شيء، وكثر النهب بدار الخلافة ودور الحرم ، وكبسوا الدور وأخرجوا أهلها منها ، مما أدى إلى وقوع الفتن والاضطراب[2]. مما أدى إلى هروب الخليفة من بغداد إلى الموصل عند ناصر الدولة بن حمدان ، ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى فسمل وخلع فى سنة ٣٣٣هـ[3]. وتولى بعده المستكفى بالله ، وفى عهده وصل بنو بويه إلى بغداد ، وملك سيف الدولة الحمدانى حلب وحمص ، وحارب الإخشيد ودحر الروم ، ثم خلع فى سنة ٣٣٤هـ ونهبت داره وسملت عيناه ، ولم يزل معتقلا حتى توفى سنة ٣٣٨هـ[4]. ثم يتولى بعده الخليفة المطيع لله سنة ٣٣٤هـ ، وفى أيامه سلبت سلطة الخلافة كلها ، ولم يبق للخليفة إلا كاتب ، وفى عهده ملك سيف الدولة دمشق ثم استردها كافور الإخشيدى ، وفى سنة ٣٣٩هـ عاد الحجر الأسود واسترد بعد أنْ أخذه القرامطة ، وفى سنة ٣٣٩هـ أيضًا غزا سيف الدولة الروم وظلّ يحاربهم ويحاربونه ويدحرهم ويدحرونه إلى أن توفى سنة ٣٥٦هـ، وفى سنة ٣٦٠هـ ملك القرامطة دمشق ، وازداد الأمر بالنسبة للخلافة إدباراً ، ويحدد للخليفة ألف درهم فى اليوم نفقة، ثم يقطع عنه ذلك الراتب ، ويحدد له اقطاعات يسيرة يعيش منها ، ويعين له كاتب يتصرف فى شئونها ، ويحدد له ذلك كله معز الدولة البويهى[5]. ثم يدعى الخليفة إلى خلع نفسه ومبايعة ولده الطائع فيفعل ، وعقد الأمر لولده فى سنة ٣٦٣هـ وكان من المستضعفين مع بنى بويه ، ففى خلافته كثر التشيع من الديلم وأصحابهم وتغلب عضد الدولة البويهى على بغداد ، ورحل الأتراك إلى الشام[6]. ثم حارب عضد الدولة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١١/١٩٠ ، ٢٠٩ .

(٢) الدولة العباسية للشيخ محمد الخضرى ص٤١٢ ـ ٤١٤ .

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٨/٤٠٧ ـ ٤٠٨ ، ٤١٩ .

(٤) المناقب العباسية مخطوط لمؤلف مجهول الصفحة (١١٨) .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ١١/٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٦) المناقب العباسية مخطوط لمؤلف مجهول الصفحة (١٢١) .

ابن حمدان أبا تغلب ومعه باختيار أمير الأمراء وكان من أشد المنكرين على عضد الدولة ، فدحرهم عضد الدولة وقتل باختيار ، وقتل وزيره ابن بقية واستولى على ملك بنى حمدان ، ثم عمّر بغداد وصاهر الطائع لأمر الله على أمل الخلافة ، ثم توفى فى سنة ٣٧٢هـ، وفى سنة ٣٨١هـ خلع بهاء الدولة أمير الأمراء الخليفة الطائع ، وبويع بعده للقادر بالله ، وكان من أفاضل خلفاء بنى العباس ، وفى أيامه استردت الدولة العباسية شيئًا ما من وقارها ونما رونقها ، وأخذت أمورها فى القوة وقد كان للخليفة القادر فى أمر العلم ، حيث ألف كتاباً فى الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة على طريقة أهل الحديث[1] . ومكث فى الخلافة حتى سنة ٤٢٢هـ. وفى أيامه انقرضت دولة بنى حمدان ، ووقعت فتنة فى سنة ٣٩٨هـ بين الشيعة وأهل السنة فى بغداد وكاد الشيخ أبو حامد الإسفراييني يقتل فيها[2] .

وإذا أردنا أن ننظر إلى خريطة الشام تحت سيطرة الدويلات الثلاث الحمدانية والإخشيدية والفاطمية خلال القرن الرابع الهجرى نجد أن الحمدانيين قد ظهروا فى بلاد الشام وخاصة حلب ٣١٧هـ وفيها أقرّ الخليفة المقتدر بالله ناصر الدولة بن حمدان ، وتم لهم السيطرة على « الموصل » وأجزاء من الشام كديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس عين ، ومعها ديار بكر وميافارقين وأرزن[3] . فى الوقت الذى سيطرت فيه الدولة الإخشيدية على دمشق رغم غضب الخليفة منهم وإرسال ابن رائق

---

(١) المناقب العباسية مخطوط لمؤلف مجهول الصفحة (١٢٢) ، والفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا ص٢٣٣ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٣٨٢ .

(٣) نصيبين : وهى مدينة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام . انظر : معجم البلدان لياقوت . (نصيبين)

الخابور : ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسم نهر الخابور بين رأس عين والفرات . معجم البلدان لياقوت . (الخابور)

رأس عين : وهى مدينة كبيرة مشهورة بين حرّان ونصيبين ودُنيسر . معجم البلدان لياقوت . (رأس عين) .

ميافارقين : وهى مدينة بديار بكر . انظر معجم البلدان لياقوت . (ميافارقين)

أُرزن : وهى مدينة من أطراف ديار بكر مما يلى الروم . انظر معجم البلدان لياقوت . (أرزن)

وانظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٢١٧/٨ .

في حرب معهم ، وقُتل ابن رائق في سنة ٣٣٠هـ ثم سارت دمشق للأخشيديين على مرأى ومسمع من الخليفة العباسي ما بين ٣٢٣ ـ حتى سنة ٣٥٨هـ[١] . بينما سار جنوب الشام تحت سيطرة الفاطميين[٢] . وإن امتداد نفوذ سيف الدولة الحمداني لم يمنعه من أن يصطدم مع الإخشيد إذ يمتد نفوذه نحو دمشق ويدخلان في حرب أدت في النهاية إلى التصالح بينهما على أن يدفع سيف الدولة للإخشيد جزية سنوية وألا يتعرض لدمشق[٣] . وبما أن السمة الغالبة على القرن الرابع سمة الصراع بين الدول عاود سيف الدولة الكرّة بعد موت الإخشيد أسفرت عن الصلح بينه وبين الإخشيديين[٤] . ثم بدأ سيف الدولة يتجه بصرلعاته وحروبه خارج البلاد في صراعات وحروب مع الروم ويتمكن من هزيمتهم وأسر بعضهم وهدم خصوناً لهم ، وفتح قلاعاً منيعة ، وقتل فيها مقتلة عظيمة في سنة ٣٢٨هـ [٥] وأصبح الأمر سجال بين سيف الدولة وبين الروم حيث دخلوا في سنة (٣٣٨هـ) «مَرْعش»[٦] فخربوها وهدموا قصورها ، ونهبوها ثم اتجهوا إلى طرسوس[٧] . بينما في سنة ٣٤٥هـ وسنة ٣٤٩هـ سار فيهم وأوغل وفتح حصوناً وخرب ضياعًا ، بينما في ٣٥١هـ استولى الروم على حلب وحاصروا المدينة ، وقتل من أصحاب سيف الدولة حلق كثير[٨] . وكذلك في سنة ٣٥٥هـ، عاث صاحب الروم وأفسد حتى بعث سيف الدولة يستنجد أخاه ناصر الدولة لبعده[٩] ، وفي سنة ٣٥٦هـ توفى سيف الدولة بحلب وملك البلاد بعده ابنه أبو المعالي شريف بحلب[١٠] ومنذ موت سيف الدولة والأسرة الحمدانية سلكت طريق

---

(١) دول الإسلام للذهبي ٢٠٩/١ ، والتاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ١٣٨/٦ ـ ١٣٩ .
(٢) إتحاف الإخصا لمحمد بن شهاب الدين السيوطي ٢١٢/٢ .
(٣) تكملة تاريخ الطبري لمحمد بن عبد الملك الهمذاني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص٣٥١ .
(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤٥٧/٨ ـ ٤٥٨ .
(٥) أخبار الدول المنقطعة على بن ظافر الأزدي ٦٢٣هـ تحقيق تميمة الرواف ٥ ـ ٢٣ .
(٦) مرْعش : وهي مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم . معجم البلدان لياقوت (مرعش) .
(٧) زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم ٣٢٠/١ .
(٨) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥١/١١ ، ٢٥٥ .
(٩) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٢/٤ .
(١٠) تكملة تاريخ الطبري لمحمد بن عبد الملك الهمذاني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص٤١١ .

التفكك ، وبدأ الضعف يدب فى جسدها والصراعات على الأمراء نشبت أظفارها ، ثم قامت الحروب الأهلية بين الحمدانيين ، وبدأوا يستعينون بالروم والفاطميين على بعضهم البعض حتى مات سعد الدولة الحمدانى فى سنة ٣٨١هـ[١] .

لقد دخلت الدولة الحمدانية فى مرحلة النزاع الداخلى الذى أدى إلى انهيارها بعد أن قامت حارسة على أطراف الدولة الإسلامية فى وقت كانت فيه الجبهة الإسلامية فى حالة من الضعف والتفكك ، وكانت الجبهة الرومية تستعد لانتهاز الفرصة التى لم يكن لها نظير من قبل فى صراعها مع العالم الإسلامى .

أما من حيث سيطرة الإخشيديين على بعض أجزاء من الشام خلال القرن الرابع ، فلا بد أن نعى أن ظهورها كان خلال القرن الرابع الهجرى ، وأن الخليفة المقتدر وقد ولى محمد بن طغج الإخشيدى ولاية الرملة سنة ٣١٦هـ ثم ولاية دمشق سنة ٣١٩هـ ، ثم استقر الإخشيد فى سنة ٣٢٣هـ بولاية مصر وبعض أجزاء من البلاد الشامية[٢] .

بعد أن أحس الإخشيد بالاستقرار ، خلع طاعة الخليفة العباسى مما أدى إلى دخوله فى حرب معه أدت إلى هزيمة الإخشيد فى سنة ٣٢٨هـ ويدفع عن الرملة كل سنة مائة ألف وأربعين أف دينار[٣] . ثم اتسع ملك الإخشيد بعد ذلك حتى شمل حمص ودمشق والأردن وفلسطين[٤] . ولكن لم يطل ذلك الملك حتى دخلوا فى صراع مع الحمدانيين بقيادة سيف الدولة الحمدانى وانهزم الإخشيد وأخذ سيف الدولة حمص[٥] .

ثم مات الإخشيد بعد ذلك ، ودبّ الضعف فى الإخشيديين حتى أغار القرامطة على بلاد الشام فنهبوا وسلبوا وخرّبوا ، وأغار الروم فى ٣٠٨هـ أيضاً[٦] .

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٦٠/٤ ـ ١٦١ .

(٢) العالم الإسلامى فى العصر العباسى للدكتور حسن محمود والدكتور أحمد الشريف ص ٤٣٧ .

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٣٦٣/٨ ـ ٣٦٤ .

(٤) صبح الأعشى للقلقشندى ١٠/٧ ـ ١٨ .

(٥) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٤٤٥/٨ ـ ٤٤٦ .

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٣/١١ ـ ٢٨٤ .

أما الفاطميون فقد اتجهوا إلى الرملة وفلسطين وطبرية وحمص ودمشق ، وأقيمت الخطبة للمعز الفاطمى فى سنة ٣٥٩هـ[١] ، وظل الفاطميون يحكمون فى الجنوب نحو قرن من الزمان .

لعلّ من أهم ما يظنه العديد من المؤرخين من إيجابيات ظهور هذه الدويلات ، إنما هو نمو الحركة العلمية ، وذلك بسبب التنافس بين حكامها على جذب العلماء والأدباء إليهم وتقديم الاغراء المادى لهم ، « ففى تلك الممالك المستقلة أو شبه المستقلة التى انقسم لها العالم الإسلامى قامت أسر حاكمة ، وكانت هذه الأسر ينافس بعضها بعضاً فى حماية العلم والمعلمين والمتعلمين ، وأصبحت قصورهم فى العواصم المتعددة مراكز ثقافية خصبة[٢] ، وكثرت رحلات هؤلاء العلماء والأدباء إلى كل من الشام والعراق وغيرهما ، وكل هؤلاء الحكام عملوا على تشجيع العلماء والأدباء على القدوم عليهم والبقاء بصحبتهم[٣] .

وإن الازدهار العلمى الذى شهده القرن الرابع الهجرى ، ليعدّ ثمرة طبيعية للتطور التاريخى للحركة الفكرية فى الحضارة الإسلامية ، وكانت هذه الحركة العلمية قوية ومندفعة فى القرن الثالث الهجرى وظلت محافظة على قوتها واندفاعها فى القرن الرابع الهجرى ، وكان يمكن لهذا الازدهار أن يحقق مستوى أعظم لو صاحبته الوحدة السياسية ، أو توافر له إطار سياسى سليم[٤] .

لقد أثرت تلك الحالة السياسية فى التاريخ وتطوره فى كل من الشام والعراق ، بحيث أن العالم الإسلامى كان يعانى من تمزق جعل كثيراً من الدويلات تنفصل عن الوحدة السياسية الواسعة للخلافة العباسية ، وتنمو وتكوّن قوى محلية مستقلة ، مما جعل يرافقها أيضاً فى الوقت نفسه ظهور تواريخ محلية مستقلة ، والتواريخ العامة تغيب عن التأليف التاريخى ، انسجامًا مع الواقع السياسى ، وغياب الوحدة الإسلامية ، وما ظهر من تواريخ عامة يغلب عليها الخصوصية ، فظهور التواريخ المحلية وتواريخ المدن كوّن نوعاً من المدارس التاريخية الإقليمية .

---

(١) إتحاف الأخصا لمحمد بن شهاب الدين السيوطى ٢/٢١١ ـ ٢١٢ .

(٢) Contribution to the History of Islamic Cvilization Khuda Bukhsh . P. 184 .

(٣) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٢/٢٦٥ .

(٤) الحضارة للدكتور حسين مؤنس ص١١٠ ، والتراث والمعاصرة للدكتور أكرم ضياء العمرى ص٥٤ .

الباب الأول

النظم التعليمية فى الشام والعراق

فى القرن الرابع الهجرى

الفصل الأول

مراحل التعليم ومناهجه فى الشام والعراق

مراحل التعليم فى الشام والعراق

المرحلة الأولى :

كان نظام التعليم عند المسلمين خلال القرن الرابع الهجرى يتكون من مرحلتين، أولى وعالية ، أما المرحلة الأولى : فهى التى يقدّم فيها الطفل إلى المؤدّب أو المعلّم ، عندما يشتدُّ عوده ويستوى لسانه ويتهيأ للتلقين ، ويعى اسمه . يقول أبو بكر بن العربى : «وللقوم فى التّعليم سيرة بديعة ، وهى أن الصغير إذا عقل بعثوه إلى الكتّاب»[1] وسن العقل والتمييز هذه ما بين الخامسة والسادسة تبعًا لاختلاف نضج الصبيان ، وتقدّمهم فى الفهم والتمييز[2] .

فالتعليم فى الكتّاب يمثل المرحلة التعليمية الأولى ، وهى مرحلة عامة يتعلّم فيها أولاد المسلمين أساسيّات الثقافة الإسلاميّة من قرآن كريم ، وقراءة وكتابة وخط وشعر عربى ، ولهذه المرحلة أهمية كبرى ، ففيها تنبت الآداب فى نفوس الصبيان ، وتصبح خلقاً ثابتاً فيهم ، فمن اتفق له فى الصّبا أن يربّى على أدب الشريعة ، ويؤخذ بوظائفها وشرائطها ، حتى يتعوّدها ، ثم ينظر بعد ذلك فى كتب الأخلاق ، حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن فى نفسه ، فقد تحقّقت له السعادة[3] .

فمرحلة الكتاب هى أول مرحلة فى السُّلّم التعليمى المعروف فى القرن الرابع وما قبله ، فهى بداية التعليم المنظّم للصبى المسلم ، وهى المكان الذى يتعلم فيه الصبيان على أيدى معلمين احترفوا مهنة التعليم ، كما جرت العادة على أن يتخذ المعلم فى الكتّاب عرّيفًا من بين أبرز الصبيان ، يساعد المعلم فى أداء مهمّته ، مما كان يدفع الصبيان إلى التنافس فى التفوق على الأقران ، والتقدم عليهم ليصير الصبى بامتيازه عريفًا يقوم بتعليم غيره ممن هم أقل منه علمًا ، وأصغر سنّاً ، كما كان يسمح المعلم لبعض الصبيان النابهين بالكتّاب أن يقوموا ببعض أعمال التعليم كالإملاء على غيرهم أو تفقد كتابتهم[1] .

---

(١) أحكام القرآن للقاضى أبى بكر بن العربى ٢٩١/٢ ، القاهرة مطبعة السعادة سنة ١٣٣١هـ.

(٢) التربية فى الإسلام للدكتور / أحمد فؤاد الأهوانى ص٥٨ .

(٣) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص١٧ ، القاهرة ـ المطبعة الخيرية ١٣٢٢هـ .

(٤) التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للدكتور حسن عبد العال ص١١٨ ـ ١١٩ .

وفي هذه المرحلة الأولى من التعليم كان كثير من المسلمين يقتصرون على تعليم الكُتّاب لضيق ذات اليد ، أما الخلفاء والوزراء والأمراء والقضاة ، وكثير من الأثرياء فقد دأبوا على تعيين « مؤدّبين » خاصين لأبنائهم ينتقونهم من بين كبار الأدباء ، وعندما يتقدم هؤلاء الأطفال في السّن ، يعهد بتأديبهم إلى علماء من ذوى الاختصاص ،كل في مجال تخصّصه . فقد كان أحمد بن سعيد بن عبد الله أبو الحسن المؤدب الدمشقي مؤدبًا لعبد الله بن المعتز بالله[1] . كما كان محمد بن القاسم بن الأنبارى يتردد إلى أولاد الراضي ليُدرِّس لهم[2] . لقد كان المؤدبون يحظون بمكانة عالية وطيبة بخلاف معلمى الكتاتيب ، ولا شك فى أن المعلمين كانوا يتقاضون الأجور على تعليمهم للأطفال ، أما الأدباء فيتوقف مبلغ ما يتقاضونه على سخاء مستخدميهم ، ولكنهم كانوا يقبضون ـ فى العادة ـ أجوراً سخيةً ومكافآت كبيرة فى المناسبات[3] .

مما سبق نستطيع أن نقول : شمل الحديث عن المرحلة الأولى في كل من الشام والعراق دون التفرقة بينهما ، فإن سريان المرحلة التعليمية الأولى ـ الكتاب ـ كانت عامة على مستوى الشرق الإسلامى كله سواء فى عنايتهم بدراسة القرآن الكريم ، أو بتعليم الخط ، فيتداولونه فى مكاتب الصبيان[4] . فهما يتفقان غالبًا فى سن دخول الصبى الكُتّاب فى سن الخامسة أو السادسة أو بعد ذلك ، ويبقى الصبى فى الكتّاب ، أو يظل تحت يد المؤدب الخاص له حتى سن معينة تتراوح بين سن العاشرة والرابعة عشر . فقد أورد لنا ابن عساكر فى تاريخه ، أن أحمد بن الحسين بن على أبو زرعة الرازى الذى قدم دمشق فى سنة تسع وأربعين وثلاث مئة قد طلب الحديث وله من العمر أربع عشرة سنة . وذكر أيضًا : أن عمر بن أحمد بن شاهين ولد سنة سبع وتسعين ومئتين ، وسمع أول سماعه سنة ثمان وثلاث مئة ، فكان عنده إحدى عشرة سنة[5] . وهذا السماع للعلم وحضور حلقاته يتم بعد تلقين وحفظ كتاب الله عز وجل بالمرحلة الأولى .

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٨٧/٣ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٨٤/٣ .

(٣) تاريخ التعليم عند المسلمين للدكتور منير الدين أحمد ص٥٢ ـ ٥٣ .

(٤) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور على عبد الواحد ١٢٥١/٣ .

(٥) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٥٥/٣ ، ٢٤٩/١٨ .

المرحلة الثانية : التعليم العالى

وهى مرحلة كانت تأتى فى القرن الرابع بعد مرحلة الدراسة العامة ، وفيها يتم التخصص حسب الميول والاتجاهات والقدرات الخاصة ، وعلى ضوء تلك الميول والقدرات كان الفتى يحدّد نوع الدراسة ، وليس هذا الأمر مقصوراً على أهل الشام وحدهم ، بل ومعهم أيضاً أهل العراق ، فكلا القطرين مراحلهما التعليمية واحدة . ولم يكن التخصص العلمى ضيّقًا بل امتاز بالتوسع فى معرفة العديد من العلوم ، وكانت هناك مواد عامة مشتركة بين جميع المناهج فى هذه المرحلة ، كان على الطالب أن يدرسها قبل دراسة المواد المتخصصة ، وهذه المواد المشتركة العامة هى مواد الدّين واللغة ، وهى تمثل قاعدة للدراسة الثقافية والأساسية اللازمة لميادين التخصص[1] .

وتمتاز هذه الدراسة العليا أنها تعطى المُدرِّس والدّارس حرية واسعة وهدفها الأول ، هو تفهُّم الإسلام بصورة أكثر وضوحاً ، وهذه المرحلة من الممكن أن نميزها بنظامين: أولهما : نظام الحلقة ، والثانى : نظام المجلس ، فأما الحلقة فيتحلق فيها الطلاب حول شيخهم ، ويكون عددهم محدوداً ، وأما المجلس فيشتمل عادة على أعداد كبيرة . وقد ساد هذان النظامان العالم الإسلامى كله وليس الشام والعراق فحسب .

١ ـ أما نظام الحلقة : فهو الذى يتحلّق فيه الطلاب حول شيخهم ، ولكن هذا النظام وهذا الشكل من التدريس استمر حتى بعد القرن الرابع الهجرى ، فالحلقة المقصودة هنا هى التى يدرّس فيها مختلف العلوم كالنحو مثلا الذى كانت له حلقات أشهرها حلقات أبى على الفارسى فى حلب ودمشق[2] ، وكذلك حلقات أبى سعيد السيرفى وأبى بكر بن الأنبارى ببغداد[3] . إلا أن حلقات أخرى شهدتها مساجد الشام كحلقات تعليمية متنوعة[4] . وكان بدمشق لأبى الحسن محمد بن النضر بن الأخرم حلقة عظيمة فى جامع دمشق يدرّس فيها القراءات[5] .

---

(١) التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للدكتر حسن عبد العال ص٢٥٢ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١٣١/١ .

(٣) إنباه الرواة للقفطى ٣٠٣/٣ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٤١/٧ ـ ٣٤٢ .

(٤) التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى للدكتور أحمد شلبى ص١١٢ .

(٥) شذرات الذهب لابن العماد ٣٦١/٢

وكذلك حلقات شاهدها العراق كحلقة إبراهيم بن محمد بن نفطويه بجامع المنصور ببغداد ، وحلقة أصحاب الحديث بجامع المهدى التى كان يحضرها الخليفة القادر . وكان لأحمد بن سلمان النجاد حلقتان فى يوم الجمعة بجامع المنصور أحدهما للفتوى والفقه ، والأخرى لإملاء الحديث(1) .

ويبدو أنّ حلقات التدريس بالنسبة للفقه كانت أُولَى الحلقات التى اتصفت بالدوام، من ذلك مثلا حلقة أبى إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزى المتوفى سنة ٣٤٠هـ وكانت تعقد بجامع المنصور ، وفى هذه الحلقة كان الإمام الأشعرى يلقى دروسه فى علم الكلام ، وهناك أيضًا حلقات « الفتاوى والنظر » ولكن الغالب فى تسميتها « مجالس »(2) .

٢ ـ وأما نظام الشكل الثانى وهو « المجلس » أى مجلس يجلس فيه العالم ويستمع إليه التلاميذ ، وقد اتخذه التعليم العالى كوسيلة من وسائل التعليم فى القرن الرابع وما قبله فى كل من الشام والعراق ، ومن هذه المجالس الشامية : مجلس أبى سليمان الرّبعى الدمشقى ت٣٧٩هـ محدِّث دمشق كان يملى بجامعها(3) . ومجلس محمد بن النضر بن مرّ المعروف بابن الأخرم الدمشقى ت٣٤٢هـ، كان يقرئ فيه الناس بواسع ما يحفظ من التفسير ومعانى القرآن(4) . ومجلس الحسن بن حبيب الدمشقى ت٣٣٨هـ كان يحدِّث فيه بكتاب «الأم» كله(5) . وغيرها كثير فى علوم شتّى .

ومن المجالس التى كانت تُعقَد فى العراق : كمجلس أبى الحسن على بن محمد بن بشار فى علم الفقه، وكان لمحمد بن القاسم بن الأنبارى ت٣٢٨هـ مجالس علم مشتملة على الحديث والأخبار والتفسير والأشعار(6) ، ومجلس أبى عبد الله

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٨/٤ ، ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٤٦/١١ ـ ٣٤٧ .

(٣) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٩٦ .

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٨٢/٢٣ .

(٥) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٣٢٦/٦ .

(٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى١١٣/٥ ، ١٨٢/٣ ـ ١٨٤ .

المحاملى ت٣٣٠هـ[١] . وتتنوع هذه المجالس فمنها مجلسٌ للدرس ، كما هو الحال فى مجالس الحديث ومجالس النحو ، وهناك نوع آخر كمجلس المحاضرة والمناظرة ومجالس الشعراء .

أولاً : مجالس الحديث :

وهذه المجالس نوعان : منها ما هو عارض ، ومنها ما هو دائم ، فالأول هو أن يكون لدى المُحدِّث أحاديث محدودة ، فيجلس لروايتها فى مجلس أو مجلسين ومثلها المجالس التى يحضرها العامة لسماع الحديث ويكون عدد الحاضرين فيها كبيراً كمجلس أبى سليمان الربعى الدمشقى ت٣٧٩هـ محدث دمشق[٢] . ومجلس علم أحمد بن عبد الرحمن أبى بكر الرّقى فقد حدّث بمدينة عسكر مكرم سنة ٣٢٥هـ، وحدث أيضًا سنة ٣٥٦هـ. والمجالس التى عقدت فى الشام لرواية الحديث كثيرة امتلأت بها كتب التراجم ، وهناك أيضًا مجالس الحديث التى كانت تعقد فى بيوت الأعيان والعلماء . كمجلس أحمد بن محمد بن على بن مزاحم الصورى ، وقد حدّث فى منزله سنة ٣٦٦هـ. ومجلس أحمد بن محمد بن سلامة الستيتى الأديب ، فقد حدث بداره فى دمشق .

أما المجالس الدائمة فهى تلك التى يعقدها الشيوخ المتخصصون بالحديث فى أيام معلومة من كل أسبوع ويحضرها الطلبة ، ويستمرُّون على حضورها حتى يفرغ الشيخ من إملاء حديثه ، وقد يستغرق عدة سنين : كمجلس أحمد بن سليمان الأسدى ت٣٤٧هـ فى الجمعة يملى فيه فى داره . وكان أحمد بن عطاء الروزبارى ت٣٦٩هـ يحدّث إملاءً بمدينة صور[٣] .

وكما كان فى الشام نوعان من مجالس الحديث فقد كان فى العراق أيضًا مثل ذلك كنظام تعليمى واحد فى الشرق كله ، فبالعراق مجالس الحديث التى كانت تضم عدداً كبيراً من العامة يلقى فيها العالم أحاديث محدودة فى مجلس أو مجلسين،

---

(١) العبر للذهبى ٣٧/٢ ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٤٥ .

(٢) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٩٦ .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥٤/٣ ، ٢٧٥ ، ٢٦٥ ، ٩٤ ، ١٦٨ .

كمجلس أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحلى ت٣٣٠هـ فقد كان يحضره عشرة آلاف رجل[١]، ولعل في ذلك مبالغة نظراً لشهرة العالم واتساع علمه . كما توجد مجالس الحديث التي كانت تعقد في منازل الأعيان والعلماء .

كمجلس محمد بن مخلد الدورى العطار ت٣٣١هـ[٢]. ومجلس أبي بكر محمد بن عمر الجعابي ت٣٥٥هـ فكان يجلس لإملاء الحديث ويزدحم الناس عند منزله[٣] .

أما المجالس الدائمة فهي تلك التي يعقدها الشيوخ المتخصصون بالحديث في أيام معلومة من كل أسبوع ويحضرها الطلبة ، ويستمرون على حضورها حتى يفرغ الشيخ من إملاء حديثه ، وقد يستغرق عدة سنين كمجلس إسماعيل الصفار[٤]، ومجلس محمد بن القاسم بن الأنبارى وأبيه ، فكان يملي في ناحية من المسجد ، وأبوه في ناحية أخرى . وكمجلس محمد بن فارس بن الغورى الذى كان يعقده ويملي فيه في جامع المهدى ، وكمجلس أحمد بن محمد بن عقدة في جامع الرصافة سنة ثلاثين وثلثمائة[٥] وغيرها من مجالس الحديث كثير .

ثانياً : مجالس التدريس :

وتختص هذه المجالس عادة بتدريس الفقه والنحو والكلام وما إلى ذلك من العلوم ، ولكن مجالس الحديث التي سبق الحديث عنها لا تسمى بهذا الاسم ، لأن الغرض منها ومن حضورها هو جمع الحديث وروايته ، كما يجوز أن يحضرها أى إنسان، في حين أن طلبة النحو والفقه والكلام عندما يقصدون تلك المجالس يستهدفون الدرس ، ويتبع شيوخهم منهاجاً خاصاً في التدريس ، فيبدأون بالسهل ويتدرجون إلى ما هو أصعب منه ، وبوسع الطالب أن يتم تعليمه فيها في مدة محددة ، وإن كنا لا نستطيع تحديدها لكن طالب الحديث لا يمكنه أن ينتهي من دراسة الحديث ، ثم إنّ عدد

(١) العبر للذهبى ٣٧/٢ ، طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٤٥ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣١١/٣ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٧٩/١١ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٣٣٨/١١ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٨٢/٣ ، ١٦٢ ، ١٥/٥ .

الطلبة فى مجالس التدريس لم يكن محدداً ، إلا أنه لم يكن فى العادة كبيراً ، ويستثنى من ذلك مجلس العالم البغدادي أبى حامد الاسفرائينى رئيس فقهاء الشافعية ببغداد ، إذ كان يحضر مجلسه سبعمائة متفقه[1] .

وكذلك مجالس التدريس فى الشام كمجلس أبى عبد الله بن خالويه الذى كان يدرّس فيه العربية واللغة[2] .

فمجالس التدريس فى كل من الشام والعراق نظامها مشترك ، لا فرق بينهما فى نظام المجلس فى العلم والتعليم .

ثالثاً : مجالس المناظرة :

من المعروف أن مجالس المناظرة فى القرن الرابع الهجرى سواء فى الشام أو فى العراق ، لم تكن مؤسسات تعليمية بالمعنى الصحيح ، إلا أنها ساعدت على تطوير التعليم إلى حد بعيد ، إذ كان يحضرها الطلبة ، وهذه المجالس على أنواع ، منها : المجالس التى كان يأمر بعقدها الخلفاء ويتولون رئاستها كالمناظرة التى أُحضر فيها الخليفة المقتدر بالله الحسين بن أحمد بن رستم من دمشق إلى بغداد لمناظرة ابن الفرات ، ثم خلع عليه[3]. وكذلك المناظرة التى حدّث بها أبو الطيب عبد المنعم بن غليون قال : قال الحسين بن خالويه : كنت عند سيف الدولة وعنده ابن بنت حامد ، فناظرنى على خلْق القرآن[4]، وكذلك المناظرات أيضًا فى العراق مثلها مثل الشام فقد أُحْضر أبو جعفر الطبرى سنة تسع وثلثمائة إلى دار الوزير عيسى بن على لمناظرة الحنابلة فى أشياء نقموها عليه[5]. ومنها مجالس يمكن اعتبارها تعليمية ، وهى التى يعقدها العلماء بأنفسهم سواء بانتظام أو محض الصدفة ، إذ يقصد أحد العلماء شيخاً

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى٤/٣٦٩ .

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٣/١٥٣ .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٧/٨٨ .

(٤)مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٣/٨٦ .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ١١/١٤١ .

بارزاً ليناقشه ، ويتطور النقاش بينهما إلى مناظرة وقد لقى هذا النوع انتشاراً كبيراً فى الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجرى ، وكانت تتناول مختلف المواضيع الدينية والأدبية ، فمن مناظرات الشام على سبيل المثال : المناظرة التى حدثت فى حلب بين ابن بطلان المختار بن الحسن بن عبدون الطبيب وبين الطبيب النصرانى الذى يعرف بالحكيم أبى الخير بن شرار ، وكانا يتناظران فى أمر الطب[1]. وما كان يحدث من مناظرات بين الحسين بن أحمد بن خالويه وبين أبى الطيب المتنبى وكان سيف الدولة يكرمه وهو أحد جلسائه[2].

ومن مناظرات العراق على سبيل المثال : المناظرة التى كانت بين متَّى بن يونس وبين أبى سعيد السيِّرافى فى النحو فى مجلس عام بحضرة الفضل بن الفرات[3].

ومجلس أبى طاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر ، كان المخالفون يجتمعون إليه ويتناظرون بحضرته ، وكان يتوسط بينهم ويكلمهم كلاماً سديداً[4].

وكذلك المناظرة التى كانت فى دار الوزير محمد بن على بن مُقلة وحضرها الفقهاء والقراء ، وتناظر الوزير مع محمد بن أحمد بن شنبوذ بحضرتهم[5]. وكثير من مجالس المناظرات قد عقدت فى كل من الشام والعراق .

رابعاً : مجالس المذاكرة :

هذه المجالس فى العادة لم تكن محدودة الزمان ولا المكان ومدارها تبادل المعلومات والآراء بين طلبة الحديث خاصة ، لكنها تطورت عندما صار العلماء يتباحثون فى الحديث سوية فى مجالس مفتوحة ، يحضرها الطلبة ، ثم تحولت هذه المجالس إلى مؤسسة تعليمية ذات قواعد محددة ، وتأخذ هذه المجالس أشكالاً عدة تعتمد على

---

(١) أخبار العلماء للقفطى ص٢٠٧ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٧/١١ .

(٣) أخبار العلماء للقفطى ص٢١٢ .

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٨١/٢١ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٨٠/١ .

الموضوع الحديثى المراد بحثه ، ولا سيما تناول متون الأحاديث وأسانيدها ورجالها جرحًا وتعديلاً . وربما تناولت المذاكرة تطبيقات أحاديث معينة فى أبواب الفقه ، كما قد تتناول مدارسه أحاديث رواها أحد الصحابة بالذات وتتبعها فى مختلف كتب الحديث وتقدير درجاتها من حيث الصحة والضعف[1]. وذلك كالمذاكرة التى حدثت بين سليمان بن أحمد الطبرانى من الشام ، وبين أبى بكر الجعابى من العراق بحضرة ابن العميد ، يقول ابن العميد : ما كنت أظن أن فى الدنيا حلاوة ألذ من الرئاسة والوزارة التى أنا فيها ، حتى شاهدت مذاكرة سليمان بن أحمد الطبرانى وأبى بكر الجعابى بحضرتى ، فكان الطبرانى يغلب الجعابى بكثرة حفظه أو تحفظه ، وكان الجعابى يغلب الطبرانى بفطنته وذكاء أهل بغداد ، حتى ارتفعت أصواتهما ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه ، فقال الجعابى : عندى حديث ليس فى الدنيا إلا عندى ، فقال الطبرانى : هاته ، قال : حدثنا سليمان بن أيوب وحدث بالحديث ، فقال الطبرانى : أنا سليمان بن أيوب ومنيّ سمعه أبو خليفة فاسمع منّى حتى يعلو إسنادك . ولا تروى عن أبى خليفة عنى ، فخجل الجعابى وغلبه الطبرانى ، قال ابن العميد : فوددت فى مكانى الوزارة والرئاسة لم تكن لى وكنت الطبرانى ، وفرحت مثل الفرح الذى فرح الطبرانى لأجل الحديث[2].

وكما كان بالشام مجالس للمذاكرة فقد كان بالعراق أيضًا كمجلس أحمد بن محمد بن دوست البزّار ت٤٠٧هـ كان فهمًا بالحديث عارفًا بالفقه على مذهب مالك، وكان يذاكر بحضرة أبى الحسن الدارقطنى ، ويتكلم فى علم الحديث[3].

وكذلك مجلس المذاكرة الذى كان بين الدارقطنى وحمزة بن محمد الكتانى الحافظ فاجتمع الاثنان وأخذا يتذاكران فلم يزالا كذلك حتى ذكر حمزة عن أبى العباس بن عقدة حديثًا ، فقال له أبو الحسن الدارقطنى أنت ها هنا ، ثم فتح ديوان أبى العباس ولم يزل يذكر من حديثه ما أبهر حمزة وحيّره[4]. ويقول الدكتور منير

---

(١) تاريخ التعليم عند المسلمين للدكتور منير الدين أحمد ص٥٨ .
(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور١٠/١٠٤ .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢٥/٥ .
(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٥/٥ .

الدين أحمد : وكانت مجالس المذاكرة مفتوحة للناس عامة وللطلبة خاصة ، ولهؤلاء أن يكتبوا ما يدور فيها ، وأن يوجّهوا الأسئلة كما يشاؤون أو يقترحوا الموضوعات التى يرغبون فى معالجتها[1] ، وقد جانب الدكتور منير الدين أحمد الصواب فى عبارته «ولهؤلاء أن يكتبوا ما يدور فيها» حيث أن العلماء لم يجيزوا لطلابهم أن يأخذوا عنهم فى حالة المذاكرة ، لما يقع فيها من المساهلة ، وحكى ابن الصلاح المنع من التحديث بالرواية فى حالة المذاكرة[2] .

أما عن عدد الحضور فى مجالس المذاكرة فلم يكن محدداً ، ويمكننا القول بأن المذاكرة شملت العديد من المواضيع صارت ميداناً يصول فيه أهل العلم والأدب ، ويحاول كل منهم اظهار علمه ومقدرته ، فقد كان أبو العباس الوراق يحفظ مائة ألف حديث بالإسناد والمتن ويذاكر بثلثمائة ألف حديث[3] وهى تكشف عوار من لا يصدق[4] .

خامساً : مجالس الشعر :

لا شك أن مجالس الشعر لم تكن مجالس للتعليم ، ولكنّ عدداً كبيراً من الطلبة كان يحضرها ، ومن المعروف أن جامع المنصور فى بغداد كان يُعقد فيه مجلس من هذا القبيل كل يوم جمعة ، وكان يحضره الأدباء والطلبة ، وكان فى هذا الجامع موضع يسمى قبة الشعراء أو قبة الشعر »[5] فى الوقت الذى كان فيه بلاط سيف الدولة بالشام حافلاً بمجالس الشعر أيضاً ، قد دخل القاضى أبو نصر البنص مجلس الأمير سيف الدولة فطرح من كمّه كيساً فارغاً ودرجًا فيه شعر ، واستأذن الأمير فى قراءته ، فأذن له ، فلما فرغ من إنشاده ضحك الأمير وأمر له بألف درهم صحاح فجعلت فى كيسه الذى جاء معه[6] . فكان سيف الدولة موسم الأدباء وحلبة الشعراء،

---

(١) تاريخ التعليم عند المسلمين للدكتور منير الدين أحمد ص٥٩ .
(٢) الباعث الحثيث فى اختصار علوم الحديث لابن كثير ص٦٨ .
(٣) تاريخ التعليم عند المسلمين للدكتور منير الدين أحمد ص٥٩ .
(٤) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص١٢٣ .
(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢/٩٥ ـ ٩٦ .
(٦) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٣/١٩٣ .

ويُقال إنه ما اجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه ، من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر[1] .

وكانت مجالس الشعراء بالشام تضم المشاحنات الطريفة بين الشعراء ، كما كان يحدث بين الشاعر السرّى الرفاء وبين الشاعر النامى ، وبين المتنبى وبين أبى فراس الحمدانى وكان لكل واحد منهما فريق يشجعه[2] .

وفى العراق كانت المجالس الأدبية تُعقد فى قصور الخلفاء والوزراء ، فكان الوزير المهلبى يعقد المجالس الأدبية فى قصره ، فيقصدها كثير من الشعراء . وكان يدور فيها مناشدات ومجاوبات ومذاكرات ومداعبات ، وقد أُعجب الصاحب بن عباد بهذه المجالس حينما زار بغداد فأكثر من وصفها والتحدّث عنها[3] .

سادساً : مجالس الفتوى ومجالس الوعظ :

أما الغرض من عقد مجالس الفتوى ، هو إصدار الفتاوى ، وربُّما تمّ عقدها مرة فى الأسبوع ، وتكون عادة مفتوحة للجميع ، وكان طلبة الفقه يحرصون على حضورها ، وتدوين الفتاوى التى تصدر فيها ، كما تتاح لهم الفرصة لمشاهدة الجانب العملى لتطبيق الأحكام الفقهيّة التى درسوها ، وقد انتشرت هذه المجالس فى الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجرى .

فأما مصادر العراق فقد وضعت تحت أيدينا كثيراً من مجالس الفتوى والوعظ دون مصادر الشام ، مثل مجلس محمد بن أحمد أبو على الهاشمى وهو أحد الفقهاء الحنابلة كان يدرّس ويفتى فى جامع المدينة . وكمجلس وعظ محمد بن أحمد بن موسى الوزان ، كان له مجلس وعظ وكان يحضر مجلس وعظه خلق لا يحصون . وكان لمحمد بن على المكى مجلس وعظ واجتمع الناس عليه فى مجلسه[4] . أما فى

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٠٧/١٨ ـ ١٠٨ .

(٢) مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(٣) يتيمة الدهر للثعالبى ٢٦٥/٢ وما بعدها .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٥٤/١ ، ٣٥٩ ، ٨٩/٣ .

الشام فقد كان أبو الحسن أحمد بن سليمان بن حزام المتوفى ٣٤٧هـ مفتى دمشق له حلقة كبيرة بالجامع[١]. وكان لأبى العباس أحمد بن أبى أحمد الطبرى ت٣٣٥هـ مجلس وعظ يعظ فيه الناس فى مدينة طرسوس[٢].

٣ ـ **اختيار الطلبة** : يدخل نظام اختيار طلبة العلم ضمن نظام التعليم العالى ، ولم يكن الطلبة فئة محددة ، يجرى اختيارها وتسجيلها وفقًا لنظام معين ، سواء فى الشام أو العراق ، وإنما بوسع أى شخص من الناس أن يحضر الدروس على اختلاف أنواعها ، وكذلك سن الطلاب لم يكن محدداً ، بل كثيراً ما كان يحضر الدروس أشخاص متقدمون فى السّن . قد سمع أحمد بن الحسين بن على الرازى وهو ابن أربع عشرة سنة ، وكذلك عمر بن أحمد بن شاهين سمع وهو ابن إحدى عشرة سنة[٣] وقد سمع أحمد بن محمد بن الجندى وهو ابن سبع سنين فقد ولد سنة ست وثلاث مئة ، وأن أوّل سماعه سنة ثلاث عشرة وثلاث مئة[٤]. وقد سمع الحسن بن يوسف أبو معاذ البستى ت٣٧١هـ على كبر ، ولم يكن سماعه على قدر سنه لأنه سمع الحديث على الكبر[٥].

٤ ـ **مواعيد الدروس** : كانت تُحدَّد من قبل العلماء ، والحق أنها كانت فى جميع ساعات النهار ، مما منح الطلبة الفرصة ليطفئوا ظمأهم إلى العلم ، وكان بوسعهم أن يتنقّلوا من مكان إلى آخر ؛ طلبًا لمزيد من الدروس ، وحيث أن الأساتذة يتمتعون بحرية تامة ، ولا توجد جهة رسمية أو غير رسمية تتحكم فى التعليم ، فكان بوسع هؤلاء أن يُحدِّدُوا أوقات الدروس وعددها ، ولكنها فى الغالب كانت مرة فى الأسبوع ، وكان بعض الشيوخ يخصص يوم الجمعة للإملاء ، وكان على الطالب أن يختار دروسه بشكل لا تتضارب أوقاتها .

---

(١) دول الإسلام للذهبى ٢١٤/١ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦٨/١ .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور٥٥/٣ ، ٢٤٩/١٨ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٧٧/٥ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٥٦/٧ .

فالمتتبع لمجالس علماء الشام يجدها على جانب كبير من الكثرة ، فقد كان لأحمد بن سليمان الأسدى ٣٤٧هـ مجلس فى الجمعة يملى فيه فى داره[١] ، وقد أمدتنا مصادر الشام بأنواع شتى من مجالس العلم ومجالس المناظرات والفتوى وغير ذلك ، أما مصادر العراق فقد أمدتنا بما يفيد معرفة مواعيد الدروس ، فمن العلماء من كان مجلسه يوم الجمعة كأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى ت٣٢٨هـ ، ومنهم من كان يعقد مجلسه يوم الأربعاء ، كالحسين بن إسماعيل المحاملى ت٣٣٠هـ[٢] وقد عقد المحاملى آخر مجلس له أيضًا يوم الأحد ، ومنهم من كان له يوم الجمعة حلقتان قبل الصلاة وبعدها ، أحدهما للفتوى فى الفقه ، والأخرى لإملاء الحديث . ومنهم من كان يعقد مجلسين فى كل سنة الأول منهما فى أول المحرم والثانى فى أول رجب وهو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن معروف البغدادى ت ٣٨١هـ[٣] .

٥ ـ **لغة التعليم** : كانت اللغة العربية هى لغة التعليم لجميع الطلاب ، الأمر الذى ساعد على بناء وحدة ثقافية متكاملة فى العالم الإسلامى ، ويسّر على الطلاب حرية التنقل فى مختلف أنحائه ، وأتاح لهم فرص التلقى عن العلماء ، وهذا ما عُرف بالرحلة فى طلب العلم ، وقد كان الاهتمام باللغة العربية واضحًا ، فقد كان موضع عناية المدرسين ، إذ كان مطلوبًا من الطلبة أن يدرسوا النحو والصرف والشعر ، وحضور مجالس الأدب ، وكانوا لا يُغْفَر لهم إنْ هم ارتكبوا خطأً لغويًا ، وقد كان من واجب كل متعلِّم أن يتقن اللغة العربية ، وذلك على مستوى بلاد الشام ومستوى بلاد العراق وغيرهما من الأقطار ، فلغة التعليم فى كل منهما هى اللغة العربية ، حيث تُدرَّس بها كل العلوم[٤] .

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩٢/٣ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٨٣/٣ ، ٢٢/٨ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٢/٨ ـ ٢٣ ، ١٩٠/٤ ، ٣٦٧/١٠ .

(٤) تاريخ التعليم عند المسلمين للدكتور منير الدين أحمد ص٦٢ .

تعقيـــب :

الناظر فى مراحل التعليم فى كل من الشام والعراق يجد أنها تسير وفقا لنظام واحد معين لا خلاف فيه، وذلك خلال القرن الرابع الهجرى . ففى كل منهما توجد المرحلة الأولى ـ مرحلة الكُتّاب ـ لتعليم الأولاد أساسيات الثقافة الإسلامية . ويعتبر أهل الشام وأهل العراق أن مرحلة الكتاب أو التأديب من أهم فترات عمر الطفل ، لأن فيها تثبت الآداب فى النفوس وتصبح خلقاً ثابتاً فيهم .

ويسير النظام التعليمى على نمط موحّد فى كل من الشام والعراق ، من حيث أن الكُتّاب يشتمل على مكان ومعلم وصبى ومجموعة ألواح وعدد من الأقلام والمحابر ، وأحياناً يكون هناك مساعد للمعلم .

ويوجد من الناس نوع يكتفى على تعليم الكتاب ، نظراً لضيق ذات اليد والنفقة فى كل من الشام والعراق . ويوجد آخرون لديهم القدرة على أن يأتى الواحد منهم بمؤدب ومعلم لولده بمفرده فى بيته .

فالمرحلة التعليمية الأولى تسير على مستوى الشام والعراق بطريقة عامة دون فوارق، فالطفل يظلّ فى الكتاب أو تحت يد المؤدب حتى تتراوح سنه بين العاشرة والرابعة عشر .

وإذا كان معلمون يتقاضون الأجور عن التعليم فكثير لا يتقاضى ، وأن مكانة المؤدبين تختلف عن درجة المعلمين فى الكتاتيب ، وذلك واضح فى كل من الشام والعراق ، وقد سبق أن أعطيت الأمثلة الموضحة لمثل هذه الأفكار عند الحديث عن المرحلة الأولى[١]. ثم يتفق كل منهما فى اتجاه الصبى بعد الانتهاء من الكُتّاب إلى مجالس السماع والإملاء والتدرج فى سلم العلم . ويدخل بذلك مرحلة التعليم العالى، ولم نجد ما يميِّز طلاب الشام على طلاب العراق أو العكس من حيث مراحل التعليم خلال القرن الرابع الهجرى .

ففى خلال المرحلة العالية يتم التخصص للطلاب حسب ميولهم وقدراتهم ،

---

(١) انظر أول الفصل عند الحديث عن المرحلة الأولى ـ الكُتّاب .

فالحرية الدّراسيّة مكفولة لطلاب الشام والعراق فيما يختار من العلوم والشيوخ .

وإنَّ النظام المُتّبع فى مرحلة التعليم العالى فى الشام ، هو نفسه المتبع فى العراق ، فنظام الحلقة ونظام المجلس هما فى الشام وهما فى العراق ، واحد لا خلاف على ذلك .

فحلقات العلم فى الشام تضم شيوخًا وطلابًا وعلومًا متعددة وكذلك فى العراق أيضًا سواء فى المساجد أو المنازل أو الحوانيت أو دور العلم ودور الكتب وغير ذلك .

وكذلك نظام مجلس العلم فى الشام هو نفسه فى العراق ، وهو وسيلة عند أهل القطرين من وسائل التعليم خلال القرن الرابع الهجرى ، وهذه المجالس متنوعة فى الشام تنوّعها فى العراق ، كمجالس الحديث والتدريس والمناظرة والمذاكرة ، ومجالس الشعر ومجالس الفتوى والنظر والوعظ .

كما يتفق أهل الشام وأهل العراق فى نظام اختيار الطلبة ، وهو أن الحرية مكفولة لجميع الطلاب ولأى شخص أن يحضر الدروس على اختلاف أنواعها ، ولم يكن سنّ الطلاب محدداً لا فى الشام ولا فى العراق .

وكذلك مواعيد الدروس ليس لها نظام محدد ووقت معلوم فالحرية مكفولة للعلماء يختارون أوقات دروسهم حسب ما يرون فى أول النهار أو وسطه أو آخره أو فى جميع اليوم .

كما يتفقان أيضاً فى لغة التعليم وهى اللغة العربية التى نالت عناية من المدرسين، وكان الاهتمام بها واضحا سواء على مستوى بلاد الشام أو بلاد العراق .

منهج التعليم للمرحلة الأولى :

من المعروف أن الشام والعراق يقعان فى الشرق الإسلامى فهما من أهل المشرق الذين يهتمون بدراسة القرآن الكريم ، ولا يخلطونه بتعليم الخط ، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده ، كما تُتَعلّم سائر الصنائع ولا يتداولونها فى مكاتب الصبيان[1] .

فالملاحظ أن القرآن الكريم هو نقطة الارتكاز فى المرحلة الأولى ، وهو المحور الذى يدور حوله التعليم فى الكتاتيب . فمنهج التعليم فى كل من الشام والعراق يقوم على النحو التالى : إنه إذا اشتدت مفاصل الصبى ، واستوى لسانه ، وتهيأ للتلقين ، ووعى سمعه أخذ فى تعليم القرآن ، وصُوِّر له حروف الهجاء ، ولُقِّن معالم الدين ، وينبغى أن يروى الصبى الرجز ، ثم القصيدة فإن رواية الرجز أسهل ، وحفظه أمكن ؛ لأن بيوته أقصر ووزنه أخف ، على أن يختار من الشعر ما قيل فى فضل الأدب ، ومدح العلم وذم الجهل، وما حدث منه على بر الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضيف[2] .

ويقول ابن العربى عن التعليم فى المشرق : وللقول فى التعليم سيرة بديعة وهى أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب ، فإذا عبر المكتب أخذوه يتعلم الخط والحساب والعربية ، فإذا حذقه كله وحذق منه ما قُدِّر له ، خرج إلى المقرئ فلقّنه كتاب الله ، فحفظ منه كل يوم ربع حزب أو نصفه أو حزبًا ، حتى إذا حفظ القرآن خرج إلى ما شاء الله من تعليم[3] .

مما سبق يتبدى لنا منهج التعليم ومدى اهتمام أهل القرن الرابع الهجرى ، خاصة أهل الشام وأهل العراق بالثقافة ، وبعناصرها الأصلية ، من قرآن ومعارف دينية وأخلاق وعربية وشعر . فالمنهج يشتمل على القرآن الكريم والعبادات والكتابة والحساب والشعر والحفظ .

---

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور على عبد الواحد ١٢٥١/٣ .

(٢) كتاب السياسة لابن سينا نشره لويس معلوف بمجلة الشرق ١٩٠٦م .

(٣) أحكام القرآن للقاضى أبى بكر بن العربى ٢٩١/٢ .

منهج التعليم للمرحلة العالية :

عُرف منهج التعليم للمرحلة العالية فى القرن الرابع الهجرى ، بالمواد العامة التى يجب أن يدرسها الطلاب جميعاً ، والمواد التى تخضع لميول المتعلّم واهتماماته . وهذه المواد العامة هى المواد الدينية واللغوية . وفى هذا العصر تعددت العلوم وتعددت المناهج نظراً للازدهار الثقافى الذى عاشه إقليم الشام وإقليم العراق خلال القرنِ الرابع الهجرى، فمنهج منْ أعدّ نفسه ليكون كاتباً ، غير منهج منْ أعدّ نفسه ليكون محدِّثًا ، وكلاهما غير من أراد أن يكون طبيبًا أو فيلسوفًا ، ونقرأ فى تراجم كثير من العلماء أنهم ذهبوا إلى المكاتب ، ثم ذهبوا إلى حلقات الدروس حسب ميولهم ، فمنهم من يتعلم الشعر ومنهم من يأخذ الحديث وتفسير القرآن ومنهج الكلام ، وكثير منهم كان يجمع بين هذه الأشياء ، وهكذا كانت المناهج مختلفة . ولم يكنِ الطالب فى هذه المرحلة مقيداً بدراسة مواد معينة ، كذلك الأستاذ ، حيث لم يفرض عليه منهج خاص، لكى يدرّسه لطلابه .

ومن خلال تتبعنا للنشاط العلمى فى القرن الرابع الهجرى وكثرة التراجم فيه نلاحظ أن منهج التعليم فى هذه المرحلة من الممكن أن ينقسم قسمين : الأول : منهج الجمع بين العلوم الدينية واللغوية ، والثانى : منهج الجمع بين العلوم التجريبية واللغوية . أما الأول : فيشتمل على : علم الفقه وعلم النحو وعلم الكلام وعلم الكتابة وعلم العروض ، والقراءات والتفسير وعلم الأخبار . وأما الثانى : فيشتمل على : كل ما عرفه القرن الرابع من علوم الإغريق والهنود والفرس ، من علوم رياضية وطبيعية وفلسفية وطب وموسيقى ، بعد ترجمتها إلى اللغة العربية ، إلى جانب العلوم العربية ، من لغة ودين .

وإذا أردنا حصراً للعلوم التى كانت تُدرَّس فى القرن الرابع الهجرى فى كل من الشام والعراق ، فلنرجع إلى الكتب التى أحصت هذه العلوم مثل : مفاتيح العلوم للخوارزمى ، ورسائل إخوان الصفا ، والفهرست لابن النديم ، وقد أفردت جزءاً من هذا البحث يأتى فى نهاية الباب الأول تحت عنوان خطط التصنيف فى القرن الرابع الهجرى فى كل من الشام والعراق[1] .

---

(١) انظر الفصل الأخير فى الباب الأول تحت عنوان « خطط التصنيف » .

وإن ما حفظته لنا مكتبات الشام ومكتبات العراق من كتب فى فروع العلم المختلفة توضح لنا عمق مناهج التعليم فى هذه المرحلة العالية وشمولها واتساع نطاقها ، ومن هذه العلوم : العلوم العقلية كالفلسفة النظرية ، والفلسفة العلمية .

وفى الرياضة عن الأفلاك والحساب والهندسة والموسيقى ، وفى علم النفس ، وفى الطبيعة ، وفى الأخلاق ، وفى السياسة ، وفى المنطق ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد وصلت حضارة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى إلى أقصى نموها ، وبلغ نشاطهم أبعد حدوده .

وبالنظر فى التراجم سواء فى الشام أو فى العراق ، نلاحظ أن الطلبة الذين درسوا العلوم الدينية كانوا أكثرية بالقياس إلى الطلبة الذين درسوا العلوم العقلية أو العملية ، فكان الفقهاء والمحدثون أكثر العلماء تلامذة ، ولم تمدنا المصادر فى معرفة عدد التلاميذ الذين كانوا يجلسون فى مجالس العلم على يد علماء الشام ، مثلما أمدتنا مصادر العراق حيث بينت لنا أن أبا حامد الاسفرائينى كان عدد من يحضر مجلسه ثلثمائة متفقه ، وقيل كان يحضر مجلسه سبعمائة فقيه ، وكان الناس يقولون لو رآه الشافعى لفرح به ، وكذلك فى مجلس الفقيه أبى الطيب الصعلوكى ، كان يوجد أكثر من خمسمائة متفقه عشية الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة سبع وثمانين وثلثمائة[١] .

إن منهج مرحلة التعليم العالى كان بعيداً كل البعد عن التخصص الضيق للعلوم، بل كان يمتاز بالتوسع فى معرفة كثير من العلوم ، كأبى نصر الفارابى ، له فى علم اللسان وعلم المنطق وعلم التعليم ، والعلم الطبيعى ، والعلم الآلهى ، والعلم المدنى ، وعلم الفقه وعلم الكلام ، وعلم الطب لم يشتغل به[٢] .

وانظر إلى أبى سعيد السيرافى فهو إمام فى النحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافى والقرآن والحديث والكلام ، والحساب والهندسة[٣] .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٢٥/٣ ، ١٧٠ .

(٢) إحصاء العلوم للفارابى تحقيق الدكتور عثمان أمين ص٥٣ ، ٩٣ ، ١١٧ .

(٣) المقابسات لأبى حيان التوحيدى ص٥٨ .

بعض من كتب حول نظم التعليم ومناهجه فى القرن الرابع الهجرى :

فى الشام : كتب أبو نصر محمد بن محمد الفارابى ت٣٣٩هـ رسائل متعددة ، فهو من أكبر فلاسفة الإسلام ، وعرف بالمعلم الثانى لأسلوبه التعليمى ، ومناقشته القضايا الفلسفية ، ومن مؤلفاته التربوية فى هذا المجال : « ما قبل الفلسفة » و «كتاب السياسة» وهو رسالة لطيفة نشرتها مجلة المشرق البيروتية ، وقد ضمّت هذه الرسالة كثيراً من آرائه فى تأديب المتعلمين وطرق تثقيفهم ، كما فعل ذلك فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة ، وهو يرى فيها وجوب مراعاة استعداد المتعلمين ، والتعرف إلى طبائعهم وطباعهم ، وإلا كان هذا التعليم هذراً[1] .

فى العراق : كتب حول هذا الموضوع من علماء العراق إخوان الصفا فى رسالتهم جولات تربوية ، تتعلق بتصنيف العلوم إلى أربعة أقسام :

الأول : فى الرياضيات والصناعة والمنطق .

الثانى : فى علوم الطبيعة وما إليها .

الثالث : فى بحوث النفس والحياة والموت واللذة والألم .

الرابع : فى الإلاهيات وما يتصل بها من مباحث الديانات والشرائع والتصوف .

وقد دون إخوان الصفا آراءهم فى اثنين وخمسين رسالة ، والذى يهمنا هنا ، هو رأيهم فى الشريعة والتعليم ، فهم يرون أنه يجب أن تكون الغاية من التعليم دينية لا غير ، ولكنهم يعترفون بأن للتعليم فوائد اجتماعية ومادية ، وأن العلم يكسب صاحبه الشرف وإن كان دنيئًا ، ويرون وجوب السير فى التعليم من المحسوسات إلى النظريات ، لأن النظر فى مبادئ الأمور المحسوسة يروض عقله[2] .

---

(١) انظر إحصاء العلوم للفارابى تحقيق وتعليق د. عثمان أمين ٥٣ ، ٩٣ ، ١١٧ ، ١١٩ ـ ١٢١ ، ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٢) انظر مجلة المكتبات السنة (٥) العدد (٢) أبريل ١٩٨٥ ص٣٩ ـ ٤٤ الأسس الفنية لتصنيف العلوم عند العرب للأستاذ أحمد عبد الحليم عطية .

تعقيــب :

يتفق أهل الشام والعراق فى أن منهج التعليم عندهم واحد وليس هناك فرق ، سواء فى منهج المرحلة الأولى أو منهج المرحلة العالية .

فمن حيث منهج المرحلة الأولى ، نجد أنهما يهتمان معًا بدراسة القرآن ثم الخط ومعالم الدين وشيئًا من الشعر وغير ذلك ، فإن الاتجاه الذى يسير فيه التعليم اتجاه واحد فى كل من الشام والعراق ، منذ إرسال الصبى إلى الكُتّاب منذ الصغر ثم تعليمه الخط والحساب والعربية ثم الاتجاه إلى المقرئ ، فيلقن كتاب الله ، لذلك نستطيع أن نقول أنه لا خلاف بين منهج التعليم للمرحلة الأولى بين الشام والعراق .

أما المرحلة الثانية ـ مرحلة التعليم العالى ـ فنلاحظ أن منهجها عند أهل الشام وأهل العراق يخضع لنظام واحد أيضاً ، حيث نجد مواد عامة يجب أن يدرسها الطالب ومواد تخضع لميوله واهتماماته ، فالمواد العامة هى الدينية واللغوية وجميع الطلاب يدرسونها ، أما المواد الأخرى التى تدرس حسب الميول والرغبات ، فليس هناك منهج محدد يسير عليه الطلاب ، بل لكل تخصص منهج ، فمن أراد أن يكون طبيبًا فمنهجه يختلف عمن أراد أن يكون مهندسًا ، عمن أراد أن يكون كاتباً وغير ذلك ، فلم يكن الطالب مقيداً بدراسة مواد معينة . وكذلك الأستاذ سواء فى الشام أو العراق لم يُفْرَض عليه منهج خاص لكى يدرسه لطلابه .

لذلك فالمنهج العالى من الممكن تقسيمه إلى منهج دينى أدبى ومنهج علمى أدبى كما سبق أن بينا ذلك أثناء الحديث عن المنهج ، يتساوى فى ذلك أهل الشا وأهل العراق من حيث ذلك التقسيم ، كما يتفقان فى أن منهجهما بعيد كل البعد عن التخصص الضيق للعلوم .

كما نلاحظ من أهل الشام وعلمائها من كتب خلال القرن الرابع عن التعليم ومناهجه وتصنيف العلوم كالفارابى . وكذلك فى العراق نجد إخوان الصفا قد كتبوا أيضاً وصنفوا الرسائل العديدة فى ذلك .

إن أوجه الاتفاق بينهما هى السائدة خلال هذا الفصل وليس بينهما خلاف لا فى مراحل التعليم ولا فى مناهجه .

الفصل الثانى

أماكن التعليم وطرقه فى الشام والعراق

أماكن التعليم وطرقه فى الشام والعراق

وصف أماكن التعليم :

كانت أماكن التعليم فى القرن الرابع الهجرى متعددة ، فشملت الكُتّاب والمسجد وحوانيت الورّاقين ومنازل العلماء ، والصالونات الأدبية ودور الكتب ودور العلم والمستشفيات لعلم الطب خاصة .

ومع التّقدّم الحضارى خلال القرن الرابع الهجرى بدأت مؤسسات تفرض نفسها على واقع العالم الإسلامى كدار الحكمة التى اتسعت رسالتها ولم تقتصر على حركة الترجمة وحدها ، وكانت دار الحكمة ودور الكتب ودور العلم أصلح للتدريس من المساجد فى القرن الرابع الهجرى ، حيث كانت الحركة الفكرية قد قطعت شوطا بعيداً ، وكانت المناظرات والجدل الدينى وما يتبعها من خلافات وشجار على أشدهما عند المسلمين ، وكذلك ظهرت الصالونات الأدبية فى قصور الخلفاء والوزراء ، وكانت تعقد بها حلقات منتظمة للعلم ، يحضرها العلماء المتخصصون فى فرع من فروع العلم . ولنستعرض الآن بعض تلك الأماكن بالوصف الذى يعطى صورة واضحة عنها .

الكُتّاب :

عند الحديث عن الكُتّاب كأول مكان للتعليم بعد البيت ، فلا نجد خلافًا حوله سواء فى الشام أو فى العراق ، فهو المكان الذى يتعلم فيه الأطفال ، وقد انتشرت الكتاتيب من قبل القرن الرابع الهجرى منذ القرن الأول الهجرى ، وما أن أتى القرن الرابع حتى كانت الكتاتيب منتشرة فى كل مكان سواء فى الشام أو العراق يؤمها صبيان المسلمين جميعًا ، حيث استقر الإسلام فى البلاد وانتشر فى انحاء كثيرة ، ومع انتشاره انتشرت الكتاتيب لتعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم والكتابة(١) .

ولم تكن الدولة تتدخل فى إنشاء هذه الكتاتيب أو الإشراف عليها ، بل كانت

---

(١) التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للدكتور حسن عبد العال ص١٨٤ .

مؤسسات خاصة تعود إلى أصحابها وهم المعلمون ، فالرقابة متروكة لدين المعلم ووجدانه وخلقه ، لذلك كان الناس يتخيرون المعلمين أو الكتاتيب التى تحقق طموحاتهم فى تعليم أولادهم وتربيتهم[1] . فالكتاب فى معظم أحواله سواء فى الشام أو العراق ، لم يكن شيئاً غير تجمع أطفال فى صحبة معلم ، وقد قام الكتّاب كتجمع صبيان فى صحن مسجد أو فى إحدى سقائفه ، أو زواياه أو جوانبه ، أو فى حجرة ملحقة به ، أو فى بيت فقيه ، أو بجانب سبيل عام ، أو تحت ظل شجرة في الخلاء أو فى حانوت مستأجر ، أو فى مبنى مشيد برسم التعليم . وغالبا ما كان الكتّاب حجرة واحدة قد تضيق أو تتسع بحسب الأحوال ، ولكن الوضع السائد للكُتّاب يتمثل فى حجرة تعليمية ، وينهض بها معلم واحد ، ويساعده عدد من العرفاء بقدر ما تدعو إليه الحاجة التعليمية وبحسب أعداد المتعلمين[2] .

أما أثاث الكُتّاب ، فكان يُفرش بالحصر غالبًا ، وكان يجلس عليها الصبيان متربعين حول معلمهم ، وكانت أدوات الدراسة لا تتجاوز المصحف الشريف وعدة من الألواح يكتب عليها الصبيان ، وكذلك عدد من الدُّوِىّ والأقلام[3] .

المسجـــد :

لعب المسجد دوراً مهمًا فى حياة المسلمين منذ البداية ، فهو علاوة على كونه مكانًا للتعبد ، هو بيت للجماعة ومقر للمحكمة ودار للضيافة ومدرسة ، ومن هنا نشأت أهميته كمعهد للتعليم على مدار العصور ، وهكذا كانت مساجد الشام ومساجد العراق التى كان لها دورها الكبير فى التعليم خلال القرن الرابع الهجرى ، وكانت الدّراسة فى المساجد أول الأمر دينية وحين زاد احتكاك المسلمين بالحضارات الأخرى ، وتم الانفتاح العلمى على الثقافات الأجنبية ، اقتحمت العلوم الأجنبية المسجد، جنبًا إلى جنب مع العلوم الدينية ، وقد كان التعليم فى المساجد حراً حرية مطلقة ، ليس هناك قواعد لحضور الطلاب أو لانصرافهم ، وليس الطالب مقيداً

---

(١) حضارة العراق للدكتور بشار عواد معروف ٢٣/٨ ـ ٢٤ .

(٢) دراسات فى أصول التربية لمجموعة من الأساتذة ص٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

(٣) التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للدكتور حسن عبد العال ص١٨٦ .

بالاستماع إلى أستاذ معين أو دراسة علم معين ، وليس الشيخ مقيداً بمنهج ثابت ، فكان الطلاب يحضرون على الشيخ الذى يروقهم فى حلقته ، فإذا أحب طالب دروس شيخ لزمه ، وأخذ عنه ، حتى يتخرّج على يديه ، ويجيزه للتدريس فيما بعد[١] .

وفى القرن الرابع الهجرى اشتهرت عدة مساجد بالتعليم فى بلاد الشام منها :

الجامع الأموى بدمشق : وكان تحفة معمارية ، وصفه المقدسى[٢] فى صفحتين من كتابه ، وقد كان مركزاً مهما من مراكز الثقافة فى العالم الإسلامى ، فيه حلقات التدريس للطلبة ، وبه زوايا للتدريس يجتمع فيها الطلبة المغاربة ، وبه عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس[٣] . وقد ضم حلقات تعليمية متنوعة ، وبلغ عدد المتصدرين لإقراء القرآن ثلاثة وسبعين متصدراً بالإضافة إلى شيوخ الحديث والتفسير والفقه وغيرها ، وكانت مساجد دمشق فى نمو متواصل عدّها المقدسى ت٣٨٠هـ فوجدها مائة وثمانين مسجداً[٤] .

كان لأبى الحسن محمد بن النضر بن الأخرم الربعى قارئ أهل دمشق حلقة عظيمة بجامع دمشق[٥] . وكان أبو سليمان الرّبعى الدمشقى ت٣٧٩هـ يملى مجلس علم بجامع دمشق ، وكان محدثها وناشر علم الحديث بها[٦] . وأحمد بن سليمان بن أيوب أبو الحسن الأسدى ٣٤٧هـ ، كان له مجلس علم فى جامع دمشق يدرّس فيه مذهب الأوزاعى[٧] .

كان المسجد الجامع بدمشق على سبيل المثال لباقى مساجد الشام ، يضم حلقات عظيمة فى علوم مختلفة ، وكان جامع حلب يضاهى جامع دمشق حتى فى الزخرفة

---

(١) التربية فى الإسلام للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ص١٦ .
(٢) انظر أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص١٣٨ ـ ١٣٩ .
(٣) التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى للدكتور أحمد شلبى ص١١٢ .
(٤) دراسات فى أصول التربية لمجموعة من الأساتذة ص٤٠٨ ـ ٤٠٩ .
(٥) شذرات الذهب لابن العماد ٣٦١/٢ .
(٦) طبقات الحفاظ للإمام السيوطى ص٣٩٦ .
(٧) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩٢/٣ .

والرخام وغير ذلك[١] .

وفى بلاد العراق أيضاً اشتهرت عدة مساجد كمراكز للتعليم على الإطلاق منها: جامع المنصور ببغداد ، كان قبلة لأنظار الأساتذة والطلاب ، وهو أشهر مسجد جامع للتعليم ، وفيه جلس إبراهيم بن محمد بن نفطويه ت٣٢٣هـ ـ وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهاني ـ إلى اسطوانة بالمسجد خمسين سنة لم يتغير محله منها[٢] . وقد مكث محمد بن أحمد بن رزقويه يملى فى جامع المدينة من بعد سنة ثمانين وثلثمائة إلى قبل وفاته بمديدة وكان يكثر من إملاء الحديث . وكان لمحمد بن أحمد الهاشمى مجلس علم يدرّس فيه ويفتى فى جامع المدينة[٣] .

ومن المساجد المشهورة أيضًا جامع الرصافة الذى بناه المهدى ، كان أحمد بن عبيد الله بن محمد بن إسحاق الدّباس يملى فيه مجلس علم فى سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة[٤] .

وكان أحمد بن محمد بن عقدة يملى بمسجد الرصافة مجلس علم فى الحديث سنة ثلاثين وثلثمائة [٥] .

ومن المساجد المشهورة أيضًا مسجد البصرة ، وقد جلس فيه اللغوى المشهور محمد ابن أحمد المفَجّع ت٣٢٧هـ يُدرّس للناس فيكتب الناس عنه ويقرءون الشعر[٦] .

وهناك جوامع أخرى ، منها جامع نهر البزّازين الذى كانت تُعقد فيه بعض مجالس الحديث ، وبعض تلك الجوامع اشتهر بدروس القراءات كمسجد نهر القلاّئين. وكان مسجد السوق العتيق من مراكز التعليم المهمة لدى الشيعة ، وكانت تلقى فيه دروس الحديث ، كما أنّ مسجد دَعلَج بن أحمد السجستانى من مراكز

---

(١) اليواقيت والضرب فى تاريخ حلب لإسماعيل أبى الفدا ص١١٢ .
(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٦١/١ ـ ١٦٢ .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٥١/١ ، ٣٥٤ .
(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٥٣/٤ .
(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٥/٥ .
(٦) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٢٢٦/٢ .

التعليم المهمة لدى الشافعية ، ومثله مسجد عبد الله بن المبارك الذى كانت فيه حلقة أبى حامد الإسفرائينى الفقيه المشهور ، وكانت هذه الحلقة سبباً فى اجتذاب عدد كبير من طلبة العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامى إلى بغداد ، حتى بلغ عددهم فى بعض الأحيان ٧٠٠سبعمائة متفقه ، يدرسون فى تلك الحلقة الفقه والحديث ، فضلاً عن المجالس التى يعقدها فيه العلماء الزائرون(١) .

إن الحقيقة التى لا شك فيها أن المسجد سواء فى الشام أو العراق مركزٌ تعليميٌ يعكس لنا مدى أهميته فى نشر الوعى والتعليم . ولا نستطيع أن نميز إقليما على إقليم من ناحية نشاط المسجد التعليمى خلال القرن الرابع الهجرى ، فإنه بنفس درجة الأهمية التى قام بها علماء الشام هى نفس الدرجة التى قام بها علماء العراق .

منـــازل العلمـــاء :

لقد لعبت منازل العلماء دوراً كبيراً فى نشر العلم وتوسيع التعليم ، وأخبارها فى ذلك كثيرة سواء فى الشام أو فى العراق ، فقد أقيمت فيها حلقات العلم والتعليم ، واستقلت تلاميذ الأمة الإسلامية من جميع الأقطار ، وكانت بمثابة مؤسسات علمية يحج إليها طلاب العلم المتخصصون فى فرع من فروع المعرفة من كل مكان(٢) .

ومن منازل علماء الشام التى أسهمت فى حركة التعليم فى القرن الرابع : منزل القاضى أبى الحسن أحمد بن سليمان الأسدى ت٣٤٧هـ ، وكان يملى فِيه علم الفقه ويدرس مذهب الأوزعى . وكذلك أحمد بن محمد بن على أبو عمر المزَاحِمى الصورى كان له مجلس علم فى منزله وقد حدّث فيه سنة ست وستين وثلاث مئة .

وحدث أحمد بن محمد بن سلامة أبو الحسين السُّتّيتِى الأديب بداره بدمشق(٣) .

ومن منازل علماء العراق التى أسهمت فى حركة التعليم فى القرن الرابع الهجرى

---

(١) تاريخ بغـداد للخطيب البـغـدادى ٣٦٧/٤ ، ٣٩٤٩ ، ٤٦٧/٥ ـ ٤٦٨ ، ٣٨٧/٨ ـ ٣٩٢ ، ٤٦٣/١٠ ـ ٤٦٥ ، ٣٦٨/٤ ـ ٣٧٠ .

(٢) فى التربية الإسلامية للدكتور عبد الغنى عبود ص١١٣ .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩٢/٣، ٢٧٥ ، ٢٦٥ .

وكان لها دور كبير فى نشر العلم وتوسيع التعليم :

كانت دار محمد بن أحمد بن محمد القاضى السِّمْنَانى ت٣٣٤هـ مجمع العلماء وكان ثقة عالمًا سخيًا حسن الكلام . وكان أبو بكر محمد بن عمر الجعابى ت٣٣٥هـ يجلس للإملاء فيزدحم الناس عند منزله ، وكان يسكن بباب البصرة[١] . وكان منزل أبى الحسن بن عقبة الشيبانى تعقد فيه مجالس العلم ، وكان يحدث فيه محمد بن أحمد بن موسى من أهل الكوفة لما قدم بغداد حدّث به من حفظه إملاءً سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة[٢] . كما كان الأشراف والكتّاب وأهل الأدب يحضرون عند محمد بن عبد الواحد غلام ثعلب ليسمعوا منه كتب ثعلب وغيرها[٣] .

نلاحظ أن منازل العلماء سواء فى الشام أو العراق فقد أسهمت بنصيب وافر فى حركة التعليم خلال القرن الرابع الهجرى . على اختلاف أنواعها وتنوع علومها ، وعلمائها .

حوانيت العلماء :

كان بعض العلماء سواء فى الشام أو العراق يعملون فى الأسواق ؛ لكسب معاشهم وكانوا يستقبلون طلابهم فى دكاكينهم ، التى هى أيضًا ملتقى للعلماء ، حيث كانوا يتباحثون فى مختلف المواضيع المتعلقة بالحديث النبوى والشعر وما إلى ذلك ، فقد ظهرت دكاكين بيع الكتب منذ مطلع الدولة العباسية ، ثم انتشرت بسرعة انتشارًا ملحوظًا فى العواصم والبلدان المختلفة بالعالم الإسلامى ، وحفلت كل مدينة بل كل محلة بعدد وافر منها »[٤]. قال أبو الفتح القوّاس : كان أبو عبد الله بن بطة العكبرى ت٣٨٧هـ يخرج إلى دكانى يكتب عنى زهد ابن خبيق[٥]. ففى القرن الرابع عمل طائفة من العلماء بالوراقة ونسخ الكتب ، فقد عمل بالوراقة السّرى الرفاء الشاعر

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢٤٣/١١ ، ٢٧٩ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٥٨/١ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٥٦/٢ .

(٤) History of the Arabic. Hitti, p. 414 .

(٥) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٣٦٢/١٥ .

الأديب الموصلى ت بعد ٣٦٠هـ فى مملكة سيف الدولة الحمدانى حتى وفاة سيف الدولة ثم انتقل إلى بغداد[١] .

وكذلك فى إقليم العراق أيضًا كانت الحوانيت مسرحًا للمناقشات العلمية والأدبية وقد أسهمت فى ازدهار الحركة التعليمية فى القرن الرابع الهجرى ، وكانت قد فتحت فى الأصل للأعمال التجارية ، ثم هى تصير مسرحاً للثقافة والحوار العلمى، عندما أمّها المثقفون والأدباء والعلماء ، واتخذوا منها مكاناً لاجتماعهم ، كما كان يحدث مع أبى الفرج الأصفهانى وأبى نصر الزجاج إذ أنهما كانا يلتقيان فى دكان فى سوق الورّاقين ، ومعهما أبو الحسن على بن يوسف الشاعر ، وأبو الفتح بن الحزاز الوراق ، وكانت تدور بينهم المناقشات الأدبية[٢] .

الصالونات الأدبية :

كان الصالونات الأدبية فى القرن الرابع الهجرى نصيب وافر فى نشر الثقافة الإسلامية وإزكاء الحركة العلمية ، وهى لا تقل أهمية عن المؤسسات التربوية الأخرى، وقد فرضتها ظروف الحياة فى القرن الرابع والتقدم العلمى ، والازدهار الثقافى الذى شهده إقليم الشام وإقليم العراق ، فوقفت جنبًا إلى جنب مع المجالس العلمية المختلفة التى كانت تعقد فى حوانيت العلماء أو الوراقين أو منازل العلماء أو غير ذلك .

وقد اختلفت مجالس الصالونات فى طبيعتها عن المجالس العلمية الأخرى ، فظهرت فيها آثار التقاليد والحضارات الأجنبية ، فكانت المجالس الأخرى تتميز بكل ألوان الحرية والمرونة حيث كان من حق الإنسان أن ينضمّ لأيّة حلقة شاء ، وأن يتلقى العلم على أى شيخ شاء وأراد ، وأن ينتقل بكامل حريته من حلقة إلى حلقة ، وأن يسأل أستاذه وأن يناقشه ، أما مجالس الصالونات فقد كانت فى القصور لذلك تختلف عن ذلك كله فليس لحاضرها أن يذكر شيئًا إلا ما يُسأل عنه ، أو يورد قولاً أو اختياراً أو مطالعة ، إلا ما استأذن فيه ، وسبيله أن يخفض صوته فى حديثه أو محاورته ، ولا

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٥٩/٢ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموى ٥٩/٤ .

يرفعه إلا بقدر السماع الذى لا يحتاج معه إلى استفهامه أو استعادته ، وأن يتجنب إيراد حكاية تكره أو لفظ يسترذل[1] .

ومن أشهر صالونات القرن الرابع الهجرى فى إقليم الشام : صالون سيف الدولة الحمدانى بحلب ، حيث ضم طائفة رائعة من العلماء والأدباء والمفكرين ، الذين عرفوا تشجيعه للعلم والأدب فقصدوه من كل جانب ، وبالغوا فى تحسين بضاعتهم وتجويد فنهم ، وإحسان عرضهم فنالوا منه ما تمنوا ، وكان ذلك نعمة على الفنون والعلوم وثروة بقيت على الزمان[2] . « لقد انتقل تيار الأدب العربى لمدة بضع سنين إلى شمالى سوريا واتخذ مقراً له مدينة حلب عاصمة الدولة الحمدانية ، وقد استطاع سيف الدولة أن يجمع حوله جماعة قلّ أن تضارع ، إذ كانت متعددة النواحى فى العبقرية ، وقد كان كرمه الفائق فى أن ينجذب نحوه ذوو الرياسة من أدباء العصر وعلمائه فأحاطوا اسمه بإطار من السمعة الخالدة[3] .

ومن أشهر صالونات القرن الرابع الهجرى فى إقليم العراق : صالونات الوزير ابن الفرات وقد روى لنا أبو حيان التوحيدى فى كتابه الإمتاع ما كان يحدث فيه من مناظرات بين العلماء كمناظرة أبى سعيد السيرافى ومتى بن يونس القنانى[4] .

وفى القرن الرابع الهجرى ، كان الخلفاء والأمراء والوزراء يعدون أنفسهم حماة للعلم ، ويرون أن قصورهم ، يجب أن تكون مركزاً تشع منه الثقافة والعرفان ، ومثابة يلتقى فيها العلماء والأدباء ، وكان الأمراء يتفاخرون بعظمة الجند وعظمة المبانى ، ولقد ضمت هذه الصالونات طائفة من أكبر مفكرى هذا العصر من فقهاء ومفسرين ومحدثين ونحاة ومتكلمين وفلاسفة وأطباء ومهندسين[5] .

---

(١) التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى للدكتور أحمد شلبى ص٧٨ ، ٧٩ .

(٢) التربية الإسلامية فى القرن الرابع للدكتور حسن عبد العال ص٢٠٢ .

(٣) Arabic Literature. Gibb. H. P. 61 .

(٤) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١/١٠٨ وما بعدها .

(٥) التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للدكتور حسن عبد العال ص١٩٨ .

البيمارستانات :

كانت البيمارستانات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب ، وكان الطلاب يتلقون فيها علوم الطب ، ويتعلمون ما كتبه أساتذتهم الكبار ، وكانوا يستمعون إلى شرح الأساتذة فى حلقات خاصة تعقد فى تلك البيمارستانات(١) ، وبجانب ذلك التمرين والتدريب على الحالات المرضية كدروس علمية ، لأن الطب من العلوم التجريبية(٢) .

ومن أهم البيمارستانات فى الشام : البيمارستان الذى كان موجوداً فى القدس حيث أقيم فيه دار للعلم الطبى(٣) . والبيمارستان الذى كان موجوداً بدمشق ، وكان به أربعة وعشرون طبيباً ، وكانت من أهم الأماكن التى يدرس فيها الطب(٤) .

ومن أهم البيمارستانات فى العراق : البيمارستان المقتدرى ، وقد عمل به يوسف الواسطى الطبيب ، وكان ملازما له ، وقرأ عليه جبرائيل بن بختيشوع ، وعمل فيه أيضًا جبرائيل بن عبيد الله ، ولازم البيمارستان والعلم والدرس . وكذلك البيمارستان العضدى ببغداد ، حيث رُتِّب فيه الأطباء وجُمعوا من كل موضع وكان يحوى الأطباء الخواص والكحالين والجراحين والمجبرين(٥) .

وكانت هذه البيمارستانات الكبيرة مكانًا لتلقى علم الطب ، ويستمع فيها الطلاب إلى شرح أساتذتهم فى حلقات خاصة ، تعقد فى البيمارستان . لأن عضد الدولة كان أمله أن يدرس الطب فى البيمارستان العضدى ببغداد(٦) .

لقد كان لأحمد بن أبى الأشعث بالموصل مجلس علم فى الطب ، حيث أملى كتابه فى «السرسام والبرسام» ومداواتهما على تلميذه محمد بن ثواب الموصلى ، أملاه عليه إملاءً من لفظه ، وكتبه عنه بخطه ، وذكر تاريخ الإملاء والكتابة فى رجب

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب لزيغرد هونكه ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقى ص٢٣٠ ـ ٢٣١ .

(٢) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان ص٧٢ .

(٣) اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى لشمس الدين السيوطى ١٩٦/٢ ـ ١٩٧ .

(٤) قصة الحضارة لـ : ول ديورانت ترجمة محمد بدران ١٩٠/١٣ .

(٥) تاريخ البيمارستانات للدكتور أحمد عيسى ص١٨٤ وما بعدها .

(٦) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٣٤٤/٢ .

سنة خمس وخمسين وثلاث مائة[1] .

كما كانت تعقد مجالس المذاكرة فى علم الطب بين فريق من الأطباء حول علة من العلل ويتناقشون فى المرض وعلته وكيفية علاجه حتى يتوصلوا إلى حل[2] .

دور الكتب ودور العلم :

كان لدور الكتب ودور العلم أثر كبير فى انتشار العلم ، ونمو حركة التعليم فى كل من الشام والعراق ، خلال القرن الرابع الهجرى ، فقد انتشرت المكتبات انتشارا يدعو إلى الإعجاب ، فكان فى كل جامع كبير مكتبة ، إذ كان من عادة العلماء أن يُوقِفوا كتبهم على الجوامع ، وكان الملوك يفاخرون بجمع الكتب ، وكان لهم وَلَعٌ شديد بها[3] .

ومن أشِهر دور الكتب التى تحوى بين جنباتها أعداداً كبيرة من الكتب دار أبى بكر الجعابى ، إذ دخل الرّقة وكان ثمّ قمطران كتباً[4] . أما دار الحكمة فلم تعدها فى القرن الرابع فى بلاد الشام ، بل إنها ظهرت خلال القرن الخامس الهجرى ، أنشأها بنو عمار بطرابلس[5] . كما كان لسيف الدولة دار كتب كبيرة ، يقوم بالإشراف عليها وإدارتها الشاعران الخالديان المشهوران[6] .

ومن أشهر دور الكتب فى العراق : خزانة دار الحكمة ببغداد وكانت أعظم خزائن الكتب فى الإسلام ، وقد حوت من الأسفار العتيقة كل جليل ونفيس ، ولم تكن كتبها إلا نتاج ثقافات شرقية وعربية ، مختلفة العربية والفارسية والسريانية واليونانية وغيرها[7] . ودار كتب ابن سوار بالبصرة ، حيث فيها معلم مقيم بصفة مستمرة ،

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٣٤٤/٢ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص٧٨ .

(٣) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ٣٠٤/١ .

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٢٩/٢٣ ، وقمطران : المفرد قمطر : وهو ما يصان فيه الكتب .

(٥) خطط الشام لمحمد كرد على ١٨٥/٦ .

(٦) ظهر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ٢٢٠/٢ .

(٧) خزائن الكتب القديمة فى العراق للأستاذ كوركيس عواد ص١٠٥

يدرس عليه التلاميذ علم الكلام[١] « وقد كان الهدف من إنشائها أول الأمر ، الاضطلاع بحركة الترجمة الضخمة ، التي نشطت في هذا العصر ثم اتسعت رسالتها بعد ذلك فصارت تشمل التعليم العالى أيضاً إلى جانب المسجد ولذلك اعتبرها «هانز» أول جامعة إسلامية »[٢].

ومن أشهر دور العلم أيضاً ، دار علم أبى القاسم جعفر بن حمدان الموصلي ت٣٢٣هـ وقد أسسها في بلده ، وجعل فيها خزائن كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب علم ، لا يمنع أحداً من دخولها ، وكان ينفق على الغريب المعسر ، وكان يجلس فيها ويجتمع إليه الناس ، فيملي عليهم من شعره وشعر غيره[٣]. ودار علم الشريف الرضى أنشأها ببغداد ، وكان موضعها لدراسة الطلاب وسكناها ، في الوقت نفسه فتح أبوابها لطلبة العلم وعين لهم جميعا ما يحتاجون إليه من الكتب ومن كل شئ[٤].

المكتبة الخاصة :

ومن أشهر المكتبات الخاصة في الشام مكتبة محمد بن حبان التميمي ت٣٥٤هـ حيث كان له خزانة كتب كبيرة[٥]. ومكتبة أبي بكر بن الجعابى[٦].

ومن مكتبات العراق أيضاً : مكتبة أبى العباس أحمد بن محمد بن سعيد الكوفى المعروف بابن عقدة ت٣٣٢هـ[٧] وكان للقاضى أبى عمر محمد بن يوسف خزائن مملوءة كتباً[٨]. وكان لأبي بكر الصولي بيت مملوء بالكتب ، وهي مصفوفة وجلودها مختلفة الألوان ، كل صنف من الكتب لون ، فصنف أحمر ، وآخر أخضر ، وآخر أصفر ، وغير ذلك[٩]. وكذلك مكتبة ابن الفرات ت٣٨٤هـ الخاصة فقد خلف ثمانية عشر صندوقاً مملوءة كتباً أكثرها بخطه[١٠].

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص٣١٦ .

(٢) Comparative Education, Astudy of Educational Foctors and Traditions > Rout-ledgo and Kegan Paul Linited London 1958. Hans Nicholas, P. 101 .

(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ٢٤٨/١ .

(٤) التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للدكتور حسن عبد العال ص٢٠٨ .

(٥) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٨٠/٢٢ .

(٦) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٢٩/٢٣ .

(٧) شذرات الذهب لابن العماد ٣٣٢/٢ .

(٨) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٣١/٣ .

(٩) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٣١/٣ .

(١٠) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص١٦٧

تعقيـــب :

عند وصف أماكن التعليم كما سبق فى كل من الشام والعراق ، نلاحظ أن الأماكن واحدة لا خلاف بينهما ، فالكتّاب كمكان للتعليم فى الشام ، هو نفسه الكُتّاب الذى فى العراق ، المكان الذى يتعلم فيه الأطفال ، وانتشار التعليم عن طريق الكتاتيب ، وانتشارها ليس فى الشام وحده بل وفى العراق أيضًا . سواء كان هذا الكُتّاب فى منزلِ الشيخ أو المسجد أو غير ذلك . وهو عند كل منهما حجرة تعليمية ينهض بها معَلم ومعه مساعديه من الصبيان ، وأدوات الدراسة فيه فى الشام ، هى نفسها فى العراق ، مصحف وألواح ومجموعة من الدوى والأقلام .

أما المسجد : فكان له دور بارز فى التعليم ، ويتساوى فى ذلك إقليم الشام وإقليم العراق ، فكان عند كل منهما بيت الجماعة ومقر الحكمة ودار الضيافة ومدرسة للتعليم ومكان للعبادة ، ولم يقتصر مساجد قُطرٍ عن قُطْر فى نشر العلم أو أنواع معينة منه ، بل يتفقان فى أن مساجدهما يتم فيه نشر العلم الدينى وغير الدينى ، وليس فيه قيود معينة على الطالب من حيث إجباره على سماع شيخ بعينه ، ولا على الشيخ فى أن يُدرّس علمًا معينًا أو بمنهج ثابت . وإن المساجد فى كل منهما لصاحبة شهرة كبيرة فى رحلة العلماء إليها من الشرق والغرب كما سبق أن بيّنا[١] . لقد كان المسجد فى الشام والعراق مركزاً علمياً يعكس لنا مدى أهميته فى نشر الوعى والتعليم والتعلم.

وأما منازل العلماء : فلقد لعبت دوراً كبيراً فى نشر العلم ويتساوى فى ذلك منازل علماء الشام ومنازل علماء العراق ، فقد أقيمت فى منازل كل منهما حلقات العلم التى كانت بمثابة مؤسسات علمية يحج إليها طلاب العلم .

وأما حوانيت العلماء والوراقين ، فكانت موضع تباحث فى مختلف المواضيع المتعلقة بالحديث والشعر وغيرهما ، سواء فى الشام أو فى العراق فكانت مسرحًا للمناقشات العلمية والأدبية ، وأسهمت فى ازدهار الحركة التعليمية خلال القرن الرابع الهجرى .

---

(١) انظر فيما سبق مبحث أماكن التعليم ـ المسجد .

وأما الصالونات الأدبية سواء فى الشام أو فى العراق فإنها قد ساهمت بنصيب وافر فى نشر الثقافة وإزكاء الحركة العلمية وكل من صالونات أهل الشام وصالونات أهل العراق ، تلتزم بالتزامات تميزها عن باقى أماكن التعليم الأخرى ، فالحاضر فيها لا يتكلم إلا بما يسأل عنه ، أو يستأذن قبل الحديث ، وأن يخفض صوته ولا يرفعه فى حديثه إلا بقدر السماع ، وأن يتجنب حكاية تكره ، أو لفظ يسترذل ، وقد اشتهرت الصالونات الأدبية فى قصور الخلفاء والأمراء فى الشام والعراق ، فما أشهر صالون سيف الدولة الحمدانى بحلب ، وما أشهر صالون الوزير ابن الفرات وغيرهما كثير . لقد حوت تلك الصالونات سواء فى الشام أو العراق العلماء والأدباء والفقهاء والمفسرين والمحدثين والنحاة والمتكلمين والفلاسفة والأطباء والمهندسين .

وأما دور الكتب : فدورها بارز وأثرها كبير فى انتشار العلم ونمو حركة التعليم سواء فى الشام أو فى العراق ، فقد انتشرت فى كل جامع كبير وأصبحت تضم عدداً كبيراً من الكتب ، واشتهرت وتعددت سواء فى الشام أو في العراق سواء المكتبات العامة أو الخاصة . غير أن العراق قد تميزت عن الشام فى أن وجدت فيها دار الحكمة ببغداد وبها خزائن كتب كبيرة ، أما دار الحكمة بالشام فقد وجدت فى القرن الخامس الهجرى .

وإذا كانت المكتبات العامة والخاصة بالعراق كثيرة ، فلم يكن معناه أن العراق تحتكر وجود المكتبات فى العالم الإسلامى ، بل وجدت فى المدن الأخرى ، خاصة الشامية مثل حلب ودمشق وبها مكتبات كبيرة وكثيرة[1] .

أما البيمارستانات كمدارس عالية للطب ، فقد يتفق أهل الشام وأهل العراق فى أن جعلوا منها مدارس للطب ، يتلقى فيها الطلاب علوم الطب فى حلقات خاصة تعقد بها ، والتمرين والتدريب على الحالات المرضية كدروس علمية .

وقد اشتهرت بيمارستانات فى الشام وفى العراق ، ضمت مجالس علم طبية فى مذاكرة علم الطب بين الأطباء .

---

(١) تاريخ الكتاب القسم الأول للدكتور الكسندر ستيبتشفتش ص٢٤١ ترجمة الدكتور محمد الأرناؤوط.

طرق التعليم عند أهل الشام والعراق :

تعددت طرق التعليم وتنوعت فى القرن الرابع الهجرى ، بتعدد العلوم ومعاهد العلم ، كما اختلفت من مرحلة إلى أخرى سواء فى المرحلة الأولى أو المرحلة العالية ، وقد نتناول الشام والعراق فى حديث واحد من حيث بيان طرق التعليم فى كل منهما .

طرق التعليم فى المرحلة الأولى :

سادت طريقة التلقين فى هذه المرحلة ، فهى التى تتناسب مع منهج التعليم الذى تتسم به هذه المرحلة ، حيث كان يدور حول حفظ القرآن الكريم ، وقد اعتمد ذلك الحفظ على التلقين ، فطلاب أو صبيان هذه المرحلة يقومون بتقليد معلميهم والحفظ عنهم ، وكان التلميذ يتدرج من الحفظ عن طريق التلقين والتمرار إلى تعلم الكتابة فى اللوح ، وأيضًا تعلم الحساب والفرائض[1]، وكانوا قبل تعلم القراءة فى الكُتّاب يحفظون من القرآن سوراً قصيرة بطريقة التلقين والتكرار[2]، وكان الصبىّ الممتاز ، هو الذى يجيد ما لُقن كلمة كلمة ، وكان المجتمع فى القرن الرابع الهجرى سواء فى الشام أو العراق حريصًا على أن يحفظ أبناؤه القرآن حفظًا من أوله إلى آخره[3]. وبعضهم لم يتجاوز سنّ العاشرة من عمره ، كأبى محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم ت٣٢٧هـ حيث يقول : لم يدعنى أبى اشتغل بالحديث حتى قرأت القرآن على الفضل بن شاذان[4].

وقد أدخل الخليفة المقتدر أولاده فى سنة ٣٠٢هـ الكُتّاب ، وكان يومًا مشهوداً[5].

---

(١) Materials of Muslim Education in the Middle Ages. Tritton, A. S. P. 51. London Luzac 1957 .

(٢) Muslim Education in Mecieval times the Middle East Institute Washington, D.C. 1962, PP. 3 - 5 Dodge Ragard .

(٣) التربية فى الإسلام للدكتور أحمد الأهوانى ص٨٤ ـ ٨٥ .

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٠/١٥ .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٠/١١ .

وأحياناً يأتى الآباء لأبنائهم بمؤدبين لهم فى المنازل كأحمد بن سعيد الدمشقى الذى كان مؤدباً لعبد الله بن المعتز[١]، وكان أبو عمر البغوى غلام ثعلب يؤدب ولد القاضى أبى عمر محمد بن يوسف ، وكان محمد بن القاسم الأنبارى مؤدبا لأولاد الراضى[٢] .

طرق التعليم فى المرحلة العالية :

لقد عُرفت عدة طرق للتعليم خلال تلك المرحلة العالية منها : طريقة السماع وطريقة العرض ، **فالسماع** بأن يقرأ الأستاذ من كتابه أو من ذاكرته ما يريد روايته لطلبته ، وهو أعلى طرق التعليم ، ولكن الطلاب لم يكن مسموحًا لهم بالكتابة أثناء تلك القراءة ، مما اضطر الأساتذة إلى عقد مجالس الإملاء ، وقد يكون التلقى بأن يقرأ الطالب من كتاب أستاذه ، أو من نسخته هو ، أو من ذاكرته بحضور أستاذه ، وهذا يسمى **العرض** .

ومن تعلم بطريقتى السماع والعرض من أهل الشام كثير ، منهم : أحمد بن الحسين بن على الرازى ت٣٧٥هـ فقد سمع من علماء دمشق عندما قدم إليها سنة ٣٤٩هـ، وكذلك أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الرقى سمع بدمشق وحمص جماعة من علمائها ، وكان أحمد بن عطاء بن أحمد الروذبارى يسكن مدينة صور وكان يحدث تلامذته إملاءً بها وقد توفى بها سنة ٣٦٩هـ[٣] .

ومن تعلم من أهل العراق على طريقتى السماع والعرض كثير أيضًا ، منهم : أن كثيراً من الناس رووا القراءة عن أبى بكر النقاش عرضًا ، وأخذها محمد بن الحسن ابن يعقوب بن مقسم البغدادى عرضًا عن إدديس الحداد وغيره ، وروى ابن مجاهد الحروف سماعاً عن إسحاق بن أحمد الخزاعي ، وكان فى حلقته خمسة عشر رجلاً يتلقنون قراءة عاصم[٤] . ومن علماء الشام من أخذ العلم عن شيوخه عرضا وسماعًا

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٨٧/٣ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٥٨/٢ ، ١٨٤/٣ .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٥٤/٣ ، ١٥٤ ، ١٦٨ .

(٤) طبقات القراء للذهبى ٢٧١/١ .

وتعلم بالطريقتين كإبراهيم بن عبد الرزاق الأنطاكي ، فقد أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن طائفة كبار ، وكذلك محمد بن الحسن بن على الأنطاكى أخذ القراءة عرضًا وسماعًا عن إبراهيم بن عبد الرازق ، وسمع عبيد الله بن مسلمة من أبى طاهر الأنطاكى كتابه « القراءات الثمانية »[١].

طريقة الإملاء : أعدّ أغلب العلماء طريقة الإملاء فى التعليم من أعظم الطرق حتى لمن يأخذون بالسماع سواء من حفظ الشيخ أو من كتاب بين يديه ، وكانت مجالس الإملاء تعقد فى الغالب الأعم يوم الجمعة ، سواء فى الشام أو فى العراق ، وعندما تكون المجالس كبيرة يستعان بالمستملين ، ومهمتهم إعادة ما يلقيه الأستاذ ليسمعه البعيدون عنه ، وقد يتعدد المستملون حسب كثرة عدد الحاضرين ، وقد كانت بعض حلقات الفقهاء فى ذلك العصر « يتراوح عدد طلابها بين ثلثمائة وسبعمائة»[٢] مثل مجلس أبى عبد الله أحمد بن عطاء الروذبارى الذى كان يُحدّث فيه إملاءً بمدينة صور[٣]. ومجلس أبى سليمان الربعى الدمشقى المتوفى سنة ٣٧٩هـ الذى كان يمليه فى جامع دمشق[٤]. وكمجلس أحمد بن سليمان الأسدى ت٣٥٧هـ الذى كان يمليه فى داره فى الجمعة ، يملى فيه الفقه على مذهب الأوزعى[٥]. وكان لأبى عبد الله بن خالويه مجلس علم يملى فيه ، ومجلس علم يناظر فيه المتنبى[٦]. ولأبى على الفارسى بحلب مجلس علم كان يملى فيه المسائل النحوية[٧].

وكان بالعراق أيضًا مجالس علم متعددة يملى فيها أصحابها على تلاميذهم مثل:

---

(١) طبقات القراء للذهبى ٢٨٧/١ ، ٣٤٥ .

(٢) Materials of Muslim Education in the Middle Ages. Tritton, A. S. London Luzac 1957. P. 32 .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٦٨/٣ .

(٤) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٩٦ .

(٥) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور٩٢/٣ .

(٦) معجم الأدباء لياقوت الحموى ٩٩/٣ .

(٧) إنباه الرواة للقفطى ٣٠٩/١ .

مجلس محمد بن القاسم الأنباري ، وكان من أعلم الناس بالنحو والأدب وكان يعقده في يوم الجمعة ، ويحضره الدارقطني ، وكان به مستملون يبلغون عن الأستاذ ما يقوله ، وكان لمحمد بن يحيى أبو جعفر الطائي ت٣٤٠هـ مجلس إملاء في جامع المدينة ، وكذلك محمد بن أحمد بن المطلب الهاشمي كان له مجلس إملاء في جامع المدينة في سنة ٣٥٧هـ، وكان لمحمد بن أحمد الدردائي ت٣٣٨هـ مجلس إملاء من حفظه في منزل أبي الحسن بن عقبة الشيباني ٣٣٣هـ(١) .

طريقة الإجازة : وهي السماح بنقل العلم إلى الآخرين ، وذلك أن يُعطى الشيخ كتبه أو بعضها لتلميذه ، أو لأحد العلماء مؤكدا لهم بأنها بخط يده ، ويخبرهم باسم الشيخ الذى أخذ ما فيها عنه ، وشكل إجازته له بها ، ويجيزهم بإعطائها للآخرين وذلك على مستوى الشام والعراق ، فقد أجاز أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن خالويه ت٣٧٠هـ لأحمد بن الصقر بن أحمد بن ثابت المتوفى قبل ٣٦٠هـ «القراءات»(٢) . وحدّث أبو على محمد بن القاسم بن معروف التميمي الدمشقي ت٣٤٨ه(عن أبي بكر أحمد بن على المروزيّ بأكثر كتبه ، أكثرها إجازة(٣) .

ومن علماء العراق محمد بن فارس بن الغورى ، حيث أجاز لمحمد بن مخلد أن يروى عنه ، وقد كان ابن فارس يملى في جامع المهدى ، وقال أبو الحسن بن سفيان الحافظ : في سنة ٣٣٢هـ مات أبو العباس أحمد بن عقدة ، وكان قد قال لنا قديماً، وكتب لى إجازة(٤) . وقد أجاز رئيس الأطباء في القرن الرابع الهجرى وهو سنان بن ثابت لكل من يرغب في أن يعمل بمهنة الطب بعد اجتياز امتحان يعقد له في علم الطب(٥) .

طريقة المناظرة : وقد أعدها المسلمون طريقة من طرق التعلم ، لما لها من أثر في

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٨٢/٣ ، ١٨٣ ، ٤٣٢ ، ٣٦٣/١ ، ٣٥٨ .
(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم تحقيق الدكتور سهيل زكار ٨٠١/٢ .
(٣) العبر للذهبى ٧٨/٢ .
(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٦٢/٣ ، ٢٢/٥ .
(٥) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٢٠٤/٢ .

تقوية الحجة ، والتمرن على سرعة التعبير ، والتعوّد على الثقة بالنفس ، والقدرة على الارتجال ، وكان العلماء يشجعون طلبتهم على المنافسة والمناظرة ، ويوجبون عليهم التمرن على المناظرات ، وكان الطالب يخالف أستاذه ، فى الرأى أحياناً مع مراعاة التأدب والاحترام[1]. وذلك على مستوى الشام والعراق ، فقد قامت المناظرات بين الحسين بن خالويه وبين أحمد بن الحسين المتنبى ت٣٥٤هـ ، والمناظرة التى حدثت بين ابن بطلان المختار بن الحسن بن عبدون الطبيب وبين الحكيم أبى الخير بن شرار وذلك فى مدينة حلب ، ويحضرها عدد كبير من طلاب العلم وغيرهم[2].

ومن المناظرات التى كانت تتم فى العراق خلال القرن الرابع الهجرى المناظرة التى حدثت بين متى بن يونس النصرانى المنطقى نزيل بغداد ، وبين أبى سعيد السيرافى النحوى فى مجلس عام يحضره الفضل بن الفرات[3]. والمناظرة التى حدثت بين الوزير محمد بن على بن مقلة ، وبين محمد بن أحمد بن شنبوذ ، وقد حضرها القضاة والفقهاء والقراء[4]. والتى حدثت بين أبى الحسن الأشعرى وأستاذه أبى على الجبانى. والتى حدثت أيضاً بين أبى بكر الباقلانى وبين أبى سعيد الهارونى[5]. وما حدث بين أبى بكر الباقلانى وبين عضد الدولة[6].

الرحلة فى طلب العلم : تعدّ من أهم طرق التعليم ، وقد أمدتنا المصادر بمئات من الرحلات ، قام بها طلاب العلم الشاميين والعراقيين خلال القرن الرابع الهجرى . لقد ارتحلوا وطوّفوا فى أرجاء الدولة الإسلامية ليأخذوا العلم على رجاله ومشايخه ، وهى مفيدة غاية الفائدة ، وعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها[7]. «وكان جلة الباحثين وطلاب العلم يرحلون فى حماسة ظاهرة ، ثم يعودون إلى

---

(١) التربية الإسلامية وفلاسفتها لمحمد عطية الإبراشى ص٢٠٩ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٩٩/٣ ، وأخبار الحكماء ص٢٠٧ .

(٣) أخبار الحكماء للقفطى ص٢١٢ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٨٠/١ .

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٦٧/٤ ، ٢٦٩ .

(٦) مجلة منار الإسلام العدد (٦) السنة ٢١ ص٩٣ تصدرها دولة الإمارات .

(٧) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ١٢٥٥/٣ .

بلادهم كما يعود النحل محملاً بالعسل الشهى ، ثم يجلس هؤلاء الباحثون فى بلادهم ليرووا شغف الجماهير التى كانت تنتظر عودتهم ليلتفوا حولهم ، فينالوا من علومهم ومعارفهم زاداً وخيراً عميقاً »[1]. وكانت قيمة الطالب تقدر آنذاك بما قام به من رحلات وبما قام به من لقاء الشيوخ والعلماء ، فلا نزال نقرأ فى تراجم علماء الشام وعلماء العراق خلال القرن الرابع الهجرى أمثال هذه العبارات : « طوف بالبلاد، رحل فى طلب العلم ، طاف الدنيا شرقًا وغربًا ، لقد أدت الرحلات إلى سرعة انتقال العلم والمؤلفات العلمية فى أرجاء المملكة الإسلامية[2]. فمن الذين ارتحلوا بغرض التعليم وتحصيل العلم من أهل الشام : أبو الحسن أحمد بن عمير بن يوسف بن موسى بن جوصا الدمشقى ت٣٢٠هـ فقد رحل وصنف وذاكر ، وكذلك هيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابلسى ت٣٤٣هـ فهو أحد الثقات المكثرين الرحالين فقد سمع بالشام واليمن وبغداد والكوفة وواسط[3]. وأبو القاسم سليمان بن أحمدبن أيوب ابن مطر الطبرانى ت٣٦٠هـ أقام فى الرحلة ثلاثًا وثلاثين سنة ، وبلغ عدد الشيوخ الذين سمع منهم ألف شيخ ، وقد رحل إلى الحجاز واليمن ومصر وبغداد والكوفة والبصرة وأصفهان والجزيرة[4]. وأبو الحسين محمد بن أحمد بن محمد بن جميع الصيداوى ت٤٠٢هـ كان واسع الرحلة كثير السماع رحل وكتب الكثير[5]. وقد ارتحل أيضًا الشاعر الشامى كشاجم بين القدس ودمشق وحلب وبغداد ومصر واستقر فى حلب[6].

ومن الذين ارتحلوا بغرض التعليم وتحصيل العلم من أهل العراق أبو بكر النقاش محمد بن الحسن البغدادى ت٣٥١هـ فقد سمع عن خلق من المشايخ فى بلدان

---

(١) A Literary of the Arabs. Nicholson , P. 281 , Cambridge 1910 .
(٢) التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للدكتور حسن عبد العال ص١٥٦ .
(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٩٨/٣ ، ٩٩/٨ .
(٤) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٧٣ .
(٥) العبر للذهبى ٢٠٢/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٦٤/٣ .
(٦) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٨٠٤/٣ .

شتى[1] . وأبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد البغدادى ت٣١٨هـ رحل فى طلب العلم إلى الشام والعراق ومصر والحجاز[2] . ومحمد بن على بن الحسين العلوى ت٣٩٥هـ سافر فى طلب العلم إلى الشام ومكة وبغداد وهمذان ونهاوند والرملة ونيسابور وخراسان ومحمد بن الحسن بن محمد بن زياد النقاش سافر الكثير شرقًا وغربًا وكتب فى رحلته بالكوفة والبصرة ومكة ومصر والشام والجزيرة والموصل والجبال وأنطاكية والرملة وطبرية[3] .

تعقيب :

مما سبق يتبين لنا مدى الاتفاق الواقع بين أهل الشام وأهل العراق فى طرق التعليم خلال القرن الرابع الهجرى سواء فى المرحلة الأولى أو المرحلة العالية . فقد ساد فى كل منهما طريقة التلقين خلال المرحلة الأولى ، واهتم كل منهما بتحفيظ القرآن لصبيانهم وكانوا حريصين على أن يحفظ أبناؤهم القرآن من أوله إلى آخره . سواء فى الكُتَّاب أو باستخدام معلمين خصوصيين أو مؤدبين لهم فى المنازل .

وقد اتفق كل منهما أيضًا فى طرق التعليم بالمرحلة العالية ، فنفس الطرق المستخدمة فى التعليم بإقليم الشام ، هى نفسها المستخدمة بإقليم العراق ، فقد استخدم كل منهما طريقة السماع وطريقة العرض ، وتعلم كثير من أهل الشام وأهل العراق بهما ، واستخدموا طريقة الإملاء أيضًا وكثرت عندهما المجالس وكثر بها المستملون ، وحددت لها أيام معينة كالجمعة فى الغالب الأعم سواء فى المساجد الكبيرة أو فى منازل العلماء .

واتفقوا أيضًا فى طريقة الإجازة كطريقة من طرق التعلم وطريقة المناظرة وتعدد المناظرات فى كل من الشام والعراق ، وكذلك الرحلة فى طلب العلم فقد تعددت الرحلات العلمية وكثرت وكثر معها عدد الشيوخ عند أهل الشام وأهل العراق ، فكان كل منهما على نمط واحد وطريقة واحدة كأنهما أقليم واحد .

---

(١) طبقات القراء للذهبى ٢٩٤/١ ـ ٢٩٥ .

(٢) العبر للذهبى ٤٧٨/١ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٩٠/٣ ، ٢٠١/٢ ـ ٢٠٢ .

طريقة تعليم القراءات كمثال لطرق التعليم :

أولاً : الشام :

إن المعوّل عليه فى القرآن الكريم إنما هو التلقى والأخذ ثقة عن ثقة وإمامًا عن إمام إلى النبىّ ﷺ ، لقوله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[(١)].

فحفظ القرآن فرض كفاية على الأمة ، وكذلك تعليمه فرض كفاية ، وأوجه التحمل عند أهل القراءات السماع والعرض ، السماع من لفظ الشيخ والقراءة عليه والسماع عليه بقراءة غيره ، فتارة يكون بالسماع وتارة يكون بالعرض على الشيخ ، فالقراءة على الشيخ هى المستعملة سلفًا وخلفًا ، فقد عرض النبى ﷺ القراءة على جبريل عليه السلام فى رمضان كل عام[(٢)].

وتذكر لنا المصادر التى ترجمت للقراء ، أنهم درسوا ودرّسوا علم القراءات عن طريق التلقى بلفظ العرض أو السماع أو هما معًا ، فإبراهيم بن عبد الرازق الأنطاكى المقرئ ت٣٣٩هـ أخذ القراءة عرضًا وسماعًا عن طائفة كبار ، فقرأ على هارون بن موسى الأخفش وقنبل وغيرهم ، وروى عنه القراءة عرضاً محمد بن الحسن بن علىّ ، وعلىّ بن محمد بن بشر الأنطاكى وعبد المنعم بن غلبون ، وقد روى القراءة عرضًا أحمد بن عبد العزيز بن بدهن ، وأحمد بن نصر الشذائى عن محمد بن النضر بن الأخرم الدمشقى ت٣٤١هـ، وكذلك موسى بن عبد الرحمن البيروتى الصباغ قرأ القرآن على هارون بن موسى الأخفش ، وسمع من أبى زرعة الدمشقى . ومحمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى نزيل عسقلان ت٣٧٧هـ ، أخذ القراءة عرضاً عن أبى بكر بن مجاهد وأبى بكر بن الأنبارى وجماعة ، وقرأ عليه الحسن بن ملاعب الحلبى، وأخذ القراءة عرضًا وسماعاً محمد بن الحسن بن على أبو طاهر الأنطاكى عن إبراهيم ابن عبد الرازق وروى القراءة عبد المنعم بن غلبون عن محمد بن الحسن الأنطاكى وعرض عليه وسمع منه عبيد الله بن مسلمة كتابه فى « القراءات الثمانية »[(٣)].

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى ٤٠٥/١ ـ ٤٠٦ ، والحديث أخرجه البخارى فى كتاب (٦٦) باب (٢١).

(٢) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١٣٠/١ ـ ١٣١ .

(٣) طبقات القراء للذهبى ٢٨٧/١ ، ٢٩١ .

وكانت وسيلة التعليم لذلك هى مجالس العلم ، وهذه المجالس لم يكن لها مكان محدد ، بل من الممكن أن تكون فى المسجد أو دار العلم أو أماكن وُهِبَت للعلم والعلماء ، فكانت هذه المجالس أو الحلقات تعقد للتدريس ، والمصادر التى ترجمت للقراء غنية بذكر مجالس العلم فى إقليم الشام على النحو التالى : فقد كان لمحمد بن النضر الربعى بن الأخرم الدمشقى مجلس علم ، وقد انتهت إليه رئاسة الإقراء بالشام ، وكان له حلقة عظيمة وتلامذة جلة ، ويقول ابن الأخرم : قرأت على الأخفش وكان يأخذ عَلَىَّ فى منزلى»[1]. وكان عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون الحلبى المقرئ ، له مجلس علم ، يحضره عن إعجاب الوزير جعفر بن الفضل[2]. ولما قدم ابن الأخرم بغداد حضر مجلس ابن مجاهد ، فقال لأصحابه : هذا صاحب الأخفش الدمشقى فاقرءوا عليه[3]. وقد كان لابن الأخرم حلقة علم عظيمة بجامع دمشق لاتقانه ومعرفته[4].

ثانيًا : العـراق :

لا خلاف فى أسلوب التلقى عند علماء الشام أو علماء العراق ، فقد تم تدريس القراءات عن طريق التلقى بلفظى العرض أو السماع أو هما معًا ، وذلك واضح من خلال المصادر التى ترجمت للقراء فى إقليم العراق ، فقد قرأ محمد بن جرير الطبرى القرآن على سليمان بن عبد الرحمن الطّلحى ، وسمع حرف نافع من يونس بن عبد الأعلى ، وقرأ القرآن ببيروت على العباس بن الوليد بن مزيد . وقرأ إبراهيم بن محمد بن عرفة الواسطى ت٣٢٣هـ على محمد بن عمرو بن عون بواسط وغيره ، وأخذ الحروف عن شعيب بن أيوب ، وقرأ عليه على بن سعيد القزاز . وسمع موسى ابن عبد الله الخاقانى ت٣٢٥هـ من عباس الدّورى، وجوّد القرآن على الحسن بن عبدالوهاب، وبرع فى قراءة الكسائى وأقرأ الناس . وروى القراءة عرضاً خلق لا يحصى

---

(١) طبقات القراء للذهبى ٢٩١/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٦١/٢ .

(٢) طبقات القراء للذهبى ٣٥٦/١ .

(٣) طبقات المفسرين للداودى ٢٦٥/٢ ، وطبقات القراء للذهبى ٢٩١/١ .

(٤) شذرات الذهب لابن العماد ٣٦١/٢ .

عددهم عن محمد بن الحسن النقاش البغدادى ت٣٥١هـ ، وأخذ محمد بن الحسن القراءة عرضاً عن إدريس الحداد وغيره ، وأخذ عبد الواحد بن عمر البغدادى ٣٤٩هـ القراءات سماعًا عن محمد بن خلف ، وقرأ عمر بن إبراهيم بن أحمد أبو حفص البغدادى ت٣٩٠هـ القرآن على ابن مجاهد وسمع منه كتاب « السبعة » وروى ابن مجاهد الحروف سماعاً عن إسحاق بن أحمد الخزاعى ، وكان فى حلقته خمسة عشر رجلاً يتلقنون قراءة عاصم (١) .

وقد أمدتنا المصادر التى ترجمت للقراء بمجالس كثيرة أسفرت عن مدى انتشار هذه المجالس وطريقة التعلم فى القرن الرابع الهجرى . منها : مجلس علم لأحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد ت٣٢٣هـ، فقد كانت له حلقة علم عظيمة تصدرها للإقراء ، وكان له فى حلقته أربعة وثمانون خليفة ، يأخذون على الناس ، وكان فى حلقته خمسة عشر رجلا ، أضراء يتلقنون لعاصم . وكان لأحمد بن محمد بن إسماعيل المقرئ ت٣٢٧هـ مجلس علم كان يعقده فى جامع المدينة ، وكان للوزير أبى على بن مقلة وزير الراضى مجلس مناظرات أحضر فيه ابن شنبوذ صاحب القراءة الشاذة وجرت معه مناظرات فى حروف ، حُكِىَ عنه أنه يقرأ بها ، وهى شواذ . وكان لمحمد بن القاسم أبو بكر بن الأنبارى المقرئ البغدادى ت٣٢٨هـ مجلس علم وكان يعقده يوم الجمعة . وكان لعبد الواحد بن عمر البغدادى ت٣٤٩هـ مجلس علم تصدر فيه القراء بعد موت ابن مجاهد ، وقصده الناس وتحلقوا عنده . وكان لإبراهيم بن أحمد الطبرى البغدادى ت٣٩٣هـ دار فوهبها للقرآن وأهل القرآن يقرؤون فيها ويدرسون ، وكانت مجمع أهل القرآن والحديث ، وكان لعبيد الله بن محمد البغدادى ت٤٠٦هـ مجلس علم بالمسجد يدرِّس فيه فإذا ما دخل عليه أبو حامد الأسفرائينى قام عبيد الله من مجلسه ومشى إلى باب المسجد يستقبله(٢) .

---

(١) طبقات القراء للذهبى ٢٦٥/١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٥٦ ، ٣٧١ ، وانظر غاية النهاية لابن الجزرى ١٤٠/١ .

(٢) طبقات القراء للذهبى ٢٧٠/١ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٣١٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ .

تعقيب :

اتفق أهل العلم كلهم ـ وليس علماء الشام والعراق وحدهم ـ على أن علم القراءات هو علم تلقى ، ويؤخذ من ثقة عن ثقة ، إما بلفظ العرض أو السماع أو هما معاً .

فكثير من علماء الشام نجدهم قد أخذوا القراءة عرضًا وسماعًا عن طائفة من العلماء ، وقرأوا عليهم ، وكثيرا ما نجد بعض العلماء روى القراءة عرضًا عن عالم جليل ، ونجد أيضاً من العلماء من سمع الحروف عن العلماء واتقنها .

وكذلك علماء العراق لا خلاف في أسلوب التلقى عندهم فالمصادر التى ترجمت للقراء العراقيين وغيرهم بيّنت أنهم درّسوا القراءات عرضًا وسماعًا وهذا واضح ومشهور، فالمتعلم يقرأ القرآن على عالم كبير ، ويسمع القرآن من عالم جليل ، ويأخذ الحروف من عالم فاضل . وقد تم هذا من خلال مجالس العلم ـ كما سبق أن بيتنا فى الفصل الأول ـ وعن طريق حلقات العلم .

فإذا كان أهل الشام قد تلقوا علم القراءات فى مجالس علم عقدت فى أماكنها المختلفة ، فإن أهل العراق أيضاً تلقوا علم القراءات فى مجالس علم .

ولكن نظراً إلى أن العراق هى حاضرة الخلافة وإليها قصد العلماء وطُلاّب العلم ، فإن مجالس العلم بها متعددة وتفوق مجالس العلم فى الشام ، وذلك واضح من خلال المصادر التى ترجمت لعلماء الشام وعلماء العراق ، والناظر فى تاريخ بغداد للخطيب البغداى سيجد كمًا هائلا من مجالس العلم وحلقاته ، وذلك إن دلّ فإنما يدل على كثرة العلماء والعلوم بها ، ومدى الاهتمام فيها بالعلم والعلماء فى الوقت الذى لا يقلل من شأن العلم والعلماء بالشام، بل إن الفاروق بينها فى الكمّ وليس فى الكيف.

فبالشام علماء ذخر بهم التاريخ فى القراءات وغيرها من العلوم كما ذخر بعلماء العراق .

الفصل الثالث

الطلاب والأساتذة فى الشام والعراق

الطلاب والأساتذة فى الشام والعراق
فى القرن الرابع

أولاً : الطلاب :

١ ـ الطلاب المنتظمون وأعمارهم :

الحديث حول الطلاب ليس المقصود منه طلاب الشام وحدهم ولا طلاب العراق فحسب ، بل المقصود من هذا الحديث طلاب كل منهما . لذلك نقول : إن الطالب فى نظر المسلمين هو كل شخص له رغبة فى التعليم ، بصرف النظر عن سنه والمدة التى يقضيها فى طلب العلم ، مما يجعلنا نصنف الطلاب إلى نوعين : نوع عارض ونوع منتظم ، أما العارض : فإنه يشتمل على أعداد كبيرة يحضرون الدروس بين الحين والحين ، ولا سيما مجالس الإملاء ، أما النوع المنتظم : فهم الذين يركزون اهتمامهم بالدرجة الأولى على العلم ، ويقضون شطراً من حياتهم فى طلب العلم وحده ، ولكن ذلك لا يمنع اشتغالهم بكسب الرزق ، وهؤلاء هم موضع النظر ، ثم إنهم يُعرفون بعد ذلك ويلقبون بألقاب مهنهم وأعمالهم . فمن أهل الشام عمر بن الحسينِ بن عبد الله أبو القاسم الخرقى ٣٣٤هـ فقد لقب بالخرقى لأنه ينسب إلى بيع الخِرَق والثياب[1] . ومن أهل العراق الحسن بن حامد بن على أبو حامد الوراق ت٤٠٣هـ فقد لقب بالوراق لأنه ينسب إلى بيع الورق ، وكان ينسخ الكتب بالأجرة ويأكل من النسخ ويتقوت به[2] .

المعروف أن خط سير الطالب فى مراحل التعليم مرحلتين ، الأولى : وهى فترة الكُتّاب ، والثانية : وهى فترة التعليم العالى وليس بينهما مرحلة متوسطة ، وكانوا يبدأون المرحلة العالية بعد مغادرة الكُتّاب فى سنّ تقارب اثنى عشر عامًا ، وهناك من هو أقل من ذلك ومن هو أكبر أيضاً . فهناك من طلاب الشام من سمع الحديث وهو

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٤١/٣ .

(٢) العبر للذهبى ٢٠٥/٢ .

فى سن الحادية عشر مثل عمر بن أجمد بن عثمان ت٣٨٥هـ[١]، ومنهم من سمع فى سنّ الرابعة عشر مثل أحمد بن الحسين بن على الرازى ت٣٧٥هـ[٢]، ومن طلاب العراق أيضًا من سمع فى سنّ السابعة مثل أحمد بن محمد بن الجندى النهشلى ت٣٩٦هـ، ومنهم من سمع فى سنّ الرابعة عشر مثل محمد بن المظفر بن موسى أبو الحسين البزاز ت٣٧٩هـ[٣].

٢ ـ مدة الدراسة :

إن مدة الدراسة عند طلاب العلم سواء من أهل الشام أو من أهل العراق لم تكن محدودة نظراً لعدم تحديد مناهج الدراسة أيضًا ، فالطالب كان له حرية اختيار الأستاذ وتحديد مدة الاشتغال عليه ، وليس الطلاب على شاكلة واحدة فى ذلك ، فطلاب الحديث كانوا يقضون السنين فى جمع الحديث ، ويجوبون بلاداً كثيرة وتتسع معهم الرحلة العلمية ، ثم يأخذون فى تدقيق متونه وأسانيده ويشرعون فى تصنيفه وتبويبه ، وقد يستغرق ذلك حياتهم كلها ، لذلك يتعذر تحديد مدة الدراسة التى يتم فيها الطلاب دراستهم ، فعلى سبيل المثال نجد من طلاب أهل الشام من ظلّ يطلب العلم ويسمع الحديث ، وأقام فى رحلته ثلاثًا وثلاثين سنة ، حتى بلغ عدد شيوخه ألف شيخ[٤]. ومن طلاب أهل العراق من سافر الكثير شرقًا وغربًا ، وتعددت رحلاته العلمية بين كل من الكوفة والبصرة ومكة ومصر والشام والجزيرة والموصل والجبال وأنطاكية والرملة وطبرية[٥]، مما جعله يستغرق وقتًا طويلاً وسنوات عديدة وكان أبو بكر الشبلى دلف بن جحدر ت٣٣٤هـ يقول عن نفسه : كتبت الحديث عشرين سنة ، وجالست الفقهاء عشرين سنة[٦]، مما يجعلنا لا نستطيع أن نحدد مدة الدراسة ويصعب على أى

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٨/٢٤٩ .

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٣/٥٥ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢/٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٤٠٧ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢/٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٤/٣٩٣ .

باحث ذلك ، لاختلاف مدد الطلاب ، واختلاف العلوم ، واختلاف الطاقات والجهود المبذولة ، سواء على مستوى طلاب الشام أو طلاب العراق ، وذلك خاصة فى علم الحديث ، أما غير علم الحديث ، فمن الممكن أن ينتهى الطالب من سماع العلم بعد أن يستوعب ما عند شيخه ، وذلك رغم تحديد مدة زمنية لتلك الدراسة يتوقف عندها الطالب أو الأستاذ .

٣ ـ عدد الأساتذة الذين ينبغى الأخذ عنهم :

لم يكن محدداً عدد الأساتذةِ الذين يأخذ عنهم الطالب ، كما أن المدة التى يقضيها معهم غير محددةٍ أيضًا ، بل كان العلماء يؤكدون على ضرورة الأخذ من أكبر عدد ممكن من الشيوخ ، والسفر من أجل لقائهم فى الحواضر الكبرى ، فمن علماء الشام من بلغ عدد شيوخه الذين جالسهم وسمع منهم الألف شيخ كأبى القاسم الطبرانى[1] . ومنهم من ألّف معجمًا ضمّن فيه شيوخه ودونهم من كثرتهم مثل أبى الحسين محمد بن أحمد بن جميع الصَيداوى ت٤٠٢هـ فقد صنف معجم ابن جميع ، وهو يضم فقط أسماء شيوخه الذين أخذ عن كل واحد منهم حديثاً[2] .

ومن علماء العراق من كانوا أحسن حظًا فى وقت طلبهم العلم عن غيرهم فكانوا محظوظين خاصة طلاب بغداد ، لأن مدينتهم اجتذبت أكابر العلماء من كل مكان ، فصار بوسعهم أن يدرسوا العلم على أكبر عدد ممكن منهم ، ومع ذلك فقد كانوا حريصين على الرحلة إلى المدن الأخرى وقد دأب كثير منهم على تدوين مصنفات جمعت أسماء شيوخهم الذين سمعوا منهم كأبى عمرو عثمان بن أحمد الدقاق ت٣٤٤هـ حيث كتب كتاب « وفيات شيوخه »[3] وهذا الأمر واضح فى طلب الحديث ، أما العلوم الأخرى ، فقد كان الطالب يواصل ملازمة شيخ واحد أو حضور أكثر من شيخ ولكن العادة جرت على ملازمة شيخ واحد وألا يتنقل من شيخ لآخر .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٠٧/٢ .

(٢) تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ٤٥٣/١/١ .

(٣) تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ٣٦٩/١/١ .

٤ ـ علاقة الطلاب بعضهم ببعض :

إن علاقة طلاب العلم بعضهم ببعض ليعتبر شيئًا على درجة عالية من الأهمية ، إذ أنهم كثير ما يعتمدون على بعضهم بعضا ، وكان يهمهم أن يشهد لهم زملاؤهم بحضورهم مجالس الشيوخ ، فهم طائفة واحدة متشابكة المصالح والاهتمام ، يتعاون أعضاؤها فى أمور حياتهم وشئون دراستهم ، والعلاقات بينهم تسودها روح الزمالة والتعاون والمساعدة ، فالغنى منهم كان يساعد الفقير ، والمتمكن من موضوعه يعين الضعيف ، ويتبادلون الخبرة ، ويعرضون مدوناتهم على بعضهم البعض ، ثم إن الطلاب وأساتذتهم كانوا يمثلون مزيجًا من شعوب عديدة ، كما تشدهم إلى بعضهم بعضا بعد رابطة الإسلام ووحدة اللغة ورابطة طلب العلم[١]. لأن كل واحد منهم كان حريصًا على أن يختار شريكه الجد والورع وصاحب الطبع المستقيم ، والمتفهم ، ويفرّ من الكسلان والمعطّل والمفسد والفتان[٢]. كما كان بين أبى محمد المؤدب ت٤٠٨هـ وبين أصحابه وحرصهم الشديد على أن يسمع معهم الحديث حيث يقول: خرجت يوماً من مجلس القاضى الحسين بن إسماعيل المحاملى، فأرادنى أصحاب الحديث على المضى معهم إليه ، فلم أفعل لأجل الحرّ[٣]. ويقول عبد الرحمن بن محمد بن أبى حاتم الرازى أثناء رحلته فى طلب العلم : وكان معى رفيق أسمع فى كتابه ويسمع فى كتابى ، فما أكتب لا يكتب وما يكتب لا أكتب[٤].

٥ ـ علاقة الطلاب بعلمائهم :

كانت علاقة ودّ وصداقة فى الغالب الأعم وكان الطلبة يكنون عظيم الاحترام والتقدير لشيوخهم ، والشيوخ يكنون المحبة والعطف لطلابهم ، ويعينون المحتاج منهم ،

---

(١) تاريخ التعليم عند المسلمين للدكتور منير الدين أحمد ص٧٧ ـ ٧٨ .
(٢) تعليم المتعلم للزرنوجى تحقيق صلاح الخيمى ونذير حمدان ص٤٤ .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٠/٣٩ .
(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥/٢٢ .

ويتفقدون من يتغيب ، ويعودون المرضى ، ويساعدونهم بكل وسيلة ممكنة على تحصيل العلم ودراسته ، ويقدمون لهم العون أثناء الدرس وغيره . يقول محمد بن أحمد الشنبوذى ت٣٢٨هـ مادحًا أستاذه معترفًا له بالجميل والفضل : قرأت على ابن الأخرم محمد بن النضر الدمشقى ت٣٤٢هـ، فما رأيت شيخًا أحسن معرفة منه بالقرآن ولا أحفظ[١]، وكان متواضعًا حسن الأخلاق كبير الشأن[٢]. كما كان ابن الأخرم لا يدخر جهدًا تجاه طلابه فى أن يساعدهم ، فكان يعين من يقرأ عليه بالإشارات بيده وفيه ، مرة إلى الضم ومرة إلى الفتح ، ومرة إلى الكسر ، ومرة إلى الإدغام ، ومرة إلى الإظهار ، بإشارات عرفت منه[٣] .

وإن علاقة طلاب العراق مع أساتذتهم وشيوخهم لا تقل ولا تختلف عن علاقة طلاب الشام مع شيوخهم ، فقد كان شيوخ العراق كغيرهم صدورهم مفتوحة مملوءة رحمة لطلابهم ، يسمعونهم فى كل ما يروق لهم بصدور رحبة دون غضب . فقد قال بعض طلاب الحديث لشيخهم محمد بن مخلد الدّورى العطار ت٣٣١هـ حيث كان يعطى الدرس بمحلة فى آخر بغداد فى أعلى البلد فقالوا : لو زدتنا فى القراءة فإن موضعك بعيد منا ويشق علينا المجئ إليك فى كل وقت ، فقال محمد بن مخلد : من هذا الموضع كنت أمضى إلى المحدثين فأسمع منهم[٤] . لم يغضب منهم ولم يحتد عليهم بل أجابهم بمنطق يجعلهم يستحيون الكلام بعد ذلك .

وما حدث من حوار أيضًا بين حمزة بن محمد بن طاهر وبين خاله أبى عبد الله بن دوست ت٤٠٧هـ ببغداد ، قال حمزة : أراك تملى المجالس من حفظك ، فلم لا تملى من كتابك ؟ فقال : انظر فيما أمليه فإن كان لك فيه زلل أو خطأ لم أمل من حفظى ، وإن كان جميعه صوابًا ، فما الحاجة إلى الكتاب ؟[٥] انظر إلى مدى الرد الذى رده العالم على ابن أخته ، ومدى إعطاءه الفرصة ليعبر عن رأيه ، ثم يرد عليه بكل هدوء ورحابة صدر .

---

(١) طبقات القراء للذهبى ٢٩٠/١ ـ ٢٩٢ .

(٢) طبقات المفسرين للسيوطى ، ص١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٨٢/٢٣ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى٣١/٣ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢٥/٥ .

وإن من العلماء من جعل منزله مألفًا لطلاب العلم ، فلم يغلقه أمام أحد منهم ولا أمام أحد من الأشراف والكتّاب والأدباء فالكل كانوا يحضرون ليسمعوا منه مثل : محمد بن عبد الواحد غلام ثعلب ت٣٤٥هـ(١) .

وهناك من التصرفات بين العلماء وطلابهم تنبئ عن مدى الإحاطة الموجهة من الشيوخ لطلابهم ، فمنهم من يعين بعض طلابهم ليساعده في أمر العلم فهذا أبو الحسن على بن إبراهيم بن بكش الطبيب ت٣٩٤هـ كان إذا أراد معرفة سحنات الوجوه ، وحال بول المرضى ، عوّل على من يكون معه من تلامذته في وصف ذلك له(٢) .

٦ ـ موقف الآباء من تعليم أبنائهم :

كانت نعمة كبيرة أن يكون للإنسان أبناء يطلبون العلم ، إذ كان مدعاة فخر لآبائهم ، بل كان بعضهم يقيم الولائم بمناسبة انخراط ولده في سلك الكُتّاب ، أو الطلبة ، ثم إن الآباء كانوا يسمحون لهم بالرحلة في طلب العلم إلى البلاد الأُخرى البعيدة والقريبة ، بل ويشجعونهم على مواصلة الطلب ، ومن الفقراء من كان يجد العون من طريق أو آخر ، فتعينه على الدرس والاستمرار في طلب العلم ، وقد دأب أبناء العلماء في الغالب على تقليد آبائهم في التعليم ، وكان عادة الآباء أن يصطحبوا أولادهم منذ الصغر إلى مجالس العلم والعلماء ؛ ويعودونهم على السماع والكتابة ويزرعون في نفوسهم حب العلم ، ونجد من هؤلاء نماذج متعددة من أهل الشام كانوا شديدى الحرص على تعليم أبنائهم . كان عبد الرحمن بن أبي حاتم قد تربّى بالمذاكرات مع أبيه وأبي زرعة ، فكانا يزقانه كما يزق الفرخ الصغير ، ويعنيان به ، ثم رحل مع أبيه ، فأدرك الإسناد ، وثقات الشيوخ بالشام وغيرها ، ويقول : كنا نغدو بالغدوات إلى مجلس بعض الشيوخ ، ووقت الظهر إلى مجلس آخر ، ووقت العصر إلى مجلس آخر ثم بالليل للنسخ والمعارضة (٣) .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى٣٥٦/٢ .

(٢) أخبار العلماء للقفطى ص١٥٨ .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢١/١٥ ـ ٢٢ .

ومن حرص الآباء على تعليم الأبناء ، قال أبو بكر محمد بن رزق الله المنينى[(١)] المقرئ : كان أبى قد سمّعنى كتباً كثيرة ، وكتب حملَ جَمَلٍ كتباً[(٢)] .

ومن العلماء من كان حريصًا على أن يروى ابنه عنه مثل عبد الله بن محمد بن الحصيب الشافعى ٣٤٨هـ فقد روى عنه ابنه أبو الحسن الحصيب بن عبد الله[(٣)] .

وكذلك فمن أهل العراق نماذج متعددة تثبت مدى حرص الأباء على تعليم الأبناء ومساعدتهم فى طلب العلم من بين هؤلاء : محمد بن الحسن بن دريد ، حيث كان له معلم مخصص لتعليمه ، وكان عمه الحسين بن دريد يتولى تربيته[(٤)] .

وكان الخليفة الراضى من أشد الناس حرصًا على تعليم أبنائه لذلك جعل لهم محمد بن القاسم بن الأنبارى معلماً ومؤدباً[(٥)] .

ومن الصبيان من اعتنى به أبوه واعتنى به خاله ، فمحمد بن عبد الله بن حمدويه قد ولد سنة ٣٢١هـ وطلب العلم منذ الصغر باعتناء والده وخاله فكان أول سماعه سنة ٣٣٠هـ واستملى سنة ٣٣٤هـ ثم رحل فى طلب العلم بعد ذلك[(٦)] .

٧ ـ تعليم الإناث :

كانت الفرص المتاحة لتعليم النساء أقل بكثير من فرص الذكور ، ورغم ذلك فإن عدداً منهن نال حظه من التعليم والسماع ، وكان تعليمهن غالبًا يتم فى أماكن خاصة كالبيوت ، وكثير منهن كنّ بنات العلماء ، أو من ذوى قرباهم ، فقد كنّ يستفدن من الدروس التى كانت تعقد فى بيوتهن لتعليم الطلاب ، ومن بلغ منهن مرتبة العلم قليل ، وقد كان عدد من يحسن القراءة والكتابة من النساء كبيراً ،

---

(١) المنينى : نسبة إلى قرية معروفة من قرى دمشق تسمى «منين» معجم البلدان لياقوت ٢١٨/٥ .

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٦١/٢٢ .

(٣) طبقات الفقهاء لابن كثير ٢٥٤/١ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٩٦/٢ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٨٤/٣ .

(٦) طبقات الشافعية للسبكى ٦٤/٣ .

وتعليمهن كان يتم بواسطة معلمين يستأجرون لهذا الغرض[١] . وممن نبغ منهن ستيته بنت القاضى أبى عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملى ت٣٧٧هـ وتكنى أم عبد الواحد قرأت القرآن ، وحفظت الفقه والفرائض والحساب والدرر والنحو ، وكانت من أعلم الناس فى وقتها بمذهب الشافعى[٢] . ومن بين النساء أيضًا بنت أبى على الجبائى وأخت أبى هاشم الجبائى المعروف بالاعتزال ، إذ كانت داعية للفكر الاعتزالى وسط النساء ، وقد سألت أباها عن مسائل وأجابها[٣] .

٨ ـ الأحوال المالية للطلاب :

من المعروف أن التعليم كان يكلف الطلاب كثيراً من المال ، إذ كان على الطالب أن يتحمل نفقات معيشته وسكناه ، وأثمان الورق والحبر ، ونفقات الرحلة ، وربما تطلّب الأمر أن يدفع أجراً للمعلم ، ولكن الطلبة الفقراء تفتحت أمامهم الأبواب بمساعدة الدولة ، وكان بوسعهم السكنى فى المساجد ودور الضيافة فالطلاب كانوا يمثلون جميع طبقات المجتمع فقيرها ومتوسطها وغنيها ، وكثير منهم يعملون فى الحرف والصناعات لكى يسدوا متطلبات العلم والنفقات المطلوبة . ولا سيما نفقات الرحلة ، إلا أن بعض الجهات الوقفية كانت تقدم مساعدات قيمة فى هذا السبيل من الخلفاء والوزراء والأمراء[٤] . فكان الوزير ابن الفرات يغدق على أهل العلم من النفقات كل شهر ، وكذلك الخليفة المقتدر بالله[٥]، وكذلك الأمير سيف الدولة الحمدانى قد بسط أرزاقًا لطلبة العلم والعلماء[٦] .

أما من ناحية أهل العراق والنفقة على طلاب العلم ، فقد جاء رجل إلى

---

(١) التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى للدكتور أحمد شلبى ص٣٤٠ ، وتاريخ التعليم عند المسلمين للدكتور منير الدين أحمد ص٨١ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١١ .
(٣) تيارات الفكر الإسلامى للدكتور محمد عمارة ص٩١ .
(٤) تاريخ التعليم عند المسلمين للدكتور منير الدين أحمد ص٨٢ ـ ٨٣ .
(٥) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٢/١١ ، ١٨٢ .
(٦) أخبار العلماء للقفطى ص١٦٦ .

عبد الصمد بن عمر أبو القاسم الواعظ ت٣٩٧هـ بمائة دينار ليدفعها إليه ، فقال أنا غنى عنها ولست بمحتاج إليها ، قال ففرقها على أصحابك هؤلاء ، فقال ضعها على الأرض ففعل ، ثم قال عبد الصمد للجماعة : من احتاج منكم إلى شيء فليأخذ على قدر حاجته فوزعتها الجماعة على صفات مختلفة فى القلة والكثرة(١) . وقد كان عفان بن سليمان التاجر البغدادى ت٣٢٤هـ له وقوف معروفة على أهل الحديث(٢) . وكان ابن عقدة أحمد بن محمد الكوفى ت٣٣٢هـ يوجه إليه مال من خرسان ويأمر بأن يعطيه للضعفاء(٣) .

تعقيب :

عندما نعقّب على الطلاب فى الشام والعراق سنجد كلاهما واحد ، لأنهما يسيران على نظام موحّد ومنهج واحد فى تلقى العلم ، ومراحل تعليمهما واحدة ، فيتفقان فى ذلك كله ، فعندما نتحدث عن أعمارهما وانتظامهما فى تلقى العلم بعد خروجهما من مرحلة التعليم الأولى ـ الكُتّاب ـ فلم يكن هناك سنّ معينة يتلقى الطالب عندها العلم ويجلس عندها أمام الشيوخ ليتعلم ، بل عندها تتراوح بين الحادية عشرة أو الثانية عشرة أو يقل عن ذلك أو يزيد ، وقد سبق أن أعطينا أمثلة تدل على ذلك من طلاب الشام ومن طلاب العراق ، كما يتفقان فى أن منهم طلاباً يعملون فى أعمال أخرى بجانب تلقى العلم ، لأنهم يقضون شطراً من حياتهم فى طلب العلم فلا يمنع اشتغالهم بكسب الرزق .

كما يتفقان أيضاً فى أن مدة الدراسة غير محددة نظراً لعدم تحديد مناهج الدراسة، فالطالب فى الشام أو العراق له حرية اختيار الأستاذ أو الشيخ الذى يتعلم عليه . كما تختلف مدة طلب العلم من طالب لآخر ومن علم لآخر ، وحسب نوع العلم وحسب طاقة الطالب وجهده . وخاصة فى علم الحديث أما العلوم الأخرى فمن الممكن أن

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٤/١١ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٧٨/١٢ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٢/٥ .

ينتهى الطالب عند حد معين أو مدة معينة حسب نظام الشيخ الذى يدرس حلقة العلم وتختلف من شيخ لآخر .

كما يتفقان فى عدم تحديد عدد الأساتذة الذين ينبغى الأخذ عنهم ، فلم يكن هناك نظام معروف يقضى بعدد معين يقف عنده طالب العلم أو يكتفى عليه ، فمن طلاب الشام من بلغ عدد شيوخه الألف شيخ ومن طلاب العراق من بلغ عدد شيوخه المئات لدرجة أنه أحصاهم فى كتاب وأسماه معجم الشيوخ ، كما يتفقان فى أنه من الممكن سماع أى علم غير علم الحديث عن شيخ واحد أو اثنان معاً أو أكثر أو أقل .

أما من حيث علاقة الطلاب مع بعضهم البعض فليس هناك فرق بين الطلاب الشاميين أو العراقيينِ أو غيرهما فى العلاقة بين بعضهم البعض ، فالكل داخل فى إطارٍ واحدٍ ، وتحت مظلّة واحدة . هى مظلة العلم ومصلحة واحدة ، فروح التعاون بينهم هى السائدة ، وروح الزمالة والمساعدة هى التى تسيطر عليهم ، وروح تبادل الخبرة والمنفعة أيضاً .

أما علاقة الطلاب بعلمائهم وشيوخهم فليس هناك إلا علاقة الودّ والصداقة ، والاحترام والتقدير لشيوخهم ، كما يكن لهم شيوخهم أيضًا المحبة والعطف ، والعون ، ولا يدخرون وسعًا فى تقديم ما يفيدهم فى سبيل الحصول على العلم وطلبه . وقد ذكرنا أمثلة كثيرة توضح مدى العلاقة التى كانت سائدة بين الطلاب وبين علمائهم وقد تساوى فى ذلك طلاب الشام وطلاب العراق .

وكذلك عند الحديث عن موقف الآباء من تعليم أبنائهم ، نجد الحرص الشديد سواء من الفقير أو الغنى أو الخليفة أو الأمير أو الوزير فى الشام والعراق على الأبناء . وتذليل كل الصعاب أمامهم لتلقى العلم لأنه مفخرة عظيمة أن يكون أبناؤهم من العلماء . وإن وقف الأموال على طلاب العلم غير المستطيعين لأمر واضح سواء فى الشام أو العراق من الخلفاء والوزراء والأغنياء . وإن من حرص الآباء على الأبناء نجد كثيراً من الآباء يصطحب الابن منذ الصغر إلى مجالس العلم ويحرص على أن يدخله الكُتّاب أو يأتى له بمربٍ أو معلّم فى البيت .

كما نلاحظ أيضًا أن هناك فى الشام والعراق اتجاه لتعليم البنات ولكن يختلف

عن تعليم البنين فى أن المعلم يأتى إلى البيت ولا تختلط الإناث بالذكور ، أثناء التعليم، وأننا قد لاحظنا أن عدداً قليلاً منهن قد نبغ فى العلم والدعوة وأصبحن لهن شأناً عظيماً .

أما الأحوال المالية للطلبة : فلم يكونوا جميعاً على حال واحد ، سواء من الشام أو من العراق ، فمنهم الفقير ومنهم الغنى ، ومنهم من فى حالة وسطى ، ولكن اتجاهات الوقف على العلماء وطلبة العلم زللت لهم عقبات الأحوال المالية بقدر الإمكان ، وبقدر ما يسد حاجاتهم وجعلت لهم أمر السكنى فى المساجد ودور الضيافة ، وكثير منهم مارس بعض المهن لكى يسد متطلبات العلم طول فترة طلبه له .

ثانياً : الأساتذة ودورهم فى المجتمع الإسلامى فى كل من الشام والعراق :

تضافرت نصوص الكتاب والسُّنة بما لا يحصى ولا يستقصى كثرةً على بيان رفعة شأن العلم وأهله والترغيب فى النهل من معينه الصافى وسلسبيله العذب الشافى . لذلك يعتبر العلماء - فى الإسلام - ورثة الأنبياء ، كما كانوا يتمتعون بالتجلة ، والاحترام التام . أما من الناحية المادية فيمكن اعتبارهم من أعضاء الطبقة الوسطى ، ثم إن عدداً كبيراً منهم كان من التجار بعيدين كل البعد عن وظيفة الدولة ، بل دأبوا على رفض العون منها ، والمشاركة فى أعمالها ، فكانوا مكتفين اكتفاءً ذاتياً ؛ وهذا ما أعطاهم مكانة خاصة فى المجتمع الإسلامى ، وأهّلهم كى يقوموا بدور الوسيط بين الحاكم والمحكوم ، بل صاروا لساناً للعامة وممثلين لهم تجاه الحكام ، وهكذا كان نفوذهم كبيراً فى المجتمع ، إذ هم حماة الدين والأمناء على شريعة الله ، وعلى الرغم من عدم مشاركتهم فى الحكم ورفض كثير منهم ممارسة أى وظيفة رسمية ، فإن انحلال الحكومة وغياب السلطان كانا يؤديان فى الغالب إلى كثرة تحول السلطة الفعلية إلى أيديهم ، إلى أن يتم تشكيل حكومة جديدة تتولى شئون المسلمين[1] .

قال سفيان بن عيينة رحمه الله : أرفع الناس منزلة عند الله من كان بين الله وبين عباده ، وهم الرسل والعلماء .

---

(١) تاريخ التعليم عند المسلمين للدكتور منير الدين أحمد ص١٠٣ ، ١٠٤ .

وقال سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله : من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء ، قال ابن القيم : وهذا لأن العلماء خلفاء الرُسل فى أممهم ووارثوهم فى علمهم ، فمجالسهم مجالس خلافة النبوة(١) . ويتساوى فى ذلك علماء الشام وعلماء العراق خلال القرن الرابع الهجرى ، فليس لأحدهما دور مميز على غيره، بل كلهم مصهورون فى بوتقة العلم ، وكلٌ له دوره فى مجال عمله وتخصصه فى المجتمع الإسلامى .

علاقات العلماء فى كل من الشام والعراق :

علاقاتهم بعامة الناس : كان للعلماء مكانة عند عامة المسلمين ، إذ كانت لهم شعبية واسعة بين الناس ، زادت من علوّ مقامهم وعززت نفوسهم السياسى ، إلا أن تدهور العلاقة بين العالم والعامة يؤدى إلى فقده الكثير من مكانته ، والحق أن كلمة العلماء كانت مسموعة لدى الناس ، وكانوا قريبين من عامة الناس ، خاصة وأنهم يقيمون معهم وبين ظهرانيهم ، فكانوا يجالسون الناس فى الأسواق والحوانيت ، ويُصلُّون معهم فى المساجد ، مما جعلهم فى تماس مستمر معهم ، وكان الناس يقصدونهم بلا تردد ليستفتوهم فيما يعرض لهم من مشاكل الحياة ، ويحرصون على السكنى بجوار منازلهم ، فقد كان لمحمد بن النضر بن مر الدمشقى ٣٤٢هـ مجلس علم يقرئ فيه الناس بواسع ما يحفظه من التفسير ومعانى القرآن الكريم(٢) . وكان لأبى العباس أحمد بن أبى أحمد الطبرى ت٣٣٥هـ مجلس وعظ يعظ فيه الناس فى مدينة طرطوس(٣) .

وكذلك علماء العراق أيضًا مثل الحسن بن حامد بن على الوراق ت٤٠٣هـ كان معظمًا فى النفوس مُقدّمًا عند السلطان والعامة(٤) . وكان أبو بكر أحمد بن سليمان بن الحسن البغدادى ت٣٤٨هـ له حلقة علم بالمسجد للفتوى والفقه على

---

(١) مفتاح دار السعادة للإمام ابن القيم ١١٩/١ .

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٨٢/٢٣ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦٨/١ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٣٧٣/١١ .

مذهب الإمام أحمد[1] . وكان محمد بن دعلج بن أحمد السجستانى يفتى الناس بمذهبه ، ولم يكن فى الدنيا أيسر منه[2] .

علاقاتهم ببعضهم البعض : لا شك أن العلاقة بين العلماء أنفسهم فى الغالب مزيجاً من المودة والتخاصم ، فالعلماء كغيرهم من البشر يحبون ويكرهون ثم إنهم قد يختلفون فى درجة العلم ، وفى مجال الاجتهاد ، وهذا بدوره يؤدى إلى قيام المناظرات بينهم ، بل وإلى نشوء مدارس فكرية ، كما حدث بين علماء الشام الحسين بن خالويه ت٣٧٠هـ وبين أبى الطيب المتنبى ٣٥٤هـ[3] وغيرهما كثير . وكما حدث بين علماء العراق أبى الحسن الأشعرى وأستاذه أبى على الجبائى ، وكذلك ما حدث بين أبى بكر الباقلانى البصرى وبين أبى سعيد الهارونى[4] .

وإن مظاهر المودة والتعاون بين العلماء على مستوى الشام ومستوى العراق كثيرة فأكثرهم يحرصون على حضور مجالس معاصريهم من العلماء ، وذلك تقديراً لعلمهم، ولا يترددون قط عن تصحيح الأغلاط التى قد يقع فيها أولئك العلماء ، ولكن بأسلوب المودة والرقة والتواضع ، كما كانوا يعينون بعضهم البعض على أمر العلم ومجالسه ، ويستقبلون بعضهم فى مجالس العلم بحفاوة بالغة وإكرام كبير ، فهذا أبو الحسن بن الأخرم الدمشقى عندما حضر إلى بغداد ودخل على ابن مجاهد فى مجلسه فقال ابن مجاهد لأصحابه : هذا صاحب الأخفش الدمشقى فاقرؤوا عليه[5] . فقد استقبله ابن مجاهد وكرّمه بتقديمه لمجلس العلم بكل حفاوة وتكريم . وكذلك عندما قدّم أبو بكر الدّاجونى محمد بن أحمد بن عمر الرملى ت٣٢٤هـ إلى بغداد وقصد حلقة ابن مجاهد فرفعه ابن مجاهد ، وقال لأصحابه هذا الدّاجونى اقرؤوا عليه[6] .

وكذلك بين علماء العراق فقد كانوا يُوقّرون بعضهم ، كما حدث مع أبى

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٩٠/٤ .

(٢) العبر للذهبى ٨٨/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٨/٣ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت الحموى ٩٩/٣ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٦٧/٤ .

(٥) طبقات القراء للذهبى ٢٩١/١ .

(٦) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٩٣/٢١ ـ ٢٩٤ .

الحسن على بن محمد بن بشار ، وكان أبو بكر الخلال بحضرته فى مسجده ، وقد سُئل عن مسألة فقال : سلوا الشيخ ـ يعنى أبا بكر الخلال[1] ـ فإنه لا يريد أن يتعدى عليه ، بل يجله ويقدره فى أن يقدمه للإجابة ويسمع هو ، كما كان العلماء يصححون لبعضهم البعض الخطأ فى خفية ، ولا يستحى المخطئ أن يرجع إلى صوابه وينبِّه عليه ويصوبه لطلابه ، فقد حضر أبو الحسن الدارقطنى مجلس إملاء يوم الجمعة لمحمد بن القاسم الأنبارى ، فصحف ابن الأنبارى اسمًا فأخبر الدارقطنى المستملى بالصحيح فأخبَر شيخه بذلك ، ففى الجمعة التالية نبّه الشيخ على التصحيف الذى حدث فى الجمعة الماضية وأسند الفضل فيه للدارقطنى ، ولم يستح من تصحيحه[2] . يقول ابن جماعة فى ذلك : انظر لمثل هذا التيقظ للشيخ والتنبيه عليه بالملاطفة والملاينة[3] .

علاقاتهم بالدولة : كان موقف أكثرية العلماء من أرباب الدولة غير ودّى ، لرفض العلماء مناصب ووظائف الدولة ، حيث أن معظم المناصب التى كانت تعرض على العلماء كانت قضائية ، وكان العلماء المسلمون يتحجرون من قبولِ مناصب القضاء لكثرة الأحاديث الواردة عن خطورة هذا المنصب ودقة موقف من يليه ، وتعرضه للإثم والخطأ[4] . مع أن الأحاديث النبوية التى وردت فى ذلك وورد فيها تخويف ووعيد للقضاة المراد بهم الجهال الذين يقحمون أنفسهم فى منصب القضاء ، دون أن تكون لهم مؤهلاته ، أو القضاة الذين يجورون فى أحكامهم ، وقد ولى النبى ﷺ بعض أصحابه القضاء ، كعلى بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل وغيرهما ، فقد قال النبى ﷺ : « الحكام ثلاثة ، اثنان فى النار وواحد فى الجنة ، حاكم حكم بجهل فخسر ، فأهلك أموال الناس وأهلك نفسه ففى النارِ ، وحاكم حكم فخذل ، فأهلك أموال الناس وأهلك نفسه ففى النار ، وحاكم عَلِمَ فعدل فأحرز أموال الناس وأحرز نفسه ففى الجنة[5] » فالمتابع لفقهاء الشام خلالَ القرن الرابع الهجرى سيجد منهم

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١١٣/٥ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٨٣/٣ .

(٣) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة الكنانى ص١٢٦ .

(٤) تاريخ التعليم عند المسلمين للدكتور منير الدين أحمد ص١١٠ ـ ١١١ .

(٥) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه كتاب (٢٣) باب (٢) ، قال الشوكانى : وأخرجه أيضًا الترمذى والنسائى والحاكم وصححه . انظر نيل الأوطار ٢٩٨/٨ .

ذوى العلم والفقه ، كأبى يحيى البلخى زكريا بن أحمد ت٣٣٠هـ الذى ولى قضاء دمشق فى خلافة المقتدر بالله[١] . وكأبي العباس أحمد ابن أبى أحمد الطبرى ت٣٣٥هـ الذى تولى منصب القضاء بطَرَسُوس ، وكان يعقد له مجلساً[٢] . وكعبد الله بن محمد بن الحسين بن الحصيب ت٣٤٨هـ الذى تولى القضاء بدمشق سنة ٣٣٢هـ[٣] .

والمتتبع لفقهاء العراق أيضًا يجد أن منهم الكثير قد تولى القضاء مثل محمد بن صالح بن أم شيبان ت٣٦٣هـ واشترط ألا يتناول على القضاء أجراً ، وكأبى بشر عمر ابن أكثم ببغداد ، وكأبى العباس بن أبى الشوارب قد تولى قضاء بغداد فى سنة ٣٥٠هـ[٤] .

موقف الدولة من العلماء : لا ينكر أحد موقف الدولة ، كخلفاء وأمراء ووزراء تجاه العلماء ، كموقف إيجابى على مستوى الشام والعراق ، ومن خلال النماذج والأمثلة نستطيع أن نرى موقفهم تجاه العلم والعلماء ، فقد كان سيف الدولة الحمدانى ذا سماحة وكرم وفير ، وكان يخلع على شعرائه ويغدق عليهم الأموال ، وكلما جوّدوا فى شعرهم ازدادت عطاياه لهم ، سواء فى حلب أو بغداد دون الحضور إلى ندوة حلب[٥] . وكان عنده من العلماء من يأخذ رزقين ، ومن يأخذ ثلاثة أرزاق بسبب مشاركته فى علوم كثيرة[٦] ، ولم يقتصر على الشعراء دون غيرهم ، بل امتدت يد العطاء والسخاء إلى المؤلفين ، كأبى الفرج الأصبهانى عندما أهدى كتابه « الأغانى » له فى حلب فأعطاه سيف الدولة ألف دينار[٧] .

وكذلك الحال فى العراق فقد كان موقف الخليفة والأمراء والوزراء إيجابيًا تجاه

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٥٢/٩ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦٨/١ .

(٣) طبقات الفقهاء الشافعية لابن كثير تحقيق الدكتور أحمد عمر هاشم ٢٥٤/١ .

(٤) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ٣٩١/٢ ـ ٣٩٢ .

(٥) يتيمة الدهر للثعالبى ٤٤/١ ـ ٤٥ .

(٦) أخبار العلماء للقفطى ص١٦٦ .

(٧) مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص١٨٣ ـ ١٨٧ .

العلم والعلماء ، فقد كان الوزير ابن الفرات على بن محمد حسن المعاملة ، وينفق على خمسة آلاف من العباد والعلماء ، تجرى عليهم نفقات فى كل شهر ما فيه كفايتهم[1] . وكان الخليفة المقتدر على سبيل المثال كثير الصدقة والإحسان إلى أرباب الوظائف .

وقد أجرى عضد الدولة البويهى على الفقهاء الأرزاق ؛ وعلى الأئمة من الفقهاء والمحدثين والأطباء والحساب وغيرهم[2] .

الأحوال المالية لعلماء الشام وعلماء العراق :

كثير من العلماء لا يقبلون المال من الحكام ، وذلك لحرصهم على البقاء أحراراً فيما يتصدون لتدريسه ، ثم إن طلب العلم كان مفتوحاً لجميع الناس فقيرهم وغنيهم على السواء ، وقد طلبه بالفعل الغنى والفقير ، هذا ولم يكن التعليم هو الوسيلة أو المهنة التى يعتمد عليها المعلم فى كسب رزقه ، إذ كان لكل معلم مهنته الخاصة ، مع وجود عدد من العلماء الذين كان الخلفاء والأمراء والأعيان يمدونهم بالعون والمساعدة ، وهناك بعض الشيوخ يقوم باستيفاء بعض الأجور من الطلاب مقابل تدريسهم . فقد بسطت رسوم للفقراء والفقهاء والمفسرين والمتكلمين والمحدثين والنسابين والشعراء والنحويين والعروضيين والأطباء والمنجمين والحسّاب والمهندسين[3] .

وقد بسط سيف الدولة أرزاقًا لكثير من العلماء عنده ، فمنهم من جعل له رزقين ومنهم من جعل له ثلاثة أرزاق[4] . وكذلك الأخفش كان يأخذ رزقه من السلطان كل سنة ، والذى يخلصه له والد ابن الأخرم ، حيث كان ابن الأخرم يقرأ فى منزله على الأخفش وكان أبوه يخلص للأخفش رزقه من السلطان كل سنة[5] . أما أبو الحسن الدّارانى إمام جامع دمشق ت٤٠٢هـ، كان لا يأخذ على صلاته بالناس أجرا،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٢/١١ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٨٢/١١ ، ٣١٥ .

(٣) تجارب الأمم لابن مسكويه ٤٠٨/٢ .

(٤) أخبار العلماء للقفطى ص١٦٦ .

(٥) طبقات القراء للذهبى ٢٩١/١ ـ ٢٩٢ .

ولا يقبل ممن يقرأ عليه براً ويقتات من غلة أرض له « بداريا » ويحمل من الحنطة ما يكفيه من الجمعة إلى الجمعة ، ويخرج بنفسه إلى الطاحونة فيطحنه ويعجنه ويخبزه ويقتاته طول الأسبوع[1] . وكان ابن الفرات الوزير ينفق على خمسة آلاف من العباد والعلماء ، تجرى عليهم نفقات فى كل شهر ما فيه كفايتهم[2] .

ومن العلماء الشعراء من كانوا أصحاب مهن بجانب هذا العلم فقد كان أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بكشاجم الشاعر طباخًا ، وكان السّرى الرفاء الشاعر يرفؤ الملابس ، وكان أبو العباس النامى جزاراً[3] ، وغير ذلك ، وقد أجرى سيف الدولة الحمدانى على أبى نصر الفارابى أربعة دراهم كل يوم فاقتصر عليه[4] .

أما الأحوال المالية لعلماء العراق خلال القرن الرابع : فمن المعروف أنّ كثيراً من العلماء يرفضون المال من الحكام ، وذلك راجع إلى حرصهم على البقاء أحراراً فيما يتصدون لتدريسه ، ولم يكن التعليم هو الوسيلة أو المهنة التى يعتمد عليها العالم فى كسب رزقه ، فكان منهم من له مهنته الخاصة ، ومنهم من كان يأخذ رزقه من أرض ورثها ، ومنهم من كان يأخذ من آباء التلاميذ مقابل مهنة التعليم ، ومنهم من كان يأخذ رزقه من الدولة ، ومنهم من كان له راتب شهرى عن الوزير وغير ذلك .

فقد كان من الشعراء الكبار من هو صاحب مهنة مثل أبى القاسم على الزاهى ، كان تاجراً للقطن[5] ومن العلماء من كان رزقه من عند الوزير ابن الفرات فقد كان ينفق على خمسة آلاف من العباد والعلماء ، تجرى عليهم نفقات فى كل شهر ما يكفيهم . وكان كثير من أرباب الوظائف يغدق عليهم الخليفة المقتدر بالله[6] . وكان عضد الدولة يجرى على الفقهاء الأرزاق وعلى الأئمة من الفقهاء والمفسرين والمتكلمين والمحدثين والنسابين والشعراء والنحويين والعروضيين والأطباء والمنجمين

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٨٢/١٧ ، وداريًا : قرية مشهورة من قرى دمشق .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢١٥/١١ .

(٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٧٧/٢ .

(٤) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ٢٦٣/١ .

(٥) تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ١٧٩/٤/٢ ـ ١٨٠ .

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٢/١١ ، ١٨٢ .

والحُسَّاب والمهندسين[1] . وكان جبرائيل بن عبيد الله يأخذ رزقين من عضد الدولة رزق لأنه من خواصه ، ورزق لعمله بالبيمارستان العضدى[2] . ومنهم من كان يرتزق بمهنة الطب مثل المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان الطبيب ، من أهل بغداد[3] . ومنهم من يرتزق نتيجة القيام بمهنة المؤدب لأبناء الخلفاء والأمراء والوزراء والقضاة فكان محمد بن عبد الواحد غلام ثعلب يؤدب ولد القاضى أبى عمر محمد ابن يوسف . وكان محمد بن عبيد الله بن محمد أبو الحسن النصيبى المؤدب مؤدبا لعلى بن الحسن التنوخى[4] . كما أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد ت٣٢١هـ خمسين ديناراً فى كل شهر[5] .

تعقيب :

لا خلاف فى علاقات العلماء سواء فى إقليم الشام أو إقليم العراق ، فكأنهما قطر واحد أو إقليم واحد لم يتجزأ ، بل إنهما متفقان فى علاقاتهم مع عامة المسلمين، فكل منهما له شعبية عند العامة ، وكل منهما مقامه عالٍ وكلمتهم مسموعة عندهم، وكذلك العلماء كانوا سواء فى الشام أو العراق يجالسون عامة المسلمين ويشاركونهم حياتهم ويجتمعون معهم فى المسجد والسوق والحوانيت ، ويسكنون بين ظهرانيهم ، ويعقدون لهم مجلس الوعظ والفتوى .

وكذلك لا خلاف بين علاقة علماء الشام بعضهم ببعض وبين علاقة علماء العراق بعضهم ببعض ، ففى كل منهما مودة وخصومة ، وفى كل منهما نفس بشرية تحب وتكره ، وينشب بينهما مناظرات ومذاكرات ، وينشب بينهما تعاون وتقدير واحترام وتواضع ومعاونة لبعضهم البعض ، وتكريم وحسن استقبال .

---

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه ٤٠٨/٢ .

(٢) أخبار العلماء للقفطى ص١٠٣ .

(٣) أخبار العلماء للقفطى ص١٩٢ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٣٣/٢ ، ٣٥٨ .

(٥) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ٢٦٢/١ .

وموقفهم واحد فى علاقاتهم مع الدولة منهم من يقبل العمل معها ومنهم من يرفض ، منهم من يقبل منصب القضاء ومنهم من يرفضه ، فقد تساوى فى تلك علماء الشام وعلماء العراق .

وأما موقف الدولة منهم : فلم يبخل الخلفاء والأمراء والوزراء على علماء الشام أو علماء العراق فى أن يغدقوا عليهم الأموال ، ويجعلون لهم رواتب شهرية وأجوراً مضاعفة . وقد سبق أن بيّنا ذلك بالأمثلة سواء فى الشام أو فى العراق فكلاهما متفقان فى ذلك . متفقان فى الحصول على السماحة والكرم والاحترام وتكثيف الجهود فى خدمة العلم والعلماء .

أما علاقة العلماء مع طلابهم ، فيتفقان أيضاً أنهم يقدمون كل الوسائل فى سبيل تعليمهم والعطف عليهم ومعاونتهم أثناء الدرس وخارج الدرس وكل منهما يفتح داره لخدمة طلاب العلم ، والاحترام المتبادل بينهما قائم سواء فى الشام أو فى العراق .

وكذلك يتفقان فى مصادر المادة التى هى عصب الحياة فمنهم من مصدره ورثه الخاص ، ومنهم من مصدره مهنة يمتهنها غير العلم ، ومنهم من مصدره مهنة التأديب لأولاد الخلفاء والوزراء والأمراء والقضاة ، ومنهم من مصدره راتب شهرى من الخليفة أو الوزير ، ومنهم من له مرتب مضعف نتيجة لتعدد علومه وتعدد منفعته .

فالعلاقات عند العلماء والأحوال المالية أيضاً لا خلاف فيها بين أهل الشام وبين أهل العراق .

الفصل الرابع

خطط تصنيف العلوم وحركة النقل والترجمة

فى الشام والعراق

سبب ظهور خطط التصنيف في الشام والعراق

ظهرت خطط التصنيف فى الحضارة الإسلامية منذ وقت مبكر ، وعلى ضوء الدراسات المتوفرة لدينا فى الوقت الحاضر ، يمكن القول إن أقدم خطة تصنيف عرفتها الحضارة الإسلامية هى خطة تصنيف الفيلسوف وعالم الكيمياء جابر بن حيان فى القرن الثانى الهجرى ، ولكن الأمر المثير للاهتمام حقاً ، هو أن القرن الرابع الهجرى ـ على وجه الخصوص ـ قد شهد ظهور عدد كبير من خطط التصنيف ، ومعظمها فى الشام والعراق موضوع البحث .

وإن المبرر الكافى لإعداد خطط التصنيف هو ازدهار حركة التأليف وبروز علماء عديدين خلال القرن الرابع الهجرى بالشام والعراق ، ترتب عليه اتساع مجالات المعرفة وظهور علوم كثيرة .

فخطة التصنيف تعتبر خريطة للعلوم المشهورة والمعارف الشائعة فى أية حضارة . ولقد سبق بنا الحديث عن الحياة العلمية فى كل من الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجرى ، وتبين لنا الازدهار الفكرى الذى شهده إقليم الشام وإقليم العراق خلال ذلك القرن . كما سبق أن عرفنا عدداً كبيراً من المؤسسات التى أسهمت بدور كبير فى ازدهار الحياة الفكرية فى القرن الرابع الهجرى ، كدور الكتب وخزائنها التى انتشرت فى المساجد والقصور وبيوت القضاة والعلماء والأثرياء[1] .

وكذلك حلقات الدرس ومجالس العلم المنتشرة فى كل من الشام والعراق ، سواء فى المساجد أو المنازل أو الحوانيت أو الصالونات الأدبية أو غير ذلك . وكذلك مجالس المناظرات ، وحوانيت الوراقين ، فلا غرابة البتّة أن يظهر خلال القرن الرابع عدد كبير من العلماء الذين نبغوا فى علوم عديدة وقاموا بتأليف الكثير من الكتب فى العلوم المختلفة .

---

(١) المخطوط العربى منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجرى للدكتور عبد الستار الحلوجى ص١١٦ ـ ١٢١ .

بها أيضا أبو الحسين أحمد بن بوبان ت ٣٤٤هـ ، وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الطبرى ت ٣٩٣هـ وقرؤوا بقراءة يعقوب البصرى ، وكان أبصر أهل البصرة قراءة بها هو محمد بن هارون بن نافع التمار ت ٣١٠هـ ، وقرؤوا بقراءة الكسائى ، وقد برع فيها موسى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ت ٣٢٥هـ ، وقرؤوا بقراءة ابن كثير قصدها محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلى البغدادى ت ٣٥١هـ ، وذلك لعلوّ إسناده فيها ، وقرؤوا بقراءة حمزة ، وكان أحمد بن محمد بن إسماعيل المقرئ الآدمى ت ٣٢٧هـ عارفًا بحرف حمزة ، وقرؤوا بقراءة ابن عامر الشامى فكان يقصدها محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون الموصلى البغدادى ت٣٥١هـ وذلك لعلو إسناده فيها . وقرؤوا بقراءة ابن مجاهد حيث قرأ عليه بالسبعة عبد الغفار ابن عبيد الله السّرى الكوفى ت٣٦٧هـ، وسمع منه كتاب السبعة عمر بن إبراهيم ابن أحمد بن كثير البغدادى ت ٣٩٠هـ ، ومحمد بن أحمد بن على البغدادى ت٣٩٩هـ، وقرؤوا بقراءة عاصم فقد قرأ بها محمد بن على بن أحمد الواسطى ، ويوسف بن محمد بن الضرير بواسط ، وقرؤوا بقراءة الشنبوذى ، حيث قرأ بها محمد ابن على بن أحمد الواسطى(١) .

لقد استطاع علماء القراءات بالعراق كغيرهم من علماء الشام أن يصنفوا فى أنواع القراءات وأن يكتبوا فيها جامعاً ومفرداً وموجزاً ومسهباً(٢) .

وإضافة القراءات إلى أئمة القراءة ورواتهم ، لا تعنى أكثر من أنهم اختاروها وداوموا عليها ولازموها ، حتى اشتهروا بها وقصدوا فيها ، وهى كما يعبر ابن الجزرى ـ إضافة اختيار ودوام ولزوم لا إضافة اختراع ورأى واجتهاد(٣) .

لذلك فالقراءات متعددة ، وهذا التعدد قد يؤدى إلى اختلاف الأحكام ، وقد قال العلماء : « باختلاف القراءات يظهر الاختلاف فى الأحكام »(٤)، ويسوق لنا الإمام

---

(١) انظر : طبقات القراء للذهبى ٢٦٤/١ ، ٣٦٤ ، ٣٥٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٤ ، ٢٩٤ ، ٣٥٨ ، ٧٥ ، ٩٤ ، ٣٣٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٩١ وانظر غاية النهاية لابن الجزرى ١٨٩/١ .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٩٧/١

(٣) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ٥٢/١

(٤) مباحث فى علوم القرآن للدكتور مناع القطان ص ١٨١

الطبرى مواضع متعددة في تفسيره فيها هذا الاختلاف ، منها : قول الله عز وجل : ﴿ ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يطْهُرْنَ ﴾[1] فقرأ بعضهم « حتّى يطهرن » بضم الهاء وتخفيفها ، وقرأ آخرون بتشديد الهاء وفتحها ، فأما الذين قرأوه بتخفيف الهاء وضمها ، فإنهم وجّهوا معناه إلى : ولا تقربوا النساء فى حال حيضهنّ حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويطهرن ، وأما الذين قرأوا ذلك بتشديد الهاء وفتحها ، فإنهم عنوا به: حتى يغتسلن بالماء ، وشدّدوا الطاء لأنهم قالوا ذلك بتشديد الهاء وفتحها ، فإنهم عنوا به : حتى يغتسلن بالماء ، وشدّدوا الطاء لأنهم قالوا معنى الكلمة حتى يطهرن ، ادغمت التاء فى الطاء لتقارب مخرجيهما ، وأولى القراءتين بالصواب فى ذلك قراءة من قرأ « حتى يطّهرن » بتشديدها وفتحها بمعنى حتى يغتسلن ـ لإجماع الجميع على أن حراماً على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع دم حيضها حتى تطهر[2] .

تعقيب :

فى الدراسة المقارنة حول علم من العلوم فى إقليمين مختلفين ، من المسلم به أن يكون بينهما أوجه اتفاق حول هذا العلم وأوجه اختلاف ، وأوجه ينفرد بها أحدهما عن الآخر . لذلك فإن دراستنا لعلم القراءات سوف تدور حول نقاط علمية نلاحظ فيها أوجه اتفاق وأوجه اختلاف بين قراءة الشام وقراءة العراق ، ثم نجد نقاطاً ينفرد بها إقليم العراق دون إقليم الشام وذلك على النحو التالى :

اتفق أهل الشام وأهل العراق فى أنهم اتجهوا إلى جمع القراءات فى مصنفات وجمعوا الحروف ، وعزوا الوجوه والروايات ، وميّزوا الصحيح والمشهور والشاذ بأصول أصلوها وأركان فصلوها .

كما أنهم استطاعوا أن ينشروا القراءات السبع الصحيحة ، حتى توارت القراءات الشاذة منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى .

فهناك من علماء الشام من كتب فى القراءات كتبا واشتهرت ، وصارت القراءات

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٢٢) .

(٢) تفسير جامع البيان للطبرى ٤/٣٨٤.

صناعة مخصوصة ، وعلمًا مفرداً ، تناقله الناس جيلاً بعد جيل وتعددت القراءات بالشام وأخذ كثير من العلماء بالقراءات دون أن يقتصروا على قراءة بعينها ، فمنهم من قرأ بقراءة ابن عامر فسادت وانتشرت ، كما سادت أيضا قراءة أبو عمرو بن العلاء، ولم يقتصروا على قراءة أهلها وأهل العراق بل اتجهوا إلى قراءة أهل مكة فقرؤا بها كقراءة ابن كثير المكى ، وإن منهم من قرأ ببعض القراءات الشاذة كقراءة أبى الفرج الشنبوذى . كما فشت قراءة الكسائى ، واستعملوا القراءات السبع واجتهدوا فى ضبطها .

وكذلك علماء العراق كتبوا فى القراءات المصنفات العديدة وتعددت القراءات بها، وأصبحت القراءات صناعة مخصوصة ، وعلمًا مفرداً ، تناقله الناس جيلا بعد جيل ، ولم يقتصروا على قراءة بعينها ، بل قرأوا بقراءة نافع ، والكسائى ويعقوب البصرى ، وأخذوا بقراءة أهل مكة أيضًا وقرأوا بها كقراءة ابن كثير ، وقراءة حمزة ، وابن عامر الشامى وقرأوا بقراءة ابن مجاهد حيث قرئ عليه بالسبعة ، وسمع منه كثير من العلماء القراءات السبع ، وقرأوا بقراءة عاصم ، وبقراءة الشنبوذى الشاذة .

وإن هذا التعدد فى القراءات قد أدى إلى اختلاف فى الأحكام وذلك واضح وجلىّ عند علماء العراق دون علماء الشام ، فأبو جعفر الطبرى له موقف معروف فى ذلك وقد ذكر أمثلة عديدة فى كتابه « جامع البيان » أثبت من خلالها أن اختلاف القراءات يؤدى إلى اختلاف فى الأحكام .

التأثير والتأثر :

فى القرن الرابع الهجرى وما قبله ، فإن التأثير والتأثر بين العلماء فى الأقاليم المختلفة كان مقرراً ، ولذلك كان لابد من بحث فى التأثير والتأثر بين كل من علماء الشام والعراق .

أولاً : تأثر علماء العراق بعلماء الشام :

تأثر أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبرى بعلماء الشام ، فقد أخذ عنهم العلم ، حيث قرأ القرآن ببيروت على العباس بن الوليد بن مزيد[1] . وروى أبو حفص عمر بن

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٥٩/٢٢

أحمد بن شاهين البغدادى ٣٨٥هـ القراءة عن أبى على الحصائرى الدمشقى الفقيه المقرئ ت ٣٣٨هـ، كما أثر محمد بن النضر بن الأخرم الدمشقى فى كثير من طلاب العلم ببغداد عندما قدم بها فحضر مجلس ابن مجاهد ، فقال ابن مجاهد لطلاب العلم الموجودين فى المجلس : هذا صاحب الأخفش الدمشقى فاقرأوا عليه فقرأوا عليه وكان من بينهم أبو الفتح بن بُدْهُن . كما قرأ ابن الشنبوذى البغدادى على ابن الأخرم الدمشقى وقال عنه : ما رأيت شيخًا أحسن معرفة من ابن الأخرم بالقرآن ولا أحفظ ، كما تأثر أبو بكر النقاش بعلماء دمشق فى علم القراءات فقد قرأ بدمشق على هارون الأخفش الدمشقى القرآن من أوله إلى آخره(١) .

ثانيًا : تأثر علماء الشام بعلماء العراق :

كما أثر أهل الشام فى أهل العراق فقد أثر علماء العراق فى أهل الشام أيضا، فقد رحل أبو سهل البغدادى المقرئ ت ٣٤٥هـ إلى دمشق وتصدر حلقات العلم وأقرء الناس، فقرأ عليه من علماء الشام عبد المنعم بن غلبون، وعلى بن محمد الأنطاكى وعلى بن داود الدّارانى وكلهم شاميون ، كما تصدر القراءة بدمشق أيضًا أحمد بن عثمان الربعى البغدادى ت ٣٤٥هـ فقرأ عليه على بن داود الدّرانى ، ورحل أبو الفرج الشنبوذى البغدادى إلى بلاد الشام ، فقرأ عليه أبو طاهر محمد بن ياسين الحلبى ، وتأثر محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى الأنبارى . نزيل عسقلان ت ٣٧٧هـ بأبى بكر بن مجاهد وبأبى بكر بن الأنبارى . كما رحل من الشام طاهر بن غلبون إلى البصرة ، وقرأ على محمد بن يوسف البغدادى المقرئ بجامع البصرة . ولقى ببغداد أبا بكر القطيعى ، وسمع عبد الباقى بن الحسن الدمشقى ت٣٨٠هـ أبا بكر الأبهرى ، وكتب عنه كتبه فى الشرح ببغداد . كما تأثر فارس بن أحمد بن موسى الحمصى ت٤٠١هـ بقراء العراق حيث قرأ على أبى الفرج الشنبوذى ، وقرأ على بن محمد بن على المقرئ الحرّانى بالروايات على أبى بكر النقاش وسمع منه تفسيره .

---

(١) طبقات القراء للذهبى ٢٨٩/١، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٦.

وتأثر الهيثم بن أحمد بن الصباغ ت ٤٠٣هـ حيث قرأ بالروايات على أبى الفرج ابن شنبوذ ، وصنف كتاباً فى قراءة حمزة[١] .

ومن دراسة التأثير والتأثر بين كل من علماء الشام والعراق فى القراءات يظهر واضحًا جليًا أثر كل من علماء الإقليمين فى الآخر ، وتأثره بهم حيث قرأ كثير من قراء الشام على قراء العراق ، وكذلك قرأ كثير من قراء العراق على قراء الشام .

من مشاهير قرّاء الشام :

أبو بكر الدّاجونى محمد بن أحمد بن عمر الرملى الضرير المقرئ ت٣٢٤هـ[٢] .

كان مقرئًا جليلاً حافظاً ثقة ، قدم بغداد وقصد حلقة ابن مجاهد ، فرفعه ابن مجاهد ، وقال لأصحابه : هذا الداجونى اقرؤوا عليه[٣] ، واعتنى بالقراءات ورحل إلى الشيوخ وجمع القراءات ، وقرأ على هارون الأخفش الدمشقى ، ومحمد بن موسى الصورى ، والعباس بن الفضل الرازى ، وجماعة .

وقرأ عليه أبو بكر بن مجاهد وعبد الله بن محمد القباب ، وزيد بن أبى بلال الكوفى ، وسمع منه الحروف أحمد بن محمد النحاس ، والحسن بن رشيق وصنف كتاباً فى القراءات[٤] .

إبراهيم بن عبد الرزاق بن الحسن أبو إسحاق الأنطاكى المقرئ ت ٣٣٩هـ[٥] .

---

(١) طبقات القراء للذهبى ٣٠٢/١، ٣١٣، ٣٣٣، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٥٣، ٣٥٨، ٣٦٩، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٩٣ .

(٢) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٩٣/٢١ ـ ٢٩٤ ، وطبقات القراء للذهبى ٢٦٨/١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ٧٧/٢ .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٩٤/٢١ .

(٤) طبقات القراء للذهبى ٢٦٨/١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ٧٧/٢ ، وكشف الشنون لحاجى خليفة ٣٨٤/٢ .

(٥) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٧٨/٤ ،طبقات الذهبى ٢٨٧/١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ١٦/١ ، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٠٠/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٤٦/٢ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٣٦/١ .

قرأ القرآن بدمشق، وكان مقرئ أهل الشام في زمانه[(١)]، وأخذ القراءة عرضًا وسماعًا عن طائفة كبار، فقرأ على هارون بن موسى الأخفش وقنبل، وإسحاق الخزاعي، وأحمد بن أبي الرجاء وغيرهم، وحدّث عنه أبو أحمد بن محمد جامع الدّهان، وشهاب بن محمد الصرى، ومحمد بن أحمد الملطى، ومحمد بن أحمد ابن جُميع الغسانى. وقد صنف كتاباً فى «القراءات الثمانية» يقول أبو إسحاق الأنطاكى، أتيت مكة وقنبل حيّ، وقرأت هذه القراءت من هذا الكتاب الذى رواه قنبل، وهو يسمع فما ردّ عليّ شيئًا، وما أرى ذلك إلا لصحة قراءتى، وذلك أنى حفظتها بعينها، وقد رحلت إلى المصيصة فأخذت القراءة فيها عن أحمد بن حفص الخشاب، وقرأت على الأخفش مقرئ أهل دمشق[(٢)].

محمد بن النضر بن مرّ الربعيّ الشهير بابن الأخرم الدمشقى ت ٣٤١هـ[(٣)].

قارئ أهل دمشق، وشيخ القراء بالشام، كان الإقراء صنعته مع جلالة قدره، وواسع ما يحفظه من التفسير ومعانى القراءات، إلى ما كان يعلمه من العربية فى وُجُوه القراءات، وكان يذاكر بذلك من يذاكره، ويبتدئ بما خطر له منه من حضره، وإن لم يسأله عن شيء منه رغبة فى تعليم العلم، مع حسن خلقه وتواضعه، وانبساطه، وإعانته من يقرأ عليه بالإشارات بيده وفيه، مرة إلى الضم ومرة إلى الفتح، ومرة إلى الكسر، ومرة إلى الإدغام، ومرة إلى الإظهار، بإشارات عرفت منه[(٤)]، وكانت له حلقة علم عظيمة بجامع دمشق لاتقانه وعلمه ومعرفته[(٥)]. وقد أخذ القراءة عرضًا عن هارون الأخفش، وعن جعفر بن أحمد بن كزاز، وأحمد بن نصر ابن شاكر، وروى القراءة عنه عرضًا أحمد بن عبد العزيز بن بدهن، وأحمد بن نصر

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٧٨/٤، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٤٦/٢.

(٢) طبقات القراء للذهبى ٢٨٧/١، ٢٨٨، وغاية النهاية لابن الجزرى ١٦/١، ١٧.

(٣) انظر ترجمته فى: مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٨٢/٢٣، وطبقات القراء للذهبى ٢٩٠/١، وغاية النهاية لابن الجزرى ٢٧٠/٢ ـ ٢٧١، وطبقات المفسرين للداودى ٢٦٤/٢، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٦١/٢.

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٣/ ٢٨٢.

(٥) طبقات القراء للذهبى ٢٩١/١، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٦١/٢.

الشذانى ، وأحمد بن الحسن بن مهران وغيرهم[1] لما حضر ابن الأخرم بغداد حضر مجلس ابن مجاهد ، فقال لأصحابه هذا صاحب الأخفش الدمشقى فاقرؤوا عليه ، وكان ابن الأخرم يقرأ فى منزله على الأخفش ، وكان أبوه يخلص للأخفش رزقه من السلطان كل سنة[2].

لقد كان دوره متمثلاً فى إقامة مجالس العلم سواء فى المسجد أو المنزل لكى يوصل صنعته إلى الناس ، ويعلمهم القراءة فى كتاب الله عز وجل .

عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون بن المبارك ، أبو الطيب الحلبى المقرئ ت٣٨٩هـ[3].

أستاذ ماهر كبير ، ضابط ثقة خيّر صالح ، روى القراءة عرضاً وسماعاً عن إبراهيم ابن عبد الرزاق ، وإبراهيم بن محمد بن مروان ، وأحمد بن محمد بن بلال ، ومحمد ابن أحمد بن إبراهيم البغدادى وغيرهم كثير ، وعرض القراءة عليه ولده أبو الحسن طاهر ، وكذلك أحمد بن على الربعى والحسن بن عبد الله الصقلى وغيرهم[4].

وألف ابن غلبون الحلبى كتاب « المعدل فى القراءة »[5] وكتاب « الإرشاد فى القراءات السبع »[6] فكان ذا فضل وحسن تصنيف ، وكان الوزير جعفر بن الفضل معجبًا به ، وكان يحضر عنده فى المجلس مع العلماء ، وله كتاب « الاستكمال لبيان جميع ما يأتى فى كتاب الله عز وجل فى مذاهب القراء السبعة فى التفخيم والإمالة»[7].

---

(١) غاية النهاية لابن الجزرى ٢/٢٧٠ ـ ٢٧١ .

(٢) طبقات القراء للذهبى ٢٩١/١ ، وطبقات المفسرين للداودى ٢٦٥/٢ .

(٣) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٣٩/١٥ ، وطبقات القراء للذهبى ٣٥٥/١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ٤٧٠/١ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٧٧/٥ ، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة ٣٢٤/٢.

(٤) طبقات القراء للذهبى ٣٥٥/١ ـ ٣٥٦ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ٤٧٠/١ ـ ٤٧١ .

(٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٩٨/٢.

(٦) طبقات القراء للذهبى ٣٥٥/١ .

(٧) تاريخ التراث العربى لسزكين ٤٧/١/١ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٦/٤ .

وبرع ابنه طاهر بن عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون ت ٣٩٩هـ فى علم القراءات ، فكان أحد الحذاق المحققين ، وأخذ القراءة عرضاً عن أبيه وغيره ، ثم رحل إلى العراق فقرأ بالبصرة على علمائها ، وسمع الحروف عن أبيه وغيره وروى القراءات عرضاً وسماعاً ، وألف كتاب « التذكرة فى القراءات الثمانية »(١) .

أبو الفتح الحمصى فارس بن أحمد بن موسى بن عمران المقرئ الضرير ت٤٠١هـ(٢) .

هو الأستاذ الكبير الضابط الثقة ، رحل وقرأ على عبد الباقى بن الحسن وعبد الله ابن الحسين ، وعلى بن الجلاء ، ومحمد بن الحسن الأنطاكى وأبى الفرج الشنبوذى، وجماعة(٣) وقرأ عليه جماعة ، منهم ولده عبد الباقى بن فارس وأبو عمرو الدانى الذى قال : لم ألق مثله فى حفظه وضبطه وقد صنف كتاب « المنشأ فى القراءات الثمانية » فكان أحد الحذاق بهذا الشأن(٤) .

الهيثم بن أحمد بن محمد بن سلمة أبو الفرج القرشى الدمشقى ت٤٠٣هـ(٥) .

يُعرف بابن الصباغ ، إمام مسجد سوق اللؤلؤ بدمشق ، قرأ بالروايات على أبى الفرج غلام ابن شنبوذ ، وأبى الحسن على بن محمد بن إسماعيل الأنطاكى ، وحدث عنه علىّ الربعى ، وعلى بن محمد بن شجاع وأبو على الأهوازى وغيرهم ، وكان يقرأ بالجامع الأموى ، وله كتاب فى قراءة حمزة(٦) .

---

(١) طبقات القراء للذهبى ٣٦٩/١ ـ ٣٧٠ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ٣٣٩/١ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ٤٩١/١ .

(٢) انظر ترجمته فى : طبقات القراء للذهبى ٣٧٩/١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ٥/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٦٠٧/٢ .

(٣) غاية النهاية لابن الجزرى ٥/٢ ، وطبقات القراء للذهبى ٣٧٩/١ .

(٤) طبقات القراء للذهبى ٣٧٩/١ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٦٠٧/٢ .

(٥) انظر ترجمته فى : طبقات القراء للذهبى ٣٧٨/١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ٣٥٧/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٦٧/٤ .

(٦) طبقات القراء للذهبى ٣٧٨/١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ٣٥٧/٢ .

كما اشتهر من علماء الشام كثير ممن صنف فى علم القراءات مما يجعل دورهم بارزاً وإسهاماتهم ظاهرة واضحة ، سواء فى عقد مجالس العلم أو فى التصنيف أو فى الرحلة العلمية من مكان إلى مكان ، فقد اشتهر أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن بن سعيد الأصبهانى ت ٣٩٣هـ وقد صنف كتاباً فى القراءات[(١)] .

والحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسى أبو على ت ٣٧٧هـ حيث صنف كتاب « الحجة فى علل القراءات »[(٢)]. والحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان الهمدانى أبو عبد الله ت ٣٧٠هـ، وقد صنف كتاب « الانتصار لأمة الأمصار فى القراءات » ، وله كتاب الحجة فى القراءات السبع (مطبوع)[(٣)]. وعلى بن محمد ابن إسماعيل بن محمد بن بشر الأنطاكى أبو الحسن ٣٧٧هـ، وقد صنف كتاب «الأصول فى قراءة ورش »[(٤)]. وأبو الفتح بن جنى ت ٣٩٢هـ، رغم أنه عاش فى العراق إلا أنه نزل الشام أكثر من مرة . وعاش فى كنف سيف الدولة الحمدانى ، ثم عاد إلى بغداد ، وصنف الوقف والابتداء ، وشرح كتاب « الشواذ لابن مجاهد »[(٥)] وأحمد بن الصقر أبو الحسن المنبجى المقرئ المتوفى قبل الستين وثلثمائة ، وله مصنف فى القراءات سماه « الحجة » ، ذكر فيه القراءات السبعة وبيّن وجوهها وعللها[(٦)] .

---

(١) انظر ترجمته فى : معجم الأدباء لياقوت ١٨/٢ ، وطبقات القراء للذهبى ٣٧٤/١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ١٠١/١ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢٤٣/١ .

(٢) انظر ترجمته فى : معجم الأدباء لياقوت ٤١٣/٢، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٨٠/٢ ، وطبقات القراء لابن الجزرى ٢٠٦/١ ، وإنباه الرواة للقفطى ٣٠٨/١، وشذرات الذهب لابن العماد ٨٨/٣.

(٣) انظر ترجمته فى : معجم الأدباء لياقوت ٩٩/٣ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٧٥/٢، وأنباء الرواة للقفطى ٣٥٩/١ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٣١٧/١١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٧١/٣، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٢٥٢/٥، وانظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبع للدكتور محمد عيسى ٢٦٤/٢ .

(٤) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥٣/١٨ ، وإنباه الرواة للقفطى ٣٠٨/٢، وطبقات القراء للذهبى ٣٤٢/١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ٥٦٤/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٩٠/٣ .

(٥) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣٥٨/٢، وانظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع للدكتور محمد عيسى صالحية ٧٧/١ ـ ٨٣ .

(٦) بغية الطلب فى تاريخ حلب لابن العديم تحقيق الدكتور سهيل زكار ٨٠١/٢ .

من مشاهير قرّاء العراق :

محمد بن جرير الطبرى الإمام أبو جعفر ت ٣١٠هـ[١]

رحل لطلب العلم وله عشرون سنة ، وأخذ القراءة عن سليمان بن عبد الرحمن ابن حامد بن خلاء ، وعن العباس بن الوليد بن مزيد ببيروت ، وروى الحروف سماعاً عن العباس بن الوليد ويونس بن عبد الأعلى ، وأبى كريب محمد بن العلاء وأحمد بن يوسف التغلبى ، وصنف كتاباً حسناً فى القراءات سماه « الجامع »[٢] ، كان أحد أئمة العلماء ، ويرجع إلى رأيه ، لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، وكان حافظاً لكتاب الله عارفا بالقراءات ، بصيراً بالمعانى فقيها فى أحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها ناسخها ومنسوخها ، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين فى أحكام ومسائل الحلال والحرام[٣] .

ويعدّ أبو جعفر الطبرى أول من نعلمه أنكر قراءة ابن عامر الشامى وغيرها من القراءات الصحيحة ، تلك القراءة التى كان الناس بدمشق وسائر بلاد الشام وأعمالها لا يأخذون إلا بها ، وقد ركب ابن جرير هذا المحذور بعد الثلثمائة ، وقد عدّ ذلك من سقطات ابن جرير الطبرى ، حتى قال السخاوى : قال لى شيخنا أبو القاسم الشاطبى : إياك وطعن ابن جرير على ابن عامر ، ولله درّ إمام النحاة أبى عبد الله بن مالك ـ رحمه الله ـ حيث قال فى كافية الشافية :

وحجتى قراءة ابن عامر ... فكم لها من عاضد وناصر[٤]

ويقول أبو جعفر الطبرى : وأما ما كان من اختلاف القراءة فى رفع حرف وجرّه

---

(١) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص٣٢٦ ، وتاريخ بغداد للبغدادى ١٦٢/٢ ـ ١٦٩ ، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٥٩/٢٢ ـ ٦٣ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٩١/٤ ، وطبقات القراء للذهبى ٢٦٤/١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ١٠٦/٢ ،والبداية والنهاية لابن كثير ١٣٤/٨ .

(٢) غاية النهاية لابن الجزرى ١٠٧/٢ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٦٣/٢ ـ ١٦٤ .

(٤) الجمع الصوتى الأول للقرآن تأليف الدكتور لبيب السعيد ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

ونصبه وتسكين حرف وتحريكه ، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة ، فمن معنى قول النبى ﷺ « أُمرتُ أنْ أقرأ القُرآنَ على سبْعة أحرف »(١) بمعزل لأنه معلوم أنه لا حرف من حروف القرآن ـ مما اختلفت القراءة فى قراءته بهذا المعنى يوجب المراء به كفر الممارى به فى قول أحد علماء الأمة(٢). وقد اختار ابن جرير الطبرى التغنى بالقرآن أى تحسين الصوت به والترجيع بقراءته ، يقول الإمام ابن القيم الجوزية : ذكر الطبرى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول لأبى موسى : ذكّرنا ربنا فيقرأ أبو موسى ويلاحنه ، وقال : من استطاع أن يتغنى بالقرآن غناء أبى موسى فليفعل، وهذا اختيار ابن جرير الطبرى ، أما ما كان من ذلك صناعة من الصنائع ، وليس فى الطبع السماحة به ، بل لا يحصل إلا بتكلف وتصنع وتمرن ، كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة والمركبة ، على إيقاعات مخصوصة وأوزان مخترعة ، لا تحصل إلا بالتعلم والتكلف ، فهذه هى التى كرهها السلف وعابوها ومنعوا القراءة بها وأنكروا على من قرأ بها(٣).

وقد يفاضل الطبرى أحياناً بين القراءات ، وذلك أمر واضح فى كتابه « جامع البيان » فى تفسير القرآن الكريم(٤).

أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادى ت ٣٢٤هـ(٥).

الحافظ الأستاذ أبو بكر بن مجاهد البغدادى شيخ الصنعة ، وأول من سبّع السبعة ، شيخ العصر وشيخ القراء فى وقته ، والمقدم منهم على أهل عصره(٦)، قرأ القرآن على

---

(١) صحيح البخارى طبعة دار الشعب القاهرة كتاب التفسير باب أنزل القرآن على سبعة أحرف .

(٢) مقدمة تفسير الطبرى تحقيق الشيخ أحمد شاكر ٦٥/١ .

(٣) زاد المعاد لابن القيم الجوزية ١٣٥/١ ـ ١٣٧ .

(٤) انظر تفسير الطبرى ٨٢/٦ ـ ٨٤، ٧/١١، ٢٤، ١٨/١٢ .

(٥) انظرر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٤٧ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٤٤/٥ ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ٣٢٨/٨ ، وطبقات القراء للذهبى ٢٦٩/١ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١١/ ١٩٧ ، وغاية النهاية لابن الأثير ٣٢٨/٨ ، وطبقات القراء للذهبى ٢٦٩/١ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٩٧/١١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ١٣٩/١ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٥٨/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٠٢/٢ .

(٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٤٤/٥ .

أبى الزّعراء بن عبدوس ، وقنبل المكى ، وسمع القراءات من طائفة كبيرة وتصدر للإقراء ، وازدحم عليه أهل الآداء ، ورحل إليه من الأقطار ، واشتهر أمره ، وفاق نظراءه . وقرأ عليه أبو طاهر عبد الواحد بن أبى هاشم ، وصالح بن إدريس، وأبو عيسى بكار بن أحمد ، وأبو الفرج الشنبوذى ، وأبو الحسين عبيد بن البواب ، وأبو على الحسين بن عثمان المجاهدى وغيرهم كثير(١) .

وكان يجلس فى حلقته نحوا من ثلثمائة مُصْدر ، وله فى حلقته أربعة وثمانون خليفة يأخذون على الناس(٢) .

وقد صنف من الكتب كتاب القراءات الكبير ، وكتاب القراءات الصغير ، وكتاب الياءات وكتاب الهاءات ، وكتاب قراءة أبى عمرو ، وكتاب قراءة ابن كثير ، وكتاب قراءة عاصم ، وكتاب قراءة نافع ، وكتاب قراءة حمزة ، وكتاب قراءة الكسائى ، وكتاب قراءة ابن عامر الدمشقى ، وكتاب السبعة فى منازل القراء وهو مطبوع مشهور، واختلاف قراء الأمصار(٣) . لقد خاف ابن مجاهد على القرآن الكريم ، من القراء غير المتقنين ، فحمل الناس فى كل الدنيا على القراءات السبع التى اختارها لهم ، لذلك فهو يريد من القارئ أن يكون عالمًا بوجوه الإعراب والقراءات ، عارفًا باللغات ومعانى الكلام(٤) . وقد رأى ألا يروى إلا عمن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراءة ، مع اتفاق الآراء على الأخذ منه والتلقى عنه ، فتم له ذلك فى القراءات السبع ، فحظيت بالشهرة ونباهة الشأن(٥) .

أبو بكر النقاش محمد بن الحسن بن محمد بن هارون الموصلى ثم البغدادى ت ٣٥١هـ(٦) .

---

(١) طبقات القراء للذهبى ٢٧٠/١ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ١٤٠/١ ـ ١٤٢ .

(٢) غاية النهاية لابن الجزرى ١٤٢/١ .

(٣) تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ٤٤/١/١ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣/٤ ـ ٤ ، والمعجم الشامل للتراث العربى المطبوع للدكتور محمد عيسى ٤٤/٥ .

(٤) إبراز المعانى من حرز الأمانى لأبى شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ص ٤

(٥) علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور ص ١٨٤ .

(٦) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٥٠ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٠١/٢ ، والكامل لابن الأثير ٥٤٥/٨ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٩٨/٤ ، وطبقات القراء للذهبى ٢٩٤/١ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٥٨/١١ ، غاية النهاية لابن الجزرى ١١٩/٢ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٣٤/٣ ، وطبقات المفسرين للداودى ١٣٥/٢ .

المقرئ المفسر الموصلي الأصل البغدادي المولد والمنشأ ، كان عالمًا بالقرآن والتفسير(١) ، وعنى بالقراءات منذ صغره ، وسمع الكثير فى بلدان شتى عن خلق من المشايخ فقرأ على الحسن بن العباس بن أبى مهران الرازى ، وعلى إدريس بن عبد الكريم ، وأحمد بن فرح المفسر ، والحسين بن الحسين الصوّاف ، ورحل فى طلب الإسناد ، فقرأ بدمشق على هارون الأخفش، وبمصر على إسماعيل بن عبد الله النحاس وغيرهم كثير ، وروى عنه القراءة محمد بن عبد الله بن أشته ، ومحمد بن أحمد الشنبوذى ، وعلى بن عمر الدارقطنى وغيرهم كثير(٢) . وكان أبو بكر النقاش عالمًا بحروف القرآن ، حافظًا للتفسير ، وله تصانيف فى القراءات وغيرها من العلوم ، وسافر الكثير شرقًا وغربًا ، وكتب بالكوفة والبصرة ومكة ومصر والشام والجزيرة والموصل ، والجبال وببلاد خراسان ، وما وراء النهر(٣) .

وكان يقصد فى قراءة ابن كثير ، وابن عامر لعلو إسناده فيها ، وكان له بيتًا مملوءًا بالكتب ، وكان الدارقطنى يستملى له ، وينتقى من حديثه ، وقد حدّث عنه ابن مجاهد ، وكان حسن الخلق ذا سخاء(٤) .

وكان يُرحل إليه ، ويُقرأ عليه ، وله من الكتب : كتاب المعجم الأصغر والمعجم الأوسط والمعجم الكبير فى أسماء القراء وقراءتهم ، وكتاب السبعة بعللها الكبير ، وكتاب السبعة الأوسط وكتاب السبعة الأصغر ، وله كتب أخرى عديدة فى غير القراءات(٥) .

إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو إسحاق الطبرى المالكى المقرئ ت ٣٩٣هـ(٦) .

ثقة مشهور أستاذ ، حدث عن إسماعيل الصفار ، وعلى السُّتورى وأحمد بن

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٩٨/٤ .

(٢) طبقات القراء للذهبى ٢٩٤/١ ـ ٢٩٥ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ١١٩/٢ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٠١/٢ ، ٢٠٤ .

(٤) طبقات القراء للذهبى ٢٩٨/١ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٥٠ .

(٦) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٩/٦ ، وطبقات القراء للذهبى ٣٥٨/١ ـ ٣٥٩ ، وغاية النهاية لابن الجزرى ٥/١ ـ ٦ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٣٥٥/١١ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٠٩/٤ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٤٢/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ١٤/١ .

سليمان العباداني ، وقرأ القرآن على أحمد بن عثمان بن بويان وأبي بكر النقاش ، وغيرهم وقرأ الحروف على أحمد بن عبد الله بن محمد المكى ، وإبراهيم بن أحمد بن الحسن القرماسينى وغيرهم .

وقرأ عليه الحسن بن على العطار بن أبي الفضل الشرمقانى وأبو على الأهوازى وأبو نصر أحمد بن مسرور ، وأحمد بن رضوان وأبو على المالكى ، وروى عنه الحروف أبو عبد الله محمد بن يوسف الأفشينى(١) .

وكانت داره مجمع أهل القرآن والحديث ، وكان ثقة(٢). ومقدم على الشيوخ ببغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ، وله من الكتب كتاب الاستبصار فى القراءات ، وقد أحسن فيه التحقيق(٣) . سكن بغداد وحدث بها إلى أن توفى فى سنة ٣٩٣هـ(٤) .

كما اشتهر علماء كثيرون فى علم القراءات بالعراق ، لهم مؤلفات فى هذا العلم منهم : عبد الواحد بن عمر بن محمد بن أبى هاشم أبو طاهر البغدادى المقرئ ت٣٤٩هـ، حيث صنّف كتاب « البيان » و « شواذ السبعة » و « الياءات » ، وكتاب «قراءة الكسائى الكبير »(٥) . وبكار بن أحمد بن بكار البغدادى أبو عيسى ت ٣٥٢هـ حيث صنّف كتاب « قراءة الكسائى » ، وكتاب « قراءة حمزة »(٦) . والحسين بن عثمان بن ثابت البغدادى الضرير ٣٧٨هـ الذى صنف كتاب « القراءات السبع»(٧) .

---

(١) طبقات القراء للذهبى ٣٥٨/١ ، ٣٥٩، وغاية النهاية لابن الجزرى ٥/١ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٠/٦ .

(٣) غاية النهاية لابن الجزرى ٦/١ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ١٤/١ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٠/٦، وطبقات القراء للذهبى ٣٥٩/١ .

(٥) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٧/١١، وطبقات القراء للذهبى ٣١٢/١، وإنباه الرواة للقفطى ٢١٥/٢ .

(٦) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٣٤/٧، وطبقات القراء للذهبى ٣٠٦/١، وغاية النهاية لابن الجزرى ١٧٧/١، ومعجم المؤلفين لكحالة ٤٣٣/١ .

(٧) انظر غاية النهاية لابن الجزرى ٢٤٣/١، ومعجم المولفين لكحالة ٦٢٢/١ .

الفصل الثانى

علم التفسير فى الشام والعراق

علم التفسير فى الشام والعراق

فى القرن الرابع الهجرى

التفسير علم يُبحث فيه عن القرآن الكريم ، من حيث دلالته على مراد الله تعالى ، بقدر الطاقة البشرية ، فهو الإيضاح والتبيين[١] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[٢] ففضل التفسير عظيم ، وحاجة الناس إليه شديدة ، فإن الأفراد والجماعات لا يصلون إلى غايتهم من السعادة فى الدنيا والآخرة إلا بالاسترشاد بالقرآن والعمل بتعاليمه ، وهديه ونظمه الحكيمة ، والعمل بهذه التعليمات السامية الحكيمة ، والإفادة منها لا يتأتى إلا بعد فهم القرآن الكريم[٣]

التفسير قبل القرن الرابع فى كل من الشام والعراق

خطى التفسير قبل القرن الرابع الهجرى ـ سواء فى الشام أو فى العراق أو غيرهما ـ خطوات تدرّج فيها على النحو التالى :

الخطوة الأولى : التفسير فى عهد النبى ﷺ وأصحابه ، كان طبيعيا أن يفهم النبى ﷺ القرآن جملة وتفصيلا بعد أن تكفل الله له بالحفظ والبيان قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[١] كما كان طبيعيا أن يفهم الصحابة القرآن فى جملته ـ بالنسبة لظاهره وأحكامه ـ أما فهمه تفصيلا ، ومعرفة دقائق باطنه ، بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة ، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن ، بل لابد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبى ﷺ فيما يشكل عليهم فهمه[٥] .

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى ٤٧٠/١ ـ ٤٧١ .

(٢) سورة الفرقان الآية (٣٣).

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور أبو زيد شلبى ص ٢٠٠.

(٤) سورة القيامة الآيات (١٧ ، ١٨ ، ١٩).

(٥) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ٣٣/١ .

الخطوة الثانية : وتبدأ من عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنهم . فقد اعتمدوا فى فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء فى الكتاب نفسه وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسير أنفسهم وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب ، مما جاء فى كتبهم ، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر فى كتاب الله .

الخطوة الثالثة : خطوة تدوين الحديث ، وكانت أبوابه متنوعة ، وكان التفسير بابا من هذه الأبواب ، لم يفرد له تفسير خاص يفسر القرآن سورة سورة وآية آية من مبدئه إلى منتهاه . فكان جمع العلماء للتفسير جمعًا لباب من أبواب الحديث ، ولم يكن جمعا للتفسير على استقلال وانفراد .

الخطوة الرابعة : وجاءت فى نهاية القرن الثالث الهجرى ، حيث انفصل التفسير عن الحديث وأصبح علما قائماً بذاته ووضع التفسير لكل آية من القرآن ورتب ذلك

فق فيهالشام من تصنيف ، فقد صنف أبو مسعود الدمشقى ت ٤٠١هـ

الرابع الهجرى وصار التفسير علماً مستقلاً سواء فى الشام أو فى العراق[١] .

التفسير فى القرن الرابع الهجرى :

أولا : فى الشام :

نما تفسير القرآن خلال القرن الرابع الهجرى نموا واسعاً ، واتضحت فيه اتجاهات قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام : تفسير بالرواية ويسمى التفسير بالمأثور ، وتفسير بالدراية ويسمى التفسير بالرأى ، وتفسير بالإشارة ويسمى التفسير الإشارى[٢] .

أما التفسير بالرواية المسمى التفسير بالمأثور فهو أشهر الأنواع و الأقسام فى الشام ، ويقصد به بيان معنى القرآن الكريم بما جاء فى القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته ، كما جاء فى قوله سبحانه ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾[٣] ، فإن كلمة « النّجم الثّاقب » بيان كلمة « الطّارق » التى قبلها .

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ٩٩/١، ١٤٠، ١٤١، ١٤٥ .

(٢) مناهل العرفان للزرقانى ٤٧٩/١ .

(٣) سورة الطلاق الآية (١ ـ ٣) .

وكذلك ما نقل عن النبى ﷺ شرحا للقرآن ، أنه ﷺ فسر « الظلم بالشرك » فى قوله سبحانه ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[1] .

وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم ، على أنهم قد شهدوا الوحى والتنزيل وعرفوا وعاينوا من أسباب النزول ما يكشف لهم النقاب عن معانى الكتاب ، ولهم من الفصاحة والبيان ما يمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله ، وما يجعلهم يوقنون بمراده من تنزيله وهداه[2] .

فقد أورد المفسرون من المحدثين التفاسير مسندة فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد[3] .

لقد اتجه علماء التفسير فى الشام خلال ذلك القرن إلى تفسير القرآن آية آية فى مصنفات مستقلة عن باقى العلوم الأخرى ، ودونوه عن طريق الرواية فيما نقل عن سلف الأمة ، وكان من بين هؤلاء المفسرين أحد الحفاظ المكثرين الإمام الطبرانى سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمى الشامى المتوفى ٣٦٠هـ، حيث صنف كتابه «تفسير القرآن» . وكذلك ابن عطية الدمشقى المقرئ المفسر المتوفى ٣٨٣هـ، قد صنف « تفسير القرآن »[4] وغيرهم كثير .

وبعد أن كان تدوين التفسير مقصورا على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة تجاوز إلى تدوين تفسيرٍ اختلط فيه الفهم العقلى بالتفسير النقلى ، وكان ذلك على تدرج ملحوظ فى ذلك ، قد كان الجانب العقلى يرجع إلى حدود اللغة ودلالة الكلمات القرآنية ، ثم ظلت هذه المحاولات تزداد وتتضخم متأثرة بالمعارف المختلفة ، والعلوم المتنوعة والآراء المتشعبة ، والعقائد المتباينة ، ودوّنت علوم اللغة ، ودوّن النحو والصرف، وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهى ، وأثيرت مسائل الكلام وظهر التعصب المذهبى ، واتجهت الكتب المؤلفة فى اتجاهات متنوعة وتحكمت الاصطلاحات العلمية ، والعقائد

---

(١) سورة الأنعام الآية (٨٢)، وانظر صحيح البخارى كتاب التفسير ٧٠/٦ طبعة الشعب .

(٢) مناهل العرفان للزرقانى ٤٨٠/١ ـ ٤٨١ .

(٣) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٣.

(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢٥/٥ ، ٣٦١/١، ٣٦٦/٥ .

المذهبية فى عبارات القرآن ، وإنا لنلحظ فى وضوح وجلاء ، أن كل من برعٍ فى فن من فنون العلم يغلب على تناوله للقرآن فنه الذى برع فيه ، فالنحوى تراه لا همّ له إلا الإعراب ، وذكر ما يحتمل فى ذلك من أوجه ، وتراه ينقل مسائل النحو وفروعه وخلافاته[1]. فعلى سبيل المثال نجد أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه ت٣٧٠هـ قد ألف كتابه « إعراب ثلاثين سورة من القرآن من سورة الطارق إلى آخر القرآن والفاتحة يشرح أصول كل حرف وتلخيص فروعه[2]. وصاحبِ الفقه نراه قد عُنى بتقريره الأدلة للفروع الفقهية والرد على من يخالف مذهبه ، ويُفرد كتاباً فى ذلك مثل أبى القاسم عمر بن الحسين الدمشقى المعروف بالخرقى ت ٣٣٤هـ قد صنف كتاب « تفسير القرآن »[3].

ومنهم من ضيق البحث فى التفسير فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة المتعددة ، فعلى سبيل المثال نجد أن أبا عبد الله بن خالويه أفرد كتابا من مؤلفاته للكلام عن البديع كفن من فنون البلاغة فى القرآن سماه « البديع فى القرآن الكريم »[4].

مما سبق يتبين لنا أن التفسير بالمأثور هو السائد فى بلاد الشام وهو تفسير كل من التزم بمنهج أهل السنة والجماعة ، وكثير من أهل الشام كانوا ملتزمين بمنهج أهل السنة ، يقول المقدسى : « مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة »[5] ورغم وجود بعض الشيعة فيها ، إلا أن شوكتهم لم تقو ولم يكن لهم أى جهد مبذول فى علم التفسير ، لأنها تربة غير صالحة لدعوة العلويين والدليل على ذلك عندما دخل أبو عبد الرحمن النسائى ت ٣٠٣هـ مدينة دمشق ، فسئل عن معاوية وما رُوى من فضائله

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ١/١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٥٣وكشف الظنون لحاجى خليفة ١/١٥٣. والكتاب مطبوع أكثر من طبعة فى الهند والقاهرة وبغداد وبيروت انظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع للدكتور محمد صالحية ٢/٢٦٣.

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ١/٣٦٦ .

(٤) غاية النهاية لابن الجزرى ١/٢٣٧.

(٥) أحسن التقاسيم للمقدسى البشارى ص ١٥٣.

فقال : أما يرضى معاوية أن يخرج رأسا برأس حتى يفضّل : وفى رواية قال : ما أعرف له فضيلة إلا « لا أشبع الله له بطناً » فما زالوا يدفعونه حتى أخرجوه من المسجد وداسوه ، ثم حمل إلى الرملة ، فمات وهو منقول بسبب ذلك الدوس(١) .

ثم نلاحظ أن اتجاهًا فى بلاد الشام يحاول التوفيق بين الدين والفلسفة عن طريق التأويل للنصوص الدينية والحقائق الشرعية ، بما يتفق مع الآراء الفلسفية ، ومعنى هذا أن الفلسفة تطغى على الدين وتتحكم فى نصوصه ، فمن هذه الروح التى طغت عليها الفلسفة ، ما نجد للفارابى أبى نصر محمد بن محمد بن طرخان ت ٣٣٩هـ فى كتابه « فصوص الحكم » من تفسيره لبعض الآيات والحقائق التى جاء بها القرآن الكرى تفسيراً فلسفياً بحتاً ، فمن ذلك أنه يفسر الأولية والآخرية الواردة فى قوله تعالى ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾(٢) تفسيراً أفلاطونيًا مبنيًا على القول بقدم العالم فيقول : إنه الأول من جهة أنه منه ويصدر عنه كل موجود لغيره ، وهو أول من جهة أنه بالوجود لغاية قربه منه ، أول من جهة أن كل زمانى ينسب إليه يكون ، فقد وجد زمان لم يوجد معه ذلك الشيء ، ووجد إذ وجد معه لا فيه ، هو أول ، لأنه إذا اعتبر كل شيء كان فيه أولاً أثره ، وثانيًا قبوله لا بالزمان ، هو آخر لأن الأشياء إذا لوحظت ونسبت إليه أسبابها ومبادئها وقف عنده المنسوب ، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية فى كل طلب، لذلك هو آخر كل غاية ، أولّ فى الفكرة آخر فى الحصول ، هو آخر من جهة أن كل زمان يتأخر عنه ، ولا يوجد زمان متأخر عن الحق(٣) .

ولم نسمع أن فيلسوفًا من هؤلاء الفلاسفة الذين تحكمت الفلسفة فى عقولهم ، ألف لنا تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم ، وكل ما وجدناه لهم فى ذلك لا يعدو بعض أفهام قرآنية مفرقة فى كتبهم التى ألفوها فى الفلسفة(٤) .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) سورة الحديد الآية (٣).

(٣) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ٢/٤٢٠ نقلا عن كتاب فصوص الحكم للفارابى.

(٤) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ٢/٤٢٤ .

ثانيا : فى العراق :

وصل علم التفسير فى القرن الرابع عند أهل العراق إلى أنواع متعددة منها : التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى ، وتفسير أهل الفرق كالمعتزلة والشيعة والخوارج ، والتفسير الإشارى ، والتفسير الفلسفى والتفسير الفقهى .

يعدّ التفسير بالمأثور أول نوع من أنواع التفسير ، حيث يشمل ما جاء فى القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته ، وما نقل عن الرسول ﷺ ، وما نقل عن الصحابة ، وما نقل عن التابعين ، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم ، وقد تدرج هذا النوع من التفسير فى القرون الأولى حتى وصل فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجريين إلى شكل منظم أفرد بتأليف خاص ثم وجدت من ذلك موسوعات من الكتب المؤلفة فى التفسير ، جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروى عن النبى ﷺ وأصحابه وتابعيهم كتفسير الإمام أبى جعفر الطبرى الذى عاش فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجرى ، الذى نقل تفسيره بالإسناد(١) ، وقد بلغ هذا النوع أوجّه خلال القرن الثالث وأوائل الرابع الهجرى(٢) . وهذا النوع هو طريق المعرفة الصحيحة وهو آمن سبيل للحفظ من الزلل والزيغ فى كتاب الله(٣) .

ثم ظهرت طبقة من المفسرين اختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى فدخل من هنا الدخيل ، والْتَبَسَ الصحيح بالعليل ، ثم صار كل من يسنح له قول يورده ، ومن يخطر بباله شيء يعتمده ، ثم ينقل ذلك عنه من يجيئ بعده ظانًا أن له أصلاً ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ، ومن يرجع إليهم فى التفسير(٤) .

ثم تجاوز التفسير خطوة التدوين المقصود على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة إلى تدوين تفسير اختلط فيه الفهم العقلى بالتفسير النقلى ، فكل تفسير يجب أن يستند إلى أثر وارد عن النبى ﷺ ولا يجوز أن يعتمد فيه على الرأى ، ولا يكون التفسير

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ١٥٤/١ .

(٢) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٣٨/٢ .

(٣) مباحث فى علوم القرآن للدكتور مناع القطان ص ٣٥٠ .

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور / أبو زيد شلبى ص ٢٠٧ .

بالرأى إلا فى التفسير اللغوى للإلفاظ[1]، على أننا نجد التفسير الذى اختلط فيه الفهم العقلى بالتفسير النقلى فى البداية على هيئة محاولات فهم شخصى وترجيح لبعض الأقوال على بعض ، وكان هذا أمراً مقبولاً مادام يرجع الجانب العقلى منه إلى حدود اللغة ودلالات الكلمات القرآنية ، ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصى تزداد وتتضخم ، متأثرة بالمعارف المختلفة والعلوم المتنوعة ، والآراء المتشعبة والعقائد المتباينة ، حتى وجد من بين كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بُعد عظيم[2].

لقد سبق الحديث عن التفسير بالمأثور ، وبيّنا أنه وصل فى القرن الرابع الهجرى إلى شكل منظم ، وأفرد بالتصنيف ، وفسّر القرآن آية آية ، ثم ظهر بعد ذلك قوم اختصروا الأسانيد، وجمعوا الأقوال المتعددة دون أن ينسبوها إلى قائلها ، فاختلط الصحيح بغير الصحيح ، ودخلت إسرائيليات فى التفسير ، ومن هنا كان عدم الإسناد من الأسباب الجوهرية فى كثرة الوضع فى التفسير ، حتى أنه قد يرد فى الآى آراء كثيرة فى تفسيرها ولم يثبت منها إلا القليل فعلى سبيل المثال :

قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾[3] يقول الإمام السيوطى : قد حُكى فى تفسيرها نحو عشرة أقوال ، وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبى ﷺ وجميع الصحابة والتابعين[4].

ومن أشهر من كتب فى هذا النوع أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ت٣٢٤هـ، وسمى كتابه « تفسير أبى الحسن »[5]. ومحمد بن الحسن بن مقسم أبو بكر البغدادى ٣٥٤هـ، له كتاب «الأنوار فى علم القرآن[7]». وعمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين البغدادى ت ٣٨٥هـ، له كتاب « التفسير الكبير »[7].

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ٣٤٥/١ ـ ٣٤٦ .

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ١٤٦/١.

(٣) سورة الفاتحة الآية (٧).

(٤) نشأة التفسير للدكتور محمود فودة ص ١٠٧.

(٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٦٢/١ .

(٦) الفهرست لابن النديم ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٧) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٦٥/١١ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ١٩١/٣.

يضمّ إقليم العراق نوعًا آخر من أنواع التفسير وهو تفسير أهل الكلام فى وقت منيت فيه الأمة الإسلامية بأن تفرقت أكثر من سبعين فرقة ، وقد تناولت كل فرقة أو طائفة من هذه الأمة كتاب الله عز وجل ، تفسره بما ارتضته لنفسها من اعتدال أو تطرف ، فظهرت مجموعة من التفاسير كالمرايا المجلوة ، تنطبع فيها صور المفسرين لها، على اختلاف مشاربهم ، وتباين منازعهم ، ولا غرو فكل إناء بما فيه ينضح .

لقد ظهرت طائفة المعتزلة خلال القرن الرابع الهجرى تفسر القرآن بالرأى والعقل ، عن طريق مبادئ عامة فرضوها على القرآن الكريم فرضاً ، وذلك عن طريق إخضاعهم عبارات القرآن الكريم لما يتفق وهذه المبادئ ، ولا ريب أن هذا أسلوب خطير ؛ فيه جرأة على كتاب الله ، وفيه تحكيم العقل وسيطرته على النقل . ومن هنا وجدنا أن المعتزلة وقعت فى أخطاء كثيرة ، مردها أن العقل هو أساس التقبيح والتحسين ، لقد أنكروا بعض الأحاديث الصحيحة لا لشىء إلا لأنها لم تكن مقبولة من وجهة النظر العقلية عندهم ، وكثيرا ما يرجحون القراءات الشاذة على القراءات المتواترة لا لشىء إلا لأن القراءات المتواترة خالفت أصلا من أصولهم[1] .

فمثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا من أئمة المسلمين ، لا فى رأيهم ، ولا تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة[2] .

وممن ألف من أهل العراق فى هذا النوع من التفسير : أبو على الجبائى محمد بن عبد الوهاب ت ٣٣٠هـ الذى قال عنه الأشعرى : إنه فى هذا التفسير ما روى حرفًا واحداً عن المفسرين ، وإنما اعتمد على ما وسوس به فى صدره وشيطانه ، وكذلك ألف أبو الحسن على بن عيسى الرمانى ت ٣٨٢هـ، وهو عالم بالكلام والفقه والنحو واللغة تفسيراً للقرآن ، وقد بلغ من قيمة هذا التفسير أنه قيل للصاحب بن عباد : هلا صنفت تفسيراً ؟ فقال : وهل ترك لنا على بن عيسى شيئًا . وكذلك ألف أبو بكر النقاش المعتزلى ت ٣٥١هـ تفسيراً كبيراً يقع فى اثنى عشر ألف ورقة[3] .

---

(١) نشأة التفسير ومناهجه للدكتور محمود فودة ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(٢) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية الحرانى ص ٣٧ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٥٠ ، وطبقات المفسرين للسيوطى ص ٦٨ ـ ٦٩ .

ونستطيع أن نكوّن لأنفسنا فكرة عن طريقة هؤلاء المفسرين إذا عرفنا أن عبيد الله الأسدى المعتزلى ت ٣٨٧هـ صنف تفسيراً للقرآن ذكر فيه فى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ مائة وعشرين وجها . ولما كانت كل فرقة من الفرق فى هذا العصر تعتد بالقرآن وترجع إليه فكان لابد للقرآن أن يتعرض لكثير من التكلف فى التفسير[١] .

وقد نجد فى كتب التراجم مؤلفات ضخمة للمعتزلة فى تفسير القرآن الكريم ، إلا أن الواقع خلاف ما يوجد عند أهل التراجم ، فلم يبق من تلك المؤلفات إلا النادر اليسير لأصحاب هذا الفكر ، أما معظم التفاسير قد ضاعت وامتدت إلى كثير منها يد الزمان[٢] . وقد وصلنا منها كتاب « مجالس الشريف المرتضى » فقد كان يعقد مجالس يفسر فيها القرآن الكريم والحديث واللغة على طريقة المعتزلة ، إذ كان هو نفسه شيعيًا معتزليًا ، فالآيات التى ذكرها ، فسرها تفسيراً يوافق الأصول التى تسير عليها المعتزلة ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[٣] فظاهر الآية يخالف ما يذهب إليه المعتزلة من حرية إرادة الإنسان ، فأولها حتى لا تخرج عن مذهبهم ، ومثل قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[٤] لأن العجلة فعل من أفعال الإنسان فكيف تكون مخلوقة فيه لغيره ؟ ، ولو كان كذلك ما جاز أن ينهاهم عن الاستعجال فى قوله تعالى : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [٥] فكيف ينهاهم عما خلقه فيهم ؟ وأفاض فى اللغة لعلمه الواسع بها ، فأول مثلا : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [٦] بأن الخليل معناه الفقير إلى رحمة الله من الخلة ، استيحاشا من أن الله يكون خليلا لأحد من خلقه ، فمثل هؤلاء يعطوننا تفسيراً لبعض الآيات لا كلها على مذهب المعتزلة [٧] .

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ٢٤٧/١ ـ ٢٤٨ .

(٢) نشأت التفسير ومناهجه للدكتور محمود فودة ص ٢٤٧ .

(٣) سورة الأنفال الآية (٢٤).

(٤) سورة الأنبياء الآية (٣٧).

(٥) سورة الأنبياء الآية (٣٧)

(٦) سورة النساء الآية (١٢٥)

(٧) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٤٠/٢ ، ٤١ .

أما من حيث التفسير الشيعى فنلاحظ أن العراق تعد الموطن الأصلى أو الأول للتشيع ، خاصة الكوفة والبصرة ، ومنهم من فسر القرآن على مذهبهم فهم يفسرون على مذهب الشيعة من تمجيد علىّ رضى الله عنه ونسله ، ويؤولون التأويلات البعيدة فى ذلك ، كقولهم : إن البقرة التى أمر موسى بذبحها هى عائشة ، وأن الجبت والطاغوت هما معاوية وعمرو بن العاص ، إلى آخر أقوالهم من ترهات[1] وأباطيل وانحرافات عن جادة الطريق ، ولعلهم أنشط الفرق فى تفسير القرآن الكريم تفسيراً مذهبياً أو سياسياً ، فقد توسعوا فى ذلك وصارت لهم تفاسير خاصة وغالى البعض فى هذا المجال مغالاة سيئة[2].

رغم اختلافهم وانقسامهم وتحزبهم ، إلا أن الكل يدّعى الإسلام ويعترف بالقرآن ولو فى الجملة ، وكان طبيعيا أن يبحث كلّ عن مستند يستند إليه من القرآن ويحرص كل الحرص أن يكون دليلاً على مذهبه ، وأن يكون القرآن شاهدا له لا عليه ، وإن أدى هذا إلى خروج اللفظ القرآنى عن معناه الذى وُضِع له وسيق من أجله[3] فهم يزعمون أن النبى ﷺ سيرجع إلى الحياة الدنيا ، وتأولوا على ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[4] كما يزعمون أن عليًا رضى الله عنه فى السحاب وعلى هذا يفسرون « الرعد » بأنه صوت علىّ رضى الله عنه ، و «البرق» بأنه لمعان سوطه أو تبسمه ، ولهذا كان الواحد منهم إذا سمع الرعد يقول : «عليك السلام يا أمير المؤمنين »[5]. وعندهم اعتقاد التحريف فى القرآن بأنه غُيِّر وبُدِّل ، وكذلك السنة النبوية ، فهى عقيدة متواترة منقولة من سلفهم غير الصالح إلى خلفهم فى جميع العصور والأدوار ، وإنها لعقيدة القوم أجمعهم لا استثناء ، اللهم إلا من تظاهر بعدم القول بالتحريف تقية ، وتهرباً من المعترضين ، ومن الغرائب أن من بينهم

---

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٤٤/٢.

(٢) قصة التفسير للشيخ الشرباصى ص ١٤٦.

(٣) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ١٢/٢.

(٤) سورة القصص الآية (٨٥) .

(٥) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٢٤، والتفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ١٣/٢ وما بعدها .

ابن بابويه القمى الملقب بالمفيد ت ٣٨١هـ، الذى تظاهر بعدم اعتقاد التحريف فى القرآن من بين متقدمى الشيعة من مفسرين ، مع أنه لم يلجأ إلى التظاهر إلا خداعاً ومكراً وتقية وكذباً [١]. ويقول على بن إبراهيم القمى أقدم المفسرين للشيعة فى مقدمة تفسيره : فالقرآن منه ناسخ ومنسوخ ، ومنه محكم ومنه متشابه ، ومنه على خلاف ما أنزل الله[٢].

ويقولون : أن القرآن أُنزل على محمد فى (٧١٠٠ آية) والقرآن الذى بين أيدينا (٦٦١٦ آية) وإنما حذف أهل السنة الآيات التى جاء فيها ذكر علىّ . كما أنهم فى سنة ٣٩٨هـ أحضرت الشيعة مصحفاً محرفاً ، قالوا أنه مصحف عبد الله بن مسعود ، وهو مخالف للمصاحف كلها ، فاجتمع الأشراف والقضاة والفقهاء وتحققوا من تحريفه ، ثم أمروا بحرقه [٣] .

ومن خلال تتبعنا لموقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم ومن آياته نستطيع أن نلحظ كيف حاولوا تفسير القرآن حسب مذهبهم وأهوائهم ، فقد حاولوا أن يجدوا لهم فى مائدة القرآن ما يغنيهم أو ما يؤيدهم ويحميهم ، ومن أقوالهم السيئة في بعض آيات القرآن الكريم ، أنهم يقولون فى قول ربنا عز وجل : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [٤] ثم يقولون : ولو قال ائتوا برجلٍ مثله لكان أليق بكلام الله . وقالوا أيضاً فى قول ربنا عز وجل : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٥] فيقولون : وقل الحق من ربكم فى ولاية علىّ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا اعتدنا لظالمى آل محمد ناراً [٦] .

حاول الصوفية كغيرهم من أهل الفرق أن يجدوا لمبادئهم وتعاليمهم مستنداً من

---

(١) بين الشيعة والسنة لإحسان إلهى ظهير ص ٧١ ـ ٧٢ .

(٢) الشيعة والسنة لإحسان إلهى ظهير ص ٧٧ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣٦٢/١١، والعقائد الشيعية لناصر الدين شاه ص ٩٢.

(٤) سورة البقرة الآية (٢٣).

(٥) سورة الكهف الآية (٢٩).

(٦) العقائد الشيعية لناصر الدين شاه ص ٩١ .

خلال النصوص القرآنية ، وأن يتخذوا من القرآن عمدة فى تأييد طريقهم ، فالصوفية يرون أن النص القرآنى تحتجب وراء دلالته اللفظية أفكار عميقة ومعان دقيقة ، ويرون أن المعنى الحقيق للتنزيل الإلهى لا يتناهى عنده هذه البسائط البادية من ظاهره ، وأن هناك معنى ظاهراً ومعنى باطناً ، وأن الأهم هو المعنى الباطنى [1].

وقسم العلماء التصوف إلى تصوف نظرى يقوم على البحث والدراسة ، وتصوف عملى يقوم على الزهد والتقشف والتفانى فى حب الله ، وعلى هذا نجد أن التفسير الصوفى ينقسم إلى تفسير صوفى نظرى وتفسير صوفى إشارى [2].

أما التفسير النظرى ، فإنه يُبنى على مباحث نظرية وتعاليم فلسفية ، فأصحابه ينظرون إلى القرآن الكريم نظرة تتمشى مع نظرياتهم وتتفق وتعاليمهم ، فهم يحاولون أن يجدوا فى القرآن ما يشهد لهم أو يستندون إليه ، فهم يتعسفون فى فهمهم للآيات القرآنية [3].

من أصحاب هذا التصوف النظرى الفلسفى الحسين بن منصور الحلاج، الذى أدرك النصف الأخير من القرن الثالث، وعاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وقُتل فى بغداد وهو صاحب الدعوة إلى نظرية وحدة الوجود ، التى تقوم على أنه ليس هناك إلا وجود واحد ، كل العالم مظاهر ومجال له ، فالله سبحانه وتعالى هو الموجود الحق وكل ما فى الكون فهو ظواهر وأوهام ، والحق أن الذى وصل إلينا من تفسير الحلاج قليل ، فهو تفسير باطل لا يخدم القرآن فى شىء ولا نجد فى هذا التفسير بيانا لمراد الله ، لا من قريب ولا من بعيد ، فكل ما هو موجود يعتبر نصوصاً متفرقة .

ومن بعض تفسيراته لآيات الله عز وجل يقول فى قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾، [4] قال الحلاج : لا مكر أبْيَن فيه من مكر الحق بعباده حيث

---

(١) قصة التفسير للشيخ الشرباصى ص ١٢٨ .

(٢) نشأة التفسير ومناهجه للدكتور محمود فودة ص ٣٨٦ .

(٣) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ٣٣٩/٢ ـ ٣٤٠.

(٤) سورة الرعد الآية (٤٢).

أوهمهم أن لهم سبيلا إليه بحال ، أو للحدث اقتران مع القدم . قال ابن الجوزي : ومن تأمل معنى هذا الكلام ، علم أنه كفر محض ، لأنه يشير إلى أنه كالهزء واللعب[1] .

أما التفسير الصوفى الإشارى ، فهو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك مع إمكان التوافق بينها وبين مدلول اللفظ العربى ، لذا فالتفسير النظرى الفلسفى يبنى على مبادئ عامة تكون عند الصوفية أولاً ثم على القرآن فرضاً ، أما التفسير الإشاروى ، فهو يأتى بعد رياضة روحية وبعد التأهل لآيات الله بالعلوم التى لابد منها للمفسر ، وبعد رياضة روحية تصفو فيها النفس من شوائبها ، وهذا النوع لم يكن مستحدثا خلال القرن الرابع ، بل له جذور من قبل[2] .

ورغم ذلك فإن لأصحابه مغالاة وشطحات هى أقرب ما تكون إلى أقوال الباطنية[3] ، لذلك فأقوالهم يقف الإنسان بل يقف العقل أمامها حائرا أو عاجزاً عن تلميس محمل لها يحمل عليه حتى تبدو صحيحة وتصبح مقبولة ، فمن ذلك : يقول أبو بشر الشبلى ت ٣٣٤هـ : « لو اطلعْتَ على الكل مما سوانا لوليت منهم فرارا إلينا» قال ابن الجوزى : هذا لا يحل لأن الله تعالى إنما أراد أهل الكهف[4] .

ويقول أبو حامد الطوسى فى كتابه « ذم المال » فى قوله تعالى : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾[5] قال : إنما عنى الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعبد الآلهة والأصنام ، وإنما عنى بعبادته حبه والاغترار به ، قال ابن الجوزى : وهذا شيء لم يقله أحد من المفسرين[6] .

---

(١) تلبيس إبليس لعبد الرحمن بن الجوزى ، ٣٣٢.

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ٣٥٧/٢.

(٣) مباحث فى علوم القرآن للدكتور مناع القطان ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

(٤) تلبيس إبليس لعبد الرحمن بن الجوزى ص ٣٣٣.

(٥) سورة إبراهيم الآية (٣٥) .

(٦) تلبيس إبليس لعبد الرحمن بن الجوزى ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤

تعقيب :

لقد تعرضنا فيما سبق للحديث عن التفسير فى كل من الشام والعراق وبيان أقسامه خلال القرن الرابع الهجرى ، ويجمل أن نبين أوجه الشبه والاختلاف عند علماء الشام وعلماء العراق الذين اشتغلوا بالتفسير ، وذلك على النحو التالى :

سبق أن عرفنا أقسام التفسير الثلاثة ، التفسير بالمأثور وبالرأى والإشارى، وأن كل من علماء الشام والعراق قد أفردوا خلال القرن الرابع الهجرى علم التفسير بالتأليف ، وجعلوه علمًا قائمًا بذاته منفصلاً عن الحديث النبوى الشريف . ففسر كل منهم القرآن الكريم حسب ترتيب المصحف .

أما علماء الشام فقد كانوا يولون اهتمامهم بالقسم الأول من التفسير وهو التفسير بالمأثور ، وعلى رأسهم الحافظ الطبرنى ، وابن عطية الدشقى[1] ، غير أنه قد ظهر من بين علماء الشام من له تأويل فى بعض الآيات القرآنية ، حيث أنهم أرادوا أن يوفقوا بين الدين والفلسفة تحت ستار القسم الثانى من التفسير وهو التفسير بالرأى ، والاجتهاد من غير أصل حرام ، بحسب ما يخطر للإنسان من خواطر دون التفسير بالرأى المحمود الذى يكون موافقا للشارع بعيدا عن الجهال والضلالة . كما فعل أبو نصر محمد الفارابى[2] .

وإذا نظرنا إلى علماء الشام فلم نجد منهم من طرق أقسام التفسير الأخرى التى طرقها أصحاب الفرق المذهبية ؛ لأن تربة الشام غير صالحة لتلك الدعوات الهدّامة ، وإن كان رغم ذلك يعيش فيها بعض الأفراد الذين يعتنقون هذه الأفكار الهدّامة ولكن فى خفية دون شوكة لهم[3] . وكذلك من يمثلون أو يعتقدون الفكر الصوفى الذى يقوم على تفسير القرآن بطريق الظاهر أو الباطن ، فلم يكن لهم حظ فى أن يقطنوا بلاد الشام وتظهر أفكارهم كظهورها فى بلاد العراق ، وإن كان لهم وجود ، فليس لهم شوكة ، ولعل السبب فى ذلك قوة أهل السنة والجماعة ، وعدم تركهم لأى

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٦١/١ ، ٣٢٥/٥، ٣٦٦.

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ٤٢٠/٢.

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسى البشارى ص ١٥٣

إنسان ينال من القرآن أو السنة أو الصحابة[1] .

أما إقليم العراق فقد لاحظنا أن جميع أقسام التفسير تقطن فيه ، وإنهم لم يسيروا فى اتجاه واحد ، بل ساروا فى جميع الاتجاهات التى ظهرت حول تفسير القرآن الكريم وذلك بخلاف أهل الشام تمامًا ، فنجد من علماء العراق من فسّر بالمأثور كأبى الحسن الأشعرى ، وابن مقسم البغدادى[2] وغيرهما كثير .

ومنهم من فسر بفكر الفرق المختلفة من معتزلة وشيعة وصوفية وغير ذلك .

كما نلحظ أمراً جديداً قد ظهر فى إقليم العراق خلال القرن الرابع الهجرى وهو تعاون المعتزلة والشيعة واجتهادهما فى تفسير القرآن الكريم ، ومن أشهر هؤلاء أبو على الجبائى ت ٣٣٠هـ[3] ، وأبو الحسن الرمانى ت ٣٨٥هـ[4] ، وأبو بكر النقاش ت٣٥١هـ[5] ، وعبيد الله الأسدى ت ٣٨٧هـ[6] ، ومحمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضى ت ٤٠٦هـ[7] .

أما التفسير الإشارى الصوفى فقد انفرد به أهل العراق وانتشر عندهم ، وكثرت آراؤهم ، لأنهم يعتبرون فرقة من بين الفرق التى قام بينها الخلاف فى إقليم العراق ، وحاولت أن تجد لها ولمبادئها وتعاليمها مستنداً من القرآن الكريم كغيرها من الفرق ، يؤيدون به طريقتهم من بين هؤلاء : محمد بن الحسن المعروف بخير النساخ ت٣٢٢هـ[8] ، وأبو عبد الرحمن السلمى ت ٤١٢هـ ، الذى عرف عنه أنه ألف كتاباً فى التفسير يسمى « حقائق التفسير »[9] .

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ١/٢٠٤ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص٢٤٧.

(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ١/٣٦٧، ٤٥١ ، ٥/٥٤٧ .

(٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ٦/٣٦ .

(٦) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ١/٢٤٧، ٢٤٨.

(٧) كشف الظنون لحاجى خليفة ٦/٤٨ .

(٨) طبقات الصوفية للسلمى ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

(٩) طبقات المفسرين للسيوطى ص٨٤ ـ ٨٥ .

لقد اشتهر أن كثيراً من علماء العراق أصحاب تأويلات ، وقد جروا على عادة مألوفة من قبل هي الخروج عن ظاهر القرآن الكريم بالتأويل البعيد لإثبات دعاويهم ، وحاول بعض الشيعة أن يؤلفوا كثيرا من الأسماء الواردة في القرآن بأنها أسماء أشخاص، كما سبق أن وضحنا في أول الفصل(٢).

وهذا لا يمنع وجود علماء مفسرين بإقليم العراق قد تنزهوا عما يقال في القرآن الكريم من تأويل بعيد ، ولا يقول إلا بالظاهر المستفيض من التفسير والتأويل ، وقد بيّن ذلك في معظم كتبه ككتاب « نظم القرآن »، وكتاب « قوارع القرآن »، وكتاب «ما أغلق من غريب القرآن» ، وكتب غيرها كثيرة(٢).

وإننا لنجد سؤالاً يطرح نفسه ، بعد ما سبق بيانه ، لماذا كانت العراق مركز تجمع للفرق والمذاهب المختلفة دون الشام ؟ .. عند الرد على هذا التساؤل نجد أن الأسباب التي أدت إلى ذلك ، أن العراق حاضرة الخلاف ، وبغداد بالذات دون غيرها من المدن لأنها العاصمة ، وأن جميع الحركات الروحية في مملكة الإسلام كانت تتلاطم أمواجها في بغداد ، وكان بها لجميع الفرق والمذاهب أنصار(٣).

كما أن كثيرا من الفقهاء والأدباء والمفسرين والأئمة والملوك يقطنون هذا الإقليم بخاصة بغداد والبصرة ، وببغداد عدة من المذاهب ، الغلبة للحنابلة من أهل السنة والشيعة ، وبها أشعرية ومعتزلة ، وبالكوفة شيعة ، وأكثر أهل البصرة قدرية وشيعة ، وثمّ حنابلة(٤). ثم إن بغداد دون غيرها لأن منذ أسسها الخليفة أبو جعفر المنصور وهو يريد لها أن تكون حاضرة للبلاد العربية الإسلامية ، وقد تأنق في بنائها بدرجة جعلتها تفوق جميع مدن العالم ، وحشد إليها العلماء والصناع والتجار من جميع الأمصار ، لذلك أصبحت بغداد سيدة المدائن وحاضرة الحواضر ، أضف إلى ذلك الكوفة والبصرة ، وما كان فيهما من حركة علمية ومن علماء وحكماء ، ناهيك عن اتساع رقعة الدولة

---

(١) انظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ٣٤٨/١ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٣٧٤/١ ـ ٣٧٥ ، والحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريده ٣٤٨/١ ـ ٣٤٩ .

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريده ١١٥/١ .

(٤) أحسن التقاسيم للمقدسي البشاري ص١١٢ ـ ١١٣ .

ورعايتها كثير من الشعوب المختلفة الأجناس والعادات والمعاملات والمصالح ، كل ذلك كان له أثر كبير فى الحركة العلمية ، زد على ذلك مدى اهتمام الخلفاء العباسيين بالعلماء ورعايتهم لإنتاجهم العلمى وتقريبهم العلماء إليهم وتوفير الحرية التامة للبحث العلمى[1] .

وكنتيجة لتجمع ا لفرق والمذاهب المختلفة فى العراق دون الشام نجد امتزاج العلوم المختلفة بالتفسير فى كل من الشام والعراق على النحو التالى :

أولاً : فى الشام :

ترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة ، امتزجت أفكار تلك الكتب وما يتعلق بها من أبحاث بالتفسير ، حتى طغت عليه ، وغلب الجانب العقلى على الجانب النقلى ، وصار أظهر شىء فى هذه الكتب هو الناحية العقلية[2] .

وقد ظهر ذلك واضحًا عند بعض علماء الشام خلال القرن الرابع الهجرى أمثال أبى نصر محمد بن محمد الفارابى فى بعض أقواله ، فى تفسير بعض الآيات القرآنية حيث وضع الآراء الفلسفية أمام عينيه ثم نظر من خلالها إلى القرآن الكريم فجاءت شروحه فى الحقيقة شروحًا لبعض النظريات الفلسفية ، قصد بها تدعيم الفلسفة ، وخدمتها على حساب القرآن الكريم ، فيذكر قوله فى « الملائكة » فيشرحها بأنها : صورة علمية ، جواهرها علوم إبداعية قائمة بذواتها ، تلحظ الأمر الأعلى فينطبع فى هويتها ما نلحظ ، وهى مطلقة ، لكن الروح القدسية تخاطبها فى اليقظة ، والروح البشرية تعاشرها فى النوم[3] .

ثانيًا : فى العراق :

لقد دوّنت علوم اللغة ، ودوّن النحو والصرف ، وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهى، وأثيرت مسائل الكلام ، وظهر التعصب المذهبى ، وقامت الفرق الكلامية

---

(١) حضارة العراق للدكتور رشدى محمد عليان ١٥٩/٧ .

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ١٤٦/١ ـ ١٤٧

(٣) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى نقلا عن نصوص الحكم للفارابى ٤٢٠/٢ـ٤٢١ .

بنشر مذاهبها والدعوة إليها ، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة فامتزجت كل هذه العلوم وما يتعلق بها من أبحاث بالتفسير ، حتى طغت عليه ، وغلب الجانب العقلى على الجانب النقلى ، وصار أظهر شيء فى هذه الكتب هو الناحية العقلية . واتجهت الكتب المؤلفة فى التفسير اتجاهات متنوعة ، وتحكمت الاصطلاحات العلمية ، والعقائد المذهبية فى عبارات القرآن ، فظهرت آثار الثقافات الفلسفية والعلمية للمسلمين فى تفسير القرآن .

كما نلحظ أن كل من برع فى فن من فنون العلم يكاد يقتصر تفسيره على الفن الذى برع فيه[1] .

التصنيف فى علوم القرآن عند أهل الشام والعراق :

فى القرن الرابع الهجرى ألفت كتب عديدة فى أنواع علوم القرآن على يد علماء الشام وعلماء العراق ، واتجهت الهمم إلى التفسير خاصة باعتباره أصل العلوم القرآنية، لما فيه من التعرض لأنواع العلوم فى كثير من المناسبات عند شرح الكتاب العزيز ، وإلى التأليف فى أسباب النزول ، التى هى المناسبات الزمانية والمكانية والشخصية والجماعية ، التى نزلت فيها آيات معينة ، بيانا للحكم فيما استشكل على الجماعة المؤمنة . والتأليف فى الناسخ والمنسوخ لما له من أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين ؛ حتى لا تختلط الأحكام ، والتأليف فى غريب القرآن الكريم ، وفى إعرابه ، وفى مجازه ، وفى القراءات الخاصة به ، وفى أحكامه ، وفى معانيه ، وفى إعجازه وفى فضائله وفى الوجوه والنظائر فيه .

وإنه من العجب عندما نعلم أن هؤلاء المؤلفين الشاميين والعراقيين كانت طريقتهم فى التأليف طريقة استيعاب واستقصاء ، يعمد أصحابها أن يحيطوا بجزئيات القرآن من الناحية التى كتبوا فيها بقدر طاقتهم البشرية ، فمن يكتب فى غريب القرآن مثلا يذكر كل مفرد من مفردات القرآن التى فيها غرابة وإبهام ، ومن يكتب فى مجاز القرآن يقتفى أثر كل لفظ فيه مجاز أيا كان نوعه فى القرآن ، وهكذا سائر علوم القرآن

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى ١٤٦/١ ـ ١٤٧ .

ولا ريب واستنفد وسعه ، لهذا اشرأبت أعناق العلماء أن يعتصروا من تلك العلوم علما يكون كالفهرس لها ، والدليل عليها والمتحدث عنها فكان هذا العلم ما نسميه (علوم القرآن) ولا نعلم أن أحداً قبل القرن الرابع الهجرى سواء من علماء الشام أو علماء العراق ألف فى علوم القرآن مؤلفا مستقلاً بذاته ، لأن الدواعى لم تكن موفورة لديهم نحو هذا النوع من التأليف ، وإن كانت هذه العلوم مجموعة فى صدور المبرزين من العلماء ، وعلى الرغم من ذلك لم يدونوها فى كتاب[١] .

وبمجيئ القرن الرابع الهجرى على علماء الشام وعلماء العراق اتجهت أقلامهم إلى التصنيف والتأليف حول علوم القرآن بمختلف أنواعها . منها ما هو مجموع فى كتاب واحد ومنها ما هو منفرد ، كل نوع فى مؤلف مستقل .

تعقيب :

مما سبق ، نستطيع الحكم على كل من أهل الشام وأهل العراق ، بأن لهم باعًا طويلاً فى التأليف حول علوم القرآن خلال القرن الرابع الهجرى ، ولم يبق لنا إلا أن نبيّن أوجه الشبه والاختلاف ، والأنواع التى ألف فيها كل منهما وذلك على النحو التالى :

أولاً : الشام :

لعلماء الشام فضل التأليف فى أنواع علوم القرآن الكريم ، فقد كتبوا فى القراءات وقد سبق أن أفردنا لها الفصل الأول من الباب الثانى ، وكذلك علم التفسير فقد ألفوا فيه الكتب الكثيرة ، وبرز منهم علماء شرفوا بالكتابة حول كتاب الله عز وجل كالحافظ سليمان بن أحمد الطبرانى ت ٣٦٠هـ، وأبو الحسن محمد بن النضر بن الأخرم الدمشقى ٣٤٠هـ، وأبو القاسم عمر بن حسين الخرقى الدمشقى ٣٣٤هـ، وعبد الله بن عطية بن عبد الله الدمشقى ٣٨٣هـ، وفى الإعراب ألف الحسن بن أحمد بن خالويه ت ٣٧٠هـ[٢] .

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى ٢٥/١ ـ ٢٦ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢٥/٥، ٣٦١/١، ٣٦٦/٥، ١٥٣/١ .

ورغم ذلك فإننا نعتبر تصنيف أهل الشام حول علوم القرآن محدوداً ، بخلاف أهل العراق فى ذلك الأمر . حيث تنوع التأليف أكثر من ذلك فى أنواع متعددة من علوم القرآن .

ثانياً : العراق :

كما كان لعلماء الشام فضل التأليف فى أنواع علوم القرآن ، فإن علماء العراق لا يقلون شأنا عنهم بل يزيدون فى الأنواع التى ألفوا فيها ، وهذا إن دلّ فإنما يدل على أن التجمع العظيم للعلماء يجعل علومهم تتعدد بتعدد اتجاهاتهم وعلى اختلافهم فى الاعتقاد والفكر والتصنيف ، لأنها حاضرة الخلافة ، وتتلاطم فيها أمواج الفرق والمذاهب والحركات الروحية ، وخاصة ببغداد والكوفة والبصرة[1] .

قد صنفوا فى القراءات وقد أفردنا لها الفصل الأول من الباب الثانى ، وكذلك التفسير قد امتلأت المكتبات بأسماء المفسرين العراقيين كأبى الحسن الأشعرى ، وابن مقسم البغدادى ٣٥٤هـ، وعلى بن عيسى الرومانى ٣٨٤هـ، والحسن بن عبد الله العسكرى ٩٥هـ وغيرهم كثير[2] . وكتبوا حول الناسخ والمنسوخ فى القرآن كأبى الحسين أحمد بن جعفر البغدادى ٣٣٤هـ[3] ، وأبى القاسم هبة الله بن سلامة البغدادى ٤١٠هـ[4] ، كما كتبوا حول معانى القرآن الكريم كالحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسى ت ٣٧٧هـ، قد كتب « القرآن ومعانيه »[5] وعلىّ بن سليمان الأخفش البغدادى ٣١٥هـ كتب « تفسير معانى القرآن »[6] وغيرهما كثير[7] .

كما كتبوا حول إعراب القرآن وغريبه كعبد الرحمن بن أبى سعيد الأنبارى

---

(١) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريده ١١٥/١ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ٢٠٤/١، ١٩١/٣، ١٩٦، ٢٦٦، ١٩٤/٤، ٧٩/٢ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ٧٣٥/٢، ٤١١/٤ .

(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٧٣٥/٢، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٦٩/٢.

(٥) كتاب « القرآن ومعانيه » مخطوط بمعهد المخطوطات العربية قسم التفسير وعلوم القرآن جـ٢٠/١ رقم (٢٤) .

(٦) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٤٤٨/٢.

(٧) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٩٢/٢، ٧٢٢، ٣٦/٦، ٢٢٤/٤، ٨/٥ ، ٥٤٤ .

ت٣٢٨هـ وإبراهيم بن محمد بن نفطويه ٣٢٣هـ ، وأبو بكر محمد بن الحسين الموصلى ت ٣٥١هـ ، ومحمد بن الحسن بن دريد ٣٢١هـ ، وعلى بن عمر الدارقطنى ت ٨٥هـ.

كما كتبوا حول إعجاز القرآن الكريم كعلى بن عيسى بن على الرمانى الواسطى ٣٨٤هـ، ومحمد بن الطيب الباقلانى ت ٤٠٣هـ، ومحمد بن أبى أحمد الحسين بن موسى الشريف الرضى ٤٠٦هـ(٢).

كما كتبوا عن علوم القرآن مستقلة فى مؤلف بذاته كأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ت ٣٣٥هـ، وعبيد الله بن جرو الأسدى ت ٣٨٧هـ(٢)، ولأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى ت ٣٢٨هـ قال : لما ألفت كتاب التلقيح فى غرائب علوم الحديث ، رأيت أن تأليف كتاب فى عجائب علوم القرآن أولى(٣).

وكتبوا حول أحكام القرآن الكريم كأبى بكر أحمد بن على الجصاص ت٣٧٠هـ، وكذلك حول الوجوه والنظائر ، وهو فرع من فروع التفسير ، ومعناه أن تكن الكلمة واحدة ذكرت فى مواضع من القرآن على لفظ واحد وحركة واحدة ، وأريد بها فى كل مكان معنى غير الآخر ، فلفظ كل كلمة ذكرت فى موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة فى الموضع الآخر هو النظائر ، وتفسير كل كلمة بمعنى غير المعنى الآخر هو الوجوه ، لذلك فالنظائر اسم الألفاظ والوجوه اسم المعانى ، فقد ألف فيه محمد بن أبى أحمد الحسين بن موسى الشريف الرضى ، وأبو بكر محمد بن الحسين النقاش الموصلى ، ومحمد بن أبى محمد بن الأنبارى البغدادى ٣٢٨هـ وغيرهم كثير .

كما كتبوا حول فضائل القرآن الكريم كمحمد بن يعقوب الكلينى ت٣٢٩هـ(٤)، وكتبوا أيضا حول لغات القرآن كمحمد بن الحسن المعروف بابن دريد

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ١٥٣/١، ١٣٥، ٢٠٣/٢، ٢٠٤، ٥٥/٥، ٥٤٧، ٤٨/٦، ٣٨٣/١.

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ٢٩/٤ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٤٥٣/٣ ، وطبقات المفسرين للداودى ٣٧٧/١.

(٣) مخطوط « عجائب علوم القرآن » لمحمد بن القاسم الأنبارى مخطوط بمعهد المخطوطات العربية قسم التفسير وعلوم القرآن جـ٣٤/١ رقم (١٤٨).

(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٨١/١، ٢٩/٦، ٤٨، ٧٩٢/٢، ١٣٧/٤.

ت ٣٢١ هـ وكتب إبراهيم بن محمد بن عرفة الملقب بنفطويه ت٣٢٣هـ كتاب «أمثال القرآن»(١).

التأثير والتأثر بين علماء الشام وعلماء العراق :

إن من لوازم طلب العلم وتحصيله الرحلة إلى العلماء ، لكى ينهل الراغبون فى العلم من بحور علمهم ، وإنه لا يصعب على طالب العلم أن تكون المسافات بعيدة بينه وبين العلماء ، ناهيك عن أن الشام والعراق إقليمان متجاوران ، فالرحلة منهما وإليهما ليس فيها مشقة قاسية ، والتأثير والتأثر أمر ظاهر وذلك على النحو التالى :

لقد تأثر أهل الشام بعلماء العراق ، فعى سبيل المثال لا الحصر ، قد سمع الحسين بن أحمد بن خالوية ت ٣٧٠هـ ببغداد ، وقد دخلها فى سنة ٣١٤هـ ، ثم سكن حلب بعد ذلك وانتشر بها علمه ورواياته(٢). وكذلك أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى ، رحل إلى العراق طلبًا للعلم فسمع بها من الشيوخ والعلماء(٣).

وهذا التأثير بين علماء القطرين أمر متبادل ، فقد تأثر أيضا أهل العراق بعلماء الشام ؛ فقد سافر محمد بن الحسين بن محمد النقاش ت ٣٥١هـ إلى مدن متعددة من بينها مدن الشام فكتب بها وسمع من علمائها(٤)، وقصد دمشق للقاء الأخفش فقرأ عليه القرآن ، وصار محمد النقاش عالمًا بالحروف حافظًا للتفسير(٥).

وكذلك محمد بن النضر بن الأخرم الدمشقى قدم بغداد ، وَقَدَّمَه ابن مجاهد إلى المجلس وأمر تلاميذه أن يسمعوا منه ويقرأوا عليه(٦).

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٥٣ ، وطبقات المفسرين للداودى ٢٣/١.

(٢) إنباه الرواة للقفطى ٣٥٩/١.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٠٧/٢ .

(٤) معجم الأدباء لياقوت ٣٠٨/٥ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٠١/٢ ـ ٢٠٢.

(٦) طبقات القراء للذهبى ٢٩١/١.

من مشاهير المفسرين فى الشام :

أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن إدريس الرازى ت ٣٢٧هـ[١] .

كان أبو محمد على جانب كبير من العبادة والزهد والورع والحفظ[٢] ، وكان بحراً فى العلوم ومعرفة الرجال[٣] .

روى عن أحمد بن سنان الواسطى ، وكان يقول : لم يدعنى أبى اشتغل بالحديث حتى قرأت القرآن على الفضل بن شاذان ، ثم كتبت الحديث[٤] .

له التفسير الحافل الذى اشتمل على النقل الكامل ، الذى يربو فيه على تفسير ابن جرير الطبرى وغيره من المفسرين[٥] .

قال عنه محمد بن عبد الله البغدادى : كان من منّة الله على عبد الرحمن أنه وُلدَ بين قماطر العلم والروايات ، وتربى بالمذاكرة مع أبيهَ وأبى زرعة ، ثم تمت النعمة برحلته مع أبيه ، فأدرك الإسناد ، وثقات الشيوخ بالحجاز والعراق والشام والثغور ، ثم كانت رحلته الثانية بنفسه بعد تمكن معرفته ، وتقدم بحسن فهمه ، وديانته وقديم سلفه[٦] .

ذكر له صاحب معجم المؤلفين كتاباً فى تفسير القرآن فى أربع مجلدات[٧] .

عمر بن الحسين بن عبد الله أبو القاسم الخرقى الفقيه الحنبلى ت ٣٣٤هـ[٨] .

الخِرَقى : بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء بعدها قاف ـ هذه التسمية إلى بيع

---

(١) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٩/١٥ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٠٣/١١ ، وتاريخ أبى الفدا ٨٦/٢ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٦٥/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٠٨/٢ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٠٣/١١ .

(٣) شذرات الذهب لابن العماد ٣٠٨/٢

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٠/١٥ .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ٢٠٣ .

(٦) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢١/١٥ .

(٧) معجم المؤلفين لرضا كحالة ١٠٩/٢ .

(٨) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر لابن منظور ٢٥٧/١٨ ، وتاريخ بغداد للبغدادى ٢٣٤/١١ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤٤١/٣ ، والعبر للذهبى ٤٩/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٢٨/١١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٣٦/٢ ، كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٦٦/١ .

الخرق والثياب[1]. وكان من سادات الفقهاء والعباد، كثير الفضائل والعبادة، خرج من بغداد مهاجراً لما كثر بها الشر والسّب للصحابة[2].

وكان من أعيان الفقهاء الحنابلة، وصنف فى مذاهبهم كتباً كثيرة من جملتها المختصر الذى يشتغل به أكثر المبتدئين من أصحابهم، وكان قد أودعها فى بغداد عندما عزم على السفر إلى دمشق، لما ظهر ببغداد سبّ السلف[3].

صنف تفسيراً للقرآن وسماه صاحب كشف الظنون « تفسير الخرقى »[4] كما كانت له تخريجات على المذاهب لم تظهر، لأنه خرج عن مدينة السلام لما ظهر فيها سبّ الصحابة[5]، وأودع كتبه فى دار سليمان فاحترقت الدار التى كانت فيها ولم تكن انتشرت لبعده عن البلد[6].

توفى الخرقى بدمشق، وكان والده أيضا من الأعيان، روى عن جماعة، وروت عنه جماعة رحمهم الله أجمعين[7].

أبو نصر الفارابى محمد بن محمد بن طرخان التركى ت ٣٣٩هـ[8]

من فاراب ـ مدينة مشهورة بخراسان ـ وهو الملقب بالمُعلم الثانى، ولم يكن قبله أفضل منه فى حكماء الإسلام، وقيل الحكماء أربعة، اثنان قبل الإسلام وهما أرسطوا وأبوقراط، واثنان فى الإسلام وهما أبو نصر وأبو على بن سينا. وكان بين وفاة أبى نصر وولادة أبى علىّ ثلاثون سنة، وكان أبو على تلميذاً لتصانيفه[9]، وكان مفرط الذكاء

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٤١/٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٨/١١.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٤١/٣.

(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٦٦/١.

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٣٤/١١.

(٦) شذرات الذهب لابن العماد ٣٣٦/٢.

(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٤١/٣.

(٨) انظر ترجمته فى: الفهرست لابن النديم ص ٣٦٨، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ص ٣٠، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٦/٥، والعبر للذهبى ٥٨/٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٣٥٣/٢، ٣٥٤، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢/٦، والتفسير والمفسرون ٢/ ٤٢٠ـ ٤٢٤.

(٩) تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ص ٣٠.

قدم دمشق ورتب له سيف الدولة كل يوم أربعة دراهم[1] .

وله مصنفات كثيرة ذكرها صاحب كشف الظنون : كتاب آراء أهل المدنية الفاضلة ـ كتاب إحصاء العلوم ـ كتاب أرسطوطاليس ـ كتاب البرهان ـ كتاب التأثيرات العلوية ـ كتاب الجدل ـ كتاب جوامع السياسة ـ كتاب فلسفة أفلاطون وأرسطو ـ كتاب الرد على الرازى فى العلم الإلهى ـ كتاب الرد على ابن الراوندى فى الجدل[2] .

كان الفارابى منفرداً بنفسه لا يجالس الناس، وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ، ويؤلف هناك كتبه ، وينتابه المشتغلون عليه ، وكان أكثر تصانيفه فى الرقاع ، ولم يصنف فى الكراريس إلا القليل ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفى فى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق[3] .

من مشاهير علماء التفسير فى العراق

أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ت ٣٢٠ أو ٣٢٤هـ[4] .

صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب السنة ، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية ، وكان أبو الحسن يجلس أيام الجمع فى حلقة أبى إسحاق المروزى الفقيه الشافعى فى جامع المنصور ببغداد ، كان أبو الحسن أولاً معتزليًا ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن ، فى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ، ورقى كرسيًا ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرّفه بنفسى ، أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا تراه الأبصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم »[5] .

---

(١) العبر للذهبى ٥٨/٢ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢/٦.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٦/٥ .

(٤) انظر مصادر ترجمته فى : تاريخ بغداد للبغدادى ٣٤٦/١١ ـ ٣٤٧ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٨٤/٣ ـ ٢٨٦ ، والعبر للذهبى ٢٣/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٩٩/١١ ، وطبقات المفسرين للداودى ٣٩٦/١ ـ ٣٨٩ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٦٢/١

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٤٨/٣ ، ٢٨٥ .

وكان أبو الحسن يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن أبى بردى بن أبى موسى الأشعرى على عقبه ، وكانت نفقته فى كل يوم سبعة عشر درهما [١].

صنف لأهل السنة التصانيف ، وأقام الحجج على إثبات السنن ، وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وقدرته عز وجل ، وأمور السمع الواردة من الصراط والميزان والشفاعة والحوض وفتنة القبر الذى نفته المعتزلة وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث ، فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة والدلائل الواضحة العقلية ، ودفع شبهة المبتدعة ومن بعدهم من الملحدة والرافضة وصنف فى ذلك التصانيف المبسوطة التى نفع الله بها الأمة وناظر المعتزلة وظهر عليهم[٢].

وقد ذكر صاحب كشف الظنون تفسيراً للقرآن الكريم لأبى الحسن سماه «تفسير أبى الحسن»[٣]، وله من التآليف الأخرى المشهورة كتب كثيرة جداً ، عليها معول أهل السنة ، مثل : كتاب الموجز ، التوحيد والقدر ، والأصول الكبير ، خلق الأفعال ، الصفات ، الاستطاعة ، الرؤية ، الأسماء والأحكام والخاص والعام ، إيضاح البرهان ، الحث على البحث ، النقض على البلخى ، النقض على الجبائى ، النقض على ابن الراوندى ، الرد على الخالدى ، الدامغ ، أدب الجدل ، جوابات الطبريين ، جواب النعمانيين ، جوابات الجرجانيين ، الجوابات الخراسانية ، كتاب الاجتهاد المعارف ، الرد على الدهريين ، الرد على المنجمين ، مقالات الإسلاميين ، المقالات الكبير ، النبوات ، اللمع الكبير ، اللمع الصغير ، كتاب الشرح والتفصيل ، الإبانة فى أصول الديانة ، المختزن فى علوم القرآن مائة جزء[٤].

فقد كان أبو الحسن الأشعرى صاحب الكتب فى الرد على الملاحدة ، وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة[٦]. قيل توفى سنة

---

(١) تاريخ بغداد للبغدادى ١١/٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٢٨٦ .

(٢) طبقات المفسرين للداودى ١/٣٩٧ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ١/٣٦٢.

(٤) طبقات المفسرين للداودى ١/٣٩٧ ، ٣٩٨.

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٢٨٦.

٣٣٠هـ وقيل بعد الثلاثين وذكر الذهبى فى ٣٢٤هـ[١].

محمد بن الحسن بن يعقوب بن مقسم أبو بكر البغدادى ت ٣٥٤هـ[٢]

كان ابن مقسم مشهوراً بالضبط والاتقان، عالم بالعربية ،حافظ للغة، حسن التصنيف فى علوم القرآن[٣]، وكان ثقة من أعرف الناس بالقراءات وأحفظهم لنحو الكوفيين ، وله فى معانى القرآن كتاب سماه « الأنوار » وله عدة تصانيف ولم يكن له عيب إلا أنه قرأ بحروف تخالف الإجماع ، واستخرج لها وجوها من اللغة والمعنى مثل ما ذكر فى قوله تعالى : ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجباء ﴾[٤] بالباء وأنه جائز ، هذا مع كونه يخالف الإجماع بعيد من المعنى ، إذ لا وجه للنجابة عند يأسهم من أخيهم، إنما اجتمعوا يتناجون . ثم تاب بعد ذلك وشاع ذلك وأذعن بالتوبة ، وكتب محضرا بتوبته[٥].

وله من الكتب : كتاب الأنوار فى علم القرآن ، كتاب المدخل إلى علم الشعر ، كتاب احتجاج القراءات ، كتاب فى النحو ، كتاب المقصور والممدود ، كتاب المذكر والمؤنث ، كتاب الوقف والابتداء ، كتاب عدد التمام ، كتاب المصاحف ، كتاب السبعة الكبير ، كتاب السبعة الأوسط ، كتاب مجالس ثعلب[٦]، كتاب الموضح ، كتاب الرد على المعتزلة ، كتاب الانتصار لقراء الأمصار ، كتاب اللطائف في جمع هجاء المصاحف[٧]، كتاب شفاء الصدور ، كتاب فى قوله تعالى : « ومَن يقتل »[٨].

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٨٤/٣ ، والعبر للذهبى ٢٣/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٩٩/١١ .

(٢) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٤٩ ، ٥٠ وتاريخ بغداد للبغدادى ٢٠٦/٢ ـ ٢٠٨ وأنباه الرواه للقفطى ١٠٠/٣ ـ ١٠٣ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٣١٠/٥ـ ٣١٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٥٩/١١ ، والعبر للذهبى ٣١٠/٢ ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ٥٦٦/٨ ، وغاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى ١٢٣/٢ ، ١٢٤ ، والنجوم الزاهرة ٣٤٣/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٦/٣ ، وطبقات المفسرين للداودى ١٣١/٢ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٢٠٤/١ ، ٢١٣/٤ .

(٣) غاية النهاية لابن الجزرى ١٢٤/٢ .

(٤) سورة يوسف الآية (٨٠)

(٥) معجم الأدباء لياقوت ٣١٠/٥ ، ٣١١ ، وتاريخ بغداد للبغدادى ٢٠٦/٢ ، ٢٠٧ .

(٦) الفهرست لابن النديم ص ٤٩ ، ٥٠ ، ومعجم الأدباء ٣١٢/٥

(٧) طبقات المفسرين للداودى ١٣١/٢ ، ١٣٢

(٨) معجم الأدباء لياقوت ٥/ ٣١٢

عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب أبو هاشم بن أبى على الجُبّانى[1] ت٣٢١هـ[2]

المتكلم المشهور العالِم ابن العالم ، كان هو وأبوه من كبار المعتزلة ، ولهما مقالات على مذهب الاعتزال ، وكُتب الكلام مشحونة بمذاهبهما واعتقادهما[3] وإليه تنسب الطائفة الهاشمية من المعتزلة[4] ، وكان ذكيًا حسن الفهم ثاقب الفطنة ، صانعا للكلام مقتدراً عليه قيمًا به[5] ، له تصانيف وتفسير ، قال ابن رستويه : اجتمعت مع أبى هاشم ، فألقى علىّ ثمانين مسألة من غريب النحو ما كنت أحفظ لها جواباً[6] .

وله من الكتب : كتاب الجامع الكبير ، كتاب الأبواب الكبير ، كتاب الأبواب الصغير ، كتاب الجامع الصغير ، كتاب الإنسان ، كتاب العوض ، كتاب المسائل العسكريات ، كتاب النقض على ارسطوطاليس فى الكون والفساد ، كتاب الطبائع على القائلين بها ، كتاب الجهاد[7] .

كان أبو هاشم له ولد يسمى أبا علىّ ، وكان عاميا لا يعرف شيئًا ، فدخل يومًا على الصاحب ابن عباد ، فظنه عالمًا فأكرمه ورفع مرتبته ، ثم سأله عن مسألة فقال : لا أعرف نصف العلم ، فقال له الصاحب : صدقت يا ولدى ، إلا أن أباك تقدم بالنصف الآخر[8] .

---

(١) الجبّائى : بضم الميم وتشديد الباء الموحدة ، هذه النسبة إلى قرية من قرى البصرة وفيات الأعيان لابن خلكان ١٨٣/٣ .

(٢) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٢٤٧ ، وتاريخ بغداد ٥٥/١١ ، ٥٦ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٨/٣ ، والعبر للذهبى ١٢/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١١/ ١٨٨ ، وطبقات المفسرين للداودى ٣٠٧/١ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٤٢/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٨٩/٢ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٨٣/٣ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ١٨٨/١١ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٢٤٧ .

(٦) طبقات المفسرين للداودى ٣٠٧/١ .

(٧) الفرست لابن النديم ص ٢٤٧ .

(٨) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٨٣/٣ .

محمد بن الحسن المعروف بخير النساج أبو الحسن الصوفى ٣٢٢هـ[(١)]

كان من كبار الصوفية من أهل سامرا سكن بغداد ، وللصوفية عن خير النساج حكايات عجيبة ، يقول أبو بكر البغدادى : نذكر بعضها من البراءة من عهدتها[(٢)].

كانت لخير النساج حلقة علم يتكلم فيها ، فقد صحب أبا حمزة البغدادى ، وسأل السّرىّ السقطى عن مسائل ، وكان إبراهيم الخواص تاب فى مجلسه ، وكذلك الشبلى تاب فى مجلسه ، وقد عمّر طويلاً[(٣)].

كان من ذوى الأحوال الصالحة والكرامات المشهورة وعاش مائة وعشرين سنة[(٤)]. وكان يقول : لا نسب أشرف من نسب من خلقه الله بيده فلم يعصمه، ولا أعلم أرفع ممن علمه الله الأسماء كلها ، فلم ينفعه فى وقت جريان القضاء عليه[(٥)].

وكان يقول : « توحيد كل مخلوق ناقص ، لقيامه بغيره وحاجته إلى غيره ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلي الله ﴾ أى المحتاجون إليه فى كل نَفَس «واللّه هو الغنِىّ عنكم ، وعن توحيدكم ، وأفعالكم ، « الحَمِيد »[(٦)] الذى يقبل منك ما لا يحتاج إليه ، ويثيبك على ما تحتاج إليه[(٧)].

وقال خير النساج[(٨)]: « ميراث أفعالك ما يليق بأفعالك ، فاطلب ميراث فضله ، فإنه أتم وأحسن ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِه فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[(٩)].

---

(١) انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية للسلمى ص ٣٢٢، وحلية الأولياء للأصبهانى ٣٠٧/١٠، وتاريخ بغداد للبغدادى ٤٨/٢ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٥١/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٩٣/١١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٩٤/٢.

(٢) تاريخ بغداد للبغدادى ٤٨/٢.

(٣) طبقات الصوفية للسلمى ص ٣٢٢ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ١٩٣/١١.

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٥٢/٢.

(٦) سورة فاطر الآية (١٠) .

(٧) طبقات الصوفية للسلمى ص ٣٢٤.

(٨) طبقات الصوفية للسلمى ص ٣٢٥

(٩) سورة يونس الآية (٥٨) .

أبو بكر الشبلي دُلفُ بن جَحْدَر ويقال دُلفُ بن جعفر وقيل جعفر بن يونس ت ٣٣٤هـ [١] .

أبو بكر الشبلي خراساني الأصل بغدادي المنشأ والمولد ، تاب في مجلس خير النساج وصحب الجنيد ومن في عصره من المشايخ ، وصار أوحد وقته حالاً وعلمًا ، وكان عالمًا فقيهًا على مذهب مالك ، عاش سبعا وثمانين سنة ، ومات في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، وكتب الحديث الكثير ورواه [٢] . وقال عن نفسه : كتبت الحديث عشرين سنة ، وجالست الفقهاء عشرين سنة ، وكانت له حلقة علم فسئل عن ما إذا اشتبه على المرأة دم الحيض يوم الاستحاضة كيف تصنع ؟ فأجاب بثمانية عشر جوابًا [٣] .

كان ممن اشتبه عليه أمر الحلاج فيما نسب إليه من الأقوال ، من غير تأمل فيها مما كان الحلاج يحاوله من الإلحاد والاتحاد [٤] .

سئل أبو بكر الشبلي عن قول الله عز وجل : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [٥] قال : ادعوني بلا غفلة استجب لكم بلا مهلة [٦] .

ويقول في قول الله عز وجل : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾[٧] قال : يمحو ما يشاء من شهود العبودية وأوصافها ، ويثبت ما يشاء من شواهد الربوبية ودلائلها .

ومن مؤلفاته : حديث مع صديق عن الحج [٨] .

---

(١) انظر ترجمته في : طبقات الصوفية للسلمي ص ٣٣٧، والحلية لأبي نعيم ٣٦٦/١٠، وتاريخ بغداد للبغدادي ٣٨٩/١٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٧٣/، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٢٩/١١ وشذرات الذهب لابن العماد ٣٣٨/٢.

(٢) طبقات الصوفية للسلمي، ص٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٣) تاريخ بغداد للبغدادي ١٤/ ٣٩٣ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ٢٢٩.

(٥) سورة غافر الآية (٦٠) .

(٦) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٦٨/١٠.

(٧) سورة الرعد الآية (٣٩) .

(٨) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٧٤/٤ .

الفصل الثالث

علم الحديث فى الشام والعراق

الحديث وعلومه قبل القرن الرابع :

انتشر الحديث قبل القرن الرابع الهجرى فى كل من الشام والعراق وغيرهما ، وتعددت المراكز العلمية فى الأمصار ، التى كانت لها ميزتها وأساتذتها ، فقصدها الطلاب من الأماكن البعيدة .

ولما كان القرآن الكريم ثابتًا لم يطرأ عليه التبديل أو التحريف ؛ لحفظه وتدوينه أيام الرسول الكريم ﷺ ، اتجه أعداء الإسلام إلى الحديث الشريف ، لما له من منزلة كبيرة فى الشريعة ، ولأنه لم يدوّن ، فاعملوا جهودهم للتلاعب بنصوصه والدّسّ عليه ، فشاع وضع الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ ؛ عندئذ بذل العلماء الجهود جبارة فى تمحيص متون الأحاديث وأسانيدها ، فميزوا الحديث الموضوع من غيره ، ورحلوا فى طلب الحديث لتوثيق منه ووضعوا أدق قواعد النقد العلمى للروايات بما نفتخر به ونعتز على مدى الأجيال ، وأظهر تلك الجهود أمر الإسناد ، وهو رفع الحديث إلى قائله [١]، وصار الإسناد لكل رواية فى الحديث واستقر فى الأذهان حقيقة أن الإسناد من الدين، وهو فى أصله خصيصة فاضلة لهذه الأمة ليست لغيرها من الأمم، وقال ابن المبارك : الإسناد من الدين لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء »[٢].

لقد أصبحت ضوابط المحدثين للرواية أيضا من أدق موازين النقد العلمى للأخبار ، ومن الأمور الموضحة لتلك المقاييس : شروط الراوى وطرق الرواية وعلم الجرح والتعديل[٣].

وبعد أن استقرت الدولة الإسلامية ، أصبحت المساجد مراكز تعليم القراءة والكتابة ، والعناية بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وكثرت الصحف المدونة ، وجمع الحديث الشريف وكُتب ، ثم غدا المحدثون يرتبون الأحاديث على الأبواب ، فصنفوا الكتب الستة ، والمستخرجات على الصحيحين، والمصنفات والجوامع وغير ذلك من المصنفات .

---

(١) قواعد التحديث للقاسمى ص ٢٠٢.

(٢) قواعد التحديث للقاسمى ص ٢٠١ .

(٣) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٥٩ ـ ٦٨ ، ١١٧.

فأصبح القرن الثالث هو أجلّ عصور الحديث فى جمعه وتدوينه وتمييز الصحيح من غيره[1]. وفيه ظهرت الكتب الستة ، وفيه اعتنى أئمة السنة بالكلام على الأسانيد وتواريخ الرجال ومنزلتهم فى الجرح والتعديل ، ولم يكن العلماء فى القرن الثالث يدوّنون الأحاديث بالنقل من كتب ـ كما يحدث فى القرن الرابع ـ بل كان اعتمادهم على ما حفظوه عن مشايخ الحديث وعرفوا جيده من رديئه وصحيحه من ضعيفه ، فكانوا يتناقلونه بالسماع ثم تطور الأمر وصارت علوم الحديث تكتب وتسجل لكن فى أمكنة متفرقة من الكتب ممزوجة بغيرها من العلوم الأخرى ، كعلم الأصول وعلل الفقه ، حتى نضجت العلوم واستقر الاصطلاح فى كتاب مستقل[2].

الحديث وعلومه فى الشام والعراق خلال القرن الرابع :

وما كادت شمس القرن الثالث الهجرى تؤذن بمغيب حتى كانت الموسوعات الحديثة تزخر بالحديث وعلومه وصار العلماء فى القرن الرابع الهجرى وما بعده يجمعون ما تفرق من كتب الأولين أو يختصرونها بحذف الأسانيد أو يقومون بشيء من الترتيب والتهذيب إلى غير ذلك . ولم يختص ذلك الأمر بالشام دون العراق بل بهما معاً ، فهما يسيران فى خط واحد فى علم الحديث .

فإذا تكلموا فى الأسانيد بلسان من سبقهم من أهل القرون الأولى فإن جمهرة منهم نسجوا على منوال السابقين ، وكان لهم فى رواية الأحاديث وفحص الأسانيد باع طويل .

ولكن الغالب على القرن الرابع الهجرى أنه كان عصر تبويب وتهذيب ، وبنهاية هذا القرن انتهى جمع السنن .

وكان التصنيف فى الحديث على طرق شتى : فتارة على الأبواب أو المسانيد أو الأطراف ، أو على حروف المعجم ، وتارة بتصنيفه معللاً أو على طريقة الاستخراج ، وتارة بإفراده بعض الأبواب أو الشيوخ ، أو التراجم أو الطرق[3].

---

(١) مقدمة نزهة النظر شرح نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر لابن حجر العسقلانى ص ١٠ .

(٢) تيسير مصطلح الحديث د/ محمود الطحان ص ٨ ، ٩ .

(٣) مقدمة نزهة النظر لابن حجر العسقلانى ص ١٠ ، ١١ .

ففى القرن الرابع الهجرى لفظت الرواية الشفاهية أنفاسها شيئاً ما وذهب من بين الرواة ريحها ، وطغى عليها التدوين الذى بلغ أشدّه فى ذلك الوقت ، لهذا جعل العلماء الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين من رواة الحديث وحملته هو رأس سنة ثلثمائة[1].

غير أن من بين علماء القرن الرابع ـ كما سبق أن بيّنا ـ جمهرة كبيرة كان لها فى تدوين الحديث طريقة استقلالية على نمط السابقين ، فمن هؤلاء الأئمة الأعلام:: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى ت ٣٦٠هـ، الذى يمثل علماء الشام فى هذا الاتجاه ، صاحب المعجم الكبير والصغير والأوسط[2].

والإمام الحافظ على بن عمر الدارقطنى ت ٣٨٥هـ، الذى يمثل علماء العراق فى هذا الاتجاه أيضاً ، حيث سمع وصنف وأجاد وأفاد وأحسن النظر والتعديل[3].

لذلك نستطيع أن نقول : إنّ رجال القرن الرابع سواء فى الشام أو فى العراق أضافوا شيئًا قليلاً على رجال القرن الثالث الهجرى مما استدركوه عليهم ، وكل صنيعهم جمع ما جمعه من سبقهم والاعتماد على نقدهم والإكثار من طرق الحديث، بل نستطيع أن نقول أيضا : أن من ثمار حركة التدوين ، أن دوّنت القواعد التى وضعها العلماء أثناء حركتهم لمقاومة الوضع ، وبذلك كان علم مصطلح الحديث الذى يضع القواعد العلمية لتصحيح الأخبار ، وهى أصح ما عرف فى التاريخ من قواعد علمية للرواية والأخبار .

فعلم مصطلح الحديث يبحث عن تقسيم الخبر إلى صحيح وحسن وضعيف وتقسيم كل من هذه الثلاثة إلى أنواع ، وبيان الشروط المطلوبة فى الراوى والمروى وما يدخل الأخبار من علل واضطراب وشذوذ ، وما ترويه الأخبار ، وما يتوفر فيها إلى أن تعضد بمقومات أخرى ، وبيان كيفية سماع الحديث وتحمله وضبطه وآداب المحدث وطالب الحديث وغير ذلك مما كان فى الأصل بحوثاً متفرقة وقواعد قائمة فى نفوس

---

(١) الحديث والمحدثون د/ محمد أبو زهو ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

(٢) الرسالة المستطرفة ص ٣٠، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٣٩٣/١/١ ، ٣٩٤ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣٣٨/١١.

العلماء في القرون الثلاثة الأولى إلى أن أفرد بالتأليف والجمع والترتيب شأن العلوم الإسلامية الأخرى في تطورها وتدرجها ، فكان القرن الرابع أول قرن ظهر فيه أول تصنيف يجمع كل أبواب المصطلح أو على الأقل أكثر أبوابه .

فمن أول من صنف في علوم الحديث هو القاضي أبو محمد الرامهرمزي ت٣٦٠هـ ولم أصل بناء على ما تحت يدي من المصادر إلى القطع بدخوله أيٍّ من الشام أو العراق، فلذلك لا نستطيع أن نعده من علماء الشام أو العراق ، لكن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري ت ٤٠٥هـ عدّه ابن حجر العسقلاني بعد الرامهرمزي في التصنيف في علوم الحديث وقال عنه : لكنه لم يهذب ولم يرتب(١). ولكن الخطيب البغدادي يذكره في تاريخ بغداد فيقول : كان من أهل الفضل والعلم والمعرفة والحفظ وله في علوم الحديث مصنفات عدة ، ورد بغداد في شيبته فكتب بها ، ثم وردها وقد علت سنه فحدث بها وروى عن الدارقطني(٢)، ويقول ابن خلدون : ومن فحول علمائه وأئمتهم أبو عبد الله الحاكم وتآليفه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه .

لذلك قد كان للعراق حظ وافر من الشام في ظهور بعض العلماء الذين صنفوا في علوم الحديث وكانت بغداد من بين المدن التي رحلوا إليها فسمعوا من علماءها وحدثوا فيها وكتبوا .

يقول الإمام السخاوي(٣) : إن بلاد الشام قد انتشر فيها الحديث منذ زمن الصحابة والتابعين حتى القرن الرابع الهجري ، إذ فيه يقل العلم ويتناقص ويصبح ليس بالكثير ، أما دمشق بالذات فكانت القطر المتسع المشتمل على عدة بلاد ومدن وقرى كثر بها العلم ، وهي دار قرآن وحديث وفقه ، وتناقص بها العلم في القرن الرابع الهجري .

وأما بلاد العراق : فلم تزل معمورة بالأثر والخبر خاصة بغداد وهي دار الإسناد العالي والحفظ ومنزل الخلافة والعلم ، أما الكوفة مازال العلم بها متوفر إلى زمان ابن عقدة في القرن الرابع الهجري ، أما البصرة فقد تناقص بها العلم بعد المائة الثالثة .

---

(١) نزهة النظر شرح نخبة الفكر لابن حجر العسقلاني ص ١٦ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤٧٣/٥.

(٣) الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ٢٩٢ ـ ٢٩٧ .

الرحلة فى طلب الحديث :

المتتبع لتاريخ الرحلات العلمية يدرك أنها ابتدأت منذ الجيل الإسلامى الأول ، ليعلموا الناس شئون الدين ، وليقرئونهم القرآن ، ويرووا لهم الأحاديث ، ثم تفاوتت ميول العلماء فأصبح منهم من يميل إلى التفسير ، ومنهم من يميل إلى الحديث ، ومنهم من يميل إلى الفقه وهكذا .

لقد استجاب طلاب العل فى القرن الرابع لدعوة العلم وتحصيله ، وهبّوا يسافرون لطلب العلم رغم مشقة السفر وإجهاد الرحلة ، فخرجوا فرادى وجماعات يسعون فى عزم قوى ومثابرة فائقة .

يقول ابن خلدون عن الرحلات لطلب العلم : الرحلة فى طلب العلم مفيدة لأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم تارة علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقينًا بالمباشرة ، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدّ استحكامًا وأقوى رسوخًا، والرحلة تفيد كثرة الشيوخ ، وعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة أقوى رسوخًا فتعدد المشايخ يفيد تعدد الطرق إذ أن لكل منهم طريقته فى التعليم . فالرحلة لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال[١] .

إن من مظاهر اهتمام علماء الحديث بالحديث الشريف الرحلة فى طلبه ، وأخبار رحلات علماء الشام والعراق فى طلب الحديث كثيرة يضيق بها المقام ، ولكن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، لقد أصبحت الرحلة من منهج المحدثين فى العلم ، حيث يتحقق بها أهداف عظيمة عندهم ، إذ يحصلون على الحديث والتثبت من صحته عن طريق الوقوف على طريق سنده ، وطلب العلو فى السند ، والعلو : هو قلة عدد الرواة فى سند الحديث مع اتصال السند والبحث عن أحوال الرواة من حيث العدالة والحفظ والتيقظ ومذاكر العلماء وجهابذة الفن فى نقد الأحاديث وعللها[٢] .

فليس من شك فى أن الرحلة إلى العلماء والتقاء الحفاظ بعضهم ببعض طريق عظيم فى تثقيف العقول وتنقيح العلوم وتمحيص المحفوظ من الحديث ، وبها يقف

---

(١) مقدمة ابن خلدون بتحقيق د/ على عبد الواحد وافى بتصرف ١٢٥٥/٣.

(٢) حضارة العراق الجزء السابع قسم العلوم الدينية د/ قحطان الدورى ص٩٦ ـ ٩٧ .

الراوى بنفسه على سيرة الرواة فى بلدانهم ويعلم قوتهم من ضعفهم فضلا عن الاستزادة من الحديث وحفظ ما لم يكن موجوداً عند علماء بلده وأهل مصره ، لقد كانت الرحلة هى سنّة العلماء من لدن رسول الله ﷺ إلى أن أدركت الأمة الإسلامية القرن الرابع وما بعده[١] .

فالرحلة تمكن المحدثين من العلم ، ونشره بين الناس ، فاتسعت الثقافة وتمت الفضائل فى النفس وتعارفوا ، واجتمعوا على خدمة الحديث الشريف . وصارت كتب التراجم تكتب عن العلماء المحدثين أنه فلان الدمشقى ثم الحلبى ثم البغدادى ثم الكوفى ثم البصرى ثم المصرى ، فنعرف مقدار ما قاسى من مشاق فى قطع المسافات الشاسعة بأخطارها تاركا أهله وبلده .

فمن علماء الشام :

ـ الإمام الحافظ النبيل محدث الشام أبو الحسن أحمد بن عمير بن يوسف بن موسى بن جوصا الدمشقى ت ٣٢٠هـ يقول عنه ابن عساكر : هو شيخ الشام فى وقته رحل وصنف وذاكر وروى .

ـ وأبو الحسن خيثمة بن سليمان بن حيدرة القرشى الأطرابلسى ت ٣٤٣هـ . قال ابن عساكر : أحد الثقات المكثرين الرّحالين فى طلب الحديث ، سمع بالشام واليمن وبغداد والكوفة وواسط .

ـ وأبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطر الحافظ اللخمى الطبرانى ت٣٦٠هـ سمع بدمشق وبمصر واليمن[٢] ، وأقام فى الرحلة ثلاثا وثلاثين سنة، وعدد شيوخه ألف شيخ ، فكان حافظ عصره[٣] . سمع بالشام والحجاز واليمن ومصر وبغداد والكوفة والبصرة وأصبهان والجزيرة[٤] .

---

(١) الحديث والمحدثون لمحمد أبو زهو ص ١٠٩ .

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٩٨/٣ ، ٩٩/٨، ١٠٣/١٠ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٠٧/٢

(٤) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٧٣.

ـ وأبو بكر يوسف بن القاسم بن يوسف اللخمى ت ٣٧٥هـ نزيل دمشق رحل إلى الشام والجزيرة وخراسان والعراق[١] .

ـ وأبو مسعود إبراهيم بن محمد بن عبيد الحافظ الدمشقى ت ٤٠٠ أو ٤٠١هـ خرج عن دمشق وسمع وكتب ببغداد والكوفة والبصرة وواسط والأهواز وأصبهان وبلاد خراسان[٢] .

ـ وأبو الحسين محمد بن أحمد بن محمد بن جميع الغسانى الصيداوى ت٤٠٢هـ كان واسع الرحلة كثير السماع حدث ببغداد ، فرحل وكتب الكثير بالشام والعراق ومصر وفارس[٣] .

ومن علماء العراق :

ـ أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد الهاشمى البغدادى ت ٣١٨هـ كان أحد حفاظ الحديث وممن عنِى به ، ورحل فى طلبه إلى الشام والعراق ومصر والحجاز[٤] .

ـ وأبو محمد دعلج بن أحمد السجستانى البغدادى ت ٣٥١هـ سمع الحديث ببلاد خراسان وبالرى وحلوان وبغداد والبصرة والكوفة ومكة .

ـ ومحمد بن محمد بن يعقوب بن إساعيل بن الحجاج أبو الحسين المعروف بالحجاجى ت ٣٦٨هـ سمع من أهل نيسابور ، والرى ، وبغداد والكوفة ومكة ومصر والشام ، والجزيرة ، وكان ثبتاً حافظاً صنف العلل والشيوخ والأبواب .

ـ ومحمد بن العباس بن أحمد بن عُصم أبو عبد الله ويُعرف بالعصمىّ من أهل هراة ت ٣٧٨هـ ، دخل بغداد فى سنة سبع عشرة وثلثمائة ، كان أول سماعه بهراة ثم رحل إلى نيسابور ، ثم رحل إلى الرى ، ثم إلى بغداد[٥] .

---

(١) العبر للذهبى ١٤٦/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٨٦/٣ .

(٢) تاريخ بغداد للبغدادى ١٧٢/٦ ـ ١٧٣ .

(٣) العبر للذهبى ٢٠٢/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٦٤/٣ .

(٤) العبر للذهبى ٤٧٨/١ .

(٥) تاريخ بغداد للبغدادى ٣٨٧/٨ ـ ٣٨٨ ، ٢٢٣/٣ ، ١١٩/٣ .

ـ ومحمد بن المظفر بن موسى بن عيسى أبو الحسين البزاز ت ٣٧٩هـ ولد ببغداد ٢٨٦هـ وأول سماعه للحديث سنة ٣٠٠هـ وسمع من البغداديين المحدثين وسافر الكثير فكتب بحران ، وبدمشق وبمصر .

ـ ومحمد بن على بن الحسين بن الحسن العلوى يكنى أبا الحسن ت ٣٩٥هـ ولد بهمذان ، ونشأ ببغداد وسافر فى طلب العلم إلى الشام ، وحاور بمكة وطلب الحديث ببغداد وبهمذان ونهاوند والرملة ونيسابور واستوطن بخراسان .

ـ ومحمد بن الحسن بن محمد بن زياد النقاش ت ٣٥١هـ . سافر الكثير شرقًا وغربًا ، وكتب فى رحلته بالكوفة والبصرة ومكة ومصر والشام والجزيرة والموصل والجبال وبلاد خراسان وما وراء النهر والمصيصة[1] وطبرستان وهراة وحمص ودمشق وإنطاكية والرملة وطبرية[2] .

تعقيب :

الناظر فى علماء الشام وعلماء العراق فى علم الحديث يجد أن كثيراً منهم سمع فى كل من الشام والعراق وكتب وأملى وحدّث ، وذلك لا يمنع من أن نجد فروقًا ولو قليلة أو بسيطة ينفرد بها أهل الشام أو أهل العراق كما سنبيّن بعد قليل .

انتشر الحديث فى القرن الرابع وتعددت مراكزه ومجالسه فى الأمصار خاصة فى الشام والعراق، وتوافد على تلك المراكز العديد من طلبة الحديث لسماعه من علمائه .

أما الشام : فانتشر فيه الحديث منذ زمن الصحابة والتابعين حتى القرن الرابع الهجرى وكثر بها العلم خاصة دمشق التى قال عنها السخاوى : هى دار قرآن وحديث وفقه[3] .

يحتل علم الحديث عند علماء الشام مكانة مرموقة لشرفه ولاهتمامهم به وبفنونه

---

(١) المصيصة : مدينة من ثغور الشام . معجم البلدان لياقوت ١٤٥/٥.

(٢) تاريخ بغداد للبغدادى ٢٦٢/٣ ـ ٢٦٣، ٩٠/٣ ، ٢٠١/ ـ ٢٠٢ .

(٣) الإعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ للسخاوى ص٢٩٢ ـ ٢٩٧.

المختلفة ، فقد كتبوا فيه وجمعوا ، فالمتتبع لمؤلفات علماء الشام فى علم الحديث وفنونه في كتب الفهارس كالفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة ومعجم المؤلفين لكحالة سيجد كثيراً من مؤلفات علماء الشام لم يتسع المقام لحصرها وبيانها ، هذا إن دلّ فإنما يدل على مدى مكانة علم الحديث عند علماء الشام فى القرن الرابع الهجرى .

وأما العراق : فكانت أكثر حظاً من الشام فى اهتمامها بعلم الحديث، ومكانة هذا العلم عند علمائها ، فإذا جانبنا الحظ فى أننا لم نجد من بين علماء الشام من صنفوا فى بعض فنون علم الحديث ، فإن علماء العراق نستطيع أن نقول : أنهم كتبوا حول فنون علم الحديث بجميع أنواعه وكان لعلماء العراق أو العلماء الذين نزلوا بغداد وسمعوا وكتبوا وحدثوا السبق فى أن منهم من يعد من أوائل من كتب فى علوم الحديث مجموعة من مصنف واحد ، كأبى عبد الله الحاكم(١) .

ومما يثبت مكانة علماء العراق فى علم الحديث ما يقوله السخاوى عن بلاد العراق فى أنها فى القرن الرابع الهجرى لم تزل معمورة بالأثر والخبر خاصة بغداد وهى دار الإسناد العالى ، والحفظ ، ومنزل الخلافة والعلم ، أما الكوفة فيبين أن العلم بها ظل مستمراً حتى زمن ابن عقدة وهو القرن الرابع الهجرى(٢) .

ومما يثبت مكان علماء العراق فى هذا العلم مشاركتهم فى جميع فنونه التى لم نجدها بأكملها عند علماء الشام وإنه ليغلب علينا الظن فى أن علماء العراق استطاعوا من خلال دافع مكانة العلم عندهم واهتمامهم به أن يكتبوا فى فنونه .

كانت دراسة الحديث الشريف هى الدعامة الهامة التى حفزت الطلاب على أن يبذلوا هذا الجهد العظيم ، ويتحملوا مشاق الرحلة فى تعلم الحديث الشريف سواء فى الشام أو العراق إذ كانت قيمة طلب العلم فى نظر الناس تتناسب مع ما قام به من رحلات لطلب العلم ومع عدد العلماء الذين تلقى عنهم .

---

(١) تاريخ بغداد للبغدادى ٤٧٣/٥، ونزهة النظر لابن حجر العسقلانى ص ١٦ .
(٢) الإعلان بالتوبيخ للإمام السخاوى ص٢٩٢ ـ ٢٩٧ .

وقد قام كل من علماء الشام والعراق بالرحلة فى طلب الحديث ونشره بين الناس واجتماعهم على خدمة الحديث الشريف ، وقد جمعت لنا كتب التراجم والطبقات جمعاً جماً من علماء الشام الذين ضربوا فى الأرض ورحلوا إلى بلاد متعددة وكذلك من علماء العراق ، وقد سبق ذكر بعض هؤلاء العلماء الرحالين مع بيان رحلاتهم فى طلب الحديث(١) .

طرق التصنيف فى علم الحديث فى كل من الشام والعراق فى ق ٤هـ

قد أسفرت جهود العلماء فى الذب عن الحديث الشريف، والوقوف أمام أعداء الإسلام الذين وجهوا سهامهم إلى الحديث الشريف عن القيام بأعمال عظمية كتمحيص للأحاديث ، وتمييز للحديث الصحيح من غيره ، والرحلة فى طلب الحديث والتوثيق منه ، ووضع قواعد النقد العلمى للروايات وجمع للحديث الشريف وكتابته حتى وصلنا الحديث الشريف مشفوعاً ببيان حال ، فحفظوا بذلك على الأمة الإسلامية دينها .

وإن من أعظم ما أسفرت عنه جهود علماء الحديث فى خدمة السُّنَّة أن كتبوا فى علومها المختلفة الأنواع ما يسميه العلماء بطرق التصنيف ـ التى سنقف عليها بعد قليل ـ كتبًا مفردة فى كل فن أو علم أما جمع هذه العلوم الحديثية والكلام عليها فى مصنف فلم يحدث ذلك إلا بعد منتصف القرن الرابع الهجرى فيما يغلب عليه الظن .

أما فنون الحديث التى كتب فيها العلماء فى القرن الرابع فى كل من الشام والعراق منها : علم الجرح والتعديل ، وهذا الفن هو عماد علوم السنة ، من كتب فيه فقد صنف كتابه فى الضعفاء من الرواة فقط ومنهم من قصر مؤلفه على الثقات لا غير ، ومنهم من جمع النوعين(٢) .

---

(١) انظر مبحث الرحلة فى طلب الحديث فيما سبق .

(٢) الحديث والمحدثون د/ محمد أبو زهو ص ٤٦٠ .

وعلم معرفة الصحابة بأسمائهم وكناهم وهو فن جليل اعتنى به علماء الحديث ، وقد تناول العلماء هذا الفن بالتأليف إذ به يعرف الحديث أمتصل أم مرسل[1] . وعلم تاريخ الرواة ورحلاتهم ومواطنهم وأبانوا عن مواليدهم ووفياتهم وكثير من أحوالهم وعلم المؤتلف والمختلف وعلم تأويل مشكل الحديث ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ من الحديث ، ومعرفة غريب الحديث ومعرفة علل الحديث[2] وغير ذلك من فنون الحديث الشريف .

التزام الصحة فى تصنيف كتب الحديث :

التزم بهذه الطريقة وصنف بها علماء العراق دون علماء الشام ، فقد صنف علماء الحديث فى العراق كتبا فى الحديث والتزموا فيها الصحة من غير ما تقدم من الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم ، فمن علماء العراق الإمام الحافظ على بن عمر الدراقطنى نسبة إلى دار القطن محلة كبيرة ببغداد المتوفى سنة ٣٨٥هـ وهذا الكتاب كالمستدرك على الصحيحين للحاكم ، فقد جمع الدراقطنى فى كتاب الإلتزامات » ما وجده على شرطهما من الأحاديث ، وليس بمذكور فى كتابيهما ولزامهما ذكره وهو مرتب على المسانيد[3] .

والحافظ أبو على سعيد بن السكن البغدادى ت ٣٥٣هـ فقد صنف الصحيح المنتقى المسمى بالسنن الصّحاح المأثورة عن رسول الله ﷺ ولكنه كتاب محذوف الأسانيد جعله أبواباً فى جميع ما يحتاج إليه من الأحكام ، ضمنه ما صح عنده من السنة المأثورة[4] .

وأبو حامد أحمد بن محمد بن حسين الشرفى ت ٣٢٥هـ له كتاب الصحيح فى

---

(١) قواعد التحديث للقاسمى انظر الحديث المتصل والحديث المرسل ص ١٢٣، ١٣٣ بالترتيب .
(٢) الحديث والمحدثون د/ محمد أبو زهو ص ٤٦٤، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨
(٣) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ١٨ ، ١٩ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢١٢/٣.
(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢٠/٥، والرسالة المستطرفة للكتانى ص ٢٠ ، ٢١ .

الحديث[١] . والصحيح المُخرَّج على كتاب مسلم لأحمد بن محمد بن سعيد الحيرى ت ٣٥٣هـ[٢] .

كتب السنن مرتبة على الأبواب الفقهية :

وهى كتب تُعرف بالسنن وهى فى اصطلاح أهل الحديث ، الكتب المرتبة على الأبواب الفقهية من الطهارة والصلاة والزكاة ، صنف فيها علماء الشام ، كسنن أبى بكر أحمد بن على بن لال الشافعى المتوفى بنواحى عكا بالشام سنة ٣٩٨هـ[٣] .

والتزم بهذه الطريقة علماء العراق كسنن أبى بكر أحمد بن سليمان بن الحسن ابن إسرائيل البغدادى الحافظ المتوفى سنة ٣٤٨هـ ، وكتابه فى السنن كتاب كبير[٤] .

والحسين بن إسماعيل بن محمد الضبى البغدادى المحاملى ت ٣٣٠هـ له كتاب « السنة فى الفقه »[٥] .

وسنن الدارقطنى ت ٣٨٥هـ ، حيث جمع فيها غرائب السنن ، وأكثر فيها من رواية الأحاديث الضعيفة والمنكرة والموضوعة[٦] .

كتب السُّنَّة :

وهى الكتب التى تحضّ على اتباعها والعمل بها وترك ما حدث بعد الصدر الأول من البدع والأهواء ، مثل ما صنف علماء الشام ككتاب « شرح مذاهب أهل السنة » لعمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين ت ٣٨٥هـ[٧] .

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ٤٦/٤ .
(٢) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٢٦٦/١ .
(٣) الرسالة المستطرفة ص ٢٨ .
(٤) الرسالة المستطرفة ص ٢٨ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ١٤٦/١ .
(٥) معجم المؤلفين لعمر كحالة ٦٠٤/١ .
(٦) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ٢٧ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢١٠/٣ .
(٧) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ٢٩ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٥٥٢/٢ .

وكذلك مثل ما صنف علماء العراق ككتاب « الشريعة فى السنة » لأبى بكر محمد بن الحسين الآجرى ت ٣٦٠هـ[١].

كتب مصنفة على المسانيد :

وهى جعل حديث كل صحابى على حدة صحيحا كان أو حسنا أو ضعيفًا مرتبين على حروف المعجم ، أو الهجاء من حيث أسماء الصحابة أو القبائل أو السابقة فى الإسلام أو الشرافة أو غير ذلك ، وقد يطلق المسند عندهم على كتاب مرتب على الأبواب أو الحروف أو الكلمات ، لا على الصحابة لكون أحاديثه مسندة ومرفوعة ، أو أسندت ورفعت إلى النبى ﷺ[٢].

وقد صنف على هذه الطريقة علماء الشام « كمسند ابن جميع » لأبى الحسين محمد بن أحمد بن جميع الصيداوى مسند الشام ومحدثه المتوفى سنة ٤٠٢ هـ .

و « كمسند أبى سفيان » و « مسند شعبة » للإمام الطبرانى أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمى ت ٣٦٠هـ . وله مسند عائشة ومسند أبى ذر ومسند أبى هريرة والعَشرة[٣] .

وكذلك صنف علماء العراق كمسند أبى الحسين أحمد بن عبيد بن إسماعيل البصرى الصّفار الحافظ الثقة المتوفى بعد ٣٤٠هـ قال الدراقطنى : صنف المسند وجوّده .

ومسند لأبى محمد دعلج البغدادى المتوفى سن ٣٥١هـ ، وهو من أوعية العلم وبحور الرواية ، وهو مسند كبير .

ومسند لأبى حفص عمر بن شاهين البغدادى فى ألف وستمائة جزء[٤].

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ٢٩ ـ ٣٢ .

(٢) الرسالة المستطرفة ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) الرسالة المستطرفة ص ٥٥ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢٥/٥ .

(٤) الرسالة المستطرفة ص ٥٥ ، وكشف الظنون ٦٢٣/٥ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١/١/ ٣٧٧ .

ومسند لأبي يعلى أحمد بن على الموصلي . « ومسند عمر بن العزيز » لأبي بكر محمد بن محمد بن سليمان الباغندى الواسطى الأزدى ت ٣١١هـ[١] .

و « مسند أسامة بن زيد » لأبي القاسم يزيد بن منيع البغوى .

و «مسند أبي بكر الصديق » لأبي محمد يحيى بن محمد بن صاعد البغدادى ت٣١٨هـ[٢] .

كتب مفردة فى أبواب مخصوصة :

وهى كتب فى أبواب مخصوصة مستقلة بذاتها فى موضوع واحد ، وقد صنف فيها علماء الشام ككتاب « عشرة النساء » وكتاب « الدعوات » وكتاب « المناسك » وكتاب « الأوائل » لأبي القاسم الطبرانى[٣] وكتاب « الرقائق » لأبي الحسن خيثمة ابن سليمان الطرابلسى ت ٣٤٣هـ[٤] .

وصنف فيها أيضا علماء العراق ككتاب « التصديق بالنظر لله » للآجرى ، و«كتاب الجنائز» لأبي حفص بن شاهين ، وكتاب « القضاء باليمين مع الشاهد » للدارقطنى[٥] .

كتب مفردة فى الآداب والأخلاق والفضائل :

وهى كتب تشتمل على توجيهات ونصائح أخلاقية، وتشتمل على الترغيب والرهيب وبيان الفضائل ، وقد كتب فيها علماء الشام ككتاب « الشكر » وكتاب «اعتلال القلوب» وكتاب « مساوئ الأخلاق » وكتاب « مكارم الأخلاق » لأبي بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل الخرائطى المتوفى بمدينة يافا من الشام سنة

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٦٠/٣ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٣٣٥/١/١ ، ٣٤٠ .

(٢) تاريخ التراث العربى ـ سزكين ٣٤٦/١/١، ٣٤٧ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة٣٢٥/٥ ، والرسالة المستطرفة للكتانى ص ٣٧

(٤) تاريخ التراث العربى لسزكين ٣٦٩/١/١ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٠٤/٣ .

(٥) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ٣٤ ـ ٣٧ .

٣٢٧هـ ، وكتاب « مكارم الأخلاق » للطبراني ، وهو نحو جزئين ، وكتاب « مكارم الأخلاق » لأبي بكر بن لال ، وكتاب « الأمثال والأوائل » لأبي عروة الحسين بن محمد بن مودود بن حماد السلمي الحراني الحافظ ت ٣١٨هـ .

وكتاب « فضائل الصحابة » لأبي الحسن خيثمة بن سليمان بن حيدرة الطرابلسي محدث الشام ت ٣٤٣هـ ، قال عنه ابن مندة : كتبت عنه بطرابلس ألف جزء[(١)] .

وصنف أيضا في الأداب والأخلاق والفضائل علماء العراق ككتاب الزهد لهناد ابن السرى الكوفي الصغير المتوفى سنة ٣٣١هـ .

وكتاب المجتنى لأبي بكر محمد بن الحسن المعروف بابن دريد البصري اللغوى ت٣٢١هـ، حيث اشتمل على أخبار وألفاظ وأشعار ومعانى وحكم وأحاديث بأسانيد.

ولأبي حفص بن شاهين كتاب « الترغيب والترهيب »[(٢)] .

وكان أبو بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبدويه البغدادى ت ٣٥٤هـ يملى الفضائل في جامع المدينة ببغداد ـ فضائل الصحابة ـ وفي مسجده بباب الشام[(٣)] .

كتب في الناسخ والمنسوخ من الحديث :

معنى هذا العلم ، هو رفع الشارع حكما منه متقدماً لحكم منه لاحق .

وقد صنف في هذا العلم علماء الشام فكتب أبو حفص بن شاهين ، الذى نزل الشام وكتب بها كتاب الناسخ والمنسوخ[(٤)] .

وكذلك علماء العراق .. فكتب أبو بكر الأنبارى ت ٣١٨هـ ـ كتابه « الناسخ

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٤ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٣٦٩/١/١ .

(٢) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ .

(٣) تاريخ بغداد للبغدادى ٤٥٦/٥ ، ٤٥٧ .

(٤) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ٦٠ .

والمنسوخ من الحديث »[1] وهبة الله بن سلام ت ٤١٠هـ كتب الناسخ والمنسوخ فى الحديث[2]، ولأحمد بن إسحاق بن البهلول ت ٣١٨هـ[3] .

كتب فى المراسيل :

وهى الكتب التى تشتمل على الأحاديث التى سقط من آخر سندها مَنْ بعد التابعى ، وصورته : أن يقول التابعى ـ سواء كان صغيراً أو كبيراً ـ قال رسول الله ﷺ كذا ، أو فعل كذا أو فعل بحضرته كذا ، وهذه صورة المرسل عند المحدثين[4] .

وقد التزم بذلك علماء الشام ككتاب المراسيل لأبى العباس محمد بن جعفر بن محمد بن هشام بن قصيم التميرى الدمشقى المحدث المتوفى سنة ٣٢٨هـ[5] .

وكذلك علماء العراق التزموا بذلك ، ككتاب المراسيل لأبى طاهر محمد بن عبدالرحمن بن العباس المخلص الذهبى البغدادى ت ٣٩٣هـ . وكتاب المراسيل لأبى الحسن الدارقطنى ، وكتاب أبى بكر بن شاذان البغدادى[6] .

كتب فى الفوائد :

وتعنى كتب الفوائد بفوائد المستخرجات على الصحيحين ، ومعنى الاستخراج : هو أن يعمد حافظ من الحفاظ إلى كتاب من كتب الحديث كصحيح البخارى أو صحيح مسلم أو غيرهما من الكتب فيخرج أحاديث بأسانيد لنفسه من غير صاحب الكتاب فيجتمع معه فى شيخه أو مَنْ فوقه[7] .

التزم بها علماء الشام كفوائد تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر الرازى

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢١٤/٣ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٤٢٥/١/١ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ٤٣٧/٢ .

(٣) معجم المؤلفين لكحالة ١٠١/١ .

(٤) تيسير مصطلح الحديث د/ محمود الطحان ص ٥٣ .

(٥) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ٦٥ .

(٦) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ٦٧ .

(٧) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث لأبى الفضل العراقى تحقيق الأستاذ محمود ربيع ٢١/١ ـ ٢٢ .

الدمشقي الحافظ المتوفى سنة ٤١٤ هـ وهي في ثلاثين جزءاً [١]، وفوائد أبي الحسن خيثمة بن سليمان بن حيدرة القرشي الطرابلسي المتوفى ٣٤٣هـ . وكتاب «الفوائد» لأبي على محمد بن القاسم بن معروف الدمشقي المعروف بابن حبيب المتوفى سنة ٣٤٧هـ ، وفوائد أبي القاسم على بن يعقوب الدمشقي المتوفى سنة ٣٥٣هـ[٢].

كما التزم علماء العراق بذلك فكتبوا في الفوائد كفوائد العراقيين لأبي سعيد النقاش ، وفوائد الحسين بن بشران . وفوائد أبي طاهر المخلص . والفوائد الأفراد للدارقطني[٣]. وكتاب « فوائد الحديث » لأبي القاسم تمام بن محمد بن عبد الله ابن جعفر ت ٤١٤هـ[٤]. ولأبي عبد الله محمد بن مخلد بن حفص الدوري العطار ت ٣٣١هـ. ولأبي عبد الله بن الحسين بن يحيى بن عياش الأعور القطان ٣٣٤هـ له الفوائد المنتقاه من مرويات .

ولأبي الحسن على بن عمر بن محمد بن الحسن بن شاذان الصيرفي الكيال ت٣٨٦هـ له كتاب « الفوائد المنتقاة من الغرائب الحسان »[٥].

وكتاب « الفوائد المنتقاة والغرائب الحسان » لأبي ظاهر محمد بن عبد الوحمن بن العباس المخلص ت ٣٩٣هـ[٦].

كتب في الأحاديث الأفراد :

تعنى كتب الأحاديث الأفراد بفتح الهمزة جمع فرد ، وهو قسمان : فرد مطلق، وهو ما تفرد به رواية عن كل أحد من الثقات وغيرهم بأن لم يروه أحد من الرواة مطلقا إلا هو ، وفرد نسبي : وهو ما تفرد به أهل بلد بأن لم يروه إلا أهل بلدة كذا كأهل البصرة أو تفرد به رواية عن راو مخصوص ، بأنه لم يرو عن فلان إلا فلان، وإن كان مرويا من وجوه عن غيره .

---

(١) كشف الظنون لحاجي خليفة ١٤٤/٤ ، الرسالة المستطرفة للكتاني ص ٧١

(٢) تاريخ التراث العربي لسزكين ٣٦٩/١/١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٩ .

(٣) الرسالة المستطرفة للكتاني ٧٢ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢١٢/٣ .

(٤) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢١٩/٣ .

(٥) تاريخ التراث العربي لسزكين ٣٥٩/١/١ ، ٣٦٣ ، ٤٢٧ .

(٦) الرسالة المستطرفة ٧٢ للكتاني ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢١٢/٣

وقد التزم أهل الشام فى أنهم صنفوا فى هذا الفن ، ويمثل لنا ذلك أبو حفص ابن شاهين نزيل الشام والكاتب فيها ، وفى الوقت نفسه يمثل العراق فى هذا الفن حيث له كتاب الأفراد .

والتزم أهل العراق أيضا فى أنهم صنفوا فى هذا الفن ، فكتب الدارقطنى كتاب الأفراد ، وكتب أبو محمد خلف الواسطى ت ٤١٠هـ كتاب الأفراد والغرائب[١] .

كتب فى المؤتلف والمختلف :

وقد التزم بهذا الفن علماء العراق دون علماء الشام على قدر ظنى ومعناه : هو أن يتفق اسما راويين فأكثر خطاً فقط ، ويختلفان بالنطق نحو : سلاَم وسلاّم وعُمارة وعِمارة وقد صنف فى بيان هذا النوع كثير من المحدثين فمن هذه المصنفات : كتاب المؤتلف والمختلف للدارقطنى ، وهو كتاب حافل ، وكتاب أبى أحمد حسن العسكرى ت ٣٨٢هـ[٢] .

كتب فى معرفة الصحابة :

تتحدث عن الصحابة مرتبين على الحروف ، أو على القبائل، أو غير ذلك ، وقد التزم علماء العراق بهذا النوع دون علماء الشام ، ككتاب معرفة الصحابة لأبى أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى البغدادى ت ٣٨٢هـ وهو مرتب على القبائل ولأبى الحسين عبد الباقى بن قانع بن واثق الأموى البغدادى الحافظ المصنف القاضى المتوفى سنة ٣٥١هـ ، ولأبى على سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن البغدادى ت ٣٥٣هـ ، ولأبى الفتح محمد بن الحسين الموصلى نزيل بغداد المتوفى سنة ٣٧٤هـ[٣] .

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتانى ص٨٥ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٤٣٦/١/١ ، ٤٥٣ .

(٢) الرسالة المستطرفة للكتانى ص٨٦ ، وكشف الظنون ٥٢٥/٥ ، ٥٢٦ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٥٥٩/١ .

(٣) الرسالة المستطرفة للكتانى ص٩٥ ، ١٠٨ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٢٤/٣ .

كتب المعاجم :

جمع معجم ، وهو فى اصطلاح أهل الحديث ما تذكر فيه الأحاديث على ترتيب الصحاب أو الشيوخ أو البلدان أو غير ذلك ، والغالب أن يكونوا مرتبين على حروف الهجاء . التزم بذلك علماء الشام كمعجم الطبرانى الكبير المؤلف فى أسماء الصحابة على حروف المعجم عدا مسند أبى هريرة فإنه أفرده فى مصنف يقال أنه أورد فيه ستين ألف حديث فى اثنى عشر مجلداً ، وفيه قال ابن دحية : هو أكبر معاجم الدنيا ، وإذا أطلق فى كلامهم المعجم فهو المراد ، وإذا أريد غيره قيّد ، والأوسط ألفه فى أسماء شيوخه وهم قريب من ألفى رجل، حتى أنه روى عمن عاش بعده لسعة روايته وكثرة شيوخه ، وأكثره من غرائب حديثهم ، ويقال أن فى المعجم الأوسط ثلاثين ألف حديث وهو فى ستة مجلدات كبار . قال فيه الذهبى : فيه كل نفيس وعزيز ومنكر ، والمعجم الصغير : هو مجلد خرّج فيه عن ألف شيخ يقتصر فيه غالباً على حديث واحد من شيوخه ، وهو عشرون ألف حديث ، ذكره غير واحد ، وأنه مجلد يشتمل على نحو من ألف وخمسمائة حديث بأسانيدها ، لأنه خرّج فيه عن ألف شيخ ، كل شيخ حديثا أو حديثين .

وكمعجم الصحابة لأحمد بن على بن لال الهمذانى المتوفى بنواحى عكا بالشام ت ٣٨٩هـ، قال القاضى ابن شهبة فى تاريخه فى حق معجم بن لال : هذا ما رأيت شيئا أحسن منه[١] .

وكمعجم ابن جُمَيْع الغسانى أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد الصيداوى ت٤٠٢هـ وكتاب الطبقات لأبى عروبة الحسين بن محمد بن أبى معشر الحرانى المتوفى سنة ٣١٨هـ حيث تناول فيه أحوال الصحابة فى حياتهم[٢] .

التزم أيضا علماء العراق فى تصنيف كتب المعاجم كمعجم أبى الحسين بن قانع المتوفى سنة ٣٥١هـ ،كمعجم أبى يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى المتوفى سنة ٣٠٧هـ وكمعجم الصحابة لأبى القاسم عبد الله بن عبد العزيز البغوى ت٣١٧هـ[٣] .

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتانى ص١٠١ ـ ١٠٢ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٢٥/٣ .

(٢) تاريخ التراث العربى لسزكين ٤٥٣/١/١ ، ٣٤٨ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٩٦/٣ .

(٣) الرسالة المستطرفة للكتانى ص١٠٢ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٣٣٥/١/١ ، ٣٧٨ ، ٣٤٥ .

كتب علوم الحديث :

من الملاحظ أن المصنفات فى هذا النوع لم تحتل مكانا كبيراً فى المكتبة العربية ، أو فى مجال التصنيف حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، فالمحاولات التى ظهرت فى التصنيف لم تستوعب جميع أنواع علم الحديث ولم تستكمل أنواعه إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس الهجرى بقصد أن يجمعها مصنف واحد ، وقد كان للعراق السبق فى ذلك على يد محمد بن القاسم الأنبارى ، حيث صرح فى مقدمة كتابه « عجائب علوم القرآن » ، بأنه ألف فى علوم الحديث فقال : لما ألفت كتاب «التلقيح فى غرائب علوم الحديث » رأيت أن تأليف كتاب فى عجائب علوم القرآن أولى(١).

وأبى عبد الله النيسابورى المعروف بالحاكم ت ٤٠٥هـ الذى ورد بغداد فى شبيبته فكتب بها ثم وردها فى كبره فحدث بها وروى عنه الدارقطنى ٣٨٥هـ(٢)، ومن قبله محاولات خاضها وكتب فى علوم الحديث أبو الفتح محمد بن الحسين الموصلى ت٣٧٤هـ(٣) ولكنها محاولات لم تستوعب علوم الحديث كاملة كما فعل أبو عبد الله النيسابورى ، الذى قال عنه ابن خلدون : إنه من فحول علماء علوم الحديث وأئمتهم وهو الذى هذب هذا العلم وأظهر محاسنه(٤).

كتب فى العلل :

هى علل الأحاديث جمع علة ، وهى عبارة عن سبب غامض خفى قادح فى الحديث مع أن الظاهر السلامة منه ، وقد التزم بهذا النوع كل من علماء الشام والعراق، فمن علماء الشام أحمد بن جوصا الدمشقى ت ٣٢٠هـ، قال عنه صاحب معجم المؤلفين تكلم عن العلل والرجال(٥). ومن علماء العراق أبو يحيى زكريا الضبى

---

(١) مخطوط « عجائب علوم القرآن » لمحمد بن القاسم الأنبارى الورقة الأولى .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٧٣/٥ .

(٣) الرسالة المستطرفة للكتانى ص١٠٨ .

(٤) مقدمة ابن خلدون بتحقيق د/ على عبد الواحد ١٠٤٠/٣ .

(٥) معجم المؤلفين لكحالة ٢٢٠/١ .

البصرى ت ٣٠٧هـ له كتاب فى هذا الفن ، ومن علمائه أيضًا الدارقطنى صنف كتاب « العلل » وهو أجمع كتاب فى العلل مرتب على المسانيد فى اثنى عشر مجلداً[١] .

ولأحمد بن محمد الكوفى ت ٣٤٦هـ كتاب « العلل فى الحديث » [٢] .

كتب فى بيان غريب الحديث :

يبحث علم غريب الحديث عن معانى ما وقع فى متون الأحاديث النبوية من ألفاظ غامضة لا يتضح معناها لكثير من الناس ، وقد التزم بالكتابة فى هذا العلم كل من علماء الشام وعلماء العراق ، فمن علماء الشام :

القاضى نور الدين أبى الثناء محمود بن أحمد بن محمد الهمدانى الحموى المولد الشافعى المتوفى بحماة سنة ٣٣٤هـ ، صنف كتاب « التقريب فى علم الغريب»[٣] .

ومن علماء العراق : أبو بكر الأنبارى ت ٣٢٨هـ له كتاب « غريب الحديث » وأبو عمر محمد بن عبد الواحد ت ٣٤٥هـ وأبو على إسماعيل اللغوى القالى ت٣٥٦هـ ، له كتاب « البارع فى غريب الحديث »[٤] والدارقطنى ت ٣٨٥هـ له كتاب « غريب الحديث[٥]، وسلمه بن عاصم الكوفى الفقيه المتوفى سنة ٣١٠هـ له كتاب « غريب الحديث » ، وأبو محمد العسوى ابن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧هـ له كتاب « غريب الحديث »[٦]..

كتب فى الأمالى :

جَمْع إملاء ، وهو من وظائف العلماء قديما خصوصا الحفاظ من أهل الحديث

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتانى ص١١١ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢١١/٣ .

(٢) معجم المؤلفين لكحالة ٢٨٥/١ .

(٣) الرسالة المستطرفة للكتانى ص١١٨ .

(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٢٠١/٢ . ٢١٨/١ .

(٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢١٢/٣ .

(٦) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢٤/٥ ، ٣٦٥ .

في يوم من أيام الأسبوع يوم الثلاثاء أو يوم الجمعة وهو المستحب ، كما يستحب أن يكون في المسجد لشرفه ، وطريقتهم فيه أن يكتب المستملي في أول القائمة هذا مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا يوم كذا ، ويذكر التاريخ ثم يورد المملي بأسانيده أحاديث وآثار ثم يفسر غريبها ويورد من الفوائد المتعلقة بها بإسناد أو بدونه ما يختار ويتيسر له .

وهذا الأمر التزم به علماء الشام فكتبوا الآمالي في كتب ، كأمالي أبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، وهو صاحب الجمل المتوفى بطبرية سنة ٣٣٩هـ وقيل سنة ٣٤٠هـ وهي أمالي كثيرة في مجلد ضخم فيها أحاديث بأسانيد[١]. وكالأمالي في الحديث لأبي بكر يوسف بن القاسم الميانجي المتوفى سنة ٣٧٥هـ[٢].

والتزم أيضا علماء العراق فكتبوا الأمالي كأمالي أبي طاهر المخلص، وأمالي أبي حفص عمر بن شاهين ، وأمالي أبي بكر محمد بن إسماعيل بن العباس الوراق البغدادي المحدث ت ٣٧٨هـ وكأمالي الحسين بن إسماعيل بن محمد المحاملي البغدادي شيخ بغداد ومحدثها المتوفى سنة ٣٣٠هـ، وهي في ستة عشر جزءا من رواية البغداديين والأصبهانيين[٣].

كتب الأطراف :

وهي التي يقتصر فيها على ذكر طرف الحديث الدال على بقية مع الجمع لأسانيده ، إما على سبيل الاستيعاب ، أو على جهة التقييد بكتب مخصوصة .

التزم بهذا النوع علماء الشام فكتب أبو السعود إبراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقي الحافظ المتوفى سنة ٤٠١هـ كتاب أطراف الصحيحين .

والتزم أيضا علماء العراق فكتبوا في الأطراف كأبي محمد خلف بن محمد بن

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتاني ص١٢١ .

(٢) تاريخ التراث العربي لسزكين ٤١٠/١/١ .

(٣) الرسالة المستطرفة للكتاني ص١٢٠ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢٢٤/٣ ، وتاريخ التراث العربي لسزكين ٣٥٨/١/١ .

على بن حمدون الواسطى المتوفى سنة ٤٠١هـ كتب أطراف الصحيحين فى أربع مجلدات[(١)] .

كتب الجمع بين بعض الكتب الحديثية :

والتزم بهذا علماء الشام دون علماء العراق فكتب أبو مسعود إبراهيم بن محمد ابن عبيد الدمشقى ت ٤٠١هـ كتاب الجمع بين الصحيحين[(٢)] .

وكذلك وُضعت الأصول التى يبنى عليها نقد الحديث وتكامل بناؤها فى القرن الرابع ، وأخذت مصطلحاتها من هذا العصر أيضا ، وقد رتب ابن أبى حاتم المتوفى ٣٢٧هـ ألفاظ الجرح والتعديل مراتب فأعلاها : « ثقة » أو « متقن » أو « ثبت » أو «حجة» أو « عدل » أو « حافظ » أو « ضابط » والثانية « صدوق » أو « محله الصدق » أو« لابأس به »[(٣)] .

يُعد ابن أبى حاتم نموذجا لعلماءِ الشام لأنه نزل فيها وسمع وكتب وترجم له ابن عساكر فى تاريخ دمشق[(٤)]، كما يعدّ نموذجا لعلماء العراق حيث ذكره الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ، وقد ذكر ابن كثير فى طبقات الفقهاء أن ابن أبى حاتم قد نزل بغداد وروى الحديث فى حضور ابن عقدة[(٥)].

كتب فى الوفيات :

صنف فى هذا النوع علماء الشام فكتب القاضى أبو سليمان محمد بن أبى عبدالله الربعى الدمشقى ت٣٧٩هـ « كتاب الوفيات » قال عنه الإمام الذهبى : كتاب الوفيات مشهور على السنين ، جمعه من الهجرة ووصل إلى سنة ٣٣٨هـ[(٦)] .

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتانى ١٢٥ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ١٠/٥ ، ٢٨٥ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٤٥٢/١/١ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٢٩/٣ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ١٠/٥ .

(٣) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ٣٤٢/١ .

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٩/١٥ .

(٥) طبقات الفقهاء الشافعيين لابن كثير تحقيق أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم ٢٥٥/١ .

(٦) الرسالة المستطرفة للكتانى ص١٥٨ ، وكشف الظنون ٤١/٦ لحاجى خليفة ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٤١٤/١/١ .

وكتب علماء العراق فى الوفيات أيضاً كالقاضى أبى الحسين عبد الباقى بن قانع البغدادى ت ٣٥١هـ[١]، وأبو القاسم البغوى كتب « تاريخ وفاة الشيوخ »، وأبو عمرو بن السماك ، ٣٤٤هـ كتب « كتاب وفيات شيوخه »[٢].

كتب فى الجرح والتعديل :

يبحث هذا العلم عن أحوال الرواة من ناحية العدالة والضبط وكل ما يتصل بهم من صفات ترفعهم إلى درجة الوثوق بهم فى باب الرواية ، أو تنحط بهم إلى درجة انعدام الثقة بهم والرفض لمروياتهم ، ويعتبر هذا العلم من أهم العلوم التى عنى بها علماء الحديث ، وذلك لأنه الطريق لمعرفة الصحيح وغير الصحيح من حديث رسول الله ﷺ وقد صنف فيه علماء الشام وعلماء العراق .

فمن علماء الشام كتب عبد الرحمن بن أبى حاتم التيمى ت٣٢٧هـ كتاب «الجرح والتعديل» ، وصنف كتاب « الضعفاء »[٣]، وكتاب « الثقات » لابن شاهين .

أما علماء العراق فقد صنفوا أيضا فى هذا العلم ، فصنف أبو الفتح محمد بن الحسين الموصلى ت ٣٧٤هـ كتاب « الجرح والتعديل » فى الضعفاء من رجال الحديث[٤]. والدارقطنى صنف كتاب « الضعفاء والمتروكين »[٥].

تعقيب :

إن من أعظم ما أسفرت عنه جهود علماء الحديث فى القرن الرابع الهجرى سواء فى الشام أو العراق ، أن كتبوا فى علوم الحديث المختلفة ما يسميه العلماء بطرق التصنيف ، قد اتفق علماء الشام وعلماء العراق فى فنون معينة من فنون الحديث

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتانى ص١٥٨ .

(٢) تاريخ التراث العربى لسزكين ٣٤٦/١/١ ، ٣٧٠ .

(٣) معجم المؤلفين لكحالة ١٠٩/٢ .

(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٤٠/٦ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٣٤٥/٣ .

(٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢١١/٣ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٤٢٠/١/١ .

كتبوا فيها وأبدعوا ، وتعددت كتبهم وانتشر علمهم بين الناس مثل : كتب السنن المرتبة على الأبواب الفقهية ، وكتب المسانيد ، وكتب مفردة فى أبواب مخصوصة مستقلة فى موضوع احد ، وكتب مفردة فى الأدب والأخلاق والفضائل والترغيب والترهيب ، وكتب الناسخ والمنسوخ فى الحديث ، وكتب المراسيل ، وكتب فى الفوائد ، وكتب فى الأحاديث المفردة أو الأحاديث الأفراد ، وكتب المعاجم التى تعد فى اصطلاح أهل الحديث ما تذكر من الأحاديث على ترتيب الصحابة أو الشيوخ أو البلدان أو غير ذلك ، والغالب أن يكونوا مرتبين على حروف الهجاء ، وكتب فى بيان غريب الحديث ، وكتب فى الأمالى ، وكتب فى الأطراف التى يقتصر فيها على ذكر طرف الحديث ، وكتب فى الوفيات ، وكتب فى الجرح والتعديل .

وبعد أن عرضنا ما اتفق فيه علماء الشام وعلماء العراق ، نبين ما انفرد به علماء الشام من تصنيف ، فقد صنف أبو مسعود الدمشقى ت ٤٠١هـ كتاب الجمع بين الصحيحين ، والجمع بين بعض الكتب الحديثية .

أما علماء العراق فقد انفردوا بالتصنيف لكتب التزموا الصحة فى تصنيفها ككتاب الإلزامات للدارقطنى ، والمستدرك للحاكم ، والصحيح المنتقى لابن السكن البغدادى وغيرهم . كما صنفوا فى المؤتلف والمختلف ، وصنفوا كتبا فى معرف الصحابة ، وكتبا فى العلل ، وهذا يرجع إلى أن العراق حاضرة الخلافة ، وبغداد قبلة العلم يتوجه إليها كل من أراد علماً .

التأثير والتأثر يين علماء الشام وعلماء العراق :

إن تأثير علماء الشام من أهل الحديث فى علماء العراق ، وتأثير علماء العراق فى علماء الشام أمر واضح وجلىّ ، وليس بغريب لأن علم الحديث من أساسياته الرحلة فى طلبه ، والشام والعراق متجاوران ، فمن الواضح أن علماء الشام تجوب العراق فى طلب العلم ، وكذلك علماء العراق وكلتاهما كانتا حاضرة للخلافة فالشام أولا حاضرة للخلافة الأموية والعراق حاضرة للخلافة العباسية وخاصة فى القرن الرابع الهجرى . فكل منهما دار علم يأوى إليها كل مشتاق للعلم لينهل منها .

فأهل الشام من العلماء تأثروا بعلماء العراق وسمعوا منهم ، فقد رحل أبو عروبة

الحرانى ت ٣١٨هـ إلى العراق وروى عن علمائه[١] . وكذلك أبو الحسن خيثمة بن سليمان الأطرابلسى ت ٣٤٣هـ سمع ببغداد والكوفة وواسط[٢] . وأبو القاسم الطبرانى ت٣٦٠هـ سمع ببغداد والكوفة والبصرة[٣] . وكذلك أبو بكر المينجى ت٣٧٥هـ رحل إلى العراق فى طلب العلم[٤] . وأبو مسعود الدمشقى ت ٤٠٠هـ سمع وكتب ببغداد والكوفة والبصرة وواسط .

أما علماء العراق .. فقد تأثروا هم أيضا بعلماء الشام من حيث السماع ، فمنهم أبو محمد البغدادى ت ٣١٨هـ سمع من الشاميين .

وأبو الفتح محمد بن الحسين الموصلى حدث عن أبى عروبة الحرّانى وتعداده من علماء الشام[٥] .

من مشاهير علماء الحديث فى الشام :

الإمام الحافظ النبيل محدث الشام أبو الحسن أحمد بن عمير بن يوسف بن موسى بن هارون بن جوصا الدمشقى ت ٣٢٠هـ[٦] .

شيخ الشام فى وقته ، رحل وصنف ، وذاكر وروى[٧] .

سمع يونس بن عبد الأعلى ، وأعلى ما عنده ما يرويه عن معاوية بن عبد الرحمن المخزومى[٨] . سمع كثير بن عبيد وطبقته ، وحدث عنه الطبرانى وحمزة والكتانى وأبو

(١) العبر للذهبى ٤٧٧/١ .

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩٩/٨ .

(٣) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٧٣ .

(٤) العبر للذهبى ١٤٦/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٨٦/٣ .

(٥) تاريخ بغداد للبغدادى ١٧٢/٦ ـ ١٧٣ ، ١٤ / ٢٣١ ، ٢٤٣/٢ ـ ٢٤٤ .

(٦) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٩٨/٣ ـ ١٩٩ ، والعبر للذهبى ٧/٢ وطبقات الحفاظ للسيوطى ٣٣٤ ، ٣٣٥ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٣٤/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٨٥/٢ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٣٤٩/١/١ .

(٧) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٩٨/٣ .

(٨) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٣٥ .

على الحافظ والحاكم حط عليه حمزة الكتانى ، وأثنى عليه الدارقطنى وجمع وصنف وتبحر فى الحديث ، قال أبو على النيسابورى : كان ركنا من أركان الحديث ، وقال محمد بن إبراهيم : كان ابن جوصا بالشام كابن عقدة بالكوفة ، وقال الدارقطنى : تفرد بأحاديث ، ولم يكن بالقوى[(1)] . وقال الذهبى : بل هو صدوق حافظ[(2)] ، وله حديث مخطوط[(3)] . وتكلم عن العلل والرجال[(4)] .

أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطر الحافظ اللخمى الطبرانى ت٣٦٠هـ[(5)]

أحد الحفاظ المكثرين والرحالين الجوالين سمع بدمشق وبمصر واليمن وصنف المعجم الكبير فى أسماء الصحابة والمعجم الأوسط فى غرائب شيوخه والمعجم الصغير فى أسماء شيوخه[(6)] . وأقام فى الرحلة ثلاثا وثلاثين سنة ، وعدد شيوخه ألف شيخ فكان حافظ عصره[(7)] . مسند الدنيا وأحد فرسان هذا الشأن ، سمع فى سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، وكانت ولادته فى صفر سنة ستين ومائتين فسمع بالشام والحجاز واليمن ومصر وبغداد والكوفة والبصرة وأصبهان والجزيرة[(8)] .

تذاكر هو والجعابى بحضرة الوزير ابن العميد فغلب الطبرانى بكثرة حفظه والجعابيّ بفطنته ، حتى ارتفعت أصواتهما ، فقال الجعابى عندى حديث ليس فى

---

(١) العبر للذهبى ٧/٢ ـ ٨ ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٣٥ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٨٥/٢ .

(٢) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٣٥ .

(٣) تاريخ التراث العربى لسزكين ٣٤٩/١/١ .

(٤) معجم المؤلفين لكحالة ٢٢٠/١ .

(٥) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٠٣/١٠ ـ ١٠٦ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤٠٧/٢ ، والعبر للذهبى ١٠٥/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٨٧/١١ ـ ٢٨٨ ، وطبقات المفسرين للداودى ٢٠٤/١ ـ ٢٠٦ ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ٣٧٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣/٣- ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢٥/٥ ، والرسالة المستطرفة للكتانى ٣٨ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٣٩٣/١/١ ـ ٣٩٦ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٢٤/٣ ـ ٢٢٥ .

(٦) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٠٣/١٠ .

(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٠٧/٢ .

(٨) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٧٣ .

الدنيا إلا عندى ، فقال : هات ، حدثنا أبو خليفة حدثنا سليمان بن أيوب وحدّث بحديث ، فقال الطبرانى : أنا سليمان بن أيوب ، منى سمعه أبو خليفة فسمعه منى عالياً ، فخجل الجعابى ، قال أبو العباس الشيرازى : كتبت عن الطبرانى ثلاثمائة ألف حديث ، وهو ثقة(١) .

ومن مصنفاته فى الحديث دون العلوم الأخرى : المعجم الكبير والأوسط والصغير ودلائل النبوة ومسند شعبة ومسند سفيان ، ومسند الشاميين ، ومسند العشرة ، ومعرفة الصحابة ، ومسند أبى هريرة ومسند عائشة وكتاب السنة ومسند أبى ذر(٢) .

أبو بكر يوسف بن القاسم بن يوسف الميانجى ت ٣٧٥هـ(٣)

القاضى المحدث نزيل دمشق ، ولى القضاء بها نيابة عن القاضى أبى الحسن على ابن النعمان ، قاضى نزار الملقب بالعزيز ، وكان بينه وبين أبى عبد الله محمد بن الوليد القاضى منازعات فى ولاية القضاء ، وكان شيوخ المدينة يميلون مع الميانجى ، والأحداث يميلون مع ابن الوليد ، وكان ثقة مأمونا ، انتقى عليه عبد الغنى بن سعيد المصرى الحافظ(٤) .

حدث عن أبى خليف الجمحى ، وعبد الله وطبقتهما ، ورحل إلى الشام والجزيرة وخراسان والعراق(٥) .

ومن آثاره : كتاب الأمالى فى الحديث ، أملاه فى دمشق سنة ٣٦٣هـ(٦) .

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٠٣/١٠ ـ ١٠٦ ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ٣٧٤ .

(٢) طبقات الحفاظ للسيوطى ٣٧٣ ، وطبقات المفسرين للداودى ٢٠٤/١ ـ ٢٠٦ ، وكشف الظنون ٣٢٥/٥ .

(٣) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩٠/٢٨ ، والعبر للذهبى ١٤٦/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٨٦/٣ وتاريخ التراث العربى لسزكين ٤١٠/١/١ .

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩٠/٢٨ .

(٥) العبر للذهبى ١٤٦/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٨٦/٣ .

(٦) تاريخ التراث العربى لسزكين ٤١٠/١/١ .

أبو سليمان محمد بن عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن أبى محمد الربعى الدمشقى ت ٣٧٩هـ[١].

رحل فى طلب الحديث وصنف وروى[٢]، فهو محدث دمشق، ابن قاضيها أبى محمد ، حدث عن عبد الله بن محمد أبى القاسم البغدادى ، وجماهير الزملكانى ومحمد بن الربيع الجيزى ، وابن أبى داود ، وعنه حدث تمام الرازى وعبد الغنى بن سعيد ومحمد بن عوف المزنى[٣].

وأملى بالجامع ، وكان ثقة مأمونا ، له كتاب « الوفيات »[٤].

قال علىّ بن هبة الله : أبو سليمان محمد بن عبد الله الدمشقى ثقة حافظ نبيل .وقال أبو سليمان الربعى : كان الطحاوى قد نظر فى أشياء كثيرة من تصنيفى وبانت عنده وتصحفها فأعجبته وقال لى : يا أبا سليمان أنتم الصيادلة ونحن الأطباء[٥].

ومن مصنفاته : تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ، ووصايا العلماء عند حضور الموتى ، والمنتقى من أخبار الأصمعى ، وأخبار ابن ذئب ، وفضائل الشام[٦].

أبو مسعود إبراهيم بن محمد بن عبيد الحافظ الدمشقى ت ٤٠٠ وقيل ٤٠١هـ[٧]

أحد الجوالين المكثرين ، خرج عن دمشق قديماً وطوّف البلاد وسمع وأسمع[٨].

---

(١) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٥٩/٢٢، والعبر للذهبى ١٥٤/٢، وطبقات الحفاظ للسيوطى ٣٩٦، وشذرات الذهب لابن العماد ٩٥/٣، تاريخ التراث العربى لسزكين ٤١٣/١/١ ـ ٤١٤، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٦٠/٢ ، ٢٢٧، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٤١/٦ .

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٥٦/٢٢ .

(٣) العبر للذهبى ١٥٤/٢، وطبقات الحفاظ للسيوطى ٣٩٦، وشذرات الذهب لابن العماد ٩٦/٣ .

(٤) طبقات الحفاظ للسيوطى ٣٩٦ .

(٥) مختصر تاريخ ابن عسكر لابن منظور ٢٦٠/٢٢ .

(٦) تاريخ التراث العربى لسزكين ٤١٤/١/١، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٦٠/٣ ، ٢٧٠، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٤١/٦ .

(٧) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للبغدادى ١٧٢/٦، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥٠/٤ والعبر للذهبى ١٩٧/٢ ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ٤١٧، والرسالة المستطرفة للكتانى ١٢٥ وكشف الظنون لحاجى خليفة ١٠/٥ .

(٨) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥٠/٤ .

سافر الكثير وسمع وكتب ببغداد والكوفة والبصرة وواسط والأهواز وأصبهان وبلاد خراسان ، فسمع ببغداد من أصحاب أبي شعيب الحراني ومحمد بن يحيى المروزى ، ويوسف بن يعقوب الكافى ، وجعفر القريابى ، وبالكوفة من أصحاب أبي جعفر المطين، وأبي حصين الوادعى ، وبالبصرة من أصحاب أبي خليفة الجمحى وبواسط من أبي محمد بن السقا ، وغيرهم كثير ثم استوطن بغداد بآخرة[1] .

فهو صاحب كتاب « أطراف الصحيحين » المشتهر به ، وأحد من برز فى العلم ، وروى قليلا على سبيل المذاكرة[2] .

كان له عناية بصحيحى البخارى ومسلم ، وعمل تعليقه أطراف الكتابين وكان صدوقا ديّنا ورعاً فهماً[3] .

ومن مصنفاته : أطراف الصحيحين والجمع بين الصحيحين[4] .

أبو الحسين محمد بن أحمد بن محمد بن جميع الغسانى الصيداوى ت٤٠٢هـ[5]

كان واسع الرحلة كثير السماع حدث عن يعقوب بن عبد الرحمن ببغداد[6] . وروى عن أبي روق الهزانى والمحاملى وطبقتهما[7] صاحب المعجم المروى ، رحل وكتب الكثير بالشام والعراق ومصر وفارس ، ووثقه الخطيب[8] .

---

(١) تاريخ بغداد للبغدادى ١٧٢/٦ ـ ١٧٣ .

(٢) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٤١٧ .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥١/٤ .

(٤) الرسالة المستطرفة للكتانى١٢٥ وكشف الظنون لحاجي خليفة ١٠/٥ ومعجم المؤلفين لكحالة ٦٦/١ .

(٥) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٣٠٥/٢١، والعبر للذهبى ٢٠٢/٢، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى٢٣١/٤ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٦٤/٣ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٤٥٣/١/١ ـ ٤٥٤ .

(٦) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٣٠٥/٢١ .

(٧) العبر للذهبى ٢٠٢/٢ .

(٨) العبر للذهبى ٢٠٢/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٦٤/٣ .

وقال عبد الغنى بن سعيد فى باب جميع فى كتابه « المؤتلف والمختلف » وشيخ لقيته بصيدا ، كتبت عنه ، يعنى أبا الحسين بن جميع[1] .

ومن مصنفاته : معجم ابن جميع وهو يضم فقط أسماء شيوخه الذين أخذ عن كل واحد منهم حديثاً[2] .

من مشاهير علماء الحديث فى العراق

أبو محمد دعلج بن أحمد السجستانى البغدادى ت ٣٥١هـ[3]

سمع الحديث ببلاد خراسان وبالرى وحلوان وببغداد والبصرة والكوفة ومكة، وكان من ذوى اليسار والأحوال ، وأحد المشهورين بالبر والأفضال، وله صدقات جارية ووقوف محبسة على أهل الحديث ببغداد ومكة وسجستان ، سكن بغداد واستوطن بها وحدث بها عن محمد بن عمرو الخرشي ومحمد بن النضر الجارودى ، وعثمان بن سعيد الدارمى، ومحمد بن إبراهيم البوسنجى، والحسن بن سفيان النسوى، ومحمد بن يحيى البصرى، وأحمد بن موسى الكوفى، وعلى بن زيد المكى، وخلق كثير سوى هؤلاء ، وروى عنه أبو عمر بن حيويه ، وأبو الحسن الدارقطنى ، وأبو الحسن بن رزقويه وغيرهم كثير[4] .

كان أبو محمد دعلج البغدادى من أوعية العلم وبحوره وشيخ أهل الحديث[5] . وكانت له دار عظيمة ببغداد ، وكان يقول : ليس فى الدنيا مثل بغداد ولا فى بغداد مثل القطيعة ولا فى القطيعة مثل دار أبى خلف، ولا فى دار أبى خلف مثل دارى[6] .

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٣٠٥/٢١ .
(٢) تاريخ التراث العربى لسزكين ٥٤٣/١/١ .
(٣) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للبغدادى ٣٨٧/٨ ـ ٣٨٨، والعبر للذهبى ٨٨/٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٥٧/١١، وطبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٦٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٨/٣ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٢٩٨/٥ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٣٧٧/١/١ .
(٤) تاريخ بغداد للبغدادى ٣٨٧/٨ ـ ٣٨٨ .
(٥) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٦٢ .
(٦) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٧/١١ .

بعث بكتابه المسند إلى أبى العباس بن عقدة لينظر فيه وجعل فى الأجزاء بين كل ورقتين دينارا ، وكان أبو الحسن الدارقطنى هو الناظر فى أصوله المصنف له كتبه ، وسئل الدارقطنى عن دعلج بن أحمد فقال : كان ثقة مأموناً[1] .

قال الحاكم : أخذ عن ابن خزيمة مصنفاته وكان يفتى بمذهبه ، ولم يكن فى الدنيا أيسر منه ، اشترى بمكة دار العباس بثلاثين ألف دينار ، وكان الذهب فى داره بالقفاف ، وكان كثير المعروف والصلات[2] .

وقد أنفق فى ذوى العلم والحاجات أموالاً جزيلة كثيرة جداً[3] .

وله من الكتب : مسند المقلين[4] ، وقال عنه صاحب كشف الظنون : له المسند الكبير فى الحديث[5] .

أبو بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد ربه البغدادى البزاز ت٣٥٤هـ[6]

سكن بغداد وسمع من محمد بن الجهم السمرى ، ومحمد بن الفرج الأزرق وأبا قلابة الرقاشى ، ومحمد بن شداد المسمعى ، وجماعة يطول ذكرهم وسمع منه الدارقطنى وعمر بن شاهين وأبو طالب بن غيلان وخلق كثير . وكان ثقة ثبتًا كثير الحديث ، حسن التصنيف ، جمع أبواباً وشيوخاً ، وكتب عنه قديماً وحديثاً[7] .

قال الدارقطنى : هو الثقة المأمون الذى لم يغمز بحال[8] . فهو صاحب الغيلانيات

---

(١) تاريخ بغداد للبغدادى ٣٨٨/٨ .

(٢) العبر للذهبى ٨٨/٢، وشذرات الذهب لابن العماد ٨/٣ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٨/١١ .

(٤) تاريخ التراث العربى لسزكين ٣٧٧/١/١ .

(٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ٢٩٨/٥ .

(٦) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للبغدادى ٤٥٦/٥ ـ ٤٥٨ ، والعبر للذهبى ٩٥/٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٧٧/١١ ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٦١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٦/٣ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٣٨٣/١/١ ـ ٣٨٤ .

(٧) تاريخ بغداد للبغدادى ٤٥٦/٥ .

(٨) شذرات الذهب لابن العماد ١٦/٣ .

وابن غيلان آخر من روى عنه تلك الأجزاء التي هى فى السماء علواً[1].

قال محمد بن على بن مخلد : رأيت جزءاً فيه مجلس كتب عن ابن صاعد فى سنة ثمان عشرة وثلثمائة ، وبعده مجلس كتب عن أبى بكر الشافعى فى ذلك الوقت، ولما منعت الديلم ببغداد الناس أن يذكروا فضائل الصحابة ، وكتبت سبّ السلف على المساجد كان أبو بكر البزاز يتعمد فى ذلك الوقت إملاء الفضائل فى جامع المدينة وفى مسجده بباب الشام ويفعل ذلك حسبة وبعده قربة [2].

وله من الكتب : الفوائد ، ومسند موسى الكاظم بن جعفر بن محمد[3].

أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجرى ت ٣٦٠هـ[4]

أصله من آجُرّ فى غربى مدينة بغداد ، كان محدثا ثقة وفقيها شافعياً له تصانيف كثيرة فى علم الحديث والفقه ، حدث ببغداد قبل سنة ٣٣٠هـ ثم انتقل إلى مكة فسكنها[5].

سمع أبا مسلم الكجى، وأبا شعيب الحرانى، وأحمد بن يحيى الحلوانى وغيرهم كثير ، وخلقا من أقرانهم ، وحدث عنه على وعبد الله ابنا بشران، وعلى بن أحمد بن عمر المقرى، ومحمود بن عمر العكبرى، ومحمد بن الحين بن الفل القطان[6].
وكان عالماً عاملاً صاحب سنة دينا ثقة[7].

له من الكتب : كتاب « الأربعون حديثًا » وكتاب « فرض طلب العلم »

---

(١) العبر للذهبى ٩٥/٢ .

(٢) تاريخ بغداد للبغدادى ٤٥٦/٥ ـ ٤٥٧ .

(٣) تاريخ التراث العربى لسزكين ٣٨٣/١/١ ـ ٣٨٤ .

(٤) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للبغدادى ٢٤٣/٢، والعبر للذهبى ١٠٧/٢، وطبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٧٩، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٨٨/١١، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٥/٣، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٦٠/٤، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٨/٦ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٣٨٩/١/١ ـ ٣٩٢.

(٥) تاريخ التراث العربى لسزكين ٣٨٩/١/١ .

(٦) تاريخ بغداد للبغدادى ٢٤٣/٢ .

(٧) طبقات الحفاظ للسيوطى ٣٧٩ .

و « أخلاق العلماء »، و « أخبار عمر بن عبد العزيز »، وكتاب «الغرباء من المؤمنين»، و « التصديق بالنظر إلى الله في الآخرة وما أعده لأوليائه »، و « تحريم النرد والشطرنج والملاهي »، وكتاب « وصول المشتاقين ونزهة المستمعين »، وهو كتاب يضم مجالس في القرآن ، والحديث ، وجزء فيه مسألة الجهر بالقرآن في الطواف ، وكتاب « أدب النفوس » وجزء فيه حكايات الشافعي وغيره ، وكتاب « الفوائد المنتخبة »[١]. وكتاب «الثمانون في الحديث»، و « المختصر في الفروع »[٢].

أبو الفتح محمد بن الحسين بن أحمد الأزدي الموصلي ت ٣٦٧ أو ٣٧٤هـ[٣]

نزل بغداد وحدث بها عن أبي يعلى الموصلي، والهيثم بن خلف الدودي وعلى ابن سراج المصري، ومحمد بن جرير الطبري، وأبو عروبة الحراني وغيرهم[٤]. وحدث عنه أبو نعيم[٥]، وفي حديثه غرائب ومناكير ، وكان حافظا، وذكره محمد بن جعفر ابن علان بالحفظ وحسن المعرفة بالحديث وأثنى عليه[٦]. وصنف في علوم الحديث والضعفاء[٧]، وضعفه كثير من الحفاظ من أهل زمانه، واتهمه بعضهم بوضع حديث رواه لابن بويه[٨]. وقد وهاه جماعة بلا مستند ، وضعفه البرقاني[٩].

ذكر الخطيب البغدادي أنه توفي في ٣٦٧هـ وقيل في ٣٧٤هـ[١٠]، وذكر الذهبي في العبر أنه توفي في ٣٧٤هـ[١١]، وابن كثير في سننه ٣٧٤هـ وذكر أن ابن

(١) تاريخ التراث العربي لسزكين ١/١/٣٩٠ ـ ٣٩٢ .

(٢) كشف الظنون لحاجي خليفة ٣٨/٦ .

(٣) انظر ترجمته في : تاريخ بغداد للبغدادي ٢٤٣/٢ ـ ٢٤٤، والعبر للذهبي ١٤٣/٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٣٢٣/١١، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص٣٨٦ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٨٤/٣، وكشف الظنون لحاجي خليفة ٤٠/٦ وتاريخ التراث العربي لسزكين ١/١/٤٠٢ ـ ٤٠٣ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢٤٣/٢ ـ ٢٤٤ .

(٥) طبقات الحفاظ للسيوطي ص٣٨٦ .

(٦) تاريخ بغداد للبغدادي ٢٤٤/٢ .

(٧) العبر للذهبي ١٤٣/٢، وطبقات الحفاظ للسيوطي ٣٨٦ .

(٨) البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٣/١١ .

(٩) طبقات الحفاظ للسيوطي ص٣٨٦ .

(١٠) تاريخ بغداد للبغدادي ٢٤٤/٢ .

(١١) العبر للذهبي ١٤٣/٢ .

الجوزى أرّخ فى وفاته ٨٧٤هـ[١]. وذكر السيوطى فى طبقاته أنه توفى ٣٧٤هـ[٢].

وله من المصنفات : كتاب الجرح والتعديل فى الضعفاء من رجال الحديث وكتاب شرح الشهاب للقضاعي، وكتاب فوائد الحديث[٣]، وكتاب تسمية من وافق اسمه اسم أبيه من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المحدثين ، وكتاب اسم كل صحابى روى عن رسول الله ﷺ أمراً أو نهيًا ومن بعده من التابعين ، وغيرهم ممن لا أخ له يوافق اسمه من نقلة الحديث من جميع الأمصار ، وكتاب المخزون فى علم الحديث ، وكتاب أحاديث منتقاه وغرائب ألفاظ رسول الله ﷺ مما يحتاج إلى استعماله[٤].

أبو محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف البغدادى ت ٣٨١هـ[٥]

كان محدثا وأديبا وشاعراً ، ولى قضاء القضاة ببغداد ، وحدث عن يحيى بن صاعد ومحمد بن إبراهيم بن نيروز ، وأحمد بن ليمان الطوسى ، وجعفر بن محمد ابن المغلس وغيرهم كثير ، وحدث عنه أبو محمد الخلال والأزهرى والتنوخى وغيرهم، وكان ثقة، وكان من أجلاء الرجال وألباء الناس مع تجربة وحنكة ومعرفة وفطنة ، وبصيرة ثاقبة وعزيمة ناصبة ، ضارباً فى الأدب بسهم وآخذاً من علم الكلام بحظ ، وكان يجمع وسامة فى منظره وظرفًا فى ملبسه ، وطلاقة فى مجلسه وبلاغة فى خطابه ، وعفة عن الأموال ونهوضاً بأعباء الأحكام وهيبة فى قلوب الرجال[٦].

قال العتيقى : كان مجرداً فى الاعتزال[٧] ، وكان له فى كل سنة مجلسان يجلس

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٣/١١ .

(٢) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٨٦ .

(٣) كشف الظنون لحاجي خليفة ٤٠/٦ .

(٤) تاريخ التراث العربى لسزكين ٤٠٢/١/١ ـ ٤٠٣ .

(٥) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٦٥/٧ ـ ٣٦٧، والعبر للذهبى ١٥٩/٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣١/١١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٠١/٣ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٤١٦/١/١ ـ ٤١٧ .

(٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٦٥/١٠ ، ٣٦٦ .

(٧) العبر للذهبى ١٥٩/٢ .

فيهما للحديث أول يوم من المحرم ، وأول يوم من رجب ، ولم يكن له سماع كثير ، وكان عفيفا نزها فى القضاء[1] .

وله من المصنفات : كتاب الفوائد المنتقاه الحسان العوالى لابن معروف انتقاه عليّ ابن عمر الدارقطنى[2] .

الحافظ الدارقطنى على بن عمر بن أحمد بن مهدى أبو الحسن ت٣٨٥هـ[3]

سمع أبا القاسم البغوى وأبا بكر بن أبى داود ، ويحيى بن صاعد ، وبدر بن الهيثم القاضى ، وخلقا كثيراً من هذه الطبقة ومَنْ بعدهم ، وحدّث عنه أبو نعيم الأصبهانى وأبو بكر البرقانى ، وأبو القاسم بن بشران ، والأزهرى والخلال والجوهرى والتنوخى وأبو بكر بن بشران وجماعة غيرهم .

وكان فريد عصره وقريع دهره ونسيج وحده ، وإمام وقته ، انتهى إليه علم الأثر والمعرفة بعلل الحديث وأسماء الرجال وأحوال الرواة ، مع الصدق والأمانة والفقه والعدالة ، وقبول الشهادة وصحة الاعتقاد وسلامة المذهب والاضطلاع بعلوم سوى علم الحديث كالقراءات ، وقيل درس الفقه وكتب الحديث ، وعنده معرفة بمذاهب الفقهاء، ودرس فقه الشافعى ، وعنده المعرفة بالأدب والشعر ، وكان يحفظ دواوين جماعة من الشعراء[4] .

قال عنه البرقانى : كان الدارقطنى يملى عليّ العلل من حفظه ، وقال القاضى أبو الطيب الطبرى : الدارقطنى أمير المؤمنين فى الحديث[5] .

---

(١) تاريخ بغداد للبغدادى ٣٦٧/١٠ .

(٢) تاريخ التراث العربى لسزكين ٤١٧/١/١ .

(٣) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٤/١٢ ـ ٤٠ ، والعبر للذهبى ١٦٧/٢ ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٩٣ ـ ٣٩٥ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣٨/١١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١١٦/٣ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٧٢/٤ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٤١٨/١/١ ـ ٢٤ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٥٤٨/٥ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢١٠/٣ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٤/١٢ ـ ٣٥ .

(٥) العبر للذهبى ١٦٧/٢ .

وقال الحاكم : الدارقطنى أوحد عصره فى الفهم والحفظ والورع ، إمام القراء والمحدثين ، لم يخلف عن أديم الأرض مثله ، تصدر فى آخر أيامه للإقراء ، وكان تلا على ابن مجاهد النقاش(١).

كان من صغره موصوفًا بالحفظ الباهر والفهم الثاقب والبحر الزاخر، جلس مرة فى مجلس إسماعيل الصفار وهو يملى على الناس الأحاديث والدارقطنى فى جزء حديث، فقال له بعض المحدثين فى أثناء المجلس : إن سماعك لا يصح وأنت تنسخ ، فقال الدارقطنى : فهمى للإملاء أحسن من فهمك وأحضر ، ثم قال له ذلك الرجل: أتحفظ كم أملى حديثا ؟ فقال : إنه أملى ثمانية عشر حديثا إلى الآن ، والحديث الأول منها عن فلان عن فلان ثم ساقها كلها بأسانيدها وألفاظها لم يخرم منها شيئا فتعجب الناس منه .

قال ابن الجوزى : اجتمع للدارقطنى معرفة الحديث والعلم بالقراءات والنحو والفقه والشعر مع الإمامة والعدالة وصحة العقيدة(٢).

وله من المصنفات : كتاب السنن ، والصفات ، وأحاديث النزول ، والضعفاء والمتروكين ، وعلل الحديث ، وأسماء التابعين ومن بعدهم ممن صحت روايته فى الثقات عند البخارى ، وغريب الحديث ، والإلزامات على الصحيحين ، والفوائد الأفراد، والفوائد المنتقاة ، والفوائد المنتخبة ، وأسماء التابعين ومن بعدهم ممن صحت روايته من الثقات عند مسلم ، رجال البخارى ومسلم المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال، وكتاب التتبع وهو ما أخرج على الصحيحين وله علة ، وسؤالات الحاكم للدارقطنى ، وفضائل الصحابة ومناقبهم ، وكتاب الإخوة والأخوة والأحاديث الرباعيات(٣).

---

(١) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٩٤ ـ ٣٩٥ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٣٨/١١ .

(٣) تاريخ التراث العربى لسزكين ٤١٩/١/١ ـ ٤٢٤، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢١١/٣ ـ ٢١٢ وكشف الظنون لحاجى خليفة ٥٤٨/٥ .

الفصل الرابع

علم الفقه فى الشام والعراق

علـم الفقـه :

الغاية المقصودة من علم الفقه : هى تطبيق الأحكام الشرعية على أفعال الناس وأقوالهم . فالفقه هو مرجع القاضى فى قضائه ، والمفتى فى فتواه ، ومرجع كل مكلف لمعرفة الحكم الشرعى فيما يصدر عنه من أقوال وأفعال .

أما الغاية المقصودة من علم أصول الفقه فهى تطبيق قواعده ونظرياته على الأدلة التفصيلية للتوصل إلى الأحكام الشرعية التى تدل عليها ، فبقواعده وبحوثه تفهم النصوص الشرعية ويعرف ما تدل عليه من الأحكام ويعرف ما يزال به خفاء الخفى منها ، وما يرجح منها عند تعارض بعضها ببعض ، وبقواعده وبحوثه يستنبط الحكم بالقياس أو الاستحسان أو الاستصحاب[1] أو غيرها فى الواقعة التى لم يرد نص بحكمها ، وبقواعده وبحوثه يفهم ما استنبطه الأئمة المجتهدون حق فهمه ، ويوازن بين مذاهبهم المختلفة فى حكم الواقعة الواحدة ، لأن فهم الحكم على وجهه والموازنة بين حكمين مختلفين لا يكون إلا بالوقوف على دليل الحكم ، ووجه استمداد الحكم من دليله ، ولا يكون هذا إلا بعلم أصول الفقه فهو عماد الفقه المقارن[2] .

علم الفقه فى الشام والعراق قبل القرن الرابع :

لقد تدرج الفقه الإسلامى فى أطوار خمسة حتى القرن الرابع الهجرى وذلك على النحو التالى :

١ ـ التشريع فى حياة الرسول ، وهو الأصل الذى يصرح كل فقيه أنه مستند إليه يعتمد فيها الفقه على الوحى النازل من عند الله تعالى .

---

(١) الاستحسان : فى اللغة : عدُّ الشيء حسناً وفى اصطلاح الأصوليين : هو عدول المجتهد عن مقتضى قياسى جلىّ إلى مقتضى قياس خفىّ أو عن حكم كلى إلى حكم استثنائى لدليل انقدح فى عقله رجحٌ لديه هذا العدول . علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ص ٧٩ .

الاستصحاب فى اللغة : اعتبار المصلحة وفى اصطلاح الأصوليين : الحكم على الشيء بالحال التى كان عليها من قبل ، حتى يقوم دليل على تغير تلك الحال ، أو جعل الحكم الذى كان ثابتًا فى الماضى باقيا فى الحال حتى يقوم دليل على تغيره . علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ص ٩١.

(٢) علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ١٤ ـ ١٥.

٢ ـ التشريع فى عهد كبار الصحابة وهذا العهد ينتهى بانتهاء الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، من سنة إحدى عشرة هجرية إلى سنة أربعين هجرية .

٣ ـ التشريع فى عهد صغار الصحابة ومن ساماهم من التابعين لهم بإحسان وهذا العهد ينتهى بانتهاء القرن الأول من الهجرة أو بعد ذلك بقليل حيث يبتدأ من ولاية سيدنا معاوية بن أبى سفيان سنة إحدى وأربعين هجرية إلى الوقت الذى ظهرت فيه عوارض الضعف على الدولة العربية فى أوائل القرن الثانى من الهجرة، وكلا العهدين شباب واجتهاد يلجئون إلى القرآن وإلا فالسنة وإلا فأهل الرأى .

٤ ـ التشريع فى العهد الذى صار فيه الفقه علماً من العلوم ، وظهر فيه نوابغ الفقهاء الذين ألقيت إليهم مقاليد الزعامة الدينية ، وتلامذتهم الذين تبينوا آراءهم من غير أن يكون لهذه النسبة أثر فى استقلالهم الفقهى ، وينتهى هذا الدور بانتهاء القرن الثالث الهجرى .

٥ ـ التشريع فى العهد الذى دخلت فيه المسائل الفقهية فى دور الجدل لتحقيق المسائل المتلقاة من الأئمة ، وظهور المؤلفات الكبيرة والمسائل الكثيرة ، وينتهى هذا العهد بانتهاء الدولة العباسية من بغداد ، ويهمنا فيه معرفة التشريع حتى نهاية القرن الرابع الهجرى وما وصل إليه من تقليد وما ركن إليه الناس من مذاهب وقلدوها ، وظهر لكل مذهب أتباع مقلدون ، وسوف يكون لنا مبحث خاص عن دراسة الفقه خلال القرن الرابع الهجرى ومعرفة مدى ما وصل إليه من تطور أو غير ذلك .

علم الفقه فى القرن الرابع الهجرى :

قبل القرن الرابع كان تدوين السنة والفقه وظهور كبار الأئمة الذين اعترف لهم الجمهور بالزعامة ، وتميز هذا الدور قبل القرن الرابع باتساع الحضارة سواء فى الشام أو فى العراق يمثل الشام فى ذلك مدينة دمشق ويمثل العراق بغداد والكوفة والبصرة ، ونمو الحركة العلمية بالأمصار الإسلامية فى الشام والعراق نمواً عظيماً من وصول المدنيات القديمة إلى رؤوس المفكرين من العرب ، وازدياد حفاظ القرآن والعناية بأدائه سواء فى دمشق أو الكوفة أو البصرة أو بغداد ، كما تنبه رواة السنة إلى وجوب

تصنيفها وتدوينها ، والنزاع فى مادة الفقه نزاع شديد من المتشرعين فى الأصول التى منها تستنبط الأحكام كالنزاع فى السنة والنزاع فى القياس والرأى والاستحسان ، والنزاع فى الإجماع والنزاع فى أكبر مسألة ـ الأمر والنهى ـ يدور عليها التكليف ، وتنبه أيضا العلماء إلى تدوين أصول الفقه ، وظهور الاصطلاحات الفقهية ، وظهور نوابغ الفقهاء الذين اعترف الجمهور لهم بالزعامة وقيام المذاهب والمدارس الفقهية كمذهب أبى حنيف والشافعى وأحمد بالعراق ومعهم الطبرى والظاهرى والزيدى ، ومذهب الشافعى والأوزاعى والإمام أحمد بالشام .

أما فى القرن الرابع الهجرى فقد كان استمراراً لدور النشاط فى الفقه وتعدد مراكز التشريع وتدوين العلوم وبروز كثير من الأئمة المجتهدين ، واستمرار المذاهب الفقهية ، ونمو الفقه الإسلامى وبسط سلطانه على جميع مجالات الحياة ، وانتشار المذاهب الأربعة فى الجمهور الإسلامى وظهور الاصطلاحات الفقهية[1] .

لقد كان القرن الرابع أهم نقطة فاصلة فى تاريخ التشريع الإسلامى ، فقد وقف فيه التكوين المستقل للتشريع الإسلامى المبنى على الاجتهاد المطلق ، وعلى الحكم بالرأى فى فهم القرآن والحديث .

ومضى عصر الابتكار فى التشريع ، واعتُبر العلماء الأولون كالمعصومين وأصبح الفقيه لا يستطيع إصدار حكمه الخاص إلا فى المسائل الصغيرة[2] .

فانكمش سلطان الفقه وصعبت مهمة الفقهاء ويرجع ذلك إلى سيطرة التقليد وعدم الثقة فى النفس عند العلماء ليستنبطوا من الكتاب والسنة . والتزام كل عالم بمذهب إمامه لا يتعداده ، وأصبحوا عالة على فقه الأئمة . ونصرة المذاهب التى اتبعوها جملة وتفصيلا ، وصارت نصوص الأئمة عندهم كنصوص الشارع ، وحفظوا الكتب ودرسوا طريقة الإمام فقط . وانحصر التأليف فى إحضار الكتب وشرحها وجمع ما تفرق من عدة كتب . وسارت الفتوى فى نفس الاتجاه ، وعدم الجرأة فى إبداء رأى يخالف المذهب ، فوقف التشريع فى دائرة نصوص المذاهب ، وابتعد العلماء عن

---

(١) كتاب المنتقى فى تاريخ التشريع الإسلامى د/ محمد عبادة ص ١٢٨ .

(٢) الحضارة الإسلامية لآدم متز ١/٣٦٩ .

الاستنباط من الكتاب والسنة ، وأغلق باب الاجتهاد على رأس المائة الرابعة وانعدمت الحرية واشتد التعصب فانكمش سلطان الفقه وسيطر على الفقهاء الفتور والجمود[١] .

إن دراسة علم الفقه خلال القرن الرابع تجعلنا نضع فى موضع الاعتبار ونبين أن الفقه فى النصف الأول من القرن الرابع يختلف عن النصف الأخير فيه ، ثم نتعرض إلى المذاهب الفقهية فى القرن الرابع سواء فى الشام أو العراق ، وكذلك الاختلاف بين الفقهاء ، ثم بيان أن القرن الرابع كثير من العلماء كتبوا عنه أنه عصر الجمود والتقليد ورغم ذلك فإنه لا يخلو من علماء قادرين على الاجتهاد والاستنباط مع بيان مسلك العلماء فى القرن الرابع والأمور التى خدموا فيها مع بيان محاسن القرن الرابع تجاه الفقه الإسلامى .

تعقيب :

نظرة مقارنة فى الحالة الفقهية لكل من الشام والعراق :

ارتقى الفقه الإسلامى ارتقاءً عظيماً منذ أوائل القرن الثانى للهجرة حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، واتسعت دائرته ، واتجه الفقهاء إلى ما لم تتهيأ لهم أسبابه ، فافرغوا جهدهم فى ترتيب أشتاته ، وتنافسوا فى إبراز مكوناته ، وتضافرت الجهود على ضبطه وتدعيم قواعده فأصبح الفقه ثروة طائلة ، واستفاد من تدوين العلوم الأخرى استفادة كثيرة ، فإن العلوم كشبكة متصلة الأجزاء تخدم بعضها بعضا ، ويشد الواحد منها أزر الآخر ولا سيما الفقه فإنه أكثر اتصالا بالعلوم الأخرى من سواه[٢] . فلقد نما الفقه الإسلامى ونشطت حركة الاجتهاد وهذا يدل على أن حضارة كل من الشام والعراق قد اتسعت وازدهرت ، فدمشق وإن نقلت منها الخلافة فإنها قد كثر بها العلم قبل القرن الرابع ومازال بها فقهاء ومحدثون ومقرئون وإن تناقص فى القرن الرابع وكذلك حمص كثر بها العلم ثم تناقص فى المائة الرابعة .

أما العراق فقد كثر العلم والعلماء بالكوفة حتى زمن ابن عقدة فى القرن الرابع

---

(١) كتاب المنتقى فى تاريخ التشريع الإسلامى د/ محمد عبادة ص ١٥٥ .

(٢) حضارة العراق الجزء السابع قسم الفقه الإسلامى د/ رشدى محمد عليان ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

وكذلك البصرة وبغداد وهى أعظم بلاد العراق فهى منزل الخلافة والعلم حتى بعد القرن الرابع الهجرى[1].

كما أن رعاية الدولة سواء فى الشام أو فى العراق لكثير من الشعوب المختلفة الأجناس والعادات والمعاملات والمصالح ، كان لها أثر كبير فى حركة الفقه والاجتهاد؛ لأنه استنهض همم الفقهاء لاستنباط أحكام تلك الوقائع ، فأثمرت هذه الحركة ثروة تشريعية ، ولم يقف الفقهاء عند ذلك ، بل أخذوا يفرضون مالم يقع ويجتهدون فى تعرف الأحكام لتلك الفرضيات حتى غدا المجتمع العربى والإسلامى محكوماً بالفقه متصلا به .

فالمتتبع لكتب التراجم وطبقات الفقهاء سيجد أعداداً كثيرة من الفقهاء قد عاشوا تلك الفترة وغزوا المكتبة العلمية بمصنفاتهم الفقهية وانتشر علمهم فى كل مكان .

إن مما ساعد أيضا على نمو الفقه ونشاط حركة الاجتهاد هو اهتمام الخلفاء العباسيين وأمراؤهم ووزراؤهم بالفقهاء ورعايتهم لإنتاجهم الفقهى وتوفير الحرية التامة للبحث العلمى، ومن مظاهر ذلك لجوء الخليفة إلى الفقهاء فى المسائل التى تعنّ له كما حدث من الخليفة القاهر عندما استفتى أبا سعيد الاصخطرى الشافعى، ت٣٢٨هـ فى الصابئين، فأفتاه بقتلهم لأنه تبين له مخالفتهم اليهود والنصارى ، وأنهم يعبدون الكواكب فعزم الخليفة على قتلهم فجمعوا مالاً كثيراً فكفّ عنهم[2].

كما أنه مما ساعد على نمو الفقه فى النصف الأول من القرن الرابع وما قبله أن الفقهاء وأهل الفتوى وجدوا طريق التشريع ممهدة وصعابه ميسرة لأنهم وجدوا المصادر التشريعية فى متناولهم ، ووجدوا كثيراً من الوقائع والمشاكل قد عالجها لفهم من قبلهم ، فالقرآن مدوّن ومنشور ، والسنة مدون أكثرها منذ مطلع هذا العهد ، وكذلك فتاوى الصحابة والتابعين كل ذلك كان من عوامل نشاطهم ووفرة إنتاجهم[3]. لذلك برز أعلام لهم مواهبهم واستعداداتهم وتكونت لهم ملكة تشريعية لكثير من نوابغهم ،

---

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوى ص٢٩٣، ٢٩٥ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٦٩/٧ ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ٢٣٩/٢ .

(٣) حضارة العراق قسم الفقه الإسلامى للدكتور رشدى محمد عليان جـ٧/ ١٥٩ ـ ١٦٠.

وكان أكثر أعلام التشريع يقومون بتدريس العلوم الإسلامية ورواية الحديث عن طريق مجالس العلم بالشام كمجلس أبي الحسن أحمد بن سليمان الأسدى القاضى ت٣٤٧هـ فى جامع دمشق يدرس فيها مذهب الأوزاعى ، وكان له مجلس علم آخر فى داره وكان على قضاء دمشق[١] .

كما كان الحسن بن حبيب الدمشقى الشافعى ت ٣٣٨هـ يحدّث بكتاب الأم كله فى الفقه الشافعى ، وقد رواه عن الربيع بن سليمان[٢] .

ومن فقهاء العراق أيضا من يقومون بتدريس العلوم الإسلامية ورواية الحديث عن طريق مجالس العلم كأبى سعيد الحسن بن أحمد الاصطخرى الشافعى ت ٣٢٨هـ يقول عنه أبو الحسن المروزى : لما دخلت بغداد لم يكن بها من يستحق أن أدرس عليه إلا أبو العباس بن سريج وأبو سعيد الاصطخرى[٣] . وكذلك أحمد بن محمد الطبرى الحنفى ت ٣٤٠هـ شرح الجامع الكبير للشيبانى درس ببغداد[٤] . والحسن بن القاسم الطبرى ت ٣٥٠هـ درّس ببغداد بعد أستاذه أبى على بن أبى هريرة[٥] .

فهؤلاء العلماء وغيرهم ممن كانوا فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى منهم من كان يعمل عملا آخر بجانب العلم وتدريسه فيرتزق منه ويتقوت ، فمن أهل الشام البلخى زكريا بن أحمد ت ٣٣٠هـ، كان يعمل فى القضاء فولى قضاء دمشق فى خلافة المقتدر بالله[٦] . وعمر بن الحسين الخرقى الحنبلى ت ٣٣٤هـ كان يبيع الخرق والثياب وكان من سادات الفقهاء الحنابلة وأعيانهم[٧] .

ومن أهل العراق : أبو سعيد الاصطخرى ت٣٢٨هـ أحد الأئمة المذكورين ومن

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩٢/٣ .
(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٣٢٦/٦.
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٦٩/٧ .
(٤) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢٧٢/١.
(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٥/٢ ـ ٧٦ .
(٦) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٥٢/٩.
(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٤١/٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٢٨/١١.

شيوخ الفقهاء الشافعيين ، استقضاه الخليفة المقتدر على سجستان فسار إليها[١].
ومحمد بن عيسى المعروف بابن أبي موسى ت ٣٣٠هـ فقيه أصولي ولي القضاء ببغداد[٢].

المذاهب الفقهية في الشام :

يقول المقدسي : « مذاهبهم مستقيمة ، أهل جماعة وسنة، ولا نرى به مالكيا ولا داوديًا ، وللأوزعية مجلس بجامع دمشق والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث ، والفقهاء شفعوية ، وأقل قصبة أو بلد ليس فيها حنفيٌّ وربما كانت القضاة منهم »[٣].

ويقول آدم متز : « وكان أكبر حصن للشافعية في الشام ، أدخل هذا المذهب في دمشق أبو زرعة الدمشقي ت ٣٠٢هـ ، ولم يلي بعده قضاء الشام إلى شافعي المذهب بعد أن كان الغالب على أهل دمشق مذهب الأوزاعي[٤]، فكانت مذاهب أهل الشام تنتمي إلى الحديث ، فكانوا يقيسون الحياة بمقياس نصوص الوحي والسنة النبوية ، وكانت لهم الغلبة ، وكان أهم المذاهب بين أصحاب الحديث في الشام : الأوزاعية والحنابلة والشافعية[٥] وبه أيضا المذهب الحنفي[٦].

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٥/٢ .
(٢) معجم المؤلفين لكحالة ٥٧٦/٣ .
(٣) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .
(٤) ويردّ هنا على آدم متز في أنه لم يل منصب القضاء بعد دخول المذهب الشافعي إلى دمشق إلا شافعي » فنقول : لقد تولى القضاء بدمشق أبو الحسن أحمد بن سليمان الأسدى الأوزعي المذهب المتوفي ٣٤٧هـ وكان إماماً عالمًا فقيهًا على مذهب الأوزاعي ، وكان له حلقة بالجامع انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردى ٣٢٠/٣، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩١/٣ .
(٥) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٣٧٠/١ .
(٦) الأوزاعية : نسبة إلى المذهب الأوزاعي الذي يُنسب إلى عمرو بن عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧هـ إمام الشام وكان يسكن بيروت ، انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٧/٣.
والحنابلة : نسبة إلى المذهب الحنبلي نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ وأكثر أتباعه بالشام ، وهم أكثر حفظا للسنة ورواية الحديث . انظر مقدمة ابن خلدون ١٠٥١/٣ . =

ولم يكن المذهب الحنبلى كثير الانتشار بسبب أخذ الحكام على يد أصحابه ، وبسبب أنه غير متوسع فى استعمال الرأى[1] .

وهذا لا يمنع من أن يكون للمذهب الحنفى مكان فى بلاد الشام فى القرن الرابع الهجرى فقد كان يوجد فى دمشق أحياناً قاضى حنفى بجانب القاضى الأوزاعى وربما كانا يتداولان الحكم وممن تذكرهم كتب التاريخ من قضاة الأحناف قاضى دمشق على بن محمد بن كاسى ت ٣٢٥هـ ، ونظن أن حلب كانت أسرع من دمشق فى الانصياع للمذهب الحنفى بحكم قربها أكثر من العراق ومثلها فى ذلك أنطاكية فهذا ابن أبى الفهم التنوخى الأنطاكى ت ٣٤٢هـ كان فقيهها حنفياً بارعاً[2] .

فالقاضى الحنفى أو الفقيه الحنفى عندما يحكم فى مسألة من المسائل أو يفتى فتوة ما فلابد وأن يكون ذلك الأمر أو تلك الفتوى موجه لأناس مذهبهم هو مذهب القاضى أو الفقيه أى المذهب الحنفى . لذلك فنستطيع أن نقول أن المذهب الحنفى كان موجوداً فى بلاد الشام وإن قلّ عدد من يتمذهبون به .

المذاهب الفقهية فى العراق :

الغالب على فقهاء العراق وقضاته أصحاب أبى حنيفة ، وبه عدة من المذاهب

= الشافعية : نسبة إلى المذهب الشافعى الذى ينسب للإمام محمد بن إدريس الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤هـ وكان للمذهب الشافعى مكان بين الشعب الشامى . انظر المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ص ٤٨٢ .

المذهب الحنفى : ينسب للإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى المتوفى سنة ١٥٠هـ وهو أوسع المذاهب الفقهية انتشاراً وأكثرها اتباعاً وخصوبة فى تراثه الفقهى ، وكان منشؤه بالكوفة ثم انتشر فى سائر أقاليم الدول العربية الإسلامية ، وقد ذاع بإقليم العراق وصار المذهب الشعبى والرسمى فيها انظر حضارة العراق قسم الفقه الإسلامى للدكتور رشدى محمد عليان ١٦٨/٧ .

(١) تاريخ التشريع الإسلامى للدكتور محمد عبادة ص ١٥٩ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٦٠/٣ ، ٣١٠ .

كمذهب أبى حنيفة والشافعى والحنبلى والظاهرى والجريرى وقليل من المذهب المالكى[١]، إنه لما عظمت أمصار الإسلام وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلما فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه إلى طريقتين :

طريقة أهل الرأى والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز وكان الحديث قليلا فى أهل العراق ، فاستكثروا من القياس ومهروا فيه ، فلذلك قيل أهل الرأى ، فأهل العراق قد استقرت مذاهبهم عند الإمام أبى حنيفة فمقامه فى الفقه لا يلحق شهد له بذلك مالك والشافعى[٢].

ففى القرن الرابع كانت العراق حاضرة للبلاد الإسلامية وخاصة بغداد ، حشر إليها العلماء من جميع الأمصار الإسلامية ، ولا تزال الكوفة والبصرة أهلتين بالعلماء والحكماء حتى صار إقليم العراق تزهو حضارته على كل حضارة ، ولا مراء فى أن لذلك أثراً كبيراً فى الفقه لأنه يمكن القائم به من وضع المسائل المختلفة ليستنبط الجواب عنها[٣].

إنه من المعروف أن الغالب من المذاهب على إقليم العراق هو المذهب الحنفى ، فلم يكن للشافعى أتباع كثيرون فى العراق ، وإن كان قد ولى قضاء القضاة ببغداد أحد الشافعية سنة ٣٣٨هـ[٤] ثم إن فقهاء القرن الرابع بالعراق يعتبرون مكملين

---

(١) المذهب الظاهرى : ينسب للإمام داود بن على خلف المتوفى سنة ٢٧٠هـ وهو من المذاهب الفقهية التى نشأت بالعراق واتجه إلى فقه الظاهر ، ورفض فقه الرأى وأبطل الاستدلال بالقياس . انظر حضارة العراق القسم الدينى ١٨٢/٧ للدكتور رشدى محمد عليان .
المذهب الجريرى : ينسب للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠هـ وهو من المذاهب التى نشأت فى العراق ، وقد انتشر خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين لما اتسع علم الطبرى أداه اجتهاده إلى ما اختاره فى كتبه واستقل بمذهبه وأصبح من كبار الفقهاء . انظر حضارة العراق القسم الدينى ١٨٣/٧ للدكتور رشدى محمد عليان .
المذهب المالكى : نسبة للإمام مالك بن أنس الأصبحى ت ١٧٩هـ ونصيبه فى العراق من حيث الانتشار قليل انظر المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ص٤٣٣
(٢) مقدمة ابن خلدن ١٠٤٦/٣ ـ ١٠٤٨
(٣) تاريخ التشريع الإسلامى للشيخ الخضرى ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .
(٤) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٣٧٤/١ .

لمذاهب أئمتهم بما قاموا به من الترجيح بين الروايات المختلفة عنهم والتخريج لعللها والفتوى فيما لم يرد فيه نص عن أولئك الأئمة بالقياس على تلك العلل[1].

تعقيب حول :

الاتجاهات الفقهية فى كل من الشام والعراق

اتفق إقليم الشام والعراق فى أن ساد فيهما وانتشر بين جمهور كل منهما المذاهب الفقهية الثلاثة الآتية : المذهب الحنفى والمذهب الشافعى والمذهب الحنبلى تلك المذاهب الكبرى التى سادت فى القرن الرابع الهجرى وتوطدت أركانها سواء فى الشام أو فى العراق[2].

واختلفا فى أن انتشر فى الشام المذهب الأوزاعى ، وكانت له المجالس العلمية بجامع دمشق[3] ، وكان من بين فقهائه من يشغل منصب القضاء[4]. ولم يكن على مستوى غلبة المذهب الحنفى أو الشافعى .

أما العراق فقد اختلف عن الشام فى أن انتشر فيه المذهب المالكى والمذهب الظاهرى والمذهب الجريرى . وكانت لهم أنصارهم ومجالسهم العلمية التى ساعدت على انتشار المذهب ولهم مصنفاتهم العلمية فى المذهب الخاص بهم .

نلاحظ مما سبق من دراسة أن حظ إقليم العراق من حيث تعدد المذاهب الفقهية وتكونها وشيوعها كان وفيراً عن إقليم الشام ، مما أعطى العراق فرصة كبيرة فى حركة الاجتهاد وعدد المجتهدين ، والإنتاج الفقهى فى القرن الرابع الهجرى ، وذلك مرجعه إلى أن العراق كانت حاضرة العالم الإسلامى وقد حشر إليها العلماء من جميع الأمصار الإسلامية ، وزهت حضارته على كل حضارة ، ولا مراء فى أن لذلك أثر كبير فى الفقه لأنه يمكن القائم به من وضع المسائل الفقهية المختلفة ليستنبط الجواب عنها[5].

---

(١) تاريخ التشريع للخضرى ص ٢٤٢ .

(٢) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٣٧٣/١ .

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسى ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩١/٣ .

(٥) تاريخ التشريع الإسلامى للخضرى ١٢٩ ـ ١٣٠.

الاختلاف بين الفقهاء فى كل من الشام والعراق

من المعروف أن الفقه هو معرفة أحكام الله عز وجل فى أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهية والإباحة ، وهى متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة ، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه وكان السلف رضوان الله عليهم يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيها فيما بينهم ولابد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالبا من النصوص وهى بلغة العرب وفى اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف . وأيضا فالسنة مختلفة الطرق فى الثبوت وتتعارض فى الأكثر أحكامها ، فتحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضا والأدلة من غير النصوص مختلف فيها[1] .

بل إن مرونة الظروف وعدم التعصب تعتبر نتيجة للاختلاف فى الرأى فهذا ابن شجرة ت ٣٥٠هـ صاحب الطبرى ت ٣١٠هـ كان جريرى المذهب ثم خالف أستاذه وأصبح يختار لنفسه ، ولا يضع لأحد من الأئمة أصلاً ، ومع هذا تقلّد قضاء الكوفة وهذا دليل على مرونة الظروف وعدم التعصب لسبب الاختلاف فى الرأى[2] .

فقد كثر التصنيف فى أمر الاختلاف بين الفقهاء سواء فى الشام أو العراق، فمن علماء الشام أبو محمد عبد الرحمن الرازى ت ٣٢٧هـ وقد صنف فى الفقه واختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار[3] .

ومن علماء العراق الحسن بن القاسم الطبرى ت ٣٥٠هـ، فهو أحد الأئمة المحررين فى الخلاف، وهو أول من صنف فيه[4] فله كتاب « المحرر » فى النظر، وهو أول كتاب صنف فى الخلاف المجرد[5]، وكتاب « مختصر مسائل الخلاف فى الكلام والنظر »[6] .

---

(١) مقدمة ابن خلدن ١٠٤٥/٣ ـ ١٠٤٦ .

(٢) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٣٧٢/١ ـ ٣٧٣ .

(٣) العبر للذهبى ٢٧/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٠٨/٢ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٤/١١ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٨٧/٨ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٧٦/٢ .

(٦) الفهرست لابن النديم ص٣٠١ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٧٨/١ .

إن كثيراً من المناظرات العلمية الدقيقة المليئة بأدب الاختلاف حفلت بها كتب التراجم والتاريخ والمناظرات ونحوها . ولا يكاد المرء يفتقد « أدب الاختلاف » بين أهل العلم إلا بعد شيوع التقليد فى القرن الرابع وما رافقه من تعصب وتعثر فى سلوك أهل العلم ، ونظراتهم إلى العلم نفسه[1] وميل نفس بعض الأمراء إلى المناظرة فى الفقه ، فترك الناس الكلام وفنون العلم واتجهوا إلى المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة ، وكان الدافع لهم إرضاء شهوة الأمراء وإن كان كثير منهم يخدع نفسه بأن غرضه استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى[2].

فمنذ القرن الرابع انتهى الاجتهاد ، وغربت شمسه ، وغدا التقليد شائعًا ، فالكتب والمدونات محدثة ، والقول بمقالات الناس والفتيا على مذهب الواحد من المجتهدين ، واتخاذ قوله ، والحكاية عنه ، والتفقه على مذهبه لم يكن شىء من ذلك موجودا فى القرنين الأول والثانى ، وأما القرن الثالث فقد كان الاجتهاد ولا يزال هو الشائع فيه ، وربما عمد بعض العلماء إلى التخريج على قواعد وأصول من سبقهم من أهل العلم ولكن دون تقليدهم والتشبث بأقوالهم . وأما أهل القرن الرابع فقد كان فيهم العلماء والعامة ، فأما العامة من الناس فقد كانوا يتلقون من أهل العلم ما لا خلاف فيه : كما أن يستفتوا أهل العلم فيما يحتاج إلى الاستفتاء دون النظر إلى مذهب العالم الذى يفتى ، وأما أهل العلم فكانوا يشتغلون بالحديث ويتلقون من أحاديث رسول الله وآثار الصحابة فإن لم يجدوا رجعوا إلى كلام من سبقوهم من الفقهاء ، فإن وجدوا قولين اختاروا أوثقهما ، وكان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصرحاً به ويجتهدون فى المذاهب وينسبون إليها[3].

لا شك أن الاختلاف بين الفقهاء أدى إلى شيوع المناظرات والجدل شيوعاً كثيراً حتى لا تكاد مدينة كبيرة تخلو من عقد مجالس المناظرات بين كثيرين من علمائها ولا سيما فى العراق . وكانت تلك المناظرات تعقد أمام الوزراء والكبراء ، وألفت الكتب فى قواعد النظر، وأطلق عليها علم أدب البحث ، وكانت مجالس النظر أولا

---

(١) أدب الاختلاف فى الإسلام د/ العلوانى ص ١٢٢ .

(٢) تاريخ التشريع الإسلامى للخضرى ص ٢٤٤ .

(٣) أدب الاختلاف فى الإسلام د/ العلوانى ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

في علم الكلام حتى أدى بهم ذلك إلى التعصبات والخصومات ، فمالت نفس بعض الأمـراء إلى المناظرة فى الفـقـه وبيـان أولى من مـذهـب الشـافـعى وأبى حنيـفـة على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبى حنيفة[١] .

ففى الشام قيل عن أبى يحيى البلخى ت ٣٣٠هـ أنه كان حسن البيان فى النظر عذب اللسان فى الجدل[٢] . وقيل عن عبيد الله بن عمر القيسى ت ٣٦٠هـ أنه تفقه على مذهب الشافعي وتحقق به وناظر فيه[٣] .

وأما فى العراق فكان أبو سعيد الاصطخرى ت ٣٢٨هـ يحضر مجالس المناظرة مع أبى العباس بن سريج ويتناظران[٤] . واشتـهر أبو بكر الصيـرفى البغدادى ت ٣٣٠هـ بالحذق فى النظر والقياس[٥] . ومحمد بن أحمد أبو طاهر الذهلى البغدادى ت٣٦٧هـ كان له مجلس يجتمع إليه المخالفون ويتناظرون بحضرته[٦] .

فـاشـتـداد الجـدل والمناظرات والمنازعـات ، بين فـقـهـاء المذاهب فى القـرن الرابع الهجرى ، بعد أن ذاعت تلك المذاهب فى المجتمع الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى قد ساعد على وضع أصول الفقه ، وظهور الاصطلاحات الفقهية المختلفة[٧] .

الفقه الإسلامى بين التقليد والاجتهاد فى القرن الرابع الهجرى :

نعنى بالتـقليـد : تلقى الأحكام من إمام معين واعتبـار أقواله كأنهـا من الشـارع نصوص يلزم المقلد اتباعهـا . لقد كثر حديث العلمـاء عن أن روح التقليد فى القرن الرابع الهجرى فى كل من الشام والعراق قد سرت سريانا عامًا واشترك فيـهـا العلمـاء

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى للشيخ الخضرى ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(٢) شذرات الذهب لابن العماد ٣٢٧/٢.

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥ / ٣٤٥ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٦٩/٧.

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٩٩/٤ .

(٦) تارخ بغداد للخطيب البغدادى ٣١٣/١.

(٧) القضاء فى الإسلام د/ عطية مشرفة ص ٦٨ .

وغيرهم من الجمهور ، فبعد أن كان مُريد الفقه يشتغل أولاً بدراسة الكتاب ورواية السنة اللذين هما أساس الاستنباط صار فى القرن الرابع يتلقى كتب إمام معين ويدرس طريقته التى استنبط بها ما دونه من الأحكام فإذا أتم ذلك صار من العلماء الفقهاء ، ومنهم من تعلو به همته فيؤلف كتاباً فى أحكام إمامه إما اختصار لمؤلف سبق أو شرحاً له أو جمعًا لما تفرق فى كتب شتى ، ولا يخالف الواحد منهم قول ما أفتى به إمامه وكأن الحق كله نزل على لسان إمامه وقلبه ، ويقول فى ذلك أبو الحسن عبيد الله الكرخى : كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهى مؤولة أو منسوخة ، وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ[١] .

ويقول ابن حزم فى كتابه إبطال التقليد : « وإنما حدث التقليد فى القرن الرابع وهو أن يفتى فى الدين فتيا ، لأن فلاناً الصاحب أو فلاناً التابع أو فلاناً العالم أفتى بها بلا نص فى ذلك ، وهذا باطل ، لأنه قول فى الدين بلا برهان »[٢] .

فإن كثيراً من الفقهاء فى هذا القرن لم يأتوا بجديد يضاف إلى المذاهب التى عرفت واشتهرت فى عصر الاجتهاد سابقًا ، فالناظر فى وقائع هذا القرن من تاريخ التشريع الإسلامى يتضح له أن الذى جعل الفقهاء يسلكون هذا المسلك هو وجود الاضطرابات السياسية التى أدت إلى التنازع والفرقة وأصبحت الدول الإسلامية دويلات متعددة متناقضة يعادى بعضها البعض[٣] . مما أدى إلى إقلاع الفقهاء عن الاجتهاد والنظر فى الأحكام والرجوع إلى كلام من سبقهم من الفقهاء[٤] . إن الناظر فى فقهاء القرن الرابع الهجرى ، خاصة فقهاء الشام والعراق فى النصف الأخير من القرن الرابع يجد أن هممهم فترت عن الاجتهاد المطلق ، وعن الرجوع إلى مصادر التشريع مباشرة لاستنباط الأحكام منها والتزموا اتباع من سبقوهم ، ورضوا لأنفسهم التقليد ، ورضوا أن يكونوا عالة على فقه الأئمة ، وبهذا وقف التشريع عندما وصل إليه فقهاء

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى للشيخ الخضرى ص ٢٣٦.
(٢) الاجتهاد للإمام السيوطى تحقيق فؤاد عبد المنعم ص ١١٦ ـ ١١٧ .
(٣) تاريخ التشريع الإسلامى د/ حسن سفر ص ١٠٤ .
(٤) أدب الاختلاف فى الإسلام د/ العلوانى ص ١٣٨ .

القرن السابق وأوائل القرن الرابع وقصر عن مسايرة ما يجد من تطورات ومعاملات وأقضية ووقائع[١].

لقد وقف التقليد فى الأمصار عند الأئمة الأربعة ، ودرس المقلدون عن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لمّا كثر تشعب الاصطلاحات فى العلوم ، مما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ، ولمّا خُشى من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه ، فصرحوا بالعجز وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء الأئمة ، ولم يبق إلا عمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم[٢].

إن عواقب هذا التقليد وخيمة ، أولها : إهمال الناس للكتاب الكريم وعلومه ، وإعراضهم عن السنة وفنونها ، والاكتفاء من العلم بنقل الأقوال والمذاهب وتعقيدها وتأصيلها والجدال عنها والتفريع عليها ، وركود حركة الفكر وانزواء شجرة الاجتهاد ، وأصبح الفقيه العالم ـ فى نظر الناس ـ هو ذلك الذى حفظ جملة من أقوال الفقهاء وتزود بعدد من الآراء دون تمييز بين قويها وضعيفها[٣].

تعقيب :

يرجع وقف التشريع وركود حركة الاجتهاد وسريان التقليد فى القرن الرابع فى كل من الشام والعراق إلى عدة أسباب أهمها :

١ ـ انقسام الدولة العربية الإسلامية إلى عدة دويلات يتناحر أمراؤها وأفرادها ، فالشام يسيطر عليها الأخشيد فترة ثم الحمدانيون فترة والعراق يسيطر عليها البويهيون والحمدانيون على الموصل، هذا الانقسام شغل ولاة الأمور بالحروب والفتن وشغل الناس معهم، فدبّ الانحلال العام وكان لهذا أثره فى وقف حركة التشريع[٤].

---

(١) حضارة العراق القسم الدينى للدكتور رشدى محمد عليان ١٨٩/٧ ـ ١٩٠ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٠٥٠/٣ ـ ١٠٥١ .

(٣) أدب الاختلاف فى الإسلام د/ العلوانى ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٤) حضارة العراق للدكتور رشدى محمد عليان ١٩٠/٧ .

٢ ـ التزام كل فقيه من فقهاء القرن الرابع مذهبًا معيناً من المذاهب المعروفة ، والانتصار له وتأييد فروعه وأصوله بكل الوسائل ، فتارة بإقامة البراهين على صحة ما ذهب إليه مذهبه، وتارة بالإشادة، وكل هذا شغل فقهاء المذهب وصرفهم عن النظر الحر والمستقل فى مصادر التشريع الأساسية ، وصار الواحد منهم لا يرجع إلى نص قرآنى أو حديث إلا ليلتمس فيه ما يؤيد مذهب إمامه ، وبهذا فنيت شخصية الفقيه فى مذهبيته[١].

٣ ـ تدوين الفقه قبل القرن الرابع مما جعل الرجوع إلى مسائلة فى متناول أيدى الناس، وأصبح من اليسير الرجوع ومعرفة الأحكام بسرعة وفى القرن الرابع أغنتهم هذه النقطة عن الاجتهاد[٢].

٤ ـ تفضيل الخلفاء للقضاة فى أن يكونوا من المقلدين ، والذين يتبعون مذاهب يختارها الخلفاء ويلزمونهم بها . وعدم ترك الأمر لرأيه واجتهاده[٣].

٥ ـ غلق باب الاجتهاد وذلك نتيجة موقف العلماء والسلاطين من أناس اقتحموا العلم اقتحامًا وتطالوا على مائدة العلم وأصبحوا يفتون ويستنبطون الأحكام وهم بعيدون كل البعد عن فهم القواعد والأدلة ، فصارت الفتوى فى القرن الرابع تشمل كل الشام والعراق وغيرهما ، فهذا الصنيع أضرّ ضرراً جسيما بالفقه الإسلامى حيث أصابه الجمود والتأخر[٤] .

لهذه الأسباب وغيرها اقتصر أكثر فقهاء هذا القرن على دراسة فقه الأئمة السابقين والتخريج على أصولهم ، ويكتفى فى النهاية أن يكون مجتهد مذهب ، بمعنى أنه يفتي فيما يجد من أحداث إذا لم يكن فيها نص لإمامه أو يرجح أحد رأيين له فى الحادثة[٥] .

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى د/ حسن سفر ص ١٠٨ ، وحضارة العراق للدكتور رشدى محمد عليان ١٩٠/٧ .

(٢) تاريخ التشريع الإسلامى د/ حسن سفر ص ١٠٨ .

(٣) حضارة العراق للدكتور رشدى محمد عليان ١٩١/٧ .

(٤) تاريخ التشريع الإسلامى د/ حسن سفر ص ١٠٩ .

(٥) حضارة العراق القسم الدينى للدكتور رشدى محمد عليان ١٩١/٧ .

ورغم التقليد الذى ساد القرن الرابع الهجرى إلا أن هذا القرن كان يتمتع بعلماء أتقياء لهم القدرة على الاجتهاد والاستنباط كسابقيهم إلا أنهم حرموا أنفسهم حق الاجتهاد لتقواهم وورعهم ، مكتفين بالتقليد للمذاهب السابقة ومقتصرين على الدوران فى فلكها الفقهى ، ومن أمثال هؤلاء العلماء من إقليم الشام : أبو محمد عبدالرحمن الرازى المتوفى سنة ٣٢٧ هـ إذ كان بحراً فى العلوم بالمذاكرات مع أبيه ومع أبى زرعة الدمشقى وصنف الكثير فى الفقه وغيره[١] .

وأبو العباس بن القاص الطبرى ت ٣٣٥هـ من أصحاب الوجوه المتقدمين فى الفقه الشافعى ، إمام عصره وصاحب المصنفات الكثيرة النفيسة منها كتاب «التلخيص» لم يصنف قبله ولا بعده مثله وتولى منصب القضاء بطرسوس[٢] .

ومن إقليم العراق : أبو الحسن الكرخى ت ٣٤٠هـ انتهت إليه رئاسة أصحاب أبى حنيفة فى البلاد ، غزير العلم وكثير الرواية وعظيم العبادة له مؤلفات عظيمة فى الفقه[٣] . وأبو بكر أحمد بن على الرازى ٣٧٠هـ كان عابداً زاهداً ورعًا انتهت إليه رياسة الحنفية فى عصره ووقته ، وهو فقيه مجتهد وله مؤلفات كثيرة[٤] .

مما لا شك فيه أن القرن الرابع به فقهاء شاميين وعراقيين أئمة كبار لا نظن أنهم ينقصون عن أسلافهم فى العلم بأصول التشريع وطرق الاستنباط، ولكن لم تكن لهم الحرية التى تمتع بها أولئك الأسلاف[٥] . إذن فإن الأمصار لا تخلو من مجتهد فى القرن الرابع الهجرى وعلى حد قول الإمام السيوطى[٦] « لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة فى كل وقت ودهر وزمان ، وذلك قليل فى كثير ، فإما أن يكون غير موجود وهذا بعيد عن الصواب لأنه لو عدم المجتهدون لم تقم الفرائض كلها ، ولو بطلت

---

(١) العبر للذهبى ٧/٢، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٠٨/٢ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووى /٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ٢٣٩، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٠/ ٣٥٥، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢٣٦/٢ .

(٤) العبر للذهبى ١٣٣/٢ ، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة ٢٠٢/١ ، والفهرست لابن النديم ص ٢٤٩ .

(٥) تاريخ التشريع الإسلامى للخضرى ص ٢٣٦ .

(٦) الاجتهاد للإمام السيوطى تحقيق د/ فؤاد عبد المنعم ص ٢٥ ـ ٢٦ .

الفرائض كلها لحدث النقمة بذلك فى الخلق ، كما جاء فى الحديث : « لا تقوم الساعة إلاَّ علَى شِرار النَّاس »[1].

هؤلاء الفقهاء الذين ينتسبون إلى علمائهم لم يكن انتسابهم واقفًا بهم عند حدّ التقليد المحض ، بل كان لهم من الأعمال الجليلة ما يرفع شأنهم ويعلى قدرهم ، فمن ذلك :

أنهم قاموا بجمع الآثار ورجحوا بين الروايات وخرجوا علل الأحكام ، واستخرجوا من شتى المسائل والفروع أصول أئِمتهم وقواعدهم التى بنوا عليها فتاواهم ، وخاضوا معا مع الحجاج والمناظرة وأدلوا فيها بالبراهين الناصعة والحجج الدامغة ، وألفوا كتب الخلافيات ، وجمعوا فيها أحكام الأئمة وأدلتهم ، ونصر كل مذهب إمامه ودعم رأيه وزيف أدلة مخالفيه ، وأزالوا بذلك كل لبس وخفاء ، وأفتوا فى مسائل كثيرة لم يكن لأئمتهم فيها نص ، فهم مكملون مذاهب أئمتهم بما قاموا به من النظر فى ترجيح الأقوال والتخريج عليها والتنبيه على مسالك التعليل ، ومدارك الأدلة ، وبيان تنزيل الفروع على الأصول ، وإيضاح المشكل وتقييد المطلق ، ومقابلة بعض الأقوال ببعض ، والنظر فى تمييز قويها من ضعيفها[2]. والأمثلة على ما سبق كثيرة نوضحها من خلال ذكرنا لمشاهير فقهاء الشام والعراق وذكر مؤلفاتهم فى الفقه والأصول والخلافيات ونصرة المذهب وذكر مناقب صاحب المذهب وغير ذلك من الفروع والأصول .

التأثير والتأثر فى علم الفقه بين فقهاء الشام والعراق :

إن مبدأ التأثير والتأثر بين علماء الشام والعراق أمر واضح ليس فى علم الفقه وحده بل فى كثير من العلوم، ويرجع ذلك ـ كما سبق أن ذكرنا ـ إلى قرب المسافة بين الإقليمين، وإلى أن العراق حاضرة الدولة الإسلامية وقبلة العلماء ، وحوت العلوم والفنون والآداب ، فكان من الضرورى على كل من تعرض للعلم أن يزور بغداد

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الفتن رقم ٢٩٤٩ .

(٢) تاريخ التشريع للخضرى ٢٤٠ ـ ٢٤٣، وتاريخ التشريع د/ حسن سفر ص ١١٠ ـ ١١٤ .

حاضرة الخلافة العباسية ، وكذلك دمشق ازدهرت فيها الحضارة وكانت من قبل بغداد حاضرة الخلافة الأموية، ففيها من العلم والعلماء ما فيها ، فليس بصعب أن يتحقق أمر التأثير والتأثر بين فقهاء الشام وفقهاء العراق . أو تولى منصب القضاء فى الشام ويكون القاضى عراقياً ، أو فى العراق ويكون القاضى شامياً .

فمن فقهاء الشام الذين تأثروا بفقهاء العراق : أبو محمد بن أبى حاتم الرازى ت٣٢٧هـ، رحل مع أبيه فسمع من ثقات الشيوخ بالعراق ، ثم رحل مرة ثانية بنفسه بعد تمكن معرفته[(١)] .

وأبو القاسم التنوحى الحنفى ت ٣٤٢هـ سمع ببغداد من الحسن بن الطيب الشجاعى وعمر بن غيلان الثقفى وأبى القاسم البغوى وغيرهم[(٢)] .

وعبيد الله بن عمر القيسى الشافعى ت ٣٦٠هـ أخذ الفقه عن أبى سعيد الاصطخرى والقاضى المحاملى وكلاهما من العراق[(٣)] .

وأبو العباس بن القاص الطبرى الشافعى ت ٣٣٥هـ فقد تفقه على أبى العباس ابن سريج وهو بغدادى[(٤)] .

ومن فقهاء العراق الذين تأثروا بفقهاء الشام : أبو القاسم عمر بن الحسين الخرقى ت ٣٣٤هـ كان من سادات الفقهاء ببغداد ثم رحل إلى الشام ونزل دمشق وأقام بها[(٥)] .

وأبو طاهر محمد بن أحمد الذهلى البغدادى ت ٣٦٧هـ ولى القضاء بدمشق واستناب عليها[(٦)] ، وأحمد بن على أبو بكر الفقيه الرازى ت ٣٧٠هـ له مؤلفات كثيرة وهو فقيه مجتهد درس وجمع وتخرج به المتفقه ، وقد سمع عن أبى القاسم الطبرانى[(٧)] .

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢١/١٥ .
(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٧٧/١٢ .
(٣) غاية النهاية لابن الجزرى ٤٨٩/١ ـ ٤٩٠ .
(٤) العبر للذهبى ٥٠/٢ .
(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٣٤/١١ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٢٨/١١ .
(٦) العبر للذهبى ١٢٦/٢ .
(٧) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٧/١١ .

من مشاهير فقهاء الشام في ق ٤ هـ :

أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازى ت ٣٢٧هـ[(١)]

رحل به أبوه فسمع أبا سعيد الأشج ، والحسن بن عرفة وطبقتهما ، قال أبو يعلى الخليلي : أخذ علم أبيه وأبي زرعة ، وكان بحراً فى العلوم ومعرفة الرجال ، صنف فى الفقه ، واختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار[(٢)] . فهو عالم محدث ، عارف بالرجال فقيه أصولى متكلم ، مفسر . ولد عبد الرحمن بن أبي حاتم فى قماطر العلم والروايات ، وتربى بالمذكرات مع أبيه وأبي زرعة ، ثم تمت له النعمة برحلته مع أبيه ، فأدرك الإسناد وثقات الشيوخ بالحجاز والعراق والشام والثغور ، وسمع بانتخابه حتى عرف الصحيح من السقيم ، فترعرع فى ذلك ، ثم كانت رحلته الثانية بنفسه بعد تمكن معرفته[(٣)] .

صاحب كتاب الجرح والتعديل ، وله التفسير الحافل الذى اشتمل على النقل الكامل ، وله كتاب العلل المصنفة المرتبة على أبواب الفقه[(٤)] . وكتاب المبوب على أبواب الفقه ، وكتاب مناقب الشافعي[(٥)] . والرد على الجهمية ، والمسند وكتاب الضعفاء[(٦)] .

أبو العباس بن القاص أحمد بن أبي أحمد الطبرى الشافعي ت ٣٣٥هـ[(٧)]

قال الإمام النووى : أبو العباس بن القاص من أصحابنا أصحاب الوجوه المتقدمين

---

(١) انظر ترجمته في : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٩/١٥ ، والعبر للذهبى ٢٧/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٠٣/١١ ، وطبقات الفقهاء لابن كثير ٢٥٤/١ ـ ٢٥٥ ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ص٢٤٦ وشذرات الذهب لابن العماد ٣٠٨/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ١٠٩/٢ .

(٢) العبر للذهبى ٢٧/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٠٨/٢ .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢١/١٥ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٢٠٣/١١ .

(٥) طبقات الفقهاء الشافعية لابن كثير ٢٥٥/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٠٩/٢ .

(٦) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٠٩/٢ .

(٧) انظر ترجمته في : وفيات الأعيان لابن خلكان ٦٨/١ ، والعبر للذهبى ٥٠/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٣٢/١١ ، وتهذيب الأسماء واللغات للإمام النووى ٢٥٢/٢ ـ ٢٥٣ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٩٤/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٣٩/٢ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٦٢/٢ ، ٥٣/٥ ومعجم المؤلفين لكحالة ٩٥/١ .

الفقيه الشافعى ، إمام عصره له التصانيف المشهور[1]، تفقه على أبى العباس بن سريج[2]. له مصنفات كثيرة نفيسة من أنفسها « التلخيص » فلم يصنف قبله ولا بعده مثله ، فى أسلوبه وقد اعتنى الأصحاب بشرحه فشرحه أبو عبد الله القفال ثم صاحبه أبو على السنجى وآخرون[3]. وصنف كتبًا كثيرة : منها أدب القاضى والمواقيت والمفتاح[4] وفتاوى ونصرة القولين للإمام الشافعى[5]. ودلائل القبلة وأكثره تاريخ وحكايات[6].

جميع تصانيفه صغيرة الحجم كثيرة الفائدة ، وكان يعظ الناس ، فانتهى فى بعض أسفاره إلى طرسوس ، وقيل : إنه تولى بها القضاء فعقد له مجلس وعظ ، وأدركته رقة وخشية وروعة من ذكر الله تعالى فخر مغشيًا عليه[7]. وكان أبوه يقص على الناس الأخبار والآثار[8].

على بن محمد بن أبى الفهم أبو القاسم التنوحى ت ٣٤٢هـ[9]

وُلد بإنطاكية وقدم بغداد فى حداثته وتفقه بها على مذهب أبى حنيفة ، وكان قد سمع الحديث من الحسن بن أحمد بن حبيب الكرمانى، ومن أحمد بن خليل الحلبى ومن أحمد بن محمد بن أبى موسى الأنطاكى وغيرهم من الأنطاكيين، وسمع ببغداد من الحسن بن الطيب الشجاعى، وعمر بن أبى غِيلان الثقفى، وأبى القاسم البغوى وغيرهم[10]. وكان بصيراً بعلم النجوم قرأه على البنانِىِّ المنجم صاحب

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووى ٢٥٢/٢ ـ ٢٥٣ .

(٢) العبر للذهبى ٥٠/٢ .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووى ٢٥٣/٢ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦٨/١ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٥٣/٥ .

(٥) معجم المؤلفين لكحالة ٩٥/١ .

(٦) شذرات الذهب لابن العماد ٣٣٩/٢ ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ٢٥٣/٢ .

(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦٨/١ .

(٨) البداية والنهاية لابن كثير ٢٣٢/١١ .

(٩) انظر ترجمته فى : يتيمة الدهر للثعالبى ٣٩٣/٢ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٧٧/١٢ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٢٤١/٤ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٦٦/٣ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣١٠/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٦٢/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٠٣/٢ .

(١٠) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٧٧/١٢ .

الزّيج ، ويقال إنه كان يقوم بعشرة علوم، وتقلد القضاء بعدة نواحي من الثغور الشامية، وأوّل ولايته القضاء رياسة في أيام المقتدر بالله بعهد كتبه له أبو علي بن مقلة الوزير[1]. فقد كان فقيهاً حنفياً بارعا في الفقه والأصول والنحو ، وكان شاعرا فصيحاً وله ديوان شعر[2]. وكان من جملة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين[3].

فهو من أعيان أهل العلم والأدب وأفراد الكرم وحسن الشيم . وحين صرف عنه ورد حضرة سيف الدولة زائرا ومادحًا فأكرم مثواه وأحسن قراه ، وكتب في معناه إلى الحضرة ببغداد حتى أعيد إلى عمله وزيد في رزقه ورتبته[4].

ومن مؤلفاته : كتاب في الفقه والحديث ، وكتاب الفرج بعد الشدة ، وكتاب في علم العروض (القوافي) وديوان شعر[5].

أحمد بن سليمان بن أيوب بن داود بن عبد الله بن حزلم أبو الحسن الأسدى القاضي ت ٣٤٧هـ[6].

كان يذهب مذهب الأوزاعي في الفقه ، روى عن جماعة ، وروى عنه جماعة . وولي قضاء دمشق نيابة عن الحسين بن عيسى بن هزان ، وكان حزلم نصرانيًا من أهل الشبعاء[7] فأسلم على يد الحسن بن عمران السلمي الحرّاني صاحب خراج دمشق[8].

روى عن بكار بن قتيبة القاضي وطائفة وناب في قضاء بلده[9].

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ٢٤١/٤ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣١٠/٣ .

(٣) شذرات الذهب لابن العماد ٣٦٣/٣ .

(٤) يتيمة الدهر للثعالبي ٣٩٣/٢ .

(٥) معجم المؤلفين لكحالة ٥٠٣/٢ .

(٦) انظر ترجمته في : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩١/٣ ـ ٩٢، والعبر للذهبي ٧٦/٢، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٢١/٣، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٧٢/٢.

(٧) الشبعاء : قرية من قرى دمشق من إقليم بيت الآبار (معجم البلدان) .

(٨) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩١/٣ .

(٩) العبر للذهبي ٧٦/٢، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٧٤/٢ .

كان أحمد بن سليمان آخر من كانت له حلقة في جامع دمشق يدرس فيها مذهب الأوزاعي ، وكان شيخا جليلا من معدلي دمشق ، وكان على قضاء دمشق ، قال أبو القاسم تمام بن محمد الرازي الحافظ : كان القاضي أبو الحسن أحمد بن سليمان ابن حزلم له مجلس في الجمعة يملي فيه في داره فحضرنا مجلسه قال : رأيت النبي ﷺ في النوم وعن يمينه أبو بكر وعمر وعن يساره عثمان وعلي رضي الله عنهم في داري فجئت فجلست بين يديه وقال لي : يا أبا الحسن ، قد اشتقنا إليك فما اشتقت إلينا ؟ قال : فلم تمض له جمعة حتى توفي رحمه الله[1].

عبيد الله بن عمر بن أحمد بن محمد بن جعفر القيسي الشافعي ت٣٦٠هـ[2]

تفقه على مذهب الشافعي ، مقرئ محدِّث ، عالم بالأصول والفروع له كتب مؤلفة كثيرة في الفقه والقراءات والفرائض[3]. أخذ الفقه عن أبي سعيد الاصخطري والقاضي المحاملي، وعرض القراءات على ابن مجاهد وأحمد التائب وغيرهم . قال الفرضي : كان عالما بالأصول والفروع إماما في القراءات والفقه على مذهب الشافعي وغيره ، كثير التصنيف في أصول الأحكام وغير ذلك[4].

تفقه في بغداد على مذهب الشافعي وتحقق به وناظر فيه وأخد من المالكيين وكتب بالرقة ودمشق وحلب ومصر ، إماماً في مذهب الشافعي بصيراً به[5].

كثير التصنيف في أصول الفقه وغير ذلك[6]. قال ابن عساكر : وقد سمعت محمد بن أحمد بن يحيى ينسبه إلى الكذب ، ووقفت على بعض ذلك في كتاب «تاريخ أبي زرعة» الدمشقي .

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٩٢/٣ .

(٢) انظر ترجمته في : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥/ ٣٤٥، وطبقات القراء للذهبي ٣٤٢/١ وغاية النهاية لابن الجزري ٤٨٩/١ ـ ٤٩٠، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٣٥٢/٢ .

(٣) معجم المؤلفين لكحالة ٣٥٢/٢ .

(٤) غاية النهاية لابن الجزري ٤٨٩/١ ـ ٤٩٠ .

(٥) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥ / ٣٤٥ .

(٦) طبقات القراء للذهبي ٣٤٢/١ .

ولعبيد الله بن عمر هذا كتب مؤلفة كثيرة فى الفقه والحجّة والرد والقراءات والفرائض وغير ذلك[١] .

من مشاهير فقهاء العراق

أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقى الحنبلى ت ٣٣٤هـ[٢]

كان الخرقى من سادات الفقهاء والعباد كثير الفضائل والعبادة ، خرج من بغداد مهاجراً لما كثر بها الشر والسب للصحابة وأودع كتبه فى بغداد فاحترقت الدار التى كانت فيها الكتب وعدمت مصنفاته وقدم دمشق وأقام بها[٣] ، وكان من أعيان الفقهاء الحنابلة ، وصنف فى مذهبهم كتبا كثيرة ، وكان والده أيضا من الأعيان ، روى عن جماعة وروى عنه جماعة رحمهم الله أجمعين[٤] . اشتهر بكتابه « المختصر فى الفقه » على مذهب الإمام أحمد وقد ذكر فيه عن الحج : يأتى الحجر الأسود ويقبله إن كان هناك ، وإنما قال ذلك لأن تصنيفه لهذا الكتاب كان والحجر الأسود قد أخذته القرامطة وهو فى أيديهم سنة سبع عشرة وثلثمائة . وكانت له مصنفات كثيرة وتخريجات على المذهب الحنبلى لم تظهر بسبب احتراق داره بما فيها من كتب عندما خرج إلى دمشق[٥] .

ومن مؤلفاته : كتاب المختصر فى فروع الفقه الحنبلى ، ومصنفات كثيرة احترقت[٦] .

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٣٤٥/١٥ .

(٢) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٣٤/١١ ، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٥٧/١٨ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤٤١/٣ ، والعبر للذهبى ٤٧/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٢٨/١١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٣٦/٢ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٩٠/٣ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣١٤/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٥٧/٢ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٨/١١ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٣٤/١١ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٤١/٣.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٨/١١.

(٦) معجم المؤلفين لكحالة ٥٥٧/٢، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣١٤/٣.

وقد شرح كتابه المختصر كل من القاضى أبى يَعْلى وعبد الله بن أحمد بن قدامة[1] .

الحسن بن القاسم الطبرى الشافعى أبو على ت ٣٥٠هـ[2] .

درس الفقه على أبى على بن أبى هريرة وبرع فى العلم وسكن بغداد[3] . وهو أحد الأئمة المحررين فى الخلاف ، وهو أول من صنف فيه[4] ، درس ببغداد بعد أستاذه أبى على بن أبى هريرة وعلق عنه التعليقة المشهورة المنسوبة إليه عندما شرح ابن أبى هريرة (مختصر المزنى) علق عنه الشرح أبو على الطبرى[5] .

ومن مؤلفاته : كتاب « المحرر » فى النظر ، وهو أول كتاب صنف فى الخلاف المجرد ، وكتاب « الإفصاح » فى الفقه ، وكتاب « العدة » وهو كبير يدخل فى عشرة أجزاء ، وصنف كتاباً فى الجدل ، وكتابا فى أصول الفقه[6] . وله كتاب الإيضاح فى المذهب[7] ، وكتاب مختصر مسائل الخلاف فى الكلام والنظر[8] .

أحمد بن على أبو بكر الفقيه الحنفى الرازى ت ٣٧٠هـ[9]

أحد أئمة أصحاب أبى حنيفة ، وهو تلميذ أبى الحسن الكرخى ، وكان عابداً

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣١٤/٣ .

(٢) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص٣٠١ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٨٧/٨ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٧٦/٢ ، والعبر للذهبى ٨٤/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٥٤/١١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣/٣ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٥٧٨/١ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٨٧/٨ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٤/١١ .

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٥/٢ ـ ٧٦ .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٦/٢ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٨٧/٨ .

(٧) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٤/١١ .

(٨) الفهرست لابن النديم ص٣٠١ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٧٨/١ .

(٩) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣١٤/٤ ، والفهرست لابن النديم ص٢٩٣ ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ٩/٩ ، والعبر للذهبى ١٣٣/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٣١٧/١١ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٣٨/٤ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٧١/٣ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٩٠/١ ، ١٤٤ ، ٤٤٤ ، ٥٢٣/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢٠٢/١ .

زاهدا ورعاً ، انتهت إليه رياسة الحنفية فى وقته ، ورحل إليه طلبة العلم من الآفاق وقد سمع الحديث عن أبى العباس الأصم وأبى القاسم الطبرانى ، وقد أراد الخليفة الطائع أن يلى القضاء فلم يقبل(١) .

قال أبو المظفر فى تاريخه : وحال أبى بكر الرازى كان يزيد على حال الرهبان من كثرة التقشف(٢) . وهو إمام الحنفية فى زمانه(٣) . له عدة مصنفات روى فيها عن الأصم وغيره(٤) .

وله مؤلفات كثيرة منها :

شرح الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى ، وشرح مختصر الطحاوى فى فروع الفقه الحنفى وأحكام القرآن ، وكتاب فى أصول الفقه ، وشرح كتاب الخصاف فى أدب القاضى على مذهب أبى حنيفة(٥) . واختلاف العلماء وشرح الجامع الصغير فى الفروع لمحمد بن الحسن الشيبانى ت ١٨٧ هـ ، وجوابات المسائل ، ومختصر الكرخى فى الفروع الحنفية(٦) ، وكتاب المناسك(٧) .

أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى بن حميد بن حماد بن داود المعروف بابن طراف الجريرى النهروانى القاضى ت ٣٩٠هـ(٨)

كان يذهب إلى مذهب ابن جرير الطبرى ، وكان من أعلم الناس فى وقته بالفقه والنحو واللغة ، وأصناف الأدب ، وقد ولى القضاء نيابة عن ابن صنبر(٩) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٧/١١.

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٣٨/٤ .

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٩/٩ .

(٤) العبر للذهبى ١٣٣/٢.

(٥) معجم المؤلفين لكحالة ٢٠٢/١ .

(٦) كشف الظنون لحاجى خليفة ٩٠/١ ، ١٤٤ ، ٤٤٤ ، ٥٢٣/٢ .

(٧) الفهرست لابن النديم ص ٢٩٤ .

(٨) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد ٢٣٠/١٣ ، ومعم الأدباء لياقوت ٥٠٧/٥ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٢١/٥ ، والعبر للذهبى ١٨٠/٢ ، البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٨/١١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٣٤/٣ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٨٩٥/٣.

(٧) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٣/ ٢٣٠ .

روى عن جماعة من الأئمة منهم أبو القاسم البغوى ، وأبو بكر بن أبى داود ، ويحيى بن صاعد ، وأبو سعيد العدوى وغيرهم ، وروى عنه جماعة من الأئمة منهم أبو القاسم الأزهرى ، والقاضى أبو الطيب الطبرى الفقيه الشافعى وغيرهم(١) .

وكان ثقة مأمونا عالما فاضلاً كثير الآداب والتمكن فى أصناف العلوم(٢) .

حضر أبو الفرج فى دار لبعض الرؤساء فى العلم وكان هناك جماعة من أهل العلم والأدب ، فقالوا له : فى أى نوع من العلوم نتذاكر ؟ فقال المعافى لذلك الرئيس: خزانتك قد جمعت أنواع العلوم ، وأصناف الأدب فإن رأيت أن تبعث وننظر فى أى نوع هو فنتذاكره ونتجارى فيه(٣) .

يتضح من ذلك موسوعية علم أبو الفرج المعافى فى سائر العلوم .

ومن مؤلفاته : الجليس الصالح الكافى والأنيس الناصح الشافى ، والحدود والعقود فى أصول الفقه ، والمحاضر والسجلات ، وتفسير القرآن الكريم فى ست مجلدات والمرشد فى الفقه(٤) .

الحسن بن حامد بن على بن مروان أبو عبد الله الوراق الحنبلى ت٤٠٣هـ(٥)

كان أبو عبد الله الوراق مدرس أصحاب أحمد وفقيههم فى زمانه ، وكان له المصنفات العظيمة(٦) ، روى عن النجاد وغيره وتفقه على أبى بكر عبد العزيز وكان قانعاً، يأكل من النسخ أى ينسخ الكتب بالأجرة ، ويتقوت منه ، وكان يكثر الحج(٧) .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٢١/٥ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٥٠/١١ .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٣٠/١٣ .
(٤) معجم المؤلفين لكحالة ٨٩٥/٣ .
(٥) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٠٣/٧، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ٢٤٢/٩ والعبر للذهبى ٢٠٥/٢ ، البداية النهاية لابن كثير ٣٧٣/١١ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٣٢/٤ وشذرات الذهب لابن العماد ١٦٦/٣ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٥٤٤/١ .
(٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٠٣/٧ .
(٧) العبر للذهبى ٢٠٥/٢ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٣٢/٤.

وكان معظمًا فى النفوس ، مقدمًا عند السلطان والعامى روى الحديث عن أبى بكر الشافعى وابن مالك القطيعى وغيرهما[(١)] .

وكان للحسن بن حامد الوراق الحنبلى المقام المشهود فى أيام الخليفة القادر وقد ناظر أبا حامد الأسفراييني فى وجوب الصيام ليلة الغمام فى دار القادر بالله ، بحيث سمع الخليفة الكلام فخرجت الجائزة السنية له من أمير المؤمنين فردها مع حاجته إلى بعضها فضلاً عن جميعها تعففاً وتنزهاً[(٢)] .

له المصنفات المشهورة منها كتاب « الجامع فى اختلاف العلماء » فى أربعمائة جزء وشرح الخرقى ، وشرح أصول الدين ، وشرح أصول الفقه ، وعليه اشتغل أبو يعلى الفراء[(٣)] .

أحمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الفقيه الاسفراييني ت ٤٠٦ هـ[(٤)]

قدم بغداد وهو حدث ، فدرس فقه الشافعى على أبى الحسن بن المرزبانى ، ثم على أبى القاسم الداركى وأقام ببغداد مشغولاً بالعلم حتى صار أوحد وقته ، وانتهت إليه الرياسة وعظم جاهه عند الملوك والعوام ، قال الخطيب البغدادى : وقد رأيته غير مرة وحضرت تدريسه فى مسجد عبد الله بن المبارك ، وهو المسجد الذى فى صدر قطيعة الربيع ، وسمعت من يذكر أنه كان يحضر درسه سبعمائة متفقه ، وكان الناس يقولون: لو رآه الشافعى لفرح به[(٥)] .

وكان فقيها إمامًا جليلاً نبيلاً ، شرح مختصر المزنى فى تعليقة حافلة نحوا من

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣٧٣/١١ .

(٢) شذرات الذهب لابن العماد ١٦٧/٣ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣١٥/٣ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣٧٣/١١ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٤٤/١ .

(٤) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٦٨/٤ ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ٢٦٢/٩ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٣/١ ، والعبر للذهبى ٢١١/١ ، والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ١٤٥/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/١٢ ، وطبقات الفقهاء الشافعيين لابن كثير ٣٤٥/١ ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ٢٠٨/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٧٨/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢٤٠/١ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٦٨/٤ ـ ٣٦٩ .

خمسين مجلدا ، وله تعليقة أخرى فى أصول الفقه[1] . وكان يتوسط بين الخليفة القادر وبين السلطان محمود بن سبكتكين[2] . واتفق الموافق والمخالف على تقدمه وتفضيله فى جودة الفقه وحسن النظر ونظافة العلم ، وأفتى وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام يفتى إلى ثمانين سنة[3] . وكان أبو حامد يقول : ما قمت من مجلس المناظرة قط فندمت على معنى ينبغى أن يذكر فلم أذكره .

قيل : إن أبا حامد طبق الأرض بالأصحاب ، وله فى المذاهب كتب كثيرة واتفق أهل عصره على تفضيله وتقديمه فى جودة النظر[4] .

من مؤلفاته : شرح المزنى فى تعليقه نحواً من خمسين مجلداً ذكر فيه مذاهب العلماء وبسط أدلتها والجواب عنها ، وله تعليقة أخرى فى أصول الفقه وكتاب البستان وهو صغير وذكر فيه غرائب[5] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/١٢ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٢٩/٤.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووى ٢٠٩/٢ ـ ٢١٠ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٣/١ ـ ٧٤ .

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٤/١ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢٤١/١ .

الباب الثالث

العلوم اللغوية في الشام والعراق في القرن الرابع الهجري

الفصل الأول
علم اللغة فى الشام والعراق

علم اللغة قبل القرن الرابع فى كل من الشام والعراق :

من المعروف أن علم اللغة يعنى معرفة معانى ألفاظها المفردة ، وأول ما وضع الأئمة فيه رسائل وكتبًا صغيرة فى موضوعات خاصة ، لما ظهر الخليل بن أحمد ت١٧٥هـ أحصى ألفاظ اللغة بطريقة حسابية فى كتاب ، ورتبه على حروف المعجم مُقدِّما حروف الحلق ، ومبتدئًا منها بحرف العين ، ولذلك سُمى « كتاب العين » .

ثم ألف أبو بكر بن دريد معجمه العظيم الذى سماه « الجمهرة » مرتبًا على حروف المعجم بترتيبها المعروف .

يعتبر القرن الثالث الهجرى عصر انتقال فى اللغة ، فقد ظفر نهاية القرن الثانى بأول محاولة فى ضبط اللغة وعمل المعاجم ، حين وضع الخليل بن أحمد منهج كتاب العين لتلميذه الليث بن المظفر [١] . ولا ريب أن كتاب العين ، مع علوّ قدر الخليل، لا يمثل علمه وضبطه للغة ، إذ وقع فيه كثير من الأخطاء التى أخذها عليه العلماء ، ولذلك هبَّ العلماء من أهل اللغة فى القرن الثالث واستدركوا ما فيه من تصحيف وتحريف[٢]، واستكملوا ما فاته من نقص ، فوضعوا المعاجم الواسعة ، لكنها كانت على طريقة الخليل نفسها من حيث ترتيب حروف المعجم على المخارج الصوتية والابتداء بحروف الحلق ، وأولها حرف العين . ومن مشاهير كتب اللغة التى نسجت على منوال العين كتابِ الجمهرة لأبى بكر بن دريد ت ٣٢١هـ . وهو وإن خلا من كثير من العيوب التى وجدت فى كتاب العين ، لم يخل من مآخذ ، فقد أخذ عليه العلماء بعض الألفاظ التى لم يروها الثقات وانفرد بها ابن دريد ، كما أن فى طريقته فى شرح الكلمة وتقليب صيغها كثيراً من الصعوبة وخاصة على الباحث الذى يؤثر السرعة فى الوصول إلى غايته من كتب اللغة[٣] .

أما من ناحية جمع اللغة فهذا أمر يسبق القرن الثالث ويعود ذلك إلى العلماء

---

(١) انظر المزهر للسيوطى ٧٦/١، ٧٧ .

(٢) ممن ألف فى الاستدراك على الخليل فى كتاب العين أبو طالب المفضل بن سلمة الكوفى ت٢٥٠هـ ـ المزهر للسيوطى ٨٦/١ .

(٣) انظر المزهر للسيوطى ٩٢/١، تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم ٤٠٠/٣ ـ ٤٠١ .

الأوائل الذين استقروا فى البصرة فى القرن الأول الهجرى ، حيث كانت منبع الاهتمام باللغة ، وكانت الكوفة المدينة الثانية بعد البصرة فى الاهتمام باللغة العربية ، ونشأت علوم اللغة وتطورت عن طريق المسجد كمعهد للعلم ومركز للعلوم المتنوعة ودور الخلفاء والأمراء والوزراء والأغنياء ، ومجالس المناظرة ، والرحلات العلمية ، مما جعل هذه المراكز الثقافية تثمر عن نوعين من الدراسة هما : الدراسة اللغوية والدراسة النحوية . واستمرت العناية باللغة ، مما أدى إلى تنشيط حركة جمع اللغة ، واهتم بذلك جمع من العلماء أخذوا على عاتقهم جمع اللغة وروايتها حفظا أو تدويناً للاحتجاج بها . ومن العلماء من اهتم بتربية أولاد الخلفاء وكبار رجال الدولة ، ومنهم من اهتم بالتتبع والتقصى والتوسع فى الضبط والتحليل والتفسير . وصنفوا مصنفات لغوية ، منها ما كان فى لغات العرب وغريب القرآن والحديث النوادر[1] ، ومنهم من جمع لغة العرب وأحصى موادها وذكرها مصنفة مبوبة ، وتلك هى المعاجم التى كان أولها وأشهرها معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدى ت١٧٥هـ[2] .

علم اللغة فى القرن الرابع الهجرى

أولاً : فى الشام

أخذ علماء اللغة يدرسون اللغة ويقارنون بها ما جاء فى كتاب الله العزيز من ألفاظ وأساليب وعبارات مشكلة المعانى، ويضعون الحدود والأصول معتمدين على المادة اللغوية التى كانت بين أيديهم ، فكان اهتمامهم بها أمراً ملحوظاً .

كل ذلك أول ما ظهر ظهر فى بلاد العراقِ دون الشام وخاصة البصرة والكوفة ، أما أهل الشام فقد اعتنوا بتعلم العربية حتى يحسن النطق بالذكر الحكيم ، وبمجرد أن تحولت مقاليد الحكم إلى الأمويين ازدادت الرغبة فى معرفة العربية ، ومضت الشام تعنى بتعلم العربية واتقانها حتى القرن الرابع الهجرى وظهرت مدينة حلب صاحبة نهضة فكرية تنافس بغداد والبصرة والكوفة ، لما فيها من حياة أدبية وعلمية باهرة يقودها سيف الدولة الحمدانى ، وقد برع فى اللغة وعلومها الحسين بن خالويه ، وأبو

(١) انظر حضارة العراق للدكتورة خديجة الحديثى ٢٠٧/٧ ، ٢٠٨ .
(٢) انظر المزهر للسيوطى ٧٦/١ .

الطيب اللغوى ، وابن جنى ، وأبو على الفارسى أثناء وجوده فى حلب وكل منهم له مؤلفات عظيمة فى هذا العلم[1].

لقد فتح القرن الرابع الهجرى فتحًا جديداً فى عمل المعاجم ، وتخلص علم اللغة من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية ، فطريقة علماء اللغة هى الإملاء كطريقة المحدثين وقد انقطعت طريقة علماء اللغة وبقيت طريقة المحدثين غير أن العالم الشامى أبو القاسم الزجاجى آخر من أملى على طريقة اللغويين ، وله أمال كثيرة[2].

شَعَرَ أئمة اللغة فى القرن الرابع بالحاجة إلى منهج يسيرون عليه وإلى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة ، حيث كانوا من قبل يضعون معارفهم بعضها إلى جانب بعض مفككة لا رباط بينها ، وكان اهتمامهم ينصب على الجزئيات على حادثة واحدة أو صورة واحدة من صور التعبير ، أو كلمة واحدة، كما نجد ذلك عند أبى عمر محمد بن عبد الواحد اللغوى ت ٣٤٥هـ، حيث كان يجعل كلامه بحسب أسئلة الحاضرين[3]. وأكبر ما تم على أيدى علماء اللغة هو تحديد معانى الكلمات وعمل المعاجم .

دراسة جديدة للاشتقاق ا للغوىّ خلال القرن الرابع :

ظهرت فى القرن الرابع دراسة جدّية للاشتقاق اللغوى ، وبقيت عصراً طويلاً ، وكان أستاذ هذه الدراس « ابن جنى ت ٣٩٢هـ » وهو الذى ينسب إليه البحث الذى لا يزال يؤتى ثمره فى علم اللغة ، وهو المسمى « بالاشتقاق الأكبر » وهو الذى يختص بمادة الكلام دون هيئتها ، ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا ، وكان شيخه أبو على الفارسى يأنس به يسيراً ، يقول الإمام السيوطى : « إنما

---

(١) انظر مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢٢٤.

(٢) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى ١٩٩/٢.

(٣) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٤١٦/١ ، ٤١٧ .

جعله أبو الفتح ـ أى الاشتقاق الأكبر ـ بيانا لقوة ساعده وردّه المختلفات إلى قدر مشترك »[1].

إن فكرة الاشتقاق فى الأصل هى لأبى على الفارسى وجاء ابن جنى فوسعها وقال : إن أبا علىّ ـ رحمه الله ـ كان يستعين بالاشتقاق الكبير ويخلد إليه وسماه ، وكان يعتاده عند الضرورة ، ويستريح إليه ، ويعنى بالاشتقاق الكبير ، حصر أصول الكلم وتقليبها على وجوهها المختلفة ، واستخراج التباديل والتوافيق منها ، والمقارنة بينها فى المعانى ، مثل كلمة (كَلّم) فتحولها إلى كمل ، مكل ، لكم ، إذا اجتمعت دلت على القوة ، وتستخرج معنى القوة من كل هذه الألفاظ[2].

لقد توسع أبو على الفارسى وابن جنى فى الاشتقاق توسعًا كبيراً أدخل كلمات كثيرة لم تكن ينطق بها إلى غير ذلك، دفعهم إلى ذلك انتشار الحضارة واتساع الدولة الإسلامية مما جعلهم أيضا يقفون على أنواع من النبات والحيوان والطعام وسائر مرافق العمران ، وإدخال ذلك كله فى معاجمهم واشتقوا منها ، فكانت ظاهرة بارزة من مظاهر القرن الرابع الهجرى .

ظاهرة انتشار العامية بجانب الفصحى :

كان من مظاهر القرن الرابع الهجرى انتشار اللغة العامية بجانب اللغة الفصحى ، فكان لكل إقليم إسلامى لغته ولهجته الدارجتان ، مما جعل علماء اللغة يهتمون بدراسة لغة العامة ، وما يعرض فيها من خطأ ، فألف ابن خالويه ت ٣٧٠هـ بحلب كتاب « ليس فى كلام العرب »[3].

وقد تميزت اللغة العامية عن الفصحى ، وجرتا جنبًا إلى جنب ، يتكلم أكثر الناس العامية ، وأقلهم اللغة الفصحى ، وكان هذا التمييز واضحًا فى قلب أكثر الكلمات التى تحتوى على الصاد سينا : كصراط وسراط ، وأهمها إسكان آخر الكلمات ، لأن الإعراب الصحيح لا يتقنه إلا سكان البوادى من الأعراب ، وحتى

(١) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى ٣٤٧/١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٥٣.
(٢) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٩٢/٢ .
(٣) بغية الملتمس لأحمد بن يحيى الضبى ص ٥٦ طبعة مجريط سنة ١٨٨٤م.

اللغة العامية ظهرت فى أشعار القرن الرابع الهجرى . كما انتشرت أيضا ظاهرة توسيع اللغة عن طريق القياس والتوسع فى الاشتقاق كما سبق أن بينا ، وكان رافع علم هذه الظاهرة أبو على الفارسى وابن جنى .

وهذان العالمان خرجا بطريقة جديدة تخالف طريقة الآخرين ، من طبيعتهم أن يردّوا ما لم يرد فيه نص إلى ما ورد فيه نص ، كما فعل الفقهاء الحنفية تماما .

وكذلك فعل الشعراء منهم من لا يستعمل الكلمة إلا إذا ثبتت عنده فى اللغة ، ومنهم من يجرؤ فيبتكر الكلمة أو يقيسها على غيرها [1] .

عدم اقتصار علماء اللغة على المعاجم فقط :

لم يقتصر علماء اللغة على تأليف المعاجم ، وإنما ألفوا كتبًا كثيرة فى الاشتقاق والتصريف وأصول النحو واللغة ، وعلى رأس هؤلاء أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى القطب فى لسان العرب وإليه انتهت الرياسة والأدب[2] .

وقد أفرد الاشتقاق بالتأليف جماعة من علماء الشام أيضا كأبى القاسم الزجاجى ت ٣٤٠هـ، وأبى عبد الله بن خالويه ت ٣٧٠هـ[3]، وقال عنه الثعالبى : « استوطن ابن خالويه حلب وصار بها أحد أفراد الدهر فى كل قسم من أقسام الأدب والعلم»[4] .

ومما ذكره الزجاج من الاشتقاق الأكبر على سبيل المثال : قال : قولهم شَجَرْتُ فلانًا بالرمح ، تأويله جعله فيه كالغصن فى الشجرة »[5] كما كان له كتاب اشتقاق أسماء الله تعالى وصفاته المستنبطة من التنزيل[6]، ولابن خالويه كتاب « ليس » نقل

---

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٨٨/٢، ٨٩ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ١٣٧/١ .

(٣) انظر المزهر فى علم اللغة للسيوطى ٣٥١/١ .

(٤) يتيمة الدهر للثعالبى ١٣٦/١.

(٥) المزهر في علم اللغة للسيوطى ٣٥١/١ .

(٦) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٥/٢ ـ ١٧٦.

منه السيوطى فى كتابه « المزهر فى علوم اللغة »[١] . ولابن جنى كتب كثيرة منها على سبيل المثال : « الخصائص » ، والمنهج فى اشتقاق أسماء شعراء الحماسة[٢].

ثانياً : فى العراق

إن أول من اهتم باللغة وصيّرها علمًا وصناعة هم أهل البصرة والكوفة من بين أمصار العرب ، وهم الذين اهتموا بجمع لغة العرب وجعلوا دراستها علمًا وألفوا فيها الكتب ، ثم أخذ ذلك عنهم ونقل ونشر فى البلدان العربية والإسلامية.

واستمرت العناية فى البصرة باللغة وجمعها إقراء وواكبت تلك الحركة اقراء القرآن وتفسير غريب آياته وألفاظه وتوضيح أحكامه، والعمل على نشره من قبل حلول القرن الرابع الهجرى ، ثم أخذ علماء العربية والإقراء يدرسون هذه اللغة ويقارنون بها ما جاء فى كتاب الله العزيز من ألفاظ غريبة على الدارسين ، ومن أساليب وعبارات مشكلة المعانى ، ويضعون الأصول والحدود، معتمدين على هذه المادة اللغوية التى بين أيديهم، ولشدة حرصهم على اللغة وضعوا شروطاً خاصة بمن ينقل اللغة والمنقول منها والمتكلم بها وحدود المكان الذى يصح النقل عن أصحابه، والزمان الذى يتحدد به النقل ولا يتعداه[٣] .

لقد اهتم علماء اللغة بالفصيح من الألفاظ، ووضعوا له صفات تميزه من غيره وشروطا يجب أن تكون فيه ، وأخرى يجب أن يخلو منها ، وكان أول من ألف فى ذلك خلال القرن الرابع الهجرى أبو على القالى ت ٣٥٦هـ، فله كتاب «الأمالى» من نوع كتاب «الكامل» للمبرد ، أملاه فى جامع الزهراء بقرطبة ، وقد أقام ببغداد خمسة وعشرين سنة وأقام بالموصل زمناً ، وله كتاب «البارع فى اللغة» بناه على حروف المعجم، جمع فيه كتب اللغة ، يشتمل على ثلاثة آلاف ورقة ، قال الزبيدى : ولا نعلم أحداً من المتقدمين ألف مثله ، وقيل : لم يصنف مثله فى الإحاطة والاستيعاب إلى كتب ارتجلها وأملاها عن ظهر قلب كلها[٤].

---

(١) المزهر للسيوطى ٣/٢ ، ٦٢ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٤٧/٣ .

(٣) هذا الأمر بتفصيل واضح فى المزهر للسيوطى ١٣٧/١ ـ ١٦٧ .

(٤) معجم الأدباء لياقوت ٣٠٤/٢ ـ ٣٠٥ .

وإن من اهتمام أهل اللغة بها أنهم حَدَّدوا من أين تؤخذ اللغة ، فقد نقل الإمام السيوطى عن كتاب « الألفاظ والحروف » لأبى نصر الفارابى ت ٣٥٠هـ قوله : « ... وبالجمل فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط، ولا عن سكان البرارى، ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وأياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيف وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم، والذى نقل اللغة واللسان العربى من هؤلاء وأثبتها فى كتاب فصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب »[١] .

يتضح من هذا النص السابق أن علماء اللغة البصريين والكوفيين هم الذين اهتموا بجمع لغة العرب وجعلوا دراستها علماً ، وألفوا فيها الكتب ، ثم أخذ هذا عنهم ونقل ونشر فى البلدان العربية والإسلامية .

أئمة اللغة وبعض الظواهر الجديدة :

شَعَرَ أئمة اللغة فى القرن الرابع بإقليم العراق بالحاجة الشديدة إلى منهج يسيرون عليه ، وإلى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة ، وأكبر ما تم على أيدى علماء اللغة هو تحديد معانى الكلمات وعمل المعاجم، وإن أشهر من كتب فى ذلك القرن الحسن العسكرى ت ٣٩٥هـ، كما يتجلى ذلك فى كتاب «الصحاح» للجوهرى إسماعيل بن حماد ت ٣٩٣هـ ، وتدل كل مقارنة لهذا المعجم بالمعجم الكبير الذى ألفه ابن دريد المتوفى عام ٣٢١هـ ، على مقدار التقدم فى المنهج وفى الوضوح . وكل المعاجم التى عملت بعد الجوهرى هى أشبه بتوسيع وشرح لقاموسه[٢] .

---

(١) المزهر فى علوم اللغة للإمام السيوطى ٢١١/١ ـ ٢١٢ .

(٢) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٤١٨/١ ـ ٤١٩، انظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع للدكتور محمد عيسى ١٠٦/٢ .

كما ظهرت فى القرن الرابع بالعراق دراسة جديدة للاشتقاق اللغوى، وبقيت عصراً طويلاً، وكان أستاذ هذه الدراسة فى العراق ابن جنى ت ٣٩٢هـ، كما كان ينسب إليه الإبداع الجديد فى علم اللغة وهو المسمى بالاشتقاق الأكبر[١]. وكان من قبل أستاذاً للاشتقاق بالشام فكانت حياته موزعة بين الشام والعراق .

وظهرت أيضاً خلال القرن الرابع ظاهرة انتشار العامية بجانب اللغة الفصحى فكان للعراق لغته ولهجته ، وتميزت اللغة العامية عن الفصحى، وكان هذا التميز واضحاً فى قلب أكثر الكلمات التى تحتوى على الصاد سيناً ، وأهمها إسكان آخر الكلمات ، ومنها قلب الضّاد ظاء ، حتى أنها تحتوى فى أشعار القرن الرابع وخصوصاً فى بغداد لكثرة لغتها الفارسية ، مثل كلمة لقلق ، وصوابها لقلاق ويظهر كثير من ذلك فى شعر ابن حجاج[٢].

كانت تلك الظاهرة من أقصى ما واجهه اللغويون، وحاولوا دفعه على ألسن المتكلمين بالعربية ، سواء كانوا عرباً فسدت سليقتهم بمخالطة الأعاجم أو أعاجم دخلوا فى الدين الإسلامى وخالطوا العرب وحاولوا التكلم بالعربية فافسدوا هذه اللغة وغيروا من ظواهرها الصوتية أو الصرفية أو النحوية ، وقد ألف علماء اللغة كتبًا فى ذلك يردون كل لحن إلى أصله العربى، ويذكرون الأصل الصحيح للألفاظ والعبارات . كما سبق أن بينا فى الفكرة السابقة ، وقد ذكر الإمام السيوطى أمثلة كثيرة من لحن العامة والرد عليه[٣].

أهم ما جدّ فى التأليف اللغوى :

كان المعجم أهم ما جدّ فى التأليف اللغوى بعد هذه الكتب المتنوعة فى التأليف والموضوعات . قد اكتشف الخليل بن أحمد فكرة المعجم وحاول تحقيقها قبل القرن الرابع الهجرى ، وقد بعث « معجم العين » للخليل نشاطاً ملحوظاً فى حركة التأليف،

---

(١) المزهر للسيوطى ٣٤٧/١ .

(٢) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٨٩/٢ .

(٣) المزهر للسيوطى ٣٠٤/١ ـ ٣٢١ .

إذ ألفت عليه كتبٌ ودراسات كان منها ما أغفله الخليل ، فألف أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الكرماني الوراق ت ٣٣٩هـ كتاب « ما أغفله الخليل فى كتاب العين»[١] . وألف أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد ت ٣٤٥هـ «فائت العين»[٢] .

وألف آخرون كتبًا تدافع عن العين مثل ما ألفه ابن دريد ت ٣٢١هـ[٣] وعبدالله ابن جعفر بن درستويه . وألف أبو على القالى البغدادى ت٣٥٦هـ كتاب « البارع » واتبع فيه منهج الخليل فى « العين »[٤] . وألف ابن دريد كتاب « الجمهرة » على منهج يختلف مع منهج الخليل[٥] .

وهكذا نجد اللغويين العراقيين قد خاضوا فى موضوعات اللغة المختلفة ، وصنفوا فى كل فرع من فروعها ، وكل هذا يدل على مدى اهتمام علماء العربية فى العراق بلغة القرآن ، وأوضحوا الطريق فى سبيل أن تصل هذه اللغة سليمة سهلة المتناول .

التأليف فى علم اللغة عند أهل الشام

إذا كان علماء العراق لهم باع طويل فى التأليف فإن علماء الشام أيضًا قد صنفوا فى علم اللغة ، حيث اهتم علماء اللغة بالتأليف فى موضوعات تمس ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه ، وتوضيح غريبه وغريب ألفاظ الحديث الشريف، وكان من أوائل من صنفوا فيها: القاضى نور الدين أبو الثناء الحموى ت ٣٣٤هـ صاحب كتاب « التقريب فى علم الغريب »[٦] وألف الزّجاجى معانى القرآن وإعرابه أيضاً[٧] .

كما أنهم بحثوا وألفوا فى مشكل القرآن وإعرابه ، وما يخص النقط والشكل فى القرآن الكريم ، وتكلموا على « اللامات » فى القرآن، وألفوا فيها كتبًا ، والوقف

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ٣٥١/٥ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٣٦٤/٥ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ٣٠١/٥ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٢٦/١.

(٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ٤٧٤/١ .

(٦) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ١١٨ .

(٧) فهرس المخطوطات العربية المصورة لفؤاد سيد ، قسم التفسير ٣٤/١ رقم ١٤٨ .

والابتداء، ومن أشهر من كتبوا فى ذلك : ابن خالويه ت ٣٧٠هـ صاحب «إعراب ثلاثين سورة من القرآن»[١]، وأبو القاسم الزجاجى ت ٣٤٠هـ له كتاب «حروف المعانى وكتاب اللامات»[٢]. وإعراب القرآن لأبى على الفارسى[٣]، والوقف والابتداء لابن جنى[٤].

إن الوازع الدينى فى الحفاظ على لغة القرآن والحديث جعلهم لم يفتروا عن البحث والدراسات والتأليف لصالح اللغة ، مما جعلهم يواجهون أقصى عقبة أمامهم وهى اللحن فى الكلام وشيوعه فى لغة العامة ، وعلى ألسن المتكلمين بالعربية ، فقد ألفوا الكتب التى ترد على ذلك وتبين اللحن والتحريف وذكر الأصل للكلمات التى لحنوا فيها ، فلم يدخر علماء اللغة فى الشام خلال القرن الرابع أى جهد فى سبيل الدفاع عن اللغة ، ومن أشهر من كتب فى ذلك ابن خالويه ، كتب « كتاب ليس فى لغة العرب » قال عنه السيوطى أنه كتاب حافل فى ثلاثة مجلدات ضخمة ، ونقل منه فى المزهر[٥].

لم يقتصر اهتمامهم على ما تقدم من تأليف ، بل ألفوا فى مسائل جزئية تتعلق بصوت من أصوات اللغة ، اختلفوا فى نطقه باختلاف لهجاتهم ذلك هو « الهمزة » فقد انصرف العلماء إلى التأليف بسبب أن من العرب من يحققه ومنهم من يخففه ومنهم من ينطقه بين التحقيق والتخفيف ، فكان من بين هؤلاء العلماء ابن جنى فقد ألف كتاباً فى الهمز وسماه « ما يحتاج إليه الكاتب من مهموز ومقصور وممدود مما يكتب بالألف والياء » ، وله أيضا كتاب « الألفاظ من المهموز »[٦].

كما ألف علماء الشام فى موضوعات لغوية صرفية كأبنية الأسماء والأفعال وما اشتق منها ، وكان التأليف فيها فى اتجاهين تأليف فى الأسماء وتأليف فى الأفعال

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢١٤ .
(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٥/٢ ـ ١٧٦ .
(٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٩٣/٢ .
(٤) الفهرست لابن النديم ص ١٢٨ .
(٥) الفهرست لابن النديم ص ١٢٤ ، والمزهر للسيوطى ٣/٢، ٦٢ .
(٦) الفهرست لابن النديم ص ١٢٨ ، وحضارة العراق د. خديجة الحديثى ٢١٩/٧ ـ ٢٢٠ .

وأشهر من كتب في ذلك : ابن خالويه له كتاب الاشتقاق ، وكتاب اشتقاق الشهور والأيام[١]، ولابن جنى أيضا كتاب « الاشتقاق »، وهو مؤسس مبدأ الاشتقاق الذى يبحث عما بين الصوت والمعنى من التناسب[٢]. يقول السيوطى : « أفرد الاشتقاق بالتأليف جماعة من المتقدمين منهم ابن خالويه »[٣].

هكذا نجد علماء اللغة بالشام أو من نزلوا بها قد خاضوا في موضوعات اللغة وصنفوا في فروعها ، وإن دل فإنما يدل على مدى الاهتمام الموجه منهم إلى لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

وعاصرت أكبر حركة أدبية في الشام خاصة في الأدب واللغة بلاط الحمدانيين في حلب وخاصة أيام سيف الدولة ، فقد فاقت حركة الأدب واللغة والنحو نظيرتها في مصر وربما في العراق ، فقد جمع علماء الشام بين فصاحة البداوة وترف الحضارة ، ورزقوا ملوكًا وأمراءً من آل حمدان المشتغلين بالأدب والمشهورين بالمجد والكرم ، والجمع بين آداب السيف والقلم .

وقد تخرج في هذه الحركة الأدبية أبو بكر الخوارزمى، وأبو إسحاق الصابى، وابن خالويه، وأبو على الفارسى، وأبو الفتح بن جنى ، وقد سأل سيف الدولة جماعة من العلماء بحضرته يوما : هل تعرفون اسما ممدوداً وجمعه مقصور ؟ فقال ابن خالويه : إنى أعرف اسمين لا أقولهما إلا بألف درهم لئلا يؤخذ بلا شكر ، وهما : صحراء وصحارى ، وعذراء وعذارى[٤].

فلا عجب أن يكون بلاطه أزهى بلاط في عصره ، ثم كان في بلاطه من يُعدّ من أشهر اللغويين والنحويين في زمانه . كما يزخر بالشعر والمناظرات اللغوية النحوية .

لقد اهتم علماء الشام بالفصيح من الألفاظ ووعوا له صفات تميزه من غيره

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٢٤ ، والمزهر للسيوطى ٩٠/٢، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤٠/٢ـ ٢٤٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤٤/٢ ـ ٢٤٥ .

(٣) المزهر للسيوطى ٣٥١/١ وما بعدها .

(٤) معجم الأدباء لياقوت ١٠٠/٣ .

وشروطًا يجب أن تكون فيه وأخرى يجب أن يخلو منها ، وقد شرح ابن خالويه فى ذلك كتاب « الفصيح » لأحمد بن يحيى ت ٣٩١هـ فقد شرحه وذيل عليه ، وقد ميز بين الفصيح والأفصح[١] .

ولم يقتصر اهتمام علماء اللغة على ما تقدم، وإنما درسوا وبحثوا وألفوا فى مسائل جزئية تتعلق بصوت من أصوات اللغة ، كثر دورانه فى لغات العرب واختلفوا فى نطقه باختلاف لهجاتهم ، ذلك هو « الهمزة » ، وقد ألف فيه ابن جنى كتابه المسمى « ما يحتاج إليه الكاتب من مهموز ومقصور وممدود مما يكتب بالألف والياء »[٢] .

التأليف فى علم اللغة عند أهل العراق :

أما التأليف فى اللغة فقد كان له صور مختلفة وموضوعات متعددة لم يترك اللغويون موضوعًا منها لم يؤلفوا فيه ، ولما كان جمع اللغة إنما بدأ لتفسير ألفاظ القرآن الكريم وتبيين معانيه وتوضيح غريبه ، وغريب ألفاظ الحديث النبوى فقد اهتم علماء اللغة من القراء والمفسرين والمحدثين بالتأليف فى هذه الموضوعات ، وكان من أوائل من صنف فيها خلال القرن الرابع الهجرى أبو بكر بن الأنبارى ت ٣٢٨هـ له كتاب «المشكل فى معانى القرآن» ، «وغريب الحديث» وكتاب «اللامات» وكتاب «الوقف والابتداء»[٣] . وأبو بكر بن مقسم ت ٣٥٤هـ له كتاب «الوقف والابتداء» وكتاب «اللطائف فى جمع هجاء المصاحف» ، وكتاب «التيسير فى اللغة» وكتاب «المفردات الموضحة فى القراءات»[٤] .

وكان من الموضوعات المتعلقة بالقرآن ما يبحث فى « مشكل إعراب القرآن ما يخص النقط والشكل » فى القرآن الكريم وينسب ابن النديم إلى علماء كثيرين من أهل العراق مؤلفات فى هذه الموضوعات ، وتكلموا على « اللامات » فى القرآن

---

(١) حضارة العراق للدكتورة خديجة الحديثى ٢١١/٧ ـ ٢١٢ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ١٢٨.

(٣) الفهرست لابن النديم ص ١١٢وأنباه الرواة للقفطى ٢٠٧/٣ .

(٤) معجم المؤلفين لكحالة ٢٤٢/٣ ، ٣١٣/٥، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٩/٦ .

الكريم وألفوا فيها كتبا من أشهر هؤلاء المؤلفين أبو بكر محمد بن الأنبارى ت٣٢٨هـ[١]، وأبو بكر محمد بن الحسن بن مقسم ت ٣٥٤هـ[٢]، وأبو البركات عبد الرحمن الأنبارى[٣]، وابن نفطويه المتوفى سنة ٣٢٣هـ[٤].

كما اهتم اللغويون فى القرن الرابع الهجرى بالتأليف فى لغات القبائل وكان ابن دريد أول من ألف كتاباً فى « اللغات »[٥].

كان الحفاظ على لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والعرب الفصحاء السبب الرئيسى لنشوء هذه الدراسات التى تبعث جمع اللغة والتأليف فيها ، وكان اللحن فى الكلام من أقصى ما واجهه اللغويون ، وحاولوا دفعه عن ألسن المتكلمين بالعربية عربا كانوا أو أعاجم ، وقد شاع اللحن فى لغة عامة الناس الذين أوجدوا لهم لغة خاصة انحرفت عن الفصحى وابتعدت عنها بتخلصها من الأعراب وبما غيرته من طريقة تأليف العبارات، ومن تحريف فى كثير من المفردات وفى خصائص أخرى كثيرة، هذه اللغة التى سميت (اللغة العامة) ألفت فيما وقع فيها من لحن وتحريفات كتب كثيرة ، حملت اسم (لحن العامة) أو (ما تلحن فيه العوام) عنى بها علماء اللغة عناية كبيرة واهتموا فيها بذكر الأصل الصحيح للألفاظ والعبارات، والتنبيه على ما وقع فيها من خطأ ، من أشهر هؤلاء العلماء ابن دريد له كتابه «تقويم اللسان»[٦]. وشرح أبو سعيد السيرافى ت ٣٦٨هـ كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكيت[٧]، كما قرأ عليه أبو على المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابى فى كتاب «ما يلحن فيه العامة» لأبى حاتم[٨].

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١١٢ ، وإنباه الرواة للقفطى ٢٠٧/٣ .
(٢) الفهرست لابن النديم ص ٤٩ ـ ٥٠ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٣١٢/٥ .
(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ١٥٣/١.
(٤) طبقات المفسرين للداودى ٢٣/١.
(٥) الفهرست لابن النديم ص ٥٣ .
(٦) معجم المؤلفين لكحالة ٢١٨/٣ .
(٧) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٨٧/٢ ـ ١٨٨ .
(٨) معجم الأدباء لياقوت ٥٠٨/٢ ـ ٥٠٩ .

وجميع هؤلاء من اللغويين الذين واصلوا السماع والبحث والتأليف فى حلقات الدرس البصرى والكوفى والبغدادى ، وهم الذين كان لهم الفضل الأول فى جمع اللغة وتنقيتها والتنبيه على الفصيح منها وعلى ما وقع فيها من تحريف أو تصحيف أو لحن أو وهم فى لغة العوام أو الخواص . ولم يقتصر اهتمامهم على ما تقدم بل درسوا وبحثوا وألفوا فى مسائل جزئية تتعلق بصوت من أصوات اللغة كثر دورانه فى لغات العرب واختلفوا فى نطقه باختلاف لهجاتهم ذلك هو « الهمزة » .

لذلك انصرف علماء العربية إلى التأليف فيه فكان من هذه الكتب ما حمل اسم « الهمزة » أو « تحقيق الهمز »، فقد اهتم ابن دريد ت ٣٢١هـ فى كتابه الجمهرة ونبه عليه ، وقد وصل إلينا كتاب ابن جنى ت ٣٩٢هـ المسمى « ما يحتاج إليه الكاتب من مهموز ومقصور وممدود مما يكتب بالألف والياء » وله كتاب الألفاظ عن المهموز[١] . وألف أبو الحسن الأسدى ابن الكوفى ت ٣٧٨هـ كتاب «الهمزة»[٢]

لقد ألف علماء اللغة فى موضوعات لغوية صرفية منها ما يتعلق بأبنية معينة كأبنية الأسماء والأفعال وما اشتق منها ، ومنها ما كان الغرض منه إحصاء اللغة وحصر الألفاظ المستعملة فى العربية وبيان عددها ومعانيها . وكانت كتب الأبنية من أهم ما اعتنى به اللغويون والنحاة والصرفيون وكرسوا جهدهم لحصرها وبيان أوزانها وأصولها ودلالة كل بناء فيها .

وصار التأليف فيها فى اتجاهين : تأليف فى الأسماء وآخر فى الأفعال وأشهر من كتب فى ذلك : أبو بكر بن السِّراد ت ٣١٦هـ له كتاب «الاشتقاق»[٣]، قال عنه الإمام السيوطى : هو أصح ما وضع فى هذا الفن من علوم اللسان[٤] وأبو بكر بن دريد ت٣٢١ هـ ألف كتاباً سماه « كتاب فعَلتَ وأفعلت »[٥].

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٢٨ .

(٢) كشف الظنون لحاجي خليفة ٢٣٥/٤ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٩٣ .

(٤) المزهر للسيوطى ٢٨٧/١ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٩٢، والمزهر للسيوطى ٣٥١/١ .

تعقيب :

اهتم أهل الشام بعلم اللغة اهتمامًا ملحوظًا واعتنوا بتعلم العربية ليس فى القرن الرابع فحسب بل منذ أن وضع العرب أقدامهم فى بلاد الشام ، وكان الدافع وراء ذلك أن يحسن النطق بالقرآن الكريم ، وظل هذا الاهتمام مستمراً حتى القرن الرابع الهجرى ، ثم تحول وتطور هذا الاهتمام بسبب النهضة الفكرية على يد بنى حمدان ويقودهم سيف الدولة الحمدانى ، وأصبح الاهتمام شيئا ملموسا مكتوبًا حول موضوعات شتى فى اللغة تدور حول ألفاظ القرآن ومعانيه وغريبه وغريب الحديث الشريف، وحول مشكل القرآن الكريم ، وما يخص النقط والشكل فيه ، والوقف والابتداء والتأليف فى الرد على من يلحنون فى اللغة ، وبيان الأصل والصحيح وتمييزه من التحريف والتصحيف ، والتأليف فى أبنية الأسماء والأفعال .

أما أهل العراق فإنهم لم يقلوا اهتماماً باللغة عن أهل الشام بل يزيدون فى ذلك ، حيث أن الاهتمام باللغة انبعث أول ما انبعث من البصرة والكوفة ، فاهتمامهم منذ القرون الأولى وخلال القرن الرابع الهجرى أمر ملوس دون أدنى شك فى ذلك ، فهم أول من جعلوا علم اللغة علمًا وصناعة ، وأول من اهتم بجمع اللغة ودرسوها وألفوا فيها الكتب ، خدمة للقرآن الكريم فى ألفاظه ومعانيه وإعرابه ، وغريب الحديث الشريف أيضا ، واهتموا بالفصيح ووضعوا له صفات تميزه عن غيره ، وتحديد من أين تأخذ اللغة ، وعملوا على نشرها ونقلها فى البلدان العربية والإسلامية .

مادام الاهتمام باللغة شيء واقع ومستمر فلابد وأن يأتى ثماره ، وقد ظهرت هذه الثمار خلال القرن الرابع الهجرى على يد علماء الشام وإن كان من أهل العراق كابن جنى وأستاذه أبو على الفارسى حيث ظهرت على أيديهم دراسة جديدة وهى «الاشتقاق اللغوى» الذى يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ، ولم يكن لعملاء اللغة إنتاج أعظم من هذا . وتوسع كل منهما فى الاشتقاق توسعًا كبيراً وأدخلا كلمات كثيرة لم تكن ينطق بها . والذى دفعهم إلى ذلك انتشار الحضارة ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية ، مما جعلهم يبتكرون الكلمة أو يقيسون على غيرها ، وكان أبو على الفارسى يقول : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، وذهب هو وتلميذه ابن جنى إلى أن اللغة ليست توقفية ، وإنما هى اصطلاحية ، فخرج كل منهما

بطريقة جديدة يوسعان اللغة ويجتهدون فيها عن طريق القياس والتوسع فى الاشتقاق قياساً وإخضاع الكلمة لحكم العقل .

أما أهل العراق فنستطيع أن نقول أن ما حدث من جديد فى اللغة ببلاد الشام فهو صورة من جديد أهل العراق لأن الذين قاموا بهذا الجديد والدعوة إليه ونشره هم أصلا من العراق رحلوا إلى الشام ، فى سبيل العلم وإن مكثوا فى الشام سنوات ، فإنهم يعدون من أهل العراق وممن نزلوا بالشام ورغم ذلك فمنهجهم واحد واهتمامهم باللغة سواء فى الشام أو العراق هو اهتمام واحد لم يتغير ، وكل ما ظهر على أيديهم من ظواهر لغوية جديدة هى نفسها عراقية وشامية فى نفس الوقت ، وزد على أبى على الفارسى وابن جنى من أهل العراق أبو بكر بن السّرّاج وابن دريد والسيرافى وأبو الحسن الأسدى وغيرهم من الذين كانت لهم بصمات ظاهرة فى تطوير علم اللغة وانتشاره وازدهاره ، فابن دريد قد أورد فى اللغة أشياء لم تكن موجودة من قبل فى كتب المتقدمين(١) .

وينفرد علماء العراق بأنهم أصحاب معاجم فى اللغة دون علماء الشام كابن دريد والجوهرى .

إنّ من مظاهر القرن الرابع اللغوى انتشار اللغة العامية بجانب الفصحى وذلك كان واضحًا بين أهل الشام ، مما جعل علماء اللغة من أهل الشام يهتمون بدراسة لغة العامية، وما يعرض فيها من خطأ يؤثر على الفصحى لدرجة أنها أثرت على بعض الشعراء وظهرت فى أشعار القرن الرابع الهجرى ، فقد كانت هذه الظاهرة منتشرة فى الشام مما شغلت جانباً من اهتمامات علماء اللغة .

وكذلك فى أهل العراق أيضًا شاع اللحن وسارت العامية بجانب الفصحى وانحرفت عن الصحيح ، وشاعت فى لغة عامة الناس وابتعدت عن الفصحى بتخلصها من الإعراب وبما غيرته من طريق تأليف العبارات ومن تحريف فى كثير من المفردات . مما جعل علماء العراق يتصدون لها وعلى رأسهم ابن دريد وأبو سعيد السيرافى وابن جنى وغيرهم ، ممن كتب وألف كتباً فى ذكر الصحيح للألفاظ والعبارات والتنبيه على ما وقع فيها من خطأ .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ٤/٣٦٠ .

لذلك نستطيع أن نقول إذا كانت اللغة العامة أو لحن العامة انتشر خلال القرن الرابع فى العراق فقد انتشر أيضا فى الشام . وإذا كان فى العراق منْ تصدى لتلك الظاهرة ففى الشام أيضا كذلك .

التأثير والتأثر بين علماء الشام والعراق :

إن التأثير العلمى سواء من خلال السماع أو التدريس أمر واضح بين علماء الشام وعلماء العراق ، لما لكل من إقليمى الشام والعراق من مكانة فى العلم وحاضرة فى تاريخ العلم والعلماء ، وذلك واضح فى تأثر علماء الشام بعلماء العراق فى السماع عليهم وحضور مجالسهم مثل : أبو القاسم الزجاجى الذى أقام بالشام واستمر بها ومات فيها فقد سمع من علماء العراق كابن دريد ، وسمع أيضا من أبى بكر بن الأنبارى ، ومن على بن سليمان الأخفش[(١)] . وكذلك أبو عبد الله بن خالويه سمع ببغداد أبا بكر بن الأنبارى وابن مجاهد وأبا عمر الزاهد ، وابن دريد ، وقرأ على أبى سعيد السيرافى[(٢)] ثم انتقل بعد ذلك إلى الشتام ، واستوطن حلب كما سبق أن ذكرنا.

أما علماء العراق فمنهم من تأثر بعلماء الشام وإن قل ذلك ، ولكن ذلك أمر واقع أن يكون فيه تأثير وتأثر ، فهذا أبو نصر الجوهرى ت ٣٩٣هـ دخل ديار ربيعة ومضر ، واقتبس من علماء الشام[(٣)] .

أيضا أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى عاش كل منهما فترة ليست بالقليلة فى بلاد الشام وخاصة فى بلاط سيف الدولة الحمدانى ، فأثروا فى أهل الشام وتأثروا بعلماء الشام أيضا .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٦/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٥٧/٢ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ١٣٦/١ .

(٣) إنباء الرواة للقفطى ٢٢٩/١ ـ ٢٣٠ .

مشاهير علماء اللغة والنحو فى الشام

أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزّجّاجى ت٣٤٠هـ[1]

هو النحوى البغدادى داراً ونشأة ، أصلاً ومولداً ، كان إماماً فى علم النحو ، أخذه عن محمد بن العباس اليزيدى ، وأبى بكر بن الأنبارى[2] ، وأبى إسحاق الزجاجى ، وعلى بن سليمان الأخفش[3] .

صَحبَ أبا إسحاق إبراهيم بن السرى الزجاج فنب إليه وعُرِف به ، وسكن دمشق وانتفع النَاس به وتخرجوا عليه[4] . وحدّث بها[5] . وصار معلمًا فى دمشق وأبلة وطبرية[6] ، وكان إمام وقته[7] .

هاجر من نهاوند إلى بغداد لطلب العلم ، ثم رحل إلى حلب وأقام بها عدة ، ثم انتقل من الشهباء إلى دمشق وأقام بها ودرّس فى جامعها ، وصنف « كتاب الجمل » ثم خرج إلى طبرية فألف ودرس بها إلى أن توفى فيها سنة ٣٣٧هـ على أصح الأقوال[8] .

صنف كتاب « الجمل » بمكة ، وكان يطوف بعد كل باب منه ويدعو الله تعالى أن ينفع به . وقد شرح كتابه « الجمل » بشروح كثيرة من أحسنها وأجمعها

---

(١) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ١١٨ ، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢١٢/١٤ ، وانباه الرواة للقفطى ١٦٠/٢ ، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ١١٩ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٦/٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٣٩/١١ ، والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا مجلد ١ ج٩٩/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٥٧/٢ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٢١٣/١ ، ٤٧٣ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٣/٢ ، ومعم المؤلفين لكحالة ٧٨/٢ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٦/٣ .

(٣) شذرات الذهب لابن العماد ٣٥٧/٢ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٦/٣ .

(٥) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢١٢/١٤ .

(٦) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٣/٢ .

(٧) المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا مجلد ١ ج ٢ /٩٩ .

(٨) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٦/٣ .

ما وضعه العالم النحوى ابن عصفور[1]. كما أنه كان فقيهًا ومما يدل على علمه بالفقه أنه صنف كتابه « الإذكار بالمسائل الفقهية » وكلها فى الطلاق مما يدل على أنه كان فقيها ونحوياً معاً[2].

وله مصنفات عظيمة منها : كتاب الجمل فى النحو وهو أهم كتبه ، وإيضاح علل النحو ، والآمالى ، وقد ذكره السيوطى فى كتاب المزهر فقال : وآخر ما علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجى له أمالى كثيرة فى مجلد ضخم[3]. وله كتاب حروف المعانى ، وكتاب اللامات ، ومختصر الزاهر فى معانى كلمات الناس لأبى بكر الأنبارى ، وشرح خطبة أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب اشتقاق أسماء الله تعالى وصفاته المستنبطة من التنزيل وما يتعلق بها من اللغة والمصادر والتأويل ، ورسالة فى بيان الأسئلة الواردة على البسملة وأجوبتها ، وتعليقات على صيغة الطلاق[4]. وله كتاب المخترع فى القوافى ، والإذكار بالمسائل الفقهية ، والإبدال والمعاقبة وشرح كتاب الألف واللام للمازنى ، والمجموع فى معرفة أنواع الشعر وقوافيها ، وشرح رسالة سيبويه، وغرائب مجالس النحويين[5].

أبو الطيب عبد الواحد بن على الحلبى اللغوى ت٣٥١هـ[6]

وُلد فى عسكر مُكْرَم ـ وهى بلدة مشهورة فى نواحى خوزستان ، نشأ فيها كثير من الفضلاء والعلماء ، وإلى علمائها كانت تشد الرحال ويقصدون من شتى البلاد والجهات ، ونشأ فيها أبو الطيب وحذق النحو واللغة ، ثم رحل إلى بغداد ، فأخذ عن أسنادها ، وروى عن أثباتها ، وكان ممن روى عنهم محمد بن يحيى الصولى ، وأبو عمر الزاهد .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢٣٩/١١ .

(٢) معجم المولفين لكحالة ٧٩/٢ .

(٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان نقلا عن المزهر للسيوطى ١٧٥/٢ .

(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٥/٢ ـ ١٧٦ .

(٥) معجم المؤلفين لكحالة ٧٩/٢ .

(٦) انظر ترجمته فى : زبدة الطلب فى تاريخ حلب لابن العديم ١٣٧/١ ، والمزهر للسيوطى ٨٧/١ ، ١٢٠ ، وما بعدها ، وفى ١٨٩/٢ ، ٢٣٥ ، وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤٢/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٣٣٤/٢.

ثم رحل إلى حلب فى الوقت الذى كانت حلب من أزهر الحواضر الإسلامية وأحفلها بالعلماء والشعراء والأدباء ، وكان أميرها سيف الدولة الحمدانى ، وهناك ازدهر علمه وبان فضله ، وظل فى حلب حتى دخل الدمستق حلب ، وأخذ منها خلقًا من النساء والأطفال ، وقتل معظم الرجال ولم يسلم منه إلا من اعتصم بالله بالقلعة من العلويين والهاشميين والكتاب وأرباب المال[1]، وكانت له مؤلفات كثيرة ضاع معظمها بسبب أن الروم قتلوه هو وأباه فى اقتحام حلب ، إلا أن الزمان قد أبقى منها :

كتاب مراتب النحويين ، وكتاب شجر الدر ، وكتاب الفرق ، وقد نقل منهم السيوطى فى كتابه المزهر فى أكثر من موضع[2]، وكتاب الإبدال ، وكتاب الأضداد ، وكتاب المثنى[3].

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه اللغوى ت ٣٧٠هـ[4]

أصله من همدان ولكنه دخل بغداد وأدرك جلة العلماء بها، مثل أبى بكر بن الأنبارى ، وابن مجاهد المقرئ، وأبى عمر الزاهد، وابن دريد ، وقرأ على أبى سعيد السيرافى، وانتقل إلى الشام واستوطن حلب ، وصار بها أحد أفراد الدهر فى كل قسم من أقسام الأدب ، وكانت إليه الرحلة من الآفاق ، وآل حمدان يكرمونه ، ويدرسون عليه ويقتبسون منه[5].

---

(١) زبدة الطلب فى تاريخ حلب لابن العديم ١٣٧/١ .

(٢) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى الجزء الأول ص ١٨٧ ، ١٢٠ ، ١٤٣ ، ١٧٧، ٣٠٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥٤ ، ٤٦٠ ، ٥٥٥ ، ٥٩١، والجزء الثانى ص ١٨٩ ، ٣٣٥، ٣٩٥ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٥ .

(٣) معجم المؤلفين لكحالة ٣٣٤/٢، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤٢/٢.

(٤) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٥٣ ، ١٢٤ ، ويتيمة الدهر للثعالبى ١٣٦/١، ومعجم الأدباء لياقوت ٩٩/٣، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٧٨/٢ ، وأنباه الرواة للقفطى ٣٥٩/١ ـ ٣٦٢ والعبر للذهبى ١٣٥/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٣١٧/١١، وشذرات الذهب لابن العماد ٧١/٣ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤٠/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٦٠٢/١، وكشف الظنون لحاجى خليفة ١٥٣/١ ، ٤٧٢ ، ٣٤٣/٢ ، ٣٧٦ ، ٣٨٣ .

(٥) يتيمة الدهر للثعالبى ١٣٦/١ .

وقرأ على نفطويه وأخذ اللغة عن أبى عمر الزاهد وسمع من محمد بن مخلد العطار وغيره ، وانتشر علمه وفضله وذاع صيته ، وله مع أبى الطيب مناظرات[1] .

فقد صحب سيف الدولة ابن حمدان ، وأدّب بعض أولاده ، وتصدر بحلب وميافارقين وحمص للإفادة والتصنيف ، وعاش بعد سيف الدولة فى صحبة ولده وغيره من آل حمدان حتى مات بحلب فى سنة سبعين وثلثمائة[2] .

وله مصنفات كثيرة منها : كتاب الاشتقاق ، وكتاب الجمل فى النحو ، وكتاب اطرغش لغة كتاب القراءات ، وكتاب المبتدى ، وكتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن، وكتاب المقصور الممدود ، وكتاب المذكر والمؤنث ، وكتاب الألفات ، وكتاب «ليس»[3] . قيل عنه أن السيوطى ذكر فى المزهر: أن كتاب «ليس» لابن خالويه كتاب حافل فى ثلاثة مجلدات ضخام وأن الحافظ مغلطاى تعقب عليه مواضع منه فى مجلد سماه : الميس على ليس ، ونقل منه السيوطى فى المزهر[4] . وله كتاب الريح ، وكتاب الإشارات ، وشرح مقصورة ابن دريد ، وكتاب اشتقاق الشهور والأيام، وكتاب أسماء الأسد ، وكتاب أسماء الحية ، وكتاب فيه مسألة فى قول : الحمد لله ملء السموات، هل الأفضل رفع ملء أو نصبها[5] . وقد ذكر ابن خالويه فى كتاب « ليس » : قلت لسيف الدولة ابن حمدان : قد استخرجت فضيلة لحمدان جد سيدنا لم أسبق إليها ، وذلك أن النحويين زعموا أنه ليس فى الكلام مثل رحيم وراحم ورحمان إلا نديم ونادم وندمان ، وسليم وسالم وسلمان فقلت : فكذلك حميد وحامد وحمدان[6] .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ٩٩/٣ .

(٢) أنباه الرواة للقفطى ٣٦٠/١ .

(٣) الفهرست لابن النديم ١٢٤.

(٤) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى ٦٢/٢ .

(٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤٠/٢ ـ ٢٤٢ .

(٦) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى ٩٠/٢ .

أبو على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان الفارسى ت٣٧٧هـ[١]

وُلد بمدينة فسا ، واشتغل ببغداد ، ودخل إليها سنة سبع وثلثمائة، وكان إمام وقته فى النحو ، ودار فى البلاد وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان ، وجرت بينه بين أبى الطيب المتنبى مجالس[٢].

علت منزلته فى النحو حتى قال قوم من تلامذته : هو فوق المبرد ، وأعلم منه ، وصنف كتبًا عجيبة حسنة لم يسبق إلى مثلها ، واشتهر ذكره فى الآفاق ، وبرع له غلمان حذّاق مثل ابن جنى وعلى بن عيسى الشيرازى وغيرهما[٣].

قال فى حقه واعترافًا بفضله عضد الدولة : أنا غلام أبى على النحوىّ الفسوى فى النحو[٤]. وقد أخذ أبو على الفارسى النحو عن أعيان هذا الشأن ، كأبى إسحاق الزجاج وأبى بكر بن السراج ، وأبى بكر الخياط وطوّف كثيرا من بلاد الشام ، ومضى إلى طرابلس فأقام بحلب مدة وخدم سيف الدولة بن حمدان ثم رجع إلى بغداد[٥].

لقد سمع الحديث وانفرد بالنحو وقصده الناس من الأقطار ، وعلت منزلته فى العربية ، وصنف فيها كتبًا كثيرة حتى اشتهر ذكره فى الآفاق[٦].

وله مصنفات قيمة منها : كتاب التذكرة ، والإيضاح والتكمل ، والمقصور والممدود ، والحجة فى القراءات ، والإغفال فيما أغفله الزجاجى فى المعانى ، والعوامل

---

(١) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٩٥، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٧٥/٧، ومعجم الأدباء لياقوت ٤١٣/٢، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٨٠/٢، وأبناه الرواة للقفطى ٣٠٨/١، والبداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١١، والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا مجلد ١ جزء ١٢٤/٢ ـ ١٢٥ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٥١/٤، وشذرات الذهب لابن العماد ٨٨/٣، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٩٠/٢، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٣٥/١ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٨٠/٢ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٧٥/٧ .

(٤) أنباه الرواة للقفطى ٣٠٨/١ .

(٥) معجم الأدباء لياقوت ٤١٤/٢ .

(٦) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٥١/٤.

المائة ، والمسائل العسكرية ، والمسائل البصرية ، والمسائل المجلسيات ، والمسائل الكرمانية، والمسائل الذهبيات(١) . وكتاب أبيات الإعراب ، وشرح أبيات الإيضاح ، وكتاب مختصر عوامل الإعراب(٢) ، وكتاب جواهر النحو ، وإعراب القرآن ، والأوليات فى النحو ، ومقاصد ذوى الألباب فى العمل بالاسطرلاب(٣) .

من مشاهير علماء اللغة والنحو فى العراق

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى ت ٣٢١هـ(٤)

طلب أبو بكر العلم خاصة الأدب وعلم النحو واللغة ، وكان أبوه من الرؤساء وذوى اليسار ، ورد بغداد بعد أن أسنّ فأقام بها إلى آخر عمره ، حدّث ابن دريد عن عبد الرحمن بن أخى الأصمعى ، وأبى حاتم السجستانى وأبو الفضل الرياشى ، وكان رأس العلم ، والمقدم فى حفظ اللغة والأنساب ، وأشعار العرب ، وله شعر كثير ، روى عنه أبو سعيد السيرافى ، وعمر بن محمد بن سيف ، وأبو بكر بن شاذان ، وأبو عبيد الله المرزبانى وغيرهم(٥) .

كان أبو بكر بن دريد واسع الرواية ، ما رأى الرواة أحفظ منه ، وكان أبو بكر بن دريد يقرأ عليه دواوين العرب ، فكان يسابق إلى إتمامها بالحفظ لها ، سئل عنه الدارقطنى : أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيل : إنه كان يتسامح فى الرواية عن المشايخ فيسند إلى كل واحد ما يخطر له(٦) .

---

(١) إنباه الرواة للقفطى ٣٠٩/١ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص٩٥ .

(٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٩٣/٢ .

(٤) انظر ترجمته فى : مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، وطبقات الزبيدى١٨٣ ـ ١٨٤ ، ومروج الذهب للمسعودى ٣٦٠/٤ ، والفهرست لابن النديم٩١ ، ٩٢ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٩٥/٢ ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٣٨١ وأنباه الرواة للقفطى ٩٢/٣ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٢٩٦/٥ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٢٣/٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٨٨/١١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٨٩/٢ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٧/٢ ومعجم المؤلفين لكحالة ٢١٧/٣ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ١٨١/١ ، ٤٧٤ ، ٣٩٣/٢ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٩٥/٢ .

(٦) إنباه الرواة للقفطى ٩٤/٣ ـ ٩٥ .

وكان له مجلس أملاء فى فارس وفى بغداد ، فقد أملى كتاب الجمهرة بفارس على غلامه ، وكان الكتاب مختلف النسخ كثير الزيادة والنقصان ، كما أملاه ببغداد أيضا ولكن من حفظه ، فلما اختلف الإملاء زاد ونقص ، وآخر ما صح من نسخ الجمهرة نسخة أبى الفتح عبد الله بن أحمد النحوى لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه(١) .

وله من الكتب : كتاب الجمهرة والسرج واللجام ، والاشتقاق ، والمقتبس ، والوشاح ، والخيل الكبير ، والخيل الصغير ، والأنواء ، والمجتنى والمقتنى ، والملاحين ، ورواة العرب ، واللغات ، والسلاح ، وغرائب القرآن ولم يتمه ، وأفعلت وافتعلت ، وأدب الكاتب(٢) . وصفة السحاب والغيث ، ومجموعة أقوال لعلى بن أبى طالب ، والأخبار المنثورة ، وكتاب الأربعين(٣) . والأمالى، وتقويم اللسان، ودواب العرب ، وديوان الشعر ، والمقصور والممدود ، ونضائر الحكم ، والأمثال النبوية(٤) .

أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى ت٣٢٨هـ(٥)

كان من أعلم الناس بالنحو والأدب وأكثرهم حفظاً للغة ، أخذ عن أبى العباس ثعلب وغيره ، وكان صدوقا فاضلا ديناً خيراً من أهل السنة، وكان له مجلس إملاء فى ناحية المسجد(٦) . وكان يملى من حفظه لا من كتاب ، وكانت عادته فى كل ما يكتب عنه من العلم هكذا ، فى كتبه المصنفة وأماليه المشتملة على الفوائد اللغوية

---

(١) الفهرست لابن النديم ص٩١ ـ ٩٢ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص٩٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ١٨١/١ ، ٤٧٤ ، ٣٩٣/٢ .

(٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٨١/٢ ـ ١٨٥ .

(٤) معجم المؤلفين لكحالة ٢١٨/٣ .

(٥) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص١١٢ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٨١/٣ ، وأنباه الرواة للقفطى ٢٠١/٣ ومعجم الأدباء لياقوت ٤١٠/٥ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٤١/٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٠٨/١١ ، وطبقات القراء لابن الجزرى ٢٣٠/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣١٥/٢ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢١٤/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٩٧/٣ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٩٠/٢ ، ٣٩٢ ، ٤٠٠ ، ٧٢٢ ، ١٨٠/٤ .

(٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٨٢/٣ .

والنحوية والأخبار والأشعار[1] . قال أبو على القالى : « كان أبو بكر الأنبارى يحفظ ثلثمائة ألف بيت شاهدا فى القرآن ، وكان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً بأسانيدها »[2] لذلك فهو جدير بأن يملى مجالسه من حفظه وليس من كتاب ، قد كان آية من آيات الله تعالى فى الحفظ سواء فى اللغة أو فى الشعر .

يقول الحافظ ابن كثير : « كان أبو بكر الأنبارى من بحور العلم فى اللغة والعربية والتفسير والحديث »[3] .

ولما صنع كتابه « الوقف والابتداء » جيئ به إلى ابن مجاهد فنظر فيه وقال : لقد كان فى نفسى أن أعمل فى هذا المعنى كتاباً وما ترك هذا الشاب لمصنف ما يصنف[4] .

قال ابن النديم : « كان ابن الأنبارى أفضل من أبيه وأعلم فى نهاية الذكاء والفطنة ، وجودة القريحة وسرعة الحفظ ، ومع ذلك ورعًا من الصالحين ، لا يعرف له حرمة ولا زلة ، وكان يضرب به المثل فى حضور البديهة وسرعة الجواب »[5] .

وله من الكتب : كتاب المشكل فى معانى القرآن لم يتمه ، والأضداد فى النحو ، والزاهر ، وأدب الكاتب لم يتمه ، والكافى فى النحو ، والمقصور والممدود ، والواضح فى النحو ، والموضح فى النحو ، والألفات ، وغريب الحديث لم يتمه ، والهجاء ، واللامات ، وإيضاح الوقف والابتداء ، والهاءات ، والرد على من خالف مصحف عثمان[6] ، وشرح المفضليات وشرح المعلقات ومختصر فى ذكر الألقاب ، والمذكر والمؤنث[7] .

---

(١) إنباه الرواة للقفطى ٢٠٢/٣ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٤١١/٥ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٠٩/١١ .

(٤) غاية النهاية لابن الجزرى ٢٣١/٢ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص١١٢ .

(٦) إنباه الرواة للقفطى ٢٠٧/٣ ، والفهرست لابن النديم ص ١١٢ .

(٧) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢١٤/٢ .

أبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب العطار المعروف بابن مقسم ت٣٥٤هـ[١]

سمع أبا مسلم الكجّي وثعلبًا وإدريس بن عبد الكريم ، وغيرهم . وروى عنه ابن رِزْقويه وابن شاذان وغيرهما ، وكان ثقة من أعرف الناس بالقراءات وأحفظهم لنحو الكوفيين[٢] ، وله في التفسير ومعاني القرآن ، وله في القراءات وعلوم النحو تصانيف عدة[٣] وكان قد اختار لنفسه قراءة مفردة ، وذكر أنها تجوز في اللغة ، فأنكر ذلك عليه ، ورُفع أمره إلى السلطان فأحضر ، واستتيب بحضرة القراء والفقهاء[٤] .

قال عنه صاحب معجم المؤلفين : « أبو بكر مقرئ فقيه مفسر ، نحوي ، أديب ، لغوي ، فلكي ، عالم بالشعر »[٥] .

وله من الكتب : كتاب الأنوار في علم القرآن ، وكتاب المدخل إلى علم الشعر ، وكتاب احتجاج القراءات ، كتاب في النحو ، كتاب المقصور والممدود ، كتاب المذكر والمؤنث ، كتاب الوقف والابتداء ، كتاب عدد التمام ، كتاب المصاحف ، كتاب أخبار نفسه ، كتاب السبعة بعللها الكبير ، كتاب السبعة الأوسط ، كتاب مجالس ثعلب[٦] ، كتاب الانتصار لقراء الأمصار ، كتاب الموضح ، كتاب شفاء الصدور ، كتاب اللطائف في جمع هجاء المصاحف ، كتاب الرد على المعتزلة ، كتاب عقلاء المجانين[٧] ، كتاب الاختيار في الفقه ، والتيسير في اللغة[٨] والمفردات الموضحة في القراءات[٩] .

---

(١) انظر ترجمته في : الفهرست لابن النديم ص٤٩ ـ ٥٠ ، وتاريخ بغداد للخطيب ٢٠٦/٢ ، وإنباه الرواة للقفطي ١٠٠/٣ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٣١٠/٥ ، والبداية النهاية لابن كثير ٢٧٦/١١ ، وغاية النهاية لابن الجزري ١٢٣/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٦/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢٤٢/٣ وكشف الظنون ٣٩/٦ ، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢١٧/٢ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٣١٠/٥ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢٠٦/٢ .

(٤) إنباه الرواة للقفطي ١٠١/٣ .

(٥) معجم المؤلفين لكحالة ٢٤٢/٣.

(٦) الفهرست لابن النديم ٤٩ ـ ٥٠ .

(٧) معجم الأدباء لياقوت ٣١٢/٥ .

(٨) معجم المؤلفين لكحالة ٢٤٢/٣ .

(٩) كشف الظنون لحاجي خليفة ٣٩/٦ .

أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي ت٣٦٨هـ[١]

سكن أبو سعيد بغداد وحدث بها عن محمد بن أبي الأزهر البوشنجي وأبي عبيد ابن حربويه الفقيه ، وأبي بكر بن دريد ونحوهم . وولي القضاء ببغداد وحدث عنه جماعة ، وكان يدرس القرآن والقراءات وعلوم القرآن ، والنحو واللغة والفقه والفرائض والكلام والشعر والعروض والقوافي ، والحساب ، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، وينتحل في الفقه مذهب أهل العراق وكان لا يأكل إلا من كسب يده[٢]. وكان يفتي في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة فما وجد له خطأ ولا عثر له على زلة ، وقضى ببغداد وشرح كتاب سيبويه في ثلاثة آلاف ورقة ، فما جاراه فيه أحد ولا سبقه إلى تمامه إنسان ، هذا مع الثقة والديانة ، والأمانة والرواية[٣].

وكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ، ولا إلى مجلس التدريس في كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات أخذ أجرتها عشرة دراهم يكون قدر مؤونته ، ثم يخرج إلى مجلسه . لقد كان عالما فاضلا منقطع النظير في علم النحو خاصة[٤].

كان أبو الحسن الفقيه الكرخي يقدّمه ويفضله ، وعقد له حلقة يُقرئ فيها[٥].

وله من الكتب : كتاب شرح سيبويه ، وألفات الوصل والقطع ، وأخبار النحويين، والوقف والابتداء ، وكتاب صنعة الشعر والبلاغة ، وكتاب شرح مقصورة ابن دريد[٦]. وله كتاب أسماء جبال تهامة وأماكنها ، وجزيرة العرب ، ومناظرة حول النحو والمنطق مع متى بن يونس، وأخرى مع أبي الحسن العامري النيسابوري، وله شرح إصلاح المنطق لابن السكيت ، والإغراب في الإعراب[٧].

---

(١) انظر ترجمته في : الفهرست لابن النديم ص٩٣، وطبقات الزبيدى ص ١١٩ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٧/ ٣٤١ ، والمقابسات لأبي حيان التوحيدى ص ٦٨ ، وإنباه الرواة للقفطى ٣٤٨/١ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٧٨/٢ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٥٠٥/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٦٥/٣ ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٦١/١ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٨٧/٢ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٤١/٧ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ٥٠٨/٢ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٤٢/٧ .

(٥) إنباه الرواة للقفطى ٣٥٠/١ .

(٦) الفهرست لابن النديم ص ٩٣ .

(٧) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٨٧/٢ ـ ١٨٨ .

الفصل الثانى

علم النحو فى الشام والعراق

علم النحو :

لقد شب علم النحو واكتمل بخطى واسعة ، بسبب شعور العرب بالحاجة إليه ، وأصبح علمًا يدرس فى البصرة والكوفة ، ثم تكاتف كل من علماء البصرة والكوفة على استكمال قواعده واستحثهما التنافس الذى اشتد بينهما ، فخرج هذا العلم وقد تمت أصوله ، وكملت عناصره ، ثم التأم عقد الفريقين فى بغداد وكانت مهمة علمائها الترجيح بين الفريقين، ثم شعّ نور هذا العلم على سائر الحواضر الإسلامية[1] .

المتتبع لعلم النحو منذ النشأة حتى القرن الرابع الهجرى يجد أنه مرّ بأطوار أربعة : طور النشوء والتكوين ، وهذا الطور اختصت به البصرة ، وطور الترقى والنمو اشترك فيه البصرة والكوفة ، وطور النضج والكمال واشترك فيه البصرة والكوفة ، وطور الترجيح والبسط واشترك فيه البغداديون والشاميون والمصريون والأندلسيون[2] .

ولذلك نستطيع أن نقول : النحو نوعان بصرى ، وكوفى وكل منهما يعد مذهب مستقل ، أما البغدادى فإنه يعد ترجيح بين النحو البصرى والنحو الكوفى .

علم النحو قبل القرن الرابع فى كل من الشام والعراق

نشأ النحو بالبصرة فى القرن الأول الهجرى ، ثم بالكوفة فى القرن الثانى الهجرى وما كان لعلم النحو أن ينشأ فى غير البصرة ، لأنها المدينة التى اشتدت فيها الحاجة إليه قبل غيرها ، إذ لم تكد تمصّر ، ويتسامع الناس بها وبوفرة الخيرات فيها حتى انثالت إليها أفواج من العرب وأخرى من العجم ، وأصبحت العربية عربيتين : فصيحة وأخرى يشوبها اللحن والتحريف ، فكان لابد من تقويم اللحن والتحريف[3] .

وبعد نشأة النحو بالبصرة أخذت الكوفة تدرس وتجتهد فيه حتى أصبح يشكل مذهبا مستقلا وإن تأخر قرنًا من الزمان، وأصبحت الكوفة مدرسة نحوية منافسة للبصرة[4] .

---

(١) انظر نشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوى ص ١٧ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور أبو زيد شلبى ص ٢٢٨ .

(٣) انظر تاريخ النحو لعلى النجدى ناصف ص ٥ ـ ٦ طبعة دار المعارف ١٩٧٨ م.

(٤) انظر مقدمة أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ٥ ـ ٧

شهد القرن الثانى معركة كبيرة فى النحو والصرف بين مذهب البصريين والكوفيين، ولا ننسى أن نحو الكوفة كان شعبة من نحو البصرة، ثم تحول عنه فى أصوله ومناهج درسه ، لاختلاف الأئمة هنا وهناك فى مصادر الرواية والرأى فيها، ثم فى سمات الشخصية وطرائق التفكير ، فكان للنحو مدرسة فى البصرة ، وأخرى فى الكوفة، وقدر لنحو البصرة أن يكون أكثر تداولاً ، وأخلد خلوداً[1] .

لقد اشتد عود النحو البصرى والكوفى وآل من القرن الثانى إلى القرن الثالث ، ولم يبق إلا أن ينظر أهل القرن الثالث فى النحويين ، ويأخذوا لمصنفاتهم من كليهما أرجحه عندهم ، ومنهم من جعل النحو البصرى أصلا ، وزاد عليه ما دعت إليه الحاجة من النحو الكوفى ، وهنا التقى النحوان بين أيدى أهل القرن الثالث الهجرى ، وبذلك يشهد القرن الثالث امتزاج المذهب البصرى بالمذهب الكوفى ، وظهور منتخب من المذهبين أخذ النحاة به منذ القرن الثالث ولا يزال معمولا به حتى فى القرن الرابع الهجرى[2] .

بهذا نشأ جيل من النحاة يحمل آراء مدرستيهما ويُعنَى بالتعمق فى مصنفات أصحابهما ، والنفوذ من خلال ذلك إلى كثير من الآراء النحوية الجديدة ، فمنهم من يغلب عليه اتجاه نحو الكوفة ومنهم من يغلب عليه اتجاه نحو البصرة ، وتلك هى المنازع العامة للمدرسة الجديدة أو المدرسة البغدادية ، وكأنما اتجهت اتجاهين اتجاهاً مبكراً خلال القرن الثالث عند ابن كيسان ت ٢٢٩هـ وابن شقير ت ٣١٧هـ فى القرن الرابع وابن الخياط ت ٣٢٠هـ ينزعون فيه إلى المدرسة الكوفية . واتجاها مقابلاً ينزع إلى المدرسة البصرية كالزجاج ت ٣١١هـ وأبى على الفارسى ٣٧٧هـ وابن جنى ٣٩٢هـ. وهذا المنزع الأخير هو الاتجاه السائد فيما بعد لا فى مدرسة بغداد وحدها ، بل فى جميع البيئات التى عنيت بدراسة النحو[3] ، وقد ظهرت هذه المدرسة خلال القرن الرابع وهذا ما سنبينه إن شاء الله بعد قليل .

---

(١) انظر المزهر للسيوطى ٢١١/١ ـ ٢١٢ .

(٢) تاريخ النحو للأستاذ / على النجدى ناصف ص٣٦ ، ٣٧ .

(٣) المدارس النحوية للدكتور شوقى ضيف ص ٣٤٨ .

أما الحديث عن علم النحو عند أهل الشام قبل القرن الرابع الهجرى فإنه محدود وليس بنفس القدر والقيمة عند أهل العراق مؤسسى العلم وواضعى أصوله وهم سبب نشره فى جميع الأمصار .

فما من شك أن الشام منذ وضع فيها العرب أقدامهم وهى تُعْنَى بتعلم العربية حتى تحسن النطق بالذكر الحكيم ، ومضت الشام طوال القرن الأول والثانى والثالث تعنى بتعلم العربية ، ويبدو أن علماء اللغة فى الشام لم يستقلوا عن علماء النحو ، بمعنى أن عالم اللغة والنحو كان واحداً ، وكان يؤلف فى الميدانين معًا ، وقد يكون شاميًا أصيلاً وقد يكون من نزلاء الشام . « وأول نحوى ولغوى كبير نلتقى به فى الشام أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى ت ٣٣٧هـ ، ويعد ذلك خلال القرن الرابع الهجرى »[١] .

أما ما قبل ذلك فكان من يقوم بتعليم العربية يقوم بتعليم النحو وذلك إما على مذهب البصريين أو على مذهب الكوفيين، بحسب من يعلم ويدرس حتى ظهر الامتزاج بين المذهبين، ودخل مجموعة من علمائه إلى الشام خلال القرن الرابع الهجرى، وأصبح لعلم النحو علماؤه ومصنفاته وطلابه بالشام وهذا ما سنلاحظه فى الصفحات القادمة خلال الحديث عن علم النحو فى القرن الرابع عند الحديث عن النهج الجديد أو المذهب الجديد الذى اتبعه نحاة بغداد فى دراستهم ومصنفاتهم النحوية حيث يقوم كما سبق أن ذكرنا على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعاً[٢] .

علم النحو عند أهل الشام والعراق خلال القرن الرابع :

أولا : الشام

بدأ القرن الرابع الهجرى وعلم النحو موزع بين أهل البصرة والكوفة وبغداد على ثلاثة مذاهب أو اتجاهات ، كما سبق أن بيّنا . وكان نصيب أهل الشام خلال هذا

(١) عصر الدول والإمارات بالشام د/ شوقى ضيف ص ٨٣ .
(٢) انظر المدارس النحوية لشوقى ضيف ص ٢٤٥ .

القرن أن نزل عندهم علماء نحويون يمثلون الاتجاه البغدادى ، ذلكم الاتجاه الذى مزج بين النحو البصرى والنحو الكوفى وأخذ أحسن ما عندهم . فكان للشام اتجاه نحوى وهو الاتجاه المختلط الناتج عن البصرى والكوفى .

كانت ندوة سيف الدولة خلال القرن الرابع الهجرى حافلة بعلماء النحو الذين يقصدونه من كل صوب ، يلقون من كرمه ما يدفع بهم إلى تجويد صناعاتهم . فقد ضم مجلسه الحسين بن خالويه صاحب كتاب إعراب ثلاثين سورة ، وكتاب المذكر والمؤنث ، وكتاب الجمل فى النحو[1] .

وضم أيضا أبا الطيب اللغوى صاحب كتاب «مراتب النحويين» وكتاب «الإبدال»، وكتاب «المثنى» ، وكان نجما ساطعًا فى سماء حلب حتى توفى سنة ٣٥١هـ[2] .

وضم ابن جنى صاحب كتاب « الخصائص » و « سر صناعة الإعراب »[3] .

وضم كذلك أبا على الفارسى الذى كتب أثناء وجوده فى حلب كتاب «المسائل الحلبية ، والمسائل البغدادية ، والمسائل الشيرازية ، والمسائل البصرية ، والمسائل الدمشقية»[4] .

وكان للنحو واللغة حظ وافر من العلماء ، فكان بحلب خلال القرن الرابع أبو الطيب اللغوى ، ونزل حلب ابن خالويه اللغوى النحوى ، واتخذه سيف الدولة مؤدباً لأبنائه ، وكان ينزع فى آرائه منزع الكوفة[5] .

كما كان من النحاة من هم أقل شهرة مثل أحمد البازيار ، والنامى الشاعر الذى بدأ حياته نحويًا فى بلدته المصيصة ثم تحول شاعراً ، وكانت له إملاءات لغوية ونحوية بحلب، والتف حوله كثير من التلاميذ ، وقد ولع ـ خلال القرن الرابع ـ النحويان :

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٢٤ .

(٢) معجم المؤلفين لكحالة ٣٣٤/٢ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤٢/٢ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٤٧/٣ .

(٤) الفهرست لابن النديم ص٩٥ ، وإنباه الرواة للقفطى ٣٠٩/١، وتاريخ بروكلمان ١٩٣/٢ .

(٥) عصر الدول والإمارات « الشام » د/ شوقى ضيف ص ٨٣ .

أبو على الفارسى وابن جنى ، ولكل منهما نشاطه الملحوظ ودوره البارز فى علم سواء فى التدريس أو التصنيف .

دور أبى القاسم الزجاجى فى علم النحو :

رحل أبو القاسم إلى الشام وأقام بحلب مدة ، ثم تركها إلى دمشق واتخذها دار مقام له ، وأكبَّ على تصانيفه فيها وإملاءاته ، ثم خرج إلى طبرية فى آخر حياته ، وقد نُشِرَ له كتب فى النحو مثل : الإيضاح فى علل النحو ، وكتاب الجمل وهو مختصر فى قواعد النحو ، نال شهرة مدوية فى العصور الوسطى[1].

استقصى الزجاجى علل النحو البصرى والكوفى فى كتابه « الإيضاح » وقال فى ذلك : « وأكثر ما أذكره من احتجاجات الكوفيين إنما أعبّر عنه بألفاظ البصريين»[2]، ومن يقرأ كتاب الإيضاح يرى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والفقه ، أو بعبارة أدق عللها جميعا تمس جوانب التعليل والاحتجاج فيه ، وكل مسألة يرى فيها جدالاً أو حجاجًا بين البصريين والكوفيين يوردها مفصلا القول فيها ، وقد يضيف من عنده وجوهاً من العلل والأقيسة وهى جميعًا تغمس فى اصطلاحات المناطقة والفلاسفة والمتكلمين وأصحاب علم الأصول ، ونحس فى وضوح أنه يقف مع البصريين مناضلاً مدافعًا ، وقد يتابع الكوفيين فى رأيهم دون البصريين ، وقد يتوقف بإزاء آراء الكوفيين والبصريين جميعًا محاولاً استنباط رأى جديد كما فى كلمة « سوى » فالبصريون يقولون أنها « ظرف مكان دائما » والكوفيون يقولون أن «سوى» تستعمل ظرفًا كثيراً وغير ظرف قليلاً ، أما الزجاجى فذهب إلى أنها ليست ظرفًا ألبتة ، وأنها تقع فاعلاً فى مثل : « جاء سواك » ومفعولا به فى مثل «رأيت سواك» وبدلاً أو استثناء فى مثل « ما جاءنى أحد سواك أى يجوز فيها الرفع على البدلية والنصب على الاستثناء[3].

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٦/٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٣٩/١١ .

(٢) الإيضاح فى علل النحو لأبى القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى ص ٨٠ طبعة القاهرة .

(٣) انظر مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى ت ٧٦١هـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١٤١/١.

ولعل فيما سبق ما يصور بغدادية الزجاجي على الرغم من أنه كان يسلك نفسه في البصريين[1]، فقد كان يحيط بآراء المدرستين ووجوه اعتلالاتها واحتجاجاتها على خصائصها ، ومضى فى تصانيفه وآرائه النحوية يتوقف بإزاء كثير من المصطلحات والآراء البصرية مختاراً لنفسه ما يقابلها عند الكوفيين وكثيراً ما نفذ إلى آراء جديدة .

دور أبى على الفارسى فى علم النحو :

كان أبو على الفارسى يخالط الكوفيين والبغداديين والبصريين فى حلقات استظهروا فيها مذاهبهم النحوية ، واتسع بثقافته فشملت كتابات المتكلمين ، وقبل أن يرحل إلى الشام جلس فى مساجد بغداد للتدريس والإملاء ، وكان فيه حبّ الرحلة ، فتنقل يملى ويدرس فى بعض مدن الموصل ، ودخل حلب ومعه تلميذه ابن جنى وتحول إلى بعض مدن الشام ، ثم بغداد ، ثم شيراز وبعد قليل عاد إلى بغداد فى آخر حياته .

وكان أبو على الفارسى ينسب إملاءاته إلى أماكن دراستها . ففى الشام صنف المسائل الحلبية ، والمسائل الدمشقية ، ومن مصنفاته أيضا : الإيضاح والتكملة والعوامل المائة والمقصور والممدود ، ومن أهمها كتاب الحجة فى القراءات السبع ، وفيه يحتج لكل قراءة من تلك القراءات من اللغة والشعر ناثرا آراء النحاة البصريين والكوفيين ، منتصراً تارة للبصريين وتارة للكوفيين ، مع نزعة فيه للأخذ برأى البصريين ، مما جعل أبو حيان التوحيدى يقول فيه : « أبو على أشد تفرداً بالكتاب ـ كتاب سيبويه ـ وأشد إكباباً عليه وأبعد من كل ما عداه من علم الكوفيين »[2]. ورغم ذلك فإن أبا على الفارسى كان ممن خلط بين آراء المدرستين فى وضوح ، فمذهبه بغدادى ينتخب من المدرستين ما يراه أولى بالاتباع وإن غلب عليه النزوع إلى البصريين .

---

(١) الأشباه والنظائر للإمام السيوطى ١٤٦/٢ طبعة حيدر إباد .

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١٣١/١ نسخة مصورة عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

وكان عقل أبي على الفارسي على درجة عالية من الخصوبة بحيث ملأ نفس تلميذه ابن جني فأكثر من ذكر آرائه في كتابه « الخصائص » وغيره ، مما يجعلنا نعرف دور أبي على الفارسي في علم النحو .

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا أن ابن جني اعتمد في أكثر أصوله في كتابه الخصائص واستمدها من إملاءات أبي عليّ الفارسي .

وعلى نحو ما كان ينتخب لنفسه من الآراء البصرية مثل : أن لا النافية قد تأتي زائدة كما في قوله تعالي : (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون)[1] . كما انتصر للخليل وسيبويه البصريين في تحليل « ويكأنه » في قوله جل شأنه « ويكأنه لا يفلح الكافرون » إذ كانا يذهبان إلى أن (وىْ) مفصولة بمعنى أعجب ، وذهب الأخفش إلى أنها موصولة بالكاف ، أى (ويْكَ أنه) لا يفلح الكافرون) وويك عنده بمعنى أعجب ، وعلق أن وما بعدها بما في ويك من معنى الفعل[2] .

كان ينتخب من الآراء الكوفية ما صحّ في قياسه ، من ذلك أنه كان يقف مع الكوفيين في إعمال الفعل الأول من باب التنازع مستدلاً بقول امرئ القيس :

ولو أن ما أسْعَى لأدنى معيشة ∴ كفاني ـ ولم أطلب ـ قليلٌ من المال[3]

وكان يتابعهم في إعمال ، إنّ النافية عمل ليس لما رووا عن بعض أهل العالية في نجد من قولهم : « إن أحداً خيراً من أحدٍ إلا بالعافية »[4] . وغير ذلك من القضايا .

وليس كل ما يشكل بغدادية أبي عليّ أنه كان ينتخب لنفسه من المذهبين البصرى والكوفى ، بل يشكلها أيضا أنه كان يجتهد وينفرد بآراء لم يسبق إليها ، منها على سبيل المثال وليس الحصر : كان سيبويه البصرى والجمهور يذهبون إلى أن الأفعال الخمسة ترفع بالنون وتنصب وتجزم بحذفها ، وقال الأخفش الكوفى هي معربة

---

(١) سورة القصص الآية (٨٢) انظر مغنى اللبيب لابن هشام تحقيق محمد محيى الدين ٢٥١/١ .

(٢) الخصائص لابن جنى ١٧٠/٣ .

(٣) مغنى اللبيب لابن هشام تحقيق محمد محيى الدين ٥٠٨/٢ .

(٤) همع الهوامع للسيوطى ١٢٤/١ طبعة الخانجى القاهرة .

بحركات مقدرة على ما قبل الألف والواو والياء فى مثل : يكتبان ويكتبون وتكتبين ، وقيل إعراب هذه الأفعال بالألف والواو والياء ، وقال أبو على الفارسى : هى معربة ولا يوجد بها حرف إعراب ، لا النون لأنها تسقط فى النصب من الجزم ، ولا الألف والواو والياء لأنها ليست فى آخرها ، ولأنها ضمائر متصلة بها(١) .

فقد كان أبو عليّ الفارسى يسند آراءه دائما بالأدلة التى اصطلح عليها النحاة البصريون والكوفيون ، وهى السماع والقياس والتعليل، ومواد السماع عنده هى نفسها المواد المستخدمة قديماً من القرآن وقراءاته والشعر ورواياته ، وقد يتمثل بالحديث النبوى أحيانًا ، ويتعجب ابن جنى كثيراً من مهارته فى القياس حتى ليقول : « ما كان أقوى قياسه ، فكأنه كان مخلوقًا له » كما يتعجب من قدرته على التعليل وكثرة ما كان يدلى به من تعليلات فى مسائل النحو والتصريف حتى ليقول : « أحسب أنّ أبا عليّ قد خطر له وانتزع من علل هذا العلم ثلث ما وقع لجميع أصحابنا »(٢) .

دور أبى الفتح عثمان بن جنى فى علم النحو

لازم أبو الفتح أستاذه أبا عليّ الفارسى أربعين سنة متنقلاً معه فى رحلاته مشغوفًا بآرائه مبهوراً بفطنته ودقة أقيسته وتعليلاته ، ومعظم مادته العلمية مستمدة من أستاذه ، وكأن ابن جنى كان قلماً فى يده يسجل كل خواطره ولفتاته النحوية والصرفية ، اندفع ينميها ويضيف إليها من عقله الخصب النادر ما عله يتقن ظواهر التصريف والنحو علماً وفقهاً وتأويلاً وتحليلاً .

وقد أتاحت له رفقته مع أبى عليّ أن يرحل إلى الشام وأن يتعرف على بلاط سيف الدولة الحمدانى ويتعرف على المتنبى وأن تنعقد بينهما صداقة رفيعة ، فيشرح ديوانه ، وخلف أستاذه أبا على فى التدريس والتصنيف إلى أن مات فى ٣٩٢هـ .

ومن أهم مصنفاته : اللمع ، والمحتسب ، والمنصف ، وسر صناعة الإعراب ، والتصريف الملوكى ، وأهم كتبه « الخصائص » الذى حاول فيه وضع القوانين الكلية للتصريف .

---

(١) انظر همع الهوامع للسيوطى ٥١/١ .
(٢) الخصائص لابن جنى ٢٧٧/١ ، ٢٠٨ .

ومن الحق أيضًا أنه أضاف إلى الملاحظات الكثيرة التى أخذها من أستاذه وإلى استقصاءاته للأمثلة اللغوية وحسّه الدقيق بأبنية اللغة وتصاريفها ما شخصها وجسمها تمام التجسيم ، وقد مضى يستخلص قوانينه كلية أخرى لم يقف عند أبى على الفارسى[1] .

إن المتتبع لآراء ابن جنى يجد أنه من طراز أستاذه أبي على الفارسي والزجاجي ، طراز كان ينزع إلى البصريين ، وهو الطراز الذى عمّ وساد منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى سواء فى الشام وغير الشام ، وكان ابن جنى وأستاذه من أهم الأسباب فى شيوع الاتجاه المنتخب من المذهبين البصرى والكوفى مع نزعة شديدة إلى البصرى ، ومع الفسحة وفتح الأبواب على مصاريعها للاجتهاد ومخالفة البصريين والكوفيين بقدر ما يؤديهما النظر وتسعفهما الحجة[2] .

ولابن جنى آراء اجتهادية مختلفة انفرد بها عن أستاذه والمدرستين البصرية والكوفية ، فهو يجيز تقديم المفعول معه على المعمول قبله ، فيقال : « جاء وثيابَ الصوف البردُ[3] . وكان يذهب إلى أن العامل فى الخبر هو الابتداء والمبتدأ معًا ، وبذلك سوّغ تقدمه على المبتدأ فى مثل « شاعر محمد » لأنه إنما تقدم على أحد عاملى الرفع فيه وهو المبتدأ »[4] وغيرها كثير .

يُعدّ ابن جنى الذى عمل على تثبيت الاشتقاق الأكبر أو التقاليب الستة للأصل الثلاثى لأى كلمة ، وبيان أنه يجمعها هى ومشتقاتها معنى واحد بالفعل سبقه الخليل فى ذلك ، ولكنه لم يفكر فى أنها هى واشتقاقاتها يمكن أن يجمعها معنى واحد . فنهض هو بذلك وهو الذى سماه وهو الذى جسمه فى أمثلة مختلفة .

إن ابن جنى يسند كلامه دائماً بقراءات القرآن والسماع عن العرب وقد يستشهد بالحديث النبوى ، ولكن لا للاستنباط ووضع القواعد وإنما للائتناس . وكان مثل

---

(١) الخصائص لابن جنى ١/١٧٣ .

(٢) المدارس النحوية د/ شوقى ضيف ص ٢٦٨ .

(٣) الخصائص لابن جنى ٢/٣٨٣ .

(٤) الخصائص لابن جنى ٢/٣٨٥ .

أستاذه يعنى بالقياس عناية شديدة ، حتى ليمكن أن يقال إن كتابه الخصائص إنما هو مجموعة كبيرة من الأقيسة السديدة ، وبلغ من عنايته بالقياس أنه كان يقول : « إن مسألة واحدة من القياس أنبل وأنبه من كتاب لغة عند عيون الناس »[1] .

ثانيا : العراق :

سبق أننا عرفنا أن العراق هى منشأ النحو سواء فى البصرة أو الكوفة أو بغداد ولكن حديثنا الآن يختص بالقرن الرابع وعن علم النحو فيه ، فقد ظهر خلال القرن الرابع اتجاه ثالث، هذا الاتجاه حاول ألا يركن إلى البصريين ولا إلى الكوفيين بعد أن انكسرت حدة العصبية لأحد الفريقين فأخذ الاتجاه الثالث يعرض علم المذهبيين ومنهجيهما وآراءهما ، وينظر أصحاب هذا الاتجاه فى شواهدهما وأصولهما وأقيستهما ليتعرفوها ويتعمقوا النظر فيها ويقارنوا بينها من حيث الصحة والخطأ والقوة والضعف وكان ذلك فى بداية القرن الرابع الهجرى ، وذلك كى يبينوا أحكامهم على أسس متينة صلبة . وقد تبين عند أصحاب هذا المذهب ثلاثة اتجاهات :

الأول : اتجاه من ظل بصرياً سواء كان بصرياً أم لم يكن، من أشهر هؤلاء أبو إسحاق إبراهيم بن السّرى الزجاج ت ٣١١هـ، ومنهم ابن السراج أبو بكر محمد بن السرى ت ٣١٦هـ، والزجاجى أب القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ت ٣٣٧هـ ، والمبرمان أبو بكر ابن محمد بن على العسكرى ت ٣٤٥هـ ، وأبو على الحسن بن عبد الغفار النحوى ت ٣٧٧هـ وأبو الفتح عثمان بن جنى ت ٣٩٢هـ[2] .

الثانى : اتجاه من ظل كوفيًا سواء أكان ممن أخذ عن شيوخ المدرستين أم ممن أخذ عن الكوفيين وحدهم ، ومن أشهر هؤلاء : أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى ت٣٢٨هـ (٢) .

الثالث : اتجاه من خلط المنهجين البصرى والكوفى فى مؤلفاته وآرائه واختار

---

(١) انظر الخصائص لابن جنى ٣٣/١ ، ٨٨/٢ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ١١١ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ١١٤ ، وإنباه الرواة للقفطى ٣٠٨/١ ، ٣٣٥/٢ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ١٥٣ .

منهما سواء أخذ عن شيوخ البلدين أو اقتصر فى الأخذ عن شيوخ أحدهما ، من أشهر هؤلاء : الأخفش الصغير أبو الحسن على بن سليمان النحوى ت ٣١٥هـ ، وأبو بكر أحمد بن الفرج بن شقير النحوى ت ٣١٧هـ ، وابن الخياط أبو بكر محمد بن أحمد بن منصور ت ٣٢٠هـ ، وأبو عبد الله إبراهيم بن محمد المعروف بنفطويه ت٣٢٣هـ[١].

خصائص الاتجاه الثالث الذى ساد فى القرن الرابع :

سبق أن بيّنا أن النحو عند البغداديين قد تميز بالخلط بين المذهب البصرى والكوفى فى المنهج والأصول والقواعد والأقيسة والمصطلحات ، وقد تميز هذا الاتجاه بعدة خصائص أهمها :

١ ـ نقل أصحاب هذا الاتجاه كثيراً عن البصريين فقد كان أبو على النحوى ت٣٣٧هـ يكثر النقل عن البصريين ويسميهم « أصحابنا » ويعتمد على منهجهم كثيراً ، وعلى نحوهم المتمثل بكتاب سيبويه فى الآراء والشواهد وأسلوب البحث والمناقشة ، ويتباع سيبويه فى التأويلات والأحكام ، ونقل آراء معدودة للنحاة الكوفيين الآخرين كالكسائى والفراء[٢].

كما نجد أبا بكر الأنبارى ت ٣٢٨هـ يعتمد على آراء الكوفيين كالكسائى والفراء وإن كان ينقل عن البصريين ولا سيما سيبويه[٣].

٢ ـ كثر عندهم اللجوء إلى التحليل والتأويل والحجاج والجدل المصحوب بالاستدلال والتعليل ، وذلك واضح عند ابن جنى ت ٣٩٢هـ[٤].

٣ ـ لجأوا إلى التأويل والتقدير فى العبارات والشواهد الفصيحة والآيات القرآنية، التى يوحى ظاهرها بالخروج عن الكثير المطرد الشائع فى كلام العرب وبمخالفة

---

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ١١٥ ، ١١٦، ١١٧ ، ١٥٤ .

(٢) انظر المدارس النحوية د/ شوقى ضيف ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ وما بعدهما .

(٣) انظر حضارة العراق للدكتورة خديجة الحديثى ٢٧١/٧ .

(٤) انظر الخصائص لابن جنى ١٧٣/١ ، ٣٢١/٢ وما بعدها .

الأقيسة الموضوعية ، وكان أبو بكر بن الأنبارى خير من اتضح عنده هذا النوع من التقدير والتأويل[١] .

٤ ـ جدّ عند البغداديين استعمال أسلوب تقسيم الموضوع إلى أجزائه وأحواله وأنواعه ثم حد كل جزء منها ما يميزه من الأجزاء أو الأنواع الأخرى ثم البدء بالاستدلال عليها والاحتجاج لها والتعليل لما هو محتاج إلى التعليل منها ، وقد كثر هذا عند ابن الأنبارى واستعمله أبو على الفارسى وابن جنى[٢] .

٥ ـ تأثر بعض هؤلاء بألفاظ أهل المنطق وعلم الفلسفة اللذين شاعت ألفاظهما ومصطلحاتهما في هذا العصر ، فأخذوا يستعملون في كتبهم اللغوية والنحوية ألفاظًا منها : العرَض والجوهر والعلة وعلة العلة والدليل والحجة وما إليها[٣] .

٦ ـ اهتم بعضهم باختيار الفصيح مما يسمع من كلام العرب والتثبت منه ومن فصاحة الناطقين به من الأعراب ، واعتنى بالتمييز بين لغات القبائل ووضع شروطًا للمتكلمين من سكان المدن وسكان البادية وكان كتاب « الخصائص » لابن جنى خير دليل على هذا الاهتمام .

٧ ـ تبين عندهم استعمال مصطلحات المذهب الذى يميلون إليه ، فقد كان أبو على وابن جنى يستعملان مصطلحات البصريين فى الكثير الغالب ، وأبو بكر بن الأنبارى يستعمل مصطلحات الكوفيين ، وإن استعمل بعض مصطلحات البصريين ، كما استعمل مصطلحات لا بصرية ولا كوفية بل خاصة فى استعمالها[٤] .

٨ ـ اهتموا بالعامل النحوى ووضعوا له أصولا وأحكاماً .

٩ ـ كان لمعظم هؤلاء آراء خاصة ليست بصرية ولا كوفية ، فقد كان لأبى بكر ابن الأنبارى آراء اجتهادية[٥] .

---

(١) حضارة العراق للدكتورة خديجة الحديثى ٢٧٢/٧ .

(٢) انظر حضارة العراق للدكتورة خديجة الحديثى ٢٧٢/٧ .

(٣) انظر الخصائص لابن جنى ١٧٣/٣ ، ٣٢٨/٣ .

(٤) حضارة العراق للدكتورة خديجة الحديثى ٢٧٤/٧ .

(٥) حضارة العراق للدكتورة خديجة الحديثى ٢٧٤/٧ .

لقد استمر النحاة بعد هؤلاء البغداديين يأخذون النحو عنهم بصريين كانوا أم كوفيين أم بغداديين ، خلطوا المذهبين ومالوا إلى أحدهما أم لم يخلطوا .

ابن السراج ودوره فى علم النحو :

عكف على دروس أستاذه المبرد النحوية واللغوية ، وعُنى بجانب ذلك بدراسة المنطق والموسيقى ، وتحول بعد موت المبرد إلى حلقات الزجاج ، ثم السيرافى ، ثم أبو على الفارسى ، وكان يعنى عناية واسعة لعلل النحو ومقاييسه ، وفيها صنف كتاب الأصول الكبير ، وله مصنفات نحوية مختلفة منها كتاب مجمل الأصول ، وكتاب الاشتقاق ، وشرح سيبويه ، وكتاب احتجاج الفراء(١) .

ابن السراج وتأثيره فيمن بعده :

إن المصنفات النحوية التى جاءت بعد ابن السراج قد احتفظت من كتاب الأصول الكبير بنصوصه ترينا من بعض الوجوه طريقته وتبين تأثيره فيمن بعده ، ذلك ما ذكره عند ابن جنى ، أنه يعلل لاختلاف صيغ الأفعال باختلاف أزمنتها(٢) .

ابن السراج وعنياته بالقياس :

كان يُعنى بالقياس عناية شديدة جعلته يهاجم من يعتدّون بالشواذ والنوادر ، داعياً إلى إسقاطها حتى لا يحدث اضطراب فى المقاييس النحوية والصرفية(٣) .

من آراء ابن السراج النحوية والصرفية :

آراؤه كثيرة تتداولها كتب النحو التى جاءت بعده منها أنه كان لا يرى ما يراه الجمهور من أنّ الظرف والجار المجرور إذا وقعا خبرا أو حالاً أو نعتًا يتعلقان بمحذوف

---

(١) إنباه الرواة للقفطى ١٤٨/٣ ، ١٤٩

(٢) انظر الخصائص لابن جنى ٣٣١/٣.

(٣) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ٢٣٢/١.

تقديره مستقر أو استقر ، إذ كان يذهب إلى أنهما قسم مستقل بنفسه يقابل الجملتين الأسمية والفعلية [1].

وكان جمهور البصريين يذهب إلى أن « ليس » فعل ناقص لاتصالها بالضمائر مثل : لست ولستما ولسن ، وذهب ابن السّرّاج إلى أنها حرف لأنها لا تتصرف ، أى لا يأتى منها المضارع والأمر .

ومثلها « عسى » كان يرى أنها حرف لعدم تصرفها كليس بينما يرى الجمهور أنها فعل لاتصالها بالضمائر مثل عساك وعساه[1].

ونوه القدماء طويلا بكتابه الذى صنفه فى الاشتقاق ، وفيه يقول السيوطى : « هو أصح ما وضع فى هذا الفن من علم اللسان » وكان يقول : « من اشتق اللفظ الأعجمى المعرّب من العربى كان كمن أدّعى أن الطير من الحوت »[3].

أبو بكر بن الأنبارى ودوره فى علم النحو :

أكب منذ نشأته على حلقات العلماء فى عصره ، وكان صاحب حافظة قوية ، وصنف كتباً كثيرة فى علوم القرآن وغريب الحديث والمشكل والوقف والابتداء ، كما صنف فى اللغة والنحو ، كتاب الأضداد ، والمقصور والممدود ، وكتاب المذكر والمؤنث، وكتابى الموضح والكافى فى النحو[4].

من آراء ابن الأنبارى فى النحو :

كان أبو بكر بن الأنبارى يذهب إلى أن « إلى » قد ترد اسمًا فيقال : انصرفت من إليك ، كما يقال : غدوت من عليك »[5]. وكان يجعل من معانى « كان الشك مثل : كأنك بالشتاء مقبل « أى أظنه مقبلا »[6]. وذهب إلى أن « بين » الظرفية قد

---

(١) انظر الهمع للسيوطى ٩٩/١ .

(٢) مغنى اللبيب لابن هشام ٢٩٣/١ ، ١٥١ .

(٣) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ٢٨٧/١ .

(٤) إنباه الرواة للقفطى ٢٠١/٣ ، ٢٠٨ .

(٥) مغنى اللبيب لابن هشام ٧٥/١ .

(٦) مغنى اللبيب لابن هشام ١٩٢/١ .

تقع شرطية إذا جاءت فى أول الكلام مثل : « بينما أنصفتنى ظلمتنى » [(١)].

ومعروف أن « كلا » تضاف دائمًا إلى اثنين أو إلى ضمير الاثنين مثل « كلا محمد وعلى » وكلاهما ـ وذهب ابن الأنبارى إلى جواز إضافتها إلى المفرد بشرط تكرارها ، فتقول : « كلاى وكلاك محسنان »[(٢)].

لم تنحسر ظلال المدرسة الكوفية أو غيرها على أحد بعينه ولا بعد أبى بكر بن الأنبارى ، فقد ظلت تنقبض وتمتد فى الحين بعد الحين .

أبو سعيد السيرافي واهتمامه بدراسة اللغة والنحو :

كان أبو سعيد يُعنى بالنحو ويفزع إليه الطلاب فى تفسير عويص وحلّ مشاكله ومستغلقاته . وكان شديد الصلة بالمنطق والمباحث الفلسفية ، وهى صلة سلحته بقوة الحجة وسلامة البرهان ، مما أضرم فيه نار الجدل وجعله يظفر دائمًا بمناظريه ، ومناظرته التى أفحم فيها متى بن يونس مشهورة ، وكان موضوعها النحو والمنطق أيهما أدق فى معرفة صحيح الكلام من سقيمه وسديده من مدخوله ، وكان يدافع فيها عن النحو ، وكان يشغف بكتاب سيبويه ، فألف عليه شرحه المطول ، وهو يضم فيه آراء مخالفيه من البصريين والكوفيين جميعا وله مصنفات أخرى عديدة[(٣)].

عندما شرح أبو سعيد الكتاب لسيبويه فإنه لم يتخد من هذا الشرح منهجًا ثابتًا فتارة يتقدم كلام سيبويه بموجز يوضحه ، وتارة يبدأ بكلام سيبويه ويأخذ فى شرحه وتوضيحه ، وإذا كان كلام سيبويه واضحاً فلم يتعرض لشرحه .

وقد اتسع أبو سعيد السيرفى فى كثرة ما أضافه من شاهد فى شرحه للكتاب كما اتسع فى بيان وجوه الإعراب الممكنة لها ولما يسوقه سيبويه من شواهد .

وكان السيرافى يتوسع فى التعليل توسعاً أسعفه عقله الجدلى الخصب فليس هناك

---

(١) همع الهوامع للسيوطى ٢١١/١ .

(٢) مغنى اللبيب لابن هشام ١/ ٢٠٣ .

(٣) إنباه الرواة للقفطى ٣٤٨/١ ، ٣٤٩ .

شيء علله النحاة إلا ويُذكرُ عللهم فيه ، وتضاف علل جديدة وما لم يعللوه حاول جاهدا أن يجد له علة أو عللاً تسنده ، من ذلك أن تراه يعلل لعدم جر المضارع كما جُرَّ الاسم بسبع علل[1] .

من آراء أبى سعيد السيرافى فى النحو

كان سيبويه والخليل يريان أن الجزم فى مثل « إئتنى أكرمك » بنفس الطلب لتضمنه معنى إن الشرطية ، وذهب السيرافى إلى أن المضارع مجزوم بالطلب لنيابته مناب الجازم الذى هو الشرط المقدر ، كما أن النصب بضرباً فى قولك « ضرباً زيداً » لنيابته عن اضربْ لا لتضمنه معناه .

ويرى الخليل وسيبويه أن الجزم فى فعل «أكن» فى قوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ للعطف على معنى لولا أخرتنى أى إن أخرتنى ، وكان السيرافى يذهب إلى أن « أَكُن » معطوفة على محل « فَأَصَّدَّقَ »[2] الآية (١٠) المنافقون .

وبالسيرافى تنتهى مدرسة البصرة ، وتصل إلى غايتها من تأصيل القواعد ومدّ الفروع المتشابكة . وهى المدرسة التى تسلمت منها مدرسة الكوفة ، ثم المدرسة البغدادية .

تعقيب :

عند بدء المقارنة نثبت الفضل الأول لعلماء العراق فهم الذين نشروا هذا العلم العظيم ، وكانوا سببا فى ذلك الخير العميم ، الذى خيم على الأمة كلها . بتقويم لسانها وحفظ لغتها لغة القرآن الكريم .

فى الحديث عن ميدان السبق فى إنشاء النحو نجد أن العراق هى أسبق من غيرها فى وضع النحو ، وبالعراق نجد البصرة أسبق من الكوفة وكلاهما أسبق من بغداد ولا

---

(١) شرح السيرافى على كتاب سيبويه مخطوط بدار الكتب المصرية المجلد الأول ورقة (٣٨) .

(٢) مغنى اللبيب لابن هشام ٤٧٧/٢ .

خلاف فى ذلك ، نشأ النحو فى البصرة ، وما كان له أن ينشأ فى غيرها ، بسبب اتجاه أفواج من العرب وأخرى من العجم إليها ، وتوالت الهجرة إليها على تعاقب وازدياد ، وعاش أهل البصرة من العرب والعجم كما يعيش أهل الوطن الواحد ، من أصول مختلفة ، تجمعهم أواصره ، وتدعوهم دواعى العيش فيه إلى التفاهم والمعاملة ، ولا يمكن أن يتم تفاهم ، وتتيسر معاملة إلا باللغة فلم يكن بد لهذه الأخلاط من اصطناع لغة واحدة ، إلى جانب لغتها المتعددة فكانت العربية هي هذه اللغة ، لأن لغة الدولة القائمة ، ولسانها الرسمي وهيهات أن تستطيع الجاليات الأجنبية اتقان الفصحى والتحدث بها ، كما يتقنها ويتحدث بها العرب الخلص .

لذلك أصبحت العربية عربيتين : فصيحة يصطنعها العرب وأخرى يشوبها قليل أو كثير من اللحن والتحريف ، يتحدث بها المستعربون فى الحياة العامة ، على أن اللحن والتحريف كانا يشوبان لغة العرب أو بعضهم أيضاً .

ومعقول أن يكون وضع النحو أبان هذه الحقبة ، إذ كان خلاط العرب والعجم حينئذ أشد ، واللحن فى العربية أكثر ، والحاجة إلى النحو آكد .

فبالعراق نشأ النحو ومنها انتشر عبر القرون حتى القرن الرابع ، فإن أكثر العلماء الذين ينتسبون إلى علم النحو الذين نزلوا الشام قد ذهبوا إليها بعد أن درسوا النحو على علماء العراق ، كما سبق أن بيّنا ، وكما سنتبين فى فقرة التأثير والتأثر فيما يلى ، سنعرف أنهم ذهبوا إلى الشام بعد أن اتقنوا دراسة النحو وجلسوا لتدريسه فى مدن العراق .

إن اهتمام أهل الشام بعلم النحو خلال القرن الرابع الهجرى أمر ملموس من خلال ندوة سيف الدولة التى كانت تضم بين جنباتها علماء للنحو ويقصدون سيف الدولة ليلقون من كرمه ، ويدفعهم إلى الجودة فى التأليف والتدريس ، كالحسين بن خالويه صاحب كتاب الجمل فى النحو والمذكر والمؤنث وإعراب ثلاثين سورة فى القرآن[1] . ومثل أبى الطيب اللغوى الذى سطع نجمه فى حلب وألف كتاب « مراتب

---

(١) الفهرست لابن النديم ص١٢٤ .

النحويين » وغيره[1]. وغيرهم من العلماء الكبار كأبى على الفارسى ، وابن جنى صاحب كتاب « الخصائص »[2].

ومما يثبت اهتمام أهل الشام بعلم النحو هو ما قدموه من اجتهاد بعيداً عن المذهب البصرى أو الكوفى أو اختلاط المذهبين معاً ، بل استنباط آراء جديدة ، كما فى كلمة « سوى » فقد خالف فيها الزجاجى البصريين والكوفيين وقال أنها تقع فاعلا كما فى « جاءٍ سواك » ومفعولا به كما فى « رأيت سواك » وبدلاً أو استثناء فى « ما جاءنى أحدٌ سواك »[3].

ومما يثبت اهتمامهم أيضا بعلم النحو أن أبا على الفارسى كان يجتهد وينفرد بآراء لم يسبق إليها كما ذكرنا فى الحديث عنه وعن دوره فى علم النحو .

ومن الحق أن نذكر مدى اهتمام ابن جنى ، حيث أضاف إلى الملاحظات الكثيرة التى أخذها من أستاذه ، وإلى استقصاءاته للأمثلة اللغوية وحسه الدقيق بأبنية اللغة وتصاريفها ما شخصها وجسمها تمام التجسيم ، وقد مضى يستخلص قوانين كلية أخرى لم يقف عند أبى على الفارسى ، وله آراء اجتهادية انفرد بها عن أستاذه الفارسى وعن منهج البصريين والكوفيين ، كما سبق أن بيّنا فى الحديث عن دوره فى علم النحو .

ومما جعل هذا الاهتمام شيئاً ملموساً أنهم صنفوا كتباً فى علم النحو، فصنف أبو القاسم الزجاجى كتاب الجمل فى النحو ، وإيضاح علل النحو ، وغرائب مجالس النحويين[4].

وصنف أبو الطيب اللغوى فى طبقات النحويين كتاب مراتب النحويين[5]، وصنف أبو على الفارسى كتاب الإيضاح والتكملة ، وكتاب مختصر عوامل الإعراب،

---

(١) معجم المؤلفين لكحالة ٣٣٤/٢ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤٢/٢ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٤٧/٣ .
(٣) مغنى اللبيب لابن هشام ١٤١/١ ، والأشباه والنظائر للسيوطى ١٤٦/٢ .
(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان نقلا عن المزهر للسيوطى ١٧٥/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٧٩/٢ .
(٥) معجم المؤلفين لكحالة ٣٣٤/٢ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤٢/٢ .

والمسائل الحلبية والبغدادية والشيرازية والبصرية والكرمانية[١] .

وصنف ابن جنى كتاب اللمع، والخصائص، وسر الصناعة ، والمذكر والمؤنث[٢] .

ولم ينصب اهتمام هؤلاء العلماء على النحو وحده بل اتسع تأليفهم فشمل النحو وغيره من العلوم، فالزجاجى صنف النحو واللغة والفقه والعروض، فله كتاب حروف المعانى ، وكتاب اللامات، ومختصر الزاهد، وشرح خطبة أدب الكاتب لابن قتيبة ، واشتقاق أسماء الله وصفاته المستنبطة من التنزيل وتعليقات على صيغة الطلاق ، والمخترع فى القوافى ، والأذكار بالمسائل الفقهية، والمجموع فى معرفة أنواع الشعر وقوافيها[٣] .

وكذلك ابن جنى صنف فى النحو واللغة والعروض والقوافى ، والوقف والابتداء والتبصرة فى أصل الفقه ، والتنبيه فى الفقه وغير ذلك[٤] .

وكذلك أبو عبد الله بن خالوية صنف فى النحو والقراءات واللغة[٥] .

وكذلك أبو على الفارسى صنف فى النحو واللغة والقراءات ، والفلك، فله مقاصد ذوى الألباب فى العمل بالاسطرلاب[٦] .

إذا كان أهل الشام قد اهتموا بعلم النحو فإن أهل العراق هم الذين وجّهوهم إلى ذلك وسبقوهم إليه وإلى الاهتمام به ، وذلك واضح وجلىّ فى قيام المذهب أو المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية والمدرسة البغدادية ، ورحلات أصحاب تلك المذاهب إلى شتى البقاع ونشر علم النحو مما يدل على اهتمامهم به ، وكانت الشام من أولى الأقطار التى اهتم بها علماء العراق فى نشر علم النحو بها ونقل تل المذاهب النحوية إليها بهجرة ورحلة العلماء إليها .

---

(١) إنباه الرواة للقفطى ٣٠٩/١ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٩٣/٢ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص١٢٨ .

(٣) معجم المؤلفين لكحالة ٧٩/٢ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٥/٢ ـ ١٧٦ .

(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤٧/٢ ـ ٢٤٩، وكشف الظنون ٣٤٤/١ ، ٣٩٠ ، ٢٥٥/٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤٦٩ ، ٥٠٦ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص١٢٤ .

(٦) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٩٣/٢ .

ومما يثبت اهتمام علماء النحو بهذا العلم ، ما قاموا به من نظر فى شواهد الكوفيين والبصريين وأصولهم وأقيستهم والمقارنة بينها من حيث الصحة والخطأ والقوة والضعف عدوا أنفسهم اتجاها ثالثا أو مدرسة ثالثة . على رأس هؤلاء أبو إسحاق الزجاج، وأبو بكر بن السرّاج ، وأبو بكر العسكرى ، وأبو بكر الأنبارى ، وأبو الحسن الأخفش الصغير ، وأبو بكر بن شقير ، وابن الخياط ، وأبو عبد الله نفطويه .

ومما يثبت اهتمام علماء العراق أيضا لجوئهم إلى التأويل والتقدير فى العبارات والشواهد الفصيحة والآيات القرآنية التى يوحى ظاهرها بالخروج عن الكثير المطرد الشائع فى كلام العرب ، وبمخالفة الأقيسة الموضوعية وكان أبو بكر الأنبارى خير من اتضح عنده هذا النوع من التقدير والتأويل(١) .

وكذلك اهتمام بعضهم باختيار الفصيح مما يسمع من كلام العرب والتثبت منه ومن فصاحة الناطقين به من الأعراب ، والاعتناء بالتمييز بين لغات القبائل ، وكذلك الاهتمام بالعامل النحوى ووضع أصول له وأحكام .

وجعلوا هذا الاهتمام شيئا ملموسا فصنفوا فى علم النحو الكتب القيمة ، صنّف ابن السّرّاج « الأصول الكبير » و « الموجز والاشتقاق » و « شرح سيبويه » ، و«الجمل»(٢) .

وصنف أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى الأضداد فى النحو ، والكافى والواضح، والمقصور والممدود ، والموضح فى النحو(٣) .

صنف أبو بكر بن مقسم كتاباً فى النحو والمقصور والممدود ، وكتاب المذكر والمؤنث(٤) .

وصنف أبو سعيد السيرافى كتاب شرح سيبويه ، وأخبار النحويين وألفات الوصل والقطع ، والوقف والابتداء(٥) .

---

(١) حضارة العراق للدكتورة خديجة الحديثى جـ٧/٢٧٢ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص٩٣ .

(٣) إنباه الرواة للقفطى ٣/٢٠٧ ، والفهرست لابن النديم ص١٢٢ .

(٤) الفهرست لابن النديم ص٤٩ ــ ٥٠ .

(٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/١٨٧ ــ ١٨٨ .

ولم ينصب تصنيف هؤلاء العلماء على علم النحو فحسب بل صنفوا فى علوم أخرى كابن السرّاج ، صنف فى علم اللغة وصنف احتجاج القراءة ، والشعر والشعراء وصنف فى الأخبار والمذكرات [١].

وأملى أبو بكر الأنبارى فى اللغة والنحو والأخبار والأشعار[٢]، فكان من بحور العلم فى اللغة والتفسير والحديث[٣]، فصنف كتاب المشكل فى معانى القرآن ، وغريب الحديث ، والرد على من خالف مصحف عثمان ، وشرح المفضليات وشرح المعلقات[٤].

وصنف ابن مقسم فى القراءات والتفسير ومعانى القرآن ، والأدب ، والفرق فى الرد على المعتزلة ، وصنف فى الفقه كتاب الاختيار ، وفى القراءات المفردات الموضحة، والانتصار لقراء الأمصار[٥].

تأثر بعض علماء النحو بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام فى الشام أمر واضح عند أبى القاسم الزجاجى ، فمن يقرأ كتابه الإيضاح يرى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام تمس جوانب التعليل والاحتجاج فيه ، ويصنف أيضا من عنده وجوها فى العلل والأقيسة وهى جميعاً تغمس فى اصطلاحات المناطقة والفلاسفة والمتكلمين .

وكذلك علماء النحو فى العراق كان تأثيرهم بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام أمراً واضحاً ، فأخذوا يستعملون فى كتبهم اللغوية والنحوية ألفاظاً منها : العرض والجوهر والعلة وعلة العلة والدليل والحجة وما إليها[٦].

فابن السرّاج عُنى بجانب النحو واللغة بدراسة المنطق ، وقد أُجمع على فضله ونبله وجلالة قدره فى النحو والآداب[٧].

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٩٣

(٢) إنباه الرواة للقفطى ٢٠٢/٣

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٠٩/١١

(٤) إنباه الرواه للقفطى ٢٠٧/٣ ، والفهرست لابن النديم ص ١١٢.

(٥) الفهرست لابن النديم ص٤٩ ـ ٥٠ ، معجم الأدباء لياقوت ٣١٢/٥ .

(٦) الخصائص لابن جنى ١٧٣/٣، ٣٢٨/٣.

(٧) انظر إنباه الرواه للقفطى ١٤٨/٣ ـ ١٤٩.

وأبو سعيد السيرافى كان ينتحل العلم بالمجسطى ، وإقليدس والمنطق[1] . وله المناظرة المشهورة مع متى بن يونس حول المنطق والنحو ، وأخرى مع أبى الحسن العامرى[2] .

لذلك فاهتمام أهل الشام والعراق بالفلسفة والمنطق أمر لا شك فيه وأثره واضح فى علمهم .

التأثير والتأثر :

مما لا شك فيه أن تأثير علماء العراق واضح فى أهل الشام جميعًا حيث انتقل علماء الشام أو الذين نزلوا الشام وعاشوا فيها فى بداية الأمر من العراق بعد أن تلقوا العلم ، ومنهم من جلس للتدريس فى بغداد قبل أن يرحل إلى الشام .

يُعتبر أبو القاسم الزجاجى من علماء الشام حيث تنقل بين مدنها ولكنه بدأ تعلمه وسماعه العلم فى بغداد ونشأ بها وسمع من ابن دريد وأبى بكر بن الأنبارى وأبى إسحاق الزجاج وعلى بن سليمان الأخفش[3] . ثم بعد ذلك رحل إلى الشام وعاش فيها .

وكذلك أبو عبد الله بن خالويه أصله من همدان ، دخل العراق فى بغداد وسمع بها أبا بكر بن الأنبارى ، وابن مجاهد المقرئ وأبا عمر الزاهد ، وابن دريد ثم انتقل بعد ذلك إلى الشام بعد أن تأثر بالعلماء البغداديين ثم عاش بحلب فى كنف سيف الدولة ومع المتنبى وأكرمه آل حمدان[4] .

وكذلك أبو على الفارسى كان إمام وقته فى النحو، دخل بغداد سنة سبع وثلثمائة ثم رحل إلى الشام وأقام بحلب عند سيف الدولة فأثر بذلك فى علماء الشام ثم عاد إلى بغداد وقد تأثر بندوة سيف الدولة وما دار فيها من مجالس علم فى شتى العلوم[5] .

---

(١) طبقات النحويين للزبيدى ص ١١٩ .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان /١٨٧ ـ ١٨٨ .

(٣) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٦/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٥٧/٢ .

(٤) يتيمة الدهر للثعالبى ١٣٦/١ .

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ٨٠/٢ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٤١٤/٢ .

وكذلك أبو الفتح بن جنى عاش فى بغداد وأقام بها ودرس العلم ، ثم بعد ذلك انتقل إلى الشام وكان يحضر فى حلب عند سيف الدولة وعند المتنبى ويناظره ، ثم عاد بعد ذلك وتصدر مجلس أبى على الفارسى بعد موته ببغداد ، فقد أثر فى الشام وتأثر بها[1] .

فالناظر فى هذا الأمر يجد أن علماء الشام الأصليين لم يذهبوا إلى العراق ويجلسوا فى مجلس علم فيؤثرون فى أهلها ، ولكن الذى حدث هو أن تأثير أهل الشام كان تأثيراً غير مباشر ، حيث انتقل إليهم علماء النحو من العراق وعاشوا فى إقليمهم فسمعوا منهم ، وجلسوا هم ـ علماء العراق ـ لكى يحدثوا ويدرسوا العلم ويعقدون المناظرات مع أهل الشام فكان التأثير والتأثر متبادلا بهذه الطريقة ، وهذا واضح مع أبى على الفارسى ، وأبى الفتح بن جنى كرؤوس لهذا العلم فى القرن الرابع الهجرى .

مشاهير علماء النحو فى الشام :

من المعروف أن عالم اللغة هو عالم النحو ، من يقوم بتعليم اللغة يقوم بتعليم النحو ، وكان العالم يؤلف فى الميدانين معًا ، لذلك فعلماء اللغة فى الشام ـ السابق ذكرهم فى فصل اللغة ـ هم علماء النحو أيضا ، ولسنا الآن فى حاجة إلى ذكرهم مرة ثانية بالتفصيل والترجمة ، ويكفى أن نذكر أسماءهم فقط : مثل : عبد الرحمن ابن إسحاق الزجاجى ت ٣٤٠هـ، وأبو الطيب عبد الواحد بن على الحلبى ت ٣٥١هـ والحسين بن خالويه اللغوى ت ٣٧٠هـ، وأبو على الفارسى ت ٣٧٧هـ، وأبو الفتح عثمان بن جنى ت ٣٩٢هـ[2] .

مشاهير علماء النحو فى العراق

لم ينفصل النحو عن اللغة وخاصة خلال القرن الرابع الهجرى ، ومن ترجم لهم فى كتب الطبقات ترجم على أنهم علماء اللغة والنحو وسمى كتابه طبقات النحويين

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت ٤٦٦/٣ ـ ٤٦٧ .

(١) انظر ترجمة هؤلاء جميعاً فى فصل علم اللغة .

واللغويين[1] وهو أبو بكر الزبيدى ت ٣٧٩هـ من علماء القرن الرابع الهجرى، لذلك فقد ترجمت لعلماء اللغة وهم فى الوقت ذاته علماء النحو ، وقد سبق ذكرهم فى سبحث اللغة وليس مقبولاً أن نعيد ترجمتهم مرة ثانية بعد أن سبق الحديث عنهم فى مبحث اللغة .

لذلك نكتفى بسرد أسماء هؤلاء العلماء دون الحديث عنهم وهم : أبو بكر محمد بن السّرّى البغدادى ت ٣١٦هـ ، وأبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ت ٣٢١هـ ، وأبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى ت ٣٢٨هـ ، وأبو سعيد الحسن ابن عبد الله السيرافى ت ٣٦٨هـ، وكذلك من كان لهم فضل فى الشام كأبى على الفارسى وابن جنى .

---

(١) هذا الكتاب مطبوع ونشرته دار المعارف بالقاهرة فى أكثر من طبعة وحققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

الفصل الثالث

الأدب فى الشام والعراق

(١) الشعر (٢) النثر

الأدب شعراً ونثراً في الشام والعراق

في القرن الرابع

الأدب :

الأدب كل ما عبّر عن معنى من معانى الحياة بأسلوب جميل ، فلابد لعدّ الشيء أدباً من ركنين : معان تثير العاطفة ، وألفاظ جميلة ، أديت بها المعانى .

فالنظريات الرياضية ، ونظريات الطبيعة والكيمياء ليست أدباً ، لأنها حقائق مجردة تخاطب العقل لا العاطفة ، أما الأدب فيثير العاطفة ، من حزن وسرور وإعجاب وكره ، وازدراء وشفقة ونحوها ، فلابد فى الأدب من صناعة وتعبير جميل ، فالمعنى إذا لم يضع هذه الصياغة عبر عنه تعبيراً قبيحاً لا يسمى أدباً [(١)] .

والكتاب يحتاجون إلى أربعة أشياء : إلى تقويم سيرتهم ومذهبهم ، وإلى معاشرة رؤساء وأكفاء أتباع ، وإلى اقتناء علوم وأدوات لتنمو صناعتهم ، وإلى إجراء التدبير فى استعمالها[(٢)] .

الشعر فى كل من الشام العراق فى القرن الرابع :

استقل الأدب فى القرن الرابع الهجرى عن غيره من العلوم وأخذت ألوانه تتضح وتستقر ، وأصبح الأديب يتحرى الصدق ويتدبر الروايات ويأخذها من أفواه المعاصرين الثقات ، ويهمنا فيما يتصل بالأدب شعراً ونثراً أن نبين ملامح الشعر وأغراضه عند أهل الشام والعراق خلال القرن الرابع .

امتاز الشعر فى القرن الرابع عما سواه مما سبق من القرون بما يصح أن نسميه «علم الشعر» تمييزا له من العناية بنظم الشعر نفسه ، فالعصر السابق كان الشعر فيه شعر سليقة وطبعاً وخيالاً ، أما القرن الرابع فكان عصر علم وصنعة وتكلف ، فقد كان الشعراء يأتون بالمحسنات البديعية عفوا أو محاكاة للأقدمين أو تصرفاً فى الاختراع ، مما

---

(١) المفصل فى تاريخ الأدب العربى لأحمد الإسكندرى ٣٦/١.

(٢) جوامع العلوم تصنيف منعبى بن فريعون تلميذ أبى زيد البلخى ت ٣٢٢هـ مخطوط الصفحة (٥٠).

أدى إلى أن ينمو الشعر ويتطور فى الألفاظ والمعانى ، والأوزان والقوافى والأغراض والفنون ، فأما ألفاظه فقد رقت وسهلت وظهر فيها أثر الثقافة والحضارة ، وأما المعانى فكان الشعراء يتخذونها طريقا إلى أغراضهم ومطامحهم ، وكانت معانى حضرية صرفة يمتزج فيها العقل بالعاطفة والخيال بالثقافة ، وتحول الشعراء بالأفكار والصور القديمة إلى معارض جديدة يزينها الفكر العباسى بألوانه العقلية[1] .

أولا : الشعر عند أهل الشام :

كان للشعر خلال القرن الرابع جولة عظيمة ، وكثرت عادة المقطوعات الصغيرة فى وصف طرف صغيرة ، كالذى نلاحظه فى ديوان المتنبى ، وكذلك فى يتيمة الدهر للثعالبى المؤلفة خلال القرن الرابع الهجرى فنجدها مملوءة بالمقطوعات ، والكتاب مملوء بتراجم الشعراء الشاميين ، وقد عنى شعراء القرن الرابع بالتشبيهات والاستعارات أكثر مما عنوا بجدّة المعنى[2] .

والناظر فى الشعر خلال القرن الرابع فى الشام يجد كثيراً من الشعراء سلك المذهب القديم فى نظم الشعر كالمتنبى وأبى فراس وغيرهم ، وقلّ من سلك طريق الشعر الشعبى أو أتى بأقوال شعبية فى شعره بخلاف شعراء العراق ـ كما سنتبين ـ فمنهم من أكثر من الأقوال الشعبية .

كان سيف الدولة راعيا للأدب والفنون ، وكانت ندوته حافلة بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، بل كان سببا مباشراً من أسباب ارتقاء الشعر العربى واستحداث فنون جديدة : « إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ـ بعد الخلفاء ـ مع ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر ، شديد الاهتزاز لما يمدح به »[3] .

« لقد اجتمع لسيف الدولة ما لم يجتمع لغيره من الملوك ، فكان خطيبه ابن نباته الفارقى ومعلمه ابن خالويه ، ومطربه الفارابى ، طباخه كشاجم الشاعر ، وخزّان كتبه الشاعران الخالديان ، والصنوبرى ، ومداحه المتنبى والسلامى والوأواء الدمشقى والببغاء والنامى وغيرهم »[4] .

---

(١) أبو بكر الصولى العالم ـ النديم ـ الأديب / للأستاذ أحمد العمرى ص ٤٦، ٤٧ .

(٢) انظر ظهر الإسلام لأحمد أمين ١٠٢/٢ .

(٣) يتيمة الدهر للثعالبى ٣٧/١ .

(٤) مطالع البدور للغزولى علاء الدين على بن عبد الله البهائى ت ٨١٥هـ ٢/ ١٧٦ طبعة مصر سنة ١٣٠٠هـ .

كان سيف الدولة الحمداني من الملوك المثقفين ، واجتمع له إلى جانب هذه الثقافة أسباب قول الشعر ، فجاء شعره جميلا عذباً ، ولم يكن وحده شاعر بني حمدان، بل كان أقلهم قولا في الشعر ، فقد ضمت الأسرة الحمدانية كثيراً من الشعراء الممتازين وفي مقدمتهم الحارث بن سعيد المعروف بأبي فراس والأمير أبو وائل تغلب ابن حمدان ، وأبو العشائر ابن عم سيف الدولة وعامله على أ:(٣) انظر ترجمته ف زهير مهلهل بن نصر بن حمدان الذي أثنى المتنبي على شعره ثناء مستطاباً[١] .

لقد كان بلاط سيف الدولة يضم أعظم شعراء العربية في القرن الرابع الهجري من مختلف الأوطان ، ولم يقتصر على شعراء الشام وحدهم بل من أصقاع الشام والموصل والعراق وخراسان وفارس وجرجان وغير ذلك من الأوطان والأقاليم ، تجمعوا في ندوة سيف الدولة يتسابقون في مدحه ، ويلقى كل منهم من التقدير الأدبي والمادي ما يرضيه .

كان أكثر شعراء الندوة ينتمون إلى مهن وحرف مختلفة قبل أن يتفرغوا ويصيروا شعراء لامعين ، وكان شعرهم في كثير من الأحيان يفصح عن مهنهم الأولى ، فكان كشاجم ت ٣٥٠هـ وهو أبو الفتح محمود بن الحسين ، طباخاً ، والسري الرفاء أبو الحسن السري بن أحمد ت ٣٦٢هـ رفاء يرفو الملابس ، والنامي أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي المصيصي ت ٣٩٩هـ جزاراً ، والوأواء الدمشقي أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني ت ٣٩٠هـ فاكهياً .

لقد حفلت ندوة سيف الدولة بألوان من المودة حيناً ، وصور من المشاحنات حيناً آخر كانت تجري بين الشعراء ، فمن المودة ما كان يجري بين أبي فراس وبين القاضي أبي الحصين ، وكانت تتخذ طابعاً من شعر المساجلات الرائق الجميل .

ومن المشاحنات الطريفة ما كان يجري بين السّري الرفاء وبين النامي الشاعر ، وخصومه المتنبي وأبي فراس الحمداني ، مما أدى إلى انقسام الشعراء في بلاط سيف الدولة إلى معسكرين على رأس أحدهما أبو فراس وعلى رأس الآخر المتنبي وكل فريق يكيد للآخر[٢] .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ٥٣/١، ٥٧، ١١٥، ١١٦، ١١٧ .

(٢) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢٠٢، ٢٠٣ .

عُرف أهل الشام بشدة تعصبهم لأهل السّنّة ، بعيداً عن التشيع ، ولما هاجم الروم حلب سنة ٣٥١هـ وقتل معظم أهلها ، نقل سيف الدولة جماعة من الشيعة إلى حلب، وكان سيف الدولة نفسه يتشيع فغلب على أهلها التشيع[١] . وكان هذا التشيع تشيع ضرورة ، حتى يأمنوا جانب أصحاب النفوذ فى بغداد من الشيعة ، وخاصة البويهيين الذين ازداد خطرهم واستولوا على بغداد سنة ٣٣٤هـ، ويؤيد هذا الرأى كثير من المؤرخين من أن تشيع الحمدانيين كان خفيفاً[٢]، أو أن تشيعهم كان تشيع تفضيل[٣]. أى تشيع عاطفة وليس تشيعا غالباً .

كان لهذا التشيع فى الشام أثر واضح على الشعر حيث عمد أكثر الشعراء إلى إرضائهم بذكر المعانى الشيعية فى أشعارهم ، كقول المتنبى فى سيف الدولة إذا ما شبهه بأمير المؤمنين على بن أبى طالب حيث يقول[٤]:

يا سيف دولة ذى الجلال ومن له   خير الخلائف والأنام سَمِيّ

أو ما ترى صفين كيف أتيتها   فانجاب عنها العسكر الغربيّ

فكأنه جيش ابن حرب رُعْتَه   حتى كأنك يا علىّ علِىّ

فنون جديدة من الشعر عند شعراء الشام :

أضاف شعراء سيف الدولة إلى الشعر فنوناً جديدة وموضوعات مبتكرة ، منها :

شعر الحرب : يعتبر شعر الحرب فى مقدمة فنون الشعر الجديدة وإمام هذا القرن أبو الطيب المتنبى ، فهو ينقل القارئ إلى المعركة ، يشهد صليل السيوف وقراع القنا وصهيل الخيل وصياح المحاربين ودماء القتلى وتأوهات الجرحى ، وقد وصف المتنبى معارك سيف الدولة مع البيزنطيين أجمل وصف وأروع تصوير ، وكذلك أبو فراس الحمدانى ، والنامى الشاعر ، فهذا اللون من الشعر فن جديد فى موضوعه وصياغته ، وهو ثمرة من ثمرات مملكة سيف الدولة . ولم يكن المتنبى وأبو فراس وحدهما اللذين أسهما فى الحرب ، فلقد أسهم فى تصوير معارك سيف الدولة شعراء آخرون مثل :

---

(١) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ الشكعة ص ١٦٦ نقلا عن بغية الطلب فى تاريخ حلب .

(٢) أخبار الدول وآثار الأول للقرمانى ص ٢٦٧ طباعة حجر ببغداد سنة ١٨٨٢م.

(٣) نهر الذهب فى تاريخ حلب للغزى ١٩١/١ طبعة حلب بدون تاريخ .

(٤) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ الشكعة ص ١٦٧.

النامى والسّرى والرفاء ، ولكن فرقًا كبيراً بين شعر فارس خاض المعارك مثل المتنبى وأبى فراس وبين شعر شاعر قابع فى حلب يسمع أخبار المعارك سماع بقية الناس(١) .

الشعر الفلسفى : ظهر فى ندوة سيف الدولة مسحة من اللون الفلسفى عند بعض الشعراء وذلك يُعدّ شيئا طبيعيًا لوجود أبى نصر الفارابى فيلسوف المسلمين فى بعض الأحيان وسط هذه الندوة ، وكان أبو الطيب المتنبى أسرع الشعراء التقاطًا وأقدرهم على صوغ المعانى الفلسفية ، فقد ظهر عنده الشعر الفلسفى العربى لأول مرة ، وكثير من معانى المتنبى الفلسفية مأخوذة من حكم الفارابى ، فالفارابى يقول مثلا : كل كائن فبقضائه وقدره ، والشرور أيضا بقدره وقضائه(٢) . والمتنبى يقول :

قضاء من الله العلى أراده ألا ربما كانت إرادته شراً

وإذن فليس ثمة شك فى أن ندوة سيف الدولة قد قدمت إلى الأدب بواكير الشعر الفلسفى على يد أبى الطيب المتنبى(٣) .

شعر الديارات : فتحت الأديرة فى بلاد الشام أبوابها على مصراعيها للراغبين فى الاستمتاع بجوها الجميل ، وبساتينها المزهرة ، ورهبانها المثقفين ، وغلمانها الملاح ، فكثر الشعر فى الديارات ، نتيجة للتسامح المذهبى الذى ساد العلاقات بين المسلمين والنصارى .

وذلك كقول الصنوبرى أحمد بن محمد الحلبى ت٣٣٥هـ فى دير مرّان بالشام:

أمرّ بدير « مرّان » فأحْيا .. واجْعلُ بيت لهْوى بيت لهْيَا

وهكذا نرى أن الديارات قد استهوت الناس وبخاصة الشعراء فقالوا فيها شعراً رائقاً فى ظل إمارة سيف الدولة(٤) .

شعر الوصف : استحدث شعراء الشام خلال القرن الرابع فى مجتمع سيف الدولة الوصف بأنواعه ، فوصفوا الطبيعة وأبدعوا فيها حتى صاروا أساتذتها ، ووصفوا البساتين، والأزهار والجداول الرقراقة ، ولأول مرة فى تاريخ الشعر العربى يصفون تساقط

---

(١) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢٠٧ ، ٢١٦.

(٢) فيلسوف العرب والمعلم الثانى للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥م .

(٣) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢١٦ .

(٤) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢١ ، ٢١٨ وانظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع للدكتور محمد عيسى صالحية ٤٦٦/٣ .

الثلج ، ثم ينتقلون إلى وصف الحياة الاجتماعية من زواياها المختلفة ، وصفوا أيضًا الرقص والراقصين والراقصات وأدوات الموسيقى والعازفات ، ووصفوا الأطعمة المختلفة فى رقة بالغة ، ووصفوا الأدوات العلمية كالاصطرلاب والبركار والساعة المائية ، ووصفوا الحلاق والطبيب[1] .

روميات أبى فراس : لعلّ من خير الألوان الشعرية التى أتحفَ بها القرن الرابع الهجرى فى عهد سيف الدولة الأدب العربى روميات أبى فراس ، وهى القصائد التى أنشدها حينما كان أسيراً فى بلاد الروم يحن فيها إلى مراتع شبابه وملاهى صباه ، وكلها شعر جميل عذب جياش العاطفة دافق الوجدان لا يكاد يرتوى القارئ منه حتى يأتى على آخره .

هكذا نجد بلاط سيف الدولة ببلاد الشام خلال القرن الرابع الهجرى قد أثرى الأدب العربى ونمّى فى موضوعات الشعر وأغناها بفنون مستحدثة[2] .

وصف الطبيعة : نبغ الشاعر الصنوبرى فى وصف الطبيعة وهو أيضًا من نتاج مجلس سيف الدولة وقد توفى سنة ٣٣٤هـ وتغنى بذكر حلب والرقة ، وكانت له بمدينة حلب حديقة حول قصر فخم غرست فيها الأزهار فكثر تغزله فيها . وربما عدّ الصنوبرى نمطاً غريباً فى إكثاره من وصف الطبيعة من أزهار وسماء وضياء وهواء[3] .

الشعر عند أهل العراق :

بلغت الحضارة العربية الإسلامية فى العصر العباسى ذروتها خاصة فى العراق ، فى عدد شعرائها وثرائهم ، وقد جمع أبو الفرج الأصفهانى فى أواخر القرن الرابع الهجرى كثيراً من أشعارهم فى كتابه « الأغانى » وحسبنا دليلاً على غنى الشعر العربى وتنوعه أن نعرف أن هذا الكتاب يتكون من عشرين مجلداً ، وكان الشعراء ينشرون الدعايات المختلفة ، والناس يخشون هجومهم اللاذع ، والأغنياء يتابعون مديحهم بيتًا بيتًا ، والخلفاء يجزون الشعراء بالمناصب العالية وينفحونهم بالهبات السخية إذا قالوا فيهم قصائد من الشعر أو مجّدوا أعمالهم أو مدحوا قبائلهم[4] .

---

(١) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

(٢) انظر مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

(٣) انظر ظهر الإسلام لأحمد أمين ٢/١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٤) قصة الحضارة لـ : ول ديورانت ١٣/٢٢٥ .

فقد اعتمد الشعراء على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة فى كسب عيشهم بالقصائد الرنانة ابتغاء المنح والعطايا ، ولهذا كان الإغراق فى المدح من أهم مميزات الشعر فى العصر العباسى الثانى ، وكان الإفراط فى المدح هو السبيل الوحيد إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم(١).

لقد كان من مظاهر الازدهار الأدبى فى العراق ، هذا العدد الكبير من الرواة والأخباريين واللغويين والأدباء ، الذين حفظوا تراث الأمة ، ورووا الشعر وتناقلوه ، وخلفوا لنا المجاميع النفيسة من الشعر ولونًا آخر من الاختيارات الشعرية عرف بالحماسات فى القرن الرابع وما قبله فكان من بين هؤلاء فى القرن الرابع الشاعران الخالديان وهما أبو بكر محمد ، وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم ، فقد خلفا لنا مجموعتهما النفيسة التى أطلق عليها اسم الحماسة وقد ضمت أبوابًا مختلفة وعلى غرارها صنع أبو هلال العسكرى حماسته أيضًا . وإلى جانب هؤلاء كان آخرون يعنون بجمع الشعر المعاصر لهم وغيره ولهم مصادر عظيمة فى ذلك كالأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، وديوان المعانى للعسكرى والأوراق للصولى ، وإلى جانب هؤلاء أيضًا ، كان آخرون يعنون بجمع الشعر وكان من بين هؤلاء الثعالبى ت ٤٢٩هـ فأرخ فى كتابه « يتيمة الدهر » لشعراء المئة الرابعة ليس للعراق فحسب بل للعراق وغيرها من الأقطار(٢).

لقد اجتمع للعراق جمال الطبيعة والموروث العقلى والأدبى وطاقات مبدعة فى كل علم وفن ، وأدت الحياة الجديدة إلى تطور واسع فى فنون الشعر ، لغة وأسلوبًا فى العرض لذلك نستطيع أن نقول أن الشعر فى العراق خلال القرن الرابع يصح أن نسميه « علم الشعر » بخلاف ما كان عليه قبل ذلك حيث كان سليقة وطبعًا وخيالاً أما خلال العصر العباسى الثانى وخلال القرن الرابع فكان علمًا وصنعة وتكلفًا ، فقد نما وتطور فى ألفاظه ومعانيه ، وفى أوزانه وقوافيه وفى أغراضه وفنونه .

كان بالعراق خلال القرن الرابع قسمان من الشعر ، قسم قديم يسير على نمط القصيدة العربية ومن بين من ذهب إليه المتنبى والشريف الرضى وغيرهما ، وقسم شعبى ومن بين من ذهب إلى هذا القسم الشاعران الشهيران ابن الحجاج وابن سكرة

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى د/ حسن إبراهيم ٤٠٤/٣ .
(٢) حضارة العراق لنخبة من العلماء ٣٦/٧.

فقد أكثرا من الأقوال الشعبية فى صراحة من غير كتابة أو تورية[1].

موقف بنى بويه (حكام العراق) ووزرائهم تجاه الشعر والشعراء :

كان عضد الدولة شاعراً ، نابغاً فى عدة فنون وكان يستحث العلماء على التأليف ويقصده فحول الشعراء من أطراف البلاد كالمتنبى وغيره ، يقول عنه الثعالبى : « كان ـ على ما مكّن له فى الأرض ، وأوتى من سعة السلطان ـ يتفرغ للأدب ، ويتشاغل بالكتب ، ويؤثر مجالسه الأدباء على منادمة الأمراء ، ويقول شعراً كثيراً »[2].

وامتاز عهد آل بويه بالخصب العلمى والأدبى بتأثيرهم الخاص أو بتأثير وزرائهم ذلك أنهم استوزروا أبرع الكتاب وأبرزهم ، فقصدهم أهل العلم والأدب ، فأفادوا منهم كثيرا فى ميدان الأدب والعلم والفلسفة[3].

أثر الروح الفارسى فى الشعر العربى :

عندما استرد الفرس سلطانهم السياسى والاجتماعى فى القرن الرابع الهجرى تهيأ لهم أن يعبّروا عن ميولهم ورغباتهم بحرية كاملة ، كحبهم الأبهة ، وإحاطة أنفسهم بمظاهر العظمة والإجلال ، لهذا تلقب ملوكهم بأضخم الألقاب التى تشعر بالتجرؤ على مقام الألوهية ، إذ يلقب عضد الدولة ت ٣٧٢هـ بلقب (ملك الملوك) لأول مرة فى الإسلام ، فكان ذلك إحياء لرسوم الشرق القديمة[4]. ثم تبعه فى ذلك رجال الدولة فتهافتوا على الألقاب مما حمل الشاعر أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى ت٣٨٣هـ على أن يقول فى ذلك أبياته المعروفة :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا   من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم   ما كان يرضى به للحش[5] بوابا
قلّ الدراهم فى كفى خليفتنا   هذا فأنفق فى الأقوام ألقابا

---

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ١٠٣/٢ ـ ١٠٤ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ٢٥٧/٢.

(٣) يتيمة الدهر للثعالبى ٢٦٥/٢ وما بعدها .

(٤) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٤٢/١ .

(٥) الحش : البستان لسان العرب لابن منظور (حشش) .

وكما تأثر الشعراء بالميول الفارسية كذلك تأثروا بالأعياد الفارسية فأكثروا من تهنئة الملوك والوزراء والوجهاء بها خاصة في عيد « ليلة الوقود » يوقدون فيها ناراً متأججة ، يتعالى دخانها ويتطاير شررها ، فأكثر الشعراء من وصفها ومن وصف الطبيعة في جوها[1] ، فالسلامى قد أعجب بهذه النار واستولى عليه هذا الإعجاب فقال فيها :

مازلت اشتقاق ناراً أوقدت لهما ... حتى ظننت عذاب النار قد عذبا

يعلو الدخان بسود من ذوائبها ... قد عطا فيها قناع التبر واستلبا[2]

ذلك هو أثر الروح الفارسي في الشعر العربي في العراق ، الأثر السيئ في نفوس الشعراء ، في الوقت ذلك فإن البلاد لم تخل من عناصر إسلامية وعربية ما تزال مخلصة لإسلاميتها وعروبتها وتقاليدها ، كالشريف الرضى فقد حمله ذلك على أن يتعلق بقوميته العربية تعلقاً شديداً ، وكثرة أصدقائه من أعراب البادية وأمرائها ، وحنينه الشديد للوطن العربي وافتخاره بالإسلام وقوته على الفرس ، فقد كان الشريف الرضى ضيق الصدر بالحياة البغدادية يتمنى لو استطاع هجرها[3] .

أثر التشيع في الشعر العربي :

كانت ظاهرة التشيع من الظواهر الاجتماعية التي شجعتها السياسة البويهية في العراق خلال القرن الرابع الهجري ، فقد كان لها أثر واضح في الشعر العربي . حيث صور الشعراء الحياة النفسية عند الشيعة أقوى ما يكون التصوير ، فإن أدبهم إذا ما قرأناه نحس فيه آثار اللوعة ونلمس فيه آيات الحزن العميق ، إذ تنوح على سيد الشهداء الحسين بن علي رضى الله عنه ، إذ كان للأدب الشيعي خطره في الحياة الأدبية في القرن الرابع بما كان قد تهيأ له من ظروف سياسية واجتماعية أتاحت له فرصة النمو والازدهار ، لا سيما بعد أن كان الخوارزمي والشريف الرضى من حاملي لوائه . لقد كان الخوارزمي شيعيا متعصبا لأهل البيت صريحا في موالته وإخلاصه لهم؛ ولهذا سلط قلمه على خصومهم فاصلاهم ناراً حامية ، وربما كان الشريف الرضى أبرع أدباء الشيعة في تصوير آلامهم ومآسيهم في شعره[4] .

---

(١) الأدب في ظل بني بويه للزهيرى ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ٢/٤٨٧ .

(٣) الأدب في ظل بني بويه للزهيرى ص ١٦٠ .

(٤) الأدب في ظل بني بويه للزهيرى ص ١٧٤, ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ .

فنون الشعر عند شعراء العراق :

أما الأغراض فقد تعددت عند شعراء العراق وكثرت وشملت كل وصف ودخلت كل معرض من معارض الحياة فى ذلك العصر ، مع وجود أغراض جديدة مثل :

الشعر الفلسفى :

كانت المناهج الفلسفية وآراء المعتزلة وأهل الكلام والمنطق اتجاهاً سلك فيه الشعراء لا سيما قادة هذه المناهج ممن كان شاعراً ، فتحدثوا عن المسائل الدينية والروحية والعقيدة الإسلامية بأساليب تتميز بالجدل العقلى والمنطقى ، وكان لهذا الاتجاه أثره فى استقطاب مجموعة من الشعراء الملتزمين وآخرين سقطت فى ثنايا شعرهم مصطلحات فلسفية وألفاظ رددها المعتزلة وغيرهم[١]. كالمتنبى فى بعض أشعاره إذ يصوغ بعض المعانى الفلسفية ويكون حديثه إن صح فلسفة شاعر حين يقول[٢] :

ومراد النفوس أصغر من أن ... تتعادى فيه وأن تتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا ... كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحىٍّ ... لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بدٌّ ... فمن العجز أن تموت جبانا

الشعر الاجتماعى :

يمثل هذا الاتجاه مجموعة من المظاهر الاجتماعية تتفاوت بين القوة والضعف وسعة الأفق وضيقه ، وكان لها أثارها فى نفوس الشعراء وكان أبرزها شعر الزهد والتصوف ، وتعود البدايات الأولى لهذا الاتجاه الشعرى إلى عصر ما قبل الإسلام ، ففى القرن الرابع مضى أكثر من شاعر ينظم فى مجال الزهد متحدثا عن الموت والثواب والعقاب وإيثار ما يبقى على ما يفنى والتزود للآخرة بالتقوى والعمل الصالح .

وإلى جانب هذا التيار الرصين كان هناك تيار اللهو والهزل ، وقد سلك فى هذا التيار المنحرف جماعة من الشعراء منهم ابن الحجاج وابن سكرة[٣] .

---

(١) حضارة العراق لمجموعة من الأساتذة ٧/٣٧٤.
(٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى د/ إبراهيم أبو الخشب ص ١٩٣.
(٣) انظر حضارة العراق لمجموعة من الأساتذة ٧/٣٦٩ ـ ٣٧١.

الشعر التعليمى :

ويمثل هذا الاتجاه استجابة الشعر لدواعى التطور العلمى والثقافى وذلك ما دفع إلى نظم العلوم والمعارف بأسلوب شعرى تسهيلاً لحفظها وتداولها ، وكان ظهور هذا الاتجاه أثرا من آثار الحياة العقلية المزدهرة ، ونظم هذا الشعر يخلو من الروعة ، وينأى عن حسن السبك ، ويبعد عن ملامسة الإحساس ، وإثارة الوجدان ، فكانوا ينظمون فى علمى النحو والصرف ، وعلم القراءات وغيرها[1].

شعر الأطعمة :

يتناول هذا النوع الشعر الذى يتناول ألوان الأطعمة بالتطفل عليها أو الأكل لها ، أو الدعوة إليها ، أو الوصف لبعض أصنافها ، أو الشغف بها ، فابن سكرة الهاشمى يتحدث عن نفسه بالتطفل والدخول على الموائد من غير دعوة ولا سابق معرفة ، ويعتبر ذلك شعر البطالة والفراغ[2].

الشعر السياسى :

إذا كانت الحالة السياسية الداخلية قد لونتها معارضة أصحاب المذاهب المناهضة للدولة ، فإن الحالة السياسية الخارجية كانت تتلون بالتوتر مع أعدائها فيتصدى لها العباسيون ويضربون على أيديهم ، وكان على الشعر أن يصور هذا اللون السياسى من أحوال الدولة ، وذلك ما نقرؤه فى شعر كثير من الشعراء خلال القرن الرابع الهجرى ممزوجًا بمدح الأمراء أو القادة بالشجاعة ، وقوة الشكيمة والمقدرة القتالية مع دخول بعض المبالغات فيه[3].

الشعر القومى :

ترتفع بعض الرؤوس الأجنبية مشاركة فى سياسة الدولة خلال القرن الرابع مستغلة تسامح الخلفاء ، وفسح المجال الرحب أمام الجميع تطبيقًا لمبدأ العدل والمساواة ، ثم يتحول الأمر بعد ذلك إلى محاولات تنال من مكارم العرب وفضائلهم والتآمر على

---

(١) تاريخ الأدب فى العصر العباسى الثانى د/ إبراهيم أبو الخشب ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

(٢) تاريخ الأدب فى العصر العباسى الثانى د/ إبراهيم أبو الخشب ص ٢٠٠ .

(٣) انظر حضارة العراق لمجموعة من الأساتذة ٣٧٤/٧ ـ ٣٧٥.

ملكهم ، غير أن الروح العربية تبقى قوية فى مواجهة هذه المحاولات الشعوبية الحاقدة ممثلة بشخصيات عربية من القادة والولاة والشعراء ، الذين استخدموا شعرهم وسيلة إعلامية لحماية السيادة العربية ، ويتضح التطلع القومى فى شعر المتنبى إذ كان ذلك عاملاً رئيسياً فى ثورته على كثير من مظاهر الحياة السياسية فى عصره ، فكان يقول :

وإنما الناس بالملوك وما ... تفلح عرب ملوكها عجم(١)

الشعر العام :

يتمثل هذا الاتجاه بمجموعة من الفنون الشعرية التى يكاد يشترك فيها الكثيرون من الشعراء ، يعبّرون من خلالها عن ذواتهم وعواطفهم ومعاناتهم وعلاقاتهم بالمجتمع، وكان الوصف من الأغراض الشعرية القديمة ، أما فى العصر العباسى الثانى فكان الشعراء يكثرون من وصف القصور والبرك والطبيعة الحية والرياح والألبسة والأطعمة ومظاهر الترف الأخرى . وكذلك فن الغزل فن العواطف الإنسانية، وكذلك فنون الشعر الأخرى ، كالرثاء والهجاء والفخر وخير من يمثل تلك الأغراض الشريف الرضى والمتنبى(٢) .

تعقيب :

كان تفكك المجتمع الإسلامى خلال القرن الرابع ، وحدوث التفاوت بين الطبقات وتحلل كثير من الناس من القيود الاجتماعية والدينية سببًا أدى إلى تأثر الشعراء بتلك الظواهر ، وظهور النشاط الأدبى فى كل ناحية ، ومشاركة الشعراء فى الشئون العامة كالحرب والسياسة ، كما أثر فى علاقة الناس بعضهم ببعض ، وهنؤوا وعزوا وعاتبوا وشكوا واستعطفوا ومدحوا وهجوا ، وقد تساوى فى هذا التأثر كل من الشام والعراق .

وكان للتشيع أثر واضح على الشعر سواء فى الشام أو العراق ، وإن كان بالعراق قوياً عن الشام ؛ نظراً لأن بيئة العراق تحوى كثيراً من الفرق والجماعات والخلافات ، وإنّ حكامهم من البويهيين يتمذهبون بالمذهب الشيعى ، مما جعل كثيراً من الشعراء يعمد إلى إرضاء حكامهم بذكر المعانى الشيعية ، ففى الشام كان المتنبى يذكر فى

---

(١) حضارة العراق لمجموعة من الأساتذة ٣٧٦/٧ .

(٢) حضارة العراق لمجموعة من الأساتذة ٣٦٩/٧ .

سيف الدولة أبياتاً يشبهه فيها بأمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب[1]، خاصة وأن سيف الدولة كان يظهر الميول الشيعية كما ذكرنا فى أول المبحث ؛ ليأمن البويهيين وخاصة بعد استيلائهم على بغداد[2].

تأثر الشعراء بالروح الفارسى فى شعرهم حيث ذكروا كثيراً من التهنئة فى أعيادهم موجهة إلى الملوك والوزراء مثل عيد الوقود (النار) ، فأكثر الشعراء من وصفها ووصف الطبيعة فى جو تلك النار[3]، وهذا الأثر واضح فى شعر شعراء العراق دون الشام ، نظراً إلى أن التهنئة موجهة للملوك البويهيين ووزرائهم[4].

كما ذكر الشعراء الألقاب التى لم يعرفها الإسلام ولم يقبلها كلقب (ملك الملوك) التى تشعر بالتجرؤ على الألوهية ، إذ يلقب بها عضد الدولة فأحيوا بذلك رسوم الشرق القديمة[5]. وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إنّ أخنع اسم عند الله رجل يسمى ملك الأملاك » ومعنى أخنع : أوضع[6].

كان لاهتمام سيف الدولة بالشعر أكبر الأثر فى اتقاء الشعر وإحداث فنون جديدة، والدليل على مدى اهتمامه بالشعر فى بلاد الشام جوده وعطاؤه للشعراء ورعايته للندوة الدائمة فى بلاطه يقصدها الشعراء من كل مكان ، كما أنه يتمتع بموهبة الشعر والنقد ، ومعه كثير من أمرائه من الحمدانيين وعماله على البلاد ولم يقتصر عطاؤه على شعراء الشام بل امتد إلى الموصل والعراق وخراسان وفارس وجرجان .

أما حكام العراق ووزراؤهم فقد كان عضد الدولة يستحث الشعراء على قول الشعر والعلماء على التأليف ، ويقصده فحول الشعراء من أطراف البلاد ، فكان كثيراً ما يتفرغ للأدب ويتشاغل بالكتب ويؤثر مجالسة الأدباء ، ويقول شعراً ، واستوزر حكام بغداد أبرع الكتاب وأبرزهم ، فكان الوزير المهلبى أديبا كاتبا شاعراً ، وكان يعقد

---

(١) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ١٦٧ .

(٢) أخبار الدول وآثار الأول للقرمانى ص ٢٦٧ .

(٣) الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٤) يتيمة الدهر للثعالبى ٤٨٧/٢ .

(٥) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٤٢/١ .

(٦) صحيح البخارى كتاب الأدب ، باب أبغض الأسماء إلى الله ٤٨٦/١٠ .

المجالس الأدبية فى قصره ، فيقصدها كثير من الشعراء[1] .

كان تعدد الفنون الشعرية سواء القديمة أو الجديدة أمراً ملحوظاً عند شعراء الشام وشعراء العراق ففى مقدمة تلك الفنون الشعر السياسى أو شعر الحرب ، والشعر الفلسفى ، والشعر الاجتماعى وما يمثله من مظاهر اجتماعية ، والشعر التعليمى والشعر العام بما يحويه من موضوعات قديمة كالمدح والغزل والوصف والهجاء والرثاء، وموضوعات جديدة كوصف القصور والبرك والطبيعة والرياح والأطعمة ومظاهر الترف، والشعر القومى الذى يدافع عن العرب ضد الشعوبية وغيرها .

وقد تتميز الشام بأن من بين شعرائها من أتي بفن جديد من فنون الشعر ليس عند شعراء العراق وهو شعر الديارات فقد فتحت الأديرة أبوابها فكثر الشعر فيها نتيجة للتسامح المذهبى الذى ساد العلاقات بين المسلمين والمسيحيين[2] .

وكذلك أيضا شعر الروميات الذى انفرد به أبو فراس الحمدانى ، فهو من خير ألوان الشعر خلال القرن الرابع حيث أنشده أبو فراس وهو مأسور فى بلاد الروم .

وكثير من شعراء الشام والعراق ينتمون إلى مهن مختلفة فهم يزاولون قرض الشعر ونظمه مع مزاولة بعض المهن الأخرى فعلى سبيل المثال : من شعراء الشام أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بكشاجم كان طباخاً ، والسرى الرفاء كان يرفو الملابس، والنامى أبو العباس كان جزاراً ، والوأواء كان فاكهياً .

ومن شعراء العراق على سبيل المثال أيضا أبو القاسم على الزاهى كان تاجراً للقطن، والشريف الرضى كان عالمًا بعلوم القرآن وعلم النحو واللغة[3] .

وكثير من شعراء الشام لم يكن مغلقًا على علم الشعر وحده بل ساهم بنصيب فى علوم أخرى ، فعلى سبيل المثال : أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بكشاجم كان شاعراً ، وطلب علم الطب حتى مهر فيه[4] . كما عنى بعلم الفلك ، وفن الطهى والموسيقى ، ومع ذلك درس بحلب الحديث والفقه[5] .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ٢٥٧/٢ ، ٢٦٥ وما بعدها .

(٢) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ الشكعة ص ١٧ ، ٢١٨.

(٣) شذرات الذهب لابن العماد ١٨٣/٣ .

(٤) شذرات الذهب لابن العماد ٣٨/٣.

(٥) تاريخ التراث العربى لسزكين ٤٤/٤/٢.

وكذلك من شعراء العراق من كان له نصيب فى علم أو علوم أخرى بجانب الشعر ، فأبو الحسن بن لنكك البصرى كان شاعراً وعالماً بالنحو أيضاً[1].

وأبو الحسن السلامى ، كان شاعراً ومؤرخًا فقد كتب كتاباً فى تاريخ ولاة خراسان[2]. وكذلك الشريف الرضى كان شاعراً وعالماً فى معانى القرآن الكريم ، والنحو واللغة وألف فى ذلك كتباً عظيمة نادرة فى أبوابها[3].

إن كثيراً من الشعراء الشاميين ، قد قاموا برحلات علمية بين أقطار العالم الإسلامى فالشاعر كشاجم قد تنقل فى رحلته بين القدس ودمشق وحلب وبغداد ، ورحل إلى مصر واستقر فى حلب[4].

والشاعر المتنبى ولد بالكوفة ونشأ بالشام واتصل بسيف الدولة ثم رحل إلى مصر ثم العراق ودخل بغداد ثم الكوفة ثم الشام[5].

وأبو العباس النامى روى أمالى بحلب وقد سمعها بالعراق من ابن درستويه وأبى بكر الصولى ، وروى بها عن أبى بكر الخالدى[6].

وكذلك شعراء العراق لا يقلون عن شعراء الشام فى الرحلة إلى الأقطار الأخرى فالمتنبى وإن عددناه من شعراء الشام فهو أيضا من شعراء العراق وقد كانت رحلته معروفة مشهورة . وكذلك الشاعر الزاهى كان أكثر مقامه ببغداد ، ورغم ذلك كان يقيم أوقاتاً متقطعة فى حلب[7]. وكذلك أبو الفرج عاش بحلب فترة ثم بالموصل ثم بغداد . وكذلك الشاعر الموصلى الرفاء نشأ بالموصل ثم انتقل إلى حلب[8].

التأثير والتأثر بين الشعراء :

من الشيء الواضح مدى التأثير والتأثر بين شعراء الشام وشعراء العراق ، إذ نلاحظ

---

(١) تاريخ التراث العربى لسزكين ٦١/٤/٢.

(٢) معجم المؤلفين لكحالة ٤٥٨/٣.

(٣) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ١٨٣/٣.

(٤) معجم المؤلفين لكحالة ٨٠٤/٣.

(٥) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٤٨/٣ .

(٦) الفهرست لابن النديم ص ٢٤٠.

(٧) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٩٦/٢ ، ٩٨ .

(٨) انظر تاريخ التراث العربى لسزكين ٢٣٢/٤/٢.

أن كثيراً من شعراء الشام يتنقلون بين مدن العراق ، وكذلك شعراء العراق وخاصة مدينة الموصل يتنقلون بين مدن الشام . وما ينتج عن ذلك إلا تأثير وتأثر بينهما على النحو التالى :

أولا : الشام :

فى المقدمة المتنبى حيث كان كثير التنقل والرحلة من الشام إلى العراق إلى مصر وذلك أمر واضح فى شعره ، حيث كان يجالس أهل الأدب بكل قطر يذهب إليه . وكذلك أبو العباس النامى من خواص شعراء سيف الدولة قد تأثر بعلماء الشام وشعرائهم وأدبائهم ، فقد سمع من أبى بكر الصولى ، وابن درستويه ، وكذلك أثر هو أيضا فى شعراء الموصل كأبى الفرج الببغاء وأبى بكر الخالدى[1] .

ثانيا : العراق :

أما شعراء العراق فقد أثروا وتأثروا بشعراء الشام ، فالشاعر الببغاء أصله من العراق غلب عليه الشعر ، واتصل بسيف الدولة فى حلب ثم انتقل بعد ذلك إلى الموصل وبغداد . وكذلك ابن نباته السعدى نشأ فى بغداد وطاف البلاد ومدح الملوك والرؤساء ونزل حلب ومدح بها سيف الدولة ، وكذلك الشاعر السرى الرفاء بالموصل قصد حلب وعاش فيها فترة ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد[2] .

من مشاهير شعراء الشام :

أبو الفتح محمود بن الحسين بن شاهق المعروف بكشاجم ت ٣٥٠، وقيل ٣٦٠هـ[3].

هو من أهل الرملة من نواحى فلسطين ، وكان رئيسا فى الكتابة ومقدمًا فى الفصاحة والخطابة ، وكان من شعراء سيف الدولة ، طلب علم الطب حتى مهر فيه وصار أكبر علمه[4] .

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٥/١ـ ١٢٦ .

(٢) انظر تاريخ آداب اللغة لجورجى زيدان ٢٥٨/٢ ، ٢٥٩ ، ٢٥٤ .

(٣) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٢٤٠ ، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١١٧/٤ والعبر للذهبى ١١٠/٢ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٠/١ ، والفهرست لابن النديم ص ٢٠٠ وشذرات الذهب لابن العماد ٣٨/٣ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٦١١/١ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٧/٢ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٤٤/٤/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٨٠٣/٣ـ ٨٠٤ .

(٤) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٣٨/٣ .

تنقل بين القدس ودمشق وحلب وبغداد، ورحل إلى مصر أكثر من مرة، واستقر بحلب[1]. ثم صار كاتباً وشاعراً ونديماً، وغنى بعلم الفلك وفن الطهى والموسيقى، ودرس بحلب الحديث والفقه ثم انتهى به المطاف طاهياً ونديماً لسيف الدولة[2]. ذكر له ابن عساكر فى تاريخه أبياتاً من شعره، وذكر أنه دخل دمشق وساحلها، وذكر دير مرّان [3] فى شعره[4].

وكان لكشاجم شعر فى الشباب والشيب ووصف الثغور ووصف الصلع ووصف الخيل، وله فى ذكر العلم والعلماء، ووصف أجزاء من القرآن، ووصف تخت وبركار واسطرلاب، وفى وصف السكاكين، ووصف الشراب، ووصف الدوى والأقلام، ووصف الصوم فى الربيع، ووصف الرحل ووصف القيان، وفى مدح الغناء، ووصف الشمع، ووصف الليل، وفى سقوط الثلج[5].

وله من الكتب: كتاب أدب النديم، كتاب الرسائل، وله ديوان شعر[6]، وكتاب المصايد والمطارد، والطرديات فى القصائد والأشعار، وخصائص الطرب، وكتاب الطبيخ وكنز الكتاب[7] وآداب القدماء ولطائف الظرفاء[8].

أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الكندى المعروف بالمتنبى ت٣٥٤هـ[9].

وُلد بالكوفة ونشأ بالشام، وأكثر المقام بالبادية، وطلب الأدب وعلم العربية، ونظر

---

(١) معجم المؤلفين لكحالة ٨٠٤/٣ .

(٢) تاريخ التراث العربى لسزكين ٤٤/٤/٢.

(٣) مرّان : موضع بالشام قريب من دمشق . انظر معجم البلدان لياقوت ٩٥/٢ .

(٤) مختصر ابن عساكر لابن منظور ١١٧/٢٤ ـ ١١٨.

(٥) انظر زهر الآداب للحصرى ٨٩٨/٢، ٢٣٧/١، ٢٥٨، ٣٠٩، ٣٧٤، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٤٤٦/١، ٤٥٣، ٥٢٠، ٥٣٧، ٥٨٠، ٦١١/٢، ٦١٤، ٦٩٣، ٧٥٢، ٨٦٩

(٦) الفهرست لابن النديم ص ٢٠٠ .

(٧) انظر تاريخ التراث العربى لسزكين ٤/٢/ ٤٥ـ ٤٦ .

(٨) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٧٨/٢ .

(٩) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٢٤٠، ويتيمة الدهر للثعالبى ١٣٩/١، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٠٢/٤، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٤٨/٣، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٠/١، وشذرات الذهب لابن العماد ١٣/٣، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١٩/٤/٢، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٨١/٢ ، والمتنبى لمحمود شاكر ص ٢٤٥ ـ ٣٦٩ .

فى أيام الناس ، وتعاطى قول الشعر من حداثته حتى بلغ فيه الغاية ، وعلا شعراء وقته واتصل بالأمير سيف الدولة ، وانقطع له وأكثر مديحه ، ثم مضى إلى مصر فمدح بها كافور ، وأقام هناك مدة ، ثم ورد العراق ودخل بغداد ، وجالس بها أهل الأدب ، وقرئ عليه ديوانه(١) . واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ، وكان له أكثر من أربعين شرحًا، ما بين مطولات ومختصرات ، ولم يفعل هذا بديوان غيره ، ولا شك أنه كان رجلاً مسعوداً ، ورزق فى شعره السعادة التامة(٢) .

أضاف المتنبى إلى الشعر العربى فنونًا جديدة وموضوعات مبتكرة كشعر الحرب ويُعدّ إمامه ، حيث نعته النقاد بأنه قائد عسكرى ، ينقل المعركة وما يدور بها من أصوات وغيره إلى القارئ فى أحسن صورة . فكان المتنبى يجيد وصف المعارك الحربية وصفا لم يسبق إليه . وكذلك الشعر الفلسفى فقد كان المتنبى أقدر وأسرع التقاطًا من غيره على صوغ المعانى الفلسفية ، فقد ظهر عنده الشعر الفلسفى العربى لأول مرة ، وكثير من معانيه الفلسفية مأخوذة من حكم الفارابى(٣) . وقد قتل فى سنة ٣٥٤هـ(٤) .

وقد كان للمتنبى شعرٌ فى وصفه الكتب ، وأثر الأيام والليالى ، وفى وصف السواد ، وله أبيات تجرى مجرى الأمثال ، وفى وصف الخيل ، وله فى الوعد وانجازه ، ومدح النساء ، وذم السفر والغربة ووصف الكتب والأقلام ، وله فى الأمراء والملوك والخلفاء ، وفى طيف الخيال ، ووصف الحسان ، ووصف الديار الخالية ، وفى الحمّى، والشباب والشيب(٥) .

أبو فراس الحارث بن أبى العلاء سعيد بن حمدون الحمدانى ت ٣٥٧هـ(٦)

هو ابن عم سيف الدولة الحمدانى ، وكان يجمع بين أدبى السيف والعلم فى

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٤٨/٣ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢١/١ .

(٣) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢٠٧ ، ٢١٦ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٣/١ .

(٥) انظر زهر الآداب للحصرى ١٤٦/١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٣٠٩ ، ٣٢٠ ، ٣٤٨ ، ٣٨٦ ، ٤٣٠/١ ، ٥٨٥/٢ ، ٧٠٠ ، ٧٢٢ ، ٧٤٤ ، ٨٥٨ ، ٨٩٦ .

(٦) انظر ترجمته فى : يتيمة الدهر للثعالبى ٥٧/١ ، وما بعدها ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٥٨/٢ ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥٠/٦ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٤/٣ ، وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ٩٢/٢ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١٣/٤/٢ .

خدمته . فكان سيف الدولة يستخلفه على الشام إذ عزم على الغزو ، وكان أبو فراس يكتب الشعر إلى سيف الدولة يعاتبه فيه على بعض الأمور ، وأحياناً يستعطفه ، وكان لأبى فراس شعر فى الإخوانيات فكتب إلى أخيه أبى الهيجاء وإلى أصدقائه وكتب فى وصف كتاب ورد عليه من صديق له ، كما كتب فى الشكوى والعتاب والغزل والنسيب ، والأوصاف والتشبيهات كوصف البستان والماء ، ووصف النار والفحم كما كتب فى الحكمة والموعظة ، وله قصائد مشهورة تحت مسمى الروميات نظمها وهو فى الأسر تحت يد الروم[١] .

وحكي بديع الزمان أبو الفضل الهمذانى قال : قال الصاحب أبو القاسم يومًا لجلسائه وأنا فيهم ـ وقى جرى ذكر أبى فراس ـ لا يقدر أحد أن يزور على أبى فراس شعراً ، فقلت : ومن يقدر على ذلك[٢] .

وقد أضاف أبو فراس إلى الشعر العربى فنوناً جديدة وموضوعات مبتكرة فشعر الحرب فى مقدمة تلك الفنون ، فقد كان سيف الدولة يصطحب معه أبا فراس فى حروبه ، فكان أبو فراس ـ رغم صغر سنه ـ مشاركًا فى المعارك فكان عليه وهو شاعر آل حمدان وفتاهم أن يصف المعركة وأن يقف عندها طويلاً :

فيقول[٣] :

ولما وردنا « الدَّرْبَ » والروم فوقه ... وقدَّرَ قسطنيطين أن ليس صَادِرُ

ضربنا بها عُرْضَ الفُرات كأنما ... تسير بنا تحت السروج جزائر

ومما أضافه أبو فراس إلى الشعر العربى أيضًا شعر الوصف ، فقد وصف الطبيعة وأبداع فيها حتي صار أستاذاً ، فقد وصف البساتين والأزهار والأثمار والجداول الرقراقة ، ووصف أيضا النار والفحم وغير ذلك من أجزاء الطبيعة الجميلة[٤] .

ومما أضافه أبو فراس ما يعد من خير الألوان الشعرية التى اتحف بها عهد سيف الدولة الأدب العربى روميات أبى فراس الحمدانى ، وهى القصائد التى أنشدها حينما كان أسيراً فى بلاد الروم يحن فيها إلى مراتع شبابه وملاهى صباه[٥] .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ٥٧/١، ٦٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٣ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ١١١/١.

(٣) انظر مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢١١ .

(٤) يتيمة الدهر للثعالبى ٨١/١ ـ ٨٢ .

(٥) انظر مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢١٩.

وله ديوان شعر مطبوع فى أكثر من طبعة ومشهور ، وله أشعار متفرقة ، وقد نشر له قصيدة مشروحة ، وطبع له شرح القصيدة الشافية فى مناقب آل الرسول ومثالب بنى العباس لمحمد أمير الحاج الشيعى فى طهران[١] .

أبو الفرج محمد بن أحمد الغسانى الدمشقى الملقب بالوأواء ت ٣٩٠هـ[٢]

يقول عنه الثعالبي[٣] : إنه من حسنات الشام وصاغة الكلام ، ويقول أبو بكر الخوارزمى : كان الوأواو منادياً فى دار البطيخ بدمشق ينادى على الفواكه ، ومازال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه ، ووقع منه ما يروق ، ويشوق ، ويفوق حتى يعلو العيُّوق »[٤] .

وكان له ديوان شعر حمله أبو نصر سهل بن المرزبان إلى نيسابور ، فقد استصحبه من بغداد فى جملة ما حصله من اللطائف والبدائع التى عنى بها . وكان له شعر فى الوصف كوصف الدمع ، ووصف الخمر ، ووصف الخط ، وقد نظم شعراً فى قوس قزح مع البروق والشمس ، وقال شعراً فى غلام عليل ، كما كان يتغنى فى كثير شعره بوصف الرياض ، وله شعر فى زرقة عين محبوبه فقال :

يا من هو الماء فى تكوين خلقتــه   ومن هو الخمر فى أفعال مقلته
ومن برزقه سيف اللحظ طلّ دمى   والسيف مـا فخـره إلا بزرقتـــه
علّمت إنسان عينى أن يعوم فقد   جادت سباحته فى بحر دمعته[٥]

ولعله لقب بالوأواء أى الصائح نظراً إلى مهنته فى أسواق دمشق ، وكان شعره إلى حدّ ما رائجًا بين معاصريه وعند الأجيال التالية ، وكان له ديوان شعر طبع أكثر من طبعة فى كثير من الأقطار[٦] .

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٩٥/٢ ـ ٩٦ .

(٢) انظر ترجمته فى : يتيمة الدهر للثعالبى ٣٣٤/١، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٣٢٣/٢١، ومعجم المؤلفين لكحالة ٩٠/٣ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٧٨/٢ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٤١/٤/٢ .

(٣) انظر يتيمة الدهر للثعالبى ٣٣٤/١.

(٤) العيُّوق : كوكب أحمر مضيئ بحيال الثريا . لسان العرب مادة (ع . و. ق).

(٥) يتيمة الدهر للثعالبى ٣٣٤/١ ـ ٣٤٥.

(٦) تاريخ التراث العربى لسزكين ٤٢/٢ ـ ٤٣.

أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي المصيصي المعروف بالنامي ت ٣٩٩هـ[١]

يُعدّ أبو العباس النامي من فحول شعراء العصر ، وخواص شعراء سيف الدولة ، وكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والرتبة ، يقول الثعالبي[٢]: وقد أخرجت من ديوانه ما هو شرط الكتاب من عقائل شعره وفرائد عقله منها :

لكم يا بني العباس سيف على العدا .. حسام متى يعرض له الداء يحسم

أخفّ إلى يوم الوغى من حمامة .. وأثبت من شوق بقلبٍ مُتيّم

كان فاضلاً أديبًا بارعًا عارفًا باللغة والأدب ، وله أمالٍ أملاها بحلب روى فيها عن أبي الحسن عليّ بن سليمان الأخفش وابن درستويه وأبي عبد الله الكرماني وأبي بكر الصولي ، وإبراهيم بن عبد الرحمن العروضي ، وأبيه محمد المصيصي ، وروى عنه أبو القاسم الحسين بن علي بن أبي أسامة الحلبي وأخوه أبو الحسين أحمد وأبو الفرج الببغاء وأبو الخطاب بن عون الحريري ، وأبو بكر الخالدي والقاضي أبو طاهر صالح بن جعفر الهاشمي . وله مع المتنبي وقائع ومعارضات في الأناشيد[٣].

ذكره ابن النديم من الشعراء المحدثين ممن ليس بكاتب بعد الثلاثمائة وقال عنه : إلى الوقت الذي توفي فيه وشعره نحو المائة وخمسين ورقة[٤].

فمن إضافة النامي الشاعر إلى الشعر العربي أنه كان يتسابق مع شعراء سيف الدولة إلى وصف حادثة هزيمة الدمستق وفراره وترهبه في الدير وأسر ولده ، وبسالة الأمير العربي وفزع الروم منه ودخول الرعب إلى نفوسهم حين يرونه في ساحة القتال[٥].

وقد روى أعماله النثرية عدد من اللغويين المعروفين وكذلك صديقه الشاعر أبو الفرج الببغاء ، وروى طرفًا من شعره أبو علي أحمد بن علي الهائم ، وله كتاب

---

(١) انظر ترجمته في : الفهرست لابن النديم ص ٢٤٠ ، ويتيمة الدهر للثعالبي ٢٧٩/١ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٥/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٥٣/٣ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩٩/٢ وتاريخ التراث العربي لسزكين ٤٩/٤/٢ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ٢٦٣/١ .

(٣) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٥/١ ـ ١٢٦ .

(٤) الفهرست لابن النديم ص ٢٤٠ .

(٥) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ .

«الأمالي» يروى فيه عن الأخفش ، وابن درستويه ، وأملاه في حلب ، وله كتاب القوافي[1]. وله ديوان شعر[2].

من مشاهير شعراء العراق :

أبو القاسم علي بن إسحاق بن خلف الزاهي ت ٣٦٠هـ[3]

كان أكثر مقامه ببغداد ، حيث كان يتغنى بمدائح العباسيين والوزير المهلبي ، ولم يقم إلا أوقاتًا متقطعة بحلب[4].

وكان علويًا ، يحترف الاتجار بالقطن ، ونظم قصائد مدح في أهل البيت خاصة ، ومدح بعض أعيان عصره ، ويمتدح فيه دعابته ، وقدرته على إصابة الوصف[5] فهو وصّاف محسن ، كثير الملح والظرف .

قال عنه الثعالبي : لم يقع إليّ شعره مجموعًا ، وإنما تطرقته من أفواه الرواة واستفدته من التعليقات[6].

فقد وصف الليل والنجوم ، والريح ، والدهر ، ووصف الأترج ، كما مدح سيف الدولة وغيره من رؤساء وقته ، وقال شعراً في جميع الفنون ، وقال في تشبيه البنفسج ، وقيل أنه كان حسن الشعر بغدادي الأصل[7]. وكان له ديوان شعر في أربعة أجزاء[8]. وقد ظن الخطيب البغدادي أنه كان مقلاً ، ولم يكن له أشعار إلا القليل ، ووصل من شعره إلى يتيمة الدهر نحو ثلاثين بيتًا[9]. وكان حسن الشعر في التشبيهات وغيرها[10].

---

(١) تاريخ التراث العربي لسزكين ٤٩/٤/٢ ـ ٥٠ .

(٢) معجم المولفين لرضا كحالة ٢٦٣/١.

(٣) انظر ترجمته في : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٥٠/١١ ، ويتيمة الدهر للثعالبي ٢٨٩/١ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٧١/٣ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩٦/٢ ، وتاريخ التراث العربي لسزكين ١٧٩/٤/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٤٠٤/٢ .

(٤) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩٦/٢ .

(٥) انظر تاريخ الأدب العربي لسزكين ١٧٩/٤/٢ ـ ١٨٠ .

(٦) يتيمة الدهر للثعالبي ٢٨٩/١.

(٧) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٧١/٣ ـ ٣٧٢ .

(٨) معجم المؤلفين لكحالة ٤٠٤/٢ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٧١/٣.

(٩) انظر تاريخ التراث العربي لسزكين ١٨٠/٤/٢.

(١٠) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٥٠/١١ .

أبو الحسن محمد بن محمد بن جعفر بن لَنْكَك : البصرى ت ٣٦٠هـ [١]

هو الشاعر الأديب ، كان فرد البصرة وصدر أدبائها فى زمانه ، أدركته حرفة الأدب فقصَّر به جهده عن بلوغ الغاية التى كانت تسمو إليها نفسه ، إذ كان التقدم فى زمنه لأبِى الطيب المتنبى وأبى رياش اليمامى فكسدت بضاعته بنفاق سوقهما ، وانحط نجمه عن مطلع سعادتهما ، فولع بعيبهما والتشفى بهجوهما ودمهما ، فكان أكثر شعره فى شكوى الزمان وأهله ، وهجاء شعراء عصره ، وكان أبلغ شعره ما لم يتجاوز البيتين والثلاثة ، وقد ذكر له ياقوت فى معجم المؤلفين أبياتاً فى شكوى الزمان، وفى هجاء أبى رياش اليمامى ، وهجاء أبى الطيب المتنبى[٢]. وذكر له الحصرى فى كتابه أبياتاً تجرى مجرى الأمثال[٣].

لقد عاش بالبصرة ، وكان شاعراً مرموقًا ، عالما بالنحو ، أديبًا زار بغداد أيضًا ، ولعله أقام هناك زمانًا ، نظم أبياتا فى هجاء المتنبى وغيره ، وكان من الشعراء المعروفين بأشعار قصار ، غلب عليه إجادة المقطعات ، وكان أظهر أغراض شعره الشكوى من الزمان وأغبياء عصره ، واشتهر أيضًا بروايته تائية دِعْبِل المشهورة فى مدح أهل البيت إلى لغويين بغداديين ، وكذلك بجمعه ديوان الخُبزارزّى نصر بن أحمد بن مأمون البصرى ت٣١٧هـ[٤] .

أبو الحسن عقيل بن محمد الأحنف العكبرى ت ٣٨٥هـ[٥].

كان من أهل عَكْبَرى[٦]، ثم انتقل فيما بعد إلى بغداد ، كان شاعراً أديبًا ، نال مكانة عالية عند الصاحب بن عباد[٧]. قال الخطيب البغدادى : كان متأدبًا شاعراً

---

(١) انظر ترجمته فى : معجم الأدباء لياقوت ٤١٥/٥، وزهر الآداب للحصرى ٤٣/١، ٢٦٩، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٦١/٤/٢.

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٤١٥/٥ ـ ٤١٨ .

(٣) زهر الآداب للحصرى ٢٦٩/١.

(٤) تاريخ التراث العربى لسزكين ٦١/٤/٢ .

(٥) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٠١/١٢، ويتيمة الدهر للثعالبى ١٣٧/٣، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١٤٣/٤/٢، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة ٣٨٢/٢.

(٦) انظر معجم البلدان لياقوت : عكبرى : اسم بليدة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ ١٤٢/٤.

(٧) تاريخ التراث العربى لسزكين ١٤٣/٤/٢.

مليح القول . روى عنه أبو على بن شهاب ديوان شعره ، وأنشدنا عنه عبيد الله بن عبد الله بن توبة الخياط غيره مقطوعات عدة[1] . وكان يشكو الزمان وأهله فمن أقواله:

دهينا من زمان ليس فيه ... سوى متشامت أو مستريب

وحاسد نعمة وصديق وقت ... إذا ما غبت ذمك فى المغيب[2]

فكان مليح الجملة والتفصيل قال عنه الثعالبى : « قرأت فصلا للصاحب فى ذكره، فأوردته ، وهو : لو أنشدتك ما أنشدنيه الأحنف العكبرى لنفسه لامتلأت عجباً من ظرفه ، وإعجاباً بنظمه »[3] .

وله ديوان شعر[4] ، رواه أبو على بن شهاب ، وتوجد قطع من شعره فى يتيمة الدهر[5] .

أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد القرشى المخزومى السلامى ت٣٩٣هـ[6]

كان حسن الشعر جيده ، روى أبو الفرج عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمى وعلىّ بن عبد المحسن التنوحى مقطوعات من شعره[7] . وهو من أشعر أهل العراق ، وقد قال الشعر وهو ابن عشر سنين ، وقد ذكر له صاحب اليتيمة أبياتاً فى الوصف فى وصف المكتب ، ووصف مركب فى دجلة ووصف غلام فى يده مرآة ، واعترف له شعراء الموصل بالفضل والحذف ، وأنشد عضد الدولة ، فاشتمل عليه جناح القبول ، ودفع إليه مفتاح المأمول ، واختص بخدمة عضد الدولة فى مقامه وظعنه إلى العراق ،

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٠١/١٢ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٠١/١٢ .

(٣) يتيمة الدهر للثعالبى ١٣٧/٣.

(٤) معجم المؤلفين لكحالة ٣٨٢/٢ .

(٥) تاريخ التراث العربى لسزكين ١٤٣/٤/٢.

(٦) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٣٥/٢، ويتيمة الدهر للثعالبى ٤٦٦/٢، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤٠٣/٤ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١٨٥/٤/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٤٥٨/٣ .

(٧) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٣٥/٢ .

وتوفر حظه من صلاته وخلعه ، وكان عضد الدولة يقول : إذا رأيت السلامى فى مجلس ظننت أن عطارداً نزل من الفلك إلىّ ، ووقف بين يدى ، ولما توفى عضد الدولة تراجع طبع السلامى ورقت حاله ، ثم مازالت تتماسك مرة وتتداعى أخرى حتى انتقل إلى جوار ربه .

وكان له شعر فى النسيب والغزل والخمريات وما يتعلق بها من سائر الأوصاف والتشبيهات ، ووصف النارنج ، والجلنار ، والشراب ، وله مدائح فى عضد الدولة ، وله وصف لقصر بنى على دجلة ونقشت فى حيطان أشعاره ، وله فى وصف يوم الفصح وإقامة رسمه ، وقصيدة فى التقائه بالطائع لله بعد أن رده إلى مدينة السلام وكان فارقها وهو شاب ، وله شعر فى الشكوى والعتاب[١] . وكان أكثر شعره نخب وغرر[٢] .

ومن آثاره : تاريخ ولاة خراسان[٣] . وقيل : إن ديوانه كان نحو خمسمائة ورقة[٤] .

أبو الحسن محمد بن الحسين الملقب بالشريف الرضى ت ٤٠٦هـ[٥] .

كان من أهل الفضل والأدب والعلم يقال أنه أشعر قريش ، وابتدأ نظم الشعر وله عشر سنين[٦] .

وذكر ابن جنى أنه تلقن القرآن بعد أن دخل فى السن فحفظه فى مدة يسيرة ، وصنف كتاباً فى معانى القرآن يتعذر وجود مثله ، دلّ على توسعه فى علم النحو واللغة وصنف كتاباً فى مجازات القرآن ، فجاء نادراً فى بابه[٧] . وقد عنى جماعة بجمع ديوان الشريف الرضى[٨] .

---

(١) انظر يتيمة الدهر للثعالبى ٤٦٦/٢ ـ ٥٠٥ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٥٨/٣.

(٣) معجم المؤلفين لكحالة ٤٥٨/٣ .

(٤) تاريخ التراث العربى لسزكين ١٨٦/٤/٢.

(٥) انظر ترجمته فى : يتيمة الدهر للثعالبى ١٥٥/٣ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٤٦/٢ ، وإنباه الرواه للقفطى ١١٤/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٨٢/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢٦٣/٣ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٦٢/٢ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١٨٧/٤/٢.

(٦) انظر إنباه الرواة للقفطى ١١٤/٣.

(٧) انظر شذرات الذهب لابن العماد ١٨٣/٣.

(٨) إنباه الرواه للقفطى ١١٥/٣.

وله من التصانيف كتابه « المتشابه فى القرآن »، وكتاب « مجازات الآثار النبوية » وكتاب « نهج البلاغة »، وكتاب « تلخيص البيان عن مجازات القرآن »، وكتاب «الخصائص»، وكتاب « سيرة والد الطاهر »، وكتاب « منتخب شعر ابن الحجاج » وكتاب « أخبار قضاة بغداد »، وكتاب « رسالة » فى ثلاث مجلدات . وله ديوان شعر(١) . وقد اتخذ داراً للعلم من أجل الطلبة الملازمين له ، عيّن لها جميع ما يحتاجون إليه(٢) . وفى شعره ألوان متعددة وفنون مختلفة كالغزل والمديح والهجاء والفخر ، وله شعر فلسفى(٣) .

الملامح البارزة فى شعر الشريف الرضى : الشكوى من الأصدقاء ، ومن الزمان يشكو الأصدقاء الذين وفَى لهم ، فقابلوا الوفاء بالجفاء ، والود بالعقور ، والصلة بالقطيعة والنصح بالغدر والخيانة(٤) .

ومن خصائص شعره : سهولته ووضوحه ، وترابط أفكاره وانطلاق شاعريته واسترسال نفسه ، وتدفق معانيه ، والإطالة فى النظم التى تدل على تمكن الشاعرية ، وأصالة الطبع ورسوخ قدمه فى البيان وحذقه للبلاغة العربية ، وتذوقه الناضج لموسيقى الشعر . وهو أشبه بالجد الوسط بين الفحولة الضخمة والجزالة الضخمة ، كما يظهر من شعره سلامة فطرته وصفاء جوهره(٥) .

---

(١) انظر إنباه الرواه للقفطى ١١٥/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢٦٣/٣ .

(٢) تاريخ الأدب فى العصر العباسى الثانى د/ إبراهيم أبو الخشب ص ٢٩٧.

(٣) شعر هذه الأغراض فى يتيمة الدهر للثعالبى ١٥٧/٣ ـ ١٧٧ .

(٤) تاريخ الأدب فى العصر العباسى الثانى د/ إبراهيم أبو الخسب ص ٣١٤.

(٥) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى د/ إبراهيم أبو الخشب ص ٣٢٢ .

النثر الفنى فى القرن الرابع

أولاً : فى الشام :

نستطيع أن نتناول فن الكتابة النثرية ، من خلال إطار واضح فى الشام عن طريق التقسيم المتعارف عليه عند الحديث عن النثر الفنى ، وهو : كالكتابة الديوانية ، والكتابة الإخوانية والخطابة والقصص والمقامات ، ثمّ نتناول أثر التشيع على الكتابة الأدبية ، ثم نتعرض لذكر خصائص الكتابة عند أهل الشام .

لقد طلع القرن الرابع على أهل الشام ، وظهر فيه الأدب العربى فى مظهر عظيم ، وكان هذا العصر عصر سيف الدولة الحمدانى ، وقد قصده الشعراء والأدباء النابغون ، وكان عصره يطلق عليه « الطراز المذهّب » لأن من كانوا عنده من الأدباء لم يأت بعدهم مثلهم[1] . منهم أبو محمد عبد الله بن عمر الفياض ، وأبو محمد جعفر بن ورقاء الشيبانى ، وأبو على الحاتمى الكاتب الشاعر الناقد ، وأبو بكر الخوارزمى ، وأبو محمد الصالحى الكاتب ، وأبو الحسن المغربى الذى وزّر لسعد الدولة بن سيف الدولة، ومنهم الببغاء عبد الواحد بن نصر المخزومى ، وأبو الفتح بن كشاجم محمود السندى[2] .

كانت الرسائل الديوانية تدور حول شئون كثيرة تتصل بقضايا الحرب والحج والأعياد وأخبار الولايات وما إلى ذلك . وأكثر الكتابة التى كتبت فى الشام خلال القرن الرابع الهجرى ، قد ضاعت وتبددت لرجحان العناية بالشعر على الاهتمام بالنثر، وأهم ما وصل إلينا ما كتبه أبو الفرج الببغاء على لسان سيف الدولة الحمدانى فى عام ٣٥٥هـ[3] . وقد كتبت فى عام الفداء ، وهى فريدة القيمة من الناحية التاريخية العالية القدر من الناحية الفنية[4] . لقد كانت الصور النثرية فى وصف الحرب وتصوير النصر والهزيمة ملحوظة بشكل واضح ، ويعدّ ذلك دليلاً على رقى الكتابة فى الشام

---

(١) خطط الشام لمحمد كرد على ٢٧/٤ .

(٢) مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص٢٤٠ ـ ٢٤٢.

(٣) مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص٢٢٤.

(٤) نشوار المحاضرة للتنوخى ٢٩٦/٢ وما بعدها . طبعة الهند سنة ١٩٢١م .

خلال القرن الرابع قبل إقليم العراق ، تلك الكتابة نشأت مبكرة وانتظمت سلسلة متتابعة الحلقات مروراً بالببغاء ، وكشاجم وسائر كتاب الشام خلال القرن الرابع الهجرى ، وتلتزم السجع التزاماً يكاد يكون تاماً[1]. لقد كان هذا الفن من الكتابة نامياً راقياً فى إقليم الشام وبه صفوة من كتاب النثر الفنى الديوانى . أما الكتابة الإخوانية : فقد حفل بها المجتمع الشامى خلال القرن الرابع الهجرى وبرع فيها كل من : الببغاء وكشاجم والخوارزمى وكانوا من أشهر كتاب الرسائل الإخوانية[2]. وإنها لتحتوى على تفسير لبعض الجوانب الاجتماعية كرسائل الببغاء فى التهنئة بمولودة ، خاصة أن العرب قد درج كثير منهم على بغض البنات ، وكذلك الكتابة إلى من تزوجت أمه، وكان العرب يكرهون أن تتزوج أمهاتهم ، فكان كلا من هذين النوعين من الكتابة ظاهراً أشد الظهور[3]. وقد كتب أيضاً بعد وفاة سيف الدولة إلى عدّة الدولة أبى تغلب بن ناصر الدولة رسالة يذكر فيها رغبته فى قصده وإيثاره الانقطاع إليه[4].

ومن النواحى الطريفة فى نثر الببغاء رسائله فى استهداء الشراب ، واستهداء الدواة والمداد ، وفى التهنئة بالشفاء من المرض ، وإنها لترصع بالشعر وبالمستجاد من أبياته الحسان[5].

أما أمر الخطابة : فإن ملكة القول فى نفوس أهل الشام خلال القرن الرابع الهجرى كانت كفيلة أن تخلق منهم خطباء يملكون ناصية البيان والكلام ، وأن مجال الخطابة كان واسعًا ، والاهتمام به كان عظيمًا ، ونتج عنها محصول رائع من الأدب فى الخطابة الدينية والسياسية[6]

لقد ذاع فى القرن الرابع الهجرى بإقليم الشام الأسلوب الفنى للخطابة ، متمثلاً فى الحرص على اصطناع البديع وبخاصة السجع ، لما له من وقع على الأسماع ،

---

(١) مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص ٢٤٨ ـ ٢٥٢.

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ٤٣٣/١.

(٣) النثر الفنى فى القرن الرابع للدكتور زكى مبارك ٢٨٧/٢.

(٤) يتيمة الدهر للثعالبى ٣٠٧/١ .

(٥) يتيمة الدهر للثعالبى ٣٠/١ ، والنثر الفنى للدكتور زكى مبارك ٢٨٩/٢ ـ ٢٩٠.

(٦) تاريخ الأدب فى العصر العباسى الثانى للدكتور إبراهيم أبو الخشب ص ٤٢٩.

وتأثير فى الجماهير ، والجمل القصيرة ذات الألفاظ المنتقاة والاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف لما لهما من وقع وتأثير ، الأمر الذى يرفع من قدر الخطبة[1].

وكانت الخطابة ، خطابة سياسية وخطابة دينية ، السياسية تصدر من الخليفة أو الأمير أو القائد العام للجيش ، أما الدينية فتصدر من الدعاة والوعاظ[2].

لذلك فملكة الخطابة تعتبر شيئاً آخر مخالفًا لملكة الشعر ، إلى درجة أن المؤرخين يذكرون بالإعجاب من يكون إلى جانب الإحسان فى الشعر مجيداً فى الرسائل والخطب[3].

لقد استحوذت الشام على مشاهير شعراء العربية ، وسعدت بوجود أبلغ الخطباء ابن نباتة الفارقى ت ٣٧٤هـ، ويليه ابنه أبو طاهر يحيى بن عبد الرحيم بن نباتة ت٣٩٠هـ، ويعدّ ابن نباتة الفارقى واضع أصول الخطابة ومقعد قواعدها ، وخطبه متنوعة بين الجهاد والمعاد والمواقيت والمواسم والمناسبات الدينية[4].

وأما **فن القصة** فقد ظهر مبكراً على يد أبى الفرج الببغاء عبد الواحد بن نصر المخزومى ت ٣٩٨هـ فى العقد الثالث من القرن الرابع الهجرى ، بينما لم تظهر فى العراق إلا فى العقد الثامن من القرن الرابع على يد بديع الزمان الهمذانى وابن الأنبارى فقد قام بها أبو الفرج الببغاء بإقليم الشام خير مقام ، حيث اتصل بسيف الدولة فى ريعان شبابه ، وكان معروفًا بهذا الفن كغيره من فنون الأدب ، وإنه لم يسمع أظرف من قصصه فى فنها ، ولا ألطف ولا أعذب ولا أخف[5].

من أجل ذلك كانت الأقاصيص فى النثر من أهم ما يمتاز به الأدب فى القرن الرابع ، ففى نماذج الببغاء مفاتن فنية للعقول والقلوب والأحاسيس[6]. وقد أملى

---

(١) مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص ٢٩٥ .

(٢) تاريخ الأدب فى العصر العباسى الثانى للدكتور إبراهيم أبو الخشب ص ٣٩٩.

(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع لآدم متز ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ٤٢٢/١.

(٤) مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩ .

(٥) يتيمة الدهر للثعالبى ٢٩٤/١ .

(٦) النثر الفنى فى القرن الرابع للدكتور زكى مبارك ٣٥٢/١ ـ ٣٥٣.

المحسن بن الحسين بن على الأديب الوراق بصيدا حكايات مقطعة بعضها عن ابن خالويه(١) .

وأما فن المقامة : فكان من أظهر أنواع القصص فى القرن الرابع ، وكان نصيب الشام منه قليل ويمثله أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن نباتة السعدى ت ٤٠٥هـ فقد تبع فى هذا العمل بديع الزمان الهمذانى ولكنه لم يبلغ شأوه ، ولم تشتهر مقاماته ، وكان جزل الكلام فصيح القول(٢) .

أثر التشيع فى أدب أهل الشام :

عُرف عن أهل الشام شدة تعصبهم لأهل السنة ، ولم يمنع ذلك من وجود من يحملون الفكر الشيعى ، خاصة خلال القرن الرابع الهجرى بعد أن نقل سيف الدولة الحمدانى جماعة من الشيعة إلى حلب ، نقلاً من منطقة حرّان ، وأظهر التشيع ، للضرورة حتى يأمن جانب أصحاب النفوذ البويهيين فى مركز الخلافة ببغداد ، فعد ذلك تشيع تفضيل وعاطفة وليس تشيعاً غالباً(٣) .

عمد بعض الكتاب والأدباء والشعراء إلى مدح الشيعة والتنديد بخصومهم وخوض المناظرات دفاعًا عن فكرة التشيع ، وقد قام بذلك أبو بكر الخوارزمى فى الفترة التى مكسها بجوار سيف الدولة الحمدانى مادحاً للشيعة ومكثراً من التعرض لذكر المذاهب، وخير شاهد على ذلك تلك المناظرة التى جرت بين بديع الزمان الهمذانى ممثلا لفكر أهل السنة وبين الخوارزمى ممثلا لفكر الشيعة كمظهر من مظاهر النزاع المذهبى المتصل بين السنة والشيعة ، فكان كل منهما يختلفان اختلافًا شديداً ويتعصبان تعصبًا واضحاً(٤) . ففى الأدب حيث تصدى الخوارزمى لمقامات بديع الزمان فقدح فيها وعابها ، نجد أن بديع الزمان رد عليه وتحداه .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ٦١/٥ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٦٦/١٠ .

(٣) انظر نهر الذهب فى تاريخ حلب لكامل بن حسين بن مصطفى الشهير بالغزى ١٩١/١ طبعة حلب بدون تاريخ .

(٤) انظر الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ص ١٧٩ ، ١٨٧ .

ذلك أثر التشيع فى الأدب عند الشيعة وأهل السنة ، وهو يمثل لنا جانبًا من جوانب تأثير الحالة السياسية فى حياة الأدب والأدباء فى العراق قبل الشام[1] ، ونشبت بينهما مناظرة أدبية عند بعض الأمراء فى موضوعات أدبية مختلفة فاستطاع بديع الزمان أن يغلب الخوارزمى ويظهر عليه وتظهر على الخوارزمى دلائل الضعف[2] .

خصائص النثر فى الشام :

تتسم الكتابة عند أهل الشام خلال القرن الرابع بسمات وُسمت بها الكتابة عامة فى القرن الرابع الهجرى ، من حيث أناقة الإنشاء واصطناع البَديع وتزين النثر بأبيات الشعر ، وخاصة الرسائل الإخوانية ، فقد كان لكتاب الشام السبق فى التعامل مع القضايا الاجتماعية ، وتثبيت الصلات الإنسانية وتوثيق الروابط الإخوانية .

كما يلاحظ فى كثير من كتابات أهل الشام قلة اللحن ، وعدم كثرة الدخيل ، وأن العلماء لم يهتموا بتأليف كتب يقصد منها تقويم اللسان وتصحيح البيان ، والتنبيه على الأخطاء ، كما أن للصناعة اللفظية مكان واضح فى كتابات أهل الشام[3] .

وقد لمعت خلال القرن الرابع بعض الخصائص على يد أعلام الكتابة النثرية كالببغاء والخوارزمى ، كإيثار البديع ، قد قصده الكتاب قصداً وأسرفوا فى استعماله ، والتزموا السجع فى جميع الرسائل ، حتى تقييد المناظرة أو شرح مسألة ، كالمناظرة التى وقعت بين الخوارزمى وبديع الزمان ، كما حرص الأدباء على تضمين الرسائل أطايب الشعر ، ومختار الأمثال ، وهذا يدل على معرفة الكتاب بأسرار الشعر البليغ كما ألف الكتاب فى نفس موضوعات الشعر ، وأصبح النثر أقدر على الوصف من الشعر .

كما أنهم لم يتقيدوا بصيغة خاصة فى بداية الكتب ، بل أخذوا يبدؤون بالحكمة أو الشعر أو المثل أو القصة القصيرة أو دون مقدمة[4] .

---

(١) انظر الحضارة الإسلامية لآدم متز ٤٣٧/١.

(٢) انظر النثر الفنى د/ زكى مبارك ٣٩٥/٢ .

(٣) انظر تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى د/ إبراهيم أبو الخشب ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٤) انظر النثر الفنى د/ زكى مبارك ١٢٧/١ ، ١٢٨ ـ ١٣٤.

قد اتسمت الكتابة بالشام خلال القرن الرابع بكل سماته من بديع ومحسنات وسجع وجناس وترصيع وتضمين النثر شعراً[1].

ثانيًا : فى العراق :

نستطيع أن نتناول فن الكتابة النثرية فى إطار واضح عند أهل العراق عن طريق التقسيم المتعارف عليه خلال القرن الرابع الهجرى وهو : الحديث عن الكتابة الديوانية والإخوانية ، والخطابة ، والقصة والمقامات ، ونتناول أيضًا عن أثر التشيع على الكتابة الأدبية العراقية ، ثم أثر الروح الفارسى عليها ، ثم نتعرض لذكر خصائص الكتابة النثرية عند أهل العراق .

لقد ظل النثر الفنى بمختلف فنونه يتسع ويتطور فى العراق ، إذ تعددت أنواعه وفروعه فأصبح فيه إلى جانب النثر الأدبى الرفيع نثر علمى ونثر فلسفى ، ونثر تاريخى، وكما تغير النثر بأقسامه وألفاظه ولغته فإنه قد تطور فى معانيه وأفكاره ، وقد شجع حكام العراق الأدب العربى واللسان العربى والعلوم العربية ، يقول المقدسى : « إن إقليم العراق إقليم الظرفاء ومنبع العلماء ، وكل فقيه ومقرئ وأديب »[2] وإن ما جمعه الخطيب البغدادى فى تاريخه من تراجم ليدل على ثروة واسعة فى العلم والعلماء وخاصة الأدب .

فالكتابة الديوانية تدور حول شئون الحياة بمختلف اتجاهاتها ، ومن أبرز كُتاب الرسائل فى إقليم العراق خلال القرن الرابع : أبو إسحاق الصابئ ، وإبراهيم ابن العباس الصولى ، والشريف الرضى ، وأبو على الحاتمى وأبو على التنوخى وأبو الفرج الأصفهانى .. وغيرهم . كانت العناية بالرسائل الديوانية بالعراق موضع اهتمام ، وتتم بين الخلفاء والوزراء ومنهم إلى غيرهم[3].

لقد كثر كُتاب الرسائل بالعراق ، وتأثروا بالحياة اليومية وخضعوا لها فصوروها

---

(١) انظر مملكة السيف ودولة الأقلام د/ الشكعة ص ٢٧٣.

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى البشارى ص ١٠٣ .

(٣) يتيمة الدهر للثعالبى ٢/٢٩٣.

بصورة مشرقة لامعة تخطف الأبصار كرسائل الصابئ ورسائل عبد العزيز بن يوسف وغيرهما[1] ، ولم تختلف الكتابة الديوانية فى سمتها عن الكتابة الشامية من حيث استعمال السجع والالتزام به ، والاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف وأطايب الشعر والأمثال والترسل والازدواج[2] .

أما الكتابة الإخوانية : فقد ازدهرت كالكتابة الديوانية ، ويرجع ذلك إلى اتصالها بأخلاق الطبقة العليا ونزعاتها اتصالاً وثيقًا . إذ عنى بها الأدباء عناية كبيرة ، فأكثروا المراسلات الإخوانية[3] . ومن بين هؤلاء الأدباء أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، والخوارزمى فى الفترة التى قضوها فى العراق بعد موت سيف الدولة الحمدانى ، حيث أنهما من الذين برزت فنونهم فى وصف الرسائل الإخوانية وكان كتاب هذا النوع يوجهون رسائلهم إلى الأصدقاء والتلاميذ والأمراء والوزراء والعمال والقضاة والعلماء وغيرهم ، فى مناسبات مختلفة ، وأغراض شتى[4] .

وقد أثر هؤلاء الأدباء فى كُتاب القرون التى أتت بعدهم ، حيث جعلوهم يتجهون إلى السجع والبديع ، خاصة أبو إسحاق الصابئ ، حيث كانت مسجوعة سواء الديوانية أو الإخوانية ، وكذلك أبو بكر الخوارزمى[5] .

أما الخطابة : فقد انتشرت فى إقليم العراق خلال القرن الرابع الهجرى ، ونشطت الخطبة السياسية ، ومع الأيام دبّ فيها الضعف ، أما الخطبة الدينية فقد احتفظت بقوتها وديمومتها ، لأنها تستمد هذه القوة من الدين الإسلامى[6] .

وقد كانت للخطبة أمور تلزمها عند تأليفها ، وقد بينّ ذلك أبو هلال العسكرى ت ٣٩٥هـ فقال : أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع ، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ، مالم يكن فى سجعك استكراه ، وتنافر وتعقيد ، وكثير ما يقع

---

(١) الأدب فى ظل بنى بويه للدكتور محمود الزهيرى ص ١٣٨ ـ ١٤٢ .

(٢) حضارة العراق للدكتور قحطان رشيد ٣٩٦/٧ .

(٣) الأدب فى ظل بنى بويه للدكتور محمود الزهيرى ص ٢٠٤ .

(٤) النثر الفنى فى القرن الرابع للدكتور زكى مبارك ٤٣٦/٢ ـ ٤٣٧ .

(٥) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٩٦/٢، ٩٩ .

(٦) حضارة العراق للدكتور قحطان رشيد صالح ٣٨٧/٧ .

ذلك فى السجع وقلما يسلم ، وقد عُدّت الخطبة من أجناس الكلام المنظوم حيث جعلها ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر ، وجميعها تحتاج إلى حسن تأليف ، وجودة تركيب[1].

أما القصة : فقد انتشر كثير من القصص فى النثر ، مما جعل القصص من أهم ما يمتاز به الأدب العربى فى القرن الرابع الهجرى بإقليم العراق ، ففى كتابات بديع الزمان الهمذانى والتوحيدى والتنوحى نماذج فنية ، وتلك القصص المتفرقة فى كتب الأدب منسوبة إلى كل من ابن الأنبارى والخوارزمى أيام أن انتقل من الشام إلى العراق، وكذلك الببغاء ، تدل على أن كلا منهم كان مغرمًا بتصوير الشخصيات عن طريق القصص الأخلاقى والوصفى والفكاهى[2]. هذه القصص أراد أصحابها أن يدوّنوا بعض الأوصاف ، وأن يدفعوا بعض النوادر والفكاهات ، أو أن يشرحوا بعض النظريات الفلسفية والأدبية ، أو أن يصفوا بعض الحوادث الغرامية ، وما إلى ذلك مما يشوق القلوب والعقول والأذواق ، فدونوا لنا هذه الحكايات ، ووضعوا هذا الفيض من الأقاصيص ـ وإن سبقهم فى ذلك أهل الشام ـ التى تتفاوت فى لغتها وأساليبها وطرائق عرضها [3].

يُعد فن المقامة وليد القرن الرابع الهجرى بهذا الاسم على يد بديع الزمان الهمذانى وقد سبقه بذلك على غير هذا الاسم ابن دريد ت ٣٢١هـ، وقد سمّاها «أحاديث»[4] وهى تعتبر حكاية قصيرة صيغت بأسلوب أدبى وفنى يودعها الكاتب أدبية أو فلسفية أو خاطرة وجدانية أو لمحة من لمحات الدعاية والهزل ، وقد زاد الهمذانى عليها جمالاً فى التصوير وقوة فى الحبكة القصصية ، فهى فن من فنون القصص ، وأسلوبها خاضع للذوق العام الذى يكلف بالسجع ، وبالمحسنات البديعية وإلى تضمين النثر حكماً وأمثالاً وأشعاراً وتقوم على الحوار والنقاش بين شخصين خياليين[5].

---

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص١٦٥، ١٦٧.

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع للدكتور زكى مبارك ٣١٦/١ .

(٣) حضارة العراق للدكتور قحطان رشيد صالح ٣٩٣/٧.

(٤) النثر الفنى للدكتور زكى مبارك ٢٤٤/١.

(٥) حضارة العراق للدكتور قحطان رشيد صالح ٣٩٠/٧ ـ ٣٩١.

ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات ، فإن عمل بديع الزمان فى هذا الفن أقوى وأظهر ، وطريقته فى القصص تختلف عن طريقة ابن دريد ، ولم تسم تلك القصص بأحاديث كما سماها ابن دريد ، وإنما سميت مقامات كما سماها بديع الزمان ، وتمتاز بأنها جعبة ألفاظ لغوية ، وجمل مختارة ، وأمثال سائرة ، وأشعار رقيقة، وجمل مسجوعة وألفاظ مصنوعة .

ثم جاء بعد بديع الزمان الهمذانى ، ابن نباتة السعدى ت ٤٠٥هـ فعمل مقامات ولم تبلغ شأو البديع ، ولم تشتهر مقاماته[١] .

أثر التشيع فى أدب أهل العراق :

من الظواهر الاجتماعية التى شجعها حكام العراق البويهيون خلال القرن الرابع الهجرى « ظاهرة التشيع » فقد كان لها أثر واضح فى الحياة الأدبية ، نظراً إلى أنهم كانوا يغالون فى التشيع وعملوا جهدهم فى نشر الطقوس المذهبية الغالبة حتى أصبح أثرها فى نفوس الشيعة قوياً ، وفى حياة الشعب أيضاً .

ومن المعروف أن الأدب يصور الحياة النفسية للأفراد والجماعات فى كل زمان ومكان ، ويحمل طابعها ويرسم ظلالها وألوانها ، فيخرج أدباء الشيعة ويستلهمون هذه الحياة النفسية عند جماعاتهم ويصورونها شعراً ونثراً .

لذلك تتسع دائرة الأدب الشيعى ويعظم خطره فى الحياة الأدبية خلال القرن الرابع بما كان قد تهيأ له من ظروف سياسية واجتماعية ، أتاحت له فرصة النمو والازدهار ، لا سيما بعد أن كان الخوارزمى والشريف الرضى ومهيار الديلمى من حاملى لوائه[٢] .

فقد كان مهيار الديلمى مجوسيًا فأسلم على يد الشريف الرضى، ودرس عليه التشيع فأحب أهل البيت حبًا شديداً دفعه إلى مدحهم، كما دفعه إلى هجاء الصحابة[٣]، وكذلك الخوارزمى كان لتشيعه أثر قوى فى رسائله ، فما ينفك فيها

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى للدكتور إبراهيم أبو الخشب ص ٣٦٩ .

(٢) انظر الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ص ١٧٥

(٣) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٥٩/٥.

منددًا بخصومه مادحًا لشيعته ، وكان الشريف الرضى من أبرع أدباء الشيعة فى تصوير آلامهم ومآسيهم(١) .

ودفع كل ذلك إلى صراع مذهبى أثر فى الأدب وأحدث بين الأدباء مناظرات كما حدث بين الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى ومعه أبو الحسن على بن سعيد السكرى مادحًا ورافعًا شأن الصحابة متحاملاً على أدباء الشيعة(٢) .

أثر الروح الفارسى فى النثر الأدبى :

عندما كان المجتمع خاضعًا للنفوذ العربى ، كان يحد من نشاط الفرس ويحول بينهم وبين ممارسة ذلك التراث القومى القديم كما يحبون ، فلما استردوا سلطانهم السياسى والاجتماعى فى القرن الرابع تهيأ لهم أن يعبروا عن ميولهم ورغباتهم بحرية كاملة ، وظهر ذلك فى ميولهم إلى إحياء الرسوم الفارسية القديمة لتلقب ملوكهم بأضخم الألقاب التى تشعر بالتجرء على مقام الألوهية ، كلقب ملك الملوك ، وتشجيعهم للعادات الفارسية وانتشارها فى المجتمع(٣) . فقد تأثر الأدباء بالعادات الفارسية وانعكس ذلك فى إنتاجهم الأدبى فظهر الغلو فى الكتابة والإكثار من الحديث عن التهانى بالأعياد الفارسية ووصفها ، وذلك واضح فى كلام مهيار الديلمى الفارسى ، وقد تأثر الصولى بطريقة الفرس فى الكتابة حيث يميل إلى الإسراف فى التبجيل والتعظيم ووضع هالة من التقدير والاحترام على كل من يكاتبهم أو يخاطبهم(٤) .

وذلك واقع فى البيئة العراقية نظرًا لسيطرة الفكر الشيعى على رؤسائها وأدبائها ولم يكن فيها من يعطف على العرب أو على البيت الهاشمى ، فالخليفة العباسى محجور عليه ، والعنصر العربى ضعيف ، والملوك والوزراء والقادة والجند من عناصر أعجمية .

رغم ذلك كله فلم يخل الإقليم من عناصر إسلامية وعربية مخلصة تزود عن

(١) انظر الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ص ١٧٩ .
(٢) انظر الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ص ١٨٥ .
(٣) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٤٢/١ .
(٤) انظر « أبو بكر الصولى » تأليف أحمد جمال العمرى ص ٢٠٨ .

دينهـا وتردٌ على أدباء الفـرس ، ونلاحظ ذلك فى أدب بديع الزمـان إذ كـتب رسـالة طويلة تعصب فيها للعرب والإسلام بحماس شديد[١] .

خصائص النثر فى العراق :

توصع النثر الفنى إلى حدّ كبير فى موضوعاته فأخذ يزاحم الشعر فى أبرز أغراضه مدحًا وغزلاً وهجاءً ووصفًا ورثاء وشكوى .

كما أنه صوّر الحياة عامة سياسية واجتماعية وعقلية وثقافية من خلال الرسائل بأنواعها الأدبية والإخوانية والديوانية وآداب السمر والحكايات .

لذلك نستطيع أن نجمل خصائص الكتابة النثرية فيمـا يلى : مال الكتاب إلى اقتناص الصور البلاغية والأخيلة المبتدعة والمعانى المبتكرة والعناية بالألفاظ الأدبية من حيث فصاحتها وأدائها لمعانيها ، كما أجادوا تضمين الأنواع النثرية ما يتناسب ومعانيها ومراميها من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وأطايب الشعر والأمثال فضلا عن اعتماد الاتجاهات الأسلوبية المختلفة ترسلاً وازدواجًا وسجعًا ، وكان ذلك الاعتماد يتباين سعة وضيقًا بين مرحلة وأخرى ومن كاتب لآخر إلى جانب تميز أسلوبه بشكل عام بالطبع والمرونة بحكم البيئة المتحضرة التى نشأ فيها الكتاب[٢] .

كما اتسموا بطابع الدقة فى الخيال والعمق فى التفكير ، والتسلسل فى المعانى ، والميل إلى اقحام الشعر فى رسائلهم ، إما على سبيل التضمين والاستشهاد وإما على سبيل دفع السأم ومنع الملالة ، وإظهار البراعة فى تقصى الحوادث والإلمام بالتاريخ ، تناولت الكتابة الإنشائية كل الموضوعات التى كان الشعر يتناولها من مديح وهجاء ، وتنصل واعتذار ، وغزل أو تهنئة أو ما سوى ذلك .

كما صارت الكتابة فى آخر عهدها حرفة يستعين الكاتب بها على العيش ، وكانت الكتابة القصصية أو كتابة المقامات مظهرًا من مظاهر تدارك الخطر المحدق بها[٣] .

---

(١) الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ص١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٢) انظر حضارة العراق د/ قحطان رشيد ٣٩٦/٧ .

(٣) انظر تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى للدكتور إبراهيم أبو الخشب ص ٣٥٣ ـ ٣٥٦ .

كما تأثر الكتاب بطريقة الفرس فى الكتابة فمالوا إلى الإسراف والتعظيم ، والميل إلى الاطناب والإكثار من المترادفات ، كما يميلون إلى التخيل ومنهم من لا يميل إلى السجع كثيراً ، ومنهم من كان لا يتقيد بمنهج ثابت فى كتاباته كالصولى ومن ثم ظهر أسلوبه فى رسائله الأدبية يختلف عن أسلوبه فى كتاباته الديوانية[1] .

تعقيب على أوجه الشبه والاختلاف :

من خلال الاستعراض السابق لفن النثر فى كل من الشام والعراق ، يمكننا أن نرى كثيراً من أوجه الشبه والاختلاف بين أدباء كل من الإقليمين وطريقتهم فى الكتابة الأدبية والخطابة وغير ذلك .

لا يفوتنا أن نبيّن موقف الحكام من الأدب ، حيث أنهم شجعوا الأدب العربى واللسان العربى ، والعلوم العربية مما جعل المقدسى يشهد بذلك ويقول عن إقليم العراق إنه منبع العلماء[2] ، ويشهد بذلك ما كتبه الخطيب البغدادى من تراجم عن علماء بغداد وخاصة الأدباء منهم ، وكذلك إقليم الشام حيث قصده الشعراء والأدباء والنابغون فى عهد سيف الدولة الحمدانى ، وقد أطلق على عصره « الطراز المذهب » لِمَ لأدبائه من تفرد وتميز[3] .

ولِمَ أظهره من اهتمام بالغ بالأدب والأدباء ، وحبه للفصاحة ، والرغبة فى أن يتمكن سلطان اللغة ، لذا قام على رعاية الأدب العربى .

إن تقارب الإقليمين جعل التمييز بين خصائص الكتابة أو الحياة الأدبية بينهما أمر غير بعيد ، فإن أراد أحد أن يرصد خصائصاً تميز الحياة الأدبية تميزاً مطلقاً فى الشام والعراق ، فإنه يكون قد جاوز الحد أو بعُد عن الحقيقة ، لأن الإقليمين شعورهم يكاد أن يكون واحداً ، ويلتمسون العلم والمعرفة من مصادر متقاربة ـ إن لم تكن متحدة ـ واختلافهم فى الأسلوب والتباين فى التفكير ، والتباعد فى المنطق محدود .

---

(١) انظر كتاب « أبو بكر الصولى » لأحمد جمال العمرى ص ٢١٠ ـ ٢١٥.

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١٠٣.

(٣) خطط الشام لمحمد كرد على ٢٧/٤.

غاية ما في الأمر أن العناصر الأجنبية كانت تستوطن إقليم العراق لا الشام مما جعل المفارقات بينهما محدودة ، لما للعنصر الأجنبي على أهل العراق من تأثير بسبب عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم .

إن كلا الإقليمين لا يخلو من الكتاب البارعين الذين خدموا في دواوين الدولة ، ومارسوا نشاطهم بأقلام بليغة سخية ، كما مارس الشعراء نشاطهم ببراعة وعطاء .

وإن إقليم العراق لينفرد بكثرة رسائله وأدبه المكتوب الذي وصل إلى أيدي القراء ، غير أن أدب الشام لم يصل منه إلى القليل رغم كثرة أدبائه وكتابه ، ولعل السبب في ذلك شهرة إقليم العراق بالكتابة والنثر دون الشعر ، فعني بذلك الأدباء والوراقون ، وأن بلاد الشام قد حفلت بالشعر الجيد وازدحمت بالشعراء ، فحجبت أبهة الشعر ورونقه عبقرية النثر ونفاسته ، الأمر الذي جعل الأدباء والوراقين يعنون بشعر أهل الشام دون نثره .

ومن المتفق فيه : الصناعة اللفظية التي انتشرت في الإقليمين ، وإن كانت بالعراق أكثر تمكناً وأوسع انتشاراً لكثرة الدخلاء بين أهالي هذه الصناعة .

كما تتشابه الكتابة الأدبية بين الإقليمين نظراً إلى أن كثير من الكتاب الشاميين قد جاءوا من العراق إلى الشام فسرت طريقتهم الأدبية إلى أهل الشام ، فصارت بهم الكتابة أقرب شبهًا بالكتابة في العراق ، وذلك مثل الخوارزمي والببغاء وابن نباتة السعدي .

يتفق كل من الإقليمين في تنوع الكتابة الأدبية بين : ديوانية وإخوانية وخطابة وقصص وحكايات ومقامات ، وتنوع الموضوعات التي يكتب فيها ، وكذلك الخطابة بنوعيها السياسية والدينية بأسلوبها البديع المسجوع ، وجملها القصيرة ، واحتوائها على آيات قرآنية وأحاديث نبوية وحكم وأمثال ، وتزينها بأبيات من الشعر الجيد .

ويتفق كل من الإقاليمين في التأثر بظاهرة التشيع كظاهرة اجتماعية لها أثر واضح في الحياة الأدبية ، مما جعل التعصب يظهر بين من هو متمسك بفكر الشيعة ومن هو متمسك بفكر أهل السنة ، وحدوث المناظرات الأدبية كما حدث بين أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني .

ويتفق كل منهما أيضًا في خصائص الكتابة الأدبية حيث تتسم بسمات واحدة ،

وسميت بها الكتابة الأدبية العامة خلال القرن الرابع الجرى من حيث الموضوعات والألفاظ والمعانى والصور البلاغية ، وتزينها بالآيات والأحاديث والأمثال ، وأطايب الشعر ، والترسل والازدواج والسجع .

رغم كثرة التشابه بين الإقليمين فإن ذلك لم يمنع أن يتميز بعضها عن الآخر فى بعض الجوانب أو الظواهر الأدبية ، ففى الشام قد اقترح سيف الدولة الحمدانى على أبى الفرج الببغاء ـ أحد كتابه ـ أن يكتب إلى « مَن تزوجت أمه » نظراً إلى أن العرب كانت تكره أن تتزوج أمهاتهم ، لأن مَن تزوجت أمه عظم لذلك همه ، فكان هذا الفن ظاهرا فى الشام .

كما ظهر فى الشام قبل العراق فن القصة والحكاية واهتم أدباء سيف الدولة بهذا الفن ، وامتاز الأدب العربى به ، غير أن العراق قد ظهر بها متأخراً ، ففى العقد الثالث من القرن الرابع ظهر على يد أبى الفرج الببغاء ، بينما لم يظهر فى العراق إلا فى العقد الثامن من القرن الرابع على يد بديع الزمان الهمذانى وابن الأنبارى ، نظراً إلى أن الببغاء قد عاش فى بلاط سيف الدولة منذ شبابه ولم يتركه إلا بعد وفاة سيف الدولة[١] .

انفرد أدباء الشام ببعض أنواع من الرسائل « كرسائل الحرب » فكان لهم السبق فى هذا النوع ، حيث أنه لم يظهر لكتاب العراق خلال القرن الرابع الهجرى رسائل حربية .

كما ينفرد أهل العراق بتأثرهم بالروح الفارسى ، وذلك لما للعناصر الفارسية من سيطرة على مقاليد الحكم والسياسية ، وتشجيعهم للعادات الفارسية وانتشارها فى المجتمع العراقى[٢] ، مما أدى إلى تأثر الكتاب بتلك العادات وانعكاس ذلك فى إنتاجهم الأدبى ، كالميل إلى الإسراف فى التبجيل والتعظيم ، ووضع هالة من التقدير والاحترام على كل من يكاتبونهم أو يخاطبونهم .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ٢٩٣/١ .
(٢) انظر الحضارة الإسلامية لآدم متز ٤٢/١ .

يختص إقليم العراق بنصيب كبير عن إقليم الشام فى انتشار اللحن وكثرة الدخيل من كلمات غير عربية ، وذلك نظراً لمخالطة أهل العراق للأعاجم مما جعل كثير من الغيورين على دينهم ولغة هذا الدين أن يؤلفوا الكتب التى تقصد إلى تقويم اللسان ، وتصحيح البيان والتنبيه على الأخطاء ليس فى العراق فحسب ، بل وبالشام أيضًا ، ولكن بقدر أقل[١] .

كما ينفرد كتاب العراق بفن المقامة وانتشاره وازدهاره على يد بديع الزمان ، وإن كتب ابن نباتة السعدى ما كتبه من مقامة واحدة عند سيف الدولة بالشام ولكن لم يكتب لها الوصول والانتشار .

التأثير والتأثر بين أدباء الإقليمين :

إن كثرة الرحلات العلمية بين أدباء الشام والعراق ، جعلت التأثير والتأثر فى النواحى الأدبية أمراً ملحوظًا ، كما لوحظ أمر الاتفاق فى كثير من الظواهر الأدبية بينهما .

فقد تأثر أدباء الشام بصناعة الكتابة عند أدباء العراق ، نظراً إلى أن كثيراً منهم خدم فى دواوين سيف الدولة الحمدانى ، كالخوارزمى وابن نباتة السعدى وغيرهما فهم من علماء العراق إلا أنهم ذهبوا إلى الشام فأثروا فى أدبه وتأثروا منه .

وإن من أدباء الشام أو من مكث فيه كثيراً ثم خرج منه إلى العراق فأثر وتأثر بالحياة هناك ، كأبى على الحاتمى الذى عمل مع الوزير المهلبى فى بغداد ، وأبو محمد جعفر بن ورقاء الذى عمل مع الوزير ابن مقلة فى بغداد .. أيضًا ، أو كأبى بكر الخوارزمى الذى عاش بالعراق حتى سِنّ الشباب ثم رحل إلى ديوان سيف الدولة الحمدانى ولم يرجع حتى مات سيف الدولة الحمدانى وذلك بعد منتصف القرن الرابع الهجرى .

كما تأثر ابن خالويه الشامى بابن دريد عندما تتلمذ على يده وتأثر به فى فن

---

(١) انظر مبحث اللغة فقد عرضنا ذلك بإفاضة .

القصة والحكاية ، وقد أملاها المُحَسّن بن الحسين الوراق بصيدا عن ابن خالويه[1].

وعن طريق المكاتبة والزيادة فقد كان أبو الفرج الببغاء وأبو إسحاق الصابئ يتمنى كل منهما لقاء صاحبه ، ويكاتبه ويراسله ، فاتفق أن أبا الفرج الببغاء قدم مرة بغداد وأبو إسحاق معتقل منذ مدة بعيدة فلم يصبر عنه ، فزاره فى محبسه ، ثم انصرف عنه ولم يعاوده ، فكتب إليه أبو إسحاق ، فأجابه أبو الفرج فى الحال مع رسوله ، فعلم بذلك عضد الدولة فأعجب بهما ، فأطلقه من اعتقاله، ثم اتصلت بينهما المكاتبة والمودة[2].

من مشاهير الكُتّاب فى الشام :

أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقى ت٣٧٤هـ[3].

« صاحب الخطب المشهورة ، كان إمامًا فى علوم الأدب ، ورُزق السعادة فى خطبه التى وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها ، وفيها دلالة على غزار علمه وجودة قريحته . وهو من أهل « ميافارقين » ، وكان خطيب حلب وبها اجتمع بأبى الطيب المتنبى فى خدمة سيف الدولة بن حمدان »[4].

ما كان ابن نباتة ينتهى من إلقاء خطبة جهاد فى المسجد حتى يسارع الناس جميعًا إلى أسلحتهم ويتجهوا إلى ساحات القتال لملاقاة الأعداء ومنازلتهم ، وكان سيف الدولة يصحبه معه فى ساحة القتال ، يؤم المحاربين فى الصلاة ويعظهم ويقوم فيهم خطيباً ، يؤجج فى قلوبهم ويحبب الشهادة إلى نفوسهم[5].

يُعد ابن نباتة من الوجهة الفنية من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة ، وسجعه حَسَن مقبول ، فهو يجمع بين السجع والموازنة كما يجيد

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/٤٠٠، ٤٠١ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ١/٣٠٩، ٣١٠.

(٣) انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٦/٣ ، والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ١٣٠/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٨٣/٣، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٠٨/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ١٣٥/٢ ، والنثر الفنى فى القرن الرابع للدكتور زكى مبارك ١٩٢/٢ .

(٤) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٦/٣.

(٥) انظر مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩ .

تضمين آى القرآن الكريم ، وإنه ليحكم ذلك إحكامًا تامًا ، حتى تقع الآية فى سياق الكلام موقعًا لطيفًا ، وهذه التضمينات كثيرة جداً فى خطبه ، وشهد لها ابن الأثير بأنها من محاسن ما يجنى فى هذا النوع(١) .

وإن ديوان ابن نباتة يعتبر واحداً من الآثار الأدبية الرفيعة التى خلفها العصر الحمدانى بنهج خاص وأسلوب متميز يخاطب به العقول والقلوب على حد سواء .

وإن من أهمية ابن نباتة أنه تتلمذ على يديه وأخذ منه كبيرى أشراف بغداد وأديبيهما الكبيرين الشريفين الرضى والمرتضى قد أخذا عنه وتتلمذا له فى الصبا(٢) .

لقد خطب ابن نباتة فى الموت والبعث ، وموت الأنبياء ، واحتقار الدنيا واختلاف الأزمان وشهور رجب وشعبان ورمضان والأعياد والنار وحرب الكفار ، وكان يربط خطبه أحيانًا بأحداث تاريخية ، كما يتحدث عن الفصول ، مع خطب قصيرة فى مناسبات تاريخية وكثير من العلماء قاموا بشرح خطبه كعبد اللطيف البغدادى والعكبرى وعبد الرحمن البارزى(٣) فقد كان له ديوان خطب مشهور(٤) .

أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومى ولقب بالببغاء ت ٣٩٨هـ(٥) .

كان شاعراً مجوداً ، وكاتبًا مترسلاً ، مليح الألفاظ ، جيد المعانى حسن القول فى المديح والغزل والتشبيه ، والأوصاف ، وغير ذلك(٦) . وإنما لقب بالببغاء للثغة فيه ، وكان فى عنفوان أمره وريعان شبابه متصلا بسيف الدولة ، مقيما فى جملته ، ثم تنقل بعد وفاته إلى الموصل وبغداد(٧) .

---

(١) المثل الثائر لابن الأثير ص ٤٦٠ طبعة بولاق ١٢٨٢هـ .

(٢) انظر مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٣) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٠٩/٢ ـ ١١٠.

(٤) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٣٥/ .

(٥) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٢٤٠ ، ويتيمة الدهر للثعالبى ٢٩٣/١ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١١/١١ ، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٦٥/١٥ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٩٩/٣ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٩٩/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٥٢/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٣٣٦/٢ .

(٦) مختصر تاريخ ابن عسكر لابن منظور ٢٦٥/١٥ .

(٧) يتيمة الدهر للثعالبى ٢٩٣/١.

كان الببغاء من أركان الحياة الأدبية فى زمانه ، وكان شعره يُغنى به ، وكان من ...ع السامرين فى الشام والعراق ، وكان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب الفاقة والإملاق(١) .

تنقل فى البلاد بعد موت سيف الدولة قال الثعالبى : سمعت الأمير أبا الفضل الميكالى يقول عند صدره من الحج وحصوله ببغداد سنة تسعين وثلثمائة رأيت بها أبا الفرج الببغاء شيخًا عالى السن متطاول الأمد ، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته ولم تأخذ من ظرفه وأدبه(٢) .

لقد كانت مكانته فى الشام أقرب ما تكون إلى مكانة أبى إسحاق الصابئ فى بغداد ، فكلاهما جمع بين براعة النثر والشعر الرقيق ، وهما من الأدباء القلائل فى العربية ، الذين رزقوا الإجادة فى فرعى الأدب ، وكانت بينهما وشيجة مودة ورابطة صداقة جمعت بين الببغاء والصابئ وجرت بينهما مساجلات شعرية لطيفة(٣) . وكان كثير من رسائل الببغاء تحمل فى طياتها كثير من الوثائق التاريخية الفريدة حول معارك سيف الدولة ضد البيزنطيين(٤) . كما أنه رصعها بالمستجاد من أبياته الحسان(٥) .

ومن آثاره : ديوان شعر ورسائل(٦) .

من مشاهير الكُتاب فى العراق :

محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول ، أبو بكر الصولى ت ٣٣٥هـ (٧).

كان أحد العلماء بفنون الآداب ، حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء ، ومآثر

---

(١) انظر النثر الفنى د/ زكى مبارك ٢٧٥/٢ ، ٢٧٦ .

(٢) انظر يتيمة الدهر للثعالبى ٢٩٣/١ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٠١/٣ .

(٤) مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص ٢٤٨ .

(٥) النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى للدكتور زكى مبارك ٢٩٤/٢ .

(٦) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣٣٦/٢ .

(٧) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٢١٥ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٢٧/٣ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٤٧٨/٥ ، وأنباه الرواه للقفطى ٢٣٣/٣ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٥٦/٤ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٣٩/٢ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٧٦٨/٣

الأشراف وطبقات الشعراء ، وكان واسع الرواية ، حسن اللفظ للآداب ، حاذقًا بتصنيف الكتب ووضع الأشياء منها مواضعها ، ونادم عدة من الخلفاء ، وصنف أخبارهم وسيرهم ، وجمع أشعارهم ودون أخبار من تقدم وتأخر من الشعراء ، والوزراء، والكتاب ، والرؤساء[1] .

حدّث عن أبى داود السجستانى وأبى العباس ثعلب ، وأبى العباس المبرد ، وأبى العيناء محمد بن القاسم ، وأبى العباس الكديمى ، وأبى عبد الله محمد بن زكريا الغلابى ، وغيرهم .

وروى عنه أبو الحسن الدارقطنى الحافظ ، وأبو عمر بن حَيويه ، وأبو بكر بن شاذان ، وأبو عبيد الله المرزبانى ، وأبو الحسن بن الجندىّ، وأبو أحمد بن الدهان وعالم كثير[2] .

وله من التصانيف المشهورة : كتاب الوزراء وكتاب الورقة وكتاب أدب الكاتب وكتاب الأنواع وكتاب أخبار أبى عمرو بن العلاء ، وكتاب أخبار أبى تمام ، وكتاب أخبار القرامطة ، وكتاب الفرد ، وكتاب « العبادة » ، وكتاب أخبار ابن هرمة ، وكتاب « أخبار السيد الحميرى » ، وكتاب أخبار إسحاق بن إبراهيم ، وجمع أخبار جماعة من الشعراء ورتبه على حروف المعجم[3] .

كان ينادم الخلفاء ، وكان أغلب فنونه أخبار الناس ، وله رواية واسعة ومحفوظات كثيرة[4] .

اتسمت ثقافته بالشمول والتنوع ذلك أنها ثقافة موسوعية شملت جميع علوم وفنون وآداب عصره ، قد انتهج الصولى نفس المنهج الذى كان شائعاً فى عصره : من أراد أن يكون عالمًا فليطلب فنا واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً، فليتسع فى العلوم»[5] .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٢٧/٣ .

(٢) إنباه الرواة للقفطى ٢٣٤/٣.

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٢١٥، ٢١٦.

(٤) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٥٧/٤ .

(٤) قول ابن قتيبة ـ انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ٤٢٣/٢ تحقيق أحمد أمين وآخرين ط مصر ١٩٤٠م.

فقد كان الصولى من الموسوعيين فدرس علوم القرآن وألف كتابه « الشامل فى علم القرآن »[١]. وفى دراسته لعلم الحديث تتلمذ على كبار أئمة الحديث ونقل عنهم وروى لهم وفسر ما رووه وألف جزءاً فى الحديث من مروياته ، فقد كان يجلس ليروى الأحاديث ويفسرها فى واسط وبغداد ، ويذكر الخطيب البغدادى بعض الأحاديث التى رواها الصولى بنفسه عن كبار أئمة الحديث[٢].

وفى مجال الفقه أدلى بدلوه فألف كتاب (العبادة) تناول فيه كل ما يتصل بالعبادة من أحكام ، وألف كتاب « رمضان » تناول فيه فضائل الشهر الكريم وألف كتاب « سؤال وجواب رمضان »[٣].

أما علم اللغة والنحو والصرف فمؤلفاته المشهورة تغنيه عن التعريف فى ذلك فله كتاب « أدب الكاتب » وكتاب « ما اتفق لفظه واختلف معناه » وشرح ديوان الحماسة لأبى تمام ، كما أن له معرفة جيدة بالشعر قديمه وحديثه[٤]، وألف فى التاريخ كتاب « الأوراق » جمع فيه أخبار بنى العباس من الخلفاء والأمراء وأحداث دولتهم ، كما ألف كتاب « الوزراء » وكتاب « أخبار القرامطة »[٥].

وبالإضافة إلى كل ذلك جال الصولى بين العلوم الرياضية التى تعتمد على الذكاء الفطرى والذهن المتقد فدرس علم الشطرنج دراسة نظرية وعلمية وألف فيه كتاب « الشطرنج »[٦].

وذكر ابن تغرى بردى أن الصولى نبغ فى علم الهندسة وأن هذا العلم انتهى إليه لأنه شارك فى وضع أصوله[٧].

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢١٥.
(٢) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣/٤٣١.
(٣) الفهرست لابن النديم ص ٢١٥.
(٤) انظر الأوراق للصولى ـ قسم أخبار الشعراء ص ٨٣ نشر ج. هيورث دن طبعة سنة ١٩٣٤م.
(٥) الفهرست لابن النديم ص ٢١٥ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤/٣٥٦ .
(٦) الفهرست لابن النديم ص ٢١٥.
(٧) انظر النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣/٢٩٦.

أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابئ ت ٣٨٤هـ[١].

أوحد العراق في البلاغة ، خدم الخلفاء ، وتقلد الأعمال الجلائل ، مع ديوان الرسائل ، وكثيراً ما أراد الخلفاء والملوك والوزراء على الإسلام ، وعرضت عليه الوزارة إن أسلم ، فلم يهده الله تعالى للإسلام[٢] فهو صاحب الرسائل المشهورة والنّظم البديع، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عزل الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمي ، وتقلد ديوان الرسائل ، وكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة بن بويه بما يؤلمه[٣] ، وكان بينه وبين الصاحب بن عبّاد مراسلات ومواصلات ومتاحفات ، وكذلك بينه وبين الرضي أبي الحسن محمد بن الحسين الموسوي مودة ومكاتبات[٤]. وكان يعد من أعظم كتاب عصره ، وأسلوبه ـ كما تدل عليه رسائله ـ فقرات متساوية ، مسجوعة أحيانًا ، مزدوجة أحيانًا ، وصف بأنه إمام الكتابة في عصره، وأنه يجيد في الكتابة السلطانية ، ويقصر في الإخوانيات وأخذ عليه تكراره الفقرات في معنى واحد[٥].

فرسائله تمثل مزجًا رائعًا بين الغرض الرسمي والفن التعبيري ، وأبرز مميزات هذا اللون نصاعة البيان ، وتنسيق العبارة والجمع بين البلاغة والوضوح ومراعاة المناسبة من حيث الإطالة والإيجاز[٦].

كان الصابئ يعاشر المسلمين أحسن معاشرة ، ويخدم الأكابر أرفع خدمه ويساعدم في صيام رمضان ، ويحفظ القرآن حفظًا يدور على طرف لسانه وسن قلمه[٧].

---

(١) انظر ترجمته في : الفهرست لابن النديم ص ٩٣ ، ويتيمة الدهر للثعالبي ٢٣٧/٢ ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٨١/١ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٥٢/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٠٦/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٨٠/١ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ٢٨٧/٢ ـ ٢٨٨ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٥٢/١.

(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٨٣/١.

(٥) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٢٣٧/١.

(٦) انظر حضارة العراق د/ قحطان رشيد ٣٨٩/٧ .

(٧) يتيمة الدهر للثعالبي ٢٨٨/٢ .

قال عنه ابن النديم : أبو إسحاق مترسل بليغ شاعر عالم بالهندسة والغالب عليه صناعة الكتابة والبلاغة والشعر ، وله ديوان شعر وكتاب ديوان رسائل ، وكتاب مراسلات الشريف الرضى ، وكتاب أخبار أهله ، وكتاب دولة بنى بويه ، وأخبار الديلم[1] ، وله يد طولى فى علم الرياضة ، وخصوصًا الهندسة والهيئة ، فله مصنف فى المثلثات وله كتاب فى اختيار شعر المهلبى ، ورسوم دار الخلافة[2] .

أبو على المُحَسِّن بن على بن داود التنوخى ت ٣٨٤هـ[3] .

ولد بالبصرة وسمع بها من واهب بن يحيى المازنى وأبى العباس الأشرم ، ومحمد ابن يحيى الصولى ، والحسن بن محمد بن عثمان النسوى ، وأحمد بن عبيد الصفار وطبقتهم ، ونزل بغداد وأقام بها وحدّث إلى حين وفاته ، وكان سماعه صحيحًا ، وكان أديبًا شاعرًا إخباريًا [4] .

ولى القضاء بعدة نواحى ، حكى عن نفسه أنه فى سنة ثلاث وستين وثلثمائة كان متوليًا القضاء بواسط وقال : حضرت أنا مجلس أبى العباس بن أبى الشوارب قاضى القضاة إذ ذاك وكنت حينئذ أكتب له على الحكم والوقوف بمدينة السلام[5] .

وفى سنة تسع وأربعين وثلثمائة كان أول من تقلد القضاء من قبل أبى السائب عتبة بن عبيد الله بالقصر وبابل وما والاهما[6] .

فأبو على المحسن التنوخى يعدّ من كبار الكتاب فى زمانه ، وقد استجابت له اللغة وطاوعه البيان ، انفرد بين المؤلفين بصياغة أقاصيصه وأسماره وفكاهته وعبارات

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٢) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٨٠/١ .

(٣) انظر ترجمته فى : يتيمة الدهر للثعالبى ٤٠٥/٢ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٥٥/١٣ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٩/٤ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٦٣/٥ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٦٨/٤ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١١٢/٣ ، ومعجم المولفين لكحالة ٢١/٣ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٥٥/١٣ .

(٥) معجم الأدباء لياقوت ٦٣/٥ .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٦٠/٤ .

فصيحة محبوكة الأطراف ، لا قلق فيها ولا اضطراب ، كما يتحلى بالمرونة فى التعبير، كما كان ينقل الأقاصيص الجدية مروية عن وهب بن منبه[1].

له كتاب الفرج بعد الشدة وكتاب نشوار المحاضرة وكتاب المستجاد من مَعَلات الأجواد وديوان شعر[2].

---

(١) النثر الفنى د/ زكى مبارك ٢/٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/١٥٩، ومعجم المؤلفين لكحالة ٣/٢١.

الفصل الرابع

البلاغة والنقد الأدبى فى الشام والعراق

علم البلاغة فى كل من الشام والعراق
خلال القرن الرابع الهجرى

علم البلاغة :

يقول أهل اللغة : بَلَغتُ الغاية إذا انتهيتُ إليها وبلَّغتُها غيرى . ومبلغ الشيء : مُنتهاه . والمبالغة فى الشيء : الانتهاءُ إلى غايته ، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه . إذن هى كل ما تبلِّغ به المعنى قلب السماع فتمكنه فى نفسه كتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن[1] .

أما الفصاحة فقيل أفصح فلان عما فى نفسه إذا أظهره .

وإذا كان الأمرُ على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلهما ، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له[2] .

إذن فالبلاغة هى تأدية المعنى الجليل واضحًا بعبارة صحيحة فصيحة ، لها فى النفوسِ أثر خلاب ، مع ملاءمة كل كلام للموطن الذى يقال فيه ، والأشخاص الذين يخاطبون .

علم البلاغة قبل القرن الرابع :

لم تنشأ البلاغة العربية مكتملة الأبواب والمباحث ، وإنما نشأت مجرد أفكار وملاحظات ساذجة متناثرة على هامش العلوم العربية والإسلامية الأخرى التى سبقتها إلى الوجود ، والتى لم تكن بدورها قد تبلورت على نحو نهائى ثم ظهرت كتب نقدية أول ما ظهرت فى عهد التدوين ، وقد اهتمت بجمع الملاحظات البلاغية والنظرات النقدية ، وما كاد القرن الثانى يودع أيامه الأخيرة حتى بدأت الآراء تظهر وأخذت الدراسات تزهر ، وقد شارك فى حركة التطور المتكلمون واللغويون والنحاة

---

(١) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ١٢، ١٦ .

(٢) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ١٣ .

والكُتاب والشعراء وكان لكل فريق منهم منهجه وأسلوبه خلال القرن الثالث الهجرى[(١)] .

واتسمت الكتابة البلاغية قبل القرن الرابع بمجموعة من السمات والخصائص العامة التى يمكن أن تندرج كلها تحت عنوان واحد هو « غياب المنهج العلمى » ولقد كان هذا طبيعياً ومتوقعاً فيما قبل القرن الرابع من حياة البلاغة العربية ، وكان من أبرز تلك السمات التى تمثل افتقار المؤلفات البلاغية إلى المنهج العلمى : عدم التبويب العلمى الدقيق الذى هو أبرز خصائص المنهج العلمى ، وإنما كان طابعها الخلط والاستطراد واضطراب مدلول المصطلحات البلاغية الأساسية ، فإنهم لم يستخدموها بمدلولات علمية خاصة .

امتزج القضايا البلاغية بقضايا العلوم الأخرى التى نشأت البلاغة على هامشها ، سمة بارزة من سمات الكتابة البلاغية قبل القرن الرابع .

كذلك عدم تميز علوم البلاغة الثلاثة : البيان والمعانى والبديع واستقلال بعضها عن بعض، لأن البلاغة قبل القرن الرابع لم تكن علماً قائماً بذاته عن سواه من العلوم الأخرى التى نشأت على هامشها[(٢)] .

ولم ينته القرن الثالث حتى أسهم بعض اللغويون والنحاة فى البلاغة والنقد ، فأشاروا إلى بعض الفنون البلاغية كالتشبيه والمثل ، والاستعارة والمجاز والكناية والاستفهام وخروجه عن معناه الأصلى والانتقال من مخاطبة الشاهد إلى الغائب والتقديم والتأخير وعلى رأس هؤلاء جميعًا عبد الله بن المعتز ت ٢٩٦هـ صاحب كتاب « البديع » الذى ألفه فى سنة ٢٧٤هـ ويعتبر النقاد كتاب « البديع » نقطة البدء فى طريق العلوم البلاغية ، فقد عرفت العلوم البلاغية الاستقلال بمؤلفاتها منذ ظهر كتاب « البديع »[(٣)] . فهو أول كتاب فى تاريخ البلاغة ا لعربية معروف لنا يرصد بأكمله للقضايا والمباحث البلاغية[(٤)] .

---

(١) حضارة العراق للدكتور أحمد مطلوب ٢٩٩/٧ .

(٢) البلاغة العربية للدكتور على عشرى ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) الأساس فى النقد والبلاغة للدكتور أحمد الحوفى وآخرين ٢٥/٢ الطبعة الرابعة السعودية سنة ١٩٧٠م .

(٤) البيان العربى للدكتور بدوى طبانه ص ١٢٧ وما بعدها الطبعة الرابعة مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٨م.

وبعد ابن المعتز ظهر لون جديد من البحوث النقدية البلاغية وذلك فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، فلقد ظهرت هذه البحوث محددة تحديداً علميًا ومتفاعلة مع الثقافة اليونانية ، تلك الثقافة أثرت فى قدامة بن جعفر ت ٣٣٧هـ العالم البلاغى الناقد الذى ألف كتابه « نقد الشعر » رمزاً لامتزاج الثقافة العربية باليونانية ، وهذا ما سنتحدث فيه بعد قليل خلال حديثنا عن البلاغة العربية فى القرن الرابع الهجرى .

ولا ننسى الاتصال الوثيق من شعراء الشام بالتطور الذى حدث فى الشعر العباسى وما اصطنعه فيه الشعراء من المحسنات المعنوية واللفظية مما سمى فيه بعد باسم البديع وأصبح مذهباً ، تلقاه بسرعة البرق الشاعر أبو تمام ت ٢٣٠هـ[١] .

علم البلاغة فى القرن الرابع الهجرى :

فى الشام .. فى الحديث عن علم البلاغة قبل القرن الرابع الهجرى لم نجد من علماء البلاغة أو المصنفات البلاغية ما يدعو إلى الحديث عن علم البلاغة فى الشام ، ويرجع ذلك إلى أن الشام تأخرت فى صنع كتب البلاغة من الوجهة النظرية ، ولعلها كانت تتبع العراق فى علم البلاغة ومصنفات علمائها ، وهذا لم يمنع أن ترتقى الشام ببلاغة الكلام نثرا وشعراً وإن لم تكن سبقت إلى الرُقى[٢] .

لذلك ففى القرن الرابع الهجرى لا ينكر أحد اهتمام علماء الشام بالدراسات البلاغية اهتماماً نظرياً ، وليس نشاطا مدونًا واهتماماً مسجلاً ، وخير شاهد على ذلك ، تلك النهضة الأدبية فى نظم الشعر وكتابة النثر ، والتى سجلتها حلقات العلماء ، خاصة حلقة وندوة سيف الدولة الحمدانى[٣] .

لقد تخرج فى ندوة سيف الدولة كثير من علماء الشام وغيره فى القرن الرابع الهجرى ، فكانت هذه الندوة سببا فى صقل كثير من المواهب الشعرية ، وخير شاهد على هذا الاهتمام ما قاله أبو بكر الخوارزمى الذى تخرج فى ندوة سيف الدولة

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف ص ٢٣٩ الطبعة العاشرة دار المعارف القاهرة .

(٢) عصر الدول والإمارات فى الشام للدكتور شوقى ضيف ص ٩٠ ، ٩٢ .

(٣) يتيمة الدهر للثعالبى ٣٧/١ .

فيقول : « ما فتق قلبى وشحذ فهمى وصقل ذهنى وأرهف لسانى وبلغ هذا المبلغ بى إلا تلك الطرائف الشامية ، واللطائف الحلبية التى علقت بحفظى وامتزجت بأجزاء نفسى » .

وممن خرجته الشام وأخرجته ، وكلامه مقبول محبوب ، أخذ بمجامع القلوب القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ، فإنه جنى ثمارها ، واستصحب أنوارها ، حتى ارتقى إلى المحل العلى ، وتطبع بطابع البحترى ، بل إن ندوة سيف الدولة لم يكن متوقفا على ما كانوا بالشام ولكن خرج إلى الصاحب بن عباد ، وهو صاحب ندوة لا تقل كثيراً عن ندوة سيف الدولة فقد كان ابن عباد حريصًا على تحصيل الجديد الذى صدر عن ندوة سيف الدولة ، هذا الجديد الذى يستملى الطارئين عليه من حلب ما يحفظونه من البدائع واللطائف حتى كتب دفتراً ضخم الحجم كان لا يفارق مجلسه[1] .

والنظر فى شعر شعراء الشام خلال القرن الرابع الهجرى يدل على اهتمامهم الكبير بأساسيات علم البلاغة ودراساته اهتمامًا نظريًا ، يخدم نظمهم دون أن يدونوا هذا العلم فى كتاب مستقل بذاته له مصنفاته وعلماؤه الذين يكتبون فيه .

وفى مقدمة هؤلاء المهتمين بذلك أبو على الحاتمى وأبو الطيب المتنبى وابن نباتة السعدى والسلامى ، والناشى الأصغر والزاهى والصنوبرى والسرى الرفاء ، وأبو بكر الخالدى وأخوه أبو عثمان ، والببغاء وابن جنى وكشاجم والوأواء الدمشقى والنامى وأبو الفرج العجلى ، ومن الأدباء ابن خالويه وأبى على الفارسى وعلى الجرجانى وأبو بكر الخوارزمى[2] .

والمتتبع لبعض علماء الشام الذين كانوا من بين أصحاب ندوة سيف الدولة ، يلاحظ أن بعضهم قد ترك أثراً ـ وإن قل ـ يثبت أن لعلماء الشام أو من نزلوا فيها أثرا واضحاً فى تطور علم البلاغة ، وأثرا فى التأليف وإن قلّ .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ٣٤/١ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص ٢٠١ .

فلو تتبعنا مؤلفات الحاتمى وجدنا له مصنفا اسمه « حلية المحاضرة فى صناعة الشعر » وهو كتاب مهم تعرض فيه لكثير من قضايا البلاغة وله فيه آراء تدل على فهم الشعر وتذوقه قال فيه : « فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر أو باينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالم جماله »[١].

وعند تتبعنا لندماء سيف الدولة وجدنا من بينهم أبو على أحمد بن نصر بن الحسين البازيار المتوفى سنة ٣٥٢هـ بحلب ، له كتاب « تهذيب البلاغة » وقد ترجم له ابن النديم[٢] ، وياقوت الحموى[٣] ولم نحصل له على أخبار تبين ما كتبه وما يفصح عن منهجه وما قدمه ، ولم يذكر صاحب معجم المؤلفين[٤] وهو يتحدث عن الكتاب شيئا ، ولكن بناءً على عنوان الكتاب نستنبط أنه لم يأت بجديد من عنده سوى أنه هذّب ما هو معروف فى عصره من قضايا بلاغية .

وأما أبو بكر الخوارزمى فقد كان من أصحاب ندوة سيف الدولة أيضًا وسرّ البلاغة عنده يرجع إلى الصدق ، وهذا دليل على أنه كان مأخوذًا بفنه مفتونًا به ، فلن يكون للشاعر أو الكاتب وصول إلى سحر البلاغة وسر البيان إلا إذا صدق[٥].

فى العراق .. بدأت ملامح علم البلاغة تتبلور ، وأخذت ملامحه تتحدد منذ النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى وأوائل القرن الرابع الهجرى ، حيث بدأت الملاحظات البلاغية العابرة ، والآراء والأفكار المتناثرة فى مؤلفات ما قبل القرن الرابع الهجرى تنمو وتتضام وتنضج لتصبح أبوابًا وفصولاً متكاملة فى مؤلفات أواخر القرن الثالث وخلال القرن الرابع الهجرى ، وأصبحت تلك الأبواب والفصول تتجاوز مع

---

(١) حضارة العراق جـ٧ /٣١٨ نقلا عن كتاب حلية المحاضرة فى صناعة الشعر لأبى على محمد بن الحسن الحاتمى وهو مطبوع فى بغداد طبعة وزارة الثقافة والإعلام سنة ١٩٧٩م. انظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع للدكتور محمد عيسى ١٩/٢ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ١٨٩ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ٤٣/٢ ـ ٤٤ .

(٤) معم المؤلفين لكحالة ٣١٩/١.

(٥) النثر الفنى للدكتور زكى مبارك ٣٢٥/٢ ـ ٣٢٦.

الأبواب والفصول المخصصة لقضايا العلوم الأخرى ومباحثها كعلوم القرآن وعلوم اللغة، والعلوم الأدبية ، وأصبح علم الكلام له دور واضح وأهمية خلال القرن الرابع الهجرى حيث أصبح واحداً من العلوم التى تمتزج قضاياها البلاغية فى مؤلفات العصر ، بحيث طغى الجانب البلاغى على الجانب الكلامى ، وذلك واضح وجلىّ فى «كتاب النكت فى إعجاز القرآن»[1] لأبى الحسن الرمانى ت ٣٨٦هـ ، الذى يعدّ واحد من الكتب الرائدة حول قضية الإعجاز القرآنى فى الوقت نفسه واحد من المصادر الأساسية الأولى فى البلاغة العربية ، وعلى الرغم من صغر حجم الكتاب فقد ترك أثرا بارزاً فى مسار التأليف البلاغى ، وتأثر به كثير من البلاغيين والنقاد والمتكلمين الذين جاءوا بعد الرمانى .

ولكن ثمة كتاب آخر أكثر تمثيلا لطبيعة التأليف فى القرن الرابع الهجرى وهو كتاب « إعجاز القرآن » لأبى بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ[2] فهو يهتم بقضية الإعجاز القرآنى من أنضج الكتب التى ألفت حول الاعجاز القرآنى ، وهو من المصادر البلاغية الأساسية التى أسهمت فى تحديد مسار البلاغية العربية ، والقضايا البلاغية تختلط فيه بالقضايا الكلامية اختلاطاً متوازناً ، قد ساهم هذا الكتاب فى تطوير التأليف البلاغى وبين طبيعة القرن الرابع من حياة البلاغة العربية .

كان القرن الرابع الهجرى تحديداً لمسار البلاغة العربية ، وعصرِا لتطور الدراسات البلاغية ، المتتبع للدراسات القرآنية والبلاغية منذ القرن الثالث وخلال القرن الرابع يرى أنها قد تطورت ، فأخذت الفنون والاصطلاحات البلاغية تظهر وتسجل جوانب الجمال فى الأسلوب وتداخلت الدراسات وامتزجت ، فكانت دراسة أسلوب القرآن الكريم تعتمد على البلاغة ، وكانت البلاغة تعمد إلى الشاهد القرآنى لتستعين به فى توضيح المصطلحات وتبيتها فى الذهن ، إلى جانب الشواهد الشعرية والأدبية الأخرى .

وقد بلغت هذه المصطلحات عند ابن المعتز فى أواخر القرن الثالث فى كتاب

---

(١) حقق الكتاب الأستاذ محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام ، ونشرته دار المعارف مع رسالتين آخرتين فى الإعجاز القرآنى للخطابى وعبد القاهر الجرجانى بعنوان « ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن » وقد طبعته عدة طبعات آخرها الرابعة ١٩٩١م.

(٢) الكتاب حققه الأستاذ السيد صقر ، ونشرته در المعارف بمصر سنة ١٩٥٤م.

«البديع» خمسة هى : الاستعارة والتجنيس ، والمطابقة ، ورد إعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى . ويعتبر النقاد كتاب ابن المعتز نقطة البدء فى طريق العلوم البلاغية ، وقد عرفت طريق الاستقلال منذ ظهور كتاب البديع[1] الذى احتوى الفنون الخمسة التى لم يسبقه إليها أحد ـ على حد قوله ـ فيجمعها أو يؤلف فى هذا الفن أحد قبله[2] حتى ظهر العالم قدامة بن جعفر ت ٣٣٧هـ الذى ألف كتابه « نقد الشعر » رمزاً لامتزاج الثقافة العربية باليونانية ، وقد حرص قدامة على أن يخصص الفصل الثانى فيه وهو أطول فصول الكتاب لدراسة صفات الجودة التى أطلق عليها اسم « النعوت » وقد جمع هذا الفصل أهم آراء قدامة البلاغية والفنون البلاغية التى اكتشفها أو تناولها بالدراسة فى كتابه « نقد الشعر » بينما يورد فى كتاب له آخر اسمه « جواهر الألفاظ »[3] تلك الفنون البلاغية ويطلق عليها اسم بلاغة ، وهذا يؤكد أن امتزاج النقد بالبلاغة عنده ، حيث يعدها فى كتاب « نقد الشعر » نقداً ، ويعدها فى كتاب « جواهر الألفاظ » بلاغة ، لقد اتبع من سبقوه فى أن لفظ بلاغة يراد به « القول الجميل الذى يبلغ به الأديب درجة من الجودة والإبداع[4]، وأن لفظ نقد يدل على وسائل التعرف على جيد القول أو قبيحه[5].

ثم جاء بعد ذلك أبو هلال العسكرى ت ٣٩٥هـ الذى تعمقت عنده فكرة الروح البلاغية وامتزجت امتزاجًا ظاهراً بالنقد ، وكان نقطة تحول النقد إلى بلاغة أو نقطة البدء بتقرير البلاغة وضبط مسائلها وأصولها ، وإن للبلاغة وضبط أصولها بذوراً منذ عهد مبكر ، فقد ظهرت أوائل مسائلها فى كتب النحو والتفسير الأولى[6] .

(١) الأساس فى النقد والبلاغة للدكتور أحمد الحوفى ٢٥/٢.

(٢) كتاب البديع لابن المعتز ص ١٠٦ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى مكتبة الحلبى القاهرة ١٩٤٥م.

(٣) جواهر الألفاظ لقدامة ابن جعفر ص ٣ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة مصر ١٩٣٢ م.

(٤) تاريخ النقد العربى إلى القرن الرابع الهجرى د/ محمد سلام ص٢٩ بحث مستقل من مجلة الآداب.

(٥) تاريخ النقد العربى د/ محمد سلام ص ١٤.

(٦) اتجاهات البلاغة العربية د/ أحمد مطلوب ص ٥ بحث مستقل من مجلة الآداب بجامعة بغداد لسنة ١٩٦٢م.

وقد ألف أبو هلال العسكرى كتابه « الصناعتين » أى صناعة الشعر والنثر - وجمع فيه مباحث كثيرة بعضها خاص بالنقد وبعضها خاص بالبلاغة ، وقد أخذ سابقيه تسعة وعشرين لونا بلاغيًا ، وزعم أنه ابتكر سبعة أخرى فبلغ ما بحثه من هذه الألوان البلاغية ستة وثلاثين لونًا ، وجمع أكثر هذه الفنون فى باب عنده عقده للبيع خاصة وهى ألوان ليست كلها من علم البديع حسب اصطلاح المتأخرين بل من علوم البلاغة الثلاثة التى هى « البيان والمعانى والبديع » .

وقد نصّ أبو هلال على أن الغاية من علم البلاغة هى أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن وقد استعان فى تأليف كتابه « الصناعتين » بجلّ ما كتب سابقوه ممن عالجوا مثل موضوعه كابن سلام الجمحى ، والجاحظ وابن قتيبة وابن المعتز ، وقدامة والآمدى والقاضى الجرجانى ، وقد استطاع أبو هلال العسكرى أن يعرض لنا زبدة هذه الكتب فى كتابه(١) .

تعقيب :

المتبع لحركة علم البلاغة فى بلاد الشام خلال فترة أوائل القرن الرابع وما قبله ، يجد أن الشام لم تزخر بنشاط ملحوظ مدّون ، بل يجد نشاطًا نظريًا متمثلاً فى النهضة الأدبية التى تسبب فيها سيف الدولة الحمدانى ، فبها ارتقت الشام ببلاغة الكلام شعراً ونثراً ، وكان الاهتمام بالدراسات الأدبية والبلاغية على مستوى الحلقات المنتشرة فى الشام وعلى رأسهم ندوة سيف الدولة الحمدانى(٢) .

وقد شارك فى هذا الاهتمام علماء عراقيون لهم قدر كبير فى العلم ، وقد عاشوا فترة بالشام تحت كنف سيف الدولة الحمدانى ، ولهم المصنفات فى القضايا الأدبية والبلاغية غير أنهم صنفوها فى بغداد ، فأصبح كل ما لهم أنهم سمعوا وتدارسوا وناقشوا وتعلموا فى ندوة سيف الدولة بالشام وأصبح لهم مواقف ومآخذ على من

---

(١) مقدمة كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم طبعة الحلبى القاهرة ١٩٧١م.
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ٣٧/١ .

تنافسوا معهم كما كان يحدث بين ابن خالويه وبين أبى الطيب المتنبى[1] .
وكالحاتمى وابن خالويه والقاضى الجرجانى وأبو بكر الخوارزمى وغيرهم من الشعراء كالمتنبى، فقد عاش فترة فى بلاد الشام وخاصة فى ندوة سيف الدولة واهتم بالصنعة البلاغية من أجل نظم شعره وبراعته وقوة تأثيره وعاش أيضاً فى بلاد العراق .

وأما أهل العراق .. فكان اهتمامهم بعلم البلاغة ملحوظاً سواء نظريًا متمثلاً فى الشعراء وحرصهم على دراسة علم البلاغة أو الأفكار البلاغية أو الملاحظات البلاغية خاصة قبل نهاية القرن الثالث الهجرى ، أو مدوناً متمثلا فى كتاب البديع لابن المعتز فى أواخر القرن الثالث وغيره من الكتب على امتداد القرن الرابع لكثير من العلماء كقدامة والجرجانى القاضى ٣٩٢هـ والباقلانى ٤٠٣هـ .

فالملاحظ أن البلاغة العربية نشأت فى العراق ثم امتدت إلى باقى الأقاليم العربية والأمصار الإسلامية .

ثم أنها مرّت بمراحل إعداد حتى استقلت فى أواخر القرن الثالث وتطورت على مدار القرن الرابع حتى وصلت فى القرن الخامس إلى التمام الذى دامت عليه .

وأصبحت مدونة فى مؤلفات عديدة وظهرت فى صورة عربية تحت كنف اللغويين والنحاة وترك لنا علماء البلاغة تراثاً عظيمًا شمل لنا جوانب علم البلاغة محفوظاً كاملاً متكامل البناء .

لذلك فإنه لا يختلف اثنان فى إرجاع الفضل فى استقلال علم البلاغة وتطوره واستكماله إلى علماء العراق ، وأنهم أصحاب الدور الكبير فى نشر هذا العلم فى كل مكان ، وظهور دراسات إعجاز القرآن الكريم ، وتقديمهم للغة العربية أروع من عرفته القرون .

التأثير والتأثر بين علماء الشام وعلماء العراق

الذى يُلاحظ أن الشام ، وخاصة ندوة سيف الدولة لها التأثير المباشر وغير المباشر على علماء العراق ، أما المباشر فبالحضور فى تلك الندوة والمناقشات والدراسة كما

---

(١) نزهة الألباء لابن الأنبارى تحقيق محمد إبراهيم ص ٢٩٨ .

حدث مع أبو بكر الخوارزمي والقاضي الجرجاني وأبو على الحاتمي[1]، أما التأثير غير المباشر فقد كان سيف الدولة جوّاد على الشعراء والأدباء ، وكان جوده لا يقتصر على أدباء حلب فحسب بل كان يشمل أدباء بغداد وهم في قفارهم دون الحضور إلى ندوته بحلب فقد حمل رسوله من بغداد أبياتًا ثلاثة أرسلها إليه أبو إسحاق الصابئ فلما عاد الرسول من حلب إلى بغداد أخرج لأبي إسحاق كيسًا بختم سيف الدولة فيه ثلاثمائة دينار[2] .

أما العراق فقد كان لعلمائه تأثير مباشر ليس على الشام وحده بل على الأقطار كلها ؛ لأن بها بغداد ومن قبلها البصرة والكوفة حاضرة العلم والعلماء ، ولها السبق في ظهور هذا العلم ، وأن حياة علم البلاغة العربية بدأت في العراق دون الشام وأن امتزاج العلم بالعلوم الأخرى ومروره بمراحل تكوينه والسعي إلى استقلاله وجعله علماً مستقلا كان في العراق دون غيره ، وأن أول من حاول أن يجعله مستقلا بتأليف كتب فيه كان أهل العراق على يد عبد الله بن المعتز ، وأن الذين كانت لهم اليد الطولى في تطويره دون غيرهم كانوا هم علماء العراق وخير شاهد على ذلك مصنافتهم في هذا العلم وإن لم يكن المصنف كاملاً بل تستقل به بعض أبوابه كقدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر ، خصص فيه الفصل الثالث للبلاغة تحت مسمى « النعوت » وفي كتابه أيضًا « جواهر الألفاظ » سماه باسم البلاغة ، وكذلك أبو هلال العسكري صنف كتاب « الصناعتين » وجعل فيه الباب الأول للبلاغة ووجوه البيان والفصاحة ، وغيرهما على سبيل المثال من أجل أن نبين مدى سبق وتميز أهل العراق في إنشاء علم البلاغة العربية .

---

(١) مملكة السيف ودولة الأقلام د/ مصطفى الشكعة ص ٢٠١ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ٤٥/١ .

من مشاهير علماء البلاغة فى الشام

أحمد بن نصر بن الحسين البازيار أبو على الكاتب الحلبى ت ٣٥٢هـ[١]

كان نديما لسيف الدولة ، وكان جده نصر من « سرّمَنْ رأى » واتصل بالمعتضد، وخدمه وخف على قلبه ، وكان يتعاطى لعب الجوارح فرد إليه المعتضد نوعاً من أنواع جوارحه ، وتوفى أبو على بحلب فى حياة سيف الدولة[٢] وكان يحضر ندوته ، وكان من ندمائه ، وكانت له مكانة وقدر عظيم عنده[٣].

وله من الكتب : كتاب تهذيب البلاغة ، وكتاب اللسان[٤].

أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى ت ٣٨٢هـ[٥]

الكاتب الشاعر المشهور ، وهو ابن أخت أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ وكان الخوارزمى إماماً فى اللغة والنسب أقام بالشام مدة وسكن بنواحى حلب ، وكان مشاراً إليه فى عصره . وكان له ديوان رسائل وديوان شعر[٦] ولم يصل إلينا من آثار أبى بكر الخوارزمى إلا مجموعة رسائل تعرف باسمه وهى مطبوعة فى مصر وفى الآستانة سنة ١٢٩٧هـ وفى بومباى سنة ١٣٠١هـ وغيرها[٧]. متمسكا بالفكر الشيعى مادحاً له منددا بخصومه .

عاصر الخوارزمى الشريف الرضى والمتنبى وأبا فراس ، ويمتاز أسلوبه بخصائصه ومميزات لا يمثلها كاتب سواه ، فهو نثرى فى نثره، عقل قوى يمتاز عن العقول التى سبقته أو عاصرته .

---

(١) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ١٨٩ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٤٣/٢ ـ ٤٤، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣١٩/١.

(٢) الفهرست لابن النديم ص ١٨٩ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ٤٣/٢ ـ ٤٤.

(٤) الفهرست لابن النديم ص ١٨٩ ، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣١٩/١.

(٥) انظر ترجمته فى : يتيمة الدهر للثعالبى ٢٢٤/٤ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤٠٠/٤ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٠٥/٣ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١١٠/٢ ، وتاريخ آداب اللغة لجورجى زيدان ٢٧٤/٢ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٣٨٠/٣ ، والنثر الفنى للدكتور زكى مبارك ٣١٦/٢ .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٠٠/٤ ـ ٤٠١ .

(٧) تاريخ آداب اللغة لجورجى زيدان ٢٧٤/٢.

لقد كان لما حفظه الخوارزمي أثر كبير في أدبه ، فقوى أسلوبه وتلون خياله وصار من أقدر الكتاب على الوصف ، ومن أعرفهم بضرب الأمثال[١] ، لقد بدأ السجع كماله برسائل أبي بكر الخوارزمي وكان يقيم بحلب في بلاط سيف الدولة ، وفي أواخر عمر أبي بكر الخوارزمي ناقشه بديع الزمان الهمذاني[٢] .

وقد جذبت شهرته كثيراً من التلاميذ يتعلمون على يديه وخصوصاً من الفقهاء ، ونجد في رسائله الكثير موجهًا إلى تلاميذه الجدد أو القدماء ولو قارنّا بين رسائل الصابئ لوجدنا هذه أكثر اتزانًا وأقل مبالغة ، وأقرب إلى الواقع ، وكان أهم ما عند الخوارزمي المحسنات البديعية والسلاسة ، أما الصفات الرئيسية التي اتصف بها أسلوب الخوارزمي فهي صفات الأسلوب الساخر وهي المبالغة والتكرار والحشو وهو يعمد إليها باعتبارها طريقة فنية في الكتابة[٣] فقد نبغ الخوارزمي في الكتابة الإخوانية وكان شيخاً لهذه الصناعة وقد التزم السجع ، وعدّ شيخ الأدباء[٤] .

من آثار الخوارزمي : ديوان شعر وديوان رسائل ورسم المعمور من البلاد[٥] .

وقد طبعت رسائل الخوارزمي وديوانه وذكر له الثعالبي شعراً وقطعاً ونثراً[٦] .

من مشاهير علماء البلاغة في العراق

أبو الحسن علي بن عيسى الرماني الوراق ت ٣٨٤هـ[٧]

حدّث عن أبي بكر بن دريد وأبي بكر بن السّرّاج ، وروى عنه علي بن المحسن

---

(١) انظر النثر الفني للدكتور زكي مبارك ٣١٧/٢ ، ٣١٨ .
(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١١٠/٢ .
(٣) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٤٣٣/١ ـ ٤٣٤ .
(٤) انظر ظهر الإسلام لأحمد أمين ٩٦/٢ .
(٥) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٣٨٠/٣ .
(٦) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١١١/٢ ، ١١٢ .
(٧) نظر ترجمته في : المقابسات لأبي حيان التوحيدي ص ٥٧ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٨٧ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٦/١٢ ، وإنباه الرواه للقفطي ٢٦٤/٢ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٩٩/٣ ومعجم الأدباء لياقوت ١٩١/٤ ، والعبر للذهبي ١٦٤/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣٤/١١ وطبقات المفسرين للداودي ٤٢٣/١ ، وشذرات الذهب لابن لاعماد ١٠٩/٣ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١٨٩/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٤٨٣/٢ ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ٤٥١/١ .

التنوحي والحسن بن على الجوهرى وهلال بن المحسن الكاتب ، وكان من أهل المعرفة مفتياً في علوم كثيرة من اللغة والنحو والفقه والقرآن والكلام على مذهب المعتزلة [(١)]. فكان عالى الرتبة فى النحو واللغة والكلام والعروض وقد عيِّب به إلا أنه لم يسلك طريق واضع المنطق ، بل أفرد صناعة وأظهر براعة[(٢)]. فهو علامة الأدب فى طبقة أبى على الفارسى : وأبى سعيد السيرافى ، وكان يمزج كلامه فى النحو بالمنطق حتى قال أبو على الفارسى « إن كان النحو ما يقوله الرومانى فليس معنا منه شيء »[(٣)].

لقد كانت له اليد الطولى فى النحو واللغة والمنطق والكلام ، وله من الكتب مؤلفات كثيرة فى مختلف العلوم منها : النكت فى مجاز القرآن ، والألفاظ المترادفة والمتقاربة فى المعنى ، وكتاب البيان ، ورسالة فى إعجاز القرآن[(٤)].

لقد شغلت قضية إعجاز القرآن الكريم الدارسين ، وألف على بن عيسى الرمانى رسالته « النكت فى إعجاز القرآن » وقد تحدث فيها عن وجوه الإعجاز والبلاغة عنده على ثلاث طبقات : منها ما هو أعلى طبقة ، ومنها ما هو أدنى طبقة ، ومنها ما هو من الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة ، وليست البلاغة عنده إفهام المعنى وإنما هى « إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ »[(٥)].

أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكرى ت ٣٩٥هـ[(٦)]

فهو من رجال اللغة والرواية ، وكان الصاحب بن عبّاد يودّ الاجتماع به ولا يجد إليه سبيلا . وله، عظيم فى اللغة العربية ولو لم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عنى به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والنقاد .

---

(١) إنباه الرواة ٢٩٤/٢.

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١٣٣/١ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ١٩١/٤

(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٨٩/٢ ـ ١٩٠، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٤٨٣/٢ .

(٥) حضارة العراق لمجموعة من الأساتذة ٣٢٢/٧.

(٦) انظر ترجمته فى : معجم الأدباء لياقوت ٥٦٢/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٦٠/١ ، والنثر الفنى د/ زكى مبارك ١١٥/٢ وما بعدها .

وأثنى عليه أبو المظفر محمد بن أبى العباس ووصفه بالعلم والفقه معًا ، وقال : كان يتبزز[(١)] احترازاً من الطمع والدناءة والتبذل ، وكان الغالب عليه الأدب والشعر[(٢)]. وله كتب كثيرة فى فنون عديدة منها :

كتاب الصناعتين والشعر أو المختصر فى صناعتى النظم والنثر ، ديوان المعانى فى اثنى عشر باباً ، وكتاب المصون ، وكتاب المعجم فى بقية الأشياء وكتاب الزواجر والمواعظ ، وشرح ديوان أبى محجن ، وكتاب الفروق اللغوية ، وله رسالة فى ضبط وتحرير مواضع من ديوان الحماسة لأبى تمام ، وكتاب الحث على طلب العلم ، والتلخيص فى معرفة الأشياء ، وكتاب المعرب عن المغرب ، وله محاسن النثر والنظم من الكتابة والشعر ، وله مجموعة رسائل العسكرى ، وكتاب الدينار والدرهم ، وصنعة الكلام ، وشرح الفصيح[(٣)].

---

(١) أى يتجمل ويظهر للناس ذا بزة حسنة ولبسته تدفع التبذل .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٥٦٢/٢.

(٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٥٢/٢ـ ٢٥٥، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٥٦٠/١.

النقد الأدبي عند أهل الشام والعراق
خلال القرن الرابع الهجري

النقد الأدبى :

تقوم الدلالة اللغوية لكلمة « النقد » على معنى الأخذ والتناول والتمييز بين الجيد والردئ .

وقد استعمل فى اللغة العربية لمعان مختلفة منها : تمييز الجيد من الردئ ، والعيب والنقصان أو الانتقاص ، وقد استعمل الأدباء العرب كلمة النقد بالاستعمالين لنقد الكلام شعره ونثره على السواء .

وجملة الأمر أن النقد الأدبى هو الحكم الذى تصدره على الشعر والنثر[(1)] ، وهو تحليل الآثار الأدبية والحكم عليها وبيان قيمتها العامة والموازنة بينها وبين ما يشابهها من ا لآثار وأصول النقد قراءة وفهما وتفسيراً وحكماً ، والغرض منه دراسة الأساليب أو الكتاب أو الآراء والأفكار[(2)] .

وكان لابد للناقد أن يكون على ثقافة تؤهله لدراسة الأدب وفهمه قبل الحكم عليه ، يقول ابن سلام الجمحى فى ذلك : « والشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات »[(3)] .

النقد الأدبى قبل القرن الرابع الهجرى :

كانت أسواق العرب تحفل بالشعر وناقديه ، وقد بدأ النقد مرتجلاً وكان هيناً يسير ملائما للشعر العربى فى الجاهلية ، فيكون عربىّ النشأة كالشعر لم يتأثر بمؤثرات أجنبية ، بل يقوم على الذوق العربى السليم .

ثم أخذ النقد فى القرن الأول الهجرى يسير فى طريق النضوج والوضوح مع

---

(١) أصول النقد الأدبى للأستاذ أحمد الشايب ص ١١٤، ١١٥ ط ٣ النهضة المصرية ١٩٤٦م.

(٢) مقدمة لدراسة نقد الشعر لقدامة تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٤ .

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٦ ـ ٧ طبعة مطبعة السعادة بدون تاريخ .

الفطرة الخالصة والذوق السليم ، وكان كثير من الخلفاء والصحابة نقاداً بفطرتهم وذوقهم .

بلغ النقد الأدبى فى القرن الثانى الهجرى مرحلة من مراحل تطوره تناسب ما بلغه العرب فى هذا العهد من نضج ثقافى وأدبى كبير ، وكان الأدباء ينقدون الشعر بفطرتهم وذوقهم ، وكان بشار أجودهم وأدقهم فى نقد الشعر ومذهبه .

ولكن جهود علماء اللغة فى النقد كانت أقوى وأظهر فقد جمعوا أقوال النقاد قبلهم فى الشعر والشعراء ، ووازنوا بين الإسلاميين والمتقدمين ونقدوا رواية الشعر ومعانيه وغير ذلك من الموضوعات .

أما فى القرن الثالث فقد أخذ النقد الأدبى يستقل بالبحث والتأليف على أيدى النقاد وعلماء الأدب وسواهم ، كابن سلام الجمحى والجاحظ وابن قتيبة وثعلب وابن المعتز ، وسواهم من الأدباء وعلماء اللغة ألف فى ذلك ابن سلام الجمحى « الشعر والشعراء » والجاحظ « البيان والتبيين » وابن قتيبة « الشعر والشعراء » ونشأت طبقة المفكرين والمثقفين الذين تثقفوا بثقافات أجنبية واسعة ، وتأثروا كل التأثير بآداب الأمم الأخرى وترجموا آراءهم فى البيان ومناهجه إلى اللغة العربية ، أو ألفوا كتباً تبحث فى هذه الاتجاهات وهؤلاء قد أثروا فى النقد والأدب والبيان ودراسته وتطوره تأثيراً واضحًا كبيراً ، فترجموا كتاب الخطابة وكتاب الشعر لأرسطو إلى العربية ، ونقل ذلك فى القرن الرابع الهجرى[1] .

النقد الأدبى فى القرن الرابع

أولا : فى الشام

الناظر فى أدب الشام يجد أن شعراء الشام متصلين اتصالاً وثيقًا بالتطور الذى حدث فى الشعر على مدى أيام بنى العباس وما اصطنعه فيه الشعراء من المحسنات البديعية ، ويعدّ الشاعر أبو تمام الشامى المتوفى حوالى سنة ٢٣٠هـ هو الذى تلقى

---

(١) تمهيد محقق كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ٢٣ ، ٢٥، ٤٣ .

مذهب التصنيع أى التنميق حتى يشمل البديع وألوانه الحسية المعروفة ، تلقاه بسرعة عن مسلم بن الوليد وأعطاه صورته النهائية(١) .

ولكن نلاحظ أن الشام قد تأخرت فى صنع كتب البلاغة والنقد من الوجهة النظرية ، ورغم ذلك فإنها سبقت إلى الرقى ببلاغة الكلام نثراً وشعراً ، وما نتقدم طويلا فى القرن الرابع الهجرى حتى نلتقى بأكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين ، ونقصد حلقة حلب التى تكونت حول سيف الدولة الحمدانى ، وسرعان ما التف حوله وعاش فى كنفه كثير من الفلاسفة والأطباء وعلماء التنجيم ، واللغويين والنحاة والشعراء أمثال : النامى والخوارزمى ، وهم يدوّنون شعره ويتدارسون ويتناقشون معه حوله .

وكان إذا سُئل عن لفظه فى شعره أو تعبيره ساق عليه الشواهد الكثيرة من أشعار العرب(٢) .

لقد كان ينعقد من حين لآخر غبار من النقد اللغوى حول شعر المتنبى فى حلقة سيف الدولة ، وصور من هذا النقد كانت تنعقد بين شعراء الحلقة ، وكثيراً ما كانوا يتحاورون فى سرقاتهم ممن سبقوهم من الشعراء ، وهم أثناء ذلك يتناشدون أشعارهم أو أشعار سابقيهم مستحسنين تارة ومستهجنين أخرى وجميعها صور من النقد الذى يصقل الملكة الأدبية وصوّر ذلك أبو بكر الخوارزمى الكاتب المشهور ، وأحد من تزود بما كان فى الحلقة من نقد خصب(٣) .

لم يقف الأمير سيف الدولة عند قول الشعر ، بل كان ذا ملكة مميزة نقادة تميز بين الغث والسمين ، وتميز بين الردئ والجيد من الشعر ، فعلى سبيل المثال نرى سيف الدولة ينقد بعض أبيات للمتنبى بروح نقدية بارعة سمحة مرنة غير جامدة حيث يقول المتنبى :

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف ص ٢٤٧ .
(٢) نزهة الألباء لابن الأنبارى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٩٨ .
(٣) يتيمة الدهر للثعالبى ١/٣٥ ـ ٣٦ .

وقفت وما فى الموت شكّ لواقف ... كأنك فى جَفن الرّدىَ وهو نائمُ

تمرّ بك الأبطالُ كلمى هزيمـة ... ووجهك وضّاح وثغـرك باسـم

فقال سيف الدولة : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، وكان لك أن تقول :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ... ووجهك وضـاح وثغـرك باسـم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمـة ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبى : أيد الله مولانا ، إننى لما ذكرت الموت فى أول البيت اتبعته بذكر الردى وهو الموت ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية ، قلت : ووجهك وضاح وثغرك باسم ، لأجمع بين الأضداد فى المعنى وإن لم يتسع اللفظ لجميعها .

وهنا اقتنع سيف الدولة الأديب بوجهة نظر شاعره وأعجب بقوله ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات وفيها خمسمائة دينار[1] .

إن سيف الدولة الحمدانى الأديب الناقد لم يكن وحده فارس حلقة النقد الأدبى فى الشام بل انضم إليه من النقاد الذين كان لهم دور بارز فى النقد الأدبى خلال القرن الرابع الهجرى مثل : أبى على محمد بن الحسن الحاتمى المتوفى سنة ٣٨٨هـ ، وعلىّ بن عبد العزيز بن الحسن بن على الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢هـ وأبى بكر محمد بن العباس الخوارزمى المتوفى سنة ٣٩٣هـ .

فقد أكملوا مسيرة النقد الأدبى بعد رحيل سيف الدولة الحمدانى فى وقت اختلف فيه أمر النقد الأدبى والتأليف فيه دون أى شك فى ذلك ، لأنه مما لا شك فيه أن الشام تأخرت فى التأليف سواء فى النقد الأدبى أو علم البلاغة من الوجهة النظرية بخلاف العراق فقد سبقت الشام فى تأليف كتب النقد الأدبى خلال القرن الرابع وفى مقدمة مؤلفيه قدامة بن جعفر صاحب « نقد الشعر » .

فالمتتبع لحياة أبى على الحاتمى الأدبية والنقدية يجد أنه ألف عدة كتب فى النقد واللغة والأدب وهذا الإلحاح فى الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ٤٤/١ .

بدرس الشعر ونقده ، وأنه كان من أئمة زمانه فى هذا الباب ، وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تزكى الحسرة فى أنفس من يقدرون قيمة النقد الحق فى دلالته على ثقابة الذهن ، ومتانة العقل ، وسلامة الذوق وقد حفظ لنا « زهر الآداب » أبياتًا من شعره ، وأقوالا من نقده ، فقد استحسن قول أبو عمر المطرز غلام ثعلب قد أنشد أبياتًا منها :

لهم عزُّ إنصافٍ وذلّ تواضع ... بهم ولهم ذلتْ رقاب العشائر

كأن بهم وصْماً يخافون عاره ... وليس بهم إلا اتقاءُ المعاير[1]

وقد فهم الحاتمى وحده القصيدة على أنها مثل جسد الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض فيقول : « مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخوّن محاسنه ، وتعفى معالمه »[2] .

فأى تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ؟ فقد سمت نظراته إلى أدق ما وصل إليه بعده بقرون عديدة .

أما على بن عبد العزيز الجرجانى ت ٣٩٢هـ صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » فقد عرض آراءه النقدية فى هذا الكتاب ، ليتخذ ذلك قاعدة يبنى عليها أحكامه فى المتنبى وغيره من الشعراء فمن بعض آرائه النقدية رأيه فى الخصائص التى لابد منها لإنتاج الشعر وأنها : الطبع والذكاء والرواية ثم تكون الدُّرْبَة[3] مادة له ، وقوة لكل واحدة من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرّز[4] .

ومن آرائه : اختلاف الشعر باختلاف الطبائع ، فقد يختلف الشعر فى الطبع والذكاء والدراية والدّربة وبناءً عليه يختلفون فى الإجادة والتبريز .

---

(١) زهر الآداب للحصرى ١٨١/١ وانظر ٩٨٣/٢ طبعة الحلبى .

(٢) النثر الفنى د/ زكى مبارك ١٣٦/٢ نقلاً عن زهر الآداب للحصرى .

(٣) الدربَة : هى الجراءة والضراوة .

(٤) الوساطة بين المتنبى وخصومه للرجانى ص ١٥ .

فرقة الشعر وصلابته يرجعه الجرجانى إلى اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ، والبداوة ، والغرض الشعرى ، فإنك ترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم والغزل المتهالك .

ومن آرائه النقدية أيضًا أنه صوّر لنا ما يراه مثلا أعلى للشعر وأن ذلك يتحقق بشروط تكون فى اللفظ والأسلوب وصفات يتسم بها المعنى ، فالمعنى ألا يكون مبتذلاً، وأن يكون صحيحا شريفًا مصيبًا فى الوصف ، مقاربًا فى التشبيه ، إنسانيًا يجرى على الألسن مثلا وحكمة ويكون المعنى مبتذلا إذا تداوله الشعراء ، وأكثروا من ذكره ، أما المعنى الإنسانى فهو الذى يجد فيه الناس صدى لما يجول فى نفوسهم ومعبرًا عما يشعرون به .

أما عناية القاضى الجرجانى بالأسلوب فيقول عنه : وإذا ما أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب ، وعظم غنائه فى تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير وذى الرمة فى القدماء ، والبحترى فى المتأخرين ، وتتبع نسيب متيمى العرب ومعتزلى أهل الحجاز ، وكعمر وكثير وجميل ونصيب وأضرابهم ثم انظر واحكم وأنصف ، ودعنى من قولك : هل زاد على كذا ؟ وهل قال إلا ما قاله فلان روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم ، وإنما تقضى إلى المعنى عند التفتيش والكشف .

فالأسلوب الجيد عند القاضى الجرجانى هو الذى خلا من التعقيد وفساد الترتيب، واضطراب النسج والغموض ، ولذلك كانت هذه العيوب مجال وقفات منه فى شعر المتنبى يلتمس له فيها المعاذير ، وبعضها مما عيب به أبو تمام[1] .

وفى أواخر القرن الرابع ظهرت المصنفات فى النقد الأدبى لنقاد الشام وسنبين ذلك عند ذكرنا لمشاهير النقاد فى الشام خلال القرن الرابع الهجرى .

ثانيا : فى العراق

اتجه علماء الأدب فى مطلع هذا القرن إلى الكتابة فى الأدب والنقد ، ومزج

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى ص ١٨ ، ٢٤ ـ ٢٧ ، ٣٣، ٣٤ ، ١٧٦، ٤٣٢.

بحوث النقد والأدب بالبيان ، ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة عظيمة انتقلت بهم إلى البحث فى مظاهر البيان ومشكلات البلاغة فاتجه تأليفه فى آخر القرن الرابع إلى بحوث البيان نفسه ، مما أسفر عن أن يكون نقاد القرن الرابع فى الأدب والشعر فريقين فريق كتب ونقد ووازن وحكم متأثراً بذوقه الأدبى وطبعه العربى وثقافته الخالصة من شوائب الثقافات الأخرى وعلى رأس هذا الفريق أبو بكر الصولى ت ٣٣٥هـ ، والحسن بن بشر الآمدى ت ٣٧١هـ ، وأبو بكر الباقلانى ت ٤٠٣هـ ، فألف الصولى كتاب « أخبار أبى تمام » وألف الآمدى « الموازنة بين الطائيين » وألف الباقلانى كتاب « إعجاز القرآن » وفريق آخر كتب بروح أدبى هذبت فكرته ووسعت أفقه الثقافات الأخرى التى هضمها القرن الرابع ، وأحالها غذاءً عقلياً لكل من توسع فى الدراسة والبحث العميق وعلى رأس هذا الفريق : قدامة بن جعفر ت ٣٣٧هـ صاحب كتاب « نقد الشعر » وأبو هلال العسكرى ت ٣٩٥هـ صاحب كتاب «الصناعتين» و « ديوان المعانى » وهذا الفريق الأخير يختلف نقده قوة وضعفاً بحسب تمكن الطبع العربى من نفوس رجاله وأعلامه وتتفاوت منازلهم فى الإجادة والإحسان بتفاوتهم فى الذوق الأدبى الذى يعتد به فى الحكومات الأدبية العادلة[1] .

وحينما كان النقاش محتدماً حول القديم والجديد ، كان النقاد يحددون خصائص الشعر القديم ويوضحون سمات الشعر الجديد . فالأول التمسك بالقديم والسير على مذاهب الأقدمين فى التعبير والتصوير ، والثانى أى الجديد قربه من الذوق الحضرى وتعبيره عن الحياة الجديدة وما يخفق فى قلوب الشعراء من آمال وآلام .

وقد صوّر الصولى الاتجاه الثانى قال : إن ألفاظ المحدثين منذ عهد بشار إلى وقتنا هذا كالمنتقلة إلى معان أبدع وألفاظ أقرب وكلام أرق[2] .

ونقد الصولى يقوم أساساً على دراسة الشعر وتبيين مواطن الجمال والقبح ، والجودة والرداءة ، وعقد المقارنات بين الشعراء وتحليل معانيهم وأغراضهم ، وتعليل عيوبهم وسقطاتهم ، كما يقوم على عرض سرقات الشعراء من بعضهم البعض ،

---

(١) انظر الحديث عن هذه المصنفات فى معجم الأدباء لياقوت ٤٦٩/٢ ، ٥٦٢ ، ٨/٥ ، ٤٧٨ .

(٢) حضارة العراق ٣١١/٧ نقلا عن أخبار أبى تمام للصولى .

وإرجاع المعانى إلى أصحابها الأصليين ، محدداً من التابع ومن المتبوع ، ومن منهما أحق بالمعانى ، كما يتناول الصولى ـ فى نقده ـ العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وطريقة التعبير ، ونجاح الشاعر فى توصيل رؤاه واختيار ألفاظه تبعاً لمعانيه وأغراض الشعر التى يتناولها ، فيتحدث عن وجوب ائتلاف اللفظ مع معناه ، فالفخر مثلا يناسبه الألفاظ الجزلة والغزل يناسبه الألفاظ الرقيقة الناعمة ، والرثاء يناسبه الألفاظ الهادئة التى تنم عن الحزن[1] .

إنه من الممكن أن نلمس آراء الصولى النقدية فى : المقارنات بين مجموعة من الشعراء من عصر واحد ، تناولوا موضوعًا واحداً ، ويبين أيهم أجاد فى معانيه وأيهم اختل كمقارنته بين شعر النابغة الذبيانى وشعر امرئ القيس وشعر الطرماح فى وصف الليل[2] .

ويقارن الصولى كذلك بين ما قالته مجموعة من الشعراء من عصور مختلفة تناولوا موضوعًا واحداً ، كمقارنته بين قول زهير بن أبى سلمى الجاهلى وأبى تمام والبحترى من المحدثين[3] .

وكثيراً ما يقارن الصولى بين ما أخرجته قريحة شاعرين محدثين حول معنى واحد كمقارنته بين أبى تمام وأبى نواس حول معنى « الإفراط فى الاعطاء » ويقول أن شعر أبى تمام أحسن وأجود فى معناه[4] .

ثم نتعرض الآن إلى المذهب المتمسك بالقديم فى التصوير والتعبير ، ويمثل هذا المذهب على سبيل المثال الآمدى ت ٣٧١هـ ، وسواء الصولى أو الآمدى فكلاهما يكتب وينقد ، ويوازن ويحكم متأثراً بالذوق الأدبى والطبع العربى والثقافة النقية من الشوائب الناتجة عن الثقافات الأخرى .

لقد جاء الآمدى فوضع نظرية « عمود الشعر » فى النقد ، ونقد قدامة بن جعفر

---

(١) أبو بكر الصولى للأستاذ أحمد جمال العمرى ص ٢١٩ .
(٢) الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء للمرزبانى ص ٣٣ط دار نهضة مصر سنة ١٩٦٥م .
(٣) أخبار أبى تمام للصولى ص ٥٤ ، ٨١ .
(٤) أخبار أبى تمام للصولى ص ٢٢.

فى كثير من آرائه ، بل ألف كتابًا بيّن فيه أخطاءه فى نقد الشعر ، وأهداه إلى ابن العميد[1] ، وبالرغم من ذلك كله فقد تأثر كرهاً ببعض آراء قدامة ، تأثر به فى فهم عناصر ميزان النقد الأدبى التى حللها حين نقد أبا تمام والبحترى ، فيما يتصل باللفظ وسلامة المعنى وصحته والغرض واستقامته ، والأسلوب ومواءمته لأسلوب العرب فى الآداء والوزن وملاءمته لموسيقى الشعر وأوزانه ، وتأثر به فى تنسيق بحوثه وموضوعاته عارضًا للموضوعات التى آثرها ابن المعتز وقدامة كبحوثه فى الجناس والطباق والاستعارة والتقسيم ، مُدليا برأيه مع رجوعه إلى العربية وحدها فى المناقشة والنقد والحكم[2] .

وآراؤه النقدية فى النقد آراء جيدة سديدة وإنه من الغريب بل من الدقائق الغريبة أن نرى الآمدى فى القرن الرابع يفهم أن هناك حاسة فنية ، يرجع إليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان ، ويستطيع أن يفرق بين بيتين بكل دقة فقد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود ، إن كان معناهما واحداً ، وأيهما أجود إن كان معناهما مختلفاً[3] .

وقد وضع الآمدى خصائص الشعر الجيد وهى : الوضوح الذى يشير إلى المعنى بكل جلاء ، وحسن الاختيار والتدقيق فيما يقال ، واستعمال الألفاظ استعمالا دقيقاً، والعناية بالتشبيهات والاستعارات ، وأن تكون مرتبطة بما أخذت منه ارتباطًا واضحًا أو ارتباطًا لا يجعلها بعيدة ، وأن تكون تلك التشبيهات والاستعارات غير منافرة للمعنى وغير بعيدة عن الإدراك[4] .

وعند الحديث عن الفريق الثانى من نقاد الأدب فى القرن الرابع فى العراق نطوف حول دور كل من قدامة بن جعفر وأبى هلال العسكرى فى النقد الأدبى وجهود كل منهما ، هذا الفريق الذى هذبت فكرته ووسّعت ثقافته وأفقه الثقافات الأخرى التى هضمها القرن الرابع الهجرى .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ٤٦٩/٢ ـ ٤٧٠ .

(٢) النقد المنهجى عند العرب د/ محمد مندور ص ١٢٦ طبعة القاهرة ١٩٤٨م.

(٣) الموازنة بين الطائيين للآمدى ص ٢٠٧ طبعة بيروت بدون تاريخ .

(٤) حضارة العراق د/ أحمد مطلوب ٣١٥/٧ ـ ٣١٦.

لقد ألف قدامة كتابه نقد الشعر بعد أن لم يجد أحداً يؤلف فى هذا الموضوع(١).
لذلك يعدّ من أهم الكتب فى تاريخ النقد العربى والبلاغة العربية على السواء ، وذلك لكونه من أوضح نماذج تأثير الثقافة اليونانية على النقد والبلاغة العربية خاصة بعد ترجمة « فن الشعر » و « الخطابة » لأرسطو ، وهذا يعدّ من أكبر الدلائل فى البحوث العلمية على الاتصال الفكرى بين آراء أرسطو لا شك أن قدامة انتفع بالكتابين معاً(٢).

كما أن أهمية كتاب نقد الشعر لقدامة تكمن فى أن قدامة قد حشد فيه مجموعة ضخمة من المصطلحات البلاغية والنقدية التى أصبحت تشكل جزءا هامًا من مادة معجم البلاغة العربية وكان قدامة حريصًا على أن يقدم أو يحدد مفهوم كل مصطلح يستخدمه(٣).

ومن أهمية كتاب نقد الشعر أيضًا : أنه جعل أو حوّل النقد العربى والبلاغة العربية إلى علم ، حيث أنه حاول أن يضع لهما الأساس النظرى الدقيق بعد أن كان كل منهما يفتقد إلى الأساس النظرى الراسخ الذى ترتكز عليه ، فنحن « مع قدامة أمام منهج يقنن للبلاغة ويقنن معها للنقد الأدبى حتى تكون له رسوم ومعالم ، فبلاغته بلاغة موضوعية ونقده نقد موضوعى ، يمكن معه أن نحلل العمل الأدبى إلى أجزاء من الفكرة والمعنى ، وإلى أجزاء أخرى من التمثيل والتصوير »(٤).

والعامل الرابع الذى يعطى كتاب نقد الشعر أهمية بالغة أنه يحتوى على مجموعة من الفنون البلاغى التى لم يسبق أحد إلى اكتشافها ، وكان يدرسها دراسة موضوعية، ولهذا اعتبر مؤرخو البلاغة وعلماؤها قدامة واحداً من المخترعين الأوائل لعلم البديع(٥).

وكذلك أبو هلال العسكرى ت ٣٩٥هـ يمثل النقد الأدبى خير تمثيل ، قد خلف لنا كتاب « الصناعتين » ويعنى بالصناعتين صناعة النظم والنثر وربما عدّت

---

(١) حضارة العراق ٣١٩/٧ للأستاذ أحمد مطلوب .
(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان د/ إبراهيم سلامة ص ١٦٨ ط ٢ الأنجلو المصرية ١٩٥٢م.
(٣) البلاغة العربية د/ على عشرى زايد ص ٧٤ ـ ٧٥ مكتبة الشباب طبعة ١٩٨٢م.
(٤) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان د/ إبراهيم سلامة ص ١٧١ .
(٥) البلاغة العربية د/ على عشرى ص ٧٧.

كتابته فى نقده من أحسن الأساليب وأرقاها ، يسجع ولكن لا يلتزم السجع ، ويمتاز بالوضوح ، ولكنه قد يحور فى أحكامه النقدية فهو يتحامل على المتنبى ويفحص بإمعان عن مساوئه ولا يعلن محامده ، فهو كتاب أدب ونقد معاً[1] .

يُعدّ أبو هلال العسكرى أحسن من بحث البلاغة والنقد فى القرن الرابع ، حيث وضع فى كتابه « الصناعتين » صورة واضحة لفنى الشعر والنثر ، ويوقف المنشئين على أصول هذين الفنين ليأخذوا بها ، ينطلقوا منها فى الكتابة والإبداع ، وقد اعتنى بالتنظيم العلمى وحصر الأحكام البلاغية والنقدية بعد أن كانت مفرقة فى كتب المتقدمين ، واتبع فى بحثه أسلوباً تقريرياً ، فهو يتناول التعريفات والتقسيمات أو يضع القاعدة ثم يشرحها ويمثل لها [2] .

فكتاب الصناعتين من أهم الكتب التى تناولت فنون الأدب والبيان تناول فيه العسكرى البلاغة وفق منهجه التقريرى العلمى ، والذى لم يبعده كثيراً عن ذوقه الأدبي المدرب ، المرتبط بالنص الأدبى ، وبحسبه أنه فى القمة بين كتب النقد لا من حيث الموضوع فحسب ، ولكن من حيث أسلوبه المشرق المحكم الرزين[3] .

لم يكد القرن الرابع يودّع أعوامه الأخيرة حتى خفت الخصومة بين القدماء والمحدثين وأصبح النقد قواعد ثابتة وأصولا ذات رسوم يرجع إليها المنشئون ، فقد قدّم النقاد فى العراق للغة العربية أروع ما عرفته القرون السابقة[4] .

تعقيب حول :

النقد الأدبى عند أدباء الشام والعراق

اشترك كل من نقاد وأدباء الشام والعراق فى كثير من أمور النقد الأدبى سواء فى العوامل المؤثرة فيه ، أو الاقتداء والنهج من نقاد الشام خلف نقاد العراق ، أو التشابه

---

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ١٠٨/٢ ، ١٠٩ .

(٢) حضارة العراق لأحمد مطلوب ٣٢١/٧ ، ٣٢٢ .

(٣) اتجاهات النقد الأدبي د/ منصور عبد الرحمن ص ٢٥٦.

(٤) حضارة العراق لأحمد مطلوب جـ٧/ ٣١٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١.

فى مجالس النقد والأدب ، ولكن يجب أن نتعرض لمثل هذه الأمور من خلال الدراسة المقارنة على النحو التالى :

مما يدل على أن أهل الشام من الأدباء والنقاد كانوا مهتمين بالنقد والأدب عامة اتصالهم الوثيق بالتطور الذى حدث قبل القرن الرابع وخلال القرن الرابع أيضًا ، أما خلال القرن الرابع ـ وهو الذى نعنيه ـ فقد وهب سيف الدولة حياته وماله لإحداث حركة أدبية تنافس بها حلب بغداد(١) ، وقد كان بالفعل .

واشتهرت حلقة سيف الدولة الأدبية وما فيها من نقد خصب وقد صور هذه الحلقة وما فيها من اهتمام بالأدب والنقد أبو بكر الخوارزمى .

ومما يدل على اهتمامهم بالأدب والنقد وجود مكتبة عظيمة مملوءة بالكتب القيمة زاخرة بأسباب المعرفة وأدوات الاطلاع بقصر سيف الدولة(٢) .

ولو كان هذا الاهتمام مصحوباً بالتأليف فى النقد الأدبى فى أوائل القرن الرابع الهجرى لكان أمراً عظيماً ومكانة جليلة لنقاد وأدباء الشام ولكنهم تأخروا فى التأليف فسبقهم إليه نقاد وأدباء العراق .

أما أدباء ونقاد العراق فلا يستطيع أحد أن ينكر اهتمامهم بالنقد الأدبى والسبق فى هذا الاتمام وأكبر دليل على ذلك تأليف الكتب فى النقد الأدبى منذ أوائل القرن الرابع وقبل ذلك على يد أبى بكر الصولى ت ٣٣٥هـ، وعدم السير على نظام من سبقوه بل سلوكه سلوكاً جديداً فى النقد كدراسة الشعر وتبيين مواطن الجمال والقبح والجودة والرداءة وعقد المقارنات وغير ذلك من التحليل للمعانى والأغراض وتعليل العيوب(٣) .

وكذلك قدامة بن جعفر الذى ألف « نقد الشعر » بعد أن لم يجد أحداً يؤلف فى هذا الموضوع(٤) ، لذلك يعدّ من أهم الكتب فى تاريخ النقد الأدبى وأكبر دليل على اهتمام نقاد العراق بالنقد الأدبى .

---

(١) نزهة الألباء لابن الأنبارى ص ٢٩٨ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ٣٥/١ ، ٣٦.

(٣) أبو بكر الصولى ـ أحمد جمال العمرى ص ٢١٩ .

(٤) حضارة العراق لأحمد مطلوب ٣١٩/٧ .

إذا ما ذكرت مجالس النقد الأدبى فيكون فى مقدمتها مجلس سيف الدولة الحمدانى بالشام أكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين فى حلب ، ضمت النحاة واللغويين والشعراء والأدباء ، يدونون الشعر ويتدارسونه ويتناقشون مع سيف الدولة حول ما قيل فى الحلقة .

وكذلك مجلس الأدب الذى كان يملى فيه أبو على الحاتمى ت ٣٨٨هـ ما رواه عن شيوخه ومن تأدب على أيديهم سواء فى الشام أو فى العراق ، وله اجتماع مع المتنبى فى مجالس الأدب والنقد ببغداد أيضًا ومؤاخذات آخذه بها وصنف فى ذلك كتابًا سماه « جبهة الأدب »[١] بل عاش فى خدمة سيف الدولة منذ كان فى سن التاسعة عشر من عمره . وقد سوى فى مجلسه فى الرتبة بأبى على الفارسى وابن خالويه وغيرهما[٢] .

أما مجالس النقد فى العراق فهى أشهر مما يتكلم فيها أحد ، خاصة فى البصرة والكوفة وبغداد وكل منهم يمثل حاضرة العلم والتعلم وضمت كثيرًا من العلماء والأدباء والشعراء ، فأبو بكر الصولى ت ٣٣٥هـ كان يحضر مجلس علم يقرأ فيه على أبى خليفة فى منزله كتاب « طبقات الشعراء » وغيره ، وكان للصولى بيتًا عظيمًا مملوءًا بالكتب وهى مصفوفة وجلودها مختلفة الألوان . وكان الصولى يقول : هذه الكتب كلها سماعى[٣] .

وكذلك قدامة بن جعفر كان له مجالس أدب كثيرة فقد جالس ثعلبًا وجالس المبرد ، وكان يحضر مجلس الوزير ابن الفرات وكانت تدور فيه مناظرات ، كمناظرات أبى سعيد السيرافى ومتى المنطقى[٤] فكانت المجالس تعقد حول الأدب والنقد فى العراق كما كانت تعقد فى الشام .

---

(١) إنباه الرواة للقفطى ١٠٣/٣ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٣١٤/٥ ـ ٣١٥ .

(٣) إنباه الرواة للقفطى ٢٣٤/٣ ـ ٢٣٥ .

(٤) المقابسات لأبى حيان التوحيدى ص ٦٨ وما بعدها .

التأثير والتأثر بين نقاد كل من الشام والعراق :

إن مبدأ التأثير والتأثر بين أدباء ونقاد وعلماء الشام والعراق أمر واقع دون أدنى شك، لقرب القطرين لأن العراق حاضرة القرن الرابع ومن قبلها بلاد الشام ففى كل منهما يتمركز عدد من العلماء ومراكز العلم ، وطالما أن الرحلة العلمية مازالت مستمرة فلابد من وجود تأثير وتأثر ، فعلى سبيل المثال فى الشام نلاحظ أبا على محمد بن الحسن الحاتمى ت ٣٨٨هـ روى وسمع من علماء وأدباء بغداد كأبى عمر الزاهد وغيره ، وكان يجتمع مع المتنبى ببغداد وله مؤاخذات على المتنبى آخذه بها[١] .

لقد كان لكتاب « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر أثر واضح فيمن جاءوا بعده سواء من نقاد الشام أو نقاد العراق ، لذلك يعدّ من أهم الكتب فى تاريخ النقد الأدبى العربى والبلاغة العربية على السواء[٢] .

وأبو هلال العسكرى أيضًا قد أثّر بكتابه « الصناعتين » فى من حوله من النقاد حيث وضع صورة واضحة لفنى الشعر والنثر ، ويوقف المنشئين على أصول هذين الفنين ليأخذوا بها وينطقوا منها فى الكتابة والإبداع .

كما تأثر القاضى الجرجانى ت ٣٩٢هـ بأبى بكر الصولى ت ٣٣٥هـ فى موقفه من الشعر والدين حيث يرى أن الكفر لا ينقص من رتبة الشعر ولا يذهب بجودته[٣] .

وتأثر القاضى الجرجانى بالآمدى ت ٣٧١هـ فى تحديده لعمود الشعر ، الذى كان يتخذ من الذوق السليم وفهم العرب للشعر مقياساً للحكم .

وكما تأثر أهل الشام أو من نزلوا الشام بأدباء ونقاد العراق فقد تأثر أيضًا أدباء ونقاد العراق بأدباء ونقاد الشام فهذا أبو هلال العسكرى تأثر بأبى بكر الخوارزمى فى أن البلاغة فى اللفظ دون المعنى[٤] .

كما يظهر أثر واضح لسيف الدولة الحمدانى على أدباء بغداد فجوده لا يقتصر

---

(١) إنباه الرواة للقفطى ١٠٣/٣ .

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان د/ إبراهيم سلامة ص ١٦٨ .

(٣) حضارة العراق لأحمد مطلوب ٣١٢/٧، ٣١٣ نقلا عن كتاب أخبار أبى تمام للصولى .

(٤) ظهر الإسلام لأحمد أمين ١٠٩/٢ .

على أدباء حلب فحسب ، بل كان يشمل أدباء بغداديين وهم فى مقارهم دون الحضور إلى الندوة فى حلب[1] ، وهذا يعد تأثيراً غير مباشر على نقاد العراق .

من الجديد عند علماء كل من الشام والعراق فى النقد :

يُعد الحاتمى من النقاد والأدباء أصحاب الإنتاج العلمى ، فيمثل نموذجًا لمن كان لهم من أدباء الشام ـ السبق فى فهم وحدة القصيدة وتمثيلها بالإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض حيث يقول : « مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخوّن محاسنه وتعفى معالمه »[2] .

ويمثل قدامة بن جعفر أدباء العراق فى ميدان السبق نحو كل من جديد نافع حيث يعد كتابه نقد الشعر من أهم الكتب فى تاريخ النقد الأدبى العربى لكونه من أوضح نماذج تأثير الثقافة اليونانية على النقد والبلاغة ، بالإضافة إلى أنه حشد فيه مجموعة ضخمة من المصطلحات البلاغية والنقدية التى أصبحت تشكل جزءاً هاماً من مادة معجم البلاغة العربية .

كما أنه يحتوى على مجموعة من الفنون البلاغية التى لم يسبق أحد إلى اكتشافها وكان يدرسها دراسة موضوعية[3] .

من مشاهير النقاد فى الشام خلال ق ٤ هـ

أبو على محمد بن الحسن الحاتمى ت ٣٨٨هـ[4]

أبو على الحاتمى من الشخصيات الأدبية القوية التى لها أثر فى النقد الأدبى والتى

---

(١) سيف الدولة الحمدانى د/ مصطفى الشكعة ص ١٨٦ .

(٢) النثر الفنى د/ زكى مبارك ١٣٦/٢ نقلا عن زهر الآداب للحصرى .

(٣) البلاغة العربية للدكتور على العشرى ص ٧٤ ـ ٧٥ ، ٧٧ .

(٤) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢١٤/٢ ، والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١٣٥/١ ، وإنباه الرواة للقفطى ١٠٣/٣ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٣١٣/٥، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٦٢/٤، والعبر للذهبى ١٧٥/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٢٩/٣ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٥٠/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢٣٨/٣ .

غابت أخبارها عن الناس ، فلم يعرفها منهم إلا القليل ، وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت إليه من آثارهم ضبابات كافية تميط اللثام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول .

يُعرف محمد بن الحسن بالحاتمى ، روى عن أبى عمر الزاهد وغيره أخباراً أملاها فى مجالس الأدب[1] . وكان يكتب لجلة الأمراء ببغداد ، وله تقدم فى ذلك وتمكن من علم المعانى الأدبية ، وله اجتماع مع المتنبى ببغداد ومؤاخذات آخذة بها وصنف فى ذلك كتاباً سماه « جبهة الأدب »[2] .

وإذا كان قد عاش فى بغداد وارتوى من معين أدبها ، فإنه أيضاً قد عاش فى الشام فى خدمة سيف الدولة فيتكلم عن نفسه فيقول : وقد خدمت سيف الدولة وأنا ابن تسع عشرة سنة تميل بى سنة الصبا ، وتنقاد بى أريحة الشباب[3] بهذا العلم ، وكان كلفا به علَقًا علاقة المغرم بأهله منقبا عن أسراره ورزنت[4] فى مجلسه تكرمة وإدناء وتسوية فى الرتبة بأبى علىّ الفارسى وهو فارس العربية ، وبأبى عبد الله بن خالويه وكان لهم السهم الفائز فى علوم العربية تصرفًا فى أنواعه ، وبأبى الطيب اللغوى ونازعت العلماء ومدحت فى مصنفاتهم ، وعددت فى الأ فراد الذين منهم أبو سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرمانى[5] .

إن الحاتمى كان مفتوناً بنفسه أشد الفتنة ، ونفهم ذلك من كلامه عن نفسه وذكر مناقبه ومحامده ، وكان الحاتمى يصطدم بالمتنبى وكانا متعاصرين ، يضمر كلاهما لصاحبه أقتم ألوان البغضاء ، والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان إلى أبشع صور التحامل والعدوان ، وهذا هو الذى وقع بين الحاتمى والمتنبى وقد عرض لنا ياقوت الحموى مخاطبة جرت بين المتنبى وبين الحاتمى[6] .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢١٤/٢ .

(٢) إنباه الرواة للقفطى ١٠٣/٣ .

(٣) أى نشاطه .

(٤) أى سويت .

(٥) معجم الأدباء لياقوت ٣١٤/٥ ـ ٣١٥ .

(٦) معجم الأدباء لياقوت ٣١٦/٥ وما بعدها .

لقد كان الحاتمى أحد الأعلام المشهورين المكثرين أخذ الأدب عن أبى عمر الزاهد غلام ثعلب ، فقد كان أديباً شاعراً كما كان أبوه أيضاً شاعراً مشهوراً .

وله من المصنفات : الرسالة الحاتمية ، وحلية المحاضرة فى صناعة الشعر ، وله الآمالى[١] وله كتاب « الموضحة فى مساوئ المتنبى » وكتاب الهلباجة فى صناعة الشعر ، وكتاب سر الصناعة فى الشعر أيضا ، وكتاب الرسالة الناجية ، وكتاب مختصر العربية ، وكتاب فى اللغة ، وكتاب عيون الكاتب ، وكتاب الشراب رسالة ، وكتاب منتزه الأخبار ومطبوع الأشعار ، وكتاب المعيار والموازنة لم يتم ، وكتاب المُغسِّل[٢] .

على بن عبد العزيز بن الحسن بن على بن إسماعيل الجرجانى ت ٣٩٢هـ[٣]

الفقيه الشافعى الأديب الشاعر حسنة جرجان ، ودرة تاج الأدب وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مقلة ، ونثر الجاحظ ونظم البحترى ، وكان صاحب رحلة فى العلم فجاب بلاد العراق والشام بحثًا عن العلم والعلماء واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار فى العلوم علماً وفى الكلام عالماً[٤] .

قرأ عليه عبد القاهر الجرجانى ، واغترف من بحره ، وكان إذا ذكره فى كتبه شمخ بأنفه بالإنتماء إليه ، وطوف فى صباه البلاد ، وخالط العباد ، ولقى مشايخ وقته وعلماء عصره[٥] .

وقد ألف أبو الحسن الجرجانى فى الفقه والأدب والتاريخ ، أما تأليفه فى الفقه فلم يصلنا منه شىء ، وقد جاء فى طبقات الشافعية أنه صنف كتاباً فى الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة ، ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف استطاع هذا القاضى الأديب أن

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٥٠/٢.

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٣١٤/٥.

(٣) انظر ترجمته فى يتيمة الدهر للثعالبى ٣/٤، ومعجم الأدباء لياقوت ١٥٨/٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٧٨/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٥٦/٣، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٧٠/٢ ومعجم المؤلفين لكحالة ٤٥٨/٢.

(٤) يتيمة الدهر للثعالبى ٣/٤ .

(٥) معجم الأدباء لياقوت ١٥٨/٤ ـ ١٥٩ .

يخدم التشريع ، وأما تأليفه فى التاريخ فلم يُعرف منه إلا كتاب تهذيب التاريخ ، وهو كتاب وصفه الثعالبى بأنه تاريخ فى بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف فى الانتقادات . وقد ضاع هذا الكتاب ولكن الثعالبى حفظ منه فصلين[1] ، أما تأليفه فى الأدب فقد بقى لنا منه كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه[2] . وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار ذكرها الثعالبى فى اليتيمة[3] وله كتاب الأنساب[4] . وألف فى التفسير « تفسير القرآن المجيد »[5] .

عرفنا أن أبا الحسن الجرجانى قد ألف فى التفسير والتاريخ والفقه والنقد وله شعر ورسائل ، وذلك يرجع إلى أنه استفاد من رحلاته العلمية التى على الأخص فى الشام والعراق ، فقد أكسبته ثقافة واسعة فى الشريعة والأدب ، كما أن كتاب « الوساطة » يدل على اطلاع واسع على دواوين الشعراء السابقين وعلم غزير باللغة ، ومعرفة الغريب ، ومقدرة على فهم المعانى الشعرية ، وتمكن من النحو والعروض ، واتصال وثيق بما كتبه النقاد من قبله ، ولعلّ بغداد كانت أكبر مدينة تركت فى نفسه أثر بالغًا لما لها من مكانة علمية .

من مشاهير النقاد فى العراق

أبو بكر محمد بن يحيى الصولى ت ٣٣٥هـ[6]

كان أحد العلماء بفنون الآداب ، حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء ، ومآثر الأشراف وطبقات الشعراء ، وحدث عن أبى داود السجستانى ، وأبو العباس ثعلب

---

(١) النثر الفنى د/ زكى مبارك ١٠/٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٧١/٢ .

(٣) يتيمة الدهر للثعالبى ١٠/٤ ـ ٢٩ .

(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٧١/٢.

(٥) معجم المؤلفين لكحالة ٤٥٨/٢.

(٦) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٢١٥ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٢٧/٣ ، وإنباه الرواة للقفطى ٢٣٣/٣ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٤٧٨/٥ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٥٦/٤ ، والعبر للذهبى ٥٠/٢، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٣٩/٢، والنجوم الزاهرة ٢٩٦/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٣٦٨/٣ .

والمبرد وغيرهم كثير ، وكان واسع الرواية ، حسن الحفظ للآداب ، حاذقًا بتصنيف الكتب ووضع الأشياء منها مواضعها ، ونادم عدة من الخلفاء ، وصنف أخبارهم وسيرهم ، وجمع أشعارهم ، ودون أخبار مَنْ تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء ، والكتاب ، والرؤساء ، وروى عنه أبو عمر بن حيويه ، وأبو بكر بن شاذان ، وأبو الحسن الدارقطني ، وأبو عبيد الله المرزباني ، وأبو الحسن بن الجندي وغيرهم(١) .

قال أبو بكر الصولي : « كنت أقرأ على أبي خليفة في منزله ـ لهاشمي البصرة خصوصاً ـ كتاب « طبقات الشعراء » وغيره » .

كانت بغداد في عصره موئل العلم والعلماء وقبلة الشعراء والأدباء ، فكان ولا شك يجد في مسقط رأسه بيئة صالحة لنمو موهبته المبكرة .

وارتحل من بغداد إلى البصرة والكوفة وغيرهما ، وما دفعه إلى الرحلة إلا طلب العلم آخذاً له وراوية للحديث ، فانتظم في الحلقات العلمية والأدبية والدينية ، التي كانت تقام في ساحات المساجد لينهل من العلوم اللغوية والفقهية ما يروى ظمأه . وكان معلمًا لأولاد الخليفة في علوم الدين والأخبار والشعر والأدب ، فكانت حياته في أيام المقتدر بالله حياة حافلة بالحركة والنشاط ، فهو أديب كاتب ، إخباري ، راوية مشارك في بعض العلوم .

ومن مصنفاته : كتاب الوزراء وكتاب العبادة ، وكتاب أدب الكاتب على الحقيقة، وكتاب تفضيل السنان عمله لأبي الحسن علي بن الفرات ، وكتاب الأنواع ولم يتم ، وكتاب سؤال وجواب رمضان ، وكتاب الشامل في علم القرآن ولم يتم وللعلماء في ذلك نوادر ، وكتاب مناقب عليّ بن الفرات ، وكتاب أخبار أبي تمام ، وكتاب أخبار الخبائي أبي سعيد ، وكتاب العباس بن الأحنف ، وكتاب أخبار أبي عمرو بن العلاء(٢) .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤٢٧/٣ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب ٣٣٧هـ[١]

كان نصرانيًا وأسلم على يد الخليفة المكتفى بالله ، وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ، ومن يشار إليه فى علم المنطق[٢] .

وقد سأل ثعلباً عن أشياء وجالسه وجالس المبرد وأدرك قدامة أبا سعد السُّكرىّ وابن قتيبة وطبقتهم ، والأدب يومئذ غضّ فقرأ واجتهد وبرع فى صناعتى البلاغة والحساب، واشتهر فى زمانه بالبلاغة ونقد الشعر ، وصنف فى ذلك كتباً[٣] . وبه يقتدى علماء هذا الشأن .

وقد ذكر أبو حيان التوحيدى : أن قدامة بن جعفر حضر مجلس الوزير ابن الفرات وقت مناظرة أبى سعيد السيرافى ومتىّ المنطقى فى سنة عشرين وثلثمائة[٤] ، وهذا يدل على تقدير الوزير له ، وعلى بيان علمه ومدى اهتمام الوزراء بالعلم .

ومن المعروف أن قدامة بن جعفر قد فصّل فى نقد الشعر مذهبه النقدى الذى احتذى فيه حذو أرسطو فى كتاب الخطابة ، ونجد أثر أرسطو واضحًا عند قدامة فى كلامه على الصفات النفسية التى جعلها أم الفضائل .

وقد قال أبو حيان التوحيدى : « ما رأيت أحداً تناهى فى وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر فى المنزلة الثالثة من كتابه ، قال لنا على بن عيسى الوزير : عَرض علىّ قدامة كتابه سنة عشرين وثلثمائة واخبرته فوجدته قد بالغ وتفرد فى وصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة بما لم يشاركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى، مما يدل على المختار المجتبى والمعيب المجتنب[٥] .

---

(١) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص١٨٨ ، والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١٤٥/٢ـ ١٤٦ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٨/٥ ـ ٩ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٣٤/١١ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٩٧/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٦٥٧/٢ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ١٨٨ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ٩/٥ .

(٤) المقابسات لأبى حيان التوحيدى ص ٦٨ وما بعدها .

(٥) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ١٤٥/٢ ـ ١٤٦ .

وله من الكتب : كتاب الخراج ، ونقد الشعر ، وصرف الهم ، وجلاء الحزن ، ودرياق الفكر ، وكتاب السياسة ، والرد على ابن المعتز ، ورسالته فى أبى على بن مقلة، وصناعة الجدل، وكتاب نزهة القلوب وزاد المسافر ، وسر البلاغة فى الكتابة[1] .

أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى البصرى ت ٣٧١هـ[2]

وُلد أبو القاسم الآمدى بالبصرة ، ثم انتقل إلى بغداد فتلقى النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السّراج ، ثم عاد بعد ذلك إلى البصرة فكتب لأبى الحسن أحمد ، وأبى أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى ، وكتب للقاضى أبى جعفر بن عبد الواحد الهاشمى ، ثم لأخيه أبى الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمى ثم لزم بيته بالبصرة إلى أن مات نحو سنة ٣٧١هـ[3] .

عرف بصاحب الموازنة بين الطائيين ، كان حسن الفهم جيد الدراية والرواية سريع الإدراك إمام فى الأدب وله شعر حسن ، صحب أبا إسحاق الزجاج وطبقته ، وولى القضاء بالبصرة سنة نيف وخمسين وثلثمائة ، كما اتسع فى الآداب وانتهت إليه رواية الشعر القديم والأخبار فى آخر عمره بالبصرة ، وكان يكتب خطا حسنًا من خطوط الأوائل وصنف كتباً حساناً[4] .

يُعد تأليفه الذى قصر على اللغة والنقد دليلا على أن حياته العقلية أو تعيناً لمذهبه فى الحياة ، وهو المذهب اللغوى النقدى ومجموعة مؤلفاته التى بين صفحات الكتب والتى بين أيدينا تشير إلى ذلك ، فهى تعين اتجاهات ذهنه فى حياته الأدبية ، فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقد ما كتب عنه ، وهو مغرم بدرس البحترى وأبى تمام، وتعقّب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . كما وجّه عنايته إلى دراسة أشعار المتقدمين ونقدها .

---

(١) الفهرست لابن النديم ١٨٨، ومعجم المؤلفين لكحالة ٦٥٧/٢.

(٢) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٢٢١ ، وإنباه الرواه للقفطى ٣٢٠/١ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٤٦٩/٢ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٦/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٤١/١.

(٣) معجم الأدباء لياقوت ٤٧٥/٢.

(٤) إنباه الرواة للقفطى ٣٢٠/١ ـ ٣٢٢ .

قال عنه ابن النديم إنه كان مليح التصنيف ، جيد التأليف متعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب ، وله من الكتب : كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، وكتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء ، وكتاب معانى شعر البحترى، وكتاب نثر المنظوم ، وكتاب الرد على علىّ بن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام ، وكتاب فى أن الشاعرين لا يتفق خواطرهما ، وكتاب فى إصلاح ما فى معيار الشعر لابن طباطبا ، وكتاب فى نثر ما بين الخاص والمنزل من معانى الشعر ، وكتاب فى تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهلين ، وكتاب فى شدة حاجة الإنسان أن يعرف قدر نفسه[1] . وكتاب معجم الشعراء ، وشرح ديوان المسيب بن علس ، والأمالى ، وكتاب الشعراء المشهورين ذكره الآمدى نفسه فى المؤتلف والمختلف ، وكذلك كتاب الرباب[2] وكتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر ، وله ديوان شعر[3] . وله كتاب الحروف فى اللغة ، وكتاب الفرق بين الخاص والمشترك من معانى الشعراء ، وكتاب تفضيل امرئ القيس على الجاهليين[4] .

وأهم ما بقى من آثار الآمدى هو كتابه « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » وهو كتاب يضعه فى الصف الأول ويقدمه على كثير من الناقدين ، وأسلوبه فى ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفاها وأبعدها من اللغو والفضول ، وآراؤه فى نقد الشعر آراء جيدة سديدة[5] .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٢١ .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٧/٢ .

(٣) معجم المؤلفين لكحالة ٥٤١/١ .

(٤) إيناه الرواة للقفطى ٣٢٢/١ ـ ٣٢٣ .

(٥) النثر الفنى د/ زكى مبارك ١٠٢/٢ .

الباب الرابع

العلوم العقلية فى الشام والعراق

فى القرن الرابع الهجرى

الفصل الأول

العلوم الاجتماعية فى الشام والعراق

(١) التاريخ (٢) الجغرافيا

التعريف بعلم التاريخ :

التاريخ فى اللغة : الإعلام بالوقت ، يُقال أرّخت الكتاب وورّخته ، أى بيّنت وقت كتابته . وفى الاصطلاح : التعريف بالوقت الذى تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ، ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا .. والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان فى العالم .

وموضوعه : الإنسان والزمان ، ومسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفى الزمان .

وفائدته : معرفة الأمور على وجهها ، وهو أحد الطرق التى يُعلم بها النسخ فى أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما[١] .

كان العالم الإسلامى ـ خلال القرن الرابع الهجرى ـ مجالاً مفتوحاً حراً ، لرحلة أىّ عالم من منطقة إلى أخرى ، حتى لقد ندر من العلماء من استقرّ فى بلده ، وكانت الرحلة العلمية خاصة إلى العواصم وبصورة أخص فى الشام إلى حلب ودمشق والقدس وحران وحمص والرقة وصفد وعسقلان ، وفى العراق إلى بغداد والبصرة والكوفة والموصل .

لقد كانت عقول المؤرخين خلال القرن الرابع الهجرى عقولاً مفتوحة للاختصاصات المتعددة ، ولقد ندر أن عُرف عالم بفرع واحد من فروع العلوم . وكانت الرابطة الإسلامية بينهم أقوى من أن تدفع العلماء إلى التجريح أو التهجم أو إلى تعمد تسجيل المساوئ دون المحاسن .

وإن هذا القرن ليتميز بأن التدوين التاريخى لم يكن موقوفاً على من يحمل صفة التاريخ ، بل دخله كافة المثقفين وأصحاب العلوم الأخرى ، وظهر فيه بعض الأسر ذات الولع التاريخى ، ويتميز هذا القرن أن من مؤلفاته ما تعتبر نوعًا من الجغرافيا التاريخية ، كما ظهرت فيه أيضًا ظاهرة التأليف المشترك أى إشتراك أكثر من مؤلف

---

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص١٤ ـ ١٧ .

فى كتاب[1]. وإن هدف هذا التدوين التاريخى « هو إعادة تصوير الحقيقة التاريخية كاملة ، بأسلوب لا يجوز على واقع الماضى ، ولسوف يصبح تدوين التاريخ بهذا المعنى ـ لو كان ذلك ممكناً ـ علمياً ، أى يهدف إلى اكتشاف الحقيقة ووصفها »[2].

رجال التاريخ فى القرن الرابع بالشام :

يحوى القرن الرابع الهجرى ببلاد الشام أنواعًا شتّى من الرجال دخلوا ميدان التاريخ ليسوا على وتيرة واحدة فى الوظيفة الاجتماعية ، بل يختلفون فيها اختلافهم فى التكوين العلمى ، والاهتمامات الفكرية ، وفى العنصر القومى والمذهب الدينى ، وفى الإقليم السكنى .

توزيعهم المكانى والزمانى :

هؤلاء المؤرخون شكلوا دوراً بارزاً فى تكوين مدرسة الشام التاريخية ، بجانب دورهم فى تكوين أو مساهمتهم فى تكوين المدرسة الأم للدولة الإسلامية بالعراق ، دون أن يكون لهم فكر تاريخى مستقل ، ولكنه يعتبر جزءاً من الفكر التاريخى العباسى الأوسع ، وجانبا متمماً من جوانبه .

إن مكانة المؤرخين الشاميين خلال القرن الرابع بين مؤرخى العالم الإسلامى تأتى بعد مكانة مؤرخى العراق ، لم للعراق من تميز فى الناحية السياسية والدينية والعلمية كأكبر مركز للتدوين التاريخى ، وخاصة دمشق وحلب .

أما من الناحية الزمانية نستطيع أن نقول : أن الشام خلال القرن الرابع الهجرى كثر بها المؤرخون ، لأنه القرن الذى يتسم بالنضج الحضارى ، وكان المؤرخون فيه أحسن فهماً لمعنى التاريخ وهدفه ، وكثرت به الألوان والأنواع التاريخية ، نتيجة للتطلع العلمى الموسوعى الذى طبع بطابعه هذا القرن »[3].

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٦٢/٢ ـ ٧٣ .

(٢) كيف نفهم التاريخ لويس جوتشلك ترجمة د/ عائدة عارف والدكتور أحمد أبو حاكمة ص٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون لشاكر مصطفى ٢٧٤/١ .

مؤرخو الشام ووظيفتهم الاجتماعية :

من المعروف أن التاريخ قبل القرن الرابع الهجرى ، كان مقصوراً على رجال علوم الدين أو اللغة ، ولم يحاول أحد غيرهم الكتابة فيه حتى أتى القرن الرابع ، وظهرت مجموعات أخرى انضمت إلى رجال علوم الدين بين فقيه ومحدث ومفسر ، هؤلاء المجموعات وقفوا جنباً إلى جنب رواية للتاريخ وتدوينه .

صحيح أن القرن الرابع لم يخل من المؤرخين الفقهاء أو المؤرخين المحدثين منهم: أبو على محمد بن سعيد بن عبد الرحيم القشيرى ت٣٣٤هـ من المحدثين والحفاظ المعروفين ، كتب تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله والتابعين والفقهاء والمحدثين[١] . وأبو سليمان محمد بن القاضى عبد الله بن أحمد الدمشقى ت٣٧٩هـ وكان فى عصره محدث دمشق وكبير الحفاظ فيها مع الثقة والجلال، صنف التصانيف الكثيرة وكتب فى تراجم الرواة كتاب « وفيات النقلة » رتبه على السنين[٢] .

وأبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمى الشامى الحافظ المفسر ت٣٦٠هـ من طبرية الشام ، صنف فى التفسير والحديث والتاريخ ، له دلائل النبوة ، والمعجم الكبير فى الصحابة[٣] ، وغير هؤلاء كثير من الفقهاء والمحدثين المشهورين .

وكذلك محمد بن عبد الله بن جعفر البجلى أبو الحسين الرازى ت٣٤٧هـ استوطن دمشق وعرف فيها بالرازى وكان من كبار المحدثين ، سمع الحديث بالرىّ والعراق والشام ومكة ، درس تاريخ دمشق من راويته بتسجيل أسماء علمائه الذين أخذ عنهم وبتسجيل أخبار أمرائها مثل : تسمية أمراء دمشق فى أيام بنى العباس ، وتسمية كتاب « أمراء دمشق » ، وكتاب فى « فضائل دمشق »[٤] .

وجانب هذا الرعيل توجد مجموعات متنوعة ساهمت بنصيب كبير فى الكتابة التاريخية فكانوا من المؤرخين خلال القرن الرابع ، من بينهم :

---

(١) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى ٢٦٤ ، والتاريخ العربى والمؤرخون لشاكر مصطفى ٣٧٣/٢ .

(٢) الرسالة المستطرفة للكتانى ص١٥٨ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢٥/٥ .

(٤) انظر مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٦٧/٢٢ ، والتاريخ العربى والمؤرخون د/ شاكر مصطفى ٢٢٧/٢ .

مؤرخون يشغلون مناصب إدارية كبيرة فى الدولة كالوزراء والكتاب ورجال البلاط، لما لهم من قرب سياسى ، وبما لديهم من فرصة فى الإطلاع على دخائل الأحداث ، من بين هؤلاء : أبو الفرج الببغاء عبد الواحد بن نصر المخزومى ت٣٩٨هـ، فقد حفل به ديوان سيف الدولة الحمدانى وكتب رسائل عدة ، تمثل وثائق تاريخية فريدة حول معارك سيف الدولة التى كان يخوضها على رأس جنوده العرب ، يجد المؤرخ فى هذه الرسائل وثائق تاريخية عاصر كاتبها الأحداث[١] .

فى الوقت نفسه لم يقتصر ميدان التاريخ على الفقهاء والمحدثين أو الكُتَّاب الديوانيين ولكن دخله أصحاب المهن والأعمال ، كعلماء الجبر والهندسة وعلماء الطب وغيرهم ، من بين هؤلاء : محمد بن أحمد بن سعيد الحكيم المقدسى ت٣٧٠هـ، صنف فى الطب وفى القرآن ومنافعه ، وكتب كتاب الأخبار[٢] .

وأبو سعيد سنان بن ثابت الحرانى ٣٣١هـ ، كان طبيبًا وفلكيًا ومؤرخًا ، فقد صنف «رسالة فى تاريخ ملوك السريانيين»، وكتاب «التاج فى سيرة عضد الدولة»[٣] .

وأبو القاسم على بن أحمد الأنطاكى ت٣٧٦هـ، وكان عالمًا بالجبر والهندسة وقد صنف كتاب « استخراج التراجم »[٤] .

إن تكاثف المؤرخين خلال القرن الرابع الهجرى واهتمامهم بعملية التدوين التاريخى وإقبالهم عليه ـ ليس فى الشام وحدها ، بل فى العراق أيضًا وبدرجة أكثر وأعمق ـ كان فى الواقع جزءاً من الفاعلية الواسعة التى شملت جميع نواحى الحياة وجميع فروع المعارف فى ذلك القرن ، الذى يمثل دوراً ومكانًا كبيراً فى الحضارة الإسلامية .

ولعل السبب فى ذلك هو تلك اليقظة الفكرية واغراءات التطلع العلمى الموسوعى الذى طبع بطابعه هذا القرن .

---

(١) انظر مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص٢٤٨ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ٤٠/٦ .

(٣) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٨٠٠/١ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٣٥/٥ .

(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٤٧/٥ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٣٩٨/٢ .

التكوين العلمى لمؤرخى الشام :

الناظر فى التكوين العلمى الأول لمختلف مؤرخى الشام خلال القرن الرابع الهجرى سوف يجد أنه ليس متفقًا أو متشابهًا ، لأنهم أتوا إليه عبر أبواب مختلفة ، وتكوّنات ثقافية متعددة ، غير أن القاعدة الثقافية للجميع كانت تقوم على أساس من العلوم الدينية باعتبارها القاسم المشترك بين مختلف المسالك إلى العلوم ، والجانب الإجبارى فى عملية التربية ، ومواد التعليم كانت هى العلم .

« إن التميز والاختصاص بالتاريخ وتدوينه ، لم يكن نتيجة للدراسة والانصراف العلمى ، مثل علم الحديث أو الفقه أو الفلسفة أو الطب ، بقدر ما كان نوعًا من الهواية المباحة والميدان الحرّ ، يمارسه الكثيرون ، ودون استعداد مسبّق فى كثير من الأحيان »[١] .

لذلك نستطيع أن نقول : إذا كان فى القرن الرابع الهجرى ببلاد الشام بين المؤرخين من هو على صلة وطيدة بعلم الحديث أو الفقه أو التفسير ، فإنه وُجد أيضًا عدد واسع من ذوى الثقافة الأدبية والشعرية ، كما وجد بينهم عدد من اللغويين والنحويين والقراء ، وكذلك من دخل التاريخ عبر علوم الأوائل ، وعلى أساس من الثقافة الفلسفية أو الطبية . فمن بين هؤلاء الفقهاء والمحدثين :

الحافظ الحسين بن محمد السلمى الحرّانى ت٣١٨هـ صاحب كتاب الطبقات وقد تناول فيه أحوال الصحابة فى حياتهم ، وله كتاب الأوائل[٢] . وأبو الحسن خيثمة ابن سليمان الحافظ الأطرابلسى ت٣٤٣هـ صاحب كتاب «فضائل الصحابة وفضائل الصدّيق»[٣] . وأبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانى ت٣٦٠هـ أحد الحفاظ المكثرين ، وصاحب كتاب «دلائل النبوة، وكتاب المعجم الكبير فى أسماء الصحابة والمعجم الصغير فى أسماء شيوخه ، وله معرفة الصحافة »[٤] . وأبو سليمان

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٨٣/١ .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكمان ١٦٢/٢ .

(٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٠٤/٣ ، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٣٦٩/١/١ .

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٠٣/١٠ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢٥/٥ .

محمد بن عبد الله الربعي الدمشقي ت٣٧٩هـ له « تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ، والمنتقى من أخبار الأصمعي ، وفضائل الشام »[١]. وأبو الحسين محمد بن أحمد بن جميع الصيداوي ت٤٠٢هـ صاحب « معجم ابن جميع » حيث ضم أسماء شوخه[٢]. وأبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت٣٢٨هـ صاحب « كتاب الجرح والتعديل ، وكتاب مناقب الشافعي ، وكتاب الضعفاء »[٣]. وأبو العباس أحمد ابن أبي أحمد بن القاص الطبري الشافعي ت٣٣٥هـ صاحب كتاب « دلائل القبلة» أكثر ما فيه تاريخ وحكايات[٤]. ومحمد بن الحسين بن إبراهيم الآبري ت٣٦٣هـ صاحب كتاب « مناقب الشافعي»[٥].

ومن أصحاب الثقافة الأدبية والشعرية كاللغويين والنحويين والشعراء الذين دخلوا في زمرة المؤرخين :

أبو فراس الحارث بن أبي العلاء الحمداني ت٣٥٧هـ صاحب « القصيدة الشافية في مناقب آل الرسول ومثالب بني العباس »[٦]. وأبو عمرو عثمان بن عبد الله الطرسوسي الكاتب الأديب ت٤٠١هـ صاحب كتاب « أخبار طرسوس » وكتاب «أخبار الحجاب»[٧]. وأبو الطيب عبد الواحد بن علي الحلبي اللغوي ت٣٥١هـ صاحب كتاب « مراتب النحويين »[٨].

وقد دخل التاريخ أيضًا عبر علوم الأوائل كالطب والجبر والهندسة ، وعلى أساس من الثقافة الفلسفية من بينهم :

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١٦٠/٣ ، ٢٧٠ ، وتاريخ التراث العربي لسزكين ٤١٤/١/١ وكشف الظنون لحاجي خليفة ٤١/٦ .

(٢) تاريخ التراث العربي لسزكين ٤٥٣/١/١ .

(٣) معجم المؤلفين لرضا كحالة ١٠٩/٢ .

(٤) تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي ٢٥٣/٢ .

(٥) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٢٤٤/٣٠ .

(٦) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩٥/٢ .

(٧) كشف الظنون لحاجي خليفة ٥٢٥/٥ .

(٨) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٣٣٤/٢ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢٤٢/٢ .

أبو نصر محمد بن محمد الفارابى ت٣٣٩هـ صاحب كتاب « إحصاء العلوم » هذا الكتاب يعدّ المحاولة الأولى فى بابها فى تاريخ الفكر الإسلامى حيث قصد فيه إحصاء العلوم المشهورة علمًا علمًا ، ومعرفة ما يشتمل عليه كل علم وأجزائه وتفريعاته[١] ، وثابت بن سنان بن ثابت الطبيب الحرّانى ت٣٦٥هـ صاحب كتاب «التاريخ»[٢] . وأبو سعيد سنان بن ثابت الطبى الحرانى ت٣٣١هـ صاحب كتاب «تاريخ ملوك السريانيين» وكتاب « التاج » فى سيرة عضد الدولة[٣] . وأبو القاسم على ابن أحمد الأنطاكى ت٣٧٦هـ صاحب كتاب « استخراج التراجم »[٤] .

وإذا نظرنا من جهة أخرى ، نجد أن التاريخ قد استحوذ على جهد بعض العلماء جميعه ، وأصبح التاريخ وتدوينه موضوع نشاطه الفكرى الوحيد أو الرئيسى ، من بين هؤلاء العلماء :

محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القشيرى الحرانى المؤرخ ت٣٣٤هـ صاحب كتاب « تاريخ الرقة »[٥] . وأبو الحسن الرازى بن عبد اله البجلى ت٣٤٧هـ صاحب «تاريخ دمشق» و «فضائل دمشق» . وأبو عروبة الحسين بن محمد أبى مشعر الحرانى ت٣١٨هـ صاحب «تاريخ حران ، وتاريخ الرقة ، والمنتقى من كتاب الطبقات ، والأوائل»[٦] .

ومن جهة ثالثة ، فإن الجماعات غير المسلمة فى المجتمع الإسلامى خلال القرن الرابع الهجرى قد أسهمت بدورها فى تدوين التاريخ ، من بين هؤلاء :

أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم الحرانى ت٣٨٤هـ صاحب كتاب «أخبار النحاة ، وأخبار الوزراء ، وأخبار الدولة الديلمية»[٧] . وهو ينتمى إلى الشام وإلى

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢/٦ ، والفارابى بقلم سعيد زايد ص٢٥ .

(٢) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٤٤٦/١ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٢٠٤/٥ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٣٥/٥ .

(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٤٦/٥ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٣٩٨/٢ .

(٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٠/٦ ، والإعلان بالتوبيخ للسخاوى ص٢٦٤ .

(٦) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٢٧/٢ ، ٢٧٢ .

(٧) كشف الظنون لحاجى خليفة ٩/٥ .

العراق . وثابت بن سنان بن قرة الصابئ الحرانى ت٣٦٣هـ، صنف كتاب «أخبار الشام[(١)]» .

وبعد ما سبق من عرض نستطيع أن نقول : إن الشام أتت بحصيلة وافرة من المؤرخين المتنوعين فى الثقافات والتكوين العلمى والاهتمامات المذهبية والفكرية .

رجال التاريخ فى القرن الرابع بالعراق :

دخل ميدان التاريخ أنواع شتى من الرجال ، يختلفون فى الوظيفة الاجتماعية اختلافهم فى التكوين العلمى والاهتمامات الفكرية ، وفى العنصر القومى والمذهب الدينى وفى الإقليم السكنى .

هؤلاء المؤرخون العراقيون لحد كبير هم النموذج والمثال لمؤرخى الأقاليم الأخرى، وتلمذة علماء الأمصار عليهم ، مما أدى إلى توحيد الفكر الإسلامى عامة . ومن جملة ذلك توحيد الفكر التاريخى الإسلامى فى مناهجه وأساليبه ومعارفه ومصادره ، مما يجعلنا نقرّ بأن مدرسة العراق التاريخية هى الأم ، ولمؤرخى الأقاليم الأخرى دور كبير فى تكوين مدرسة العراق دون أن يقصرّوا فى تكوين مدرسة إقليمهم التاريخية .

إن مؤرخى العراق قد أقاموا للتاريخ صروحه الخاصة فى إقليم العراق دون أن يكون لهم فكر تاريخى مستقل ، ولكنه يعتبر جزءاً أساسياً من الفكر التاريخى العباسى الأوسع وجانباً متمماً من جوانبه .

توزيعهم المكانى والزمانى :

إذا أردنا أن نوزع مؤرخى العراق خلال القرن الرابع الهجرى توزيعاً مكانياً وزمانياً مع الأقاليم الأخرى فإن مكانة مؤرخى العراق لا ينافسها مكانة أخرى وخاصة بغداد بسبب مكانتها السياسية والدينية والعلمية « فإن من الطبيعى أن تكون أكبر مركز للتدوين التاريخى فى المشرق الإسلامى ، لأنه ما من عالم كبير إلا رحل إليها فى

(١) معجم المؤلفين لكحالة ٤٦٦/١ .

طلب العلم أو قصدها ليُشتهر ويُعرف على النطاق الإسلامى الأوسع ». ليس عجيباً أن نرى كافة المؤرخين الكبار ، ذوى السمعة التاريخية المعروفة والآثار الضخمة الباقية من العراق ، ولم يظهر بعد الطبرى المؤرخ ـ الذى عاش واشتهر فى بغداد ـ أى مؤرخ كبير على المستوى الإسلامى الأوسع .

أما من الناحية الزمانية فمن الواضح أن كثافة المؤرخين وتكاثرهم فى القرن الرابع أمرٌ لا شك فيه ، فقد كان هذا القرن قرن التاريخ ، لما كان الناس من اهتمام بالتدوين التاريخى ، « لأنه يُعد أو يمكن أن يعتبر فترة الأوج والنضج فى الحضارة العربية الإسلامية »[1]. مما أدى إلى كثرة الألوان والأنواع التاريخية التى ظهرت فيه . وذلك نتيجة لإغراءات التطلع العلمى الموسوعى الذى طبع بطابعه هذا القرن .

مؤرخو العراق ووظيفتهم الاجتماعية :

كان التاريخ قبل القرن الرابع الهجرى من ميادين العاملين بالثقافة والعلم ، ومقصوراً بالذات على رجال علوم الدين خاصة ، أو اللغة على قلة ، ولم يحاوله أحد غيرهم ، حتى أتى القرن الرابع الهجرى وانضمّ إلى الفقيه والمحدث واللغوى ومجموعات أخرى عديدة التنوع من العلماء جنباً إلى جنب فى رواية التاريخ وتدوينه .

صحيح أن الأسماء الهامة من المؤرخين كانت تضم جماعة واسعة من الفقهاء والمحدثين ، منهم :

عبد الله بن الحسين المعروف بابن الجلاب أبو القاسم البغدادى الفقيه المالكى ت٣٧٨هـ، كتب ذيل تاريخ واسط ، وأحمد بن كامل بن خلف بن شجرة البغدادى القاضى المعروف بأبى بكر الشجرى الحنفى ت٣٥٠هـ، صنف فى التاريخ والفقه وغريب القرآن والقراءات والتفسير . والحافظ ابن شاهين عمر بن أحمد بن عثمان البغدادى ت٣٨٥هـ، صنف فى التاريخ والحديث والتفسير[2]. وغير هؤلاء كثير من الفقهاء والمحدثين المشهورين .

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون د/ شاكر مصطفى ٢٧٣/١ ، ٢٧٤ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٢٠/٥ ، ٥٥ ، ٦٢٣ .

ولكننا نجد بجانب هذا الرعيل الواسع مجموعات أخرى متنوعة ساهمت فى كتابة التاريخ فكانوا من المؤرخين من أهمها :

ـ المؤرخون الذين يشغلون مناصب إدارية كبيرة ، من عمال الدواوين والكُتّاب ورجال البلاط حتى الوزراء ، وقد كان رجال هذه الطبقات الرسمية ذوى شأن خاص فى النظام السياسى ، ولديهم الفرصة أكثر من غيرهم فى الاطلاع على دخائل الأحداث ، كما كانت تحت أيديهم محفوظات الدولة ووثائقها ، مما جعلهم ينفردون بتاريخ الأحداث السياسية وخاصة الوزراء وكُتّاب الديوان .

لقد أنتج القرن الرابع الهجرى أبا الحسن بن الجراح على بن عيسى البغدادى ت٣٣٤هـ، من وزراء المقتدر بالله العباسى مؤرخًا ، كتب كتاب « الكتاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء »، وابن الماشطة أبو الحسين البغدادى على بن الحسين الكاتب ت٣٥٠هـ حيث صنف « أخبار الوزراء » . وأبو بكر محمد بن يحيى الصولى الكاتب ت٣٣٥هـ صنف « الأوراق فى أخبار آل عباس وأشعارهم ، وأخبار أبى تمام ، وأخبار الشعراء » وغير ذلك . وأبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابئ ت٣٨٤هـ كاتب الخليفة ببغداد ، وصاحب ديوان الرسائل، صنف « أخبار أهله ، والدولة البويهية، وأخبار الديلم » . وعبد الرحمن بن عيسى البغدادى وزرَّ للخليفة المتقى وكان له كتاب « سيرة أهل الخراج وكتاب التاريخ »[1] .

ـ لم يقتصر ميدان التاريخ على الفقهاء والمحدثين أو رجال الإدارة والسياسة ، ولكن دخله أصحاب المهن والأعمال المهنية ، فظهر الأطباء المؤرخون منهم : أبو الحسن ثابت ابن سنان الطبيب ت٣٦٥هـ فقد كتب بدوره كتاب التاريخ من سنة ٢٩٥هـ إلى حين وفاته كما يذكر ابن النديم[2] .

وظهر الفلكيون المؤرخون كأبى الحسن عبد الله بن موسى ت٣٧٤هـ وهو عالم

---

(١) الفهرست لابن النديم ص١٩٥ ، ٢١٥ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٨٦ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٥٦/٤ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٥٤٤/٥ ـ ٥٤٥ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص٤٢١ .

مؤرخ شاعر فلكى « صنف كتبًا كثيرة فى التواريخ »[1] وله كتاب التاريخ الذى يبحث فى تاريخ الرسول وميلاد علىّ والحسن والحسين والأئمة من آل علىّ وغيرهم[2].

كما ظهر المهندسون المؤرخون كأبى إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون الحرّانى ت٣٨٤هـ، حيث صنف كتاباً فى أخبار الدولة البويهية . وله رسائل ومنشورات رسمية كتبها على لسان ولاة الأمر فى عصره من الخلفاء وبنى بويه ، كما كتب كتاباً فى أخبار أهله[3].

وظهر فى المؤرخين كذلك بعض أصحاب المهن المتواضعة كالوراقين وغيرهم ، ومن هؤلاء : محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم ت٣٨٥هـ صاحب كتاب الفهرست ، أهم كتاب فى تاريخ العلوم الإسلامية حتى أواخر القرن الرابع الهجرى ، فقد كان ورّاقاً .

كما نجد أسرًا مؤرخة يتوارث رجالها العلم والفقه والحديث والاهتمام التاريخى الذى كان يستمر أجيالاً فى الأسرة الواحدة ، وغالبا ما كانت هذه الأسرة ممن يتولون الوظائف الحكومية ومن تلك الأسر : أسرة آل الجراح ، وهى أسرة كتاب ووزراء ظهر منها ما بين أواسط القرن الثالث وأواسط القرن الرابع عدة كتّاب مؤرخين كداود بن الجراح ، ثم ابنه محمد بن داود ، ثم حفيده على بن عيسى بن داود ت٣٣٤هـ وزير المقتدر ، وابن الحفيد الآخر أبى القاسم عبد الله بن على بن محمد بن داود[4].

إن كثرة المؤرخين وصب جام اهتمامهم بعملية التدوين التاريخى فى العراق خلال القرن الرابع الهجرى لأمر ملحوظ عن الشام ، لأن ذلك يعدّ جزءاً من الفاعلية الواسعة التى شملت جميع أنواع الحياة، وجميع فروع المعارف بالعراق خلال القرن الرابع ، وذلك إن دلّ فإنما يدلّ على يقظة فكرية، وتطلع علمى طبع به ذلك القرن .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٤٩/١٠ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال هامش ص٧٤ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص١٩٣ ، ١٩٤ .

(٤) التاريخ العربى والمؤرخون د/ شاكر مصطفى ٢٨١/٢ .

التكوين العلمى عند مؤرخى العراق :

لم يكن التكوين العلمى الأول لمختلف مؤرخى العراق متفقًا أو متشابهًا ، بسبب أنه قد اتجه إليه المؤرخون من خلال قنوات مختلفة وعبر تكوّنات ثقافية متعددة وأنه من المعروف أن القاعدة الثقافية للجميع تقوم على أساس من العلوم الدينية باعتبارها المحور الأساسى أو العامل المشترك بين مختلف المسالك إلى العلوم ، ومن المعروف أن التاريخ وتدوينه كان يمارسه الكثيرون دون استعداد مسبق فى كثير من الأحيان ، على أنه نوع من الهوية المباحة والميدان الحرّ ، لذلك فإن التميز والاختصاص بالتاريخ لم يكن نتيجة الدراسة والانصراف العلمى كغيره من العلوم مثل الحديث والفقه أو الفلسفة والطب(١) .

ومن خلال البحث فى التاريخ ورجاله فى القرن الرابع بإقليم العراق ، نجد كثيراً من المؤرخين على صلة وطيدة بالعلوم الدينية من حديث وفقه وتفسير ، وكثيراً أيضًا من المؤرخين من ذوى الثقافة الأدبية والشعرية ، كاللغويين والنحويين والأدباء والكُتّاب والشعراء والنقاد ، ويوجد أيضًا من داخل التاريخ عبر علوم الأوائل على أساس من الثقافة الفلسفية والطبية ، فمن بين الفقهاء والمحدثين الذين اشتغلوا بتدوين التاريخ :

أبو إسحاق إبراهيم بن حماد البغدادى الفقيه المالكى ت٣٢٠هـ، صاحب كتاب «دلائل النبوة». وإبراهيم بن حبيب السقطى البصرى ت٣٩١هـ، من أصحاب بن جرير الطبرى ، صاحب كتاب «التاريخ»(٢) . وأحمد بن كامل الشجرى الحنفى أبو بكر البغدادى ت٣٥٠هـ، صاحب كتاب أخبار القضاة والشعراء ، وكتاب التاريخ ، وكتاب أمهات المؤمنين»(٣) . وعبيد الله بن الحسين بن الحسن البغدادى الفقيه المالكى المعروف بابن الجلاب ت٣٧٨هـ صاحب كتاب « ذيل تاريخ واسط »(٤) . وعلى بن عمر الدارقطنى ت٣٨٥هـ صاحب كتاب « الجرح والتعديل » والمؤتلف

---

(١) انظر التاريخ العربى والمؤخون الدكتور/ شاكر مصطفى ٢٨٣/١ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ٩٠٨/٥ .

(٣) معجم المؤلفين لكحالة ٢٣٢/١ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٥٥/٥ .

(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٢٠/٥ .

والمختلف فى أسماء الرجال ، وكتاب معرفة فقهاء الحديث »[1]. وعمر بن أحمد بن شاهين الحافظ ت٣٨٥هـ يعدّ متنقلا ما بين الشام والعراق ، صاحب كتاب « التاريخ»[2].

وأما أصحاب الثقافة الأدبية والشعرية كاللغويين والنحويين والشعراء الذين دخلوا التاريخ وأصبحوا من بين المؤرخين ، فمنهم:

على بن الحسين بن محمد البغدادى الكاتب ت٣٥٠هـ صاحب كتاب « أخبار الوزراء وكتاب الخراج »[3]. ومحمد بن عبد الله أبو الحسن المخزومى السلامى ت٣٩٣هـ صاحب كتاب « ولاة خراسان »[4]. وأبو بكر محمد بن يحيى الصولى ت٣٣٥هـ صاحب كتاب « الأوراق » جمع فيه أخبار بنى العباس من الخلفاء والأمراء ، وله كتاب « الوزراء » وكتاب « أخبار القرامطة »[5]. وقدامة بن جعفر الكاتب ت٣٣٧هـ صاحب كتاب « زهر الربيع فى الأخبار والتاريخ »[6] وله كتاب «السياسة ورسالة فى أبى على بن مقلة»[7]. والحسن بن بشر بن يحيى الآمدى ت٣٧١هـ صاحب كتاب «المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء»[8]، وكتاب «معجم الشعراء» ، وكتاب «الشعراء المشهورين»[9]. وعبد الله بن محمد الجزار النحوى البغدادى ت٣٢٥هـ صاحب كتاب «أخبار أعيان الحكام» . وعبد الله بن جعفر بن محمد بن درستويه النحوى البغدادى ت٣٤٧هـ صاحب كتاب «طبقات النحاة».

---

(١) تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ٤١٩/١/١ ـ ٤٢٤، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢١١/٣ ـ ٢١٢ .

(٢) معجم المؤلفين لكحالة ٥٥٢/٢ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٤٥/٥ .

(٤) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٤٥٨/٣ .

(٥) الفهرست لابن النديم ٢١٥، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٥٦/٤ .

(٦) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٨٢/٢ .

(٧) الفهرست لابن النديم ص١٨٨ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٦٥٧/٢ .

(٨) الفهرست لابن النديم ص٢٢١ .

(٩) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٢/٢ .

وإبراهيم بن محمد بن نفطويه النحوى البغدادى ٣٢٣هـ صاحب كتاب «التاريخ»[١]. وأبو سعيد الحسن بن عبد الله السِّيرافى النحوى البغدادى ت٣٦٨هـ صاحب «طبقات النحاة »[٢].

وقد دخل التاريخ ـ عبر علوم الأوائل ـ بعض المؤرخين على أساس من الثقافة الفلسفية أو الطبية ، وقد تميز هؤلاء بنظرة أعمق وأشمل فى التدوين التاريخى، وحاول بعضهم فلسفة التاريخ كما حاول بعضهم الجمع بينه وبين الكون والوجود بنوع من الصلة والتسلسل ومن بين هؤلاء :

قدامة بن جعفر ت٣٣٧هـ صاحب كتاب « زهر الربيع فى التاريخ »، وعلى بن الحسين المسعودى ت٣٤٦هـ الذى نثر معلوماته الدينية والفكرية الغزيرة فى كل مكان من مؤلفاته ، وله تواريخ متعددة مثل : « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان » وكتاب «مروج الذهب » وكتاب « التنبيه والإشراف»[٣]. وأبو حيان على بن محمد بن العباس الواسطى التوحيدى ت٤٠٠هـ صاحب «أخبار الصوفية»[٤]، وصاحب المؤلفات العديدة التى خدم بها الحياة العلمية ، وكان له الأثر الواضح فى كثير من العلوم ، والفارابى محمد بن محمد أبو نصر الحكيم ت٣٣٩هـ فقد دخل العراق واستوطن بغداد ثم سافر إلى دمشق ، وبذلك قد أثر فى كل من الإقليمين بعلمه ومؤلفاته ، فله كتاب «إحصاء العلوم» فى تاريخ الفكر الإسلامى حيث تحدث فيه عن العلوم المشهورة[٥].

ومن جهة أخرى نلاحظ أن علم التاريخ قد استحوذ على جهد بعض العلماء ، وأصبح موضوع نشاطهم الفكرى الرئيسى وليس أحد النشاطات الهامشية ،

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٦٤/٥ ، ٣٦٥ ، ٨ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص٩٣ .

(٣) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص٣٠٢ .

(٤) مجلة (فصول) المجلد ١٤ العدد ٣ لسنة ١٩٩٥م ص٢٢ ـ ٢٨ العدد كله حول شخصية أبى حيان التوحيدى .

(٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢/٦ ، وانظر الفارابى بقلم سعيد زايد صفحة ٢٥ .

كالمسعودى أبو الحسن على بن الحسين ت٣٤٦هـ كان بحثه وإنتاجه كله منصبًا على المواضيع التاريخية والفكرية[١] . وأحمد بن إبراهيم البغدادى ت٣٥٠هـ لم يترك سوى مؤلفات فى التاريخ وبها اشتهر مثل : « أخبار صاحب الزنج ، عجائب العالم ، كتاب التاريخ الصغير ، وكتاب التاريخ الكبير ، وكتاب الفرق »[٢] . وأبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزبانى ت٣٧٨هـ معظم مؤلفاته تاريخية مثل : « أخبار الشعراء ، وأخبار الملوك ، والمغازى ، والمعجم للشعراء ، وأخبار الفرس ، وأخبار المتكلمين ، وأخبار النحويين ، وأخبار أبى حنيفة ، وأخبار أبى مسلم »[٣] .

ومن جهة ثالثة فإن الجماعات التى تنتمى لدين غير دين الإسلام وتعيش فى المجتمع المسلم خلال القرن الرابع الهجرى ، قد أسهمت بدورها فى تدوين التاريخ من بينهم :

سعيد بن إبراهيم التسترى البغدادى وكان نصرانيا ت٣٦٠هـ صاحب كتاب «الرسل فى الفتوح على حروف المعجم»[٤] ، وإبراهيم بن هلال بن زهرون الصابئ ت٣٨٤هـ صاحب كتاب «التاجى فى أخبار الدولة الديلمية وأخبار أهله ، ورسوم دار الخلافة»[٥] .

تعقيب :

إن مكانة المؤرّخين الشاميين والعراقيين خلال القرن الرابع الهجرى لمكانة عظيمة، غير أن مؤرخى العراق يحتلون المكانة الأولى ، وذلك بسبب مكانة العراق السياسية والدينية والعلمية ، لأن ما من عالم كبير إلا ورحل إليها أو قصدها فى طلب العلم ،

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٤٧/٢ ـ ٤٨ .
(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٤/٥ .
(٣) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنتال ص١٩٨ ، ٢٠٠ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٥٦٩/٣ .
(٤) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣١٩/٥ .
(٥) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٨٠/١ .

والمؤرخون الكبار كلهم أو جلهم ينتمون إليها خلال القرن الرابع الهجرى ، كالطبرى والمسعودى وغيرهما .

أما من حيث كثافة المؤرخين فى كل من الشام والعراق خلال القرن الرابع ، أمر واضح لا شك فيه ، لأن هذا القرن يعتبر فترة نضج فى الحضارة العربية الإسلامية .

لم تقتصر كتابة التاريخ على المؤرخين وحدهم فى كل من الشام والعراق ، بل ساهمت فى الكتابة التاريخية فى كل منهما ، مجموعات متنوعة ، بين محدثين وفقهاء وأدباء وكُتّاب ووزراء ومهندسين وأطباء وفلكيين ، بل كانت أسر بأكملها تهتم بالكتابة التاريخية ، وقد انفرد العراق بهذه الجزئية الأخيرة . مما يجعلنا نقول أن مؤرخى العراق كان اهتمامهم بالتدوين التاريخى أمراً ملحوظاً عن مؤرخى الشام .

نستطيع أن نقول إن مؤرّخى الشام ومؤرخى العراق يتفقون فى أمر التكوين العلمى عندهم ، فلم يقتصر الأمر على ثقافة بعينها ، بل اتجهوا جميعاً إليه عبر تكوّنات ثقافية متعددة ، ففى كل من الشام والعراق مؤرخون ذو ثقافة دينية فى الحديث أو الفقه أو التفسير أو مؤرخون ذو ثقافة أدبية وشعرية ، كاللغويين والنحويين والأدباء والكُتّاب والشعراء والنقاد ، والفلاسفة ، والأطباء أصحاب الثقافة الفلسفية والثقافة الطبية . والنماذج على ذلك كله واضحة فيما سبق سواء فى الشام أو فى العراق .

كما يتفق كل من الشام والعراق فى أنهما يحويان علماء صرفوا كل جهدهم نحو التاريخ وحده وأصبحوا مشغولين بنشاط التاريخ وتدوينه .

كما يتفق كل منهما فى وجود مؤرخين غير مسلمين لهم دور فى التدوين التاريخى . أصلهم من الشام ثم رحلوا إلى العراق واستوطنوا هناك ومنهم من كتب وهو فى العراق تاريخ الشام مثل ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الحرانى ت٣٦٣هـ حيث صنف كتاب «أخبار الشام»[١] .

---

(١) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٤٦٦/١ .

مؤرخو الشام والتاريخ الإقليمي :

كانت مدارس الشام التاريخية خلال القرن الرابع الهجرى عبارة عن بقايا وأقباس في الوقت الذى كانت فيه مدارس العراق تعتبر لحدٍّ ما الممثلة الأولى للفكر الإسلامى التاريخى .

فقد ظهر توزيع جديد للمدارس التاريخية على المستوى الإقليمى ، وسرعان ما أعطى العلماء هذه الإقليمية التاريخية الجديدة فلسفتها والتبرير لهذا التوزيع الجديد . يقول المسعودى في ذلك : « ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام ، حادثة مع حدوث الأزمان ، وربما غاب البارع منها عن الفطن الذكى ، ولكل واحد قسط يخصّه بمقدار عنايته »[(١)] .

فقد جعلت الشام لنفسها مدارس خاصة فى المادة والتنظيم ، ورغم قلتها ، وقد دفع مؤرخيها إلى ذلك ، بأن لديهم من الأخبار ما يستحق التسجيل ، والنزعة الوطنية من جهة ، ونزعة التقدير للأخبار المحلية من جهة أخرى . وهذا مثلاً هو مبرر لأحمد ابن محمد الخزاعى المعروف بالخاقانى الأنطاكى ت٣٩٩هـ لتأليف كتاب التاريخ الخاقانى[(٢)] ، ومحمد بن عبد الله بن جعفر البجلى ت٣٤٧هـ لتأليف تاريخ دمشق والحديث عن فضائل دمشق . وعبد الصمد بن سعيد الحمصى ٣٢٤هـ لتأليف تاريخ حمص[(٣)] .

فلكل قطر فى الشام عجائب يقتصر على علمها أهله ، فيكتب عنه وعن فضله المؤرخون . ولا شك فى أن التفكك السياسى الذى أصاب العالم الإسلامى خلال القرن الرابع كان له أكبر الأثر فى ظهور الأنواع الإقليمية من التاريخ ، حيث جعل كل قطر أو إقليم إثبات شخصيته المحلية وتبرير انفصاله عن جسم الدولة الأم انفصالاً سياسياً ، محاولاً إثبات الحقوق الشرعية أو المبادئ المذهبية والسياسية .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ٦/١ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٦م .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ٧/١ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٦٠/٥ .

(٣) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص٢٦١ ، والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٢٧/٢ .

ومن هذا توزعت الأقطار الإسلامية تدوين التاريخ مرة أخرى ، ولكن على أساس جديد ، لعبت به القوى السياسية . أما الشام فلأنها ظلت تابعة تارة للخليفة العباسي وولاته ، وتارة أخرى لخليفة مصر الفاطمي وولاته ، فإن مدرستها التاريخية ظلت أضعف في القوى غير مشهورة المؤلفات ولا كثيرة المؤلفين نسبيًا »[1] كما دفع المؤرخين إلى كتابة التاريخ الإقليمي والرغبة في تمجيد الحكام المحليين ، والتعصب للوطن ، ومعرفة التجارب السياسية المحلية ، وقرب المعلومات من المؤرخين .

أما اتجاه الشام ومؤرخيها نحو النظرة الشمولية في اتجاه إدخال تواريخ الأقاليم الإسلامية المختلفة ضمن التاريخ الإقليمي المحدود ، فلم يكن ظاهراً ولا واضحًا خلال القرن الرابع الهجري . فقد كانت الكتابة التاريخية لهم « محدودة المدى الزمني والمكاني على السواء ، فهم بين سيرة رجل أو دولة أو تعليق تاريخي ، أو ذكر فضيلة موقع أو كمناقب رجل ، أو التأريخ لمدينة أو أسرة »[2] .

ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى عودة الحياة السياسية العنيفة الموّارة إلى بلاد الشام ، وظهور سلطات فيها تستقطب اهتمام الناس وتجتذب لا الانتباه والاعجاب فقط، ولكن تدفع إلى الهجرة إليها والعيش معها وفي كنفها .

مؤرخو الشام وأثرهم التاريخي :

لقد سبق أن جعلنا مؤرخي الشام في مكانة عظيمة بعد مؤرخي العراق خلال القرن الرابع الهجري ، فهم يفرقون غيرهم ـ بعد مؤرخي العراق ـ في اتساع جهودهم، ونواحي نشاطهم واهتمامهم ، فمنهم من ربط الجغرافيا بالتاريخ ربطاً موفقا صحيحاً كأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المقدسي ت٣٧٥هـ صاحب كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » حيث يبتدئ في عمله العلمي بالنقد والتمحيص ، فيأخذ بالعلم الذي يكتسب من البحث والاستقصاء لا مما يؤخذ من الإيمان بالموروث أو يحصل بمجرد الاستدلال المنطقي ، وهو يعتبر أن ما جاء في

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٨٩/١ .

(٢) التاريخ العربي والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٢٠/٢ .

القرآن من حقائق جغرافية ، إنما هو كذلك ليتفق مع ضيق معارف العرب ودائرة نظرهم ، فقد أراد الله أن يخاطبهم على قدر معارفهم .

والناظر فى كتب المؤرخين الشاميين يجد ما يثبت قدرتهم على إدراك الجزئيات إدراكاً دقيقاً ، وزيادة معارفهم التاريخية والجغرافية[1] .

إن لمؤرخى الشام خلال القرن الرابع الهجرى أثر واضح وجلى فيمن أتى بعدهم وذلك عن طريق ما نقلوه من كتبهم ، وما تبعوه من أفكار ، فعلى سبيل المثال نجد محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله البجلى ت٣٤٧هـ صاحب كتاب تسمية أمراء دمشق فى أيام بنى العباس ، وكتاب تسمة كتاب أمراء دمشق ، وكتاب فضائل دمشق ، قد أثر فيمن بعده ، فقد نقل ابن عساكر فى تاريخه عن محمد بن عبد الله البجلى إحدى عشرة مرة أحاديثًا وأخباراً فى فضل دمشق[2] ، وكذلك ينقل أبو شامة صاحب كتاب الروضتين من كتب البجلى بعض النقل عن زلازل وقعت بدمشق فى سنة ٢٤٥هـ حيث حكى عن تدميرها الواسع[3] .

وأبو القاسم عبد الصمد بن سعيد بن عبد الله الحمصى ت٣٢٤هـ قد أثر فيمن بعده ، فقد نقل عنه ياقوت الحموى فى معجمه[4] ، وابن حجر العسقلانى فى كتابه الإصابة[5] ، وقد ترك لنا الحمصى « تاريخ حمص » أو « تاريخ الحمصيين »[6] .

وأبو على محمد بن سعيد بن عبد الرحمن بن إبراهيم القشيرى الحَّرانى ت٣٣٤هـ صاحب «تاريخ الرقة»[7] قد نقل عنه السمعانى فى الأنساب ، وابن العديم فى بغية الطالب[8] .

---

(١) تاريخ الفلسفة فى السلام ت. ج. دى بور ترجمة محمد أبو ريدة ص١٣٨ .

(٢) انظر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر تحقيق المنجد ١٧٤/١ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥ ، ٥٨٦ .

(٣) انظر كتاب الروضتين لأبى شامة ٢٦٨/١ طبعة محمد حلمى أحمد .

(٤) معجم البلدان لياقوت الحموى ٧٨٧/١ ، ٣٣٧/٢ ، ٣٦٨ ، ٦١١ ، ٤١٠/٣ ، ٧٦٩ ، ٥١٦/٥.

(٥) الإصابة لابن حجر العسقلانى ٥٢٠/٢ ، ٦٦٢ ، ٣٣/٣ ، ٧٢٦ .

(٦) كشف الظنون لحاجى خليفة ٤٦٣/٥ .

(٧) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٣١٩/٣ ـ ٣٢٠ .

(٨) التاريخ العربى والمؤرخين للدكتور شاكر مصطفى ٢٧٣/٢ .

مؤرخو العراق والتاريخ الإقليمى :

كانت مدرسة العراق التاريخية خلال القرن الثالث الهجرى متألقة ومستقطبة لمدارس الأقاليم الأخرى فى الدولة الإسلامية . ولما جاء القرن الرابع الهجرى ، خمد هذا التألق ورغم خموده ظلت مستقطبة لغيرها متفوقة ومتقدمة على من سواها ، رغم اتسام القرن الرابع بالتفكك السياسى الذى كان له أكبر الأثر فى ظهور الأنواع الإقليمية من التواريخ ، وقد يبرر ظهور الإقليمية التاريخية تزايد التاريخ مع الزمن ، فالأخبار قد زادت مع تزايد الأيام ، وحادثة مع حدوث الأزمان[1] .

ووجود ما لدى المؤرخين من أخبار وأحوال تستحق التسجيل وما يقولونه بالإضافة إلى ما يسجله أصحاب التواريخ الأخرى ، مثل : عبد الله بن أحمد بن أبى طاهر طيفور الذى أكمل تاريخ والده ، ويزيد بن محمد بن إياس الأزدى ت٣٣٤هـ صاحب كتاب تاريخ الموصل[2] .

لا شك أن كثيراً من المؤلفين المؤرخين أقبلوا على التأليف رغبة فى إبراز علماء المصر وإثبات فضله ، وبعضهم سمى هذا النوع من التاريخ فضائل مثل : « فضل الكوفة » لابن عقدة أحمد بن محمد بن سعيد الكوفى ت٣٣٢هـ. وبعضهم سماه طبقات أو أخبار مثل : كتاب أحمد بن كامل القاضى ت٣٥٠هـ ألفه فى أخبار الرجال من أهل الحديث ، وكتاب الأخبار لنفوطيه إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى ت٣٢٧هـ، وبعضهم سماه تاريخ بغداد كأبى الحسن عبيد الله بن أحمد بن أبى طاهر طيفور.

من هذا نستطيع أن نقول : إن الأقطار الإسلامية وزعت تدوين التاريخ مرة أخرى على أساس جديد لعبت به القوى السياسية الدور الأول .

وإنّ مؤلفى التاريخ العراقى رغم نظرتهم الإقليمية فإن كثيراً منهم لم ينس أن ينظر النظرة الشاملة للعالم الإسلامى بجانب نظرتهم الخاصة للأحداث المحلية ، وخاصة

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ٦/١ .

(٢) التاريخ والجغرافية فى العصور الإسلامية لرضا كحالة ص٨٠ .

ببغداد عاصمة الخلافة ، فقد كانت الكتب التاريخية إذ ذاك حصيلة التأثر على مستويات مختلفة ، بها تبين النظرتين الإقليمية والعامة الشاملة ، ولم يتحقق ذلك لمؤرخى الشام فقد كانت نظرتهم إقليمية فقط . كما ذكرنا .

ولعل الدافع إلى هذه النظرة عند مؤرخي العراق خلال القرن الرابع الهجرى هو نموّ واستقرار الشعور بأن المسلمين يكونون أمة واحدة ، فكان هذا الشعور يترجم عن طريق تعبيرها العملى فى اهتمام المؤرخين الإسلاميين بكل بلد إسلامى . ولهذا مثلا نجده فى كتاب تاريخ بغداد الذى استكمله عبيد الله بن أحمد بن أبى طاهر طيفور عن أبيه ، « حيث أنه تاريخ للخلفاء العباسيين ، يدور حول حوادث عاصمتهم ، وبذلك كان مناسبًا ليحل محل تاريخ عامٍ للامبراطورية الإسلامية ، وقد أضاف على المعلومات التاريخية فصلاً عن الخطط إذ يروى أن المؤرخ أحمد بن محمد الرّازى ألف فى صفة قرطبة وخططها ومنازل العلماء بها »[1] .

ومن الدوافع التى دفعت إلى النظرة الشاملة فى تاريخ الإقليم فى الارتباط السياسى بالخلافة فى بغداد ، لما لبغداد من تأثير مباشر أو غير مباشر على تطورات الحكم المحلى. لقد أعطى هؤلاء المؤرخون منذ القرن الرابع علم التاريخ ملامحه السياسية وأبعاده الفكرية المميزة .

مؤرخو العراق وأثرهم التاريخى :

« خير ما يقال عن هؤلاء المؤرخين أنهم يفرقون غيرهم فى اتساع جهودهم ، ونواحى نشاطهم واهتمامهم ، وأنهم يربطون الجغرافيا بالتاريخ ربطاً موفقًا صحيحًا ، وأنهم لا يفوتهم شيء مما يتصل ببنى الإنسان ، وأنهم يعلون علواً كبيراً على معاصريهم من المؤرخين »[2] .

والناظر فى كتب التاريخ يجد ما تميز به هؤلاء من قدرة على إدراك الجزئيات إدراكا دقيقًا ، ولكن الربط بين الحوادث برباط جامع لها أمر غير موفق ، لكن أفقهم

---

(١) التاريخ والجغرافية فى العصور الإسلامية لرضا كحالة ص٨٠ .

(٣) قصة الحضارة . ول ديورانت ترجمة محمد بدران ١٧٥/١٣ .

قد اتسع من اتساع امبراطوريتهم ، وزادت معارفهم التاريخية والجغرافية ، بما كانوا يقومون به من أسفار لجمع الأحاديث ، أو لإدارة الدولة ، كما كان منهم من يذكر الروايات المتعارضة من غير تشيع ، ومنهم من لا يتردد فى الحكم على الماضى ، وصار موضوع التاريخ شاملاً للحياة العقلية والعقائد والأدب والعلم . وذلك متمثل فى كتابات المسعودى الذى يعنى بكل ما هو إنسانى ويفهم حق الفهم ، فالتاريخ عنده هو العلم الجامع ، وهو يجعل موضوعه شاملاً لحكمة الدنيا ولتاريخها ، ويقول : لولا التاريخ لبادت آثار العلوم منذ زمن بعيد ، لأن العلماء عرضة للزوال ولكن التاريخ هو الذى يدوّن ما تجود به عقولهم ، فيحفظ صلة الماضى بالحاضر(١) .

إن مؤرخى العراق قد أثروا فيمن جاءوا بعدهم تأثيرا واضحاً ، وذلك من خلال ما نقلوه من كتب مؤرخى القرن الرابع الهجرى ، ومن تبعوه من أفكار ، فعلى سبيل المثال نجد عبد الله بن محمد بن عبدوس الكوفى ت ٣٣١هـ صاحب كتاب أخبار المقتدر ، وكتاب الأسمار ، وكتاب الوزراء والكتاب(٢) ، وقد تأثر به كثير ممن جاءوا بعده وكان كتاب الوزراء من أهم مصادر المؤرخين عن تاريخ الوزراء والكتاب منذ عهد النبى ﷺ حتى السنة التى توقف عندها سنة ٢٩٦هـ وقد نقل عنه ياقوت الحموى والصفدى وابن خلكان(٣) .

وعلى بن الحسين بن محمد أبو الفرج الأصبهانى ت بعد ٣٦٢هـ من بين كتبه كتاب «التعديل والإنصاف» فى معايب العرب ومثالبها نقل عنه الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد(٤) .

وأبو الحسن ثابت بن سنان الطبيب ت٣٦٥هـ صاحب كتاب « التاريخ » نقل عنه وتأثر به ابن العديم فى « بغية الطلب » ، وله كتاب عن « أخبار الحلاج » أخذ عنه ابن النديم فى « الفهرست » .

---

(١) انظر تاريخ الفلسفة فى الإسلام ت. ج . دى بور ترجمة محمد أبو ريدة ص١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٤٧٧/٣ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٠/٦ .

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٤٤/٢ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٩٨/١١ .

ومحمد بن زكريا الرازى ت٣١١هـ صاحب كتاب « سير الخلفاء » تأثر به المسعودى وكان من مصادره .

وأبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم السراج ت٣١٣هـ صاحب كتاب «الأخبار» اقتبس منه ابن حجر العسقلانى فى كتابه « الإصابة »(١).

تعقيب :

يتفق كل من الشام والعراق فى أنّ لكل منهما مدارس خاصة فى المادة والتنظيم ، وأن الذى دفعهم لذلك أن لكل منهما أخبار تستحق التسجيل ولكل منهما نزعة وطنية ، وكل منهما يقدر أخباره المحلية ، وكل منهما يريد أن يبرز علماءه ، ويثبت فضله ، ويمجد حكامه المحليين .

ويتفق كل منهما فى السبب الذى أدى إلى ظهور هذا النوع من التاريخ ، ألا وهو التفكك السياسى الذى أصاب العالم الإسلامى خلال القرن الرابع الهجرى .

تعدّ مدرسة الشام أضعف فى القوى غير مشهورة المؤلفات ولا كثيرة المؤلفين إذا قورنت بمدرسة العراق التاريخية .

ينفرد مؤرخو العراق فى نظرتهم للعالم الإسلامى ، حيث ينظرون نظرة شاملة بجانب نظرتهم الإقليمية الخاصة ، فجاءت أغلب كتبهم ذات حصيلة شاملة ، على مستويات مختلفة ، ولم يتحقق ذلك لمؤرخى الشام فقد كانت نظرتهم إقليمية وإن خرق ذلك المطهر بن طاهر المقدسى بكتابه « البدء والتاريخ » حيث وقف خلال القرن الرابع الهجرى يمثل تاريخاً ذات نظرة إقليمية وشاملة فى وقت واحد .

لعل الذى جعل مؤرخى العراق ذات نظرة شاملة دون مؤرخى الشام هو الارتباط السياسى بالخلافة فى بغداد ، لما لها من تأثير مباشر وغير مباشر على تطورات الحكم المحلى .

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢/٦٦ ـ ٦٧ ، ٧٦ .

ولعل الذى جعل مؤرخى الشام على ما هم عليه هو عودة الحياة السياسية العنيفة المؤّارة إليها ، وظهور سلطات بها تستقطب اهتمام الناس .

لمؤرخى الشام والعراق أثر واضح وجلىّ فيمن بعدهم سواء من إقليمهم أو من غيره . فمؤرخو الشام يحتلون المكانة الثانية بعد مؤرخى العراق ولا جدال فى ذلك . سواء من ناحية اتساع جهودهم ونواحى نشاطهم أو اهتمامهم بتدوين التاريخ ، فكل منهما استطاع أن يربط بين التاريخ والجغرافية فَمثّل الشام أبو عبد الله المقدسى ومثّل العراق المسعودى .

يتفق كل من مؤرخى الشام والعراق فى القدرة على إدراك الجزئيات ، وزيادة معارفهم التاريخية والجغرافية .

كما يتفقان فى أن لكل منهما أثراً واضحًا فى المؤرخين الذين أتوا بعدهم وذلك عن طريق ما نقله الآخرون من كتبهم ، وما تبعوه من أفكار ، وقد سبق أن بيّنا ذلك فى الشام والعراق تحت عنوان « مؤرخو الشام والعراق وأثرهم التاريخى ».

ملامح الكتابة التاريخية ومظاهر تطورها فى الشام :

لقد أعطى المؤرخون الشاميون كغيرهم من مؤرخى العالم الإسلامى منذ القرن الرابع الهجرى خاصة علم التاريخ ملامحه الأساسية وأبعاده الفكرية المميزة ، مما جعله يسجل طوراً جديداً فى تلك المسيرة ، ومتأثراً دون شك بنمو العلوم الأخرى .

لذلك نستطيع أن نقول : إن ملامح الكتابة التاريخية بالشام خلال القرن الرابع الهجرى تظهر بثوب جديد بخلاف القرن الثالث الهجرى وذلك من خلال ما سنوضحه .

استخدام السند :

قبل القرن الرابع كان كثير من مؤرخى العالم الإسلامى وليس مؤرخى الشام وحدهم يدوّنون المادة التاريخية على غرار الطريقة الحديثة نتيجة لتأثرهم بمنهج المحدثين

فى التزام الإسناد فى نطاق الحديث ، وأصبحت الأسانيد عند المؤرخين تتقدم الروايات التاريخية ، ولكن بقدوم القرن الرابع كان بمثابة نقطة تحول أو تطور فى تدوين المادة التاريخية بالشام ، إذ جعل التاريخ يستقبل بمنهج خاص فى التدوين منفصلاً عن الحديث لعدم ترتب أمور فقهية شرعية هامة على التاريخ المدوّن ، والرغبة فى الاختصار، وعدم مطالبة الناس بسند للحديث التاريخى ، مما أدى فى الوقت نفسه إلى استقرار الرواية التاريخية المستقلة وتوطيدها[١] .

فى حين أن العراق ما زالت محتفظة ببعض المؤرخين الذين يدونون المادة التاريخية محافظين على ذكر الأسانيد فى بداية الأخبار ، وكان الطبرى ت٣١٠هـ آخر ممثل للطريقة الحديثية بها خلال القرن الرابع الهجرى . أما مؤرخو الشام فقد لزموا الطريقة التاريخية اللاسندية ، وهذا لا يمنع وجود التوثيق التاريخى المستقل الذى يلتزم به بعض المؤرخين ، كأن يجمع الإسناد كله فى أول الكتاب ، أو يعزو كل خبر إلى المؤلف أو الكتاب الذى أخذ عنه . فالمقدسى صاحب « أحسن التقاسيم » يذكر فى مقدمة كتابه مصادر جمعه للمادة التاريخية التى سجلها فيقول : « وما تم لى جمعه إلا بعد جولاتى فى البلدان ودخولى أقاليم الإسلام ولقائى العلماء وخدمتى الملوك ومجالستى القضاة ودرسى على الفقهاء ، واختلافى إلى الأدباء والقراء ، وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين ، وحضور مجالس القصاص والمذكرين »[٢] .

استخدام النقد للموارد :

إن استخدام النقد للموارد التى استقى منها المؤرخ مادته التاريخية ما يميز مؤرخى الشام كغيرهم من أهل القرن الرابع الهجرى ، ورغم ذلك فقد كان ينقص مؤرخى العرب روح النقد على العموم ، ولا يمنع ذلك من وجود مؤرخين بلغوا درجة عالية فى هذا المجال[٣] « كالمقدسى ت٣٧٥ ـ ٣٨٠هـ الذى كان يبتدئ فى عمله العلمى

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٣٧٨/١ .

(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص١٦ .

(٣) حضارة العرب لجوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص٤٥٣ .

بالنقد والتمحيص ، فيأخذ بالعلم الذى يُكتسب من البحث والاستقصاء عن الشىء لا بما يأخذ من الإيمان بالموروث أو يحصل بمجرد الاستدلال المنطقى ، فكان يصف أحوال البلاد والأمم التى رآها بعينى رأسه وصفًا بريئًا من التشيع والتحامل ، وكان يتوخى المعارف التى يصل إليها بمشاهدته الخاصة ، ويضعها فى المكان الأول ، ويضع فى المرتبة التى تليها ما يأخذ عن العلماء الثقات ، ويضع بعد هذا ما يجده فى الكتب»[1] .

استخدام كل من السجع والشعر فى الكتابة التاريخية :

سيطر السجع على الكتابة التاريخية بقدر ملحوظ ، خلال تراجم الإطراء[2] التى دونها الموظفون لأسيادهم . ومن الواضح أنه لا يمكن عرض الحقائق المجردة والأوصاف الدقيقة بهذا الشكل ، لأن أسلوب السجع يتجلى فيه دائمًا الابتعاد عن الحقائق والدقة ، وإذا كان السجع قد أضاف إلى الكتابة التاريخية جاذبية فى نظر القارئ المثقف ، فإنه لم يساهم بشىء فى تعميق الفهم التاريخى ، كما وأن استخدام السجع لم ينتج شكلا جديداً فى جوهره من أشكال العرض التاريخى[3] .

لذلك نجد فى كتابات أبى الفرج الببغاء ـ وهو من أقرب الأدباء إلى قلب سيف الدولة ـ رسالة يقف أمامها المؤرخ فيجد فيها وثيقة تاريخية فريدة حول معارك سيف الدولة ، ويتعرف من خلالها على حرص سيف الدولة على أن تكون أموال الفداء للأسرى من ملكه الخاص ، وعلى طريق تبادل الأسرى وفدائهم ، وقد التزم الببغاء فى رسالته السجع التزاماً يكاد يكون تاماً[4] .

من المعروف أن السجع لم يكن أسلوباً ملائمًا لبحث التاريخ بصورة حقة ، أما الوسيلة التقليدية فى التعبير الشعرى ، فمقدورها وحدها القيام بتحويل التاريخ إلى

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ت. ج. دى بور ترجمة محمد أبو ريدة ص١٣٨ .

(٢) الإطراء : مجاوزة الحدّ فى المدح والكذب فيه . لسان العرب لابن منظور مادة (طرا).

(٣) علم التأريخ عند المسلمين لفرانز روزنثال ترجمة الدكتور صالح العلى ص٢٤٢ ، ٢٤٥ .

(٤) مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ .

شعر، لقد أقدم شعراء كبار على تجربة مهارتهم فى موضوعات تاريخية ، كالشعر الذى نظم أبو فراس الحمدانى فى مدح أعمال أجداده ، فإنه لم يكن دافعه الاعتبارات التاريخية ، وقد يبدو أن التواريخ الشعرية التى بين القرنين الثالث والرابع احتفظت عادة ببعض الوقار الذى رفعها فوق المستوى(١) .

وقد كان لأبى فراس الحمدانى أشعار متفرقة منها القصيدة الشافية فى مناقب آل الرسول ومثالب بنى العباس(٢) .

وكثيراً ما كانت الحوادث المهمة مادة للشعراء ، فالأحداث العسكرية المجيدة قد تستثير الشاعر للنظم عندما يؤمّل جائزة مادية ممن لعب دوراً رئيسياً فى تلك الأحداث ، كما يمكن جعل الحوادث التاريخية موضوعاً لقصائد هجائية مفذعة كانت كالهجاء القديم سلاحا هامًا فى الصراع بين الأحزاب المتنافسة . وكل هذه الأشعار لم تكن تاريخًا بأى شكل كان ، ولم ينظر الشعراء عند بحثهم للحوادث إلى أهميتها التاريخية(٣) .

تطور المادة التاريخية بالشام :

لقد تطورت مادة التاريخ أوسع التطور خاصة فى القرن الرابع الهجرى ، ونرى ملامح هذا التطور ظاهرة جليّة فى كثرة المادة التاريخية وتنوعها ، ومدى تأثرها بالنمو الحضارى ، وبحاجات السياسة والإدارة ، وبنمو العلوم الأخرى وبالتمزق السياسى وظهور أنواع من تواريخ المدن والأسر والسير والمذكرات والقصص .

** إن كثرة المادة التاريخية تتمثل فى عدد المؤلفات والوفرة فى كمية المادة المدونة وفى تنوعها ، مما جعل المؤلفات التاريخية تتضخم إلى أحجام كبيرة وصارت مؤلفات القرن الرابع بالشام كتبًا من عدة آلاف من الأوراق ، وعدة أجزاء ضخمة ، غير أن ذلك قليل ونادر فى الشام ليس كمؤلفات العراق التاريخية ذات الحجم الكبير .

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين فرانز روزنثال ترجمة الدكتور صالح العلى ص٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٢/٩٥ ـ ٩٦ .

(٣) علم التاريخ عند المسلمين فرانز روزنثال ترجمة الدكتور صالح العلى ص٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

وهكذا فقد كتب المطهر بن طاهر المقدسى ت٣٥٥هـ كتاب « البدء والتاريخ » فى ستة أجزاء[١]. كتب فى مقدمته بحث نظرى عن المعرفة والعقل ، وهو يتبع فى هذا الكتاب التنظيم المألوف من خليقة العالم إلى الرسول ﷺ وتاريخه وصحابته ، وتاريخ الدولتين الأموية والعباسية ، ويؤكد على صفات الخالق ، والأهمية الثقافية والفلسفية للأديان القديمة والخلافات فى العقائد بين مختلف الفرق الإسلامية ، ولم يتلوه أحد بعده خلال القرن الرابع الهجرى يتعمق فى بحث التاريخ بنفس الروح[٢].

** كما تضخمت المؤلفات التاريخية ، تنوعت أيضًا المعلومات التاريخية ، وتعددت مواضيعها تعدداً واسعًا ، لقد شعر الناس أن كل شيء يستحق أن يسجل ويكتب من جهة ، وأن الحياة السياسية أصبحت تراثًا طويلاً من جهة أخرى ، كما شعروا بارتباط التاريخ مع العلوم والمعارف الأخرى ، حتى أصبح له ثروة هائلة من المعلومات ، وأن بلوغ المجتمع الإسلامى فى القرن الرابع أوجه تطوره وفاعليته الحضارية ، أوجد حاجات فكرية مستجدة عليه ، وقد انعكست هذه الحاجات فى إنتاجه الفكرى وفى الكتب التى ألفها الناس وتداولوها ، وكلها تدور لحد كبير فى نطاق التاريخ . ومنها ما أفرزه الخيال الشعبى من قصص تاريخى غرضه الأسمار والتثقيف والوعظ والتبسيط وكتب اللهو والضحك مثل كتاب « هواتف الجنان وعجيب ما يحكى عن الكهان » لأبى بكر محمد بن سهل الخرائطى ت٣٢٧هـ والذى كتب أيضاً كتاب « اعتلال القلوب فى أحاديث المحبة والمحبين »[٣].

كما ظهرت الكتب التى تنشر الغناء والطرب كثيرة منها : كتاب « الطنبوريين والطنبوريات » لعلى بن الحسين بن علىّ بن كوجك العيسى الحلبى ت٣٩٤هـ[٤].

وكذلك كتب الديارات التى كانت تجمع أخبار الغناء واللهو والخمر والندامى

---

(١) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٣/٨٩٠ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٣/٦٢ .

(٢) علم التأريخ عند المسلمين فرانز روزنثال ترجمة الدكتور / صالح العلى ص١٦١ ـ ١٦٢ .

(٣) تاريخ الأدب العربى بروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٣/١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٤) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٢/٤٣١ .

والأعياد ، من بين مؤلفى علماء الشام فى ذلك : كتاب « الديارات » للخالدين الأخوين أبى بكر محمد وأبى عثمان سعيد ، شاعرى سيف الدولة وخازنى كتبه ، وقد توفى الأول فى سنة ٣٥٠هـ والثانى فى سنة ٣٨٠هـ، وكتاب « الأديرة والأعمار فى البلدان والأقطار » لأبى الحسن على بن محمد بن المطهر العدوى ت٣٨٠هـ من حاشية الحمدانيين فى القرن الرابع الهجرى(١) .

ويدخل فى باب التاريخ الحضارى ما كتب المؤلفون منذ القرن الثالث الهجرى حول أخبار الهدايا والتحف ، وهو موضوع راج الرواج الكبير فى القرن الرابع الهجرى، مع استبحار الحضارة ومن المؤلفات فى ذلك فى بلاد الشام :

« كتاب التحف والهدايا » من تأليف الأخوين أبى بكر محمد ، وأبى عثمان سعيد بن هاشم الخالديين(٢) ، وكتاب « التحف والطرف » لابن لبيب غلام أبى الفرج الببغاء(٣) .

كما يدخل فى باب التاريخ الحضارى كذلك ما كتب من أخبار الفروسية والحرب والسلاح والخيل والبيزرة وطرق القتال .

** ثم ننتقل إلى باب واسع فُتِحَ على علم التاريخ ، وكان أثراً واضحًا فى تطور المادة التاريخية وهو حاجات التنظيم السياسى والإدارة لتوطيد المؤسسات التى تقوم عليها الدولة ولتعليم الأجيال اللاحقة تجارب الأجيال السابقة من خلال الكتب التى تتحدث عن الوزراء والحجاب والكُتاب والقضاة والولاة والشرط وكتب الخراج والحسبة . ولكننا نجد نصيب الشام من هذا الانتاج قليل ، ليس كإنتاج أهل العراق ، فقد صنف أبو عمرو عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الطرطوسى ت٤٠١هـ كتاباً فى « أخبار الحُجّاب » وقد كان أبو عمرو معروفًا فى أوساط الشام الثقافية وقد تنقل ما بين طرطوس ودمشق وطرابلس وحلب(٤) .

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون د/ شاكر مصطفى ٣٠٨/١ .

(٢) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٧٢٠/١ .

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٣٠٩/١ .

(٤) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٣٦٢/٢ .

** لم يكن التاريخ فى عزلة عن الحركة العلمية التى سادت القرن الرابع ، كان لابد لنمو الفلسفة والمنطق وتطور الفكر الجغرافى وضلوع الكثيرين فى الفلك من أثر وتأثير بشكل أو بآخر على الفكر التاريخى نفسه وعلى طرائق التدوين . فقد كان من شأن انتشار علم الفلك والنجوم أن استخدمت الأزياج والعلوم الفلكية فى تأريخ الأحداث وتحديد أوقاتها وأحياناً فى تعليلها ، كما نجد الكثير من التحديات الفلكية للأحداث بالأبراج وغيرها لدى المطهر المقدسى ت٣٥٥هـ كما استخدمت معطيات الفلسفة والمنطق وعلم السياسة وعلم الكلام فى بعض الكتب التاريخية ، مما يدل على الصلة الواشجة بين الفكر الفلسفى والفكر التاريخى[١] ، فقد اهتم سنان بن ثابت بن قرة بتأليف كتاب استفتحه بجوامع من الكلام من أخلاق النفوس وأقسامها من الناطقة والغضبية والشهوانية وانتقده فى ذلك المسعودى . وجرت محاولة أخرى على المستوى نفسه ولعلها أكمل منها وأعمق لأنها كانت محاولة لفلسفة التاريخ وصاحبها هو المطهر بن طاهر المقدسى فى كتابه « البدء والتاريخ »[٢] .

لقد ظهر فى التراث الإسلامى من الآيات والأحاديث والأمثال العربية المرسلة والشعر معين لا ينضب من الحكم والمواعظ والشعارات التوجيهية الجاهزة للدخول فى ثنايا المواقف التاريخية ، وأكثر المواضيع الفلسفية التى تعاودت عليها الأقلام فى البحث التاريخى هى تلك التى تتصل بجذور دينية ولا يكاد يخلو مؤلف فى التاريخ من استشهاد بقصة أو بآية أو حديث أو بيت شعر ، أو قول من أقوال الحكماء يدعم به أخباره ويعطيها طابع الفكر والحتمية والتوجيه .

** إن من الأمور التى أثرت فى التاريخ وتطوره خلال القرن الرابع الهجرى ، ما كان يعانيه العالم الإسلامى من تمزق سياسى ، أصاب الشرق الإسلامى العباسى وخاصة الشام والعراق . مما جعل كثير من الدويلات تنفصل عن الوحدة السياسية الواسعة للخلافة العباسية وتنمو وتكون قوى محلية مستقلة ، مما جعل يرافقها أيضاً فى الوقت نفسه ظهور تواريخ محلية مستقلة ، مما جعل التواريخ العالمية كتاريخ الطبرى

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٣٢٦/١ ـ ٣٢٧ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى شرح وتقديم د/ مفيد قميحة ١١/١ .

والمسعودى تغيب عن التأليف التاريخى ، انسجامًا مع الواقع السياسى وغياب الوحدة الإسلامية ، وما ظهر من تواريخ عامة ، لكن يغلب عليها الخصوصية ، ويظهر فى عنوانها مفاهيم خاصة بالشام ، مثل كتاب « التاريخ الخاقانى » لأحمد بن محمد الخزاعى الأنطاكى ت٣٩٩هـ، وكتاب « التاريخ » لثابت بن سنان بن ثابت الحرانى ت٣٦٥هـ ، وكتاب « أخبار الحجّاب » لعثمان بن عبد الله بن إبراهيم الطرسوسى ت٤٠١هـ[1].

ومقابل هذا التراخى فى الاهتمام بالتواريخ العامة ظهرت التواريخ المحلية وتواريخ المدن مما جعلها تكون نوعًا من المدارس التاريخية الإقليمية ، من بين هذه التواريخ على سبيل المثال : تاريخ دمشق لأبى الحسين محمد بن عبد الله البجلى ت٣٤٧هـ. وتاريخ حرّان لأبى عروبة الحسين بن محمد الحرانى ت٣١٨هـ، وتاريخ حمص لأبى القاسم عبد الصمد بن سعيد الحمصى ت٣٢٤هـ، وتاريخ الرقة لأبى على محمد بن سعيد القشيرى الحرانى ت٣٣٤هـ وتاريخ دمشق لأبى على عبد الجبار بن عبد الله الدارانى ت٣٦٥هـ وغيرهم كثير .

مظاهر تطور الكتابة التاريخية بالشام :

نستطيع أن نبين تلك المظاهر من خلال تدوين المادة التاريخية وتنظيمها وما طرأ عليها من تطور ، فمن حيث تدوين المادة التاريخية وما ظهر عليها من تطور يمكن أن نسجل منها ما يلى :

١ ـ انقطاع أهم صلة تصل التاريخ بعلم الحديث ، وذلك عن طريق سقوط الإسناد تدوينًا وقيمة توثيقية ، وساعد على ذلك انتشار الورق ، والرغبة فى الاختصار وعدم مطالبة الناس بسند للحديث التاريخى . وهذا يعنى استقلال واستقرار الرواية التاريخية .

٢ ـ تزايد الاعتماد على الوثائق الرسمية ، وذلك بعد أن عمل على هذا التدوين

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ٦٠/٥ ، ٢٠٤ ، ٥٢٥ .

الكُتّاب والموظفون الرسميون ، وأدخلوا فى مصنفاتهم ما يقع تحت أيديهم من وثائق كالرسائل التى كان يكتبها عبد الواحد بن نصر أبو الفرج الشامى ت٣٩٨هـ وكان كاتباً فى ديوان سيف الدولة الحمدانى(١) .

٣ ـ تأثير العلوم المختلفة فى علم التاريخ ، فقد أخذت حيزاً من اهتمام المؤرخين ، وقد سبق المؤلفون تطور الثقافة الإسلامية على اختلاف فروعها من خلال التأريخ لرجالها والتسجيل لآثارهم العلمية . كعلم الحديث فهناك الكتب التاريخية التى تجمع تراجم رجال الحديث وبعضها اسم الرواة ، وبعضها اسم المعاجم وبعضها اسم الشيوخ ، وبعضها اسم الرجال ، وبعضها المؤتلف والمختلف ، وبعضها كتب الكنى والألقاب ، وذلك كالإمام الطبرانى من طبرية الشام أبو القاسم سليمان بن أحمد ت٣٦٠هـ، صنف المعجم الكبير والأوسط والصغير ، وكذلك أبو سليمان محمد بن عبد الله بن أحمد بن ربيعة ت٣٧٩هـ صنف كتاب « وفيات النقلة على السنين »(٢)، وكتب أبو الطيب عبد الواحد بن على الحلبى ت٣٥١هـ كتاب «مراتب النحويين»(٣) .

أما من حيث تنظيم المادة التاريخية فإننا نلاحظ مدى هذا التطور ومظاهره فى إقليم الشام خلال القرن الرابع ، من إضافة طرق وتنظيمات إضافية جديدة ، تبعاً للحاجات التى كانت تظهر فى إطار التاريخ الإسلامى ، ولعلنا نستطيع أن نرصد هذه التطورات التنظيمية فى النقاط التالية :

١ ـ **فى التاريخ العام** : نلاحظ أن القرن الرابع لم ينتج لنا غير تاريخ واحد عام فى الشام وهو كتاب « البدء والتاريخ » للمطهر بن طاهر المقدسى ت٣٥٥هـ(٤) حيث نظم كتابه على النحو التالى :

نظر المقدسى نظرة فلسفية ، إذ أنه خصص ربع الكتاب الأول لبحث نظرى

---

(١) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٣٣٦/٢ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢٥/٥ ، ٤١/٦ .

(٣) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٣٣٤/٢، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤٢/٢ .

(٤) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٨٩٠/٣ ـ ٨٩٠ .

فلسفى فى العقل والمعرفة ، والله ـ عز وجل ـ والملائكة والسماء والأرض والتاريخ والزمن ليصل بعد ذلك إلى الخليقة ، ثم خصص الربع الثانى لذكر الفتن والكوائن حتى قيام الساعة والأنبياء والأديان ، ثم أقسام الأرض الجغرافية ، ثم يدخل فى النصف الثانى من الكتاب فى تاريخ الرسالة المحمدية وما تلاها .. ونجده بعكس التواريخ الأخرى يزداد اختصاراً مع التقدم فى الكتاب نحو عصره ويختصر أخبار الخلفاء العباسيين كل الاختصار حتى عهده . لقد ربط المقدسى التاريخ بالحياة والكون عن طريق الفلسفة .

٢ ـ فى المختصرات للتواريخ العامة : طرق مؤرخو القرن الرابع باب اختصار التواريخ الكبيرة العامة ، وذلك لمن أراد أن يعرف الأخبار على عجالة دون تطويل ، وللتخلص من المجلدات الواسعة ، ولكن هذه الأمثلة لم أحصل عليها ضمن مؤلفات مؤرخى الشام وإننى لم أجد للشام خلال القرن الرابع تاريخًا عامًا سوى « البدء والتاريخ » للمقدسى ولم أجد ـ على قدر علمى ـ أحداً اختصره .

٣ ـ كما تطور المنهج التاريخى فى كتب تراجم الرجال فجاء تنظيم التراجم معتمداً على سنى الوفيات فى تتابع الترجمة ، فقد كتب محمد بن عبد الله الربعى الدمشقى ت٣٧٩هـ كتاب « وفيات النقلة على السنين »[١] .

وفى الوقت الذى استمر فيه هذا النوع من الكتب فى وفيات الشيوخ فقد توسع مؤلفون آخرون فى مفهوم الوفيات فعمموه فى التراجم وكان من ذلك خاصة سلسلة من المؤلفين توالى بعضهم وراء بعض يكملون العمل مثل : أبو محمد عبد الله بن أحمد الربعى البغدادى الدمشقى ت٣٧٩هـ الذى كتب كتابه « فى الوفيات » من تاريخ الهجرة وانتهى به إلى سنة ٣٣٨هـ فكان كتاب وفيات على السنين[٢] ، ثم جاء على كتاب الربعى هذا سلسلة من الذيول استمرت أكثر من أربعة قرون[٣] .

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ٤١/٦ .

(٢) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٤٢٧/٣ .

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٤٢٦/١ .

وبعد كتب التراجم اعتمد النظام المعجمى والأبجدى ، وكان هذا تطور هام نحو الموسوعية والتنظيم فى مؤلفات الشام التاريخية خلال القرن الرابع الهجرى مثل :

المعجم الأوسط ، والمعجم الصغير لسليمان بن أحمد بن أيوب ت٣٦٠هـ، وكان رحالة حافظاً جمع شيوخه وكانوا ألف شيخ فى معجميه(١) .

والمعجم فى تراجم شيوخ أبى الحسن محمد بن جميع الصيداوى ت٤٠٢هـ قد كتبه عن شيوخه الذين أجازوه وأخذ عنهم(٢) .

وهناك معاجم للصحابة كتبها مؤرخو الشام فى القرن الرابع من بينهم : أبو القاسم الطبرانى كتب كتابه « المعجم الكبير فى أسماء الصحابة ».

وأبو حفص بن شاهين ت٣٨٥هـ وهو مشترك بين الشام والعراق لكثرة وجوده فى كل منهما وقد كتب فى تاريخ الصحابة أيضاً(٣) .

كما ظهر من بين المؤلفات فى القرن الرابع أيضاً كتباً سميت بكتب المشتبه من الأسماء أو الكنى أو الألقاب المتقاربة تحت اسم « المؤتلف والمختف » أو « المتفق والمفترق »، فمن بين هؤلاء فى الشام لم أجد أحداً على قدر جهدى فى البحث .

ملامح الكتابة ومظاهر تطورها فى العراق :

منذ مطالع القرن الرابع الهجرى بدأ علم التاريخ مسيرته العلمية المستقلة لحّد كبير مسجلا طوراً خاصًا جديداً فى تلك المسيرة ، ومتأثراً دون شك بنمو العلوم الأخرى واتساع نطاق الحضارة المادية وانتشار الورق .

كما أننا نستطيع أن نرى تطوراً ملحوظاً فى كثرة المادة التاريخية وتأثرها بالنمو الحضارى وبحاجة السياسة والإدارة ، وبنمو العلوم الأخرى والتمزق السياسى .

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٠٣/١٠ .

(٢) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٩٦/٣ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢٥/٥ ، ٦٢٣ ، وله ترجمة فى مختصر ابن عساكر لابن منظور ٢٤٨/١٢ .

لقد تحددت ملامح الكتابة التاريخية فى العراق خلال القرن الرابع الهجرى ، حيث أن التاريخ كعلم قد بلغ سنّ الرشد بمادته واسمه ومناهجه ورجاله فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وكانت البواكير الأولى من مؤلفاته قد ظهرت منذ أواسط القرن الثانى ، أما ملامحه التى نحن بصدى الحديث عنها خلال القرن الرابع الهجرى فهى :

استخدام السّند :

استعمل كثير من مؤرخى العراق الإسناد فى كتب التاريخ نتيجة لتأثرهم بمنهج المحدثين فى التزام الإسناد فى نطاق الحديث ، وأصبحت الأسانيد عند المؤرخين تتقدم الروايات التاريخية والأدبية ، وخير مثال على ذلك ، محمد بن جرير الطبرى ت٣١٠هـ وابن أعثم الكوفى ت٣١٤هـ ، إلا أنه كان يستغنى عن السند فى صلب الكتاب ولكنه يجمعها عند مقدمته فى سلاسل ، ويجعلها المصدر الإجمالى لما يرويه فى كتابه « الفتوح » ، أما المسعودى ت٣٤٥هـ فقد كان يجمع بدل الإسناد أسماء الكتب التى اعتمد عليها ويضعها فى مطلع كتابه .

وحقيقة فإن استخدام المؤرخين للإسناد والتزامهم به يعدّ مسألة مهمة ورائعة تستحق التقدير والإعجاب ، لأنها تكشف عن مدى تأثر المؤرخين بالمحدثين من جانب وتعكس الأمانة العلمية من جانب آخر ، والصدق والتواضع عند المؤرخين الرواد الذين عاصروا الأحداث التاريخية ، كما أنها تظهر اتساع نطاق التدوين التاريخى فى العراق من خلال تشعب وتعدد مصادر الروايات التاريخية(١) .

استخدام النقد للموارد :

إن مما يميز مؤرخى العراق استخدام النقد للموارد وترجيح بعضها على بعض ، وخاصة مؤرخى البصرة الكوفة ، فقد كان لهم أثر كبير فى تقوية ملكة النقد التاريخى عند الإخباريين والرواة ، وهذا يدل على رجاحة العقلية التاريخية ، وعلوّ ملكة النقد

---

(١) انظر حضارة العراق للدكتور محمد جاسم المشهدانى ١٥٠/٨ .

التاريخى عند بعض مؤرخى العراق ، فى الوقت الذى كان يعْوِزُ مؤرخو العرب روح النقد على العموم ، فى حين نجد مؤرخين قليلين بلغوا درجة عالية من تلك الروح المسيطرة كالطبرى والمسعودى »[1] .

وما يخص الطبرى فى هذه النقطة يرد هو عليها حيث أنه ساق الأخبار دون تمحيص فيقول : وليعلم الناظر فى كتابنا هذا ـ أى التاريخ ـ أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره فيه ، إنما هو على ما رويتُ من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه ، والآثار التى أنا سندها إلى روايتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس[2] .

فالطبرى يروى عن الحادثة الواحدة آراء كثيرة فيها ، ولكنه كان ذا رأى ناضج ، فهو يستطيع أن يرجح بعض الآراء على بعض ولكنه لم يفعل إلا اليسير منه ، وقد غلبت على الطبرى طريقة المحدثين فى أن يروى الخبر عن جملة من الرواة ويترك للقارئ اختيار أحسن الآراء . أما المسعودى فقد كان ذا منحى آخر يغاير الطبرى ، ولكلٍ فضل .

ويدل كتابه « مروج الذهب » على معرفة واسعة باللغة والعادات والتقاليد والأدب والأخلاق والسياسة ، ويمتاز بالتفاته الكثير إلى الأمور الاجتماعية كبحثه فى ديانات العرب وآرائها ، فى الكيمياء والهواتف والقيان والزجر ، ومقارنته بين العجم والعرب[3] .

استخدام كل من السجع والشعر فى الكتابة التاريخية :

شعَر بعض المؤرخين العراقيين أن من واجبهم استخدام مواهبهم فى أساليب السجع التى كانت شائعة عند كتّاب الديوان ، مما جعل السجع يسيطر عل الكتابة

---

(١) حضارة العرب غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص٤٥٣ .

(٢) تاريخ الطبرى لأبى جعفر الطبرى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٧/١ ، ٨ .

(٣) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٢٠٦/٢ ـ ٢٠٧ .

التاريخية خلال التراجم التي كانوا يكتبونها وهي متجاوزة الحد في المدح لأسيادهم ، وكثيراً ما يتجلى في أسلوب السجع الابتعاد عن الحقائق والدقة ، حيث أنه لم يكن له دور في تعميق الفهم التاريخي(١) .

وقد كان هلال بن إبراهيم الصابئ ت٣٨٤هـ يملك الكتابة التاريخية المسجوعة إلى أقصى حدّ واستخدمها في كتابه « التاج » الذي مدح به عضد الدولة والبويهيين.

لقد كان استعمال السجع واستمرار استخدامه مصدر عيب خطير للكتاب غير الموهوبين(٢) .

أما الوسيلة التقليدية في التعبير الشعري بمقدورها القيام بتحويل التاريخ إلى شعر، فالتواريخ الشعرية التي كتبت بين القرنين الثالث والرابع يبدو أنها احتفظت عادة ببعض الوقار الذي رفعها فوق مستوى تمارين الذاكرة ، وقيل أنها لا تزيد في ذلك على حكميات حكماء الماضي ، وكثيراً ما كانت الحوادث المعاصرة المهمة مادة للشعراء ، فالأحداث العسكرية قد تستثير الشاعر للنظم عندما يأمل بجائزة مادية . ومنهم من لا ينظر عند بحثه للحوادث إلى أهميتها التاريخية(٣) .

فقد كان أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي ت٣٩٣هـ وهو من أشعر أهل العراق يدبج القصائد في مدح عضد الدولة(٤)، وهو من المؤرخين الشعراء له « تاريخ ولاة خراسان »(٥)، وكثيراً ما نجد في الشعر السياسي عند كثير من شعراء العراق تصوير اللون السياسي من أحوال الدولة خلال القرن الرابع الهجري ، ممزوجًا بمدح الأمراء أو القادة بالشجاعة وقوة الشكيمة والمقدرة القتالية مع دخول بعض المبالغات(٦) .

---

(١) علم التأريخ عند المسلمين لروزنثال ترجمة الدكتور صالح العلي ص٢٤٢ ، ٢٤٥ .

(٢) التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية لرضا كحالة ص٩١ ، وعلم التأريخ عند المسلمين لروزنثال ترجمة الدكتور صالح العلي ص٢٤٤ .

(٣) التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية لرضا كحالة ص٩٥ ، وعلم التأريخ عند المسلمين لروزنثال ترجمة الدكتور صالح العلي ،٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

(٤) يتيمة الدهر للثعالبي ٤٦٦/٢ ـ ٥٠٥ .

(٥) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٤٥٨/٣ .

(٦) حضارة العراق للدكتور قحطان رشيد صالح ٣٧٤/٧ ـ ٣٧٥ .

وكان على بن إسحاق بن خلف الزاهى ت٣٦٠هـ أكثر مقامه ببغداد ، حيث كان يتغنى بمدائح العباسيين والوزير المهلبى[1] ونظم قصائد مدح فى أهل البيت خاصة ، ومدح بعض أعيان عصره[2] .

تطور المادة التاريخية بالعراق :

تطورت المادة التاريخية بإقليم العراق خاصة فى القرن الرابع الهجرى ، ونلحظ هذا التطور وملامحه فى كثرة المادة التاريخية وتنوعها ، ومدى تأثرها بالنمو الحضارى ، وبحاجات السياسة والإدارة ، وبنمو العلوم الأخرى ، وبالتمزق السياسى وظهور أنواع من تواريخ المدن والأسر والسير والمذكرات والقصص .

** تتمثل كثرة المادة التاريخية بالعراق فى عدد المؤلفات والوفرة فى كمية المادة التى تدوّن ، وفى تنوعها مما جعل المؤلفات التاريخية تتضخم خلال القرن الرابع بخلاف ما كانت عليه فى القرون السابقة ، قد أتى أبو جعفر الطبرى ت٣١٠هـ الذى أنهى كتابه « تاريخ الرسل والملوك » فى سنة ٣٠٢هـ فى أوائل القرن الرابع الهجرى فيكرس تقليداً جديداً استمر بعده ، حيث جعل كتب التاريخ فى عدة ألوف من الأوراق وعدة أجزاء ضخمة ، وقد كان كتابه فى تاريخ العالم منذ بدء الخلق إلى عصره[3] ، وقد نشر أكثر من مرة[4] .

كما كتب المسعودى فى القرن الرابع الهجرى أيضًا كتاب أخبار الزمان فى ثلاثين مجلداً ، ثم اختصره فى أربع مجلدات هى « مروج الذهب »[5] ولم يقتصر هذا التضخم على كتب التواريخ العالمية الجامعة ، ولكنه قد يصيب أحياناً كتب تواريخ المدن أو الأسر والنسب والتراجم .

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور / عبد الحليم النجار ٩٦/٢ .

(٢) تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ترجمة الدكتور محمود فهمى حجازى ١٧٩/٤/٢ ـ ١٨٠ .

(٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور / عبد الحليم النجار ٤٥/٣ ـ ٤٦ .

(٤) من أشهر طبعاته دار المعارف فى عشرة أجزاء دون الذيول بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور/ عبد الحليم النجار ٥٧/٣ ـ ٥٨ .

** كما تضخمت المؤلفات تنوعت المعلومات التاريخية ، وتعددت المواضيع المطروقة التعدد الواسع ، لذلك شعر الناس بارتباط التاريخ مع العلوم والمعارف الأخرى فأطلوا بها عليه ، بينما دخل التاريخ الحضارى على أبحاث التاريخ الإسلامى فتأثر التاريخ بحاجات التنظيم السياسى وبمختلف أنواع العلوم المجاورة له ، ومن ذلك تكونت له ثروة من المعلومات .

عندما بلغ المجتمع العراقى فى القرن الرابع الهجرى أوج تطوره الحضارى انعكس ذلك على الجانب الفكرى وعلى الكتب التى أُلفت فى نطاق التاريخ ، من هذه الكتب :

القصص التاريخي الذى غرضه الأسمار والتثقيف والوعظ والتبسيط وكتب اللهو والضحك ، وقد ذكر ابن النديم قول محمد بن إسحاق : « كانت الأسمار والخرافات مرغوبًا فيها ومشتهاه فى أيام خلفاء بنى العباس ولا سيما فى أيام المقتدر (٢٩٥ـ٣٢٠هـ) فصنف الورّاقون وكذبوا ، وابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب « الوزراء » بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم[(١)] .

ولم تكن الكتب المتعلقة بالغناء والطرب بأقل من ذلك انتشاراً وإثارة للاهتمام ، لذلك فإن المؤلفات فى الغناء وتاريخه وفى الطرب والخمر والشراب كثيرة ومن ذلك :

« كتاب الأغانى » ليحيى بن أبى منصور الموصلى الذى عمله على الحروف الأبجدية ، وكتاب « العود والملاهى » له أيضًا ، وقد كانت كتبه واسعة الانتشار فى القرن الرابع الهجرى .

وكتب ابن المرزبان أبو عبد الله محمد بن خلف ت٣٠٩هـ وكان حافظا للأخبار والأشعار والملح ، وله كتاب «الجلساء والندماء» ، وكتاب « النساء والغزل » وكتاب « ذم الثقلاء » وغيرها . وكتب الكسروى على بن مهدى ، وكان أديباً حافظاً متصلاً بحاشية الخلفاء العباسيين فى القرن الرابع ، ومن كتبه : كتاب « الأعيار

---

(١) الفهرست لابن النديم ص٤٢٢ ـ ٤٢٣ .

والنواريز»، وكتاب « مراسلات الإخوان ومجايات الخلان » وغير تلك الكتب كثير[1].

وكذلك كتب الديارات التى تدخل فى باب الكتب التاريخية الحضارية التى كانت تجمع أخبار الغناء واللهو والخمر والندامى والأعياد وكانت مادة من مواد التأليف التاريخى الأثيرة إلى الكثيرين فمن هذه الكتب : كتاب الديرة للسرى الوفاء الموصلى ت٣٦٢هـ، وكتاب الديارات لأبى الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتى ت٣٨٨ أو ٣٩٠هـ[2].

ويدخل فى باب التاريخ الحضارى ما كتب المؤلفون حول أخبار الهدايا والتحف وهو موضوع راج الرواج الكبير فى العراق خلال القرن الرابع ومن المؤلفات فى ذلك : كتاب الهدايا لأبى بكر بن المرزبان[3].

كما يدخل فى باب التاريخ الحضارى ما كتب من أخبار الفروسية والحرب والسلاح والخيل وطرق القتال .

ويدخل أيضاً فى باب التاريخ ما كان له أثر واضح فى تطوير المادة التاريخية ، وهو حاجات التنظيم السياسى والإدارة لتوطيد المؤسسات التى تقوم عليها الدولة ولتعليم الأجيال اللاحقة تجارب من سبقوهم من خلال الكتب التى تتحدث عن الوزراء والحجاب والكُتاب والقضاة والولاة والشّرط وكتب الخراج والحسبة ، ونصيب العراق فى هذا الباب كبير وملموس من خلال كثرة المؤلفات بخلاف إقليم الشام فمن بين هذه المؤلفات : كتاب « مناقب الوزراء » لأبى الحسن على بن الفتح ت٣١٩هـ وكتاب « الوزراء » لإبراهيم بن محمد بن نفطويه ت٣٢٣هـ[4]. وكتاب « أخبار الوزراء إلى آخر أيام الراضى بالله » لأبى الحسن على بن الحسن الملقب بابن المشاطة ت٣١٠هـ، وله كتاب « الخراج » أيضاً[5]. وكتاب « أخبار القضاة والشعراء » لأبى

---

(١) الفهرست لابن النديم ص٢١٣ ـ ٢١٤ .

(٢) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٧٥٤/١ ، ٥٠٦/٢ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص٢١٣ .

(٤) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٦٧/١ .

(٥) مروج الذهب للمسعودى ٩/١ .

بكر أحمد بن كامل الشجرى ت٣٥٠هـ. وكتاب « الكتّاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء » لعليّ بن عيسى بن داود الوزير ت٣٣٤هـ . وكتاب « الخراج » لقدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ت٣٣٧هـ. وكتاب « سيرة أهل الخراج وأخبارهم وأنسابهم فى القديم والحديث »(١).

** ساد القرن الرابع حركة علمية كان لها أكبر الأثر فى حياة البشر ، ولم يكن التاريخ بمعزل عنها ، فكان لا بد لنمو الفلسفة والمنطق وتطور الفكر الجغرافى وتفوق الكثيرين فى الفلك ، ووجود تأثير وتأثر على الفكر التاريخى وعلى طرق التدوين ، كان من شأن انتشار علم الفلك والنجوم أن استخدمت الأزياج والعلوم الفلكية فى تأريخ الأحداث وتحديد أوقاتها وأحياناً فى تعليلها .

كما أننا نجد كثيراً من التحديدات الفلكية للأحداث بالأبراج وغيرها لدى أبى الحسن المسعودى فى كتبه التاريخية(٢).

كما استخدمت معطيات الفلسفة والمنطق وعلم السياسة وعلم الكلام فى بعض الكتب التاريخية وعلى مستويات مختلفة ، تدل كثرتها على تلك الصلة الواشجة ما بين الفكرين الفلسفى والتاريخى ، فقد شهد القرن الرابع الهجرى بإقليم العراق محاولات للمزاوجة بين التاريخ والفلسفة فى نظام فكرى متكامل ، وذلك واضح فى محاولة الخوارزمى فى كتابه « مفاتيح العلوم ، ومحاولات إخوان الصفا فى رسالتهم ». أما المسعودى بث قراءاته الفلسفية ومعلوماته الواسعة فى الإلهيات والطبيعيات والمنطق وما وراء الطبيعة وعلم الكلام وعلم الأديان ، فى ثنايا كتبه « كمروج الذهب » و « التنبيه والإشراف »(٣).

لقد ظهر فى التراث الإسلامى من الآيات والأحاديث والأمثال العربية والشعر

---

(١) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٦٥٧/٢ ، والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٣١٨/١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ .

(٢) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٣٢٧/١ .

(٣) علم التأريخ عند المسلمين فرانز روزنثال ترجمة الدكتور صالح العلى ص١٥٢ ، ١٥٣ ، والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٣٢٨/١ ، ٣٢٩

معيناً لا ينضب من الحكم والمواعظ ، وأكثر المواضيع الفلسفية التى تعاونت عليها الأقلام فى البحث التاريخى هى تلك التى تتصل بجذور دينية ، ولا يكاد يخلو مؤلف فى التاريخ من الاستشهاد بآية أو حديث أو مثل أو بيت شعر أو قول من أقوال الحكماء يدعم به أخباره[١] .

وفى شئون السياسة كتبت سلسلة من الكتب الفكرية السياسية ذات جذور ومستند من التاريخ الإسلامى والأحداث التى مرت به وبغيره ، تهدف إلى هداية الملوك والأمراء ، ككتاب أبى زيد البلخى أحمد بن سهل ت٣٢٢هـ وهو كتاب « السياسة الكبير » وكتاب « السياسة الصغير »[٢] .

ثم انفرد موضوع الإمامة بكتبه عن علم السياسة ، وكتب فيه كثير من المؤرخين مثل :

المسعودى ت ٣٤٦هـ له كتاب « الاستبصار فى الإمامة والصفوة فى الإمامة » ، ولأبى الحسين الملقى ت٣٧٧هـ كتاب « التبيه والرد على أهل الأهواء والبدع » .

كما تأثر التاريخ بنمو الجغرافيا وتكاثر رحلات الناس ، ولعل المسعودى أبرز من تمثل فيه التأثر بالجغرافيا من المؤرخين فى كتابيه « مروج الذهب » و «التنبيه والإشراف»[٣] .

** لقد تأثر التاريخ بسبب التمزق السياسى الذى لحق بالدولة الإسلامية كلها مما جعل فقدان الوحدة السياسية أمر واقع ، وسمح للقوى المحلية فى أنحاء الخلافة العباسية بأن تنمو وتملأ حدودها الخاصة ، مما جعل التواريخ المحلية ترافق هذا التمزق ، كل ذلك جعل التواريخ العالمية التى تمثلت فى تاريخ الطبرى والمسعودى لا تتكرر ، وضعف مفهومها ، وغابت عن التأليف التاريخى ، فلم تعد تظهر هذه التواريخ ، وإن ظهرت ففيها الخصوصية وعناوينها تكشف مفاهيم التفرق ، وتكون مقصورة على

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ١/ ٣٣٠ .

(٢) معجم المؤلفين لرضا كحالة ١/ ١٤٩ .

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ١/ ٣٤٠ ـ ٣٤٤ .

الخلفاء أو محددة باسم العباسيين ، أو تأخذ العناوين ملامح التمزق وذلك على النحو التالى : مثل كتاب « سير الخلفاء » لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى ت٣١١هـ[١]. «وتاريخ بنى العباس» لسمكة أحمد بن إسماعيل بن عبد الله البجلى ت٣٣٠هـ. وكتاب «زهر الربيع فى الأخبار والتاريخ» لقدامة ابن جعفر ت٣٣٧هـ، وكتاب «الأوراق» وكتاب « الأخبار المنثورة » لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ت٣٣٥هـ.

ومقابل هذا التراخى فى الاهتمام بالتواريخ العامة ، ظهرت التواريخ الإقليمية والمحلية وتواريخ المدن ، فأخذت العناوين المحلية أو عناوين المدن أو اختصت بأسر أو بأشخاص واختلاف الكتب التى تنفرد بحدث خاص أو واقعة سياسية محدودة ، وهكذا كانت أعداداً محدودة تلك الكتب التى تتحدث مثلا عن نكبة البرامكة مثل : أبو حفص عمر بن الأزرق من القرن الرابع وكتابه « أخبار البرامكة » وكان أحد مصادر ابن العديم فى كتابه بغية الطلب وقد نقل عنه[٢].

لقد اقتصرت تواريخ المدرسة العباسية التى مركزها العراق منذ القرن الرابع على المناطق العراقية خاصة مما جعلها مدرسة إقليمية كبرى تاريخها للأقاليم والمدن وبعض للأسر وبعض لسير الأشخاص أو للتراجم وذلك على النحو التالى : مثل كتاب « تاريخ الدولة البويهية » لإبراهيم بن هلال بن زهرون أبو إسحاق ت٣٨٤هـ[٣]، وكتاب «تاريخ بغداد» الذى استكمله أبو الحسن عبيد الله بن أحمد بن أبى طاهر ، و « تاريخ الموصل » لأبى زكريا الأزدى ت٣٣٤هـ[٤].

وكما انتشرت تواريخ المدن والأقاليم ، انتشرت أيضًا تواريخ الأسر ، ومن المؤلفين فى الأسر : أبو إسحاق الصابئ ت٣٨٤هـ فكتب تاريخًا حول الأسرة البويهية بطلب من عضد الدولة البويهى . وكتب أبو الفرج الأصفهانى ت٣٥٦هـ ـ عدا مقاتل الطالبين ـ حول نسب بنى شيبان ، ونسب المهالبة (بنى المهلب لانقطاع الأصبهانى إلى الوزير المهلبى)[٥].

---

(١) مروج الذهب للمسعودى شرح وتقديم الدكتور مفيد قميحة ٨/١ .

(٢) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٣٥٠/١ ـ ٣٥١ ، ٣٥٦ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ٩/٥ .

(٤) التاريخ والجغرافية فى العصور الإسلامية لرضا كحالة ص٨٠ .

(٥) معجم الأدباء لياقوت ١٨٢/١ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٠٨/٣ .

مظاهر تطور الكتابة التاريخية بالعراق :

إن مظاهر هذا التطور تظهر واضحة من خلال تدوين المادة التاريخية وتنظيمها لذلك نستطيع أن نسجل تلك المظاهر على النحو التالى :

١ ـ سقوط الإسناد تدوينا وقيمة توثيقية ، مما جعل الصلة بين التاريخ وعلم الحديث تنقطع ، وأعلن التاريخ بهذا الشكل استقلاله بمنهجه الخاص ، وذلك بسبب انتشار الورق ، والرغبة فى الاختصار ، لذلك وُجد فى القرن الرابع آخر من يمثل الطريقة الحديثية فى التصنيف التاريخي وهو أبو جعفر الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ، ورغم أن المسعودى جاء بعده مباشرة إلا أنه اشتهر بطريقة الكتابة اللاسندية .

٢ ـ من تلك المظاهر ، تزايد الاعتماد على الوثائق الرسمية التى كانت نصوص المعاهدات أو الرسائل والخطب وغيرها خلال القرن الرابع ، وقد دخلت صلب الكتب التاريخية التى ألفها أبو بكر الصولي والصابئ ، وظهرت واضحة عند التنوخى ت٣٨٤هـ فقد ظهرت فى كتابه « نشوار المحاضرة » ولم يكتف بذكر رسائل وخطب أهل العراق بل حوى كتابه رسائل وخطب علماء أقاليم أخرى ، فمثلا حوى رسالة أبو الفرج الببغاء وهو من أقرب الأدباء إلى قلب سيف الدولة . فقد كتبها على لسان سيف الدولة[1] .

وقد استعملها أيضًا إبراهيم الصابئ فى كتابه « التاجى فى تاريخ بنى بويه »، وذلك بحكم عمله وقربه منها ، وسهولة الحصول عليها .

٣ ـ التأثر بالعلوم الأخرى حيث تركت العلوم المختلفة أثرها فى التاريخ ، خلال القرن الرابع فى العراق ، فلقد سجل المؤلفون تطور الثقافة الإسلامية على اختلاف فروعها من خلال التأريخ لرجالها والتسجيل لآثارهم العلمية ، وارتبط التاريخ الإسلامى برجال العلم الذين ظهروا فيه ، وانهالت على التاريخ من هذا الباب كتب متتالية تحفظ ذكر الرجال وتسجيل مسائلهم ودقائق الحياة الفكرية والاجتماعية لعصرهم ،

---

(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخى أبى على المحسن بن على التنوخى ت٣٨٤هـ ٢٩٦/٢ طبعة هندية سنة ١٩٢١م .

فهناك الكتب التاريخية التى تجمع تراجم رجال الحديث وبعضها اسم الرواة وبعضها اسم الشيوخ ، وبعضها اسم المعاجم ، وبعضها اسم الرجال ، وبعضها المؤتلف والمختلف، وبعضها اسم الكنى والألقاب والأمثلة على ذلك، كثيرة فعلى سبيل المثال :

على بن عمر الدارقطنى ت٣٨٥هـ له كتاب « المؤتلف والمختلف»[١] ، وعبد الله بن محمد البغوى ت٣١٧هـ له كتاب « المعجم الكبير والمعجم الصغير»[٢] ، وسعيد بن عثمان بن السكن البغدادى ت٣٥٣هـ له كتاب « المعجم الكبير والصغير والأوسط»[٣] .

وإذا تجاوزنا علم الحديث على العلوم الأخرى وجدنا مؤلفات كثيرة فى ذلك وإن كانت فى الحقيقة محدودة حول الأطباء والحكماء والقراء والنحويين والشعراء والأدباء وغيرهم . مثل أبى بكر محمد بن زكريا الرازى ت٣١٣هـ صاحب « كتاب سيرة الحكماء» . وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه ت٣٣٠هـ صاحب كتاب «أخبار النحويين»[٤] ، وكتب أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانى ت٣٧٨هـ «أخبار الشعراء ، ومعجم الشعراء، وأخبار المتكلمين ، وأخبار النحويين»[٥] .

أما من حيث تنظيم المادة التاريخية فإن مظاهر هذا التنظيم أمر واضح فى إقليم العراق خلال القرن الرابع ، وذلك من خلال طرق وتنظيمات إضافية جديدة ، تبعًا للحاجات التى كانت تظهر فى إطار التاريخ الإسلامى . وإنه من الممكن أن نرصد هذه التطورات التنظيمية فى النقاط التالية :

١ ـ **فى التاريخ العام** : ظهر فى القرن الرابع وبين أيدينا من التواريخ العامة ، تاريخ الطبرى وخلال القرن الرابع ظهر المسعودى صاحب سلسلة التواريخ الخصبة ، فإذا ما أخذنا كتاب « مروج الذهب » للمسعودى وجدناه يخصص نصف الكتاب

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٤٨/٥ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص٣٢٥ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٩٧/٢ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٥/٣ ، والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٣٨٨/١ .

(٥) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٥٦٩/٣ .

تقريباً لتاريخ ما قبل الإسلام من الأمم ، بادئاً من قصة خلق العالم ماراً عبر بنى إسرائيل إلى ذكر أهل الفترة من الموحدين ممن كان بين المسيح وسيدنا محمد ﷺ ، ويذكر جملاً من أخبار الهند الثقافية والدينية ، ثم يعطف إلى وصف طبيعة الأرض وظواهرها الجغرافية من بحار وأنهار كبار وجبال ، ثم يذكر ملوك الصين والترك وأخبار الأمم السابقة ، ثم ملوك السريان والآشوريين والكلدانيين وملوك الفرس الساسانية ثم اليونان فالروم ، ثم ينتقل إلى مصر فيذكر أخبار نيلها وملوكها والاسكندرية ، ثم السودان وأجناسهم وملوكهم ، ثم الصقالبة ثم الفرنجة والجلالقة ، ثم أخبار عاد وثمود وجرهم فى مكة وملوك اليمن والحيرة وغسان وتاريخ العرب الثقافى فى الجاهلية ، ثم يقف وقفة واسعة عند أسس التاريخ والتقدم عند الأمم المختلفة قبل أن يصل إلى البعثة النبوية ، فيوجز السيرة ثم ينتقل إلى الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين حتى سنة ٣٣٥هـ سنة تأليف الكتاب . فإن مفهومه للتاريخ العالمى هو أوسع المفاهيم حتى عهده .

وعلى أى حال فإن ذلك الازدهار فى النظرات التاريخية العامة والعالمية التى تبنت فى ذلك الجو الثقافى الخصيب من القرن الرابع لم يكن لها غد ، فقد رسم المسعودى الخط الموسوعى فى التاريخ .

٢ ـ **فى المختصرات للتواريخ العامة** : وهذا الباب طرقه المؤرخون لمن يريد المعلومات السريعة المكثفة ، أو يعرف الأخبار على عجالة ، دون التطويل ، وللتخلص من المجلدات الواسعة ، وذلك واضح فى كتاب : « التاريخ الباهلى » لأبى الحسن محمد بن محمد الباهلى ت٣٢١هـ[١] ، و « تاريخ نفطويه » لقدامة بن جعفر ت٣٣٧هـ يقول فيه المسعودى أنه « حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجز الألفاظ مقرّب للمعانى »[٢] .

٣ ـ كما تطور المنهج التاريخى فى كتب التراجم أيضًا فجاءت كتب الرجال معتمدة على سنى الوفيات مثل كتاب ابن عقدة أحمد بن محمد ت٣٣٢هـ، وكتاب ابن الفرات أبو الحسن محمد بن العباس ت٣٣٢هـ[٣] .

---

(١) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٦٥١/٣ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى شرح وتقديم الدكتور مفيد قميحة ٩/١ ، ١٠ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٢/٥ .

٤ ـ لقد ظهرت فروع عديدة للمعاجم البيوغرافية فى التأليف وكلها وإن كانت على الحروف الأبجدية إلا أن مبدأ الاختيار بها هو الذى كان يختلف ، ويختلف معه بالتالى نوع التأليف ، من هذه المعاجم معاجم الصحابة وكتب فيها :

سعيد بن عثمان بن السكن ت٣٥٣هـ، وأبو حفص بن شاهين ت٣٨٥هـ[(١)].

ثم ظهرت الكتب التى تتحدث عن المؤتلف والمختلف والمتفق والمفترق وكتب فيها :

على بن عمر الدارقطنى ت٣٨٥هـ[(٢)]، والحسن بن بشر الآمدى ت٣٧٠هـ[(٣)].

تعقيب :

لقد تحددت ملامح الكتابة التاريخية فى كل من الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجرى وظهرت بثوب جديد بخلاف ما كانت عليه فى القرن الثالث الهجرى .

ينفرد مؤرخو العراق فى استخدام السند فى كتب التاريخ خاصة فى أوائل القرن الرابع الهجرى نتيجة تأثيرهم بمنهج المحدثين فى إلتزام الإسناد سواء فى أوائل الروايات التاريخية والأدبية ، كما فعل محمد بن جرير الطبرى ، أو يجمع السند فى مقدمة الكتاب كما فعل ابن أعثم الكوفى .

أما مؤرخو الشام فقد لزموا الطريقة اللاسندية ، بل يجمع المؤلف المصادر التى جمع منها كتابه ويذكرها فى أول الكتاب ، أو يعزو كل خبر إلى المؤلف أو الكتاب الذى أخذ عنه ، كما فعل المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم . ويتفق فى هذه النقطة ـ نقطة جمع المصادر ـ مؤرخو العراق والشام فقد جمع المسعودى مصادر كتابه «مروج الذهب» فى مطلع كتابه .

يميز مؤرخو الشام ومؤرخو العراق نقدهم للموارد التى يستقون منها مادتهم ،

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ٦٢٣/٥ ، والإعلان بالتوبيخ للسخاوى ١٧٢ .

(٢) تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ترجمة الدكتور محمود فهمى حجازى ٤١٩/١/١ ـ ٤٢٤ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ٤٧٤/٢ .

وترجيح بعضها على بعض ، ويمثل ذلك من مؤرخى الشام المقدسى صاحب «أحسن التقاسيم»، ويمثل مؤرخى العراق فى هذه النقطة أيضًا المسعودى . فكان ذا رأى ناضج، ولديه القدرة على الترجيح بين الآراء ، والقدرة على النقد والتمحيص .

استخدم مؤرخو الشام والعراق السجع مما جعله يسيطر على كثير من الكتابة التاريخية خلال القرن الرابع الهجرى . وهذا لم يكن أسلوبًا ملائمًا لبحث التاريخ بصورة حقة .

أما ظاهرة استخدام الشعر فكثيراً ما يجد الشاعر الشامى والشاعر العراقى المادة التى ينظم منها شعره هى الأحداث التاريخية ، وجعل بعض الأحداث موضوعًا لقصائد هجائية ، وهذه الأشعار لم تكن تاريخًا بأى شكل كان ، سواء فى الهجاء أو المدح أو غيرهما .

اتفق كل من إقليمى الشام والعراق فى تطور المادة التاريخية بهما ، وأصبح هذا التطور خلال القرن الرابع الهجرى ظاهرة جلية ، فى كثرة المادة وتنوعها ومدى تأثرها بالنمو الحضارى ، وبحاجات السياسة والإدارة ، وبنمو العلوم الأخرى ، وبظهور أنواع من تواريخ المدن والأسر والسير .

يتفق كل من الشام والعراق فى وفرة المادة التى تدوّن وتنوعها ، وتتسم مؤلفات كل منهما بالتضخم خلال القرن الرابع الهجرى وبخلاف ما كانت عليه فى القرون السابقة ، ولكن مؤلفات العراق الضخمة كثيرة ومؤلفات الشام نادرة ، فقد كتب المقدسى صاحب البدء والتاريخ كتابه فى ستة أجزاء بينما كتب الطبرى تاريخه فى عدة ألوف من الأوراق بلغت ما يزيد على عشرة أجزاء وكذلك المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » وغيره كأخبار الزمان فى ثلاثين مجلداً .

تتفق المؤلفات التاريخية فى كل من الشام والعراق فى تنوع المعلومات التاريخية وتعدد الموضوعات المطروقة ، وشعور الناس فى كل منهما بأن كل شىء يستحق أن يسجل ، وأن الحياة السياسية أصبحت تراثًا ، كما شعروا بارتباط التاريخ مع العلوم والمعارف الأخرى فكثرت الكتب المؤلفة المتنوعة المعلومات المتعلقة بالقصص التاريخى ، الذى غرضه اللهو والأسمار والوعظ ، والكتب المتعلقة بالغناء والطرب ، وكتب

الديارات التى تدخل فى باب الكتب التى تجمع أخبار الغناء واللهو ، والكتب المؤلفة حول أخبار الهدايا والتحف وأخبار الفروسية والحرب وطرق القتال .

تتميز مؤلفات العراق فى هذا الاتجاه حيث أنها تنفرد بالكتابة فى الكتب التى تتحدث عن الوزراء والحجّاب والكُتّاب والقضاة والولاة والشّرط ، وكتب الخراج والحسبة .

أما مؤلفات الشام فى ذلك فهى قليلة نادرة ، ولم يسعفنا البحث فى كتب من هذا النوع غير كتاب « أخبار الحجاب » لأبى عمرو الطرسوسى ت٤٠١هـ.

يتفق كل من الشام والعراق فى أن تاريخهما لم يكن فى عزلة عن الحركة العلمية التى سادت القرن الرابع الهجرى فكان لنمو الفلسفة والمنطق ، وتطور الفكر الجغرافى وانتشار علم الفلك والنجوم وعلم السياسة وعلم الكلام وغير ذلك من العلوم أثر واضح على الفكر التاريخى نفسه وعلى طرائق التدوين .

والمؤلفات التاريخية فى ذلك الأمر كثيرة سواء فى الشام أو فى العراق وقد سبق بيان ذلك . أما مؤرخو العراق قد يتميزون بالكتابة حول موضوع الإمامة ويؤلفون فيها الكتب العديدة . كما يتفق كل من مؤلفات الشام والعراق فى أنه لا يكاد يخلو مؤلف فى التاريخ من استشهاد بقصة أو بآية أو حديث أو مَثَل أو بيت شعر أو قول من أقوال الحكماء .

يتفق إقليم الشام والعراق فى أن تاريخهما قد تأثر بالتمزق السياسى للأمة الإسلامية ، مما جعل القوى المحلية تنمو فى أنحاء الخلافة العباسية ، الأمر الذى أدى إلى تأثر التاريخ بذلك فجعل التواريخ المحلية ترافق هذا التمزق ، مما جعل أيضاً التواريخ العامة لا تتكرر خلال القرن الرابع إلا الشىء النادر اليسير .

فقد ظهرت التواريخ المحلية وتواريخ المدن فى كل من الشام والعراق ، وكذلك تواريخ الأسر ، وبعضها سير الأشخاص والتراجم .

تتفق كتابات كل من مؤرخى الشام ومؤرخى العراق فى وجود مظاهر التطور من خلال تدوين المادة التاريخية وتنظيمها ، واتضح ذلك فى اتفاقهما فى سقوط الإسناد تدويناً ، وجعل التاريخ يعلن استقلاله بمنهجه الخاص .

كما يتفق كل منهما فى تزايد الاعتماد على الوثائق الرسمية ، من نصوص المعاهدات أو الرسائل أو الخطب وغيرها خلال القرن الرابع الهجرى . كما يتفق كل منهما فى أن الكتابة التاريخية تأثرت بالعلوم الأخرى ، وتركت العلوم المختلفة أثرها فى التاريخ .

تظهر مظاهر تنظيم المادة التاريخية فى كل من الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجرى ويتضح ذلك فى كتابة التاريخ العام ومختصرات التواريخ العامة ، وفى كتب التراجم والمعاجم .

ففى التواريخ العامة وإن كانت قليلة نجد المطهر المقدسي الشامى نظم كتابه «البدء والتاريخ» على أساس فلسفىّ وجغرافىّ وتاريخىّ فالربع الأول خصصه لبحث نظرى فلسفى والربع الثانى للفتن والكوائن والأنبياء والزديان ، ثم أقسام الأرض الجغرافية ، أما النصف الآخر من الكتاب فى تاريخ الرسالة المحمدية وما تلاها . وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك بإفاضة(١) .

أما التاريخ العام فى العراق فيمثله المسعودى وقبله الطبرى ، ونجد المسعودى ينظم كتابه «مروج الذهب» على أساس جغرافى وتاريخى فيخصص نصف الكتاب لتاريخ ما قبل الإسلام من الأمم ، ثم يعطف على وصف طبيعة الأرض وظواهرها الجغرافية وفى النصف الثانى يوجز البعثة النبوية والسيرة ثم الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين حتى سنة ٣٣٥هـ سنة تأليف الكتاب .

أما مختصرات التواريخ العامة فلم يكن لمؤرخى الشام ـ فيما يبدو ـ مختصرات فى التاريخ العام خلال القرن الرابع الهجرى ، أما لمؤرخى العراق فقد ظهرت لهم مصنفات تاريخية فى ذلك ، سبق أن ذكرناها(٢) .

وفى تنظيم المادة فى كتب التراجم قد جاءت معتمدة على سنى الوفيات ويتفق فى ذلك مؤلفو الشام والعراق والأمثلة فى ذلك كثيرة(٣) .

---

(١) انظر فيما سبق مظاهر تطور الكتابة التاريخية فى الشام .

(٢) انظر النقطة رقم (٢) فى تنظيم المادة التاريخية بالشام والعراق .

(٣) انظر النقطة رقم (٣) فى تنظيم المادة التاريخية بالشام والعراق .

واعتمد كل منهما أيضاً النظام المعجمى والأبجدية ، وكان هذا تطور هام نحو الموسوعية عند كل من مؤرخى الشام ومؤرخى العراق .

كما ظهرت كتب ذات نظام مميز فى التأليف سميت بكتب المشتبه من الأسماء أو الألقاب أو الكنى ثم اسم « المؤتلف والمختلف » أو « المتفق والمفترق » ونصيب الشام فى هذا النوع غير محقق ولم أجد مصنفات بهذا الاسم لمؤرخى الشام ، أما مؤرخو العراق فالمصنفات فى ذلك عندهم كثيرة ، وقد ذكرت نماذج وأمثلة كثيرة سبق الإشارة إليها[1] .

أنواع الكتابة التاريخية فى الشام فى ق٤هـ :

١ ـ سُمّيت الدراسات الأولى لحياة النبى ﷺ باسم المغازى ، وقد تناولت فى الحقيقة فترة الرسالة بكاملها ، ويلاحظ أن معظم من كتبوا المغازى كانوا محدثين قبل أن يكونوا مؤرخين ، ولقد ظلّ الحديث النبوى هو الدعامة الأساسية لتكوين المادة التاريخية لها ، فاعتبرت جزءاً من الحديث ، نشأت السيرة وتطورت بنشوئه وتطوره ، واهتم كُتاب السيرة والمغازى بأقوال النبى ﷺ وحياته وأمهاته وزوجاته ووفاته والبعثة ورسائله وسراياه ومغازيه .

وإن أبرز من كتب فى السيرة والمغازى : المطهر بن طاهر المقدسى ٣٥٥هـ ولكنه ضمن كتابه «البدء والتاريخ» جعلها فى النصف الثانى من الكتاب[2] .

وكتب أبو القاسم الطبرانى ت٣٦٠هـ « دلائل النبوة » وكذلك أبو بكر النقاش المفسر محمد بن الحسن ت٣٥١هـ ، وقد أفرد مولده بالتأليف ابن درستويه عبد الله بن جعفر ت٣٧٤هـ[3] .

---

(١) انظر النقطة رقم (٤) فى تنظيم المادة التاريخية بالشام والعراق .

(٢) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٤٠٧/١ .

(٣) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص١٦٠ ، ١٦٧ ، وقد ترجم لهم ابن عساكر فى تاريخه رغم أنهم عراقيون . انظر مختصر ابن عساكر لابن منظور ١٠٦/٢٢ ، ١٠٧ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢٥/٥ .

وكتب أبو بكر الخرائطى محمد بن جعفر ت٣٢٧هـ « هواتف الجان ، وعجيب ما يحكى عن الكهان ، ممن بشر بالنبى ﷺ ، بواضح البرهان » وقد سكن أبو بكر الخرائطى الشام وحدث بها ومات بفلسطين وقيل بعسقلان(١).

٢ ـ **قصص الأنبياء** : أما قصص الأنبياء فقد كتب فيها المطهر بن طاهر المقدسى فى جملة تاريخه « البدء والتاريخ »، ولم يسعفنا البحث فى أن نحصل على أحد أفراد ذلك بالتأليف .

٣ ـ تاريخ الصحابة : احتل تاريخ الصحابة والحديث عنه تواليف جمة فقد كتب فيه : أبو القاسم الطبرانى ت٣٦٠هـ فى « معجمه الكبير » وأبو القاسم عبد الصمد بن سعيد الحمصى ت٣٢٤هـ فقد كتب « من نزل من الصحابة حمص »(٢)، وكتب أبو الحسن خيثمة بن سليمان بن حيدرة المقدسى الطرابلسى الحافظ محدث الشام ت٣٤٣هـ كتاب « فضائل الصحابة »(٣)، وكتب أبو عروبة الحسين بن محمد بن أبى معشر ت٣١٨هـ كتاب « الطبقات » الذى تناول فيه أحوال الصحابة فى حياتهم(٤). وكتب أحمد بن لال المتوفى بنواحى عكا سنة ٣٩٨هـ معجم الصحابة(٥).

٤ ـ **تاريخ الخلفاء** : وأما تاريخ الخلفاء وهم الصحابة ، أو الخلفاء الآمويون أو العباسيون فقد كتب عن تاريخهم مؤرخون كثيرون سواء من خلال كتب منفردة أو عن طريق ذكرهم فى كتب التاريخ العامة ، فقد اختصر المقدسى المطهر بن طاهر أخبار الخلفاء العباسيين حتى عهده فى كتابه « البدء والتاريخ »(٦). وكتب أيضاً فى

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٣٩/٢ ـ ١٤٠ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ١٩٥/٣ ، والإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص١٦٥ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص١٧٤ .

(٣) الرسالة المستطرفة للكتانى ص٤٤ .

(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ١٦٢/٣ ، وكتاب خلاصة تحقيق الظنون مخطوط لكمال الدين الصديقى ص١٨٥/١ .

(٥) الرسالة المستطرفة للكتانى ص١٠٢ .

(٦) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٤٠٧/١ .

تاريخ الخلفاء أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابى ت٣٢٠هـ[١]، وقد ترجم له ابن عساكر فى تاريخه[٢].

٥ ـ **تاريخ الوزراء** : بعد البحث عن مؤرخين شاميين صنفوا فى تاريخ الوزراء فلم أجد . أقول : لعلّ ذلك يرجع إلى أن مركز الخلافة فى القرن الرابع كان بالعراق، مما جعل مؤرخى العراق يهتمون بتأريخ الوزراء وأخبارهم ، وقد قال أبو طالب بن أنجب الخازن فى كتابه « أخبار الوزراء فى دول الأئمة الخلفاء » فى أوله : إن الخلفاء العباسيين أول من استوزر الوزراء ، لأن بنى أمية كانوا يفوضون أمر الأموال وجباياتها وتقسيطها إلى كتاب البلاد من قبل أمرائهم »[٣]. ولعل هذا من الأسباب التى جعلت المؤرخين الشاميين يبعدون عن الكتابة فى فنون الإدارة والقيادة مما يتعلق بالوزراء وأخبارهم .

٦ ـ **الأمراء والقادة** : كان للدور البارز لأمراء الأقاليم فى إدارة الدولة العربية الإسلامية أثر بارز فى توجيه المؤرخين إلى معالجة هذا الموضوع الهام فى حياة الأمة فكتبوا فى سيرة الولاة وأعمالهم وأخبارهم ، وأبرز من كتب فى هذا الموضوع من مؤرخى الشام أبو الحسن على بن الحسين الزراد كتب سيرة سيف الدولة ، وقد أخذ عنها ابن العديم فى كتابه « بغية الطلب »[٤]. وكتب أيضًا محمد بن عبد الله بن جعفر البجلى ت٣٤٧هـ كتاب « تسمية أمراء دمشق فى أيام بنى العباس » وكتاب آخر « تسمية كُتّاب أمراء دمشق »[٥]. وكان البجلى فى الأصل من الرىّ ثم استوطن دمشق وكان من كبار المحدثين ، افتتن بمدينة دمشق وتاريخها فأقبل يدرس تاريخها عن طريق تسجيل أسماء علمائها الذين أخذ عنهم وتسجيل أخبار أمرائها ، وكتب الحسن بن أحمد السبيعى ت٣٧١هـ كتاباً فى سيف الدولة أيضاً[٦].

---

(١) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنتال ص١٧٧ .

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٦٧/٢١ .

(٣) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنتال ص١٨٤ ، ١٨٥ .

(٤) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٣٦٨/١ .

(٥) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر مخطوط رقم ٣٣٧٩ نسخة الظاهرة جزء ١٥ الورقة ٥٦ والورقة ٢٧٣ ظهر وجزء ١٧ الورقة ١٨٠ وجه .

(٦) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٥٣٤/١ ـ ٥٣٥ .

٧ ـ **القضاة والحُجّاب** : لم يسعفنا البحث فى إيجاد مؤرخين شاميين خلال القرن الرابع كتبوا عن تاريخ القضاة ، بينما نجد من بين هؤلاء المؤرخين من كتب كتاباً فى « أخبار الحجّاب » وهو أبو عمرو عثمان بن عبد الله بن إبراهيم الطرسوسى ت٤٠١هـ[١].

٨ ـ **التاريخ العام** : هناك عدد من الإخباريين والمؤرخين صنفوا فى كتابة التاريخ العام سواء كانت كتاباتهم تدخل ضمن كتب الحوليات أو الحوادث ، منهم المطهر ابن طاهر المقدسى ت٣٥٥هـ صاحب كتاب « البدء والتاريخ »[٢]، وأحمد بن محمد الأنطاكى ت٣٩٩هـ صاحب كتاب « التاريخ »، والحافظ شمس الدين أبو الحجاج يوسف الدمشقى ت٣٥٤هـ صاحب كتاب « التاريخ »[٣]، وأبو الحسين محمد بن العباس بن محمد الكنانى الدمشقى من رجال ما بين أواخر القرن الرابع الهجرى ، ومطالع الخامس له كتاب « التاريخ المجدد » ذكره ابن العديم ونقل عنه ترجمة بعض الشعراء من أيام سيف الدولة[٤].

٩ ـ التاريخ المحلى : اهتم المؤرخون الشاميون فى القرن الرابع الهجرى بتدوين تواريخ خاصة بمدنهم ، بدافع المنافسة والمفاخرة بين أهل المدن ، وبالأخص علمائها فمنهم : أبو سليمان محمد بن عبد الله بن أحمد الحافظ الربعى الدمشقى ت٣٧٩هـ وقد كتب عن الشام جملة كتاب « فضائل الشام »[٥]، وكتب أبو الحسين محمد بن عبد الله بن جعفر الرازى ت٣٤٧هـ كتاب « تاريخ دمشق »، وكتب عبد الصمد بن سعيد بن عبد الله الحمصى ت٣٢٤هـ كتاب «تاريخ حمص»[٦]، وكتب محمد بن سعيد القشيرى الحرانى ت٣٣٤هـ «تاريخ الرقة»،

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ٢٥/٥ .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة د/ عبد الحليم النجار ٦٢/٣ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ٦٠/٥ ، ٢٥٨/١ والتاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٩٨ .

(٤) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٧٧/٢ .

(٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة د/ عبد الحليم النجار ٦٢/٣ .

(٦) كتاب خلاصة تحقيق الظنون مخطوط لكمال الدين الصديقى ص١٩٤/١ .

وكتب أبو على عبد الجبار بن عبد الله الداراني الخولاني ت٣٦٥هـ كتاب «تاريخ داريا» ، وكتب أبو الحسن أحمد بن حميد بن سعيد الدمشقى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى كتاب « تاريخ دمشق »[(١)] .

١٠ ـ **كتب فى الأخبار** : هناك بعض المؤرخين الشاميين ممن كتبوا فى مواضيع تاريخية تناولت تاريخ وأخبار عدد من الشخصيات البارزة فى التاريخ العربى الإسلامى متخذين من أسماء تلك الشخصيات عناوين لمؤلفاتهم أو متخذين كلمة (الأخبار) كعناوين لمؤلفاتهم . وأبرز من كتب فى ذلك : أبو سليمان محمد بن عبد الله بن أحمد الحافظ الربعى الدمشقى ت٣٧٩هـ كتب « أخبار ابن أبى ذئب »[(٢)] ، وكتب كل من أبى بكر محمد هشام الخالدى ت٣٧١هـ ، وأبو عثمان سعيد بن هشام الخالدى ت٣٩٠هـ كتاب « أخبار أبى تمام » ، وكتب أبو الحسن على بن الحسين الديلمى كتاباً يحمل اسم « أخبار سيف الدولة » وكان أحد مصادر ابن العديم[(٣)] .

١١ ـ **كتب الرجال وتوثيق الرواية التاريخية** : من المعروف أن العلاقة بين علم الحديث والتاريخ علاقة وثيقة ، سواء من ناحية الأسلوب أو المنهج ، وعلمنا أن المؤرخين قد تأثروا بمنهج المحدثين ، وامتد هذا التأثير ليشمل تقييم الروايات التاريخية من خلال نقد الرواة من الإخباريين والمؤرخين . ولتوثيق روايات الحديث نشط المحدثون فى دراسة أحوال الرواة من حيث مواليدهم ووفياتهم ، وأسمائهم وأنسابهم وألقابهم ، وأوردوا آراء العلماء فيهم جرحًا وتعديلاً ، والتعرف على شيوخهم وتلاميذهم ورحلاتهم فتجمعت لذلك مادة ضخمة كان لا بد من تنظيمها وترتيبها ليسهل الرجوع إليها فنظمت فى كتب عرفت بكتب الرجال وكتب الجرح والتعديل ، وعرفت هذه الكتب باسم كتب التراجم وقد شارك مؤرخو القرن الرابع الشاميين فى ذلك ، فجاءت كتب الرجال منظمة أمّا على الطبقات أو الأنساب أو البلدان أو حروف

---

(١) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، والتاريخ العربى والمؤرخون د/شاكر مصطفى ٢٢٧/٢ ، ٢٧٢ ـ ٢٧٥ .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة د/ عبد الحليم النجار ١٦٠/٣ .

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٧٢/٢ ، ٢٧٦ .

المعجم أو الوفيات ، شاملاً هذا التنظيم تراجم المحدثين والإخباريين والمؤرخين والفقهاء والكُتّاب والقراء والمفسرين والأدباء والشعراء والصوفية والتجار والملوك والزمراء والوزراء وغيرهم ، ومنها من أُلفت فى الثقات والضعفاء . من أبرز من صنف فى كتب الرجال على اختلاف تصنيفاتها : سليمان بن أحمد الطبرانى ت٣٦٠هـ صنف المعجم الصغير فى أسماء شيوخه . وكتب عبد الواحد بن على أبو الطيب اللغوى ت٣٥١هـ كتاب «مراتب النحويين» ، وكتب محمد بن عبد الله بن أحمد بن ربيعة الدمشقى أبو سليمان الحافظ محدث دمشق الشام ت٣٧٩هـ كتاب «وفيات النقلة على السنين»[1] ، وكتب أبو عروبة الحسين بن محمد الحرانى ت٣١٨هـ « المنتقى من كتاب الطبقات » ، وكتب عبد الرحمن بن محمد بن إدريس التميمى الحنظلى ت٣٢٧هـ كتاب الجرح والتعديل وكتاب الضعفاء[2] ، وكتب أبو عثمان سعيد بن هشام بن وعلة الخالدى ت٣٩٠هـ كتاب تراجم بعنوان «فوات الوفيات» [3] وكتب عمر بن أحمد بن عثمان المعروف بابن شاهين ت٣٨٥هـ « معجم الشيوخ »[4] ، وكتب الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله ت٣٧٠هـ كتاب « الألقاب » ، وكتب الحافظ عبد الغنى بن سعيد الأزدى المقدسى ت٤٠٩هـ كتاب «مشتبه النسبة»[5] .

١٢ ـ **تاريخ الحضارة والثقافة** : ثمة كتب لمؤرخى الشام ضمت أخباراً عديدة ذكرها مصنفو الكتب تحت مسمّى كتب الحضارة والثقافة ومن أبرز من كتب فى ذلك :

على بن الحسين بن محمد الأصبهانى ت٣٥٦هـ طلب العلم وتأدب ببغداد ، ثم بعد ذلك وُجد ينادم سيف الدولة ، له كتاب « الأغانى » ومقاتل الطالبين ،

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ٥٠٩/٥ ، ٤١/٦ .
(٢) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٦٤٣/١ ، ١٠٩/٢ .
(٣) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور / شاكر مصطفى ٧٣/٢ .
(٤) التاريخ والجغرافية فى العصور الإسلامية لرضا كحالة ص١١٤ .
(٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٤٦/٢ ، ٥٦٤ .

وكشف الكربة فى وصف القربة ، وكشف الكربة فى وصف الغربة ، والتعديل والإنصاف فى معايب العرب ومثالبها ، وكتاب الإماء الشواعر ، وأخبار المجانين ، وأخبار القيان ، وأخبار المقنين والمماليك ، ونسب بنى شيبان ، وكتاب الخانات ، وكتاب الأمان وكتاب النغم ». والخالديان سعيد ومحمد ابنا هاشم أوطنا بحلب فكانا من حاشية سيف الدولة وبطانته وكانا شاعرين أديبين واشتركا فى التصنيف فلهما : حماسة الخالدين ، والتحف والهدايا ، والمختار من شعر بشار ، وكتاب الديارات(١) .

أنواع الكتابة التاريخية فى العراق فى ق ٤هـ :

١ ـ إن أنواع الكتابة التاريخية فى العراق لا تختلف بحال من الأحوال عن أنواعها فى الشام ، فكما كتب مؤرخو الشام فى المغازى والسير ، وكان معظم من كتبوا من المحدثين قبل أن يكونوا من المؤرخين ، كتب أيضًا مؤرخو العراق فى السيرة وكان الحديث دعامة أساسية لتكوين المادة التاريخية ، واهتم كتاب السيرة والمغازى بأقوال النبى ﷺ وحياته وأمهاته وزوجاته ، ووفاته وبعثته ورسائله وسراياه ومغازيه .

وأبرز ما كتب فى السيرة والمغازى فى القرن الرابع من العراقيين :

أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزبانى ت٣٧٨هـ كتاب «المغازى» فيما يقرب من (٣٠٠ ورقة)(٢)، وكتب أبو الحسن المسعودى ت٣٤٦هـ حدائق الأذهان فى أخبار بيت النبى ﷺ . وكتب فى دلائل النبوة كل من : أبو إسحاق إبراهيم بن حماد بن إسحاق البغدادى ت٣٢٠هـ(٣)، وأبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم ت٣٤٩هـ(٤)، وأبو بكر محمد بن الحسن النقاش ت٥٣١هـ(٥). وذكر السيرة أيضاً أبو جعفر الطبرى فى جملة تاريخه(٦) .

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٦٩/٣ ـ ٧١ .

(٢) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٥٧/٢ .

(٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ٤٩٣/١ ، ٣٠٢/٣ ، ١٣٠/٥ ، والتاريخ والجغرافية لرضا كحالة ص٥٢ ، ٥٣ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٧٠/١.

(٥) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص١٦٧ .

(٦) التاريخ والجغرافية لرضا كحالة ص٤٣ .

٢ ـ **قصص الأنبياء** : كتب فيه أبو الحسن محمد بن عبد الله الكسائى وقد عاش حوالى سنة ٤٠٠هـ كما كتب فيه أيضًا أبو جعفر الطبرى ت٣١٠هـ فى جملة تاريخه(١).

٣ ـ **تاريخ الصحابة** : أما تاريخ الصحابة ففيه تواليف كثيرة وكتب فيه :

سعيد بن عثمان بن السكن ت٣٥٣هـ وكان من المصادر التى اعتمد عليها ابن عبد البر فى كتابه « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ». وكتب فيه أيضًا أبو حفص عمر بن شاهين ت ٣٨٥هـ(٢)، وصنف أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى ت٣٨٢هـ كتاب « معرفة الصحابة » وكتب فى معرفة الصحابة أيضاً عبد الباقى بن قانع الغدادى ت٣٥١هـ، وأبو الفتح محمد بن الحسين الموصلى ت٣٧٤هـ(٣).

٤ ـ **تاريخ الخلفاء** : تناول المؤرخون حياة الخلفاء وسيرهم وأخبارهم خلال القرن الرابع الهجرى ، وأبرز من كتب فى هذا الجانب : محمد بن يحيى بن العباس الصولى البغدادى ت٣٣٥هـ صنف كتاب « الأوراق فى أخبار الخلفاء » قال عنه المسعودى أنه كتبه فى أخبار الخلفاء من بنى العباس وبنى أمية وشعرائهم ووزرائهم ، فإنه ذكر غرائب لم تقع لغيره وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه(٤). وكتب أبو بكر محمد بن زكريا الرازى صاحب « المنصورى » ت٣١٣هـ كتاب «سير الخلفاء»(٥). وكتب أبو سحاق إبراهيم بن هلال الصابئ ت٣٨٤هـ « فى أخبار بنى بويه »(٦). وكتب على بن عيسى بن داود ت٣٣٤هـ كتاب «سيرة الخلفاء»(٧).

٥ ـ **تاريخ الوزراء** : تناول كثير من مؤرخى العراق التاريخ للوزراء ، فكان لأبى

---

(١) علم التأريخ عند المسلمين لروزنثال ترجمة صالح العلى ص٥٤٠، والتاريخ والجغرافيا لكحالة ص٤٢.

(٢) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى ترجمة روزنثال ص١٧٢ .

(٣) الرسالة المستطرفة للكتانى ص٩٥ ، ١٠٨ .

(٤) مروج الذهب للمسعودى شرح وتقديم الدكتور مفيد قميحة ٩/١ وكشف الظنون لحاجى خليفة ٢٠٧/١ .

(٥) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص١٧٧ ـ ١٧٨ .

(٦) التاريخ والجغرافية لرضا كحالة ص١٣٩ .

(٧) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٤٨٣/٢ .

بكر الصولى كتاب فى أخبار الوزراء وفيه غرائب لم تقع لغيره ، وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه[1]. وكتب ذلك أبو الحسن على بن الحسن المعروف بابن الماشطة ت٣١٠هـ كتاب الوزراء وأخبارهم . وكتب أبو الحسن على بن الحسن بن الفتح الكاتب وكان معاصراً للمسعودى كتاب « أخبار الوزراء » وقد ذكر فيه أخبار عدة من وزراء المقتدر بالله[2] .

٦ ـ **الأمراء والقادة** : كتب المؤرخون سيرة الولاة وأعمالهم وأخبارهم ، والذى وجّه المؤرخين لذلك هو الدور المتميز لأمراء الأقاليم ، وأبرز من كتب فى ذلك الصولى البغدادى ت٣٣٥هـ فإنه صنف كتاب «مناقب على بن الفرات »[3] وكتب أبو الحسن ثابت بن سنان الطبيب ت٣٦٥هـ كتاباً عن « الحلاج وأخباره »[4].

٧ ـ **تاريخ القضاة والحُجّاب** : تناول بعض مؤرخى العراق تاريخ القضاة فصنف أبو بكر أحمد بن كامل البغدادى ت٣٥٠هـ «أخبار القضاة »[5]. وصنف الشريف الرضى ت٤٠٦هـ «أخبار قضاة بغداد»[6]، وكتب أبو القاسم طلحة بن محمد بن جعفر البغدادى ت٣٨٠هـ «أخبار القضاة»[7] وقد اقتبس منه الخطيب البغدادى فى تاريخه[8] .

٨ ـ **التاريخ العام** : عُرف مؤرخو العراق دون غيرهم بكتابة التاريخ العام سواء كانت كتاباتهم ضمن كتب الحوليات أو الحوادث وعلى رأسهم : أبو جعفر الطبرى ت٣١٠هـ حيث أنهى كتابه المعروف «بتاريخ الطبرى» أو « تاريخ الرسل والملوك» فى

---

(١) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنتال ص١٨٣ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى تقديم الدكتور مفيد قميحة ٩/١ ـ ١٠ .

(٣) حضارة العراق للدكتور محمد جاسم المشهدانى ١٧٣/٨ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٧٤/٤ .

(٤) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٦٦/٢ ـ ٦٧ .

(٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ٨٧/١ .

(٦) كشف الظنون لحاجى خليفة ٤٨/٦ .

(٧) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٨٩/٢ .

(٨) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٥٢/٩ .

أوائل القرن الرابع الهجرى ، ويعدّ من التواريخ الجامعة لأخبار العالم . وألفّ على بن الحسين المسعودى البغدادى ت٣٤٦هـ كتاب « التنبيه والإشراف » وكتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر »[(١)]، وكتب إسماعيل بن على بن إسماعيل بن يحيى بن بنان البغدادى ت٣٥٠هـ « التاريخ الكبير » على السنين ، وكان إخبارياً فاضلاً عارفًا بأيام الناس وأخبار الخلفاء[(٢)]. وكتب قدامة بن جعفر ت٣٣٧هـ كتاب « زهر الربيع فى الأخبار والتاريخ » وكتب محمد بن محمد الباهلى ت٣٢١هـ كتاب « التاريخ »، وكتب محمد بن مزيد الخزاعى المعروف بابن أبى الأزهر من أهل بغداد ت٣٢٥هـ كتاب «التاريخ»[(٣)].

٩ ـ **التاريخ المحلى** : دفع مؤرخى العراق إلى تدوين تواريخ خاصة دافع المنافسة والمفاخرة بين أهل المدن وعلمائها ، وصنف فى ذلك أبو الحسن محمد بن جعفر المعروف بالنجار الكوفى ت٤٠٢هـ ، فكتب « تاريخ الكوفة »، وكتب أبو زكريا يزيد ابن محمد الأزدى ت٣٣٤هـ « تاريخ الموصل »[(٤)]. وكتب الخالدان سعيد وأخيه محمد بن هاشم تاريخ الموصل ، الذى يشبه تاريخ أبى زكريا[(٥)]. وكتب ابن الجعابى أبو بكر محمد بن عمر بن سلم ت٣٥٥هـ كتاب «تاريخ الموصل»[(٦)].

١٠ ـ **كتب فى الأخبار** : من مؤرخى العراق مَنْ كتب فى مواضيع تاريخية تناولت تاريخ وأخبار عدد من الشخصيات وبالأخص البارزة منها فى التاريخ العربى الإسلامى ، جاعلين من أسماء المشاهير عناوين لكتبهم ، ثم جعلوا أيضاً عناوين تحت مسمى الأخبار ، ومن بين هؤلاء : ابن عمار الثقفى البغدادى ت٣١٩هـ صنف كتاب « عبد الله بن معاوية بن جعفر » وكتاب « أخبار حجر بن عدى »، وكتاب

---

(١) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص٣٠١ ـ ٣٠٢ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ١٧٠/٥ .

(٣) التاريخ والجغرافية فى العصور الإسلامية لرضا كحالة ص٩٥ ـ ٩٦ .

(٤) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص٢٧١ ، ٢٨٣ .

(٥) التاريخ والجغرافية فى العصور الإسلامية لعمر رضا كحالة ص٨٠ .

(٦) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٠/٢ .

«أخبار سليمان بن أبى شيخ»، وصنف أبو أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلودى البصرى ت٣٣٠هـ كتاب «أخبار الحجاج» و «أخبار خالدين صفوان» وكتب محمد بن يحيى بن عبد الله الصولى البغدادى ت٣٣٥هـ كتاب « الأخبار المنثورة »[١]. وصنف محمد بن الحسين أبو بكر البغدادى ت٣٦٠هـ أخبار عمر بن عبد العزيز، وصنف أبو بكر محمد بن يحيى الصولى أيضاً كتاب « أخبار أبى عمرو بن العلاء »، وصنف فى « أخبار أبى حنيفة النعمان » كل من : أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الجارودى الكوفى ت٣٣٣هـ ، وكذلك أبو الفضل محمد بن عبد الله الشيبانى البغدادى ت٣٣٥هـ[٢].

١١ ـ **كتب الرجال وتوثيق الرواية التاريخية** : نظراً لما بين التاريخ والحديث من علاقة وثيقة ، وتأثر المؤرخين بأسلوب ومنهج المحدثين ، فإن هذا التأثير يمتد إلى تقييم الروايات التاريخية من خلال نقد الرواة من الإخباريين والمؤرخين ، ولقد نشط المحدثون من أجل معرفة الرواة من حيث مواليدهم ووفياتهم وأسمائهم وأنسابهم وألقابهم ، وأوردوا آراء العلماء فيهم جرحًا أو تعديلاً ، وكان لابد من تنظيم وترتيب تلك المادة الضخمة ليسهل الرجوع إليها ، فنظمت فى كتب عرفت بكتب الرجال وكتب الجرح والتعديل ، وعرفت بكتب التراجم ، وقد شارك مؤرخو القرن الرابع العراقيين فى ذلك فجاءت كتب الرجال منظمة ، إما على الطبقات أو الأنساب أو البلدان أو حروف المعجم أو الوفيات شاملاً هذا التنظيم تراجم المحدثين والإخباريين والمؤرخين والفقهاء والكتاب والقراء والمفسرين والأدباء والشعراء والصوفية والتجار والملوك والأمراء، وألفت فى الثقات والضعفاء ، ومن أبرز من صنف فى كتب الرجال على اختلاف تصنيفاتها :

أبو بكر محمد بن الحسين بن محمد المعروف بالنقاش ت٣٥١هـ صنف المعجم الأوسط فى أسماء القراء ، والمعجم الصغير فى أسماء القراء ، والمعجم الكبير فى

---

(١) حضارة العراق للدكتور محمد جاسم المشهدانى ١٨٢/٨ ـ ١٨٣ .

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ٨٤/١ ، ٨٦ ، ٢٠٧ ، ٢٧/٣ ، ٣٨/٦ .

أسماء القراء . وكتب أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس الأزدى الموصلى ت٣٣٤هـ كتاب «طبقات محدثى أهل الموصل». وكتب أبو محمد قاسم بن أصبغ النحوى ت٣٤٩هـ كتاب « الأنساب » . وكتب أبو الحسين عبد الباقى بن قانع البغدادى ت٣٥١هـ « معجم الشيوخ » وله كتاب « الوفيات »[(١)]. ولابن شاهين عمر بن أحمد البغدادى ٣٨٥هـ كتاب بعنوان : « تاريخ أسماء الثقات » ممن نقل عنهم العلم وهو مرتب على حروف المعجم . وكتب أبو الحسن النسابة محمد بن القاسم التميمى البصرى المتوفى فى حدود ٤٠٠هـ كتاب « الأنساب والأخبار ». وصنف أحمد بن محمد بن زياد البصرى ت٣٤٠هـ «طبقات النساك» . وكتب محمد بن الحسن بن فورك ت٤٠٦هـ «طبقات المتكلمين» . وأبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزبانى ت٣٧٨هـ كتب «معجم الشعراء» وقد ذكرهم على حروف المعجم وفيه نحو خمسة آلاف اسم . وأبو زيد البلخى أحمد بن سهل ت٣٢٢هـ كتب : « العتاك والنساك » ، وكتاب « الأسمار والكنى والألقاب ». وكتب ابن حبان أبو حاتم محمد ابن حبان البستى ت٣٥٤هـ كتاب « الثقات » و « معرفة المجروحين » و « مشاهير علماء الأمصار »[(٢)].

١٢ ـ **تاريخ الحضارة والثقافة** : كثير من الكتب المؤلفة لمؤرخى العراق خلال القرن الرابع الهجرى قد ضمت أخباراً عديدة تدخل تحت مسمى كتب الحضارة والثقافة ، وذلك لما حوته من فنون شتى ، ومن أبرز مؤلفيها : أبو الفرج محمد بن إسحاق بن النديم ت٣٨٥هـ الوراق البغدادى وقد صنف كتاب « الفهرست » وقد حوى الحديث عن كتب الفلسفة والعلوم القديمة والأدب ، وقد استوعب ابن النديم فى الفهرست جميع الكتب الموجودة فى زمانه[(٣)]. وخير نموذج بعد ابن النديم يأتى على بن الحسين المسعودى ت٣٤٦هـ حيث سجل معارف شتى جمعت فى شكل

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ١٩٣/١ ، ٥٩٦/٢ ، ٣٦/٦ ، ٤١٧ .

(٢) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٨٥/٢ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٥٧ ، ٧٨ ، ٨٧، والتاريخ والجغرافية فى العصور الإسلامية لرضا كحالة ص١٤٧ ـ ١٤٨ .

(٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٧٢/٣ ـ ٧٣ .

تواريخ عديدة ، تتحدث فى ألوان الأفكار والملل وذخائر العلوم ، وطرائف الآثار والخبرات الحياتية فى السياسة والتجارب وطلب النفوس والرؤيا . وله مصنفات عديدة منها : الكتب التاريخية مثل : أخبار الزمان ، ومروج الذهب ، والتنبيه والإشراف ، وفنون المعارف ، ونظم الجواهر ، والاستذكار ، والصفوة فى الإمامة ، ورسالة البيان فى أسماء الأئمة ، والاستبصار فى الإمامة ، والأخبار المسعوديات ، وتقلب الدول ، وتغيير الآراء والملل ، وكتاب المسائل والعلل فى المذاهب والملل ، وأخبار الخوارج ، ومقاتل فرسان العجم ، ومزاهر الأخبار وطرائف الآثار ، وحدائق الأذهان فى أخبار الرسول ﷺ وغيرهم[1] .

تعقيب :

لا تختلف أنواع الكتابة التاريخية فى الشام عن أنواعها فى العراق ، فكما كتب مؤرخو الشام فى المغازى والسيرة ، فقد كتب أيضاً مؤرخو العراق فى المغازى والسيرة ، وكان اهتمامهما بالحديث النبوى الشريف أمراً واضحًا ، وبحياة النبى ﷺ وبعثته وسراياه ومغازيه ، والمصنفات فى ذلك متوافرة عند كلا الجانبين .

أما الكتابة حول **قصص الأنبياء** فقد ذكر علماء كل منهما هذا القصص من خلال كتاباتهما وفى جملة التاريخ العام كالمطهر المقدسى ، وكأبى جعفر الطبرى . ولم أجد من أفرد مصنفًا كاملاً فى قصص الأنبياء خلال القرن الرابع فى كل من الشام والعراق .

ومن حيث **تاريخ الصحابة** ، فقد اتفق كل من مؤرخى الشام والعراق فى أن احتل تاريخ الصحابة والحديث عنه مكانة مرموقة والمصنفات فى ذلك كثيرة .

وأما **تاريخ الخلفاء** فقد تناوله مؤرخو الشام ومؤرخو العراق حيث تناولوا حياتهم وسيرهم وأخبارهم ، خلال القرن الرابع الهجرى . غير أن العراق تتسم بكثرة المصنفات فى هذه النقطة عن الشام .

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٤٧/٢ ـ ٥٠ .

وأما **تاريخ الوزراء** فقد تناوله كثير من مؤرخى العراق دون الشام ، فلعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن مركز الخلافة كان فى العراق ومؤرخو العراق أكثر احتكاكًا بالنظام الإدارى للخلافة .

و**تاريخ الأمراء والقادة** فقد تناوله مؤرخو الشام والعراق بالتصنيف فيه ، وكان نوعاً من الكتابة التاريخية ظاهراً من خلال القرن الرابع الهجرى .

لم تظفر الشام بالكتابة عن تاريخ القضاة والحُجَاب إلا باليسير النادر حيث عثرنا على كتاب واحد فى أخبار الحجاب لأبى عمر الطرسوسى الشامى ، وأما مؤرخو العراق فقد اهتموا بهذا النوع من الكتابة ولهم مؤلفات كثيرة .

كما يتفق كل من الشام والعراق فى قلة **الكتابة التاريخية العامة** ، فالتواريخ العامة عندهما قليلة جداً خلال القرن الرابع الهجرى .

أما **التاريخ المحلى** فقد اهتم كل من مؤرخى الشام ومؤرخى العراق بالكتابة فيه وقد ساعد على ذلك ظروف سياسية وغير سياسية .

فقد اتفق كل من الشام والعراق فى الكتابة التاريخية التى تناولت **أخبار عدد من الأشخاص** متخذين كلمة الأخبار عنواناً للكتب ، أو أسماء تلك الشخصيات .

كما يتفقان فى الكتابة التاريخية حول **كتب الرجال** وتوثيق الرواية التاريخية ، على الطبقات أو الأنساب أو البلدان أو حروف المعجم أو الوفيات ، شاملاً هذا التنظيم وتراجم المحدثين والإخباريين والمؤرخين والفقهاء والكتاب والقراء والمفسرين ، والأدباء والشعراء والصوفية والتجار والملوك والأمراء والوزراء .

كما يتفقان أيضًا فى الكتابة التاريخية حول تاريخ الحضارة والثقافة ، فكثرت المؤلفات التاريخية التى تضم أخباراً عديدة وفنوناً مختلفة ، حوت علوماً شتى .

التأثير والتأثر بين مؤرخى الشام والعراق :

إن كثرة الرحلات التى قام بها كل من مؤرخى الشام والعراق جعلت أمر التأثير والتأثر شيئًا واقعاً ، فعلماء الشام لم يستغنوا عن الرحلة إلى العراق وخاصة بغداد مركز

الخلافة وعاصمة العلم فى العصر العباسى ، وكذلك علماء العراق لم يستغنوا عن الرحلة إلى دمشق وحلب وغير ذلك من مدن الشام .

فمن علماء الشام الذين رحلوا إلى العراق وسمعوا بها العلم وجالسوا العلماء : الحسين بن محمد الحرانى ت٣١٨هـ صاحب المؤلفات التاريخية المعروفة ، فقد رحل إلى العراق ورحل إليه الناس[١] . ومحمد بن عبد الله بن جعفر البجلى ت٣٤٧هـ قد رحل إلى العراق وسمع بها وأكثر من التصنيف ، وأثر فيمن جاء بعده[٢] . وعثمان بن عبد الله بن إبراهيم الطرسوسى ٤٠١هـ قد سمع عن أبى عبد الله محمد بن عيسى التميمى البغدادى المعروف بابن العلاف . وعن أبى العباس أحمد بن أبى بكر الفقيه[٣] . ورحل سليمان بن أحمد الطبرانى إلى العراق فى طلب العلم فسمع بها من الشيوخ والعلماء[٤] .

ومن علماء العراق من رحل إلى الشام وسمع بها العلماء وشاهد وسجل واشتغل بالعلم كأبى الحسين على بن الحسين المسعودى ت٣٤٦هـ[٥]، وأبو محمد عبد الله ابن أحمد بن جعفر الفرغانى ت٣٦٢هـ نشأ فى بغداد وصحب الطبرى ، ثم رحل إلى دمشق وحدث بها عن الطبرى وغيره ، وقد حدث بتاريخ الطبرى ، وأضاف إليه «التأويل المذيل على الطبرى»[٦]، وأبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين البغدادى ت٣٨٥هـ رحل إلى الشام ، وكان مكثراً فى التأليف وله مؤلفات فى التاريخ ككتاب التاريخ ، وتاريخ أسماء الثقات ، ومعجم الشيوخ[٧] . وعبد الله بن أحمد بن ربيعة بن سليمان البغدادى ت٣٢٩هـ عارفا بالأخبار والكتب والسير ولى قضاء دمشق، وتعلم بها وسمع من علمائها وله مصنفات فى التاريخ كتب أخبار الأصمعى وسيرة الدولتين[٨] .

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ٢٧٩/٢ .

(٢) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٢٧/٢ ـ ٢٢٨ .

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٠٢/١٦ ـ ١٠٣ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٠٧/٢ .

(٥) مروج الذهب للمسعودى ٤/١ .

(٦) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥/١٢ .

(٧) شذرات الذهب لابن العماد ١١٧/٣ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٥٥٢/٢ ، والتاريخ والجغرافية لرضا كحالة ص١١٤ .

(٨) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٢٢٣/٢ .

من مؤرخى الشام فى القرن الرابع :

أبو عروبة الحسين محمد بن أبى معشر الحرانى ت٣١٨هـ[١] : محدث ، حافظ ، مؤرخ ، روى عن إسماعيل بن موسى السدى وطبقته ، وعنه أبو حاتم بن حبان وأبو أحمد الحاكم ، وكان عارفًا بالرجال ، رحل إلى الجزيرة والشام والعراق ورحل إليه الناس[٢]. قال ابن مهدى : كان عارفًا بالرجال والحديث مفتى أهل حران، وقال أبو أحمد الحاكم : من أثبت ما أدركناه وأحسنهم حفظًا يرجع إلى حسن المعرفة بالحديث والفقه والكلام[٣].

من مصنفاته : كتاب الأوائل ، وكتاب تاريخ الجزيرة ، وتاريخ الرقة[٤]، وتاريخ الجزيرتين والمنتقى من كتاب الطبقات[٥]، وكتاب التاريخ[٦] وتاريخ حران ، وقد ذكره السمعانى فى الأنساب وسماه تاريخ الحرّانيين الخليلىُّ فى الإرشاد[٧]، وله كتاب حديث الشيوخ[٨].

أبو القاسم عبد الصمد بن سعيد بن عبد الله الحمصى الكندى ت٣٢٤هـ[٩]: قاضى حمص روى عن محمد بن عوف وعمران بن بكار وطائفة

---

(١) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص٣٢٢ ، والإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص١٤١ ، ٢٥٨ ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٢٧ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧٩/٢ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٦٤٣/١ ، والتاريخ العربى والمؤرخين للدكتور شاكر مصطفى ٢٧٢/٢ .

(٢) شذرات الذهب لابن العماد ٢٧٩/٢ .

(٣) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٢٧ .

(٤) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص١٤١ ، ٢٥٨ .

(٥) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٦٤٣/١ .

(٦) طبقات الحفاظ للسيوطى ص٣٢٧ .

(٧) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٧٢/٢ .

(٨) الفهرست لابن النديم ص٣٢٢ .

(٩) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٢٠/١٥ والإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ، ١٧٤ ، ٢٦١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٠٢/٢ ـ ٣٠٣ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٥٣/٢ ، والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ١٧٣/٢ .

وجمع التاريخ[1] وله تاريخ حمص ذكر فيه من نزل من الصحابة حمص خاصة[2]. وهو ثانى تاريخ يكتب لرجال هذه المدينة ويبدو أن التاريخين إنما تكلما عن الصحابة والتابعين ومن تلاهم ممن نزل حمص واستقرّ بها ، وأخذ من كتابه ياقوت الحموى فى معجم البلدان ، وابن حجر فى الإصابة[3].

أبو الحسين محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله البجلى ت٣٤٧هـ[4]:
وكان أحد المكثرين الثقات ، وقد حدّث ابنه تمام بن محمد بن عبد الله الرازى أن والده أبا الحسين توفى سنة سبع وأربعين وثلاث مئة وكان ثقة نبيلا مصنفاً[5]. سمع الحديث بالرى والعراق والشام ومكة ، وأكثر من التصنيف والجمع ، درس تاريخ دمشق فسجل أسماء علمائها وأخبار أمرائها ، وله من المصنفات : تسمية أمراء دمشق فى أيام بنى العباس ، وتسمية كُتّاب أمراء دمشق ، وكتاب فضائل دمشق ، وقد استفاد ابن عساكر من مصنفات الرازى الذى يعتبر من أهم مصادره ، وقد استفاد أيضاً المؤرخ أبو شامة من كتب الرازى[6].

المطهر بن طاهر المقدسى ت٣٥٥هـ[7]: مؤرخ صاحب كتاب «تاريخ المقدسى» والمسمى «البدء والتاريخ»[8] وقد نظر المقدسى فى فهم التاريخ من خلال

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٢٠/١٥ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٠٢/٢ ـ ٣٠٣ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنتال ص١٧٤ ، ٢٦١ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ١٥٣/٢ .

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ١٧٣/٢ .

(٤) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٦٨/٢٢ ، والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٢٧/٢ ـ ٢٢٨ .

(٥) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٦٨/٢٢ .

(٦) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٢٧/٢ ـ ٢٢٨ .

(٧) انظر ترجمته فى : تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٦٢/٣ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٨٩٠/٣ وعلم التأريخ عند المسلمين لروزنتال تحقيق الدكتور صالح العلى ص١٦١ ، والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٤٠٧/١ .

(٨) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٨٩٠/٣ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان تحقيق د/ عبد الحليم النجار ٦٢/٣ .

النظرة المثالية فى الفلسفة ، وقد عبّر فى تاريخه عن فهم أوسع لمكان الإنسان كله من الكون والوجود فى إطار الإلهيات التى عرف ورغم ذلك فإنه لم يحتفظ بالنظرة الواسعة نفسها فى التاريخ الذى جاء غير متوازن الأبعاد الزمنية ولا الاهتمام[١] ، وقد كان تاريخه محاولة لإقامة جسر اتصال بين التاريخ والفلسفة[٢] .

أبو عمرو عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الطرسوسى[٣] : الكاتب الأديب ت٤٠١هـ وكان معروفًا فى أواسط الشام الثقافية وتنقل بين طرسوس ودمشق وطرابلس وحلب[٤] . حدّث عن أبى عبد الله محمد بن عيسى التميمى البغدادى المعروف بابن العلاف ، وعن أبى العباس أحمد بن أبى بكر الفقيه[٥] ، وسمع منه أبو حصين عبد الله بن محسن بن عبد الله المصرى وعبد الرحمن بن محمد بن الحسين الكفرطابى ، وأبو على الأهوازى[٦] . وقد صنف كتباً منها : كتاب فى أخبار الحجاب وسير الثغور فى أخبار طرسوس[٧] ، وقد اعتمد ابن العديم على « سير الثغور » كمصدر هام من مصادره فى كتابه « بغية الطلب » حيث نقل منه أموراً هامة حول أخبار طرسوس[٨] .

أبو على محمد بن سعيد بن عبد الرحيم القشيرى الحرانى ت٣٣٤هـ من المحدثين والحفاظ استقر « بالرقة » وكتب تاريخها بعنوان « تاريخ الرقة » وقد نقل عنه السمعانى فى الأنساب ، وابن العديم فى بغية الطلب[٩] .

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٤٠٧/١ .
(٢) علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال تحقيق الدكتور صالح العلى ص١٦١ .
(٣) انظر ترجمته فى : مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٠٢/١٦ ـ ١٠٣ ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ٤٨٨/٣ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣٦٢/٢ ، والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٧٨/٢ .
(٤) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٧٧/٢ .
(٥) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٠٢/١٦ ـ ١٠٣ .
(٦) معجم الأدباء لياقوت الحموى ٤٨٨/٣ .
(٧) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٣٦٢/٢ .
(٨) التاريخ العربى والمؤرخين للدكتور شاكر مصطفى ٢٧٨/٢ .
(٩) انظر الإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص٢٦٤ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٣١٩/٣ والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٧٣/٢ .

أبو الحسن أحمد بن حميد بن سعيد بن خالد الدمشقى ت٣٤٧هـ ، صنف تاريخ دمشق ، وكان أول تاريخ يؤلف لهذه المدينة ، وقد نقل منه ابن عساكر فى تاريخه ، وياقوت الحموى فى معجم البلدان[١] .

عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانى ت٣٥٢هـ، وقد حدث فى دمشق بتاريخ الطبرى وأضاف إليه التاريخ المذيل على الطبرى ، وقد أسهم فى تكوين الفكر التاريخى فى المنطقة الشامية ـ رغم أنه طارئ عليها ـ فقد درس عليه وروى عنه فى دمشق عدد من أبرز العاملين فى حقل التاريخ منهم : تمام الرازى ابن الحافظ أبى الحسين الرازى، وابن زِبر وغيرهما[٢] .

أبو على عبد الجبار بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحيم الدارانى ت٣٦٥هـ وقد كتب « تاريخ داريا » وهى بلدة غرب دمشق[٣] .

---

(١) انظر مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٦٠/٣ ، والتاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٧٤/٢ .

(٢) انظر مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥/١٢ ، والإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص٢٧٧ ، ومعجم المؤلفين رضا كحالة ٢٢٣/٢ ، والتاريخ العربى والمؤرخين للدكتور شاكر مصطفى ٢٧٥/٢ .

(٣) انظر مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥٩/١٤ ، والإعلان بالتوبيخ للسخاوى تحقيق روزنثال ص٢٦٣ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٤٨/٢ ، والتاريخ والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٢٧٥/٢ .

من مؤرخي العراق في القرن الرابع :

أبو جعفر بن جرير الطبرى ت ٣١٠هـ(١) : وهو من أعظم العلماء فى التاريخ الإسلامى وبجانب التاريخ ، فهو المفسر والمحدث والفقيه واللغوى ، فهو واسع المعرفة بالقراءات والتفسير والحديث والاستشهاد بالشعر ، عالمًا بأيام الناس وأخبارهم(٢) .

سمع من خلق كثير معظمهم من أهل العراق والشام ومصر ، وحدّث عنه أحمد ابن كامل القاضى ومحمد بن عيد الشافعى وآخرين . وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره(٣) . وله الكتاب المشهور فى تاريخ الأمم والملوك(٤) .

أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولى ت٣٣٥هـ(٥) : أحد العلماء بفنون الآداب ، حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء ، ومآثر الأشراف وطبقات الشعراء . حاذقًا بتصنيف الكتب ووضع الأشياء منها مواضعها ، ونادم عدة من الخلفاء ، وصنف أخبارهم وسيرهم ، وجمع أشعارهم ، ودوّن أخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتّاب والرؤساء ، كان له بيت مملوء بالكتب وهى مصفوفة ، وجلودها مختلفة الألوان ، كل صف من الكتب لون فصف أحمر وآخر أخضر وآخر أصفر وغير ذلك(٦) .

ومن كتبه : الأوراق فى أخبار الخلفاء والشعراء ، وكتاب الوزراء ، وكتاب مناقب على بن الفرات ، وكتاب أخبار أبى تمام ، وكتاب أخبار أبى سعيد الجبائى ، وكتاب

---

(١) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص٣٢٦، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٦٢/٢ ، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٥٩/٢٢، وابناء الرواة للقفطى ٨٩/٣، ومعجم الأدباء لياقوت ٢٤٢/٥ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٩١/٤ ، وكشف الظنون ٢٢/٦ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، وطبقات المفسرين للداودى ١١٢/٢ ـ ١١٣ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٦٢/٢ ـ ١٦٣ .

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٦٠/٢٢ .

(٥) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص٢١٥ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٢٧/٣ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٥٦/٤ ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ٤٧٨/٥ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢١٨/١١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٣٩/٢ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣١/٦ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٧٦٨/٣ .

(٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٢٧/٣ ، ٤٨١ .

أخبار أبي عمرو بن العلاء وغير ذلك من الكتب[1] .

علي بن الحسين بن علي الهذلي البغدادي المؤرخ المسعودي ت٣٤٦هـ[2] :

يعتبر المسعودي في مقدمة المؤرخين العرب المسلمين الذي نهج نهجاً جديداً ميّزه عن غيره من المؤرخين ، وأنشأ مدرسة جديدة في التاريخ احتذاها كثير ممن عاشوا بعده ، ومزج المسعودي بين الدراسات التاريخية والجغرافية .

لقد قضى خمسة وعشرين عامًا من عمره في رحلات متصلة ، فجاب معظم أرجاء العالم القديم . وقد تحدث عن رحلاته في بعض كتبه التي صنفها ، شرقًا وغربًا فتارة إلى خراسان ، وتارة أخرى أرمينية وأذربيجان والبلقان ، وبالعراق ، وبالشام وغير ذلك من البلدان والأماكن[3] .

وله مصنفات تاريخية كثيرة منها : كتاب أخبار الزمان ، ومروج الذهب ، والتنبيه والإشراف وفنون المعارف ، وذخائر العلوم ونظم الجواهر ، والاستذكار وغيرها كثير[4] .

أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد المرزباني ت٣٨٤هـ[5] :

كان صاحب أخبار ورواية للآداب ، حدّث عن أبي القاسم البغوي ، وأحمد بن سليمان الطوسي ، وأبي بكر بن دريد ، وأبي عبد الله نفطويه ، وأبي بكر بن الأنباري وغيرهم كثير .

وحدّث عنه أبو القاسم التنوخي ، وعلي بن أيوب القمي ، والحسن بن علي الجوهري وغيرهم ، وكان يقول : كان في داري خمسون ، ما بين لحاف ودوّاج معدة لأهل العلم الذين يبيتون عندي[6] .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص٢١٥ ـ ٢١٦ ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ٣١/٦ .

(٢) انظر ترجمته في : الفهرست لابن النديم ٢١٩ ، ومروج الذهب للمسعودي شرح وتقديم الدكتور مفيد قميحة ٤/١ ـ ٥ ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ٤٧/٤ ، والإعلان بالتوبيخ للسخاوي تحقيق روزنثال ٣٨٠٧ ، ٧٦ ، ٢٠٢ ، ٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٣١٥/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٤٣٣/٢ ، وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٥٦/٣ .

(٣) انظر مروج الذهب للمسعودي تقديم الدكتور مفيد قميحة ٤/١ ـ ٥ .

(٤) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٤٣٣/٢ ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ٥٤٥/٥ .

(٥) انظر ترجمته في : الفهرست لابن النديم ص١٩٠ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣٥/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١١١/٣ ، والإعلان بالتوبيخ للسخاوي تحقيق روزنثال ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٣٠٨ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٥٦٩/٣ .

(٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣٥/٣ ـ ١٣٦ .

وله مصنفات كثيرة منها : أخبار الشعراء ، والأوائل في أخبار الفرس ، والزهد وأخبار الزهاد ، وأخبار الشعراء الشيعة ، وغير ذلك كثيراً جداً[1] .

ومن مؤرخي العراق أيضًا : محمد بن أعثم الكوفي ت٣١٤هـ صاحب كتاب الفتوح ، يحكي أخبار الفتوحات ، وفيه معلومات هامة عن استقرار العرب في خراسان وفتحهم لأرمينية وتاريخ هذه المنطقة حتى حكم المعتصم تحت الحكم الإسلامي[2] .

وأبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي ت٣٣١هـ[3] صاحب كتاب « أخبار المقتدر » وكتاب الأسمار ، وكتاب الوزراء والكتّاب[4] .

وأبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ ت٣٨٤هـ ، كان كاتب الإنشاء في بغداد للخليفة العباسي ولعز الدولة بختيار البويهي ، ثم تقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩هـ ، وله مصنفات تاريخية منها كتاب دولة بني بويه ، وأخبار الديلم وابتداء أمرهم ويعرف بالتاجي[5] .

وعلي بن عيسى بن داود ت٣٣٤هـ وكان وزيراً للمقتدر ثلاث مرات ، له مؤلف تاريخي بعنوان : كتاب الكتاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء[6] .

وأبو الفرج قدامة بن جعفر ت٣٣٧هـ الكاتب البغدادي ، وقد كتب في المادة التاريخية كتاب زهر الربيع في الأخبار والتاريخ ، وكتاب الخراج ، ونزهة القلوب وزاد المسافر وكتاب السياسة[7] .

وأبو الحسين الحافظ بن قانع ، عبد الباقي بن قانع بن مرزوق البغدادي ت٤٥١هـ ومن مصنفاته تاريخ مرتب على السنين ، وكتاب الوفيات ولعله هو الأول[8] .

---

(١) الفهرست لابن النديم ، ١٩٠ ـ ١٩٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٦٩/٣ .
(٢) التاريخ العربي والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٤٣/٢ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص١٨٤ .
(٤) التاريخ العربي والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٤٣/٢ ـ ٤٤ .
(٥) الفهرست لابن النديم ص١٩٤ .
(٦) الفهرست لابن النديم ص١٨٦ .
(٧) التاريخ العربي والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٨٢/٢ ـ ٨٣ .
(٨) التاريخ العربي والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٨٥/٢ .

علم الجغرافية :

إن لفظ الجغرافية يُعدّ دخيلاً فى اللغة العربية ، وهو يعنى رسم الأرض ، أما منطلق المعنى لهذا العلم فى اللغة العربية فهو (علم تقويم البلدان) بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى[1].

وهو علم بأصول الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار وما يخلف حال السكان باختلافه[2]، فقد عُرف عند العرب أنه قام على الرحلات إلى الأقطار والبلدان المختلفة ، ودراسة تضاريسها ووديانها وأنهارها وخلجانها وحدودها ، وجبالها وسهولها ، ومشاهدة عادات سكانها ومعتقداتها وثرواتهم ، ومواصلاتهم ، والتعرف على مناخ تلك البلاد ، ومواقع مدنها الكبرى وأهميتها من مختلف النواحى الاقتصادية والصناعية والاستراتيجية ، ثم تدوين ذلك كله بعد تحليله على أساس علمى سليم[3] .

علم الجغرافية قبل القرن الرابع الهجرى فى كل من الشام والعراق :

كان للعرب قبل القرن الرابع الهجرى اهتمام بالجغرافية ومعرفة بها ، ومنذ القرن الأول للهجرة اتسعت معرفة العرب المسلمين بأقسام الأرض وصفاتها لاتساع فتوحهم، ثم عرفوا عمل الخرائط وقراءتها ، وكثرة نقل الكتب العلمية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وكان مما نقل من الكتب كتب فى الجغرافية حتى أتى القرن الثالث الهجرى وكثر فيه تأليف كتب لها عناوين مثل « المسالك والممالك » لجعفر بن

---

(١) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية للأستاذ / أحمد على الملا ص١٦٩ .

(٢) التاريخ والجغرافية للأستاذ عمر رضا كحالة ص٢١٥ .

(٣) التراث العلمى للحضارة الإسلامية للدكتور أحمد فؤاد ص١١٠ .

أحمد المرزوى ت٢٧٤هـ[١] ولقد أعجب العرب بكتاب المجَسْطى لبطليموس اليونانى وأخذت تنشأ على هديه مدرسة جغرافية عربية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى سواء فى الشام أو العراق ، تهتم بتأليف كتب الجغرافية الوصفية التى تؤكد جانب الطرق بين البلدان المختلفة وتقدير مسافاتها ، وتعيين محطات القوافل على طرق الحج الموصلة إلى مكة ، ومعرفة طرق التجارة بين البلدان وخاصة الشام والعراق ، وكذلك الحاجة الماسة إلى معرفة البلاد المفتوحة وشعوبها ، كل ذلك جعل حركة التأليف فى الجغرافية ذات نشاط ملحوظ قبل القرن الرابع الهجرى ، ومعلوماتها متشابهة وتدخل فى باب الأدب أكثر من الجغرافية ، ولعلها أكثر تأثراً فى طريقة تأليفها بسنة التأليف العربى فى الجغرافية[٢]. وازدادت معلومات العرب الجغرافية عن العالم غير العربى إبان الفتوحات الكبرى وهى فى جملتها لا تزودنا بمعارف جغرافية مميزة ، ففيها ذكر لفضائل المدن والبلدان المختلفة مثل المدينة وبيت المقدس والشام ومصر واليمن وبغداد وغير ذلك من المدن .

كما زادت معلوماتهم ومعارفهم الجغرافية بما نسميه بالجغرافية الفلكية . كما اعتادوا رسم الخرئط ، وتقسيم العالم إلى خمس مناطق حرارية[٣] .

لذلك نستطيع أن نقول : إن العرب قد أسهموا فى تقدم علم الجغرافية بنصيب موفور ، ومما يدل على ذلك مؤلفاتهم الكثيرة قبل القرن الرابع الهجرى ، وحفظهم لمعارف اليونان ، ودراستهم لها وتفوقهم على اليونان ، وإضافة الكثير مما لا عهد لليونان ولا لغيرهم به . وقد ساعد العرب على هذا التفوق حبهم للسياحة والرحلات ، فجابوا البلاد من الصين إلى مجاهل أفريقيا ، وأقاموا علاقات تجارية واسعة ، مع بلاد لم يسمع بها الأوربيون أو شكوا فى وجودها .

---

(١) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٩٤ ـ ١٩٥ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٤٨٧/١ .

(٢) حضارة العراق للدكتور صبرى فارس الهيتى ١٩٣/٨ ـ ١٩٤ .

(٣) التاريخ والجغرافية للأستاذ عمر رضا كحالة ص٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

علم الجغرافية فى القرن الرابع الهجرى فى كل من الشام والعراق :

بلغ تاريخ البحث الجغرافى النضج فى القرن الرابع الهجرى ، فى مجال تطوره الخلاق محركة مستقلة بذاتها ، وهو يزخر بمصنفات هامة فى محيط الجغرافية الإقليمية ، غير أن الإنتاج الأدبى فيه لم يقف عند هذا الحدّ ، فقد تم فى هذا القرن أيضًا تشكيل ما يطلق عليه اسم المدرسة القديمة للجغرافية العربية ، كما شهد هذا القرن ميلاد أكثر آثار الكارتوغرافيا[1] العربية أصالة وهو (أطلس الإسلام) ، وقد بلغ عدد الرحالة فى هذا القرن حداً كبيراً ، وفى هذا العصر بالذات نفذت الجغرافية إلى الأنماط الأدبية المقارنة لها ، وأفرد لها مكان فى دوائر المعارف ، وفى المصنفات الببليوغرافية وفى معاجم المصطلحات ، كما ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالموضوعات الأدبية .

كما قام العرب بكتابة الجداول الفلكية الجغرافية الخاصة بخطوط الطول ودوائر العرض ، كما توصلوا فى مجال وصف الطبيعة إلى أفكار جديدة ، فقد ألقيت أضواء مثيرة لتفهم عمليات التعرية والبراكين ، ورسو الجبال ، والبنية الجيولوجية والمد والجزر والأنهار وعملها وما تفعله من أشكال أرضية .

هذه الأفكار العامة السابقة الذكر شملت الفكر الجغرافى العربى فى أرجاء العالم العربى ـ وخاصة الشام والعراق كحلقتين من حلقات هذا الجسم الواحد ـ فيهمنا منه الشام والعراق وما فيهما من نشاط سياسى وعلمى وفكرى ، فبالدرجة الأولى العراق لما لها من شأن كمركز للخلافة فى القرن الرابع ، وتنشط بها الحركة العلمية ومنها علم الجغرافية ويليها مباشرة الشام كمركز سابق للخلافة أيضًا ، وإقليم تنشط فيه الحركة العلمية ومنها علم الجغرافية .

وفيما يلى سأحاول إلقاء الضوء على الدراسة التاريخية لعلم الجغرافية خلال القرن الرابع الهجرى فى كل من الشام والعراق .

---

(١) الكارتوغرافيا : صناعة الخرائط والمجسمات الجغرافية ، المعجم الجغرافى إعداد لجنة مجمع اللغة العربية ص٨٠ .

مدى اهتمام أهل الشام بعلم الجغرافية :

يقدم الأدب الجغرافى فى هذا القرن ببلاد الشام ، وفرة وتنوعًا غير مألوفين فى النتاج الجغرافى ، تعكس لنا صورة واضحة للنزعة القوية عند المسلمين إلى التنقل والترحال ، وتكشف لنا عن ملكة التطلع القوية عند علماء الشام إلى جمع المعلومات عن الأقطار المختلفة[1] ، فلقد اهتم علماء الشام بعلم الجغرافية بمثل مافعلوه بالنسبة للعلوم الأخرى . وكان سبب اهتمامهم بهذا العلم لا يختلف عن السبب الذى دفع سائر الأقطار الإسلامية للاهتمام به أيضًا ، فقد دفعهم إلى ذلك معرفة الطرق والمنازل المؤدية إلى الحج ، وطلب العلم الذى كان يجعلهم يرحلون إلى سائر الأمصار الإسلامية ، والرحلة تستلزم معرفة الأماكن والمناطق ، وكذلك وضع الخراج على الأقاليم التى فتحت فى صدر الإسلام ، وهو مدعاة لمسحها ومعرفة عامرها من غامرها، وأنواع غلاتها ، لما فى ذلك من مصلحة ظاهرة لبيت مال المسلمين[2] . ودفعهم إلى ذلك أيضًا النشاط التجارى سواء فى البر أو البحر ، وسيطرة المسلمين على مسالك التجارة العالمية[3] .

فمن أشهر من صنف فى ذلك أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى المقدسى ت٣٨٠هـ ومن قبله المطهر بن طاهر المقدسى ت بعد ٣٥٥هـ . فقد صنف البشارى كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » وصف فيه جميع أنحاء العالم الإسلامى تقريبًا[4] .

وصنف المطهر المقدسى كتاب « البدء والتاريخ » وجعل فيه ربعه عن أقسام الأرض الجغرافية ، وصفتها ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق[5] .

---

(١) العلم عند العرب لـ : ألدوميلى ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف ص٢٢٥ .

(٢) تاريخ آداب اللغة لجورجى زيدان ٣٢٨/٢ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور عبد المنعم ماجد ص٢٤٠ .

(٤) العلم عند العرب لـ : ألدوميلى ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف ص٢٢٧ .

(٥) عصر الدول والإمارات (الشام) للدكتور شوقى ضيف ص٧٨ .

لقد كانت الرحلة من أبرز سمات العرب ، حيث تمثل الوجه المشرق للجغرافية العربية وفى بطونها معين لا ينضب من المعلومات التاريخية والاقتصادية والبشرية ، عن جميع مناطق العالم الإسلامى ، فقد اعتمد البشارى المقدسى فى جمع معلوماته على الرحلة ، فكانت عنده دراسة ميدانية فى الدراسة الجغرافية[(١)] .

مدى اهتمام أهل العراق بعلم الجغرافية :

إن اهتمام أهل العراق بعلم الجغرافية لا يقل بأى حال من الأحوال عن اهتمام أهل الشام ، إن لم يزد عنه ويزد عليه ، والنتاج الجغرافى فى وفرته وتنوعه أكبر دليل على تفوق أهل العراق ، كما أن كثرة المؤلفين والكتب المصنفة فى ذلك تعطى لنا صورة واضحة للنزعة القوية عندهم إلى الرحلة ، وتكشف لنا عن ملكة التطلع القوية عندهم إلى جمع المعلومات عن الأقطار المختلفة ومدى اهتمامهم بعلم الجغرافية[(٢)] .

لقد دفع أهل العراق إلى هذا الاهتمام مدى رغبتهم فى معرفة الطرق والمنازل المؤدية إلى الحج ، وطلب العلم عن طريق الرحلة إلى سائر الأمصار ، ووضع الخراج على الأقاليم التى تحت راية الإسلام ، كما دفعهم النشاط التجارى فى البر والبحر ، والسيطرة على مسالك التجارة [(٣)] .

لقد دفع كل ذلك كثيراً من العلماء أن يصنفوا فى ذلك كتبًا كثيرة ، ليس خلال القرن الرابع ، بل من قبل ذلك ، ومن أشهر من كتب فى علم الجغرافية من علماء العراق خلال القرن الرابع الهجرى : الاصطخرى إبراهيم بن محمد الذى عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، حيث قام برحلات فى العالم الإسلامى واستفاد من ذلك فكتب كتابه « المسالك والممالك »[(٤)] ، وكتب محمد بن حوقل البغدادى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، حيث دامت رحلته

---

(١) انظر مقدمة كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص١٦ .

(٢) العلم عند العرب لـ : ألدوميلى ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف ص٢٢٥ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور عبد المنعم ماجد ص٢٤٠ .

(٤) التاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

ما يقرب من ثلاثين عامًا انعكست فى كتابه « صورة الأرض »[1]، وأبو الحسن على ابن الحسين المسعودى عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وكان ميدانه الحقيقى فيما يبدو مجال الجغرافية ومعها التاريخ والسياسة والعمران ، ويعتبر كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» تسجيلاً لما اكتسبه المسعودى فى رحلاته من خبرات وملاحظات فهو كتاب معرفة جغرافية وعمران وعلم وملاحظة وأخبار وأساطير وسياحة[2]. فالرحلة كانت تمثل الوجه المشرق للجغرافية العربية ، ومعينها لا ينضب من المعلومات التاريخية والاقتصادية والبشرية .

تعقيب :

اتفقت الدوافع التى دفعت الشاميين والعراقيين إلى الاهتمام بعلم الجغرافية ، كمعرفة الطرق والأماكن والمناطق ، التى يستخدمها الحجاج وهم فى طريقهم إلى الحج ، وطلب العلم الذى يستلزم الرحلة إلى سائر الأمصار . وضرورة مسح الأقاليم ومعرفة عامرها وغامرها ، بسبب وضع الخراج ، وكذلك النشاط التجارى براً وبحراً والسيطرة على مسالك التجارة العالمية .

كما اتفق كل منهما فى التدليل على مدى هذا الاهتمام بتأليف الكتب الجغرافية التى تخدم المكتبة العربية . فيمثل أهل الشام المقدسى البشارى الذى صنف كتابه العظيم « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » بظهوره وظهور أمثاله من الكتب الجغرافية خلال القرن الرابع الهجرى مثل أوج ما بلغته الكارتوغرافيا لفن رسم الخرائط الجغرافية عند العرب[3]. وكذلك كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل الموصلى و«مروج الذهب» للمسعودى ، على سبيل المثال من كتب العراقيين ، لقد اتفق كل منهما فى تقديم جغرافية بشرية شاملة ، لأنها تعالج جميع ما تعتقد أنه يهم دراسة الإنسان على أرضه ، وهى جغرافية حسية عاشها أصحابها فى مغامراتهم وربطوا فى

(١) مقدمة كتاب صورة الأرض لابن حوقل ١٠ ، ١٢ .

(٢) حضارة العراق للدكتور / صبرى فارس الهيتى ٢٣٢/٨ ـ ٢٣٣ .

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى العربى لـ : كراتشكوفسكى ترجمة أ. صلاح الدين هاشم ص١٩٧ .

النهاية معظم معطياتها بمشاهدتهم المباشرة ، وهى جغرافية مكتوبة[1] .

يقول المقدسى : « ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم ، فصنفوا على الابتداء ، ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيت أن أقصد علمًا قد أغفلوه وأنفرد بفنّ لم يذكروه ، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية...»[2] .

ويقول بن حوقل : « ومما حضنى على تأليفه - أى كتاب صورة الأرض - وحثنى على تصنيفه وجذبنى إلى رسمه أنى لم أزل فى حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق ...»[3] .

اتجاهات التأليف الجغرافى فى الشام :

كان التأليف الجغرافى خلال القرن الرابع الهجرى فى بلاد الشام قد أخذ العديد من الاتجاهات العلمية ، والتى يمكن إجمالها بما يلى :

أولها : العناية الشديدة بأقاليم العالم الإسلامى والأقطار المجاورة على نحو ما نراه عند البشارى المقدسى ، حيث أنه عمل على تسجيل معلومات جغرافية دقيقة وأمينة عن أقطار العالم الإسلامى ، وخاصة أقطار الوطن العربى تستند على المشاهد الشخصية[4] .

ثانيها : التخصص فى قطر واحد ، ومن كتب فى دلك لم يكن من الشام ، لذلك فمؤلفوا الشام لم يكن لديهم الاتجاه الثانى من اتجاهات التأليف الجغرافى خلال القرن الرابع الهجرى .

مجالات علم الجغرافية عند علماء الشام :

بحث جغرافيو الشام فى مجالات متعددة لعلم الجغرافية خلال القرن الرابع الهجرى منها :

---

(١) جغرافية دار الإسلام البشرية لـ : ميكل اندريه ترجمة أ. إبراهيم خورى ص٩٦ .

(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص١٥ .

(٣) صورة الأرض لابن حوقل ص١٠ .

(٤) التراث العلمى للحضارة الإسلامية للدكتور أحمد فؤاد ص١١٤ .

١ ـ **الجغرافية الوصفية والإقليمية** : وكانت أول الميادين التى طرقها الجغرافيون ، حيث أنهم اتبعوا طريقة ممتعة فى وصف العالم الإسلامى والمناطق المتاخمة لهم . وقد ضم كتاب « أحسن التقاسيم » فى معرفة الأقاليم للمقدسى الكثير من الجغرافية الوصفية ، لسطح الأرض والأقاليم والأقسام السياسية ، وذكر المسافات وطرق المواصلات(١) .

٢ ـ **الرحلات الجغرافية** : وتعدّ من أهم مصادر المعرفة الجغرافية ، وتعدّ مؤلفات الرحلات من المعلومات الجغرافية العملية ، تلك الرحلات التى قام بها الجغرافيون العرب المسلمون وغيرهم من هواة الرحلات ، فكان لهم الفضل فى اتساع معرفة الجغرافيين بأرجاء العالم المعروف ، فقد وصف المقدسى البلاد التى رحل إليها وساح فيها كجزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب ، ثم فى بلاد فارس والسند والهند ، ولخص آراءه فى هذه البلاد كلها(٢) .

٣ ـ **رسم الخرائط** : لقد قام جغرافيو الشام برسم الخرائط لما لها من أهمية وحاجة ماسة لقد كانت الحاجة ماسة إلى مسح الأراضى وتثبيت حدودها وتعيين ملكيتها ثم تثبيت طرق المواصلات (المسالك) وإحصاء المراحل والمنازل وتنظيم البريد ، بين كل قرية وقرية ، ومدينة وأخرى .

وقد قام الجغرافيون فى الشام برسم مجموعات من الخرائط ، قد رسم المقدسى للدول التى زارها خرائط ملونة استخدم فيها الرموز ، وطرق التعبير الاصطلاحى عن التضاريس فيقول : ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة ، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها المالحة بالخضرة ، وأنهارها المعروفة بالزرقة ، وجبالها المشهورة بالغيرة(٣) .

٤ ـ **الجغرافية الرياضية والفلكية** : يعدّ علم الفلك من العلوم التى اهتم بها

---

(١) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٩٧ .

(٢) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٢/٢١٤ .

(٣) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى البشارى ص٢٢ ـ ٢٣ ، وانظر ملحق الصور فى آخر البحث .

العرب وكان لأهل الشام نصيب فى هذا الاهتمام ليس فى القرن الرابع الهجرى فحسب بل من قبل ذلك، فكانت بها المراصد كما فى غيرها من بلدان العالم العربى، ويذكر غوستاف لوبون « أن العرب هم الذين نشروا علم الفلك فى العالم كله»[1] .

ولكن اهتمام علماء الجغرافية بالجغرافية الفلكية كان قليلاً ، وليس بقدر اهتمامهم بالجغرافية الوصفية ، فقد تناول المقدسى دراسة الجغرافية الفلكية غير أنه قصرّ فى ذلك تقصيرا كبيراً . وقد ذكر المراصد من بين ما شاهده وسجله فى كتابه[2] . أما أثر علماء الشام فى علم الفلك فليس هذا موضعه بالتفصيل ولكن سنتحدث عنه فيما بعد[3] . ورغم أن من علماء الشام من كان له جهد بارز فى محيط الفلك والجغرافية الرياضية ، كالبتّانى ت٣١٧هـ الذى ألف زيجًا يعرف بالزيج الصابئ، كما وصف الآلات الفلكية وصفاً دقيقاً ، وشرح طريقة استعمالها[4] ، إلا أن ذلك لم يذكره أحد من علماء الجغرافية ولم يؤرخ له .

٥ ـ **الملاحة** : تعدّ الملاحة من المجالات الجغرافية التى اهتم العرب بها وبدراستها فدرس الجغرفيون الرحلات التى كانت تتم فى البحار . ودرسوا البحار أيضاً، والمدّ والجزر ، وكيف لا يحدث ، والآلات التى كانوا يستخدمونها فى تسهيل مهمة الملاحة ، لذلك فقد كان للعلماء دور وأثر وجهد فى ذلك الأمر ، وقد ذكر ذلك المقدسى فى كتابه ، فأورد ما يثير الاهتمام فى ذكره لمواقع الخطر على الملاحة فى البحر الأحمر والخليج العربى ومن طريف ما ورد فى وصفه متعلقا بالملاحة ذكره للمنائر التى توقد فيها النار ليلاً لإرشاد السفن فى الخليج العربى ويسميها «الخشبات» وعنها يقول : ثم الخشبات التى تنسب إلى البصرة وهى الطامة الكبرى مضيق وبحر رقيق ، وقد نصب فى البحر جذوع عليها بيوت ورتب فيها قوم يوقدون بالليل حتى يتباعد عنهم المراكب من رقة تلك المواضع » ، وبعد ذلك يصف المقدسى البحر الرومى ويقول : « إن خروجه من أقصى الغرب بين السوس الأقصى والأندلس يخرج من

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعتير ص٤٥٩ .

(٢) التاريخ والجغرافية للأستاذ عمر رضا كحالة ص٢٣٠ ، ٢٥٥ .

(٣) انظر الحديث عن علم الفلك فيما بعد فى الفصل الرابع من نفس الباب .

(٤) أثر علماء العرب والمسلمين فى تطور علم الفلك للدكتور على عبد الله الدفاع ص٤٤ .

المحيط عريضاً ثم ينخرط ثم يعود فيعظم إلى تخوم الشام وعلى حافته بلدان كثيرة وثغور جليلة ورباطات فاضلة»[1].

كما اهتم الجغرافيون بدراسة الظواهر البحرية التى تتعلق بالملاحة مثل المدّ والجزر والرياح وغير ذلك ، فعن المد والجزر يقول المقدسى : « والمد والجزر أعجوبة على أهل البصرة ونعمة ، يزورهم الماء فى كل يوم وليلة مرتين ، ويدخل الأنهار ويسقى البساتين ويحمل السفن إلى القرى ، فإذا جزر أفاد عمل الأرحية (جمع رحى وهى الطاحونة) لأنها على أفواه الأنهار ، فإذا خرج الماء أدارها وبلغ الماء إلى حدود البطائح وله وقت يدور مع دور الأهلة »[2].

نلاحظ أن المقدسى يعلل حدوث المد والجزر تعليلا علميًا دقيقًا ويعزوه لتأثير القمر.

كما أن العلماء تناولوا بالبحث كلاً من التيارات البحرية والتيارات الصاعدة والدوامات المائية والرياح ، فعن الرياح يقول المقدسى : « ومن رسمهم ـ أى المراكب ـ أن يبعثوا رجالا يرقبون الريح ، فإذا سكنت الرياح أو غلبت التى هم من نحوها ساروا وإلا أقاموا المدة الطويلة إلى وقت الفرَج »[3].

٦ ـ **الجغرافية الطبيعية** : لقد تناول علماء الجغرافية الشاميون الظواهر الطبيعية بالدراسة والتحليل ، محاولين وصفها وصفًا دقيقًا وتعليل أسباب حدوثها ، فاهتموا بدراسة ظاهرة المد والجزر والظواهر الفلكية الأخرى وكيفية حسابها . فلقد اهتم المقدسى بدراسة نظم الأرض ودراسة المسالك بكل تفاصيلها ، وعلاقة الإنسان بالمناخ والأرض فى الأقاليم المختلفة ، وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال والبحار والأنهار ، ثم يذكر هواء الإقليم والرياح التى تهب عليه فى الصيف والشتاء ويذكر المياه ومصادرها فى الإقليم سواء كانت أنهاراً أو مياهاً جوفية أو غير ذلك[4].

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص٢٦ ـ ٢٧ .
(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص١١١ .
(٣) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص٢٥ .
(٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص١٦ .

فقد تعرض المقدسى للجغرافية الطبيعية ، ولكنه تعرض قليل ، لم يكن مساوياً لتعرضه للجغرافية الوصفية أو الجغرافية الإنسانية حيث بحث فى طوائف الناس واللغة والتجارة والأخلاق والعادات والأحوال السياسية والضراب والأماكن المقدسة [1].

اتجاهات التأليف الجغرافى فى العراق :

كانت اتجاهات التأليف الجغرافى فى القرن الرابع الهجرى فى بلاد العراق تخضع لاتجاهات علمية كما كانت تخضع بلاد الشام وهذه الاتجاهات هى :

أولها : اعتنى علماء الجغرافية العراقيون بأقاليم العالم الإسلامى والأقطار المجاورة من حيث وصفها إقليميًا كما عند كل من : أحمد بن سهل البلخى ت٣٢٢هـ، وإبراهيم بن محمد الاصطخرى ت٣٤٦هـ ، ومحمد بن على بن حوقل ت٣٦٧هـ وعلى بن الحسين المسعودى ت٣٤٦هـ. وقد عمل هؤلاء العلماء على تسجيل معلوماتهم الجغرافية ، بكل دقة وأمانة عن أقطار العالم الإسلامى التى تستند على المشاهد الشخصية[2].

ثانيها : نوع من التخصص فى قطر واحد ، فقد كتب أحمد بن فضلان ـ وهو من علماء القرن الرابع ـ رسالة وصفت أحوالاً طبيعية واجتماعية فى بقاع من الأرض فى تركيا وروسيا ، ذهب إليها أيام الخليفة المقتدر[3].

مجالات علم الجغرافية عند علماء العراق :

درس الجغرافيون العراقيون خلال القرن الرابع الهجرى المجالات أو الفروع الخاصة بعلم الجغرافية من بين هذه المجالات :

١ ـ الجغرافية الوصفية والإقليمية : اهتم الجغرافيون العراقيون بالجغرافية الوصفية ، والإقليمية بوصف العالم الإسلامى نتيجة لاتساع الدولة الإسلامية اتساعًا

---

(١) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٩٧ .

(٢) حضارة العراق للدكتور صبرى فارس الهيتى ١٩٩/٨ .

(٣) التراث العلمى للحضارة الإسلامة للدكتور أحمد فؤاد ص١١٤ .

عظيماً ، وقد تبلور هذا الاهتمام فأخذ العرب فى التأليف الجغرافى ، وكانت الجغرافية الوصفية أول الميادين التى طرقها الجغرافيون ، وقد ضم كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل وصفاً لأشكال الأرض ، ومقدارها فى الطول والعرض ، وأقاليم البلدان ، ومحلّ الغامر منها والعمران ، من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرّد بالأعمال المجموعة إليها[1] وضم كتاب « مروج الذهب » للمسعودى وصفًا لهيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأعوارها ، وجبالها وأنهارها[2] ، وغير ذلك من الأمور .

٢ ـ **الرحلات الجغرافية** : تعدّ الرحلات الجغرافية من أهم مجالات علم الجغرافية حيث أنها ملاحظة شخصية قام بها الجغرافيون العراقيون من هواة الرحلات ومحترفو التجارة ، وهى مصدر هام من مصادر المعرفة الجغرافية إلى جانب المص الأخرى .

من بين تلك الرحلات « رحلة ابن فضلان » أحمد بن فضلان بن عباس بن رشيد من علماء الجغرافية فى القرن الرابع الهجرى ، « أرسله الخليفة المقتدر فى صفر سنة ٣٠٩هـ رسولاً إلى أمير « بلغار الفولجا » فأتاهم فى الثالث عشرمن المحرم سنة ٣١٠هـ ، وبعد عودته إلى بغداد وصف رحلته فى رسالة تشتمل على أول وصف يعتمد عليه للبلاد التى زارها ، وذلك لما تتحلى به من قدرة كبيرة على الملاحظة وروح موضوعية لم تَشُبْها الأخبار المبالغ فيها إلا فى أحوال قليلة جداً »[3] .

واشتهر ابن حوقل أبو القاسم محمد بن حوقل الموصلى برحلاته الواسعة فى العالم الإسلامى حيث غادر بغداد فى سنة ٣٣١هـ، حيث دامت رحلاته ما يقرب من ثلاثين عامًا ، وقد طاف فى أنحاء مصر والشام والعراق والبحرين والإحساء وإيران وأذربيجان وأرمينيا ، كما تجوّل فى جهات آسيا الوسطى والجنوبية الشرقية حيث بلغ إقليم السند ، كما أنه تجول فى بلاد البلغار ووصل إلى أواسط نهر الفولغا ، وتجول

---

(١) صورة الأرض لابن حوقل ص١٠ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ٣/١ .

(٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٤١/٤ ـ ٢٤٢ .

كذلك فى ربوع المغرب والأندلس وجهات غربى إفريقيا حتى مملكة غانة ، كذلك زار نابولى وصقلية »[١] .

وقد عدّت رحلة صقلية من أمتع وأطرف الرحلات التى سجل خلالها انطباعاته عنها وعن أهلها ، ثم ضمنها كتابه صورة الأرض ، وقد نزلها سنة ٣٦٢هـ فجال فى مدنها الرئيسية جولات واسعة وسجل رحلته هذه ووصفها وصف المشاهد[٢] .

٣ ـ رسم الخرائط : وهى من مجالات علم الجغرافية فى القرن الرابع الهجرى بإقليم العراق ، لقد كانت الحاجة ماسة إلى مسح الأراضى وتثبيت حدودها وتعيين ملكيتها ثم تثبيت طرق المواصلات (المسالك) وإحصاء المراحل والمنازل وتنظيم البريد ، وقد قام الجغرافيون فى العراق برسم مجموعات من الخرائط كما رسموا خرائط منفردة، فوضع أبو زيد البلخى ت٣٢٢هـ أول أطلس إسلامى وألحقه بكتابه « كتاب الأشكال أو صورة الأقاليم »، ثم مضى على أثره ابن حوقل ت٣٦٨هـ وقيل ٣٦٧هـ، وكان من الأشخاص الذين يعنون بالخارطة وإخراجها كما هو واضح فى كتابه (صورة الأرض) إذ يقول: « وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلاً يحكى موضع ذلك الإقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع ، وما فى أضعافها من المدن والأصقاع ، وما لها من القوانين والارتفاع ، وما فيها من الأنهار والبحار »[٣] . وإذا كانت الخرائط العربية قد بدأت تزهر فى القرن الثالث فإنها بلغت القمة فى القرن الرابع الهجرى ممثلة فى تلك السلسلة من الخرائط التى أطلق عليها اسم « أطلس الإسلامى » والذى يمثل أوج ما بلغه فن الخرائط عند العرب[٤] .

وقد وضع الجغرافيون فى العراق قواعد وأصولاً لرسم الخرائط منها توجيه الخرائط بصورة مقلوبة ، وهى خالية من مقياس الرسم ، وكانت الأنهار ترسم باللون البنى الغامق ، وكل الأنهار مستقيمة المجرى ، وترسم الجبال على هيئة الصورة والمنظر

---

(١) حضارة العراق للدكتور صبرى فارس الهيتى ٢٢٩/٨ .

(٢) مجلة المنهل العدد (٥٠٠) الصفحة (٤٠) تصدرها المملكة العربية السعودية .

(٣) صورة الأرض لابن حوقل ص١٠ وانظر ملحق الصور فى آخر البحث .

(٤) علم الخرائط للدكتور محمد صبحى عبد الحكيم وزميله ص٢٣ .

الفوتوغرافى مجسمة وتصبغ عادة بلون واحد ، بل قسم منها يلوّن بالأحمر أو الأخضر المشبع أو الأصفر أو أصفر مشبع أو رمادى أو وردى أو أصفر بنّى أو أصفر كدرى أو زيتى أو حديدى ، والمدن إما أن تلوّن بالأصفر أو بالأحمر ، أما ألوان البحار فإنها إما الزرقة أو الخضرة المائلة إليها ، أما الحدود فإنها تكتب خطاً متحداً بكلمة حد كذا وكذا إذ أنهم لم يصطلحوا على الحدود بعلامة فارقة . أما طرق المواصلات فهى خطوط حمراء . أما الصحارى فتلوّن بلون رمالها الشهيرة ، فهى إما أن تكون حمراء أو بنية أو صفراء ، ثم تبعثر فى وسطها نقط صغيرة للدلالة على الرمال ، وتلون البحيرات باللون الأخضر(١) .

٤ ـ **الجغرافية الرياضية والفلكية** : عرف الجغرافيون فى العراق وضع الخرائط وضعًا علميًا مبنيًا على تعيين خطوط الطول ودوائر العرض فى العناصر الجغرافية المختلفة حيث وصلوا بذلك إلى تحقيق خطوة عظيمة فى هذا العلم . لقد وضعوا جدولاً لخطوط الطول الأرضية وجعلوا خط القبة الأرضية (خط الابتداء) يمر بخط جزائر الخالدات وفق ابتكار جديد دقيق عمل به ، لقد عرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء ، ويقول المسعودى : « وصناعة التنجيم التى هى جزء من أجزاء الرياضيات ، وتقسم إلى قسمين أحدهما هيئة الأفلاك وتراكيبها وتأليفها ، والثانى العلم بما يتأثر عن الفلك(٢) .

وقد ذكر المسعودى أيضاً حركة الأرض فقال : « أن الأرض مستديرة ، ومركزها فى وسط الفلك والهواء محيط بها من كل الجهات ، وأنها عند فلك البروج بمنزلة النقطة قلة »(٣) .

ومن الآلات المستعملة فى الرصد والدراسات الفلكية التى أضافها العرب : الاسطرلاب وقد تطورت هذه الآلة على يد العرب ، فمن الطلائع الأولى لصناعة الاسطرلاب القزازى ت١٨٠هـ أما فى القرن الرابع فقط عالج أحمد بن محمد

---

(١) حضارة العراق للدكتور صبرى فارس الهينى ٢٠٩/٨ ، ٢١٠ .

(٢) حضارة العراق للدكتور صبرى فارس الهيتى ٢١٢/٨ نقلا عن التنبيه والإشراف للمسعودى .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ٨٤/١ .

الصاغى ت٣٧٩هـ هذه الصناعة وكان ماهراً فى صناعة الاسطرلاب حتى ضرب به المثل فى الجودة ، وأدخل العديد من التطويرات والزيادات القيمة على آلات الرصد[١] .

٥ ـ الملاحـــة : اهتم الجغرافيون العراقيون بالملاحة كمجال من المجالات الجغرافية، فدرسوا الرحلات التى كانت تتم فيها ، والبحار التى كانت تقصدها مراكبهم والسواحل التى ترسوا بها ، كما تطرقوا إلى المدّ والجزر ، وكيف يحدث والآلات التى كانت تستخدم لتسهيل مهمة الملاحة ، لقد كان لعلماء العراق جهود ملموسة تبين تطور ذلك على أيديهم وقد تحدث عن ذلك المسعودى فى كتابه مروج الذهب فقال « ووجدت نواخزة بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة من السيرافيين والعمانيين عند البحر الحبشى فى أغلب الأمور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم ، وكذلك شاهدت أرباب المراكب فى البحر الرومى من الحربية والعمالقة والنواتية وأصحاب النقل والرؤساء ، ومن يلى تدبير المراكب والحرب فيها مثل أبى الحارث وذلك بعد الثلاث مائة يعظمون طول البحر الرومى وعرضه وكثرة خلجانه وتشعبه »[٢] .

واهتم الجغرافيون أيضاً بدراسة الظواهر البحرية التى تتعلق بالملاحة مثل المدّ والجزر والرياح وغير ذلك ، فمن المدّ والجزر مثلاً كتب المسعودى فى تعليله لأسباب حدوثه : « وذلك أمد مدّ الجنوب جزر الشمال ، ومدّ الشمال جزر الجنوب ، فإن وافق القمر بعض الكواكب السيارة فى أحد الميلين تزايد الفعلان وقوى الحمى واشتد لذلك سيلان الهواء فاشتد لذلك ماء البحر إلى الجهة المخالفة للجهة التى ليس فيها الشمس »[٣] .

ويتكلم المسعودى عن الموجة المدية التى تدخل مصب الأنهار محدثة دوياً وصخباً ، وفيها يرافع مستوى الماء من البحر على مستوى ماء النهر نفسه ، والمقدسى

---

(١) حضارة العراق للدكتور صبرى فارس الهينى ٢١٤/٨ ، انظر ملحق الصور فى آخر البحث .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ١٥٠/١ ـ ١٥٦ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ١١٦/١ .

يخبرنا عند الكلام على إقليم العراق منذ أكثر من عشرة قرون بأن أهل البصرة كانوا يفيدون بقوى المد والجزر فى إدارة الطواحين[1].

أما عن الرياح فقال المسعودى : « وكل ما يركب هذا البحر والمحيط الهندى من الناس رياح يعرفونها فى أوقات تكون منها مهابها قد علم ذلك قولاً وعملاً ، ولهم دلائل وعلامات يعلمون بها فى إبان هيجانه وأحوال ركوده وثوراته »[2].

٦ ـ الجغرافية الطبيعية : تناول علماء العراق الجغرافيون الظواهر الطبيعية بالدراسة والتحليل محاولين وصفها وتعليل أسباب حدوثها ، فاهتموا بدراسة ظاهرة المدّ والجزر ـ كما سبق أن بينّا ـ وكذلك كروية الأرض والظواهر الفلكية الأخرى وكيفية حسابها ، وقد درسوا المناخ والعوامل المؤثرة فيه ، وطبيعة الأقاليم المناخية وناقشوا حركة الرياح العامة ، والرياح المحلية فهذا المسعودى يقول : « إذا كان مسير الشمس فى الميل الشمالى عن معدل النهار حمى الهواء فى ناحية الشمال ويرد الهواء الجنوبى ، فيجب من ذلك أن ينقص الهواء الجنوبى ويحتاج إلى موضع أصغر ويتسع الهواء الشمالى ويحتاج إلى موضع أوسع ».

كما أنه يكتب عن الرياح فيقول : « إذ ليس الريح شيئًا غير حركة الهواء وتموجه »، ثم يستطرد قائلاً « والرياح محدودة بحسب الآفاق اثنا عشر أفقًا وسموا الرياح التى تأتى من المغرب الدبور ، والرياح التى تأتى من المشرق الصبا »[3]، ثم يأتى المسعودى برأى بارع لم يستطع التوصل إليه إلا بعد مرور عدة قرون فقد ذكر عن المراحل التى تمر بها الأنهار وقال : بأن للأنهار شبابًا وهرمًا وحياة وموتًا ونشورًا كما يكون ذلك فى الحيوان والنبات »[4].

كما تعرض الجغرافيون إلى دراسة ظواهر الجو ، وهنا نرى إخوان الصفا يقدمون شرحًا لظواهر جغرافية طبيعية عديدة منها كسوف الشمس وخسوف القمر ، كما أنهم

---

(١) فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية للدكتور عز الدين فراج ص٩٥ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ١١١/١ ـ ١١٢ .

(٣) حضارة العراق د/ صبرى فارس الهيتى ٢٢٣/٨ نقلا عن مروج الذهب للمسعودى .

(٤) مروج الذهب للمسعودى ٩٦/١ .

يتعرضون لدورة الفصول تبعاً لحركة الشمس الظاهرة إذ تصوروا الأرض جسماً كروياً ، كما قالوا بوجود غلاف جوّى يحيط بالكرة الأرضية ويقع بين أدنى الطبقات السماوية وبين الأرض ، كما ارتأوا أن مياه البحار تصير بخاراً يتصاعد فى الهواء ليتكون سحباً متجمعة تسوقها الرياح إلى قمم الجبال ، حيث تتكاثف وتتساقط مطراً ، وعلى هذا النحو ينصرف كثير من هذا الماء إلى الأنهار »[١] .

كما تناولت رسائل إخوان الصفا التكوين الجيولوجى للأرض فوضعت ما بها من معادن وتحدثت عن الزلازل والبراكين وحاولت أن تربط بين الظاهرتين ، كما اشتملت على فصول فى الجغرافية الحيوية ، فدرست النبات وتوزيعه والحيوان وخصائصه ، فهكذا كانت الرسائل محاولة جديدة مبتكرة فى دراسة الجغرافيا الطبيعية على الأسس العلمية [٢] .

تعقيب :

قبل أن نبين أوجه الاتفاق والاختلاف ، نذكر الاتجاهات التى سادت خلال القرن الرابع الهجرى وهى : وصف أقطار العالم الإسلامى وصفاً إقليمياً ، وصف قطر واحد ، وهو نوع من التخصص فى قطر واحد من أقطار العالم الإسلامى .

أما الاتجاه الأول فيتفق الشاميون والعراقيون ، حيث اعتنى كل منهما عناية شديدة بأقاليم العالم الإسلامى والأقطار المجاورة ، ويعتبر هذا التأليف نوعًا عامًا ، ونراه واضحاً فى تصنيف المقدسى البشارى وابن حوقل الموصلى والمسعودى .

أما الاتجاه الثانى فتنفرد به العراق دون الشام حيث التخصص فى التصنيف الجغرافى فى قطر واحد حيث كتب أحمد بن فضلان الذى عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ـ رسالته وذكر بها وصفاً للأحوال الطبيعية والاجتماعية فى بقاع من الأرض معينة وهى تركيا وروسيا فى أيام الخليفة المقتدر بالله[٣] . أما الشام فلم أحصل على أحد صنف فى هذا الاتجاه خلال القرن الرابع الهجرى .

---

(١) حضارة العراق للدكتور صبرى فارس الهيتى ٢٢٤/٨ .

(٢) التاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٢٧ .

(٣) التراث العلمى للحضارة الإسلامية للدكتور أحمد فؤاد ص١١٤ .

تعددت مجالات علم الجغرافية عند علماء الشام وعلماء العراق كمجال الجغرافية الوصفية ، والرحلات الجغرافية ، ورسم الخرائط ، وفى مجال الملاحة ، والجغرافية الرياضية والفلكية ، والجغرافية الطبيعية .

وقد اتفق كل من علماء الشام والعراق فى بحثهم فى تلك المجالات المتعددة ، ففى مجال الجغرافية الوصفية وصفوا عالمهم والمناطق المتاخمة لهم ، فكانت أول الميادين التى طرقها الجغرافيون الشاميون والعراقيون . فنستطيع أن نقول أن كلا منهما برع فى الجغرافية الوصفية للممالك والبلدان والأصقاع والأقطار الإسلامية ويصنفون الكتب فى ذلك .

كما اتفق كل منهما فى حب الرحلة فى طلب العلم الذى فشا أمره بين العرب مما ساعد على تقديم المعارف الجغرافية ، فوضع طبقة من أهل المعرفة الشاميين والعراقيين كتبا فى الجغرافية دوّنوا فيها ما عرفوا من البلاد وما سمعوه من أخبارها أخذاً ونقلا عن الرحالة والتجار والحجاج وأهل السير والآثار ، كما فعل المقدسى فى رحلته وابن حوقل أيضًا فى رحلته وابن فضلان وغيرهم ، كما يشتركان ويتفقان فى العوامل التى ساعدت على ظهور وتقدم أدب الرحلات ، كفرض الحج على المسلمين، واتساع أراضى الخلافة الإسلامية ، والرحلة فى طلب العلم ، والتجارة ، والاستعداد الفطرى ، والاتصال بالثقافات الأخرى .

أما المجال الثالث وهو رسم الخرائط فكل من جغرافيّ الشام والعراق قاموا برسم الخرائط واعتادوا رسمها كوسيلة لتوضيح المعلومات الجغرافية ، والسبق فيها للعراقيين على الشاميين فقط وضع أبو زيد البلخى ٣٢٢هـ أول أطلس عربى ألحقه بكتابه «صور الأقاليم» ويشتمل فى تسلسل منتظم على خرائط للعالم وللجزيرة العربية ولبحر فارس والمحيط الهندى والمغرب ومصر والشام وبحر الروم وغير ذلك[1]. أما المقدسى فقد جاء بعده ورسم خرائط مستقلة لكل قسم من الأقسام الأربعة عشر التى قسم إليها العالم الإسلامى ، واستخدم فى تلك الخرائط طرقًا لتمثيل الظاهرات الجغرافية المختلفة،

---

(١) التاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٢٦ .

حتى يمكن للجميع أن يفهمها فهماً صحيحاً ، فرسم الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخضرة والأنهار بالزرقة والجبال المشهورة بالغبرة[1] .

أما المجال الرابع وهو الجغرافية الرياضية والفلكية فإن الغلبة فيه لعلماء العراق أما علماء الشام فكان عندهم تقصير فى ذلك . فان اهتمام أهل الشام بالجغرافية الرياضية والفلكية كان قليلاً ، وليس على نفس درجة اهتمامهم بالجغرافية الوصفية فأشهر جغرافى الشام وهو المقدسى رغم أنه تناول فى كتابه الجغرافية الفلكية إلا أنه قصر فيها وقد خلف آثاراً فى كثير من كتب الجغرافية التى ظهرت فى القرون التالية[2] . أما جغرافيو العراق فكان باعهم فى هذا المجال طويلاً حيث وضعوا الخرائط وعينوا خطوط الطول ودوائر العرض ، وعرفوا الأنواء وخطوط الاهتداء ، وأن الأرض مستديرة ومركزها فى وسط الفلك والهواء محيط بها من كل الجهات ، واستعملوا آلات الرصد وصنعوا الاسطرلاب وأدخلوا عليه التطويرات والزيادات[3] .

أما المجال الخامس فالتفوق ملحوظ عند جغرافى الشام والعراق فى مجال الملاحة والكتابة عنه ، واهتمّ كل منهما بدراسة الظواهر البحرية التى تتعلق بالملاحة مثل المدّ والجزر والرياح وغير ذلك ووصف ذلك المقدسى فى كتابه ، وكذلك المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » وعلل كل منهما حدوث المد والجزر وربطوا بين المد والجزر وأثر القمر والشمس عليهما ، وتناولوا بالبحث كلا من التيارات البحرية والتيارات الصاعدة والدوامات المائية والرياح، وتحدث عن ذلك المقدسى والمسعودى فى كتبهما.

أما المجال السادس والأخير وهو الجغرافية الطبيعية فقد اتفق كل من الشاميين والعراقيين المهتمين بالجغرافية فى تناولهم لهذا المجال ، فتناولوا الظواهر الطبيعية بالدراسة والتحليل ، ووصفوها ، وعللوا أسباب حدوثها كظاهرة المد والجزر وكروية الأرض ، ودرسوا المناخ ، وطبيعة الأقاليم المناخية ، وناقشوا حركة الرياح العامة والرياح المحلية ، كما تعرضوا لدراسة ظواهر الجو ككسوف الشمس وخسوف القمر ، وحركة

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) التاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٣٠ .

(٣) حضارة العراق للدكتور صبرى فارس الهيى ٢١٣/٨ ـ ١٤ .

الشمس الظاهرة وتعرضوا للجبال والسهول والمياه وأنواعها كمياه الأنهار والبحار والجوفية وغير ذلك[1].

لقد استطاعوا معرفة حجم الأرض بقياس درجة سطحها ، وعينوا الكسوف والخسوف ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وقدروا طول السنة ، وأدركوا الإعتدالين[2].

ارتباط الجغرافية بالعلوم الأخرى فى الشام :

إن إسهام الجغرافية فى التاريخ والفلك وغيرهما لأمر واضح ، ففى كل كتاب جغرافى تقريباً بعض الملعومات التاريخية ، فقد ذكر المطهر بن طاهر المقدسى جزءاً من كتابه « البدء والتاريخ » للحديث عن أقسام الأرض الجغرافية[3].

وكذلك المقدسى البشارى صاحب كتاب « أحسن التقاسيم » فقد صدره بمقدمة فى تاريخ علم الجغرافية عند العرب إلى أيامه ، ضمنها نقداً للباحثين فى هذا العلم[4].

كما ذكر فيه كثير من الأقسام السياسية والأحوال السياسية[5] فاتساع رقعة الفتوح الإسلامية أدى بالمؤرخ إلى توجيه اهتمامه نحو الجغرافية ، ففى كتاب « البدء والتاريخ » نجد بعض الشروح العرضية المتصلة بالجغرافية .

كما ارتبط علم الجغرافية بعلم الفلك فأورد المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم» ما يثير الاهتمام فى ذكره لمواقع الخطر على الملاحة ، والاهتمام بظواهر البحر والمدّ والجزر فقد وصف المد والجزر نصف النهارى بتفصيل كبير ، والربط بين المدّ والجزر وأثر القمر والشمس عليهما[6].

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ٩٦/١ ، وأحسن التقاسيم للمقدسى ص١٦ .

(٢) الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على ٢٢٨/١ .

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون للدكتور شاكر مصطفى ٤٠٧/١ .

(٤) تاريخ آداب اللغة جورجى زيدان ٢٣٠/٢ .

(٥) التراث العلمى للحضارة الإسلامية للدكتور أحمد فؤاد ص١١٤ .

(٦) أحسن التقاسيم للمقدسى ص١١١ .

كما توجد صلة وثيقة بين الجغرافية واللغة ففى القرن الرابع الهجرى اختلف تناول المسائل الجغرافية اختلافاً كبيراً ، ثم تطورت الكتابة شيئاً فشيئاً فأصبحت تكتب بأسلوب مقرر على تفاوت فى ذلك وكان هذا الأسلوب أهم سمات الجغرافية عند المسلمين ، قد استمر هؤلاء اللغويون المتأدبون فى تحرير هذه المادة الأدبية اللغوية التى تؤلف مادة جغرافية ، فالمقدسى قد جالس الأدباء والقراء وكتبة الحديث أثناء جمعه لكتابه « أحسن التقاسيم »[1].

واستمرت هذه الصلة بين اللغة والجغرافية قائمة خلال القرن الرابع الهجرى سواء فى الشام أو العراق على السواء[2].

ارتباط الجغرافية بالعلوم الأخرى فى العراق :

ليس هناك خلاف فى ارتباط الجغرافية بالعلوم الأخرى كما هو الحال فى الشام فقد كان كثير من جغرافى العراق مؤرخين فى الوقت نفسه مثل البلخى والمسعودى وغيرهما كما اشتمل كثير من المصنفات التاريخية على فصول هامة فى الجغرافية[3].

لذلك نلاحظ الارتباط الوثيق بين الجغرافية والتاريخ ، ففى كل كتاب جغرافى تقريباً بعض المعلومات التاريخية ، ثم إن اتساع رقعة الفتوح الإسلامية أدى بالمؤرخ إلى توجيه اهتمامه نحو الجغرافية ، ففى كتاب فتوح البلدان للبلاذرى نجد بعض الشروح العرضية المتصلة بالجغرافية ، فالحاجة إلى توضيح بعض الأمور الجغرافية كان دافعاً قوياً لنمو الجغرافية الإسلامية ومؤثراً فى توجيهها إلى حد كبير ، والمسعودى يعتبر أول من جمع بين التاريخ والجغرافيا العلمية بأسلوب رائع ، فتاريخه يبدأ بوصف شكل الأرض والمدن ، والظواهر الجغرافية البارزة والمحيطات والجبال والأنهار والجزر والبحيرات والأبنية ، والتغيرات الطبيعية التى حدثت على الأرض[4].

---

(١) تاريخ آداب اللغة لجورجى زيدان ٢/ ٣٣٠ .

(٢) التاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٢٠ .

(٣) التاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٢١ .

(٤) علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال ترجمة صالح العلى ص١٤٩ ـ ١٥١ .

كما ارتبط علم الجغرافية بعلم الفلك ويوضح ذلك المسعودى بكتاباته عن الجغرافية الفلكية حيث كتب عن اعتقاده بكروية الأرض وبالغلاف الغازى المحيط بها، ويصف الرياح الرسمية فى المحيط الهندى والبحر العربى ، ويذكر المواقيت الصالحة للملاحة فى تلك المياه معتمدة على الرياح الموسمية ، كما يشرح أيضًا فى كتابه مروج الذهب حركتى المد والجزر ، وناقش موضوع نشأة البحار وامتدادها وملوحتها ، كما حلل دورة التعرية النهرية ، ولم يغفل الإشارة إلى التبخر والتكاثف والإشعاع وغير ذلك[١]، مما دل على مدى الارتباط الوثيق بين الجغرافية والفلك .

كما يوجد ارتباط وثيق بين الجغرافية واللغة ، فقد استمر اللغويون المتأدبون فى تحرير المادة اللغوية التى تؤلف مادة جغرافية ، وذلك بعد أن تطورت الكتابة شيئًا فشيئًا وأصبحت الكتب الجغرافية تكتب بأسلوب مقرر ، وكان هذا الأسلوب أهم سمات الجغرافية عند المسلمين . واستمرت الصلة بين اللغة والجغرافية قائمة خلال القرن الرابع الهجرى سواء فى العراق أو الشام[٢] .

تعقيـــب :

ارتبط علم الجغرافية بعلوم أخرى مختلفة ، يتفق فى ذلك وجوده فى الشام ووجوده فى العراق ، ففى كتب الجغرافية نجد معلومات تاريخية ، بل نجد أجزاء كبيرة فى ذلك أو نجد أجزاءً من كتب التاريخ على سبيل المثال تشتمل على معلومات جغرافية فالمطهر المقدسى جعل جزءاً من كتابه « البدء والتاريخ » فى علم الجغرافية . وكذلك المقدسى البشارى فى كتابه أحسن التقاسيم تصدره بمقدمة فى تاريخ علم الجغرافية عند العرب ، كما ذكر فيه كثير من الأحوال السياسية .

ومصنفات العراقيين أيضًا ارتبط فيها علم الجغرافية بالتاريخ ، وعلم التاريخ بالجغرافية ، فالبلخى والمسعودى كل منهما مؤرخ وجغرافى ، وقد اشتمل كتاب المسعودى على فصول فى الجغرافية وفصول فى التاريخ ، لذلك عرف المسعودى بأنه أول من جمع بين التاريخ والجغرافية .

---

(١) التاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٢) التاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٢٠ .

كما ارتبط علم الجغرافية بعلم الفلك ويتساوى فى ذلك وجوده فى الشام والعراق فالمؤلفات الجغرافية الشامية ارتبطت بمعلومات كثيرة من علم الفلك بل وجدت بينهما صلة وثيقة ، لحاجة الجغرافيين لعلم الفلك وما له من أهمية ، فالمصنفات الجغرافية الشامية والعراقية قد تعرضت للظواهر الطبيعية ودراستها مستعينة فى ذلك بعلم الفلك وذلك واضح فى كتاب المقدسى « أحسن التقاسيم »[1] وكتاب المسعودى « مروج الذهب » وكتاب ابن حوقل « صورة الأرض »[2].

وكذلك ارتبط علم الجغرافية باللغة ففى القرن الرابع تطورت الكتابة ، وقد تناول المؤلفون المسائل الجغرافية بطريقة مختلفة سواء فى الشام أو العراق ، وأصبحت الكتب الجغرافية تكتب بأسلوب مقرر ، وهذا الأسلوب أهم سمات الجغرافية عند المسلمين.

الجغرافيون الشاميون وإضافتهم الجديدة :

ظهر خلال القرن الرابع الهجرى بإقليم الشام جغرافيون بارزون ، قدموا إبداعات عديدة للبشرية ، كانت بمثابة إضافات علمية قدموها لعلم الجغرافية ، منهم :

المطهر بن طاهر المقدسى[3] صاحب كتاب « البدء والتاريخ » ألفه سنة ٣٥٥هـ به فصل جغرافى كتبه عن صفة الأرض ، ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها ، وصفة البحار والأنهار ، وعجائب الخلق والأرض[4].

وقد جمع فيه معلومات وفيرة عن الأرض وعدد أقاليمها ، وعن البحار والأنهار ، كما كان محاولة لإقامة جسر اتصال بين التاريخ والجغرافية .

ومحمد بن أحمد المقدسى البشارى ت٣٨٠هـ[5] صاحب كتاب « أحسن

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص١١١ .

(٢) علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ترجمة د/ صالح العلى ص١٤٩ وما بعدها ، والتاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٣) سبق ذكر مصادر ترجمته بمبحث التاريخ .

(٤) عصر الدول والإمارات ـ الشام للدكتور شوقى ضيف ص٧٨ .

(٥) انظر ترجمته فى : كشف الظنون لحاجى خليفة ص١٦ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٥٢/٣ والتاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٢٦ .

التقاسيم فى معرفة الأقاليم » طاف المقدسى بأرجاء العالم الإسلامى فيما عدا الهند وسجستان والأندلس ، وقد دوّن معلوماته فى كتابه سنة ٣٧٥هـ، وأعاد كتابته فى سنة ٣٧٨هـ، واعتمد ياقوت الحموى على النسخة الأخيرة فى معجمه الجغرافى ، وقد استعان بالكتب المؤلفة وبسؤال أهل التجارب ، وحرص على أن يذكر فى كتابه الأمور الموثوقة وما أغفله الأقدمون فى كتبهم ، كما أحب أن يعتمد على ما رآه وعرفه بنفسه، وقد ذكر فى كتابه « أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة ، وتحريت قدر جهدى الصواب واستعنت بفهم أولى الألباب ووصفت ما شاهدته وعرفته ، وقد اجتهدنا فى ألا نذكر شيئاً قد سطروه ، ولا نشرح أمراً قد أوردوه إلا عند الضرورة ، مع أنه لا يعرف فضل كتابنا هذا إلا مَنْ نظر فى كتبهم أو دوّخ البلدان وكان من أهل العلم والفطنة »[1].

وعمدة المقدسى فى كتابه : الكلام على الجغرافية الوصفية سطح الأرض والأقاليم والأقسام السياسية وذكر المسافات وطرق المواصلات ، وقلما تعرض للجغرافية الطبيعية ، لكنه يكثر التفصيل فى الجغرافية الإنسانية ، فيبحث فى المناخ والزرع وطرائف الناس واللغة والتجارة والأخلاق والعادات والأحوال السياسية والغرائب والأماكن المقدسة[2].

ومما قدمه المقدسى من جديد أيضًا ، أنه رسم للدول التى زارها خرائط ملونة ، استخدم فيها الرموز وطرق التعبير الاصطلاحى عن التضاريس كى يمكن فهمها على الوجه الصحيح[3]. لقد أراد المقدسى الجغرافى العالم الدقيق ، أن يكون البحث دائمًا مبنياً على الدرس والاختبار منظمًا ، مبوباً ، وافياً . وقد وضع قوانين الرحّالين وقواعد السفر فى كتابه[4] . عزّ على المقدسى أن يرى غيره قد اخترع فى العلوم وهو لم

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص٢١ .

(٢) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٩٧ .

(٣) التراث العلمى للحضارة الإسلامية للدكتور أحمد فؤاد ص١١٥ ، والتاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٢٦ .

(٤) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية للدكتور أحمد على الملا ص١٧٢ ، ١٨٣ .

يخترع فاتجه إلى جهة لم يتجهها أحد من قبله ، وهو أن ينص على اختلاف أهل البلدان فى كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم ، وموازينهم ونقودهم وصفة طعامهم وشرابهم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم ، ومراكز السعة والخصب ومواضع الضيق والجدب(١) . ثم بيّن خصائص الأقاليم ، ثم ذكر المذاهب المستعملة فى الإسلام ، فالمواضع المختلف فيها فى الإسلام ، فأقاليم العالم ومركز القبلة ثم مملكة الإسلام من بينها الشام والعراق(٢) .

كما يعتد المقدسى على غيره ممن سبقه فى هذا الميدان ، بأنه تحاشى ذكر الأحداث التى ساقها من سبقه إلى هذا الطريق ، كما أنه يفاخر بأنه ذكر الأسباب التى عاينها بعكس الذين سبقوه من أهل العلم والوزراء الذين صنفوا فى هذا الباب لينتظم كتابه على حد قوله بثلاثة أقسام أحدها ما عاينه والثانى ما سمعه من الثقات والثالث ما وجده فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وغيره(٣) .

الجغرافيون العراقيون وإضافتهم الجديدة :

ظهر بإقليم العراق خلال القرن الرابع الهجرى جغرافيون بارزون ،و قدموا ابداعات عديدة للبشرية ، كانت بمثابة إضافات علمية قدموها لعلم الجغرافية ، منهم :

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الاصطخرى(٤) عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ت٣٤٦هـ قام برحلات فى العالم الإسلامى وزار أكثر بلدان آسيا، حتى بلغ سواحل المحيط الهندى وقد أفادته رحلاته فى تأليف مؤلفه « كتاب الأقاليم » أو « المسالك والممالك » كما استفاد مما نقله عن كتاب « صور الأقاليم » لأبى زيد البلخى ، واعتبر كتابه « المسالك والممالك » رائداً للكتب التى ألفت بعده فى منهجه ومعلوماته وتبويبه . وكان لكتاب الاصطخرى تأثير كبير لم يقف عند حد

---

(١) ظهرالإسلام لأحمد أمين ص٢١٢ .

(٢) التاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٥٦ .

(٣) انظر مقدمة الدكتور محمد مخزوم على كتاب أحسن التقاسيم للمقدسى ص٩ .

(٤) انظر ترجمته فى : معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٦٨/١ .

الأدب العربى وحده ، بل ترجم إلى عدة لغات أجنبية ، وامتد تأثيره من الناحية الزمنية إلى وقت طويل[١] .

وأبو الفرج قدامة بن جعفر[٢] عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، تقلد مناصب هامة فى الدولة حيث عمل محاسبا فى ديوان الخراج بمدينة بغداد ، كما شغل منصب صاحب البريد ، وقد هيأت له وظائفه الإدارية أن يجمع معلومات وفيرة عن المدن الإسلامية وطرق مواصلاتها ، وإنتاجها الزراعى وخراجها ، وقد انصب اهتمام قدامة فى كتاب « الخراج » على وصف طرق البريد ، والولايات مع إيراد معلومات هامة عن تقسيم الأراضى وجباية الخراج ، وترد فيه معلومات عن محيط الجغرافية الرياضية ، وأوصاف الجبال والأنهار والأقاليم السبعة[٣] .

وأبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى الموصلى[٤] عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، اشتهر برحلاته الواسعة فى العالم الإسلامى ، حيث دامت رحلاته ما يقرب من ثلاثين عاماً ، وقد بحث فى كتابه « صورة الأرض » أو «المسالك والممالك» الأقاليم والبلدان على مرّ الدهور والأزمان وطبائع أهلها وخواص البلاد فى نفسها ، وذكر جباياتها وخراجها ، وذكر الأنهار الكبار واتصالها بشطوط البحار ، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار ، ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجارة ، كما بحث فيه صورة الأرض ، وصفة أشكالها ومقدارها فى الطول والعرض، وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقييم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها ، وهو من أبرز الكتب الجغرافية العربية المبكرة التى تمثل ركناً هامًا من أركان الجغرافية ، إذ تميز الكتاب بمنهجه القويم الذى يعتبر الخارطة جزءاً لا يتجزأ من النص ، بل إنه اعتبر الخارطة أهم من النص وإن النص ما هو إلا شرح للخارطة[٥] .

---

(١) تاريخ العلوم عند العرب لعمر فروخ ص١٩٩ .

(٢) انظر ترجمته فى : مبحث النقد الأدبى .

(٣) حضارة العراق للدكتور صبرى فارس الهيتى ٢٢٨/٨ ، ٢٢٩ .

(٤) انظر ترجمته فى : معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٥٠٨/٣ .

(٥) صورة الأرض لابن حوقل ص١٠ ، ١١ ، وتاريخ العلوم عند العرب لعمر فروخ ١٩٧ ، ١٩٨ .

وأبو الحسن على بن الحسين المسعودى[١] عاش فى القرن الرابع الهجرى وهو من الشخصيات الكبرى ذات الجوانب المتعددة ، ليس فى مجال الجغرافية فحسب بل فى التاريخ والسياسة والعمران ، غير أن ميدانه الحقيقى فيما يبدو كان الرحلات الواسعة والاتصالات المباشرة بممثلى مختلف الطبقات وقد شملت رحلاته جميع البلدان من الهند إلى المحيط الأطلسى ، ومن البحر الأحمر إلى بحر قزوين ، ويعتبر كتابه « مروج الذهب » تسجيلاً لما اكتسبه المسعودى من خبرات وملاحظات ، فهو كتاب معرفة جغرافية وعمران وعلم وملاحظات وأخبار وأساطير وسياحة[٢].

لقد بلغ علم الجغرافية على أيديهم ذروته فى القرن الرابع الهجرى سواء المقدسي أو ابن حوقل أو غيرهما ، سواء بالمصنفات التى تركوها أو بالإنفاق على الرحلات ، فقد انفق المقدسى على رحلاته وأسفاره ما يزيد عن عشرة آلاف درهم ، وابن حوقل قد نسج على منواله كثير من الجغرافيين المسلمين الذين جاءوا بعده[٣].

أثر الجغرافيين الشاميين والعراقيين فيمن بعدهم :

لقد اشتهر فى القرن الرابع الهجرى جغرافيون عظماء ، أضافوا إلى علم الجغرافية أحسن التحقيقات ، وبهم بلغ تاريخ البحث الجغرافى النضج ، فالاصطخرى وابن حوقل والمقدسى ، يمثلون درجة عالية فى البحث المبنى على الاختيار الشخصى ، والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل ، والتأليف الجغرافى الناضج[٤].

فالمقدسى يريد أن يكون البحث دائمًا مبنيًا على الدرس والاختبار ، منظمًا ، مبوبًا ، وافيا .

والمسعودى الذى قضى ما يقرب من ربع قرن يطوف العالم الإسلامى وما جاوره،

---

(١) سبق ذكر مصادر ترجمته بمبحث التاريخ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ٢٢/١ ، وعلم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ترجمة الدكتور صالح العلى ص١٥٢ ، ١٥٣ ، وتاريخ العلوم عند العرب لعمر فروخ ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

(٣) مجلة المنهل العدد (٥٠٠) الصفحة (١٦٨) لسنة ١٩٩٢م تصدرها المملكة العربية السعودية .

(٤) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية للأستاذ أحمد على الملا ص١٧٠ .

يسجل مشاهداته فى كتابه ، وهو من الشخصيات الكبرى ليس فى مجال الجغرافية فحسب بل فى التاريخ والسياسة والعمران . له كتابان محتواهما بين الجغرافية والتاريخ وذلك على سبيل المثال .

لذلك فعلماء الجغرافية الشاميون والعراقيون جديرون بأن يكونوا قدوة لمن بعدهم ، وأن يكون لهم الأثر الواضح عليهم ، وأن ينقل من مؤلفاتهم من جاءوا بعدهم ، فقد كان لكتاب الاصطخرى تأثير كبير لم يقف عند حد الأدب العربى وحده ، بل ترجم إلى عدة لغات أجنبية أخرى ، وامتد تأثيره من الناحية الزمنية إلى وقت طويل(١) .

وإن لهم أثر واضح على ياقوت الحموى فى معجمه الجغرافى حيث ذكر فى مقدمة كتابه «معجم البلدان» فقال : « قد صنف المتقدمون كتباً فى أسماء الأماكن وذكر البلاد والممالك وعينوا مسافة الطرق والمسالك ، وبهم اقتدينا ، وبهم اهتدينا وهم : أبو زيد البلخى وأبو إسحاق الاصطخرى ، وابن حوقل ، وأبو عبد الله البشارى المقدسى .. وغيره »(٢) ثم جمع ياقوت ما قرأه مشتتًا فى كتب هؤلاء ثم أضاف إليه ما أهملوها ورتبه على حروف المعجم(٣) .

وبهذا نستطيع أن نرد على (آدم متز) حينما قال : « إن الجغرافيين المتأخرين أخذوا عن ابن حوقل لا عن المقدسى ، واعتبروه أستاذ هذا القن دون المقدسى »(٤) نرد عليه ونقول : صرح ياقوت الحموى بالأخذ عنه والاقتداء والاهتداء به ، وإذا كان ابن حوقل أستاذاً فى فن الجغرافية ، فإننا نعتبر المقدسى أستاذاً أيضًا لأنه وضع قوانين الرحّالين وقواعد السفر فى كتابه « أحسن التقاسيم »(٥) ولِما له من إضافات فى علم الجغرافية سبق ذكرها .

---

(١) حضارة العراق للدكتور صبرى فارس الهيتى ٢٢٨/٨ .

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموى ١١/١ .

(٣) التاريخ والجغرافية لعمر رضا كحالة ص٢٦٣ .

(٤) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة محمد أبو ريدة ٧/٢ .

(٥) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية للأستاذ أحمد على الملا ص١٨٣ .

الفصل الثانى

الفكر الفلسفى فى الشام والعراق

(١) علم الكلم (٢) الفلسفة (٣) التصوف

علم الكلام :

هو علم يقصد به الأقوال التى كانت تصاغ على نمط منطقى أو جدلى ، وعلى الأخص المعتقدات ، ويقول ابن خلدون : هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة [1] ويسمى المشتغلون بهذا العلم « المتكلمون » .

وقد نشأ هذا العلم ، من الحاجة إلى الدفاع عن الإسلام أولاً ، دفاعًا مسلحًا بالفلسفة ، كما أن المهاجمين مسلحون بها ، وثانيًا ، لأن المسائل كلها حتى الدين تحولت إلى علوم بعد أن لم تكن كذلك[2].

الفرق الموجودة فى كل من الشام والعراق خلال ق ٤هـ .

توجد بالشام فرقة أهل السنة والجماعة ، والشيعة ، والأشعرية ، يقول المقدسى : ومذاهبهم مستقيمة ، أهل جماعة وسنة ، وأهل طبرية ونصف نابلس والقدس وأكثر عمان شيعة ، ولا ماء لمعتزلى ، إنما هم فى خفية ، وببيت المقدس خلق من الكرّامية[3] ، لهم خوانق[4] ومجالس[5].

كما يوجد بالعراق فرقة أهل السنة والجماعة والشيعة والمعتزلة والأشعرية ، فالغلبة ببغداد لأهل السنة والشيعة ، وبالكوفة الشيعة ، وبالبصرة قوم يدّعون الكلام وأكثرهم قدرية وشيعة[6].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٦٩/٣.

(٢) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٥٠/٢ .

(٣) الكرامية : جماعة ينسبون إلى محمد بن كرام ت ٢٥٥هـ بأرض فلسطين ممن يثبتون الصفات لله ، إلا أنهم ينتهون إلى التجسيم ، ويعدّون من الصفاتية كمذهب من مذاهب أهل السنة وعدّهم الشهرستانى من جملة الصفاتية الذين كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة وغير ذلك . انظر الملل والنحل للشهرستانى ٩٢/١، ٩٣ ، ١٠٨ .

(٤) الخوانق : متعبد للكرامى ببيت المقدس

(٥) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١٥٣.

(٦) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٢ ـ ١١٣.

المعتزلة وأثرهم في ظهور علم الكلام

تعدّ فرقة المعتزلة من أعظم الفرق أو مدرسة من مدارس الفكر والكلام عرفها الإسلام ، وأقدمها ، حيث ظهرت فى بداية القرن الثانى الهجرى فى مدينة البصرة التى كانت مجمعا للعلم والأدب فى الدولة الإسلامية العربية ، مشبعًا جوّه بآثار الثقافات الأجنبية ، تجرى إليه وتمتزج فيه[1].

واستمرت هذه الفرقة حتى القرن الرابع الهجرى ، وقد وقع خلاف كثير فى سبب التسمية بهذا الاسم وفى تسميتها بأسماء أخرى ، غير أن الغالب عليها اسم المعتزلة[2]، فقد كان لهم الفضل الأكبر فى علم الكلام ، لأنهم كانوا يدافعون عن الإسلام لما كان يثيره اليهود والنصارى من هبوب ، وكانوا يرسلون رجالهم وأتباعهم إلى البلدان الأخرى لرد هذا الهجوم رداً عقلياً[3].

لقد كان لهم أكبر الأثر فى تطور علم الكلام ، وتمّ على أيديهم القول بخلق القرآن ، ونادوا بنفى الصفات ، مخالفين فى ذلك جمهور أهل السنة مما أدى إلى الصراع والجدل بين طائفتى المعتزلة وأهل السنة والجماعة[4].

المعتزلة قبل القرن الرابع الهجرى :

توثقت علاقة تيار المعتزلة وصلاتهم بالدولة العباسية ، فأثر فيها وأضفى على مواقفها من فكره ، وأسهم فى صنع الإنجازات الحضارية التى سطرت صفحة العصر الذهبى لحضارتنا وتراثنا فى ذلك التاريخ ، ولقد انتشر رجال المعتزلة فى جهاز الدولة ، فتولوا القضاء والدواوين ، ولكن بموت الخليفة العباسى الواثق فى سنة ٢٣٣هـ انتهى العصر الذهبى للمعتزلة ، وبدأت مرحلة التراجع وحدث الانقلاب فى تيارهم ونزعهم

---

(١) كتاب المعتزلة لزهدى حسن جار الله ص ١ .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، والملل والنحل للشهرستانى ٤٣/١ .

(٣) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٥٠/٢ .

(٤) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى للدكتور حسن إبراهيم ٣٩٦/٣ .

العقلية ، فأبعدوا عن مناصب ومراكز التأثير الفكرى[1]، ثم استمر اضطهاد الدولة للمعتزلة وذلك فى عصر المتوكل عندما زاد نفوذ العنصر غير العربى ، فأصبحت السلطة الفعلية لعنصر غريب لهذه الأمة ، ورغم ذلك الاضطهاد فلم يجتث فكرهم من أرض الحضارة العربية الإسلامية .

وقد ضعفوا بعد قوة وهانوا بعد عزة ، وأخذ نجمهم فى الأفول سياسيًا وفكرياً ، بينما انتعش خصومهم من أهل الحديث[2] .

إن العوامل التى قاموا تحت تأثيرها لتهدف إلى حل مشاكل الخلاف بين المسلمين وأثر الديانات الأخرى ، فمن أهل تلك الأديان الأخرى من تركوا أديانهم ودخلوا فى الإسلام ، لكنهم لم يتخلصوا من عقائدهم القديمة فنقلوا إلى الإسلام بعضها ونشروها بين أهله ، لا عن إيمان وتحمس ، بل لغايات فى نفوسهم ، وإن من بين تلك العوامل الدفاع عن الدين الإسلامى ضد الرافضة والجهمية والجبرية وسائر المجوس والدهرية وغيرهم ، ولقد درسوا الفلسفة حين تعرضوا لمخالفى الإسلام يجادلونهم ويناظرونهم تبين لهم أن أولئك القوم أمضى منهم سلاحاً وأقدر على الجدل والمناظرة بدراستهم للفلسفة ، فعمد المعتزلة إلى الفلسفة لكى يتمكنوا من مجاراتهم ولكى يتهيأ لهم الغلبة عليهم[3] .

تعقيب

نلاحظ أن كلا من الشام والعراق يحتوى على عدد من الفرق الكلامية وغيرها فقد يتفقان فى وجود أهل السنة والجماعة فيهما وكذلك الشيعة الأشعرية ، أما العراق فتتميز عن الشام فى وجود المعتزلة بها ، أما الشام فمن يوجد بها فى خفية دون ظهور، أما العراق فالمعتزلة بها يمارسون نشاطهم وفكرهم وبهم تتميز العراق فى وجود أهل الكلام ويرجع إليهم الفضل فى الرد على خصوم الإسلام الطاعنين فيه رداً عقلياً وليس فى العراق فحسب بل يرسلون أتباعهم إلى البلدان الأخرى .

---

(١) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة لعبد الجبار بن أحمد ص ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٦٧ تحقيق الأستاذ فؤاد سيد طبعة تونس ١٩٧٢م.

(٢) التاريخ السياسى والفكرى للدكتور عبد المجيد بدوى ص ٢١ .

(٣) كتاب المعتزلة لزهدى حسن جار الله ص ١٤، ٢٠ ، ٣٦، ٤٦ ، ٤٨ .

المعتزلة فى القرن الرابع :

فى أوائل القرن الرابع الهجرى جاءت الضربة الكبرى التى أذهلت المعتزلة طويلاً فزلزلت كيانهم ، منبعثة من داخل الاعتزال ، ناشئة عن انقسام المعتزلة واختلافهم ، أما هذه الضربة فقد وجهها إلى المعتزلة أبو الحسن الأشعرى ت ٣٣٠هـ أحد رجالهم وأئمتهم ، الذى خرج عليهم وانصرف إلى قتالهم ، فقد بدأ حياته معتزليًا ولكنه فى منتصف طريقه الفكرى خرج عليهم مناضلاً لهم بفكره ، راميًا إياهم بكل نقيصة ، من تشبيههم المجوس مرة ، وبالنصارى مرة أخرى[١] . حيث نهج منهج الحنابلة من أهل الحديث فى مناقشة كثير من القضايا ، يؤكد فيها على ظاهر النص ، ولم يلجأ للتأويل كما لجأ المعتزلة[٢] . وقد خاض مناظرات قوية بينه وبيين أستاذه أبى على الجبائى ت ٣٠٣هـ الذى رباه وتزوج أمه ، فكان ربيبه وتلميذه ، وقد ذكر صاحب وفيات الأعيان إحدى المناظرات لتى جرت بين الرجلين[٣] .

فقد كان انشقاق الأشعرى عن المعتزلة نقطة فاصلة فى تريخه وضربة محكمة أصابت شاكلتهم ، فرد عليهم فكان خطره عليهم أشد من خطر غيره ، وذلك راجع إلى أن الأشعرى عندما انفصل عنهم التجأ إلى أهل السنة ، وأعلن توبته ورجوعه إلى العقيدة السليمة وإلى أقوال السلف الصالح حيث جاء يوم الجمعة وارتقى كرسىّ بجامع البصرة وأعلن توبته بأعلى صوته ، فوجد بين أهل السنة كثيراً ممن أصغوا إليه وآزروه ثم إنه اتخذ طريقًا وسطاً بين أهل السنة وبين أهل الاعتزال ، فإنه تمسك بالمنقول وعمل به ، واستعان بالعقل على إثبات ما جاء به النقل وتفسيره[٤] .

وما أن سيطر البويهيون على السلطة فى العراق فى ٣٣٤هـ حتى وجد المعتزلة أنفسهم بعد انشقاق الأشعرى وتكوين الاتجاه الأشعرى فى حال لا يحسدون عليها ،

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة للأشعرى ص ٦ ، ٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٦ ط . المطبعة المنيرية القاهرى سنة ١٩٣٠م.

(٢) التاريخ السياسى والدينى د/ عبد المجيد بدوى ص ٢١ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٦٧/٤.

(٤) كتاب المعتزلة زهدى حسن جار الله ص ٢٠٢، ٢٠٣ .

فعمدو إلى مداهمة الشيعة وسعوا إلى مصادقتهم ، دفعهم إلى ذلك حب البقاء وأغراهم به ما رأوه من انتقال السلطة إلى أيدى أمراء بنى بويه الشيعة ، فوجدوا فى الاتحاد مع الرافضة ما يجعلهم يركنون إلى قوة عظيمة تحافظ عليهم ويستعيدون قوتهم الضائعة ، فرحب بهم الشيعة وجعلوهم آداة لمقاومة أهل السنة ، فقد فشى مذهب الاعتزال تحت ظل الدولة البويهية فى العراق[1]. كما أن هذه الصداقة خدمت مصلحة الرافضة ، من أن الشيعة حتى ذلك الوقت لم يكن لهم مذهب كلامى خاص بهم ، فاقتبسوا عن المعتزلة أصول الكلام وأساليبه حتى أصبح الشيعة من حيث العقيدة والمذهب هم ورثة المعتزلة[2].

وقد نظر المقدسى فى كتب الفاطميين الشيعة ، فوجد أنهم يوافقون المعتزلة فى أكثر الأصول[3]. فالواقع أن المعتزلة باستعانتهم بآل بويه استعادوا شيئًا كثيراً من قوتهم، وأصبح لهم حلقات كبيرة يدرسون فيها أصولهم وقواعدهم بدون معارضة ، ويشغلون مراكز عالية فى القضاء كأبى محمد عبد الله بن معروف ت ٣٨١هـ قاضى قضاة الدولة العباسية[4].

وما أن جاء عهد الخليفة القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ) إلا وتتابعت على المعتزلة الضربات وتوالت النكبات ، وكان آل بويه قد بدأوا يضعفون ، مما شجع الخليفة القادر بالله أن يصنف كتاباً فى الأصول يذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أهل الحديث ، وكفر المعتزلة والقائلين بخلق القرآن ، وكان الكتاب يقرأ كل جمعة بجامع المهدى ببغداد ويحضر الناس سماعه[5]، وقال الدميرى : إن القادر ذمّ فى كتابه هذا المعتزلة والرفضة[6].

لقد سقط المعتزلة سياسياً وفكرياً أيضاً فى أواخر القرن الرابع الهجرى فمن بعد أبى

---

(١) الخطط والآثار للمقريزى ١٨٤/٤ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦هـ .

(٢) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة محمد أبو ريدة ١٠٦/١ .

(٣) أحسن التقاسى للمقدسى ص ٤٥ .

(٤) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٦٤/٩ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٨/٤ ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ٢٨٣/٩ .

(٦) طبقات الحيوان الكبرى لكمال الدين الدميرى ٨٧/١ط. القاهرة سنة ١٣٢٤هـ.

هاشم الجبائى المعتزلى ت ٣٢١هـ لم نسمع عن متكلمين لامعين ومفكرين بارزين نشأوا بين صفوف الاعتزال ، فالذين عاشوا فى دور التأخر والسقوط لم يبتكروا أشياءَ جديدة ، ولم يكونوا أفكاراً جديدة ، وإنما كانوا مجرد مقلدين لأسلافهم .

لعلّ من أهم ما يسترعى انتباه الباحث فى تاريخ المعتزلة فى العراق تلك الضخامة فى شخصياتهم ، فقد جمعوا فى أنفسهم بين التبحر فى العلم والشغف بالفلسفة ، والكلف بالأدب والتحلى بالفضائل ، والانصراف إلى العبادة والزهد فى متاع الحياة الدنيا .

كما اهتموا بالعلوم والفلسفة ، ودأبوا على ترجمتها إلى العربية ، كما انكبوا على الأدب يدرسونه لما أحسوا من أهميته فى إكمال الثقافة وتنوير العقول ، والدليل على ذلك أن ابن الأخشيد المتوفى سنة ٣٢٦هـ وهو رأس من رؤوس المعتزلة كان مغرمًا بكتب الجاحظ فأحب يومًا أن يطلع على كتابه « الفرق بين النبى والمتنبى » ولما لم يجده أرسل من ينادى عليه فى عرفات والبيت الحرام فى موسم الحج[1] .

وقد اشتهر كثير من العلماء فى الأدب واللغة مثل : أبو بكر النقاش ت ٣٥١هـ الأديب العالم فى القراءات والتفسير ، وعلى بن عيسى الرمانى ت ٣٨٤هـ المتكلم اللغوى ، عالم فى التفسير وإمام فى اللغة وعلامة فى الأدب ، وابن النديم ت ٣٨٥هـ الأديب الواسع الاطلاع والمعرفة ، وكتابه الفهرست هو الوحيد من نوعه فى المصنفات القديمة وأبو العباس عبيد الله الأسدى ت ٣٨٧هـ النحوى المفسر ، وله تفسير القرآن، وفى تفسير البسملة مائة وعشرون وجهاً[2] .

أثر المعتزلة فى تطور الفكر الإسلامى

وقفوا أنفسهم على الدفاع عن الدين وعلى نصرة مبدأ التوحيد ومحاربة الجهل ومقاومة الجمود الفكرى ، وكانت لهم الجرأة الكافية فأقبلوا على المبادئ الجديدة يدرسونها ويمحصونها ، وتناولوا المشاكل المختلفة التى أثارها الفكر اليونانى ووقف فى

---

(١) انظر كتاب المعتزلة لزهدى حسن جار الله ص ٣٢٥.

(٢) انظر معجم الأدباء ليقوت الحموى ٣٠٨/٥، ١٩١/٤، ٢٨/٥، ٤٥١ .

مواجهة الفكر الإسلامى ، وحاولوا حلها وفندوا تلك المشاكل ، ودافعوا عن العقائد الإسلامية ببرهان العقل ، فوضعوا أسس علم الكلام ، وكانو كما قال المقدسى أول هذا العلم فى الإسلام[1]. وجعلوا هذا العلم وسيلة لتأييد العقائد الإيمانية ، ويتخذون من العقل خادماً للنقل .

المعتزلة فى الشام :

منذ ظهرت المذاهب الفقهية والكلامية ، والجدل يحتدم بين أصحابها ، مما أتاح مبكراً لنشأة علم الجدل وما تبعه من نشأة علم آداب البحث والمناظرة سواء خلال القرن الرابع أو قبله ، ولكن الشام قد انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التى قد نشأت فى العراق[2]، وإذا وجد قليلون منهم فإنهم يعيشون فى خفية[3]، ولعل ذلك يكون سببه انتشار مذهب أهل السنة والجماعة فيها ، واستقامة مذاهبهم وشدة تعصبهم لأهل السنة[4].

وكان المقدسى العالم الشامى ينظر إلى الاعتزال كمذهب من مذاهب الكلام ، غير منفصل عن السنة ، وليس كفرقة مستقلة كما يتوهم البعض ، ويعتبره أحد المذاهب الأربعة الممتدحة من بين كثير من المذاهب المتعددة فيقول : « أما الممتدحة فأهل السنة والجماعة وأهل العدل والتوحيد ، والمؤمنون ، وأصحاب الهدى »[5].

وقد تطرفوا فى جملة من أقوالهم ، نتيجة لتعمقهم فى درس الفلسفة ، وإباحتهم لحرية الرأى .

المعتزلة فى العراق :

أما العراق فقد وُجد بها كثير من المعتزلة ولا سيما الشمال ، وبالبصرة مجالس

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤٤.

(٢) عصر الدول والإمارات « الشام » للدكتور شوقى ص ١١٠ .

(٣) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص ١٥٣ .

(٤) مملكة السيف ودولة الأقلام للدكتور مصطفى الشكعة ص ١٥٦ .

(٥) أحسن التقاسيم للمقدسى ص٤٤.

وعوام السالمية ، وهم قوم يدعون الكلام والزهد ـ[1] فقد كان لهم كيان ، نظراً لغلبة الشيعة على العراق ، أما فى البلاد التى غلب عليها أهل السنة فقد كانوا أذلاء مستضعفين وكانت البصرة مقر قيادة المعتزلة ، وقد انتشرت فشملت مختلف أنحاء الدولة العربية الإسلامية ، ولم تقتصر عضوية المعتزلة على الرجال ، بل شاركت فيه النساء مثل بنت أبى على الجبائى ، أخت أبى هاشم الجبائى فى العلم أن سألت أباها عن مسائل وأجابها ، وكانت داعية فى النساء ، وينتفع بها فى تلك الديار ، أى أنه للنساء نصيب فى الدعوة ولهن مدعوات فى صفوف النساء[2] .

الأشاعرة ونشأتهم وأهم موضوعاتهم :

تنسب الأشعرية إلى إمامهم ، ورأس تيارها الفكرى : أبو الحسن على بن إسماعيل ابن إسحاق بن سالم الأشعرى (٢٦٠ـ ٣٣٤هـ) ولد الأشعرى فى البصرة ونشأ فيها، ثم انتقل إلى بغداد ، وعاش بها حتى وافه أجله ، بعد حياة حافلة بالدرس والجدل والمناظرة والتأليف والتدريس ، وحافلة أيضاً بالزهد والورع .

نشأ الأشعرى وشب فى بيته معتزلية الفكر بالمعنى الخاص ، وليس فقط بالمعنى العام فوالدته قد تزوجت من إمام المعتزلة فى عصره وشيخ شيوخها أبو على الجبائى ٢٣٥ ـ ٣٠٣هـ فنشأ الأشعرى تلميذاً للجبائى يأخذ عنه « علم الكلام » وقضى الأشعرى ثلاثين عاماً تدرج فيها على سلم الاعتزال حتى غدا واحداً من ألمع المدافعين عن أصولهم الخمسة[3] .

ثم عرض للأشعرى ما جعله يتذكر للمعتزلة ويخرج عليهم ويُوقف جهوده على تفنيد أقوالهم ، وذلك حوالى سنة ٣٠٠هـ حيث صحب المعتزلة أربعين سنة وقد ولد سنة ٢٦٠هـ، لذلك فيكون تحديد خروجه على المعتزلة حوالى سنة ٣٠٠هـ[4] .

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٢ .

(٢) تيارات الفكر الإسلامى للدكتور محمد عمارة ص ٩١ .

(٣) انظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى ١٨٦/٤ .

(٤) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٨٤/٣ .

فقد رقى الأشعرى فى يوم جمعة كرسياً بجامع البصرة ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى . أنا فلان بن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن وإن الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا فاعلها ، وأنا تائب مقلع متصدّ للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم(١) .

بذلك أعلن الأشعرى توبته ورجوعه إلى العقيدة السليمة عقيدة أهل السنة وعاد إلى أقوال السلف الصالح ، فوجد بين أهل السنة كثيرين أصغوا إليه وآزروه ، فقد تمسك بالمنقول وعمل به ، واستعان بالعقل على إثبات ما جاء به النقل وتفسيره ، لأن الأشعرية كما يقول الغزالى ، لا ترى معاندة بين الشرع المنقول وبين الحق المعقول(٢) .

فيكون الأشعرى قد وضع أسسًا جديدة لعلم الكلام لا تتنافر مع عقائد السنة ، فراقت للكثيرين من أعلام أهل السنة ومفكريهم واتبعوها ، وهكذا تكونت مدرسة كلام جديدة من أهل السنة ، لذلك بدأ الاعتزال يزول بوجود متكلمين من أهله يدافعون على عقيدة السنة .

اتضحت معالم هذه المدرسة وظهرت اتجاهاتها كنتيجة للمنهج العقلى الذى سلكه المعتزلة فهبوا يقاومون اتجاههم ، ويتمسكون بالنقل ، ويحاولون التوفيق بينه وبين العقل، واتخذوا موضوعات هامة تحدثوا عنها مثل :

١ ـ **مصدر المعرفة** : وأهم المعرفة معرفة الله عز وجل ، وهى قد تحصل بالعقل ، ويقرر الأشعرى أن العقل يستطيع أن يدرك وجود الله كما يدرك كل حسن .

٢ ـ **خلق الأفعال** : حيث توسط الأشاعرة حلا بين رأى المعتزلة الذى يقول بأن العبد يخلق نفسه ولذلك يتحمل مسئوليته ، بين رأى السلف الذى يرد الأفعال كلها لله ، ويرى أنها مخلوقة لله تعالى ، فرأى الأشاعرة أن الفعل وإن كان مخلوقاً لله فإن للعبد قدرة واختيار فى أكثر أفعاله(٣) .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٨٥/٣ ، والبداية النهاية لابن كثير ١٩٩/١١ .

(٢) انظر الاقتصاد فى الاعتقاد لأبى حامد الغزالى ص ٢ ط القاهرة سنة ١٣٢٧هـ .

(٣) انظر الملل والنحل للشهرستانى ٩٦/١ .

٣ ـ **مشكلة الصفات** : حيث وفق الأشاعرة بين رأى السلف ورأى المعتزلة ، فأثبتوا لله صفات كما رأى السلف ، وفسروها تفسيراً معنوياً على نحو ما رأى المعتزلة وأثبت الأشاعرة إمكان رؤية الله كما قال السلف .

٤ ـ **نظرية الجوهر الفرد** : رد الأشاعرة مذهب أرسطو الذى يقول بقدوم العالم ، واعتنقوا مذهب الجوهر الفرد ، فرأوا أن العالم تكون من جزئيات صغيرة غير قابلة للقسمة وتسمى كل وحدة من هذه بالجوهر الفرد ، وهذه الجواهر مخلوقة لله ، وبانضمام هذه الجواهر تتكون الأجسام وعملية الانضمام والانفصال يديرها الله عز وجل[١] .

دور أبى الحسن الأشعرى :

وضع الأشعرى قواعد المذهب ، وحدد موقع وسطيته بين عقلانية المعتزلة ونصوصية السلفية ، وجاء من بعده تلامذته فرفعوا قواعد المذهب ، وفصلوا مجمله وشرحوا إشارته[٢] ، إن الأسس الجديدة التى وضعها الأشعرى لعلم الكلام لا تتنافر مع عقائد السنة ، وبذلك تكونت مدرسة كلام جديدة من أهل السنة على يد الأشعرى[٣] . وقد تصدى للمعتزلة ومهاجمتهم وصار إمام السنة المعروف فى ذلك العصر بعد زوال المعتزلة[٤] .

انتشار المذهب الأشعرى فى الشام والعراق :

فى الفترة التى عاشها الأشعرى فى بغداد بعد خروجه على المعتزلة ، نهض بدور الريادة فى وضع قواعد مذهبه الجديد ، وتخرج على يديه كوكبة من التلاميذ الذين أصبحوا الكتيبة الأولى فى جيش الأشعرية الفكرى كأبى عبد الله بن مجاهد البصرى ت٣٧٠هـ، وأبو الحسن الباهلى ، والباقلانى ت٤٠٣هـ وغيرهم .

---

(١) الفكر الإسلامى منابعه وآثاره ترجمة د/ أحمد شلبى ص ١١٧ ـ ١٢٠ .

(٢) انظر تيارات الفكر الإسلامى د/ محمد عمارة ص ٢٥٨ .

(٣) انظر كتاب المعتزلة تأليف زهدى جار الله ص ٢٠٣ .

(٤) انظر تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ص١٦٨ .

ثم توالت طبقات أعلام الأشعرية وعلمائها الذين سلكوا طريق الأشعرى وحذوا حذوه ، أو طوروا وأضافوا فى إطار المذهب الذى قعّد قواعده ، الأمر الذى خرج بالأشعرية من نطاق بغداد حتى رأيناها مذهب جمهور الأمة الإسلامية فى الاعتقادات[1] .

ففى الشام انتشر مذهب الأشاعرة فى نهاية القرن الرابع الهجرى ، ذلك على يد تلاميذ الأشعرى ، حيث اتضح المذهب وتبلور حتى اتضحت معالمه ، ومهدوا الأرض أمامه للسيطرة الفكرية ، فما كان يمضى على وفاة الأشعرى نصف قرن حتى كان مذهبه قد بسط سلطانه على الشام ، وبدأ يعبر المشرق إلى المغرب[2] .

إنه من المعروف أن الشام انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التى نشأت فى بغداد ، حتى إذا ظهر الأشعرى ت ٣٢٤هـ انضم تحت لوائه شافعية الشام وتعانق المذهبان الأشعرى والشافعى[3] .

وفى العراق لم ينتشر المذهب الأشعرى إلا منذ نحو سنة ٣٨٠هـ، وعند ذلك بدأت تظهر آثار الاضطهاد له مما أدى إلى جعل الأشعرية تسلك طريقها إلى الانتشار داخل العراق وخارجه ، ولم ينتشر مذهب الأشاعرة وهو المذهب الكلامى الجديد الذى قدّر له أن يصير مذهب جمهور المسلمين إلا انتشاراً بطيئا فى المملكة الإسلامية[4] .

وقد قدّر للأشعرى أن يكون له تلاميذ ومريدون ينصرون مذهبه ، بسبب تدعيمهم للمذهب بالبراهين والأدلة العقلية وكان لمنزلتهم العظيمة أثر على جذب الناس إلى مذهبه[5] . ثم توالت طبقات أعلام الأشعرية وعلمائها الذين سلكوا طريق الأشعرى ، وحذوا حذوه ، أو طوروا وأضافوا فى إطار المذهب الذى قعد قواعده الأمر الذى خرج بالأشعرية من نطاق بغداد حتى رأيناها مذهب جمهور الأمة الإسلامية فى الاعتقادات.

---

(١) تيارات الفكر الإسلامى د/ محمد عمارة ص ٢٩٨، ٢٩٩ .

(٢) الخطط للمقريزى ٢٥٧/٢ طبعة بولاق ، القاهرة سنة ١٢٧٠هـ .

(٣) عصر الدول والإمارات (الشام) د/ شوقى ضيف ص ١١٠.

(٤) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٣٦٣/١ .

(٥) دراسات فى تاريخ الفلسفة العربية ص ٢١٨ لعبده الشمالى . ط دار صادر بيروت الطبعة الرابعة ١٢٦٥م.

الصراع بين المعتزلة والأشاعرة :

منذ ظهور الأشاعرة والصراع القائم بينهما وبين المعتزلة ، فالأشعرى كان شديد الكره للاعتزال كثير الاندفاع فى مقاومته ، ومات وهو يلعن المعتزلة[١] ، ولاحق أستاذه الجبائى حتى قطعه أوحش تقطيع فعظمت الوحشة بينهما . وناظر الأشعرى الجبائى وأظهر فساد مذهب المعتزلة ، وقد ذكرها ابن خلكان[٢] .

ولم تقتصر المناظرات على أبى الحسن الأشعرى بل قام بها أبو بكر الباقلانى البصرى المتكلم ، وقد جرى يومًا بينه وبين أبى سعيد الهارونى مناظرة[٣] ، وبينه وبين أحد بطارقة الروم[٤] ، وبينه وبين عضد الدولة[٥] .

تعقيب :

ينفرد العراق بأنه البيئة التى نشأت بها فرقة الأشعرية فى أوائل القرن الرابع الهجرى وأنها تسير على عقيدة أهل السنة ، كما أعلن رأس تيارها الفكرى أبو الحسن الأشعرى، كما أنه يعتبر أول من وضع أسسًا جديدة لعلم الكلام لا تتنافر مع عقائد السنة ، لذلك اتبع كثير من أعلام أهل السنة تلك الأسس وتكونت على يديه مدرسة كلام جديدة من أهل السنة فى الوقت الذى كان فيه الشام وأهله تابعًا للعراق فى هذا الاتجاه الجديد ، كما ينفرد العراق بخروج من يقوض نشاط المعتزلة وينشر عيوبهم ومخازيهم .

لم يتوقف الأمر عند أبى الحسن الأشعرى بل استكمل المسيرة من بعده تلاميذه الذين نشروا المذهب الأشعرى فى بقاع الدولة الإسلامية الكبرى وخاصة فى أواخر القرن الرابع الهجرى وبدأ المذهب الأشعرى يعبر المشرق إلى المغرب[٦] .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٢٧٧/٢ ط القاهرة ١٩٠٦م.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٦٧/٤ وما بعدها .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٦٩/٤ .

(٤) مجلة الوعى الإسلامى ـ الكويت ـ العدد ٣٦٠ ص ٧٩ .

(٥) مجلة منار الإسلام ـ دولة الإمارات العدد ٦ السنة ٢١ ص ٩٣ .

(٦) الخطط للمقريزى ٣٥٧/٢ .

كما يلاحظ انفراد العراق بالصراعات المذهبية بصورة ملحوظة عن الشام وذلك بسبب انشقاق أبى الحسن الأشعرى منذ البداية عن فرقة المعتزلة ، لذلك نجد الصراع بين المعتزلة والأشاعرة قائم ، والمناظرات الشديدة بين الأشعرى والجبائى ، مما أظهر مذهب المعتزلة .

ولم تقتصر المناظرات على أبى الحسن الأشعرى ، بل كان هناك تلميذه النجيب أبو بكر الباقلانى البصرى يقود المناظرات لنصرة مذهبه الأشعرى كما حدث بينه وبين أبى سعيد الهارونى ، وبينه وبين أحد بطارقة الروم ، وبينه وبين عضد الدولة[1] .

إن المتتبع لأحوال الفرق الكلامية يلاحظ أن نشاطها الفكرى وما ينتج عنه مركزه العراق وليس الشام ، وإن كان بالشام بعضها .

أهل السنة فى الشام والعراق :

اعتُبر المحافظون على العقيدة كما توارثوها عن الصحابة دون الجدل فيها أو الخروج على المفهوم السائد لها أهل السنة ، وقد كان عامة أهل الشام منهم ، أما ما ظهر فيها من فرق دونها فلم يكن لها تأثير كبير على الشاميين ، فى حين أن أهل العراق كان منهم من هو من أهل السنة ومن هو من الشيعة ومن هو من المعتزلة وغير ذلك وذلك لأن كثير من أهل الشام عرباً ، أما أهل العراق فكان من بينهم كثير من الموالى والعناصر الأجنبية ، ثم أن العراق فى بادئ الأمر أثناء ما كانت الخلافة فى دمشق فكانت بعيدة عن مركز الخلافة ، مما جعل مجال انتشار العقائد الجديدة أمر يسير .

وفى ظل العباسيين كانت النظرة إلى أصحاب الفرق قد خفت حدتها مع وجود بعض الخصومات المذهبية ، وقد بيّن أبو الحسن الأشعرى أهم مبادئ أهل السنة فقال[2] « الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسوله وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردون من ذلك شيئا ، ويرون فى الصفات أن الله سبحانه على

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/٢٦٩.

(٢) انظر مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعرى ٣٢٠/١ ـ ٣٢١ ط النهضة المصرية ١٩٥٠م.

عرشه كما قال عز وجل « الرحمن على العرش استوى »[1] وأن له يدين بلا كيف ، وأن له عينين بلا كيف ، أما في المشيئة فقالوا : إنه لا يكون فى الأرض خير ولا شر إلا ما شاء الله ، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله كما قال عز وجل (وما تشاءون إلا أن يشاء الله)[2].

وقد عُرف أهل الشام بشدة تعصبهم لأهل السنة ، فمن قديم عرفت بالسنية وخلال القرن الرابع أيضًا ، ويقول النسائى ت ٣٠٣هـ دخلت دمشق والمنحرف عن على رضى الله عنه كثير ، فأردت أن يهديهم الله بهذا الكتاب يعنى كتاب «الخصائص» فى فضل على بن أبى طالب ، وسئل وهو بدمشق عن معاوية وما روى من فضائله فقال : أما يرضى معاوية أن يخرج رأسًا برأس حتى يفضل ؟ فما زال أهل دمشق يدفعون فى حِضْنه حتى أخرجوه من المسجد ، ثم حمل إلى الرملة فمات فيها[3].

وقد تقسم البلد الواحد بين التشيع والتسنن ، فبلدة نابلس فى النصف الثانى من القرن الرابع كان نصفها سنيين ونصفها شيعيين[4].

كما كان كثير من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية ، وكانوا لا يرون التشيع فكانوا يستنكرون تعاليمهم ، ولكن فى تحفظ لأن الدولة للتشيع ، وتحت قبضتهم سواء للبويهيين أو للحمدانيين الذين أظهروا التشيع ليأمنوا جانب أصحاب النفوذ فى بغداد . كما كان ببيت المقدس خلق من الكرّامية لهم مجالس[5].

كما عرف عن أهل العراق الالتزام عند كثير منهم بمنهج أهل السنة فقد اشتهرت البصرة بالتسنن ، وكانت الغلبة ببغداد لأهل السنة والشيعة[6].

---

(١) سورة طه الآية (٥٠) .

(٢) سورة الإنسان الآية (٣٠) .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٧/١.

(٤) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٧٨/١ .

(٥) أحسن التقاسى للمقدسى ص ١٥٣.

(٦) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٢، ١١٣.

وغالبًا ما كان سكان بغداد يدينون بالمذهب السنى ، ويقومون بمعارضة الشيعة الذين يكتبون عبارات اللعن فى بعض الصحابة على مساجد بغداد ، ولم يكن فى يدهم حول يعارضون به رغبة السلطان[1] .

وبعد هذا العرض لأهل السنة نجدهم فى الشام والعراق ولهم منهج منتشر فى كل من القطرين ولكنهم أصحاب يد قوية وشوكة فى بلاد الشام دون بلاد العراق وذلك بسبب ما ذكرنا من قبل أن بين أهل العراق كثير من الموالى والأجانب وبعدها فى أول الأمر عن مركز الخلافة الأموية مما أدى إلى وفود كثير من أصحاب الأفكار والمذاهب الأخرى عليها واستوطانهم فيها ، مما أدى إلى ظهور صراعات بين الفرق والمذاهب والديانات .

أما الشام فرغم أن أكثر أهلها من أهل السنة إلا أن فيها مذاهب أخرى كالشيعة ولكن لم يحدث بها مشاحنات بين أصحاب الفرق والمذاهب كما كان يحدث بين أهل العراق ، فأهل حلب على سبيل المثال رغم إدخال الحمدانيين التشيع فيها تفادياً للصدام والصراع مع البويهيين فإننا لم نسمع عن مشاحنات جرت بين السنة والشيعة فى حلب ، مما يدل على أن المجتمع الشامى كان مجتمعًا هادئًا شيئًا ما ، بعيداً عن الغلو ، خالياً من التعصب المذهبى[2] .

الشيعة فى كل من الشام والعراق :

هم أقدم المذاهب السياسية الإسلامية ، وهم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده[3] .

لم تخل الشام من مذهب الشيعة سواء فى أوائل القرن الرابع الهجرى على يد سيف الدولة الحمدانى ، أو فى أواخره على يد الفاطميين .

فى عهد سيف الدولة الحمدانى لجأ إليه الحسين بن حمدان الحصيبى الشيعى

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى د/ أحمد شلبى ٤٢٥/٣ .

(٢) انظر زبدة الحلب فى تاريخ حلب لابن العديم تحقيق د/ سامى الدهان ١٥٢/١ .

(٣) أصول الدين للبغدادى ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

العلوى فاراً من بغداد بعد أن حبس فيها ، وقدّم إلى سيف الدولة كتابيه : « الهداية والمائدة »[(١)]، وعند لجوئه لسيف الدولة حيث تربطه به قرابة ، التف حوله من الأمراء والشعراء والمؤلفين العدد الكثير ، فأخذوا عنه ونشر دعوته فى سوريا والعراق وغيرهما من البلدان[(٢)] .

وجاء الفاطميون بمذهب شيعى له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة، ولهم شعائر ظاهرة مخالفة لشعائر السنيين ، وأصبح لهم رأى فى أن للدين ظاهراً وباطناً ومعنى صريحًا ومعنى مؤولاً [(٣)] فأحيانًا يبالغون فى اضطهاد أهل السنة ، وأحيانًا يسمحون لهم بحريتهم ، ففى أواخر القرن الرابع عاقب الشيعة رجلاً من أهل السنة كان يعلن حبه لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فقد أمر نائب دمشق الشيعى فضرب وطيف به على حمار ، ونودى عليه : هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ، ثم أمر به فضربت عنقه[(٤)] .

فقد كان من متكلمى الشيعة فى الشام وصاحب نشاط أبو الحسين الحصيبى ت٣٥٨هـ.

أما العراق فكان مهد الشيعة منذ العصر الأموى وفوق ذلك ملتقى الحضارات وهو المنبت الذى نبت فيه أكثر الفرق الإسلامية وخصوصًا ما يتصل فيها بالفلسفة وهو مهد الدراسات العلمية ، وهو مزدحم الآراء والمعتقدات ، فلا غرابة أن تنمو الأفكار الشيعية فى بيئته وقد نشأ هذا المذهب بالعراق كغيره من المذاهب الشيعية ، واضطهد أهل السنة الشيعة كالبلدان الأخرى .

ولكن الله عز وجل هيأ لأهل السنة الخليفة القادر بالله فسلك مسلكًا غير أسلافه وكان نسيجًا وحده من بنى العباس الذين عاصروا بنى بويه ، حيث يعلن التمرد على

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣٥٧/٣ .

(٢) العلويون بين الأسطورة والحقيقة د/ هاشم عثمان ص ١٥٧مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيوت سنة ١٩٨٠م.

(٣) ظهر الإسلام لأحمد أمين ١٨٨/١، ١٩٠ .

(٤) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٠٧/٤.

البويهيين ، وقمع الشيعة والوقوف بجوار أهل السنة ، وكان له موقف من البويهيين الشيعيين ، حيث جمع وجوه الشيعة فى بغداد ومعهم أهل السنة وقدم إليهم محضراً وقعوا عليه يتضمن تكذيب الفاطميين فى ادعائهم الانتساب إلى علىّ رضى الله عنه(١)(٢) .

وقد ظهر بالعراق جماعة إخوان الصفا جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة ، علميها وعمليها وسموها « رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا » وكتموا أسماءهم وبثوها فى الوراقين ولقنوها للناس(٣) .

فهم علويون وباطنيون وإسماعيليون ومعتزلة وفيثاغوريون وأفلاطنيون ومجوس وفى نفوسهم ميل للوثنية(٤) فاتخاذ الناس أداة للدعوة موجود عند الإسماعيلية وعند إخوان الصفا فعن طريقها يجذبون الناس نحو ضلالاتهم .

وكان من متكلمى الشيعة فى العراق خلال هذا القرن أبو عبد الله بن المعلم حيث انتهت إليه رئاسة متكلمى الشيعة ، مقدم فى صناعة الكلام ، دقيق الفطنة ماضى الخاطر ، قال عنه ابن النديم : شاهدته فرأيته بارعاً(٥) .

تعقيب :

كان المجتمع الشامى بطبيعته يميل إلى أهل السنة وإن وُجد فيه تيارات شيعية واتجاهات أخرى ، ولكن الصراع بين أهل السنة والشيعة كان محدوداً ليس كصراع أهل العراق ، فالمجتمع الحلبى على سبيل المثال كان هادئًا رغم إعلان الحمدانيين مبدأ التشيع ، خاليًا من التعصب المذهبى ، ومن سبقهم أيضًا ، غير أن ذلك لا يمنع من

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ص ٣٦ .

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٢٣٦/٩.

(٣) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ٤/٢، ٥ .

(٤) إخوان الصفا د/ جبور عبد النور ص ٢٤ .

(٥) كتاب الفهرست لابن النديم ص ٢٥٢.

أن يثور أهل السنة دفاعًا عن سنة النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم كما حدث مع النسائى ت ٣٠٣هـ بدمشق عندما دخلها وتحدث فى حق سيدنا معاوية بن أبى سفيان، فما كان من أهلها إلا أن اخرجوه منها بعد أن أعيوه ضربًا ، وقد حاول الفاطميون تشييع الشاميين، ولكنهم تمسكوا بالسنية إلا القليل حتى كانت السمة الغالبة على مجتمع الشاميين أنهم أهل سنة .

وفى آخر القرن الرابع الهجرى وُجد من الشيعة من يقوم بإهانة أهل السنة ،ففى سنة ٣٩٣هـ عوقب رجل بدمشق وطيف به فى المدينة ، ونادوا عليه « هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر »[1] وكان ذلك فى أيام قوة الفاطميين .

وهذه السياسة لم تكن ثابتة مطردة ، بل كانت قلقة مضطربة ، فأحيانًا يبالغون فى اضطهاد أهل السنة ، وأحيانًا يسمحون لهم بحريتهم ، وكان كثير من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية لا يرون التشيع ، وكانوا يستنكرون تعاليمه فى تحفظ[2] .

ولكن هذا الصراع أنتج حياة فكرة نشيطة ، وفى الوقت نفسه كانت الحركة الفلسفية تشايع التشيع ، فامتزجت الفلسفة بالدعوة الشيعية .

وكان الفاطميون بالشام يجعلون المساجد الكبيرة مركزًا لدعوتهم ، ليس بالشام كلها ولكن بالأماكن التى كانت تسيطر عليها دون حلب التى كان يسيطر عليها الحمدانيون .

أما المجتمع العراقى .. فمن المعروف أنه كثير الفقهاء والقراء والأدباء والأئمة ، بخاصة بغداد والبصرة ، وقد حصل به عدة مذاهب كأهل السنة والشيعة والأشعرية والمعتزلة ، ولم تتميز مدينة عن الأخرى فى اعتناق مذهب معين دون الآخر بل قد يكون بالمدينة الواحدة أكثر من اتجاه عقائدى وفكرى ، فبغداد بها أهل سنة وشيعة وأشعرية ومعتزلة ، والكوفة بها شيعة وسنة ، وغير ذلك .

مما جعل الصراع بين الفرق أمر واقع وخاصة بين أهل السنة والشيعة ، فقد وقعت

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٠٧/٤ .

(٢) ظهر الإسلام لأحمد أمين ١٩٥/١، ١٩٧ .

عصبيات بالبصرة بين الربعيين وهم شيعة ، وبين السعديين وهم سنة ، ويدخل فيها أهل الرساتيق ، وقلّ بلد إلا وبه عصبيات على غير المذاهب[1].

ففى القرن الرابع أثناء سيطرة البويهيين على الحكم كانوا دعاة متحمسين للمذهب الشيعى على الرغم من أن مركز الخلافة ـ بغداد ـ كان سكانه غالبًا يدينون بالمذهب السنى ، ورغم ذلك أمروا فكتب على مساجد بغداد « لعن الله معاوية بن أبى سفيان » وغير ذلك من اللعن ، إلا أن أهل السنة أزالوا هذا من حيطان المساجد ، وقد أمر معز الدولة أن يحتفل الناس فى بغداد بأعياد الشيعة ، وكان معز الدولة أحمد بن بويه أول من اتخذ يوم عاشوراء مأتمًا لقتل الحسين بن على رضى الله عنهما، وذلك أنه لما كان فى عاشر المحرم سنة ٣٥٢هـ أمر أن تغلق الأسواق وأن تلبس النساء المسوح من الشعر ، وأن يخرجن كاشفات عن وجوههن ناشرات شعورهن ، يلطمن على وجوههن[2] ، ومن الواضح أن أهل السنة كانوا يعارضون هذه الاتجاهات ، ولكن لم يكن فى يدهم حول يعارضون به رغبات السلطة ، على أن مثل هذا التضارب كان يحدث بلبلة واضرابًا ويديم التوتر بين السكان[3].

إن الاضطراب السياسى والاجتماعى كان له أكبر الأثر فى أن يشتد الصراع بين الفرق الإسلامية ، وكان أخطر ما فيه أن السلطة البويهية فى جانب الشيعة وهم قوة ، أما الخلفاء العباسيون فى جانب أهل السنة وهم ضعفاء وظل ذلك حتى أواخر القرن الرابع إلى أن تولى الخلافة القادر بالله فكان له موقف من البويهيين ومن الشيعة داخل العراق ، قد وقعت فتنة بين السنة والشيعة نتيجة إيذاء بعض الهاشميين لابن المعلم محمد بن محمد النعمائى ت ٤١٣هـ فقيه الشيعة الإمامية ، فأراد الشيعة أن ينتقموا لإمامهم فقصدوا بعض أئمة أهل السنة ، كأبى حامد الأسفراييني ت ٤٠٦هـ وأبى محمد بن الأكفانى ت ٣٩٦هـ وغيرهما ، فسبوهما ثم عظمت الفتنة بين الفريقين، فما كان من القادر بالله إلا أن أرسل عبيده وخدمه لمعاونة أهل السنة حتى هزموا

---

(١) انظر ظهر الإسلام لأحمد أمين ٢١٨/١ ـ ٢١٩ .

(٢) النجوم الزواهر فى معرفة الأواخر / مخطوط لأحمد بن خليل الدمشقى ت ٨٩٦هـ الورقة ٢٦ نسخة مصورة عن الأصل بمكتبة عارف حكمت بالمدينة تحت رقم ٢٧٠ تاريخ .

(٣) انظر موسوعة التاريخ الإسلامى د/ أحمد شلبى ٤٢٤/٣، ٤٢٥ .

الشيعة ، وأخرج ابن المعلم الشيعى من بغداد ، أما أبو حامد الأسفراييني السنى فقد عاد إلى مسجده مكرماً[1] .

فشتان بين موقف معز الدولة البويهى الذى أمر بلعن الصحابة على جدران المساجد وبين موقف القادر بالله من إهانة وسب عالم من علماء أهل السنة . فقد استطاع القادر بالله استرداد سلطان الخلافة العباسى وإحكام قبضة أهل السنة .

وقد اعتبر أبو الحسن الأشعرى وأبو بكر الباقلانى وأبو إسحاق الأسفراييني من متكلمى أهل السنة ، المدافعين عن الدين الإسلامى ضد أى اتجاه أو تيار فكرى معادٍ له ، فى العراق وغيره ـ وكان الأشعرى شيخ النظر وإمام الآفاق فى الجدل والتحقيق الذى صار شجًا فى حِلوق القدرية والبخارية والجهمية والروافضِ والخوارج ، وقد ملأ الدنيا بكتبه ، وما رزق أحد من المتكلمين من التبع ما قد رزق لأن جميع أهل الحديث ، وكل من لم يتمعزل من أهل الرأى على مذهبه[2] .

الصراع بين أهل السنة والشيعة فى الشام أمره محدود نظراً إلى أن المذهب السائد فى الشام مذهب أهل السنة ، وفى أواخر القرن الرابع الهجرى حدثت بعض الصراعات التى تقدم الإهانة لأهل السنة تحت وطأة الفاطميين وفى أماكن نفوذهم .

أما فى العراق منبع الخلاف والفرق ومجمع الأجناس المختلفة فقبضة الشيعة كانت قوية فى الصراع ، نظراً لأن الحكام البويهيين كانوا دعاة متحمسين للشيعة ، لذلك فشدة الأذى الواقع من الشيعة على أهل السنة أمر ملحوظ حتى أواخر القرن الرابع الهجرى بعد تولى الخليفة القادر بالله ، إذ استرد سلطان أهل السنة وإحكام قبضتهم وأفل نجم الشيعة فى تلك الفترة .

---

(١) انظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٢٠٧/٩ .

(٢) أصول الدين لعبد القاهر البغدادى ص ٣٠٩، ٣١٠ .

من مشاهير علماء الكلام بالشام :

من المعروف أن الشام انصرفت عن الاعتزال، وعن الفرق الكلامية الكثيرة التي نشأت في بغداد، حتى ظهر أبو الحسن الأشعرى ت ٣٢٤هـ، وانضم تحت لوائه شافعية الشام، وتعانق المذهبان في كل مكان ، في ذلك الوقت كان الأشعرى يمثل أهل السنة والدفاع عنها ، حتى نزل أبو عبد الله الحسين بن على الخصيبى ت٣٥٨هـ الذى ينتمى إلى الشيعة، وأخذ ينشر دعوته ويدافع عنها ، وقد ظهر من العلماء من تحدث في علم الكلام سواء من أهل السنة أو الشيعة كعبد العزيز بن محمد بن إسحاق الطبرى ت ٣١٠هـ المتكلم ، الذى قرأ على أبى الحسن الأشعرى وسمع من محمد بن جرير الطبرى تفسيره للقرآن ، وسكن دمشق ونشر بها مذهب أهل السنة ، وله مصنفاته المعروفة : رياضة المبتدى وبصيرة المستهدى في الرد على الملحدة ، وكتاب في الرد على جعفر بن حرب في نقض مسائله[١] .

وزين الدين أبو عبد الله الحسين بن على بن الحسين بن حمدان الخصيبى ت٣٥٨هـ ، لجأ إلى سيف الدولة الحمدانى بعد أن حبس في بغداد ، وكان يمت لسيف الدولة بصلة القرابة، وقد روى الخصيبى مذهب ابن نصير الشيعى ، الذى سمى نفسه باباً للإمام العاشر على الفقى ، وأكبر بنيه محمد بن على ، وبين بن نصير والحصيبى روايات ، فهو يروى عن محمد بن جندب عن محمد بن خيان الجنبلانى ، وكان قد قدم لسيف الدولة كتابيه المفقودين : كتاب الهداية وكتاب المائدة . وتوفى بحلب[٢] .

ومحمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى العسقلانى ، الشافعى أبو الحسين ، مقرئ متكلم نزل بعسقلان وتوفى بها ت ٣٧٧هـ وله مؤلفات منها : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع[٣] ، وكان كثير العلم كثير التصنيف في الفقه، وكان يقول الشعر ويعجب به[٤] .

---

(١) معجم المؤلفين لرضا كحالة ١٦٧/٢.

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣٥٧/٣ .

(٣) معجم المؤلفين لرضا كحالة ٧٢/٣ ، ٧٣.

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢١/ ٢٨٤.

من مشاهير علماء الكلام بالعراق :

لقد نشطت الفرق الإسلامية فى العراق وكثر دعاتها والمتكلمين فيها والمدافعين عنها فكان من أشهر علماء الكلام بالعراق :

أبو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائى ت ٣٢١هـ كان ذكيًا حسن الفهم ثاقب الفطنة صانعًا للكلام مقتدراً عليه قيمًا به ، وله من الكتب : كتاب الجامع الكبير ، كتاب الأبواب الكبير ، كتاب الأبواب الصغير ، كتاب الجامع الصغير ، كتاب الإنسان ، كتاب الغوص ، كتاب المسائل العسكريات ، كتاب النقض على أرسطاطاليس فى الكون والفساد ، كتاب الطبائع والنقض على القائلين بها ، كتاب الاجتهاد(١) .

وأبو عبد الله الحسين بن على بن إبراهيم المعروف بالكاغدى ت ٣٩٩هـ من أهل البصرة ومولده بها ، وأستاذه أبو القاسم بن سهلويه ويلقب بقشور على مذهب أبى هاشم وإليه انتهت رياسة أصحابه فى عصره ، وكان فقيهاً متكلما على الذكر نبيه القدر عالمًا بمذهبه منتشر الذكر فى الأصقاع والبلدان ، وكان يتفقه على مذهب أهل العراق ، قرأ على أبى الحسن الكرخى ، وقرأ على أبى هاشم عبد السلام بن محمد ، وله من الكتب : كتاب نقض كلام الرواندى ، ونقضه لنقض الرازى لكلام البلخى على الرازى ، وكتاب نقض كتاب الرازى ، وكتاب الجواب عن مسألتى الشيخ أبى محمد الرامهرمزى ، وكتاب الكلام فى أن الله تعالى لم يزل موجوداً ولا شيء سواه ، وكتاب خلق الخلق ، وكتاب الإيمان ، وكتاب الإقرار ، وكتاب المعرفة(٢) .

وأبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى من أهل البصرة وكان أولا معتزلياً ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن فى المسجد الجامع بالبصرة فى يوم الجمعة ، أرتقى كرسيًا ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه نفسى : أنا فلان ابن فلان ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة . فخر بفضائحهم

---

(١) كتاب الفهرست لابن النديم ص ٢٤٧ .

(٢) كتاب الفهرست لابن النديم ص ٢٤٨.

ومعايبهم ، وله من الكتب كتاب اللمع ، وكتاب الموجز ، وكتاب إيضاح البرهان ، وكتاب التبيين عن أصول الدين ، وكتاب الشرح والتفصيل فى الرد على أهل الإفك والتضليل وكتاب مقالات الإسلاميين(١) .

تعقيب على أوجه الشبه والاختلاف :

ظهر علم الكلام فى كل من الشام والعراق دفاعًا عن الإسلام فى كثير من الأوقات ، ولكن ظهوره بالعراق دون الشام كان مبكرًا ، وعلى درجة أكبر فى الانتشار نظرًا لأن العراق مهيأ لذلك وطبيعة من يسكنها تساعد على ذلك ، وأحيانًا أخرى كان بعضهم يندفع فى المناقشات حتى نهايتها لإثبات كفاءته وبراعة جدله .

كثرت الفرق المتكلمة بكل من الشام والعراق ، فقد ضم الشام أهل السنة والشيعة والأشعرية ممثلين لأهل السنة خلال القرن الرابع الهجرى ، وليس بها معتزلة ، وإن وجد فهو متخفى خشية البطش به . أما العراق فبها أهل سنة وشيعة ومعتزلة وأشعرية(٢) .

نشطت دعوة المعتزلة بالعراق دون الشام حيث كانت تعقد مجالس العلم بالبصرة، ولم تقتصر تلك المجالس على أن يتحدث فيها الرجال ويستمع الرجال أيضًا بل كان من النساء من تنشر الدعوة ويستمع إليها النساء مثل بنت أبى على الجبائى(٣) .

ويدخل المعتزلة فى صراعات مع الحنابلة ، ومع الخليفة القادر بالله وتموج العراق بالمصادمات فى حين أن الشام سالمة من مثل ذلك لطغيان المذهب السنى على أكثر أهلها . ورغم ذلك فقد كان لهم الأثر الواضح فى الدفاع عن الدين ، واهتموا بالعلوم والفلسفة ودأبوا على ترجمتها إلى العربية مما يجعل أهل العراق فى ذلك يتميزون عن أهل الشام .

وكذلك نشطت دعوة الأشعرى فيى العراق بقدر ملحوظ واسع عن الشام حيث

---

(١) كتاب الفهرست لابن النديم ص ٢٥٧ .

(٢) انظر أحسن التقاسى للمقدسى ص ١١٢، ١١٣، ١٥٣.

(٣) تيارات الفكر الإسلامى د/ محمد عمارة ص ٩١ .

أنها لم تلق حظا بالشام إلا على يد تلاميذ الأشعرى ، بعد مضى نصف قرن على موت الأشعرى حتى بسط مذهبه وسلطانه على الشام[1] .

أما العراق فإنها تموج بالمناظرات والصراعات بين المعتزلة والأشاعرة خاصة بعد أن وجه إليها أبو الحسن الأشعرى الضربة القاصمة عندما أعلن توبته وحربه على المعتزلة .

أما أهل السنة فإن أهل الشام قد عُرف عنهم شدة تعصبهم لأهل السنة وكان أكثر أهلها من أهل السنة ، وكذلك أهل العراق انتشر فيهم مذهب أهل السنة فكان لهذا المذهب مكانة مرموقة سواء فى الشام أو العراق وله علماؤه ونصراؤه ، أما الصراع بين أهل السنة والشيعة فإن حجمه كان أكبر فى العراق دون الشام؛ نظراً لأن العراق كثيرة الفرق والصراع ناشب بها ، وحكام العراق شيعيون فكانوا يناصرون المذهب الشيعى ، حتى ضعف مركزهم فى نهاية القرن الرابع الهجرى وقمعهم الخليفة القادر بالله .

الناظر تجاه أعلام علم الكلام يجد أن العراق تحتل مكاناً أكبر فى هذا المجال عن غيرها ، لذلك نقول أن علماء الكلام بالشام كانوا قلة قليلة أما علماء الكلام بالعراق فعددهم كثير ، وذلك مرجعه إلى اكتظاظها بالفرق والمذاهب الكلامية .

التأثير والتأثر :

إن أمر التأثير والتأثر بين علماء الشام والعراق أمر واقع وواضح ، ولكن فى علم الكلام فإن أثر علماء العراق ناضح على علماء الشام .

فقد قرأ عبد العزيز بن محمد الطبرى ت٣١٠هـ على أبى الحسن الأشعرى وسمع أيضاً من محمد بن جرير الطبرى[2] .

وكذلك أبو عبد الله الحصيبى ت ٣٥٨هـ قد رحل من العراق وسكن بحلب ونشر بها دعوته الشيعية النصيرية ، فقد تعلم ودرس وقرأ بالعراق قبل أن يرحل إلى حلب .

---

(١) الخطط للمقريزى ٣٥٧/٢ .

(٢) معجم المؤلفين لرضا كحالة ١٦٧/٢.

مجالس العلم :

كان علماء الكلام يقيمون مجالس العلم لنشر دعوتهم وأفكارهم سواء فى الشام أو العراق وهذا أمر واضح ، غير أن العراق تنفرد بوجود مجالس علم يديرها النساء، ويتمع بها النساء ، كما حدث من ابنة أبى على الجبائى بالبصرة . أما الشام فكان بها مجالس العلم يقوم بها الحسين بن حمدان الحصيبى ت٣٥٨هـ ويلتف حوله فيها الأمراء والشعراء والمؤلفون العدد الكثير[1] .

---

(١) العلويون بين الأسطورة والحقيقة د/ هاشم عثمان ص ١٥٧.

علم الفلسفة :

هو علم من العلوم العقلية ، وكلمة فلسفة كلمة يونانية الأصل ، معناها : الحكمة، وفيلسوف معناها : محب الحكمة ، وقد كانت الفلسفة قديما وأيام العرب لا يقصد بها دراسات الحكمة وحدها ـ التى هى يونانية الأصل ـ وإنما يقصد بها أيضاً المعرفة بالرياضيات والطب والفلك والموسيقى ، قيل أن هذا العلم لم يعرفه العرب إلا فى عصر متأخر فى الإسلام فى العصر العباسى الأول ، فهو لم يظهر إلا بقيام حركة الترجمة [(١)] ولكن هذا القول غير مقبول ، لأن تأملات العرب الفلسفية تبدأ منذ القرن الأول الإسلامى ، وتظهر بالارتباط مع العقيدة الإسلامية ، فوجود الله ووحدانيته وجبروته وعدله ورحمته وسائر صفاته الإلهية كانت موضوعات لرسالة دقيق متعمقة ، وتفرعت عنها طرق مختلفة للفكر ، ونشأت مدارس متعارضة حول موضوع القضاء والقدر ، والحرية الأدبية ، ومن هذه الفرق الخوارج والمرجئة والقدرية ثم ظهرت مدرسة المعتزلة ، وكل هذه المدارس سبقت ترجمة المؤلفات اليونانية ، التى لم تبدأ إلا فى عهد خلافة المنصور وهى دليل على استقلال تطور روح الإسلام[(٢)] .

كذلك يخطئ كل من يرى أن كل ما تركه فلاسفة المسلمين قد نقلوه قبل ذلك بحرفه عن فلاسفة اليونان[(٣)] . وقد وجد من الفلاسفة الإسلاميين من تصرف واستقل برأيه ، كما وجد منهم من وقف عند النقل والتفسير ، وأكثرهم قد تلقوا مذاهب الأولين على أنها عمل قابل للتعديل والتفنين ، وليس على أنها قضية مسلمة لا يأتيها الباطل بحال . وهذا أمر ضرورى لأن كل أمة إذا طلبت منها أن تبتدع ثقافة جديدة ، فلا يمكن أن تنقطع عن جميع الثقافات الأولى[(٤)] « فالفلسفة عند العرب هى معرفة مسببات الأمور ، كما هى على قدر ما تستطيع الوصول إلى تحقيقه قوى الإنسان

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة (فلسف) وتاريخ الحضارة الإسلامية الدكتور عبد المنعم ماجد ص ٢٢٠ .

(٢) إسهام المسلمين فى الحضارة الإنسانية للدكتور ماهر عبد القادر محمد ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٣) انظر حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٤٤٢ .

(٤) أثر العرب على الحضارة الأوروبية لعباس محمود العقاد ص ٩٩ ـ ١٠١ .

العاقلة ، وقد أخذ العرب هذه النظرة بعد أن كانت قد تحورت بمؤثرات الشعوب الشرقية فطبقوها على ميول الإسلام العقلية ونشروها عن طريق اللغة العربية »[1].

الفلسفة قبل القرن الرابع فى كل من الشام والعراق :

تأسست المدرسة الفلسفية الإسلامية بزعامة الكندى خلال القرن الثالث الهجرى ، حيث ارتبطت بالفلسفة الهلينية ، كما تظهر فيها الاتجاهات الأفلاطونية الحديثة[2] ، لذا يعد الكندى فيلسوف العرب ، إذ كانت له آرائه فلسفية عن فلسفة أرسطو وأفلاطون ، وقد ألف خمسين تأليفًا فى أكثر العلوم ، بعضها فى الفلسفة ، كما توجد له آراء فلسفية واضحة فى ترجمات تأليفاً فى أكثر العلوم ، بعضها فى الفلسفة، كما توجد له آراء فلسفية واضحة فى ترجمات لاتينية[3] . فكان الكندى أول داع كبير للفلسفة ، ويدعى أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى الذى ولد بالكوفة عام ٨٠٣م وكان والد الكندى من ولاة الأعمال فى المدينة ، وتلقى العلم فى الكوفة وفى بغداد ، وذاعت شهرته فى الترجمة ، والعلم والفلسفة ، لذلك فهو ثمرة المعتزلة على أيديهم كانت نشأة الفلسفة فى الإسلام حيث يقولون : إنه إذا تعارض القرآن أو الحديث مع العقل وجب ألا يفسر تفسيراً حرفياً بل مجازياً ، وأطلقوا على هذه الجهود التى يحاولون بها التوفيق بين العقل والدين اسم الكلام أى المنطق[4] .

إن الفكر الفلسفى لم يوجد وليد الصدفة ، بل نتيجة لعدة عوامل أسهمت فى تكوينه كفكر إسلامى ، كالمناقشات التى كانت تحدث بين مدرستى النحاة الكوفية والبصرية ، مما أدى إلى وضع عدد من المقولات مع مفردات لغوية دقيقة ، وقد أفادت الفلسفة من هذه المقولات ، وكان نشاط المذاهب الفقهية ذا أثر أكبر وخاصة عندما أرادت هذه المذاهب أن تحدد أصول الفقه وتميزها بذاتها[5] . فنستطيع أن نقول إن

---

(١) - The Arabic Achort History. Hitti. P. K. PP. 111 - 112 .
- History of the Arals, Hitti, P. K. PP. 369 - 370 .

(٢) إسهام المسلمين فى الحضارة الإنسانية للدكتور / ماهر عبد القادر محمد ص ١١٦ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور عبد المنعم ماجد ص ٢٢٣ .

(٤) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت ترجمة الأستاذ محمد بدران ١٩٨/١٣ ـ ٢٠٠ .

(٥) تراث الإسلام تصنيف / شاخت وبوزورث ترجمة الدكتور حسين مؤنس وآخرين ٦٢/٢ـ ٦٣ .

الفكر الإسلامى قد بدأ من الوحى الدينى ، ثم أخذ يشق طريقه بقواه الخاصة ، وفعل ذلك فى حركة ضد الآراء المعادية التى كانت تهدد العقيدة الإسلامية قليلاً أو كثيراً .

لذلك تُعدُ الفلاسفة مدرسة فكرية عند المسلمين ، وأن الفلاسفة المسلمين أحيوا حكمة اليونان وعلومهم بعد أن شملهم الموت أو كاد ، وعن طريقهم وصل التراث اليونانى إلى الشرق وإلى الغرب(١) .

الفلسفة فى القرن الرابع الهجرى بإقليم الشام :

كان علم الفلسفة فى بلاد الشام خلال القرن الرابع الهجرى يحتل مكانة بين العلوم الأخرى وقد نشطت حركته نشاطاً ملحوظاً ، حيث استطاع علماؤها أن يوفقوا بين أفلاطون وأرسطو وبين الديانة الموحى بها ، وكان من أكبر فلاسفة الشام عيسى الطبيب ، من أطباء سيف الدولة ، وأبو نصر محمد بن محمد الفارابى وقد أطلق عليه اسم المعلم الثانى، لما انتهى إليه من منزلة ممتازة ، وقد عاش فى كنف سيف الدولة(٢) .

ولم يكن للفارابى كثير من التلاميذ ، واشتهر من بين تلاميذه أبو بكر يحيى بن عدى ولزكريا تلميذ أشهر منه ذكراً هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام ، وقد كان للفارابى مجلس علم تدور فيه مباحثات ، وبعض التعاليم الفلسفية ، وقد تكلم فى مجلس سيف الدولة بكل لسان وفى كل فن ، وتكلم مع العلماء أيضًا ، فلم يزل كلامه يعلو وكلام غيره يسفل حتى صمت الكل وبقى يتلكم وحده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله(٣) .

فقد كان الفارابى يعيش فى عالم العقل ابتغاء للخلود ، وكان ملكا فى عالم العقل ، ولم يجعل بين تعاليمه فى الأخلاق والسياسة مكاناً لأمور الدنيا أو الجهاد ، ولم تكن فلسفته ترمى إلى إشباع الرغبات المادية ، من أى نوع ، وكانت تعارض

---

(١) الفكر الإسلامى منابعه وآثاره تأليف M. M. Sharif ترجمة وتعليق الدكتور أحمد شلبى ص ١٣٧ .

(٢) من نوابغ الفكر العربى (الفارابى) تأليف أ . سعيد زايد ص ١٦ ـ ١٧ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٥/٥.

الخيال المتردد بين الحس والعقل والذى يظهر فى مبتكرات الفن وفى الخيالات الدينية[1] .

ويذكر الفارابى الفلسفة فى النهاية على أنها رأس العلوم لأنها تتضمن اليقين فى المعرفة التى يحصل عليها بالبرهان[2] .

مراحل التفكير الفلسفى فى الشام :

يمثل التفكير الفلسفى فى بلاد الشام مراحل متتابعة تمثل مستويات فى عملية التبادل الثقافى والحضارى بين الفكر العربى والثقافة التى تعرف عليها العرب بعد الفتوحات الإسلامية ، حيث تلاقت خلاصة الحكمة القديمة مع عبقرية العرب وإبداعاتهم الحضارية ، وهذه المراحل تتمثل فى مرحلة الإطلاع على الفكر العالمى ، ومرحلة الاقتباس والانتقاء ومرحلة الإبداع الذاتى وهى ذروة النشاط العقلى العربى .

ـ أما مرحلة الإطلاع على الفكر العالمى ، فقد بدأ أهل الشام كغيرهم يطلعون على الفكر العالمى حتى عام ٣٣٤هـ، حيث أبدى الفكر العربى فى بلاد الشام رغبته الشديدة فى التعرف على عناصر الثقافة الإنسانية القديمة ومكوناتها واستوعبها استيعاباً مثمراً ، وقد بذل المترجمون جهداً رائعاً فى النقل والترجمة ، فلم يكونوا مجرد نقلة ، بل كانوا شراحاً لا ينقلون ، وحملتهم رغبتهم إلى تصنيف المؤلفات المختلفة فى شتى العلوم ، وقد امتاز بذلك من علماء الشام أبو عثان سعيد بن يعقوب الدمشقى ، وأبو نصر محمد بن محمد الفارابى وغيرهما كثير ، وقد عنى الفارابى بالمسائل النفسية والميتافيزيقية[3] .

ـ أما مرحلة الاقتباس والانتقاء : فقد استطاع علماء الشام من الفلاسفة عملية الاختيار والانتقاء من مكونات الموروث الثقافى الأجنبى ، فقد انتقوا عناصر تتلاءم وتنسجم مع تكوين الثقافة العربية العقلى والروحى الذاتيين معًا خلال القرن الرابع

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلامى ث. ج دى بور ترجمة محمد أبو ريدة ص ٢٢٥ .

(٢) إحصاء العلوم للفارابى تحقيق عثمان أمين ص ١٣ ، ٤٣، ٧١، ٧٢ .

(٣) العلم عند العرب تأليف ألدوميلى ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى ص١٨١ .

الهجرى ، وقد بدأت فى هذه المرحلة التوفيق بين العقل الفلسفى والنظرة العلمية والتجربة الحسية وبين مقررات الوحى والدين والنبوة ، وامتاز فى ذلك الفارابى حيث يمثل نموذجًا واضحًا فى ذلك التوفيق لفلاسفة الشام ، كما كان نموذجاً لفلاسفة العراق بدوره فيلسوفًا عاش فترة كبيرة من عمره بالعراق وقضى عمراً فى الشام ومات بها[(١)].

ـ أما المرحلة الثالثة وهى مرحلة الإبداع الذاتى التى تتحول فيها العناصر الثقافية المستمدة من مصادر مختلفة إلى ثقافة عربية وفكر إسلامى يتميز بخصائص معينة عن غيره ، وأصبحت الفلسفة آداة إيجابية تخدم الرسالة ، بحفظها صفاء العقيدة من عبث المنحرفين وفساد المخالفين وحملات التشكيك والتشويه ، مما أدى إلى صراع فكرى مع أهل الأهواء والبدع متمثلا فى علم الكلام الذى اتخذ صورة فلفسية صحيحة للدين على يد المذهب الأشعرى ، حيث تمهدت الأرض أمامه للسيطرة الفكرية ، فما كان يمضى على وفاة الأشعرى نصف قرن ، حتى كان مذهبه قد بسط سلطانه على الشام[(٢)]، وانضم تحت لواء الأشعرية شافعى الشام ، وتعانق المذهبان الأشعرى والشافعى[(٣)].

الفلسفة فى القرن الرابع الهجرى بإقليم العراق :

نشطت حركة الفلسفة فى العراق خلال القرن الرابع الهجرى نشاطًا ملحوظًا ، محاولة التوفيق بين أفلاطون وأرسطو وبين الديانة الموحى بها ، وكان من أكبر فلاسفة بغداد أبو سليمان المنطقى محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى ، شيخ رجال الفكر فى بغداد ، وأظفرهم بالدرر[(٤)]. وكان مجلسه فى بيته مدرسة فكرية تثار فيها أدق المسائل ، ويدلى فيها كبار العلماء بآرائهم ، ولأبى سليمان الكلمة الأخيرة فيما يعرضون ، فيجتمع عنده أمثال أبى زكريا الصيمرى ، وأبى حيان التوحيدى ، وغيرهم

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٤/٥ .

(٢) الخطط للمقريزى ٢٥٧/٢.

(٣) عصر الدول والإمارات (الشام) د/ شوقى ضيف ص ١١٠ .

(٤) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ٣٣/١.

يتجادلون ـ مثلا ـ فى هل هناك تأثير للنجوم فى الحوادث الأرضية ، وفى أفعال الله هل هى ضرورة أو اختيار وغير ذلك من المسائل. فكان بيت أبى سليمان المنطقى مدرسة تنشط فيها الحركات الفكرية ، وتثار فيه أعقد المسائل أحياناً ارتجالاً ، وأحياناً بقراءة رتيبة فقد درّس فى بيته كتاب النفس لأرسطو وحضره عليه أبو حيان التوحيدى(١).

كما كان يدور بين العلماء ببغداد فى مجالس العلم كثير من المناظرات الكبرى ، مما يدلنا على نشاط ذهنى فلسفى عجيب ، وحرية فى التفكير عظيمة ، وثروة فى رجال الفكر والنشاط العقلى الكبير ، من بين تلك المناظرات ، مناظرة كبرى بين أبى سعيد السيرافى وبين متى بن يونس القنائى فى منطق اليونان والنحو العربى سنة ٣٢٦هـ وكانت فى بغداد واحتشد لها كثير من العلماء(٢).

مراحل التفكير الفلسفى فى العراق :

مرت الحياة الفكرية فى حضارة العراق العربية الإسلامية بمراحل متتابعة، تشكل مستويات فى عملية التبادل الثقافى والحضارى بين الفكر العربى ودوائر الحضارة والثقافة، التى تعرّف عليها العرب بعد حركة الفتوحات الإسلامية ، ومسيرة عملية طويلة تنتهى خطواتها ببغداد عاصمة الدنيا عدة قرون ومركزاً حضارياً تلاقت فيه وفى مدارسها ودور الكتب ومجالس العلم خلاصة الحكمة القديمة ، لتتعانق هذه الأصول القديمة مع عبقرية العرب الذاتية وإبداعاتهم الحضارية ، لذلك نستطيع أن نقول عن مراحل التفكير الفلسفى أنها ثلاث مراحل متتابعة ، ولسنا نقصد بتتابع المراحل أن الواحدة كانت تبدأ حيث تنتهى الأخرى بقدر ما نقصد أنها تشكل مستويات فى عملية التبادل الثقافى والحضارى .

ـ **مراحل الإطلاع على الفكر العالمى** : توقفت هذه المرحلة منذ بدايتها عند سنة ٣٣٤هـ أى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وقد أبدى فيها الفكر العربى فى العراق رغبة شديدة فى التعرف على عناصر الثقافة الإنسانية القديمة ومكوناتها

---

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٢٢٩/١ ـ ٢٣٠ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١٠٨/١ وما بعدها .

واستوعبها استيعاباً مثمراً ، وقد بذل بها المترجمون السريان خلالها جهداً رائعًا فى النقل والترجمة ، فلم يكونوا مجرد نقلة ، بل كانوا شراحًا لما ينقلون ، ورغبتهم أيضًا فى نشر المعرفة ، وهذه الرغبة حملتهم على تصنيف مؤلفات مختلفة من طب وطبيعات وكيمياء وفلك ورياضيات وفلسفة ، وقد امتاز بذلك متى بن ينس حيث مؤلفاته الكثيرة ، ودوره البارز فى التأليف والترجمة[1] . وكذلك سنان بن ثابت بن قرة ت٣٣١هـ الناقل المترجم الطبيب المؤلف فقد خدم الطب وخدم الترجمة وخدم التأليف[2] .

ـ **مرحلة الاقتباس والانتقاء** : بعد أن تيسرت للفكر العربى سبل الإحاطة بالموروث الثقافى عن طريق الترجمة ، التى سبقت الإشارة إليها ، بدأ العلماء والفلاسفة عملية الاختيار والانتقاء من مكونات هذا الموروث الحضارى أو ما صار يعرف فى اصطلاحهم بـ « علوم الأوائل » عناصر تتلاءم وتنسجم مع تكوين الثقافة العربية العقلى والروحى الذاتيين معًا خلال القرن الرابع الهجرى ، كما بدأت محاولات التوفيق بين الحكمة البشرية والشريعة الإلهية أو بين مقررات الوحى والدين والنبوة من جهة ، واستقراءات العقل الفلسفى والنظرة العلمية والتجربة الحسية من جهة أخرى .

وقد امتاز بذلك الفارابى حيث شرع فى التوفيق بين أفلاطون وأرسطو وبين الديانة الموحى بها[3] . فالفارابى بدوره يمثل نموذجًا لفلاسفة العراق ، وفى الوقت نفسه يمثل نموذجاً لفلاسفة الشام حيث بدأ العملية بالعراق وأنهاها بالشام[4] .

ـ **مرحلة الإبداع الذاتى** : ويقصد بها ذروة النشاط العقلى العربى ، حيث تتحول العناصر الثقافية المستمدة من عناصر مختلفة إلى ثقافة عربية وفكر إسلامى له خصائصه التى تميزه عن غيره فقد جاوزت الفلسفة العربية دور الأخذ والاستمداد ،

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ ، وأخبار الحكماء للقفطى ص ٢١٢ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٣/٥ ـ ١٥٤ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٣٣ ، وعيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ٢٠١/٢ ـ ٢٠٧ .

(٣) إسهام المسلمين فى الحضارة الإنسانية د/ ماهر عبد القادر محمد ص١١٦.

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٤/٥ .

ومستوى الانتخاب والانتقاء إلى دور الابتكار والإبداع حتى أصبحت أداة إيجابية تخدم الرسالة وتنتصر لها . حيث صانوا بها صفاء العقيدة من عبث المنحرفين ، وفساد المخالفين وحملات التشكيك والتشويه والابتداع التى مثلتها قوى الشعوبية والردة الفكرية ، ونقضوا بها مفتريات جبهات الرفض والتحدى التى رامت الكيد للعروبة والإسلام ، فكان هذا صراع فكرى وعقيدى مع أهل الأهواء والبدع الذى من خلاله نشأ علم الكلام الإسلامى وتطور حتى اتخذ صورة فلسفة صحيحة للدين(١) . وقد امتاز فى هذه المرحلة ولمع نجمه وزاد عن حياض الإسلام وأبدع وابتكر الإمام أبو الحسن الأشعرى ت ٣٢٣هـ وتخرج على يديه كوكبة من التلاميذ الذين أصبحوا الكتيبة الأولى فى جيش الأشعرية الفكرى كأبى عبد الله بن مجاهد البصرى ت ٣٧٠هـ وأبى الحسن الباهى والباقلانى ت ٤٠٤هـ وغيرهم ، الذين حذوا حذو الأشعرى فطوروا وأضافوا ، حتى خرج المذهب من إطار بغداد وأصبح يسرى فى جمهور الأمة كمذهب فى الاعتقادات(٢) .

فلعل عملية إعادة البناء والتركيب والخلق والإبداع ، تمثل أروع صفحات الأصالة والابتكار فى تراثنا الفلسفى .

تعقيب :

تحتل الفلسفة مكانة بين العلوم سواء عند الشاميين أو العراقيين وكل منهما يقوم بدوره وله نشاطاً ملحوظ تجاه هذا الفكر ، وإذا كان بالشام فلاسفة حاولوا التوفيق بين الفلسفة والدين ، ففى العراق فلاسفة قاموا بذلك أيضاً .

كما يتفق كل من إقليم الشام والعراق بوجود مجالس للعلم يدرسون فيه الفلسفة وتمثل مجالسهم مدارس فكرية فى القرن الرابع الهجرى كمجلس سيف الدولة الحمدانى ، الذى يجلس فيه أبو نصر الفارابى ، ومجلس أبى سليمان المنطقى الذى كان يعقده فى بيته ، فتثار فيه أعقد المسائل أحياناً ارتجالاً ، وتدريس بعض الكتب لأرسطو(٣) .

---

(١) حضارة العراق للدكتور عرفان عبد الحميد ٢٦٢/٨ ـ ٢٦٣ .

(٢) تيارات الفكر الإسلامى د/ محمد عمارة ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٥/٥ ، وظهر الإسلام لأحمد أمين ٢٢٩/١ ـ ٢٣٠ .

وكما مرت الحياة الفكرية فى الشام بمراحل متتابعة تشكل مستويات فى عملية التبادل الثقافى والحضارى بين الفكر العربى والفكر الأجنبى الذى تعرف عليه العرب، كذلك مرت الحياة الفكرية فى العراق بتلك المراحل المتتابعة، لذلك يتفق كل من إقليمى الشام والعراق فى مرور حياتهما الفكرية بمرحلة الإطلاع على الفكر العالمى ورغبتهما فى نشر المعرفة والتصنيف فى العلوم المختلفة المحتكة بعلم الفلسفة، وكما امتاز علماء من الشام فى التصنيف والشرح والمقارنة كذلك امتاز من علماء العراق أيضًا من صنف وشرح وقارن واقتبس وانتقى، كما اتفق كل منهما فى محاولات التوفيق بين الفلسفة اليونانية وبين الديانة الموحى بها كما يتفق كل منهما فى تحويل العناصر الثقافية المستمدة من مصادر مختلفة ومتباينة إلى ثقافة عربية وفكر إسلامى له خصائصه المتميزة، وأصبحت الفلسفة عندهما تخدم الرسالة، وتحفظ صفات العقيدة من عبث المخالفين وفسادهم، وحملات التشكيك والتشويه، ففى كل منهما خلق وإبداع يمثل أروع صفحات الأصالة والابتكار فى تراثنا الفلسفى.

لقد اتفق كل منهما فى أن جُلّ ما عُنى به الفلاسفة المسلمون أول الأمر هو التوفيق بين التفكير الإسلامى وبين فلسفة أرسطو والأفلاطونية الحديثة، ومحاولة خلق فلسفة تلتقى فيها هذه العناصر، وتزعم ذلك الفارابى وابن سينا [١]. لذلك نستطيع أن نحكم بأنهما اتفقا فى الهدف.

الاتجاهات العامة للفكر الفلسفى بإقليم الشام:

اتجه الفكر الفلسفى اتجاهات ثلاثة فى بلاد الشام، متمثلة فى اتجاه علم الكلام، والاتجاه الفلسفى، والاتجاه الصوفى، وذلك كغيره من الأقاليم وخاصة إقليم العراق.

- **أما الاتجاه الأول**: وهو اتجاه علم الكلام فقد ظهر هذا الاتجاه نظرًا لما أخذته العرب من إثبات كيانهم، وأقاموا سيادتهم، فاستمر الإسلام يصارع فكريًا على مدى قرون طويلة، بذل فيها العلماء جهودًا مكثفة من أجل أن يمكنوا لهذا الدين، ومن أجل أن ينقضوا التصورات المخالفة لمفاهيمه، وتصوراته عن الوجود والإنسان والحياة.

---

(١) الفكر الإسلامى ترجمة الدكتور أحمد شلبى ص ١٣٧.

وقد مثل علماء الكلام استجابة فعالة للتصدى لكل تصور مخالف جابه العروبة والإسلام ، وذلك من علماء الأشاعرة دون المعتزلة ، لأن الشام قد انصرفت عن الاعتزال، وإذا وجد قليلون منهم فإنهم يعيشون فى خفية ، فلا ماء لمعتزلى ببلاد الشام[١] ولعل السبب فى ذلك يكون انتشار مذهب أهل السنة والجماعة وشدة تعصبهم لأهل السنة. أما الأشاعرة فقد ظهر مذهبهم فى الشام وانضم تحت لوائه شافعية الشام ، وتعانق المذهبان الأشعرى والشافعى[٢] ومن أشهر علماء هذا الاتجاه فى بلاد الشام : عبد العزيز بن محمد بن إسحاق الطبرى ت ٣١٠هـ الذى سكن دمشق ونشر بها مذهب أهل السنة ، وعرف عنه علم الكلام وله مصنفاته فى الرد على الملاحدة[٣] . ومحمد بن أحمد بن عبد الرحمن العسقلانى الشافعى ت ٣٧٧هـ وهو مقرئ متكلم وله مؤلفاته فى الرد على أهل الأهواء والبدع[٤] .

ـ **الاتجاه الثانى** : وهو الاتجاه الفلسفى ، حيث اتجه إليه العلماء لبيان وجوه الاختلاف بين موروث الفكر اليونانى وبين الفكر العربى ، حيث يحتوى على عناصر فلسفية لا تلتئم مع أصول الدين الإسلامى وتعاليمه ، فكان من الواجب عليهم أن يبذلوا ما فى وسعهم لرصد وجوه ومقررات الوحى والنبوة ، وقد اتسم بذلك أبو نصر الفارابى ، حيث قام بمبدأ التوفيق والجمع بين الفكرين اليونانى والعربى فى الإطار الذى يخدم الفكر العربى ومقررات الوحى ، وما يتفق مع الأصول الكبرى للدين الإسلامى ، وقرب فهم منطق أرسطوطاليس إلى معاصريه مما جعل له عند العرب مكانة لا تدانى ، حتى أنهم لقبوه بالمعلم الثانى ، ومن المؤرخين من سماه فيلسوف الإسلام بالحقيقة[٥] ، وأنه فيلسوف المسلمين غير مدافع[٦] ، وإنه أكبر فلاسفة المسلمين ، وأنه لم يكن فيهم من بلغ رتبته فى فنونه[٧] .

---

(١) أحسن التقاسى للمقدسى ص ١٥٣ .
(٢) عصر الدول والإمارات « الشام » د/ شوقى ضيف ص ١١٠.
(٣) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٦٧/٢ .
(٤) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٧٢/٣ ، ٧٣ .
(٥) العلوم عند العرب تأليف قدرى حافظ طوقان ص ١٣١ .
(٦) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٨٢ .
(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٣/٥ .

ـ **الاتجاه الثالث** : وهو الاتجاه الصوفى الذى يمثل اتجاهاً فكرياً فلسفيًا فى بلاد الشام حيث أصبحت بلاد الشام كغيرها عنوانًا للحضارة ، ومجمعًا للعلماء والفلاسفة ومركزاً للفقهاء والمحدثين والمفسرين ومنتدى للشعر والشعراء والكتاب ، وأصحاب التراجم والسير والتاريخ ومحراباً للزهاد والصوفية وخاصة مدينة حلب ودمشق ، وسوف نفرد لهذا الاتجاه فصلاً نتحدث فيه عن التصوف كعلم مستقل له أصوله ودعاته وسماته وعيوبه ، وإن المتصوفة قد رفضوا مناهج الفلاسفة والمتكلمين والأصوليين التى تقف عند حدود المنطق والاستدلال والبرهان ، واستبدال تلك المناهج بمنهج معرفى يعتمد على الكشف والإلهام والذوق والبصيرة وجعلها أدوات ووسائل إلى معرفة يقينية تزول معها الشكوك والأوهام وتختفى معها الحيرة والقلق ، واضطراب النفس .

الاتجاهات العامة للفكر الفلسفى بإقليم العراق :

اتجه الفكر الفلسفى اتجاهات ثلاثة متمثلة فى فلسفة الدين أو اتجاه علم الكلام والاتجاه الفلسفى والاتجاه الصوفى . ولم يكن هذا الفكر الفلسفى مقصوراً على العراق دون غيره ، بل كان منتشراً حيث انتشر الإسلام، فقد تساوى فى ذلك العراق والشام .

ـ **الاتجاه الأول** : اتجاه علم الكلام ظهر هذا الاتجاه نتيجة تحرير العرب المسلمين أرض العراق فأثبتوا كيانهم وأقاموا سيادتهم السياسية القومية عليها ، واستمر الإسلام يصارع فكرياً على مدى قرون طويلة ، بذل فيها العلماء جهوداً مضنية من أجل التمكين له ، ونقض التصورات المخالفة لمفاهيمه وتصوراته عن الوجود والإنسان والحياة، وقد شكل المتكلمون ـ ولا سيما رجال المعتزلة والأشاعرة ـ استجابة نشطة وفعالة للتحديات التى جابهت العروبة والإسلام ، فقد كان المعتزلة أول فرق هذا الاتجاه فى الإسلام[١] . ومن أشهر علماء هذا الاتجاه عبد السلام بن محمد الجبائى ت٣٢١هـ، والحسين بن على بن إبراهيم المعروف بالكاغدى ت ٣٩٩هـ[٢] ، أما الأشاعرة ، فقد دافعوا عن الإسلام بمنجهم ومذاهبهم الذى قعد قواعده أبو الحسن

(١) أحسن التقاسى للمقدسى ص ٤٤.

(٢) الفهرست لابن النديم ص٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

الأشعرى وصار خلفه أبو الحسن الباهلى والباقلانى فحذوا حذوه وطوروا وأضافوا فى إطار المذهب الأشعرى[1] .

ـ **الاتجاه الثانى** : وهو الاتجاه الفلسفى ، وقد انتقل كثير من موروث الفكر الفلسفى اليونانى إلى الوسط الفكرى العربى عن طريق الترجمة والاختلاط المباشر ، وقد أدرك المفكرون العرب ولا سيما مفكروا المعتزلة العراقيين إلى ما فى هذا الموروث من عناصر فلسفية لا تلتئم مع أصول الدين الإسلامى وتعاليمه فبذلوا جهوداً متميزة فى رصد وجوه الخلاف ، والإبانة عن مباينها ومن ثم الرد عليها ، حيث أن الفلسفة اليونانية شغلت نفسها بموضوعات لا تتفق مع الأصول الكبرى للدين الإسلامى ، فعمل كثير من فلاسفة العرب على الجمع بين ما ذهبت إليه كبرى المذاهب الفلسفية عند اليونان وبين مقررات الوحى والنبوة كالفارابى وغيره[2] .

وما يتسم به القرن الرابع الهجرى نحو الفكر الفلسفى أن مع بدايات القرن الرابع بدأت الخصومة والصراع بين الفلاسفة وعلماء الكلام ، وقد اتخذ مساراً اتسم بالعنف والقسوة ، بعد استقرار علم الكلام فى مدارس عامة لها خصائصها المتميزة والسبب فى ذلك ؛ أن المتكلمين قد راعهم وجوه الخلاف الجوهرية بين التصور العربى الإسلامى والفلسفة اليونانية فتجردوا للرد عليها وبيان تناقضها[3] .

ـ **الاتجاه الثالث** : وهو الاتجاه الصوفى الذى يمثل اتجاها من اتجاهات الفكر الفلسفى فى العراق ، خاصة فى بغداد ، التى أضحت عنواناً للحضارة ، ومجمعًا للعلماء والفلاسفة ومركزاً للفقهاء والمحدثين والمفسرين ومنتدى للشعراء والكتاب ، وأصحاب التراجم والسير والتاريخ ، ومحراباً للزهاد والصوفية ، هؤلاء الصوفية قد عزموا على إسقاط مناهج الفلاسفة والمتكلمين والأصولين التى تقف بخشوع عند حدود المنطق والاستدلال والبرهان واستبداله بمنهج معرفى يعتمد الكشف والإلهام والذوق والبصيرة الباطنة أدوات ووسائل إلى معرفة يقينية تزول معها الشكوك والأوهام ، وتخفى

---

(١) تيارات الفكر الإسلامى د/ محمد عمارة ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

(٢) حضارة العراق للدكتور عرفان عبد الحميد ٢٦٨/٨ .

(٣) حضارة العراق للدكتور عرفان عبد الحميد ٢٦٩/٣ .

معها الحيرة والقلق واضطراب النفس ، وأن يقوم ببغداد والبصرة والكوفة وواسط جموع الزهاد والعباد والنساك والقرائين بمحاربة التراخى الأخلاقى والاستهانة بالقيم الروحية وتسلط الحكام ، ووطأة الحروب والتطرف فى الآراء والمذاهب بموقف روحانى خالص(١) . وسوف نخصص لهذا الاتجاه الصوفى فصلا فيما بعد تحت « علم التصوف» .

تعقيب :

اتفق كل من الشام والعراق فى أن الفكر الفلسفى اتجه اتجاهات ثلاثة متمثلة فى الاتجاه الكلامى أو فلسفة الدين ، والاتجاه الفلسفى ، والاتجاه الصوفى .

فقد سلك علماء الشام وعلماء العراق طريق الدفاع عن الإسلام والرد على أصحاب التصورات الخاطئة والفلسفات المنحرفة وأهل الأهواء والبدع .

وبين كل منهما أوجه الاختلاف بين الفكر اليونانى والفكر العربى ، وحاولوا الجمع بين ما ذهبت إليه كبرى المذاهب الفلسفية عند اليونان وبين مقررات الوحى والنبوة . وقد استقر علم الكلام خلال القرن الرابع الهجرى فى كل من الشام والعراق فى مدارس عامة لها خصائصها المتميزة . كما ظهر أيضاً فلاسفة احتلوا مكانة عظيمة بين الشاميين وبين العراقيين وعلى رأسهم خلال القرن الرابع الهجرى أبو نصر محمد بن محمد الفارابى ، الذى أصبح أكبر فلاسفة المسلمين على حد قول ابن خلكان(٢) ، وأصبح فيلسوف المسلمين غير مدافع على حد قول القفطى(٣) .

كما اتفق كل منهما فى وجود الاتجاه الصوفى واحتلاله مكانة بين العلوم حيث يمثل اتجاها فكرياً ملحوظاً له أنصاره وعلماؤه ومصنفاته واشتهر من بينهم أناس كثيرون سواء فى الشام أو العراق . وسوف نفيض فى الحديث عن هذا الاتجاه فى فصل مستقل « علم التصوف خلال القرن الرابع » .

---

(١) حضارة العراق للدكتور عرفان عبد الحميد ٢٧٣/٨ ـ ٢٧٤.
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٣/٥ .
(٣) أخبار الحكماء للقفطى ص١٨٢ .

وقد اتفق كل من الشام والعراق فى أن هذا العلم يرفض مناهج الفلاسفة والمتكلمين التى تقف عند حدود المنطق والاستدلال والبرهان ، وأنه قد استدل على ذلك بمنهج يعتمد على الكشف والإلهام والذوق والبصيرة وكل هؤلاء وسائل إلى معرفة يقينية معها الحيرة ويختفى معها القلق وتزول معها الشكوك والأوهام .

موقف أهل الشام وأهل العراق من الفلسفة :

بعد أن ترجمت الثقافات والعلوم اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية ، وظهرت مدارس علم الكلام وعقدت الندوات ، وألقيت المحاضرات فى مختلف العلوم والفنون وانتشرت المذاهب الفلسفية ، وهبّ الصراع الفكرى بين دعاة الحق ودعاة الباطل ، تكونت من تلك المجادلات الكلامية والآراء الفلسفية ثروة فكرية هائلة وإن كان معظمها قد ندّ عن الصواب ، وجرّ على الأمة الإسلامية فى عقائدها كثيراً من الاضطراب والتفكك ، أما هذه النزعات الفلسفية فلم يقف علماء الشريعة الإسلامية تجاهها مشلولى الحركة بل قد تصدوا لتلك الآراء بالقلم واللسان وجادلوا بالحجة والبرهان ، ورأى البعض منهم ضرورة الاطلاع والتعمق فى علوم أولئك الفلاسفة ليتسنى الرد عليهم عن خبرة وإطلاع[1]. ويتساوى فى ذلك أهل الشام والعراق .

ولم يرض أهل السنة فى الشام والعراق بإخضاع الدين إلى هذا الجدل العقلى ونادى كثيرون منهم بمبدأ أن من واجب الإنسان أن يؤمن أن يسأل كيف يكون هذا الإيمان ، وامتنع معظم علماء الدين عن الجدل فى الموضوعات الأساسية ولكنهم اندفعوا يجادلون فى التفاصيل الجزئية لعقيدة اتخذوا مبادئها الأساسية بداية يسلمون بها دون مناقشة[2] .

أما سيف الدولة الحمدانى فقد وهب أبا نصر الفارابى بيتاً ، وسأله عما يكفيه من المال ، فقال الفارابى إنه يكفيه أربعة دراهم فى اليوم ، فأجرى عليه الأمير هذا القدر من بيت المال واقتصر عليها لقناعته ولم يزل كذلك إلى أن توفى[3] .

---

(١) مناهج الجدل فى القرآن الكريم للدكتور زاهر عواض الألمعى ص ٣١ .

(٢) قصة الحضارة لـ : ول ديورانت ترجمة محمد بدران ١٣/ ٢٠٣ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٦/٥.

ولا ننسى موقف أبى الحسن الأشعرى وأبى بكر الباقلانى وأبى إسحاق الأسفرينى ضد أى تيار فكرى معاد لأهل السنة والجماعة فى العراق وغيره ، فكان الأشعرى شيخ النظر وإمام الآفاق فى الجدل والتحقيق الذى صار شبحًا فى حلوق كل المخالفين والمعادين من القدرية والنجارية والجهمية والجسمية والروافض والخوارج(١) .

آثار الفلسفة عند المسلمين :

كان من آثار الفلسفة عند المسلمين سواء بالشام أو بالعراق أن ربط العلماء بين العلم والدين ، وتناقشوا فى الإلهيات ، ووضعوا أساس الفلسفة الإسلامية والروحية وبنوا عليها علم الكلام ، وأبدوه لها لتقوى حجتهم فيما كان يدور بينهم من المجالات المذهبية ، وقد اضطرهم ذلك إلى الاشتغال بعلم المنطق والتأليف فيه واضطهاد بعض الخلفاء وكثير من علماء المسملين للفلاسفة اعتقاداً منهم أن الفلاسفة يريدون تشكيك الناس فى عقائدهم ، ومع ذلك فقد كان بعض الخلفاء يشجعونهم على الجدل والمناقشة والبحث العقلى .

كما ظهر كثير من الفلاسفة المسلمين الذين كان لهم أثر واضح فى الفكر الإسلامى ثم فى الفكر الأوربى إبان نهضته .

إن كثيراً منهم وضع مبادئ علم النفس ، وبنوا عليها طرائقهم فى التربية والتعليم التى مازال الكثير منها يساير أحدث أبحاث علم النفس وأصول التربية(٢) .

مشاركة الفلاسفة فى علوم أخرى :

يتفق فلاسفة الشام والعراق فى أن أكثرهم لم يقصروا دراستهم وكتابتهم على الفلسفة بل كتبوا فى موضوعات متعددة غيرها .

فقد كان فى بلاط سيف الدولة الفيلسوف الكبير أبو نصر الفارابى حيث أقام فى كنفه بحلب يعيش عيشة التصوف ويعلم طلابه فى الحدائق التى حول حلب ويكتب

---

(١) أصول الدين لعبد القاهر البغدادى ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور أبو زيد شلبى ص٣٣٧.

كتبه فى المنطق والإلهيات والسياسة والرياضة والكيمياء والموسيقى ، وكان حوله أطباء يعنون بالطب والفلسفة ، إذ كان الطب فرعًا من فروعها ، ومن بين هؤلاء الأطباء الفلاسفة عيسى الرقى ، الذى كان يأخذ من سيف الدولة أربعة أرزاق بسبب الطب والترجمة وبسبب علمين آخرين(١) .

واشتهر بالطب والفلسفة فى بغداد ابن بطلان وهو أبو الحسن المختار بن الحسن بنِ عبدون واشتهر بالفلسفة والمنطق وعلوم الفلسفة والنقل إلى العربية أبو على بن زرعة ، واشتهر نظيف القسى الرومى بالفلسفة والنقل ، واستخدمه عضد الدولة البويهى فى البيمارستان الذى أنشأه ببغداد ، حيث كانت يده فى الطب أطول ولسانه فى المجالس أجول وذو حذق فى الجدل واشتهر بالفلسفة وعلم الهندسة أبو الوفاء البوزجانى ت ٣٨٧هـ(٢) .

تعقيب :

لا شك أن موقف أهل الشام والعراق واحد تجاه الفلسفة وما جلبته من اضطرابات وتفكك ، خاصة فى أمور العقيدة ، وأهل السنة منتشرون سواء فى الشام أو العراق ، وقد تصدى العلماء للنزعات الفلسفية بالقلم واللسان ، وقد تم ذلك بخروج شاميين وعراقيين اطلعوا وتعمقوا فى علوم الفلاسفة واكتسبوا الخبرة والمعرفة ليتسنى لهم الرد والتصدى .

كما وقف أهل الشام وأهل العراق موقفًا واضحًا من أمر الجدل العقلى ورفضوا إخضاع الدين لهذا الجدل ، وقد لمع دور كل من أبى الحسن الأشعرى خلال القرن الرابع الهجرى ، وكذلك أبى إسحاق الأسفرينى ضد أى تيار فكرى معاد لأهل السنة والجماعة .

كما أن للفلسفة أثرًا واضحًا على المسلمين سواء فى الشام أو العراق حيث ربط العلماء بين العلم والدين ، وتناقشوا فى الإلهيات ، واشتغلوا بعلم المنطق ، وظهر كثير

---

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ١/١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١/٣٧، ٥٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٥/١٦٧ .

من الفلاسفة المسلمين الذين أصبح لهم أثر واضح فى الفكر الإسلامى ، وكذلك فى الفكر الأوروبى .

كما يتفق كل من علماء الشام وعلماء العراق من الفلاسفة فى أنهم لم يقتصروا على علم الفلسفة وتناوله وحده ، بل شاركوا فى علوم أخرى بجانب الفلسفة ، فأبو نصر الفارابى ممثلا لفلاسفة الشام وكان مشاركًا فى علم المنطق والإلهيات والسياسة والرياضة والكيمياء والموسيقى والطب ، وكذلك الفيلسوف عيسى الرقى كان مشاركًا فى علم الطب أيضاً .

ولم يقتصر الأمر على فلاسفة الشام بل اتفق معهم أيضًا فلاسفة العراق ، فمنهم أبو الحسن بن بطلان كان فيلسوفًا وطبيبًا ، وأبو على بن زرعة اشتهر أيضًا بالفلسفة والمنطق والنقل من اللغات الأخرى إلى العربية ، واشتهر أيضًا نظيف الرومى بالفلسفة وانتقل إلى العربية والطب ، وكذلك أبو الوفاء البوزجانى اشتهر بالفلسفة والهندسة .

كما يتسم فلاسفة الشام بكثرة التصنيف والتأليف فى الفلسفة وغيرها من العلوم، كذلك يتسم فلاسفة العراق بكثرة التأليف فى الفلسفة وغيرها من العلوم التى تخدم الحياة العملية فى كل من الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجرى .

من مشاهير فلاسفة الشام :

ـ أبو نصر محمد بن محمد الفارابى المتوفى بدمشق سنة ٣٣٩هـ ، من أشهر فلاسفة المسلمين خلال القرن الرابع الهحرى ، وقد تنقل أبو نصر فى أمهات المدن الإسلامية واختلف إلى بغداد حيث أخذ المنطق على أبى بشر متى بن يونس الحكيم المشهور ، وإلى حرّان حيث أخذ عن يوحنا بن خيلان الحكيم ، ثم عاد إلى بغداد ، وقرأ بها علوم الفلسفة وتناول جميع كتب ارسطاطاليس ، وتمهّر فى استخراج معانيها، والوقوف على أغراض فيها[١] ، فيعتبر الفارابى أكبر فلاسفة المسلمين حتى لقب بفيلسوف المسلمين بالحقيقة وفيلسوف المسلمين غير مدافع[٢] .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٣/٥ ـ ١٥٦ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٨٢ .

واتصل الفارابى ببلاط سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب وصاحب سيف الدولة عند فتحه مدينة دمشق ومات بها فى سنة ٣٣٩هـ واشتهر بشروحه الكثيرة لمؤلفات أرسطو ، حيث لقب بالمعلم الثانى تميزاً له عن أرسطو الذى لقب المعلم الأول. وكتب فى الفلسفة والمنطق والإلهيات والسياسة والرياضة والكيمياء والموسيقى[١]. وكان يتكلم بلغات العالم كلها (سبعين لغة) ويتجلى من كتبه أنه كان يعرف التركية والفارسية وهو أمر بديهى يظهر لأول وهلة [٢]. وله مؤلفات كثيرة ذكرها بروكلمان مرتبة أولا على المنطق وثانيًا فى الأخلاق والسياسة وثالثًا فى الرياضيات والتنجيم والكيمياء والعرافة والموسيقى ، ورابعًا ذكر كتباً متنوعة تحت فنون متنوعة ، وخامساً مؤلفات عن أرسطو وسادساً مؤلفات عن أفلاطون[٣].

- **وعيسى النفيسى الطبيب** كان ممن ترجم الكتب من السريانى إلى العربى وكان يُعطى من سيف الدولة أربعة أرزاق[٤].

- **وأبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى** كان حيًا فى أوائل القرن الرابع الهجرى له ترجمات كثيرة ، وله مقالات كثيرة فى الجدل ، وعنى بترجمة الكتب الرياضية اليونانية وغير ذلك[٥].

من مشاهير فلاسفة العراق :

- **أبو زكريا يحيى بن عدى بن حميد بن زكريا المنطقى** ، إليه انتهت رياسة أصحابه ، قرأ على أبى بشر متى ، وعلى أبى نصر الفارابى ، وعلى جماعة ، وكان أوحد دهره ، كتب من كتب المتكلمين ما لا يحصى[٦]، فكان شيخًا لين العريكة ،

---

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ١٨٦/١ ـ ١٨٧ .

(٢) تاريخ الفلسفة فى الإسلام لـ . دى بور ترجمة أحمد محمد أبو ريدة ص ١٩٦ .

(٣) تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ١٣٩/٤ ـ ١٥١ .

(٤) أخبار الحكماء للقفطى ص١٦٦.

(٥) تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ١١٨/٤ والعلم عند العرب لـ. الدومييلى ترجمة عبد الحليم النجار ص ٢١١ .

(٦) الفهرست لابن النديم ص ٣٦٩ .

مشوه الترجمة ، ردئ العبارة ، وقد برع فى مجلسه أكثر هذه الجماعة ، ولم يكن يلوذ بالإلهيات ، كان ينبهر فيها ، ويضل فى بساطها ، ويستعجم عليه ما جلّ ، وكان مبارك المجلس[(١)] وله من الكتب والتفاسير والنقول : كتاب تفسير كتاب طوبيقا لارسطاليس مقالته فى البحوث الأربعة ، وكتاب رسالته فى نقض حجج كان أنفذها الرئيس فى نصرة قول القائلين بأن الأفعال لله تعالى والاكتساب للعبد[(٢)] .

ـ **أبو على عيسى بن إسحاق** بن زرعة بن مرقس بن زرعة بن يوحنا أحد المتقدمين فى علم المنطق وعلوم الفلسفة والنقلة المجودين ، حسن الترجمة صحيح النقل ، كثير الرجوع إلى الكتب ، محمود النقل إلى العربية ، جيد الوفاء بكل ما جلّ من الفلسفة ، ليس له فى دقيقها منفذ ، ولا له من لغزها مأخذ[(٣)] . وله من الكتب كتاب اختصار كتاب ارسطاطاليس وله كتب متعددة فى ذلك ذكرها ابن النديم[(٤)] .

وظهر بالعراق فى القرن الرابع الهجرى **جماعة إخوان الصفا** وكان منهم زيد بن رفاعة، وأبو سليمان محمد بن معشر البستى المعروف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى وأبو أحمد المهرجانى وغيرهم ، ووضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ، فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها وسموها رسائل إخوان الصفا ، وكتموا فيها أسماءهم ، وبثوها فى الوراقين ووهبوها للناس[(٥)] .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ٣٧/١ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٣٦٩ .

(٣) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ٣٣/١.

(٤) الفهرست لابن النديم ص ٣٧١ .

(٥) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ٤/٢ ـ ٥ .

علم التصوف :

هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة فى الملة ، وهو يعنى العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة(١) .

ولكن إقبال الناس على الدنيا فيما بعد القرن الثانى الهجرى ، جعل جماعة تحل مكان متصوفة القرون الأولى لها طرق خاصة فى أخذها الحياة ، أطلق عليها التصوف، ويقال لواحدهم متصوف أو صوفى ، كذلك ما لبثت هذه الطرق أن تطورت على علم مدوّن ، عمل أناس كثيرون على الكتابة فيه(٢) .

أما لفظ الصوفية فلم يكن معروفًا على عهد القرون الثلاثة الأولى المفضلة وإن أول ظهوره من البصرة بالعراق ، لما كان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة ما لم يكن فى سائر أهل الأمصار الأخرى(٣) .

التصوف قبل القرن الرابع الهجرى :

إن نمو مذهب الصوفية وتكامله قد كان كله بالمشرق وخصوصًا بالعراق وكان نموا سريعًا ، فقد ترك بعض الناس التجارة ولزم بيته للعبادة وانقطع عن الناس وهو أبو الحسن السقطى ت ٢٥٣هـ أول من تكلم ببغداد فى الحقائق والتوحيد وفى المقامات والأحوال ، أما اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر وجمع الهمة والمحبة والعشق والقرب والأنس فأول من تكلم فيها أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادى ت ٢٦٩هـ وتكلم فى الفناء أبو سعيد الجزار البغدادى فى عام ٢٧٧هـ ، فكانت بغداد قبل القرن الرابع الهجرى أكبر مركز للتصوف والمتصوفين ، على حين كانت البصرة أكبر مركز للزهاد ، وحوالى أواخر القرن الثالث الهجرى حمل تلاميذ السرى السقطى ت٢٥٣هـ مذاهب الصوفية إلى أنحاء المملكة الإسلامية(٤) . بحكم الجوار الشديد بين الشام

---

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور على عبد الواحد ١٠٩٧/٣

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور عبد المنعم ماجد ص ١٩١ .

(٣) حقيقة الصوفية للدكتور حمد بن ربيع المدخلى ص ١٣.

(٤) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة محمد أبو ريدة ١٦/٢ ـ ١٩ .

والعراق فقد سلك التصوف مسلكه فى بلاد الشام قبل القرن الرابع .

وتعد فترة ما قبل القرن الرابع الهجرى فترى يمكن أن ندعوها فترة الصراع من أجل البقاء وكان التصوف خلالها يبحث عن حقه فى الوجود ، وفى التغلب على بعض الأحكام المسبقة التى كانت تعارضه بتشجيع من السلطات الرسمية التى يغلب عليها الحساسية والتشكيك[١]

ويحدثنا آدم متز عن التصوف والصوفية فى الشام قبل القرن الرابع فيقول : يحكى أن أبا الخير الطائى ت ٢٢٥هـ دخل بلاداً كثيرة من ديار الشام واجتمع بالنصارى ورهبانهم ، وكان جده نصرانيًا ، ثم أسلم تقرباً من الأمويين ، ولما دخل فى السنة الخمسين من عمره اعتزل الناس فى جوار دمشق ، وقد ألف كتابًا يسمى « العروج فى درج الكمال والخروج من درك الضلال » ذكر فيه تاريخ الزهد عند اليهود والنصارى وغير ذلك[٢] .

التصوف فى القرن الرابع الهجرى

اتجاهات الصوفية

أولاً : فى الشام :

من المعروف أن الصوفية هى المدرسة الثانية من مدارس الفكر الإسلامى بعد المعتزلة والأشعرية اللذين يعدان شعبتى المتكلمين ، والصوفية نستطيع أن نجعلهم جماعتين **الأولى** منها جماعة آمنت بواحدانية الله وأنه خالق العالم **والثانية** جماعة قالت بوحدة الوجود ، رافضة فكرة خلق العالم من العدم ، مثبتة أن الكون مظهر الله الخارجى ، وأنه موجود من البدء ، صادر عن الله راجع إليه ، وليس ثمة فارق بين التراث والصفات أى بين العالم وبين الكون ، وبناء على هذا المذهب تتجلى الألوهية فى البشر[٣] .

---

(١) تراث الإسلام لـ : شاخت وبوزورث ترجمة الدكتور حسين مؤنس وآخرين ٢/٩٤ ـ ٩٥ .

(٢) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة محمد أبو ريدة ٢/٢١ ـ ٢٢ .

(٣) الفكر الإسلامى لـ : M. M. SHARIF ترجمة الدكتور أحمد شلبى ص١٢٧ .

أما الأولى فكانت قبل القرن الرابع الهجرى أما خلال القرن الرابع الهجرى وما بعده نستطيع أن نبين المنزع الذى وجّه النفوس ، ألا وهو فكرة الفلاسفة التى تقضى بأن المعرفة تقذف فى النفس بالرياضة الروحية والتهذيب النفسى ، ومعها أيضًا فكرة الحلول الإلهى فى النفوس الإنسانية التى كانت لها جذور فى القرن الأول فى السبئية ثم القرامطة ثم فى بعض الباطنية وظهرت أخيراً أو تمثلت فى بعض الصوفية . وهناك معين آخر أخذت منه فيما يظهر النزعات الصوفية وهو كون نصوص القرآن والسنة لها ظاهر وباطن ، وهذا التفكير مستعار من الباطنية ، وقد اختلطت تلك المنازع كلها من مغالاة فى الزهد إلى فتح الباب لأفكار الحلول ثم وحدة الوجود ، ثم كان من اختلاطها ذلك التصوف الذى ظهر فى الإسلام واشتد فى القرن الرابع الهجرى[1] ، ليس فى الشام وحدها بل فى العراق أيضاً .

ويحدثنا المقدسى أنه لقى فى جبل الجولان من جبال الشام أبا إسحاق البلوطى فى أربعين رجلاً ، يقاتلون بالبلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير برّىّ ، ويلبسون الصوف ولهم مسجد يجتمعون فيه ، ثم يقول عن أبى إسحاق : ورأيته فقيهاً عالمًا على مذهب سفيان الثورى[2] . وكان للكرامية أصحاب محمد بن كرام خوانق ومجالس ببيت المقدس[3] .

ومنهم من يخشى أن يأثم الناس بسببهم لذلك يكون حريصًا على ذلك ، فكان الشيخ أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروذبارى المتوفى بصور سنة ٣٦٩هـ وشيخ الشام فى وقته إذا دعا أصحابه معه إلى دعوة فى دور السوق ومن ليس من أهل التصوف ، لا يخبر الفقراء بذلك ، وكان يطعمهم شيئًا ، فإذا فرغوا أخبرهم ، ومضى بهم ، فكانوا قد أكلوا قبل ذهابهم بقليل فلا يمكنهم أن يمدوا أيديهم إلى طعام الدعوة إلا بالتعزز، وإنما كان يفعل ذلك لئلا تسوء ظنون الناس بهذه الطائفة فيأثمون بسببهم[4] .

---

(١) حقيقة الصوفية للدكتور محمد بن ربيع الدخلى ص ١٥ ـ ١٧ .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ص١٦٢ .

(٣) أحسن التقاسى للمقدسى ص١٥٣ .

(٤) الحضارة الإسلامية لآدم متز ترجمة محمد أبو ريدة ٢٤/٢ .

ثانياً فى العراق :

من المعروف أن العراق كانت المصدر الأول للتصوف والصوفية قبل القرن الرابع وبعده ، ومنها انطلق هذا المذهب إلى أنحاء المملكية الإسلامية ، وتعتبر الصوفية فى العراق مدرسة من مدارس الفكر الإسلامى بعد المعتزلة والأشعرية ، وقد اتجه الصوفية اتجاهين أو جماعتين ، الأولى : صوفية معتدلة آمنت بوحدانية الله عز وجل وأنه خالق العالم ، والثانية غير معتدلة ، حيث قالت بوحدة الوجود ، رافضة فكر خلق العالم من العدم ، مثبتة أن الكون مظهر الله الخارجى ، وأنه موجود من البدء صادر عن الله راجع إليه ، وليس ثمة فارق بين الذات والصفات ، أى بين الله وبين الكون ، وبناء على هذا المذهب وهذا الاتجاه تتجلى الألوهية فى البشر(١) .

أما الاتجاه الأول فكان منتشراً قبل القرن الرابع الهجرى ، وخاصة القرون الأولى ، أما خلال القرن الرابع وما بعده نستطيع أن نبين المنزع الذى وجه النفوس إلى ما صارت إليه ، ألا وهو فكرة الفلاسفة التى تقضى بأن المعرفة تقذف فى النفس بالرياضة الروحية والتهذيب النفسى ومعها أيضًا فكرة الحلول الإلهى فى النفوس الإنسانية التى كانت لها جذور فى القرن الأول فى السبئية ثم القرامطة فى بعض الباطنية وظهرت أخيراً فى بعض الصوفية وتمثلت فيهم .

كما يوجد معين آخر ، أخذت منه الصوفية اتجاهها ، وهو كون نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية لها ظاهر وباطن ، وهذا تفكير مأخوذ من الباطنية ، وقد امتزجت واختلطت تلك الاتجاهات وتلك المنازع من مغالاة فى الزهد إلى فكرة الحلول ثم وحدة الوجود ، ثم ظهر التصوف بهذه الصورة واشتد فى القرن الرابع الهجرى فى بلاد العراق(٢) .

ففى أوائل القرن الرابع الهجرى كان بالعراق الحسين بن منصور أبو مغيث المعروف بالحلاج ت ٣٠٩هـ أحد تلامذة الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى

---

(١) الفكر الإسلامى تأليف M. M. SHARIF ترجمة الدكتور أحمد شلبى ص ١٢٧ .

(٢) حقيقة الصوفية للدكتور محمد ربيع الدخلى ص ١٥ ـ ١٧ .

ت٢٩٨هـ وقد انكرته مدرسة بغداد بسبب غلوّه فى آرائه ، ذلك أن تصوره للاتحاد بالله ـ حيث تكمل النفس وتتقدس وتصبح ربانية كأنها إرادة حرة حية فى يد الله ، وكذلك أفكاره عن الرسالة من أنها لابد أن تنطبق فى رأيه على كل إنسان، بالإضافة إلى الكرامات التى كان يظهرها وربطته فى نظر تلامذته بالأنبياء ـ كل هذه الآراء جعلت الأوساط الصوفية والفقهية والسياسية تدينه حتى سجن ثم قطعت رأسه(١) .

تعقيـــب :

يعتبر التصوف فى كل من الشام والعراق مدرسة فكرية ثانية بعد المعتزلة والشاعرة بالنسبة للعراق وبعد الأشاعرة بالنسبة للشام .

أما العراق فإن التصوف بها متأصل وهى المصدر الأول لنشره فى المملكة الإسلامية ، كذلك تلاميذ السرى السقطى ت ٢٥٣هـ هم أول من حملوا مذهب التصوف إلى الشام قبل القرن الرابع الهجرى(٢) . ومن هنا كان للعراق السبق فى وجود التصوف قبل الشام .

أما اتجاهات الصوفية فى كل من الشام والعراق فأمر واقع ، البعض منهم معتدل يؤمن بوحدانية الله عز وجل ، والأغلبية قالوا بوحدة الوجود ، وبفكرة الحلول الإلهى واستمدوا أفكارهم من السبئية والقرامطة والباطنية .

وكل منهما يتفق فى أن النصوص القرآنية والسنة النبوية لها ظاهر وباطن . والسبب فى ذلك تأثرهم بالفكر الفلسفى الهدام الذى ينشره الباطنية .

فالتصوف خلال القرن الرابع الهجرى صورته واحدة فى كل من الشام والعراق بل يزيد فى العراق مرتع الأجناس المختلفة والعقائد والملل والنحل المتعددة .

والنماذج من المتصوفة الذين قالوا بفكرة الحلول كثيرة ، والتلبيس عليهم من قبل الشيطان كثيرة فى الأعمال والأقوال وإظهار الخرافات على أنها فى نظرهم كرامات .

---

(١) تراث الإسلام لـ : شاخت وبوزورث ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس وآخرين ١٩٩/٢ ـ ٢٠٠ .

(٢) الحضارة الإسلامية لآدم متز ، ترجمة محمد أبو ريدة ١٦/٢ ـ ١٩ .

وقد كتب ابن الجوزى كتاباً عظيماً نقد فيه أحوال الصوفية ، وبين من خلال عرضه للأفكار مدى انحراف فكر الصوفية ، ومدى اتباع الهوى وسيطرة الشيطان عليهم(١) .
وبهذا كان القرن الرابع ومن قبله القرن الثالث العصر الذهبى للتصوف الإسلامى ، وقد تأسست فيهما مذاهب الصوفية وكثر شيوخ التصوف ، بل ظهرت الطرق الصوفية وفيها يلتف مريدون حول شيخ يرشدهم فى سلوك الطريق إلى الله ، ثم تطورت أمور التصوف من عبادة الله والخوف منه إلى دراسة بواطن الأمور وخاصة القلوب وأسرار النفوس(٢) .

تأثر الصوفية بالمعتزلة والحركات الباطنية :

أولاً : فى الشام :

رغم أن المعتزلة ليس لهم قوة ظاهرة فى بلاد الشام ، وإنما كانوا فى خفية إلا أن أثرهم على الصوفية أمر واضح سواء من معتزلة الشام أو من خارجها .

فكثير من مسائل الصوفية ومناهجهم مستقاه من المعتزلة وفكرهم ، وقد ذكر ابن الجوزى عن أبى عبد الله الرملى قال : تكلم أبو حمزة فى جامع طرسوس فقبلوه فبينما هو ذات يوم يتكلم إذ صاح غراب على سطح الجامع فزعق أبو حمزة وقال : لبيك لبيك . فنسبوه إلى الزندقة ، وقالوا حلولى زنديق ، وقال على الروزبارى : أطلق على أبى حمزة أنه حلولى وذلك أنه كان إذا سمع صوتاً مثل هبوب الرياح وخرير الماء وصياح الطيور كان يصيح ويقول : لبيك لبيك لبيك فرموه بالحلول ، وقال أبو نصر السراج ت ٣٧٨هـ بلغنى عن جماعة من أهل الشام أنهم يدعون الرؤية بالقلوب فى الدنيا كالرؤية بالعيان فى الآخرة(٣) .

لقد جعل الصوفية مسألة القدر نقطة أساسية من مذهبهم فقالوا بالجبر على نحو لا تناقص فيه(٤) .

---

(١) انظر كتاب تلبيس إبليس لابن الجوزى من صفحة ١٦٠ ـ ٣٨٦ الباب العاشر والحادى عشر .
(٢) فى تراثنا الإسلامى للدكتور توفيق الطويل ص ١٧٦ .
(٣) تبليس إبليس لابن الجوزى ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .
(٤) الحضارة الإسلامية لآدم متز ، ترجمة محمد أبو ريدة ٣١/٢ .

كما أنهم يدعون إلى التوكل دون العمل ، تاركين الأمر كله لمشيئة الله من غير أن يعملوا شيئًا ، قد تأثروا بذلك وأثروا فى الإسلام تأثيراً قوياً عن طريق قولهم التوكل حتى طبعوه بطابعهم وهو ما يسمى بالاستسلام أو الجبر الإسلامى .

وقد رسخ المتصوفة فى ذهن كل مسلم بكلامهم البليغ وبفعلهم ، أن الأرزاق قد قسمت ، وكتبت قبل خلق الناس بزمن طويل وأن لكل عبد رزقًا أتيه لا محالة ، ولو هرب العبد من رزقه ، كما لو هرب من الموت لأدركه . وأن رزق كل إنسان قد كتب فى اللوح المحفوظ ، ولا يزاد فيه بحلول ولا حيلة .

كما أحدث الصوفية فكرة الولاية مستمدة من مذهب نصراني وذلك خلال القرن الرابع الهجرى على أن الولى هو من يواليه الله وينصره ، وهذه فكرة صوفية أحدثها الصوفية فى الإسلام .

واختلف معهم المعتزلة سواء فى الشام أو فى غيرها ، فكانوا ينكرون بالكلية أن يختص بعض المسلمين بالولاية دون البعض[1] .

ثانياً : فى العراق :

إن المتبع لمذاهب الصوفية يجد أنها تأثرت بمذاهب المعتزلة ، ذلك أن الصوفية أخذوا المسائل والمناهج منهم ، فتأمل مثلا قول أبى على ابن الكاتب الصوفى المتوفى سنة ٣٤٠هـ « أن المعتزلة نزّهوا الله من حيث العقل فأخطأوا ، والصوفية نزّهوه من حيث العلم فأصابوا » أى أن المعتزلة نفوا عن الله العقل بالمعنى الإنسانى ، والصوفية نفوا عنه المعرفة العلمية الاستدلالية ، فالمعتزلة نزهوا الله مستندين فى ذلك إلى العقل والنظر ، فانتهوا إلى التعطيل وما يشبه النفى ، على حين أن الصوفية لم يلجأوا إلى العقل ، بل إلى الأخذ بالشرع فى شاهره ، وإلى العلم المنقول ، وإلى طريقتهم فى التصفية ليحصل لهم العمل به من غير رجوع إلى النظر[2] . ولذلك انتشر مذهب التصوف أسهل انتشار بين معتزلة العراق ، فقد كان أبو حيان التوحيدى على بن

---

(١) الحضارة الإسلامية لآدم متز ، ترجمة محمد أبو ريدة ٣٢/٢ ــ ٣٥ .

(٢) الحضارة الإسلامية لآدم متز ، ترجمة محمد أبو ريدة ٢١/٢ .

محمد بن العباس أكبر كُتاب النثر فى القرن الرابع الهجرى ، متفننا فى الكلام على مذهب المعتزلة ، وكان صوفى السمت والهيئة ، فهو شيخ فى الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين[1] .

والجبر عند الصوفية ليس هو ذلك الذى يردده جماعة الفلاسفة من القول بالارتباط الضرورى بين الأسباب والمسببات ، بل إن الصوفية جعلوا للجبر معنى دينياً ، فإنهم لم يألوا جهداً فى دعوة الناس إلى التوكل على الله والثقة المطلقة به ، تاركين الأمر كله لمشيئته من غير أن يعملوا شيئا ذاهبين إلى أن أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدى الله عز وجل كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير ، ومعظم كرامات الصوفية إنما هى جزاء وتحقيق لهذه الثقة التى بفضلها تنفتح خزائن الله وكان التوكل أكبر عقيدة للصوفية فى القرن الرابع الهجرى، وقد أثر الصوفية تأثيراً قوياً فى الإسلام من طريق قولهم بالتوكل حتى طبعوه بطابعه ، وهو ما يسمى بالاستسلام أو الجبر الإسلامى[2] . ولا يختلف العراق عن الشام فى تأثر الصوفية بالفكر النصرانى فى فكرة الولاية ، واختلاف المعتزلة معهم حيث ينكرون أن يختص بعض المسلمين بالولاية دون البعض .

تعقيب :

مما جعل أمر التأثير واضح وجلى بالنسبة للمعتزلة والجبرية فى الصوفية ، سواء فى الشام أو العراق أن كلا من الصوفية والمعتزلة والجبرية مدارس فكرية ، تعتمد فى كثير من أمورها على النقل والحقيقة ، وفكر المعتزلة والجبرية أسبق من الصوفية ، لذلك فقد استقت الصوفية معظم مسائلها من الفرق .

فالتوكل عند الصوفى بدون عمل معناه الاستسلام أو الجبر الإسلامى ، حيث طبعوه بطابعه ، مما أدى إلى إهمال العمل وأصبح أمرهم التوكل دون العمل .

وقد أثر هذا الفكر على كثير منهم فى حياتهم ومعيشتهم ، فى زعمهم بوحدة

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ٢٨٧/٤ ـ ٢٨٨ .

(٢) الحضارة الإسلامية لآدم متز ، ترجمة محمد أبو ريدة ٣٢/٢ .

الوجود والاتحاد بالمعبود ، ولم يكن لهم أى اهتمام بالأديان ولا بالإسلام .

كما أن أثرهم الفكرى على الصوفية والصوفيين أمر واضح فى عقائدهم الفلسفية، ويبدو أن عملية المطاردة لاتباع الفرق الباطنية جعلت الكثير منهم يختفون فى حلقات الصوفية ، وهذا كله له أثر خطير على الأفكار الصوفية ، فظهر منهم الغلاة المتأثرون بأفكار الفرق الباطنية وفلسفتها[1] .

وقد ذكر (آدم متز) أن الصوفية تأثرت بالمعتزلة فى مسألة القدر فقالوا بالجبر ، وقد جانبه الصواب فى ذلك حيث أن المعتزلة قالوا باختيار الإنسان فى أفعاله وخلقه لها، فقد أجمع المعتزلة على أن العباد خالقون أفعالهم مخترعون لها ، وأن الله تعالى ليس له فى أفعال العباد المكتسبة صنع ولا تقدير[2] .

كما اتفق كل من صوفية الشام والعراق فى أن كثيراً منهم تأثر فى مسألة الولاية بالفكر النصرانى ، أنهم احدثوها فى الإسلام ، وقد نشروها حتى صار المتأخرون لا يعرفون إلا أولاء الصوفية[3] . وكان كتاب أبو عبد الرحمن السلمى «طبقات الصوفية» أول كتاب فى تراجم الأولياء ، وقد كثروا فى القرن الرابع الهجرى وجمع فيه من شتى البلدان وخاصة الشام والعراق .

---

(١) الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى للدكتور محمد أحمد الخطيب ص٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

(٢) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى ت ٤٢٩ هـ ص ٩٤ ـ ٩٥ ، وكتاب المعتزلة لزهدى حسن جار الله ص ٩٢ .

(٣) الحضارة الإسلامية لآدم متز ، ترجمة محمد أبو ريدة ٣٤/٢ ـ ٣٦ .

الخلاف بين الصوفية والفقهاء

أولا : في الشام :

يعتمد الفقه وسائر العلوم أكثر ما يعتمد على العقل وقضايا المنطق والبراهين العقلية ، أما التصوف فيعتمد على الذوق والكشف ، ولا يخضع للمنطق ولا للعقل ، فالصوفية يتكلمون بما لا يفهمون ولا يصح ـ فى نظرهم ـ أن تسأله عن الحجة العقلية فيما يقولون .

لذا فالخلاف بينهما شديد وظل قروناً عديدة ومرجع ذلك إلى :

تغلغل الفقهاء فى الشعاير الظاهرة ، أما الصوفية فتتغلغل فى الأعمال الباطنة . واختيار الصوفية كل حين ضرباً من القول يضايق الفقهاء[1] . فقد قال أبو نصر عبدالله بن على الطوسى ت ٣٧٨هـ بلغنى عن جماعة من أهل الشام أنهم يدعون الرؤية بالقلوب فى الدنيا كالرؤية بالعيان فى الآخرة[2] . وكان أبو عبد الله الروذبارى أحمد بن عطاء ت ٣٦٩هـ كان عرف الفقه واللغة والنحو، وكان مع هذا مبتذلاً فى لباسه وأكله ، ما كان يبالى ما يلبس وما يأكل ، وكان يقول : ما أكلت لحماً بشهوة قط ، وقال : كنت راكبًا على جمل فى طريق مكة فنزلت رجل الجمل فى الرمل ، فقلت : جلّ الله ، فقال الجمل بلسان فصيح : جلّ الله[3] . والفقهاء لم يدركوا ذلك ولم يرضوا عنه ، مما كان سبباً فى وقوع الخلاف بينهما .

ومن الأسباب أيضاً : أن الصوفية أو بعضهم لم يلتزموا تماماً الشعائر الدينية ، بل قالوا : إن من بلغ درجة الولاية تحرر من المظاهر ، ومنهم من يقول : إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، ومنهم من ادعى أن من أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل ، وقالوا إننا نرى الله ونكلمه ، وكل ما قذف فى نفوسنا فهو حق . ما سبق ذكره من كلام الزنادقة من القرامطة والشيعة ومن وسوسوا إليهم[4] ، وذلك كله لم يرض عنه الفقهاء .

---

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٦٣/٢.

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص١٧٠ .

(٣) كتاب سير السلف لأبى القاسم الأصبهانى ٥٣٥هـ ، مخطوط بتحقيقنا ص ١١٧٨ .

(٤) الحضارة الإسلامية لآدم متز ، ترجمة محمد أبو ريدة ٢٥/٢ ـ ٢٦ .

كما يدّعى الصوفية أن من اتصل بالله وبلغ الغاية فى الفناء خضع له الكون وقوانينه وجرى على يديه خرق العادة بما يسمى « الكرامات » ، والفقهاء ينكرون عليهم ذلك ، كما حدث مع أبى عبد الله الروذبارى عندما نزلت رجل الجمل فى الرمل فقال : جلّ الله ، قال الجمل أيضًا : جلّ الله . وكما حدث مع أبى الخير العابد الأقطع الشامى المتوفى عام ٣٤١هـ أن من كرامته أن الوحوش تأنس به[١] .

ثانيًا : فى العراق :

كما كان الفقه فى الشام يعتمد على العقل وقضايا المنطق والبراهين العقلية ، والتصوف يعتمد على الذوق والكشف ولا يخضع للمنطق ولا للعقل ، كان الأمر كذلك فى العراق ، وكان هناك خلاف شديد بين الفقهاء والصوفية وذلك مرجعه إلى الأسباب التى كانت فى الشام أيضًا ، أن الفقهاء تتغلغل فى الظاهر ، أما الصوفية فتتغلغل فى الباطن ، وأن الصوفية يأتون بأشياء لا يرضى عنها الفقهاء ، قال عبد الله بن على السراج الصوفى البغدادى ت ٣٧٨هـ : بلغنى أن جماعة من الحلوليين زعموا أن الحق عز وجل اصطفى أجسامًا حل فيها بمعانى الربوبية ، وأزال عنها معانى البشرية . ومنهم من قال : ذهبت الحلولية إلى أن الله عز وجل يعشق[٢] . وهذا جهل وتلبيس من إبليس .

ومن الأسباب التى أدت إلى الخلاف أيضًا أن من الصوفية من لا يلتزم بالشعائر الدينية ، حيث عندهم من بلغ درجة الولاية تحرر من المظاهر ، فالحلاج يتهم بأنه دعا إلى عدم الحج ، والاكتفاء بالحج إلى غرفة بيته ، وأبو حيان التوحيدى يؤلف رسالة يسميها الحج العقلى[٣] .

ومن الأسباب التى أدت إلى الخلاف ادعاء الصوفية أن من اتصل بالله وبلغ الغاية فى الفناء ، خضع له الكون وقوانينه ، وجرى على يديه خرق العادة بما يسمى الكرامات ، مقابل ما كان للأنبياء من معجزات والفقهاء ينكرون عليهم ذلك ويعتقدون أن قوانين الله لا تتخلف إلا لنبى . ومنهم من أظهر للعوام مخاريق صادروا

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص٣٧١ .

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

(٣) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٢/٦٤ .

بها قلوبهم وقد رُوِى عن الحلاج أنه كان يدفن شيئًا من الخبز والشواء والحلوى فى موضع من البرية ويطلع بعض أصحابه على ذلك فإذا أصبح قال لأصحابه ، إن رأيتم أن نخرج على وجه السياحة فيقوم ويمشى والناس معه ، فإذا جاءوا إلى ذلك المكان قال له صاحبه الذى أطلعه على ذلك : نشتهى الآن كذا وكذا فيتركهم الحلاج وينزوى عنهم إلى ذلك المكان فيصلى ركعتين ويأتيهم بذلك[1].

وذلك يدخل فى باب الحيلة والاستخفاف بالعوام ، مما يجعل الفقهاء أصحاب العلم ألا يسلموا بذلك .

تعقيب :

من الأمور الواضحة التى ليس عليها خلاف أن الفقه يعتمد على العقل والبراهين العقلية ، أما التصوف فيعتمد بالدرجة الأولى على الذوق والكشف ، ولا يصح عند أهل التصوف أن تسألهم عن الدليل أو الحجة فيما يفعلون أو يقولون ، ويتساوى فى ذلك صوفية الشام وصوفية العراق .

من أجل ذلك كان الخلاف بين الفقهاء والصوفية أمر واقع لا محالة سواء فى الشام أو العراق ، والأسباب المؤدية إلى ذلك الخلاف واحدة فى الإقليمين من تغلغل الفقهاء فى الشعائر الظاهرة ، وأما الصوفية فتغلغل فى الأعمال الباطنة .

إن الفقهاء تحافظ وتلتزم بالشعائر الدينية فى حين أن الصوفية لم يلتزموا بها وأحيانًا يسقطونها ، أن الفقهاء يؤمنون بأن الأنبياء والرسل أفضل الخلق أما الصوفى فيدعون أن من أولياء الله من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل .

لذلك كان لابد من وقوع خلاف بين الفقهاء والصوفية ، بين مَنْ يعتمدون على فكر سليم يقوم على العقل والمنطق ، وفكر يقوم على الخوارق والخرافات ووسوسة الشيطان .

الفقهاء يستمدون فكرهم من الدين الإسلامى لخدمة الدين وأحكامه وفهمها ، أما الصوفية يستمدون فكرهم من الفرق الباطنية والفلسفات المنحرفة والملل الضالة الحائدة عن جادة الطريق .

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ٣٨٦ .

ازدهار المؤلفات الصوفية :

كان التصوف فى القرن الرابع الهجرى يمرّ بمرحلة تتسم بمحاولة التوفيق بين التصوف وخصومه ، ورغم ذلك فالتأليف كان موجوداً ولكن ليس بالقدر الذى سيكون فى القرن الخامس والسادس الهجريين حيث انتشار المؤلفات الكبرى فى التصوف .

ففى الشام نلاحظ أن المتصوفين بعيدين عن الكتابة ، ويكرهونه ، لأن الكتابة أداة العقل لا أداة الشعور ، وإن الصوفية عندهم عقدة لا تحل فمن بلغ مبلغًا كبيراً فى التصوف صعب عليه أن يتقيد بكتابة أو كتاب ، ومن تعلم واحترف الكتب لم تقو مشاعره ، ولذلك نرى كثيراً من الباحثين فى التصوف والمؤلفين فيه ينقصهم التصوف العملى[1] . ومن كتب فيكون من الذين نزلوا دمشق وقدموا إليها مثل : محمد بن خفيف أبو عبد الله الضبى الصوفى الشيرازى ت ٣٧١هـ ، ذكر ابن عساكر نقلا عن أبى نعيم الحافظ أن محمد بن خفيف له : الفصول فى الأصول ، والتحقق والتثبت فى الوصول. وقد صحب محمد بن خفيف هذا طاهر المقدسى وأبا عمر الدمشقى[2] .

رغم وجود عدد كبير من الزهاد والصوفية إلا أننى لم أحصل على مؤلفات لهم فى القرن الرابع تتحدث عن الصوفية ومنهجهم فى التصوف وذلك بخلاف أهل العراق فقد صنفوا كتباً كثيرة فى التصوف كما سنرى بعد قليل .

وفى العراق نلاحظ أن الأمر على عكس الشام فى التأليف والتصنيف ، ووجود متصوفين كثيرين لهم مؤلفات عديدة سواء فى بغداد أو البصرة أو غير ذلك من المدن العراقية ، ورغم ذلك فإنهم يميلون إلى عدم التأليف بعد وصولهم إلى مكانة قريبة من الرقى وكبيرة فى التصوف . فلقد شهدت هذه الفترة فى العراق ازدهار المؤلفات الإسلامية فى التصوف مثل مؤلفات عبد الله بن على الطوسى البغدادى ت ٣٦٨هـ ومحمد بن إبراهيم الكلاباذى ت ٣٨٠هـ وأبى طالب المكى ت ٣٨٦هـ[3] وقد ذكر

---

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين ٧٧/٢ ـ ٧٨ .

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٤١/٢٢.

(٣) تراث الإسلام لـ : شاخت وبوزورت ، ترجمة د/ حسين مؤنس وآخرين ١٠٠/٢ ـ ١٠١ .

بروكلمان فى كتابه عددا من مصنفى الكتب فى التصوف مثل : الحسين بن منصور الحلاج ت ٣٠٩هـ وأبو بكر دلف ابن جحدر الشبلى ت ٣٣٤هـ وأبو محمد جعفر ابن محمد الخلدى ت ٣٤٨هـ ومحمد بن عبد الجبار بن الحسن البصرى قد كتب سنة ٣٥٢هـ كتاب المواقف ، وأبو نصر عبد الله بن على السراج ت ٣٧٨هـ وغيرهم كثير .

من مشاهير متصوفى الشام :

ذاع فى القرن الرابع الهجرى لقب الأبدال ـ وهى فئة من الصالحين ـ قيل أن الدنيا لا تخلو منهم وعددهم سبعون ، أربعون فى الشام ، وثلاثون فى سائر البلاد(١) . هذا كلام مرفوض لأن الأمر الذى لا شك فيه وجود الصالحين فى الدنيا ، أما الأمر الذى لا يعقل أن يحدد عددهم ويوزع بهذه الطريقة .

وقد جمعت كتب الطبقات كثيراً من متصوفى الشام وأشهر من كتب عنهم أبو عبد الرحمن السلمى ت ٤١٢هـ وأبو نعيم الأصفهانى فى « الحلية » . فظهور الأولياء منذ القرن الثالث فما بعده ، وأنهم كثروا فى القرن الرابع(٢) .

ومن أشهر متصوفى الشام خلال القرن الرابع هم :

ـ **أبو عمرو الدمشقى ت ٣٢٠هـ**(٣) وقد اشتهر بكنيته دون اسمه وهو من أجل مشايخ الشام ، عالم بعلوم الحقائق ، صحب أبا عبد الله بن الخلاء ، وأصحاب ذى النون المصرى وهو من أفتى المشايخ ، رد على من تكلم فى قدم الأرواح والشواهد(٤) .

وله أقوال كثيرة فى الزهد والتصوف والأخلاق ذكرها أبو عبد الرحمن السلمى وأبو نعيم الأصبهانى(٥) .

---

(١) الحضارة الإسلامية لآدم متز ٣٥/٢ ـ ٣٦ ، تحقيق محمد أبو ريدة نقلا عن جمهرة ابن دريد .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢١٨/٢ .

(٣) انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية للسلمى ٢٧٧ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ٣٤٦/١٠ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٨٧/٢ .

(٤) طبقات الصوفية للسلمى ص٢٧٧ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٨٧/٢ .

(٥) طبقات الصوفية للسلمى ص٢٧٧ ـ ٢٧٩ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ٣٤٦/١٠ ـ ٣٤٧ .

ـ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن المُوَلّد ت ٣٤٢هـ[١] من كبار مشايخ الرقة وفتيانهم صحب أبا عبد الله بن الجلاء الدمشقى ، وإبراهيم بن داود القصار الرّقى ، وكان من أفتى المشايخ وأحسنهم سيرة[٢] . وله أقوال كثيرة فى الزهد والتصوف[٣] .

ـ أبو بكر الدينورى محمد بن داود واشتهر بأبى الرُّقى توفى بعد الخمسين وثلثمائة[٤] أقام بالشام وعَمّر فوق مائة سنة ، وكان من أقران أبى على الروذبارى ، صحب أبا عبد الله بن الجلاء ، وإليه كان ينتمى ، وكان من أجل مشايخ وقته ، وأحسنهم حالاً وأقدمهم صحبة للمشايخ[٥] ، وله أقوال كثيرة فى الزهد والتصوف[٦] وقد قرأ على ابن مجاهد وسمع الحديث من محمد بن جعفر الخرائطى[٧] .

ـ أبو عبد الله الروذبارى واسمه أحمد بن عطاء بن أحمد ت ٣٦٩هـ[٨] ، شيخ الشام فى وقته ، يرجع إلى أحوال يختص بها ، وأنواع من العلوم ، من علم القراءات فى القرآن ، وعلم الشريعة ، وعلم الحقيقة ، وأخلاق وشمائل يختص بها ، وتعظيم للفقر ، وصيانة له ، وملازمة لآدابه ، ومحبة للفقراء ، وميل إليهم ورفق بهم . مات بصور ، وقد أسند الحديث[٩] ، وله أقوال كثيرة فى الزهد والتصوف[١٠] .

---

(١) انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية للسلمى ص٤١٠ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ١٠/ ٣٦٤ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٦٢/٢ .

(٢) طبقات الصوفية للسلمى ص ٤١٠ .

(٣) طبقات الصوفية للسلمى ص ٤١٠ ـ ٤١٣ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ٣٦٤/١٠ ـ ٣٦٥ .

(٤) انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية للسلمى ص٤٤٨ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٦٦/٥ ، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور١٥٢/٢٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٨٨/١١ .

(٥) طبقات الصوفية للسلمى ص٤٤٨ ، ومختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٥٢/٢٢ .

(٦) طبقات الصوفية للسلمى ص٤٤٨ ـ ٤٥٠ .

(٧) البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٨/١١ .

(٨) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٣٦/٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٣١٦/١١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٦٨/٣ .

(٩) طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص٤٩٧ .

(١٠) طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص٤٩٧ ـ ٥٠٠ .

أبو الحسن على بن بندار الصيرفى وهو من جلة مشايخ نيسابور ت٣٥٩هـ[١] ، لكنه رحل إلى الشام وصحب طاهراً المقدسى وأبا عبد الله بن الجلاء ، وأبا عمرو الدمشقى وكتب الحديث الكثير ورواه ، وكان ثقة يقول أبو عبد الرحمن السلمى : سمعت على بن بندار يقول : دخلت ـ بدمشق ـ على أبى عبد الله بن الجلاء ، فقال : متى دخلت دمشق ؟ قلت : منذ ثلاثة أيام ، فقال لى : مالك لم تجئنى ؟ قلت : ذهبت إلى ابن جوصاء[٢] وكتبت عنه الحديث ، فقال لى : شغلتك السنة عن الفريضة[٣] ، فإن كان ابن الجلاء يقصد بقوله « الفريضة » علم التصوف أو الحقيقة ويجعله فريضة وطلب الحديث سنة ، فقد لبس عليه إبليس فى ذلك ، وهذا لا يصح .

ـ ومحمد بن إسماعيل أبو بكر الفرغانى ت ٣٣١هـ أحد مشايخ الصوفية من أستاذى أبى بكر الرقى ، وكان من مجتهدى أهل التصوف ، سكن طرسوس ، وكثرت رحلته إلى مصر وبغداد وغيرها[٤] .

من مشاهير متصوفى العراق :

ـ أبو على أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور الروذبارى ت ٣٢٢هـ[٥] صحب أبا القاسم الجنيد وأبا الحسن الثورى ، وأبا حمزة المسوجى ، ومن فى طبقتهم من مشايخ بغداد وصحب بالشام ابن الجلاء . وكان عالمًا فقيهًا عارفًا بعلم الطريقة حافظًا للحديث[٦] . وكان من أهل الفضل والفهم ، وله تصانيف حسان فى التصوف

---

(١) انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية للسلمى ص٥٠١ ، وسير السلف لأبى القاسم الأصبهانى بتحقيقنا ص١٠٧٣ .

(٢) ابن جوصاء : هو أبو الحسن أحمد بن عمر بن يوسف الدمشقى ، محدث الشام توفى سنة ٣٢٠هـ. انظر البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٣/١١ .

(٣) طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص٥٠٢ .

(٤) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر لابن منظور ٢٢/ ٣٧ ـ ٣٩ .

(٥) انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية للسلمى ٣٥٤ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٢٩/١ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ٣٥٦/١٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٩٢/١١ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ٢٢٥/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٩٦/٢ .

(٦) طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص٣٥٤.

نقلت عنه[١]. وكان من أبناء الرؤساء والوزراء والكتبة ، سمع الحديث وحفظ منه الكثير ، وتفقه على إبراهيم الحربى وأخذ النحو عن ثعلب ، وكان كثير الصدقة والبر للفقراء[٢].

ـ أبو الحسن على بن محمد المزين ت ٣٢٨هـ[٣] من أهل بغداد ، صحب الجنيد وسهل بن عبد الله ، ومن فى طبقتهما من البغداديين ، وكان من أروع المشايخ وأحسنهم حالاً[٤]. وله تصانيف فى التصوف نقلت عنه[٥].

ـ أبو الحسن على بن إبراهيم الحصرى ت ٣٧١هـ[٦] بصرىّ الأصل سكن بغداد وكان شيخ العراق ولسانها ، كان أوحد المشايخ ولسان الوقت، وكان أوحد فى طريقته وهو أستاذ العراقيين ، صحب أبا بكر الشبلى وغيره من المشايخ، وله مصنفات حسنة ذكرها أبو عبد الرحمن السلمى[٧]. وكان أحد الموصوفين بالعبادة وشدة المجاهدة ، وله كلام على الأحوال دوّنه عنه المشايخ[٨].

ـ أبو طالب محمد بن على بن عطية الحارثى ت ٣٨٦هـ[٩] عاش زاهداً واعظًا بمكة والبصرة وبغداد ، ولقى الصوفية وصنف ووعظ وكان صاحب رياضة ومجاهدة ، وكان علة نحلة أبى الحسن بن سالم البصرى ، روى عن على بن أحمد

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٢٩/١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٩٣/١١ .

(٣) انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية للسلمى ص٣٨٢ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٧٣/١٢، وحلية الأولياء لأبى نعيم ٣٣٥/٨، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٠٥/١١، وشذرات الذهب لابن العماد ٣١٦/٢ .

(٤) طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص٣٨٢ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٧٣/١٢ ، والحلية لأبى نعيم ٣٣٥/٨.

(٦) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٤٠/١١ ، وطبقات الصوفية للسلمى تحقيق نور الدين شريبة ص ٤٨٩ .

(٧) طبقات الصوفية للسلمى ص٤٨٩ ـ ٤٩٣ .

(٨) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٤٠/١١.

(٩) انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٨٩/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٢٠/٣ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٧٩/٤ .

المصيصى وغيره ، وهو صاحب كتاب قوت القلوب ، فكان رجلا صالحًا مجتهداً فى العبادة ويتكلم فى الجامع ، وله مصنفات فى التوحيد ، ولما اجتمع إليه الناس فى بغداد فى مجلس الوعظ خلط فى كلامه ، وحفظ عنه أنه قال : ليس على المخلوقين أضر من الخالق فبعده الناس وهجروه وامتنع من الكلام بعد ذلك[١] .

وله مؤلفات منها : قوت القلوب فى معاملة المحبوب ، وكتاب علم القلوب[٢] .

تعقـيب :

تنفرد العراق بازدهار المؤلفات الصوفية خلال القرن الرابع الهجرى ، وقد التزم متصوفة الشام بمنهجهم القديم الذى يقضى ببعدهم عن الكتابة وأنهم يكرهونها لأنهم يعتقدون أن الكتابة أداة العقل لا أداة الشعور ، وأنهم مؤمنون بأن من بلغ مبلغًا كبيراً فى التصوف صعب عليه أن يتقيد بكتابة أو كتاب .

لذلك فإن نصيب الشام من التأليف والتصنيف للكتب التى تبين فكرهم أو تعكس لنا آراءهم ، قليل بل يكاد يكون نادراً ، وليس لهم إلا المجالس التى من خلالها استطعنا أن نحصل على فكرهم وقد أثبت من ترجم لمتصوفة الشام أن يثبت لهم مقالات عديدة فى الزهد والتصوف والعلم كطبقات الصوفية للسلمى عند ترجمته لمتصوفة الشام ، والحلية لأبى نعيم الأصبهانى وقوت القلوب للمكى ، وغيرها من الكتب .

أما العراق فالكتب المصنفة فى التصوف لمؤلفين عراقيين فهى كثيرة وهى التى اعتمدنا عليها فى ترجمة متصوفى الشام ، وأن القرن الرابع الهجرى شهد فى العراق ازدهار المؤلفات الصوفية ، وقد ذكر كارل بروكلمان فى كتابه عدداً كبيراً من المصنفين فى علم التصوف ، بل أفرد له باباً فى الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى .

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ١٢١/٣ .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٧٩/٤ ـ ٨٠ .

التأثير والتأثر :

مَنْ تصفح كتب الطبقات يجد أنها جمعت كثيراً من متصوفى الشام والعراق وأن التأثير والتأثر بينهما واضح فى الرحلة بين الشام والعراق وغيرهما ، وواضح فى التعليم والتعلم والسماع والصحبة ، وكذلك فى المنهج والفكر والسلوك .

فالتصوف أول ما ظهر ، ظهر فى البصرة ثم حمله إلى الشام تلاميذ السرى السقطى فى نهاية القرن الثالث الهجرى . فكانت بداية التأثير فى الشام . وقد سمع إبراهيم بن المولد الرقىّ الشامى الجنيد العراقى وأخذ عنه[١] . وكذلك محمد بن داود أبو بكر الصوفى الذى سكن فى دمشق وكان أحد حفاظ القرآن قرأ على أبى بكر بن مجاهد بالعراق[٢] . وأبو عبد الله أحمد بن عطاء الروذبارى نشأ ببغداد ، ثم انتقل إلى الشام وحدث عن أبى بكر بن أبى داود والقاضى المحاملى ، ويوسف بن يعقوب بن إسحاق وغيرهم[٣] . مما سبق نلاحظ أن متصوفى الشام قد تأثروا بمتصوفى العراق فى السماع والأخذ منهم والصحبة لهم .

أما متصوفى العراق فقد تأثروا أيضًا بصحبة متصوفى الشام ورحلوا إليهم وأخذوا عنهم واستمعوا لهم ، فأبو على الروذبارى ت ٣٢٢هـ قد رحل إلى الشام وصحب به أبا عبد الله بن الجلاء[٤] .

وكذلك أبو طالب محمد بن على بن عطية الحارثى ت ٣٨٦هـ ممن تأثر بمتصوفى الشام فقد عاش زاهداً واعظًا بمكة والبصرة وبغداد ولقى الصوفية ، رورى عن على بن أحمد المصيصى وغيره[٥] .

كان متصوفو الشام أهل فتوى وتصنيف الأقوال فى الزهد والتصوف كأبى عمرو الدمشقى ، وأبى إسحاق المولد ، كما كان منهم من له فى علوم أخرى بجانب

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ٣٦٢/٢ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٦٦/٥ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٣٦/٤ .

(٤) طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٣٥٤.

(٥) شذرات الذهب لابن العماد ١٢١/٣ .

التصوف كأبى عبد الله الروذبارى كان يختص بأنواع من العلوم كعلم القراءات ، وعلم الشريعة ، وعلم الحقيقة .

وكذلك متصوفو العراق كان منهم أهل فتوى وتصنيف الأقوال فى الزهد والتصوف وتصنيف الكتب أيضًا ، وكان منهم من يهتم بعلوم أخرى بجانب التصوف كأبى على الروذبارى كان عالمًا فقيهًا وحافظًا للحديث ونحوياً ، وأبو بكر دلف بن جحدر الشبلى كان فقيها على مذهب مالك ، وأبو محمد الخلدى الخوّاص كان محدثًا سمع منه الحديث أبو الحسن الدارقطنى أبو حفص عمر بن شاهين .

الفصل الثالث

العلوم الطبية فى الشام والعراق

(١) الطب (٢) الصيدلة والكيمياء

علم الطب :

يُعد علم الطب من العلوم التى عُنى بها العرب عناية كبيرة واستطاعوا أن يكتشفوا كثيراً من النظريات العلمية[1]، وهو من فروع الطبيعات ، وموضوعه بدن الإنسان لأنه يبحث فيه عن الصحة والمرض وهما عرضان ذاتيان لبدن الإنسان[2] . وهى ضرورة فى المدن أكثر منها فى البادية ، لأن أصل الأمراض الأغذية الغليظة والأغذية المعالجة بأنواع التوابل ، ثم الأهوية الفاسدة من تزاحم الناس فى المدن وتراكم فضلاتهم ثم قلة الرياضة[3] .

علم الطب قبل القرن الرابع :

عمّ الترف فى العصر العباسى ليس فى العراق وحدها بل فى الشام أيضًا ، وتنوعت المطاعم والمشارب ، ثم تعرضت أجسام العرب لأمراض حضرية فاحتاجوا إلى الطب كثيراً ، ولكن التطبيب من الناحية العملية لم يكنٍ يختلف كثيراً عما كان عليه فى العصر الأموى . ولكن الجانب العلمى أخذ يبرز ويظهر منذ أواسط القرن الثالث الهجرى ، وأخذ الأطباء يهتمون بالملاحظات السريرية أى : دراسة سير المرض وتطوره ـ وبالمجربات أى الاختبارات[4] .

لقد تقدم الطب والتطبيب خلال القرن الثالث الهجرى ، وأقبل أهل الشام وأهل العراق على تعلم العلم ، وكان الطب فى مقدمة العلوم التى طلبوها ، وأولوها عناية خاصة ، فقد ترجمت الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية بأمر من الخلفاء[5]، وكان فى مقدمة تلك العلوم علم الطب ، وكان لوجود أطباء كبار أثر كبير فى تقدم علوم الطب واتساع حركة الترجمة ، وذلك قبل دخول القرن الرابع الهجرى وسواء فى الشام أو العراق كان كل ذلك أمراً ظاهراً وواضحاً .

---

(١) أثر العلماء والمسلمين فى الحضارة الأوروبية لأحمد على الملا ص ١٣٢ .

(٢) مخطوط الدر المنظوم فى بيان حصر العلوم لأحمد بن عمر بن هلال الربعى (الورقة العاشرة) .

(٣) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص ٢٧٢ .

(٤) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص ٢٧٢ .

(٥) تاريخ الطب للدكتور أحمد شوكت ص ١٩٢ وما بعدها .

علم الطب فى كل من الشام والعراق فى القرن الرابع

أولاً : الشام :

اهتم أهل الشام بعلم الطب منذ زمن بعيد خلال العهد الأموى ، واستمر ذلك الاهتمام حتى القرن الرابع الهجرى ، وإن أثر هذا الاهتمام ليثمر فى ظهور بحوث أهل الشام وطرقهم المبتكرة فى تشخيص الأمراض وطرق العلاج وصنع العقاقير ، والمركبات الطبية ، والتشريح وتطوير الجراحة وبناء المستشفيات ، مما يؤدى إلى تطور الطب والجراحة(١) .

كان علم الطب فى الشام كغيره فى البلدان الأخرى ، يعتمد على المؤلفات اليونانية والهندية والفارسية ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، بل طرأت عليه تطورات جديدة ، وأبحاث واكتشافات ، جعلته يحتل منزلة رفيعة بين العلوم مما أدى إلى ازدهاره على مرّ العصور . وقد حدث ذلك نتيجة لإضافاتهم وتصحيح أخطاء من سبقوهم وذلك خلال القرن الرابع الهجرى ، وهذا نتيجة طبيعية لاهتمام أهل الشام حكامًا ومحكومين وعلماء بعلم الطب ، وإن ما يراعى انتباهنا هو اهتمام الشام ببناء البيمارستان ليس خلال القرن الرابع فحسب بل منذ أن اتخذ الوليد بن عبد الملك الذى تولى الخلافة الأموية سنة ٨٦هـ أول بيمارستان بالشام لعلاج المرضى .

لقد اهتم أهل الشام ببناء البيمارستانات على مر القرون الأربعة ، وانتشار المدارس الطبية من خلال البيمارستانات التى تعتمد على منهجين : نظرى وعملى ، أما النظرى فعن طريق المشاهدة أثناء فحص المريض ، فيشاهد الطلاب أساتذتهم ، وأما العملى فيكون على المرضى فى البيمارستان ، حيث قد بلغ الاهتمام بعلم الطب مداه(٢) .

ومما يدل على الاهتمام بعلم الطب هو وضع نظام عام يطبق على جميع الأطباء ليس فى الشام وحدها ولا فى العراق وحده ، بأن لا يسمح لأى طبيب ممارسة مهنة

---

(١) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان على ص ٥٨ .

(٢) تاريخ الطب فى الحضارة العربية الإسلامية للدكتور فرج محمد الهونى ص ٦٤ ـ ٦٦ .

الطب إلا بعد اجتياز امتحان معين والذى يشرف عليه هو رئيس الأطباء ، حيث كان النظام الطبى يخضع للتخصص الدقيق ، والذى جعل الخلفاء يشددون فى الامتحان بهذه الصورة أنه فى سنة ٣١٩هـ أخطأ الأطباء فى معالجة رجل من العامة فمات الرجل ، فأمر الخليفة المقتدر ألا يتصدى أحد لمعالجة الناس إلا إذا أدى امتحاناً ، وجعل أمر هذا الامتحان إلى سنان بن ثابت بن قرة فامتحن سنان فى نواحى بغداد وحدها تسعمائة من المتطببين(١) ، فمن المسلم به إذا كان ببغداد هذا العدد فلابد أن يكون هناك أعداد أخرى من المدن الشهيرة الأخرى على مستوى العالم الإسلامى وخاصة الشام .

وإن مما يدل على اهتمام أهل الشام بعلم الطب خلال القرن الرابع الهجرى أن سيف الدولة الحمدانى إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيباً(٢)

ولعلّ من أهم المنشآت الفاطمية فى القدس البيمارستان وهو أول مستشفى بالقدس ، وكان ينفق عليه مبالغ طائلة ، وكان أطباؤه يتقاضون راتباً مقطوعاً(٣) .

وكل هذا يدل على مدى الاهتمام الذى أحاط بعلم الطب فى بلاد الشام ، وهذا مرجعه إلى أنه ضرورة فى المدن أكثر منها فى البادية لكثرة المرضى وانتشار المرض ، بسبب الأغذية الغليظة ، والأهوية الفاسدة من تزاحم الناس فى المدن وتراكم فضلاتها(٤) .

ثانياً : العراق :

كان اهتمام أهل العراق بالطب اهتماماً شديداً منذ عهد مبكر ، وتفوقه فيه جعلهم أساتذة العالم لقرون طويلة ، بل أثرت بحوثه فى الطب وطرقهم المبتكرة فى تشخيص الأمراض وطرق العلاج ، وصنع العقاقير ، والمركبات الطبية المتنوعة ،

---

(١) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٦٦ .

(٣) اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى للسيوطى ١٩٦/٢ ـ ١٩٧ .

(٤) تاريخ العلوم للدكتور عمر فروخ ص ٢٧٦ .

والتشريح ، وتطوير الجراحة ، وبناء المستشفيات تأثيراً بالغاً فى تطور الطب والجراحة[١] .

وعلى الرغم من اعتماد الطب العربى فى تلك الفترة ـ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ـ على المؤلفات اليونانية والهندية ، والفارسية بصفة عامة ، إلا أن ما طرأ عليه من تطورات جديدة ، وأبحاث واكتشافات ، جعلته يصل إلى أرقى درجات الكمال ، واحتل منزلة رفيعة بين العلوم الأخرى ، إن النشاط الواسع فى الحركة العلمية خلال القرن الرابع الهجرى فى مجال الطب أدى إلى ازدهار الطب الإسلامى على مر عصوره[٢] . بإضافتهم وتصحيح أخطاء من سبقوهم ، وإضافة أمور جديدة ، وابتكارات جيدة .

ولا يمكننا هنا أن نقدم إلا صورة جدّ مصغرة عن منجزات العلماء المسلمين العراقيين وابتكاراتهم وإضافتهم خلال القرن الرابع الهجرى ، مما يعدّ نتيجة طبيعية لمدى اهتمام خلفاء بنى العباس بعلم الطب ، وكذلك اهتمام الأطباء الكبار ، واهتمام الدول ببناء البيمارستانات ، وانتشار المدارس الطبية التى تعتمد على منهجين ، نظرى وعملى ، وذلك بمشاهدة الطلاب كيفية فحص المريض من أساتذتهم ، وما يقررون من علاج ، ثم التطبيق العملى على المرضى فى البيمارستانات ، حيث كان اهتمام الأطباء المسلمين بالملاحظات السريرية ، قد بلغ مداه عندهم واهتمامهم عن طريق التجارب ومعالجة المرضى بالأدوية المختلفة[٣] .

وإن من الاهتمام الشديد بعلم الطب هو وضع نظام للأطباء لا يسمح فيه للطبيب بممارسة صناعة الطب ، إلا بعد اجتياز امتحان معين على يد رئيس الأطباء ، وكان يقوم بهذه المهمة فى بغداد فى بداية الأمر، الطبيب العربى العظيم سنان بن ثابت ت٣٣١هـ حيث كان النظام الطبى يخضع للتخصص الدقيق، فقد كان هناك الطبيب العام والجراح والفاصد ، والكحال ، والأسنانى ، وطبيب النساء وطبيب المجانين[٤] .

---

(١) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان على ص٥٨ .

(٢) تاريخ الطب للدكتور فرج محمد الهونى ص٦٤ ـ ٦٦ .

(٣) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٤) طبقات الأطباء لابن جلجل ص ٦٨ .

وإن مما يدل على اهتمام الخلفاء والأمراء بعلم الطب ، أن عضد الدولة لما عمّر البيمارستان ببغداد جمع الأطباء من الآفاق ، فاجتمع فيه أربعة وعشرون طبيباً ، منهم من كان يدرس الطب[1] . وكذلك إنشاء البيمارستانات على نفقة الوزراء مثل بيمارستان أبي الحسن على بن عيسى بن الجراح ت ٣٣٤هـ أنشأ بيمارستاناً ببغداد وأنفق عليه من ماله ، وقلده أبا عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى . وبيمارستان السيدة أم المقتدر الذى أنشأته وأنفقت عليه من مالها الخاص ، ثم البيمارستان المقتدرى الذى أنشأه الخليفة المقتدر سنة ٣٠٦هـ، وأنفق عليه من ماله[2] .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، مما يدل على مدى اهتمام أهل العراق بعلم الطب ومتطلباته .

تعقيب

إن اهتمام كل من الشام والعراق بعل الطب أمر مسلم به ، وكلاهما يتفق فى ذلك، والدليل على ذلك ما يبذله السلاطين والأمراء والوزراء من اهتمام بعلم الطب سواء فى العراق أو فى الشام ، كما يتفق كل منهما أنهما استقيا هذا العلم فى أول الأمر من المؤلفات اليونانية والهندية والفارسية ، ويتفق كل منهما فى عدم الوقوف عند الأخذ من الآخرين ، بل حدث عند كل منهما التطوير والتجديد والبحث والتجربة وغير ذلك ، حتى أصبح علم الطب عندهما فى منزلة رفيعة بين العلوم ، وكل منهما اعتمد على المنهج النظرى والمنهج العلمى وكل منهما يملك حقل التجارب وهو البيمارستانات ، غير أن العراق اهتمامها بالبيمارستانات يتفوق على الشام حيث أن البحث لم يسعفنا من جانب الشام فى إثبات عدد كبير من البيمارستانات الشامية خلال القرن الرابع الهجرى .

وإن مما يشعرنا بمدى الاهتمام فى كل من الشام والعراق أن يقرر نظام امتحان بناء على صدور أمر من الخليفة ويطبق على كل من يرغب فى العمل بصناعة الطب.

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص١٥٨ .

(٢) تاريخ البيمارستانات فى الإسلام للدكتور أحمد عيسى ص١٧٩ ـ ١٨٣ .

إن السبب الذى دفع كل منهما لبناء البيمارستانات واحد ، وهو انتشار الأمراض بسبب الأغذية ، وتزاحم الناس فى المدن وتراكمهم .

وإن كلاً منهما ليتفق فى أن لهما انجازات فى علم الطب وأبحاث واكتشافات جعلتهم يصلون بهذا العلم إلى درجة أعلى مما كانت عليه . وجعلته أساسًا متينًا أقيم عليه صرح الطب فيما بعد ، وذلك بحفاظهم على التراث القديم وترجمته وتصحيحه وتفسيره ، وسد النواقص فيه ، فلولا العرب جميعًا وليس الشام وحدهم ولا العراق وحدهم لضاع هذا التراث ، كما أضاف كل منهما إلى هذا التراث الكثير ونشروه .

وأصبح الطبيب يعرف بالحكيم ، أى الرجل الفاضل ، صاحب العقل الراجح ، وهو فى نفس الوقت الطبيب الفيلسوف والعالم المتبحر فى أنواع العلوم .

منجزات أهل الشام الطبية :

إنه من الواقع أن عدداً كبيراً من الأطباء امتهن مهنة الطب فى الشام خلال القرن الرابع الهجرى لدرجة أن سيف الدولة الحمدانى عندما كان يجلس للطعام يكون حوله أربعة وعشرون طبيباً[(١)]، وهؤلاء الأطباء ومن المسلم به أن اهتمامهم كان ينصب على دراسة الحالة الصحية لجسم الإنسان بصفة عامة .

ومن الواقع أيضاً ، أن من كتب فى تاريخ الطب العربى الإسلامى ، أو تحدث عن إسهامات الأطباء وخاصة فى القرن الرابع الهجرى ، قد درجوا على أن يستشهدوا ، ويضربوا الأمثلة من أطباء العراق دون غيرهم من الأقاليم الأخرى فى الدولة الإسلامية الكبرى إلا نادراً ، مما يجعلنا نجد صعوبة بالغة فى الكتابة حول الأطباء الشاميين وإنجازاتهم وتخصصاتهم الطبية ، وما مارسوه من أعمال طبية وغير ذلك . ورغم ذلك فإنه لابد من أن نشير إلى انجازات الأطباء الشاميين خلال القرن الرابع الهجرى فى فروع الطب المختلفة ، ما وسعنا ذلك بحثًا وتنقيبًا فى بطون الكتب حتى نستطيع أن نعطى صورة كاملة عن انجازات أهل الشام الطبية وذلك على النحو التالى :

علم التشريح :

لهذا العلم أهمية بالغة لما له من صلة وثيقة بفروع الطب الأخرى ، ومعرفته شيء لابد منه لمزاولة الطب ، وقد وجدنا من علماء الشام من تعرض لذلك ونقل مقالة جالينوس فى تشريح الأعضاء للمتعلمين كأبى عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى[(٢)] وكان يعمل ببيمارستان بغداد ومكة والمدينة حيث قلده هذا المنصب الوزير على بن عيسى[(٣)] .

وكان لأبى عيسى جبرائيل بن عبد الله ت ٣٩٦ هـ صلة بهذا العلم حيث كتب رسالة فى عصب العين ، ولديه معرفة جيدة بفم المعدة والحجاب الحاجز أو الفاصل بين آلات الغذاء وآلات التنفس[(٤)] .

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٦٦ .

(٢) انظر المقالة التى نقلها لجالينوس مخطوط رقم (٢٤٠) بفهرس الطب بمعهد المخطوطات العربية .

(٣) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٢٥/٣.

(٤) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٧٥/٢ .

علم الجراحة :

كان لأطباء الشام إسهامات أيضاً في الجراحة ، وقد أمدتنا بعض المصادر بمواقف من خلالها يظهر لنا بعض انجازات أطباء الشام خلال القرن الرابع الهجرى فى علم الجراحة ، فقد نقل لنا ابن أبي أصيبعة حكاية عن محمد التميمي المقدسى ت٣٧٠هـ أن رجلاً سقط من موضع عالٍ إلى أسفل ، وظل يضج ويتأوه إلى أن جاءوه بطبيب ففصده وشد على مفاصله المتوهنة جباراً ، فأقام أياماً كثيرة إلى أن برأ وذهب عنه الوجع[1]، فاستطاع هذا الطبيب أن يعالج بالجبائر أنواع الكسور ، مما سبق نستطيع أن نبيّن موقف أطباء الشام من الجراحة ومعالجة الكسور والجبائر .

وكان جبرائيل بن عبيد الله على علم بأعصاب العين ، حيث سئل عن عصبيتى العين فتكلم فيها بكلام حسن موقعه جعل موقعه مما جعل عضد الدولة يغتبط به وقرر له العطايا[2] .

طب العيون :

كان لهذا الفرع من فروع الطب اهتمام كبير فى الطب الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى عند أطباء الشام ، وقد سمى الطبيب المختص بهذا الفرع كحالاً ، وقد ساهم الأطباء الشاميون كغيره مساهمة كبيرة فى تقدمه ، بسبب انتشار أمراض العيون فى كثير من مناطق الشام[3] .

وكان طبيب العيون يتمتع فى جميع الأمصار الإسلامية بشخصية متميزة بين مختلف طبقات الأطباء[4] . وقد ظهرت مؤلفات هامة لأطباء الشام فى هذا الفرع وأعمال جليلة تدل على مدى اهتمام أطباء الشام بعلم العيون ، فأبو عبد الله محمد ابن سعيد المقدسى ت ٣٧٠هـ كتب مقالة فى ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٥/٣ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٠٣ .

(٣) الطب العربى لأمين أسعد ص ١٧٨ .

(٤) العلوم فى الإسلام سيد حسن نصر ص ١٤٠ .

وعلاجه[1] . وقد اهتم جبرائيل بن عبيد الله بعصب العين ، وكان له فى ذلك كلام حسن[2] .

مما سبق نستطيع أن نبين اهتمام أطباء الشام بعين الإنسان وأمراضها وأنواع تلك الأمراض وأسبابها وتقديم العلاج النافع المناسب لها .

الأمراض الباطنية :

تناول كثير من أطباء الشام الأمراض الباطنية على مستوى جميع أجهزة الجسم ، فمثلا الجهاز الهضمي ، فقد تحدثوا عن كثير من الأمراض التى قد تصيبه وعلاجها فقد كتب جبرائيل بن عبيد الله كناشه الصغير للصاحب بن عباد وهو مقصور على الأمراض التى تعرض من الرأس إلى القدم ، كما كتب مقالة فى ألم الدماغ بمشاركة فم المعدة والحجاب الفاصل بين آلات الغذاء وبين آلات التنفس[3] كما شرح كثيراً عن أمر النبض وعلل تعليلات لم يكن أحد من الأطباء الذين جالسوه سمع بها ، وقد عالج أمر النحافة عند ملك الديلم ، وكتب كتابًا للصاحب بن عباد عن أفضل اسطقسات البدن وهو الدم وبرهن فيه عن علل ذلك[4] . وكذلك أبو الفرج اليبرودى كان عنده معرفة بأعراض كثير من الأمراض كحالة من أكل أرطالاً من لحم فرس مسلوق فى سوق دمشق ، وقد أمعن فى أكله بأكثر مما يحتمله قواه حتى أصبح الموت قريبًا منه ، ولكن أبا الفَرَج أخذه وعالجه وتلطف فى مداواته حتى آفاق وعاد إلى صحته[5] .

واستطاع أبو عبد الله محمد التميمى المقدسى معالجة السموم عن طريق خبرته الفاضلة فى تركيب المعاجين والأدوية المفردة ، لدفع ضرر السمومات القاتلة المشروبة والمصحوبة فى الأبدان[6] .

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٦/٣ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٠٣ .

(٣) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٧٧/٢ .

(٤) أخبار الحكماء للقفطى ص١٠٤ ، ١٠٥ .

(٥) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٣٦/٣ .

(٦) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٦/٣ .

كما ترجم سعيد بن يعقوب الدمشقى كتاب البول لمغنسى الحمصى[1]، واستطاع جبرائيل بن عبيد الله أن يعالج مرض النقرس وضعف الأحشاء. كما استطاع أن يصنع معجوناً للمريض الذى ينزف دماً فيبرأ ويصلح بدنه[2].

منجزات أهل العراق الطبية :

امتهن مهنة الطب فى القرن الرابع الهجرى بإقليم العراق عدد كبير من الأطباء ، مما جعل مجال البحث يتسع فى علم الطب ، وقد انصب الاهتمام على دراسة الحالة الصحية لجسم الإنسان بصفة عامة ، وقد بحثوا فى أمراض كل من أجهزة الجسم على حدة ، كما بحثوا فى أسباب الأمراض ، وقالوا بأن بعضها ظاهر كالإصابات الظاهرة الناتجة عن حوادث ، وبعضها باطن بسبب تغير فى الأخلاط ، أو وبائى ، وهذا ما دعاهم إلى الاهتمام بالتشخيص وفحص النبض ، والبول والبصاق ، والدم[3].

لابد لنا أن نشير فى هذا المجال إلى منجزات الأطباء العراقيين فى شتى فروع الطب الآتية :

علم التشريح ، والجراحة ، والعيون ، وطب النساء والأطفال ، والأسنان ، والأمراض الباطنية والأمراض النفسية والعقلية ، وبيان تشخيص الأمراض وعلاجها والتزامات الطبيب وآدابه .

علم التشريح :

أكد الأطباء العرب على أهمية علم التشريح لصلته الوثيقة بفروع الطب الأخرى، وقد تصدر علم التشريح الكتب والمصنفات باعتباره معرفة لابد منها لمزاولة الطب ، لذلك نلاحظ أن أطباء العراق خلال القرن الرابع الهجرى قد مارسوا هذا العلم فأبو بكر الرازى ت ٣٢٠هـ قد ذكر معلومات تشريحية كثيرة فى كتابه « الحاوى » ومما يدل على معرفة دقيقة بوظائف الأعضاء إضافة إلى دقة المعرفة بالتشريح عند تشخيص

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ١١٨/٤ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص١٠٣

(٣) تاريخ الطب للدكتور فرج محمد الهونى ص ٧٢

الأمراض التى تصيب الجهاز التنفسى والهضمى والتناسلى والقلب والشرايين والأوردة وعير ذلك ، كتشريح الكلى فى حالة البول الدموى الناتج عن نزف فى الكلى[1] ويعتبر الرازى هو أول من قال بوجود الفرع الحنجرى للعصب الصاعد ، وقد لاحظ بأنه يكون بفرعين فى الجهة اليمنى فى بعض الأحيان[2]. وكذلك على بن العباس المجوسى ت ٣٨٤هـ قد وصف الدورة الدموية فى الأوعية الشعرية عند كلامه على وظيفتى الانقباض والانبساط وكان وصفه أقرب إلى الحقيقة[3].

علم الجراحة :

إن إسهامات أطباء العراق خلال القرن الرابع الهجرى فى علم الجراحة لأمر ظاهر وواضح حيث توالت كتاباتهم العلمية فى علم الجراحة خلال القرن الثالث والرابع ، وأبرر من كتب فيها : على بن العباس ت ٣٨٤هـ حيث كتب فصلاً خاصًا عن الجراحة فى كتابه « كامل الصناعة » ثم قبله أبو بكر الرازى ت ٣٢٠هـ بموسوعيته « الحاوى فى الطب » والذى ضمنه فصولاً كثيرة ، ومواضيع عديدة فى مختلف فروع الجراحة[4].

لقد أجرى الأطباء العمليات الجراحية فى الفم ، وعالجوا الأسنان ، وثبتوا الأسنان الصناعية المصنوعة من عظام الحيوانات[5] ، واستعملوا أدوات جراحية متقدمة .

لقد برر على بن العباس المجوسى فى الكلام عن العلاج الجراحي والجراحات المختلفة التى تجرى فى الفم ، ويعدّ من أوائل من وصف كسر الفك الأسفل فى غاية الدقة ، وقد أوضح ذلك فى كتابه « كامل الصناعة »[6]. كما وصف الرازى لأول مرة تجبير الأسنان المخلخلة وتثبيتها بسلسلة من الذهب[7]. كما فحص الرازى الحلق

---

(١) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ٩/١٠ـ ١٠ .

(٢) الطب عند العرب للدكتور محمود الحاج قاسم ص ١٠٣ .

(٣) الطب العربى للدكتور أمين سعد ص١٦٨ .

(٤) الطب عند العرب للدكتور محمود الحاج قاسم ص١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٥) العلوم فى الإسلام للدكتور سيد حسن نصر ص١٤٥

(٦) كامل الصناعة لعلى بن العباس المجوسى ٥٠٤/٢

(٧) الطب عند العرب للدكتور محمد الحاج قاسم ص١١١

والحنجرة وأجرى وصفاً لفتح القصبة الهوائية فى كتابه « الحاوى »[1] كما فرق بين الزوائد اللحمية فى الأنف وبين الأورام السرطانية ، واستأصل الزوائد بالطرق الطبية .

وكذلك استطاع على بن العباس المجوسى أن يرى جراحة فى الأوعية الدموية بسبب انتفاخ يحصل فى جدار الوعاء الدموى ويظهر على شكل ورم[2]. كما كان للرازى ملاحظات دقيقة ولا زالت صحيحة فى جراحة المجارى البولية والتناسلية ، كما ذكر تفاصيل دقيقة عن العلاج الجراحى للحصاة ومضاعفات هذه العملية [3]. كما ساهم الرازى فى جراحة الرقبة والصدر والبطن ، كقرحة المعدة ، وجراحة الفتق السرى، وعملية البزل فى حالة الاستسقاء[4]، وخياطة البطن فى الجراحة الواقعة بالبطن والمراق والأمعاء[5].

وللرازى آراء فى غاية الصحة فى جراحة الكسور والجبائر [6]، وكذلك على بن العباس المجوسى أتى على ذكر أنواع الكسور وله فى بعضها آراء قيمة[7].

كما وجد لدى الرازى محاولات جراحية لمعالجة بعض التشويهات الخلقية البسيطة كشقاق الشفة[8]، وتجمع الماء فى رؤوس الصبيان[9].

مما سبق يتضح لنا أن علماء العراق قد تقدموا تقدمًا عظيمًا فى ميدان علم الجراحة كفرع هام من فروع علم الطب .

---

(١) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ٢٢٥/٣ .

(٢) الطب عند العرب للدكتور محمد الحاج قاسم ص١١٤ ـ ١١٥ .

(٣) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ١٩/١٠ ، ٩٥، ٩٦ ، ١١٤ .

(٤) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ٤٠/٥، ٢٣٤/١٠ ـ ٢٣٥ ، ٢٠١/٧، ٢٠٢ .

(٥) الطب عند العرب للدكتور محمد الحاج قاسم ص ١٣٠ .

(٦) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ١٦٠/١٣ ، ٣١٠ .

(٧) انظر نشرة الطب الإسلامى بالكويت لعام ١٩٨١م ، جراحة الجمجمة والدماغ عند الأطباء العرب للدكتور عبد القادر عبد الجبار .

(٨) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ٢١٨/٦ .

(٩) الطب عند العرب للدكتور محمد الحاج قاسم ص١٤٣ .

طب العيون :

لقى هذا الفرع من فروع الطب اهتماماً كبيراً فى الطب الإسلامى خلال القرن الرابع الهجرى عند أهل العراق ، والطبيب المختص بهذا الفرع سموه كحالاً ، قد ساهم الأطباء العراقيون مساهمة كبيرة فى تقدمه ، وقد استحوذ هذا النوع على اهتمامهم الخاص ، بسبب انتشار أمراض العيون فى كثير من مناطق العراق(١)، وكان طبيب العيون يتمتع فى جميع الأمصار الإسلامية بشخصية متميزة بين مختلف طبقات الأطباء(٢).

لقد ظهرت مؤلفات هامة لأطباء بارزين فى هذا الفرع مثل الجزء الثانى من كتاب « الحاوى فى الطب » للرازى ، وكتاب « تذكرة الكحالين » لعلى بن عيسى البغدادى ت بعد سنة ٤٠٠هـ وكتاب المنتخب فى علاج أمراض العيون لأبى القاسم ابن على الموصلى ت سنة ٤٠٠هـ(٣).

لقد اهتم الأطباء بتشريح العين ، وقاموا بتشريح عيون الحيوانات ودرسوا ذلك دراسة دقيقة وافية فتوصلوا إلى كثير من الحقائق التى لم يذكرها الأطباء اليونان كتشريح عضلة المقلة ، وكانت أوّل خطوة نحو معرفة الرؤية بالعين من قبل على بن عيسى البغدادى ، وجاء بمعلومات جديدة كانت حصيلة تجربة ، وقسم كتابه إلى ثلاثة مقالات : الأولى فى تشريح العين وأعضائها ووظائفها (٤)، والثانية فى أمراض العين الظاهرة ، والثالثة فى الأمراض الباطنية ، كما ذكر فى الكتاب الأدوية المفردة التى تفيد فى علاج أمراض العين ، وذكر مائة وثلاثين مرضاً ودل على علاجها بمائة وثلاثة وأربعين دواء(٥).

---

(١) الطب العربى لأمين أسعد ص١٧٨ .

(٢) العلوم فى الإسلام سيد حسن نصر ص١٤٠.

(٣) الطب عند العرب للدكتور محمد الحاج قاسم ص٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

(٤) انظر صورة تشريح العين بملحق الصور .

(٥) انظر تذكرة الكحالين لعلى بن عيسى ـ المقدمة ص (جـ ـ هـ) .

طب النساء والأطفال :

تناول كثير من الأطباء الحديث عن طب النساء والأطفال وخلق الجنين وطبيعة الحمل والولادة فكان الطبيب العراقى الذى عاش فى العراق له نصيب وافر فى ذلك خلال القرن الرابع الهجرى ، ولا نجد كتاباً يبحث فى طب الأطفال إلا والحديث عن الأمراض النسائية والعناية بالحامل والولادة يسبق ذلك ، ولعل أول ما ظهر من الكتب فى الطب النسوى بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، هو الكتاب التاسع من موسوعة « الحاوى فى الطب » للرازى ، حيث خصصه للأمراض النسائية والتوليد[1] .

أما على بن العباس المجوسى فقد تناول الأمراض النسائية عندما كان يبحث فى طب الأطفال ، وتناول أحمد بن محمد البلدى فى كتابه « تدبير الحبالى والأطفال والصبيان » موضوع أمراض النساء[2] .

وقد تناول الأطباء النواحى التالية التى تعكس معرفتهم لطب النساء والأطفال على النحو التالى :

وصف على بن العباس المجوسى تشريح الأعضاء التناسلية للمرأة ، مما جعله بارعًا فى هذا النوع من الطب[3] . ومن مبتكراته أن الجنين يخرج بفضل تقلصات عضلات الرحم[4] .

وتناول الأطباء أيضًا : الأمراض النسائية كطرق الفحص وأمراض الرحم والبواسير الرحمية ، وناصور الرحم وانقلابه وخرّاج الحوض والرتقة وأورام الرحم ، وعلامات الحمل والولادة ، وعلامات الإسقاط وأسبابه ، وتعسر الولادة ، والتدخل الجراحى فى التوليد[5] ، ووسائل منع الحمل[6] . ويعد أبو بكر الرازى وعلى بن العباس المجوسى

---

(١) الطب عند العرب للدكتور محمد الحاج قاسم ص١٥٥ .

(٢) تاريخ الطب للدكتور فرج محمد الهونى ص٦٩ .

(٣) انظر كامل الصناعة الطبية لعلى بن العباس المجوسى ١/١١٦، ٥٥٦.

(٤) الفكر الإسلامى م . م شريف ترجمة الدكتور أحمد شلبى ص ٩٧ .

(٥) انظر صورة الولادة القيصرية بملحق الصور .

(٦) انظر الحاوى للرازى ١٩/٩ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ١٥١ ـ ٧٢١ ، وكامل الصناعة الطبية لعلى بن العباس المجوسى ١/٢١٥، ٢٩ ، ٣٨، ١/٣٩ ، ٤٤٠، ٤٨٩ ، وتدبير الحبالى والأطفال والصبيان ص ٩٨ ، ١٦٤ الحاشية .

وأحمد البلدى على رأس الأطباء الذين اعتنوا بهذه الموضوعات كلها فى طب النساء والأطفال .

طب الأسنان :

اهتم الأطباء فى القرن الرابع الهجرى بجراحة الفم والأسنان ، فكانوا يرون العمليات المختلفة على الفم ويعالجون الأسنان ، ويسدون النصائح والإرشادات للمحافظة على سلامة الأسنان ، وتوصلوا إلى صنع الأسنان الصناعية من عظام الحيوانات ، وقام الأطباء بتركيبها لمرضاهم[١] . فكان أبو بكر الرازى فى مقدم الأطباء الذين اهتموا بهذا الفرع فقد أوصى بعدم الخلع قبل استنفاذ وسائل معالجة الأسنان كلها ، وأوصى بتنشيط اللثة ومسكنات الآلام[٢] .

الأمراض الباطنية :

تناول الأطباء الأمراض الباطنية بشىء من التفصيل على مستوى جميع أجهزة الجسم ، فمثلاً : الجهاز الهضمى : تحدثوا عن الأمراض التى تصيبه ، وأسبابها وأعراضها وعلاجها ، فقد عرض الرازى أكثر أسباب عثر البلع من المرئ ، وقروح المعدة والأمعاء ، وقىء الدم سواء من المرئ أو المعدة أو رعاف سال إلى المعدة من حيث لم يشعر به أو إلى المعدة من الكبد أو الطحال أو غيرها من الأعضاء ، كما تحدث الرازى عن الكبد وأمراضه والورم خارج الكبد وغير ذلك ، والاستسقاء وعلاجه[٣] .

أما الجهاز التنفسى : فقد تحدث عن الربو وضيق التنفس ، وبين أن ضيق التنفس يدل على ثلاث علل ، إما على ورم حار حادث فى الدم وإما ضيق مجارى النفس ، وإما لضعف القوة النفسية . وقروح الرئة ومنها السل ، وتفسير سبب كل عرض من

---

(١) العلوم فى الإسلام سيد حسين نصر ص١٤٥ .

(٢) تاريخ الطب لأحمد شوكت ص٥٣٢.

(٣) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ٢٣/٥ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٤٠ ، ١٢٣ ، ٧١/٧ ـ ٧١ ، ٢٠١/١٦ .

أعراض السل ، وتحدثوا عن أمراض القلب والدورة الدموية ، ثم أمراض الكلى والمجارى البولية[١] ، ووصف أمراض الجهاز العصبى كالأعصاب والإلتهاب السحائى والتهاب الدماغ ومرض الصرع والسكتة والفالج[٢] .

الأمراض العقلية والنفسية :

أنشأ الأطباء لمثل هذا المرض مستشفيات متخصصة لأصحابه ، وقال الرازى فى ذلك : لم أر شيئًا فى هذه العلة من الوحدة ، ولذلك أرى أن الذين يجعلون هؤلاء وحدهم يسيئون ، ولا ينبغى أن يجلسوا أيضًا مع أمثالهم ، بل يكون عندهم ناس عقلاء يكلمونهم بالصواب ويعرفونهم واضح الخطأ فى كلامهم »[٣] .

فهذا يوضح المعاملة الإنسانية التى كان ذوو المرض النفسى يلقونها من قِبَل الأطباء خلال القرن الرابع الهجرى .

وقد جعلوا طرقًا متعدد لمعالجة الأمراض النفسية كلجوء الرازى إلى طريقة العلاج بالإيحاء النفسى[٤] . كما عالج حالة الوسواس بطريقة حل فكر المريض ، ومعالجة الهستريا[٥] ، وجعلوا مشافى خاصة لذلك « فإذا كان المريض مصاباً بمرض عقلى أرسل إلى مستشفى خاص »[٦] لأنهم أعدوا مشافى لذلك ولم يهملوا المصابين واهتموا بهم .

السلوك الطبى للأطباء :

وهو ما يجب على الطبيب من التزامات أخلاقية فى حياته الاجتماعية والعملية

---

(١) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ١٠/٥ ، ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٣/٤ ، ١٦ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٥١ ، ٩٠ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ٦/١٩ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ٤٤ ، ٤٠٨ .

(٣) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ٨٧٤/١ .

(٤) منافع الأغذية للرازى ص ١٨ .

(٥) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ٦٩/١ ، ٢٥٨ .

(٦) Histoire de la Medicine Faggard. Lichtnthreler. P. 212 .

مع مرضاه ، والتزمات مهنية تجاه زملائه من الأطباء . يقول على بن العباس المجوسى : ينبغى لمن أراد أن يكون طبيبًا فاضلا أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة وألا يتهاون فيها ، فإنه إن فعل ذلك كانت مداواته للمرضى مداواة صواب[1] . وأن يكون الطبيب كفئا فى مزاولته من الوجهة العملية فيكون حاصلاً على الشهادة الطبية وإجازة ممارسة المهنة، واتقان العمل ومتابعة التحصيل العملى ، وأن يكون حسن الخلق والهيئة وأن يكون كتومًا لسر المرضى وما يطلع عليه من أحوال مريضه[2] .

تعقـيب :

بالرغم من العثور على منجزات لأطباء الشام سواء انجزوها فى الشام أو أنجزوها فى العراق ، فإننا نستطيع أن نحكم على أطباء الشام بأن لهم دوراً فعالاً وانجازاً لا ينكر ومكانة لا يستهان بها بين الأطباء .

وعلى الرغم من ذلك فإن من الداعى للدهشة أن كل من كتب عن علم الطب ساق الأدلة والبراهين على كتابته من بيئة الشام فإذا أراد الاستشهاد بطبيب فى القرن الرابع أو غيره جعله من العراق ، وإذا أراد الاستشهاد ببيمارستان جعله من العراق .

لعل السبب فى ذلك أنهم لم يجدوا المادة العلمية التى تسعفهم فى هذا الأمر ، غير أننى استطعت أن استشهد بأطباء شاميين عاشوا فى الشام وانجزوا ، وأطباء شاميين عاشوا فى العراق وانجزوا أيضًا ، وكذلك من حيث البيمارستانات اسطتعت أن استشهد بأدلة تثبت أن الشام كان بها بيمارستانات خلال القرن الرابع الهجرى .

ومن خلال هذه المقارنة نستطيع أن نقول إن للعراق تفوق ظاهر وواضح وجلىّ فى الانجازات والإسهامات فى علم الطب على غيره من البلدان .

فإذا نظرنا إلى انجازات أطباء الشام فى فروع الطب نلاحظ أن لهم انجازات فى علم التشريح والجراحة وطب العيون والأمراض الباطنة ومعالجة الكسور وحالات التسمم وحسن التشخيص وأداء العلاج وغير ذلك .

---

(١) كامل الصناعة الطبية لعلى بن العباس ص ٨ .

(٢) الطب عند العرب للدكتور محمد الحاج قاسم ص ٣٣٩ وما بعدها .

ويتفق مع ما سبق كله أطباء العراق فإن لهم انجازات باستفاضة فى فروع الطب السابقة ، ثم يتفوقون على أطباء الشام بأن لهم انجازات فى طب النساء وطب الأطفال وطب الأسنان ، والطب النفسى والعقلى ، كما أن لهم انجازات مكتوبة حول السلوك الطبى للأطباء أضف إلى ذلك أن لهم مصنفات مشهورة جداً وجليلة بخلاف مؤلفات أطباء الشام كمؤلفات الرازى أو مؤلفات على بن العباس المجوسى أو غيرهما من العلماء .

كما أن المصادر لم تسعفنا فى بيان العمل بمستشفيات الشام كما بينت لنا العمل بمستشفيات العراق ، ولم تتجزنا أيضًا فى بيان حالات عديدة من أحوال المرضى وكيفية علاجها كما حدث مع أطباء العراق .

ولم تنجزنا المصادر أيضًا فى بيان أطباء الشام الذين انفردوا بانجازات كانوا هم الأسبق فى اكتشافها مثل أطباء العراق ، كالرازى مثلاً ، فقد كان أول من عرف الجدرى والحصبة وفرق بينهما ، كما أنه أول من ذكر حمض الكبرتيك ، وأنه أول من ابتكر خيوط الجراحة ، وأنه أول من عمل مراهم الزئبق ، وأنه أول من كتب مقالات عن أمراض الأطفال[1] . وأنه أول طبيب لاحظ (تجارب بؤبؤ العين ـ مع النور ـ ضيقاً واتساعاً) وسجل ملاحظته هذه[2] .

كما لم تسعفنا مصادر الشام كمصادر العراق فى بيان انجازات أطباء الشام فى علم الجراحة ، بينما مصادر العراق بينت وفصلت كثيراً من الحالات والمواقف ، وكثيراً من الجراحات المتعددة على مستوى أجهزة الجسم كله .

ناهيك عن العرض الكبير الذى عرضته مصاد العراق عن طب النساء والأطفال والأسنان ، والأمراض النفسية والعصبية . مما يجعلنا نحكم بالفعل على أن علم الطب فى العراق خلال القرن الرابع الهجرى كان أحسن صورة ، وأكثر تقدمًا وتنوعًا وتخصصًا وعرضا فى المصنفات . لذلك فإن مدنية العرب لم تقتصر على فن البناء

(١) انظر تاريخ الطب للدكتور فرج محمد الهونى ص ١٣٧ ، والعدد ٣٣٢ من مجلة الوعى الإسلامى تصدرها وزارة الأوقاف بالكويت لسنة ١٩٣٣ الصفحة ٤٥ .

(٢) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية لأحمد على الملا ص ١٣٨ .

ونشر الزخرفة وتشييد الجوامع فقط بل كانت تتناول الكثير من العلوم والمعارف التى هى أساس العلوم الحديثة خاص علم الطب[1].

مستشفيات الشام ونظام العمل فيها :

إن من أهم ما امتازت به حضارة الإسلام إنشاء البيمارستانات لتقديم الخدمات الطبية لكافة أفراد الشعب فى مختلف المجتمعات العربية والإسلامية .

ولقد اشتهرت المستشفيات فى تاريخ الإسلام بالبيمارستانات ، ومعناها بيوت المرضى وكان بها الأطباء والجراحون والمجبرون والفاصدون ومكتبة[2].

وقد كثر بناء المستشفيات فى العصر العباسى واستمر بعد ذلك عدة قرون فى مختلف البلدان العربية والإسلامية ، أما خلال القرن الرابع الهجرى وفى بلاد الشام بالذات لم تسعفنا المصادر التى تحدثت عن علم الطب وغيره بمعلمات عن بيمارستانات الشام خلال القرن الرابع الهجرى اللهم إلا غير السيوطى قال : لما استولى الفاطميون على مصر وسوريا سنة ٣٥٨هـ خضعت القدس للمعز لدين الله الفاطمى، وقد أقام الفواطم الكثير من العمائر والمبانى بالقدس ، كما وسعوا المسجد الأقصى ورمموا ما تصدع منه إثر الزلازل التى كانت تجتاح المدينة ولعل من أهم المنشآت الفاطمية فى القدس البيمارستان ، وهو أول مستشفى أقيم بالقدس ، وكان ينفق عليه مبالغ طائلة ، وكان أطباؤه يتقاضون راتباً مقطوعاً كما أقاموا داراً للعلم[3].

وذكر صاحب كتاب قصة الحضارة : أن أعظم بيمارستانات بلاد الإسلام على بكرة أبيها هو البيمارستان الذى أنشئ فى دمشق عام ٧٠٦ ميلادية وفى عام ٩٧٨ ميلادية كان به أربعة وعشرون طبيبًا ، وكانت البيمارستانات أهم الأماكن التى يدرس فيها الطب[4].

---

(١) مجلة الأمة العدد (٣٤) صفحة (٧٨) تصدرها قطر .

(٢) الموسوعة الذهبية فى العلوم الإسلامية للدكتورة فاطمة محجوب ٢٣٧/٨ وما بعدها .

(٣) اتحاف الأخصا لأبى عبد الله السيوطى ١٩٦/٢ ـ ١٩٧ .

(٤) قصة الحضارة ـ وول ديورانت ١٣/ ١٩٠ .

لذلك تعد هذه البيمارستانات الكبيرة بمثابة معاهد أو كليات طبية حيث كانت الدروس الطبية تلقى من الأساتذة الكبار على التلاميذ منها دروس نظرية ودروس عملية لمن كانوا على وشك التخرج يتمرنون عليها ، لأن الطب من العلوم التجريبية(١) .

وكان العلاج بهذا المستشفى بالمجان بصرف النظر عن لونه أو دينه أو مقامه ذكراً كان أم أنثى ، وتسد مصاريف المستشفى كلها من الأوقاف الخاصة بها(٢) .

وكان لكل بيمارستان رئيس أطباء وكانت إدارة أقسام البيمارستان يتولاها قائم سمى أحياناً « ساعور » البيمارستان أى : متفقد المرضى ، أما العمل الطبى فتقوم به طوائف الأطباء المتخصصين فى فروع الطب المختلفة ، أما عدد الأطباء فى البيمارستان فكان يتوقف على سعتها ، فقد يصل فى بعض الأحيان إلى أربعة وعشرين طبيباً(٣) . وكان بالبيمارستان عدد من الصيدلة يقومون بتوفير الدواء ، لهم رئيس هو شيخ الصيدلة فى البيمارستان ، وللبيمارستان فراشون من الرجال والنساء ويقوم الجميع على خدمة المرضى(٤) .

كما توجد مستشفيات متنقلة ليس للجيش وحده ولكن لسكان الأماكن البعيدة عن المدن الكبيرة ، فقد أمر وزير الدولة على بن عيسى وزير الخليفة العباسى المقتدر بالله فى أوائل القرن الرابع الهجرى رئيس الأطباء فى الدولة سنان بن ثابت أن يبعث الأطباء ومعهم خزانة من الأدوية إلى القرى والبوادى ، يقيمون فى كل صقع مدة يعالجون من فيه من المرضى ثم ينتقلون إلى غيره(٥) .

أما مسئولية الأطباء فى العمل فكانت تختلف ، فمنهم من كان يلازم البيمارستان ليلاً ونهاراً ، ومنهم من يلازم البيمارستان يومًا واحداً فى الأسبوع أو يومين أو أكثر ، حسب عدد أطباء البيمارستان ، وقد كان لجبرائيل بن عبيد الله فى الأسبوع يومين أو ليلتين لملازمة الدار(٦) .

---

(١) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان ص٧٢ .

(٢) الطب عند العرب للدكتور محمود الحاج قاسم ص٣١٥ .

(٣) قصة الحضارة تأليف وول ديورانت ١٣/١٩٠ .

(٤) صبح الأعشى للقلقشندى ٤/٣٤ ـ ٣٨ .

(٥) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان على ص٧١ ـ ٧٢ .

(٧) أخبار الحكماء للقفطى ص١٠٣ .

وكانت البيمارستانات تخضع لرقابة شديدة من قبل المحتسب ، فكان له الحق فى أن يدخل المستشفيات ويتفقد حالة المرضى ، ودرجة العناية بهم ، والطعام الذى يقدم إليهم ونظافتهم وسهر الخدم عليهم ، واعتناء الأطباء بهم ، والعلاجات التى تعطى إليهم ، ومن شدة المراقبة على الأطباء أن الخليفة المقتدر وصل إلى علمه ذات مرة أن رجلاً من الأطباء أخطأ فى علاج رجل فمات ، فأمر الخليفة المحتسب منع جميع الأطباء من مزاولة المهنة إلا بعد أن يمتحنه سنان بن ثابت بن قرة (رئيس الأطباء) ويجيزه ، ويكتب له كتاباً يطلق له التصرف في المهنة ، وأمر سنان بن ثابت بامتحان الأطباء ، وأن يطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه من الصناعة[1] .

مستشفيات العراق والعمل بها :

كانت تسمى خلال القرن الرابع الهجرى بيمارستانات ، وسبق أن بيّنا أن المقصود منها در المرضى ، فكانت هذه الأماكن يعالج فيها كافة الأمراض والعلل باطنية وجراحية ورمدية وعقلية وغيرها من الأمراض .

وقد كان بالعراق بيمارستانات عامة ، وفرعية ، وأخرى جمعت بين العلاجية والتعليمية ، فقد سار الخلفاء العباسيون فى بناء البيمارستانات فى بغداد والأمصار الإسلامية حتى أنشئت بيمارستانات عديدة فى إقليم العراق خلال القرن الرابع الهجرى .

ففى سنة ٣٠٢هـ اتخذ الوزير أبو الحسن على بن عيسى بن الجراح البغدادى ت٣٣٤هـ البيمارستان بالحربية وأنفق عليه من ماله وقلده أبا عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى متطببة ، وفى أول المحرم سنة ٣٠٦هـ فتح أبو سعيد سنان بن ثابت بيمارستان السيدة أم المقتدر شغب جارية المعتضد ، وقد اتخذه بسوق يحيى على نهر دجلة ، وجلس فيه ورتب ببغداد المتطببين وقبل المرضى ، وكانت النفقة عليه فى كل شهر ستمائة دينار ، وفى سنة ٣٠٦هـ أيضاً أشار سنان بن ثابت بن قرة على الخليفة المقتدر بالله أن يتخذ بيمارستاناً ينسب إليه فأمره باتخاذ فاتخذه له فى باب الشام وسماه

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص١٨٠ .

البيمارستان المقتدرى ، وأنفق عليه من ماله فى كل شهر مائتى دينار[1] .

وقد عمل به يوسف الوسطى الطبيب وكان ملازمًا له ، وقرأ عليه جبرائيل بن بختيشوع ، وعمل فيه أيضاً جبرائيل بن عبيد الله أقام فترة ببغداد ، ولازم البيمارستان والعلم والدرس ، وفى سنة ٣١٣هـ قلد الوزير الخاقانى ثابت بن سنان البيمارستان الذى اتخذه ابن الفرات ، ينفق عليه من ماله فى كل شهر مائتى دينار .

وقد أقام أبو الحسن بجكم بيمارستاناً فى بغداد يعالج فيه الفقراء ويعللون وأنفق فى ذلك جملة ورفَّه الرعية وأرفقها ، وأكرم سناناً غاية الإكرام .

وفى سنة ٣٥٥هـ ابتدأ معز الدولة البويهى فى بناء مارستان وأرصد له أوقافاً .

وفى سنة ٣٥٥هـ ابتدأ معز الدولة بن بويه فى الجانب الغربى من بغداد البيمارستان العضدى ، ورتب فيه الأطباء والخدم والولاء والخزّان ، ونقل إليه من الأدوية والأشربة والعقاقير شىء كثير ، أو من كل ما يحتاج إليه ، قال عبيد الله بن جبرائيل أنه لمّا عمّر عضد الدول البيمارستان الجديد ببغداد ، كان من الذين جمعهم فيه من كل موضع ، وأمر الراتب منه أربعة وعشرون طبيبًا ، وكان البيمارستان يحوى من أطباء الخواص ، والكحالين ، والجراحين ، والمجبرين[2] .

وكانت هذه البيمارستانات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب ، وكان يتلقى فيها الطلاب علومهم ، ويتعلمون ما كتبه أساتذتهم المسلمون الكبار ، وكانوا يستمعون إلى شرح الأساتذة فى حلقات خاصة تعقد فى تلك البيمارستانات[3] .

وكما توجد المستشفيات الكبيرة كذلك توجد الفرعية كطبابة السجون ، فقد لاحظ الوزير على بن عيسى ضرورة ذلك فكلف رئيس الأطباء أن يعين طبيبًا يعالج مرضى السجون يومياً ، ومعهم خزانة الأدوية والأشرب ، وكذلك يطوفون بالسواد فيما

---

(١) تاريخ البيمارستانات فى الإسلام للدكتور أحمد عيسى ١٧٩ ، ١٨٢ ـ ١٨٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١١/١٣٠، ١٥٩، ٢١٣ .

(٢) تاريخ البيمارستانات فى الإسلام للدكتور أحمد عيسى ص١٨٤ ـ ١٨٨ .

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب لزغريد هونكه ص٢٣٠ ـ ٢٣١ .

حولهم من الأماكن النائية يقيمون فى كل موقع مدة تدعو الحاجة إليه ويعالجون مَنْ فيه من المرضى ثم ينتقلون إلى غيره(١).

فقد عُرفت هذه البيمارستانات بالنوع المحمول المجهز بالأدوية والأغذية إلى السجون أو إلى الأنحاء النائية ، أو عند حدوث الأوبئة ، كما كان هذا النوع يستصحب الجيوش ومعه الأطباء والصيادلة ، وكل ما يحتاجون إليه من أدوات وآلات(٢).

أما من حيث نظام العمل بالبيمارستانات خلال القرن الرابع الهجرى فكان لكل بيمارستان رئيس يسمى (شاعور البيمارستان) ولكل قسم داخل البيمارستان رئيس ، كرئيس الباطنة ورئيس الكحالين ، كما ألحقت بكل بيمارستان صيدلية تسمى (شرابخانة) ولها رئيس يسمى (شيخ صيدلى البيمارستان)(٣).

وكان الأطباء يتناوبون العمل فى البيمارستان ، حيث كان لكل طبيب وقت معين لزيارة قاعته التى يقوم بمعالجة المرضى فيها(٤).

أما عدد الأطباء بالبيمارستان فكان يتوقف على سعته ، فقد يكون به أربعة أو ستة أو عشرة أطباء أو أكثر من ذلك ، ففى البيمارستان العضدى فى بغداد على سبيل المثال ، كان يوجد أربعة وعشرون طبيبًا(٥) ، هذا إلى جانب الغلمان ، وهم الموظفون الصحيون والمضمدون ، والخدم على اختلاف أنواعهم من فراشين وطباخين وكناسين وخدم المرضى ، كذلك الصيادلة والمساعدون لهم فى تحضير الأدوية وتركيبها ، حسب متطلبات الحاجة ، ويجرى هذا تحت نظر رئيس الصيادلة(٦).

أما إدارة المستشفيات ورئاستها فكانت هى محل عناية واهتمام الخلفاء والحكام

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٠٢/٢ .

(٢) تاريخ الطب للدكتور فرج محمد الهونى ص٢٢١.

(٣) تاريخ البيمارستانات فى الإسلام للدكتور أحمد عيسى ص١٩ ـ ٢٠ .

(٤) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعى ص١٤٥.

(٥) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٣٤٤/٢ .

(٦) تاريخ البيمارستانات فى الإسلام للدكتور أحمد عيسى ص٢٠ ـ ٤٠ .

بحيث يكون رئيس الأطباء ورئيس البيمارستانات من أكفأ وأعظم الأطباء وأشهرهم ، قد اختار خمسين طبيباً من مائة طبيب مهرة ، واختار من الخمسين عشرة ومن العشرة ثلاثة ومن الثلاثة واحداً فكان هو أبو بكر الرازى فجعله رئيساً للبيمارستان العضدى[١] .

وكانت البيمارستانات تخضع لرقابة شديدة من قبل المحتسب فكان له الحق أن يدخل البيمارستان ويتفقد حال المرضى ودرجة العناية بهم وطعامهم ونظافتهم والسهر على خدمتهم ، ومدى عناية الأطباء بهم ، والعلاجات التى تعطى إليهم[٢] .

تعقيب :

عند الحديث عن المستشفيات فى كل من الشام والعراق نجد أنفسنا أمام عدد كبير من مستشفيات العراق ، أما الشام فندر أن نجد مصدراً يذكر لنا مستشفى واحداً خلال القرن الرابع بإقليم الشام اللهم إلا ما توصلنا نحن إليه من بين ثنايا السطور فى بطون الكتب ، كما سبق أن بينا ذلك . وذلك دليل على أن إقليم العراق يتمتع بعدد لا بأس به من البيارستانات ويتميز على إقليم الشام بذلك ، كما يتميز إقليم العراق فى أن المصادر بينت لنا كثيراً ممن كانوا يعلمون بها ومن رئيسها ونظام العمل بها من رؤساء إلى أطباء إلى عمال إلى فراشين وغير ذلك .

والأمر الذى يثير الانتباه ولعله يكون نظاماً موحداً أننا وجدنا عدد أطباء مستشفى دمشق فى عام ٩٧٨ميلادية أربعة وعشرون طبيباً[٣] ، وكان عدد أطباء مستشفى عضد الدولة أربعة وعشرون طبيباً أيضاً [٤] . فقد اتفق عدد الأطباء فى كل منهما .

كما أوضحت لنا المصادر أن بالعراق دون الشام نوعين من البيمارستانات ،

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٣٤٤/٢ .

(٢) تاريخ الطب للدكتور فرج محمد الهونى ص ٢٠٧ .

(٣) قصة الحضارة - وول ديورانت ترجمة محمد بدران ١٩٠/١٣ .

(٤) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٣٤٤/٢.

بيمارستانات عامة ثابتة ، وبيمارستانات محمولة متنقلة إلى السجون وإلى الأماكن النائية وغير ذلك أما الشام فلم نجد من المصادر ما يبين ذلك .

كما أمدتنا المصادر بنظام العمل فى مستشفيات العراق أما الشام فلم تذكر لنا المصادر شيئاً عن نظام مستشفيات الشام . فلعل النظام الذى يفرضه السلطان أو الوزير يكون نظامًا عامًا على مستوى الدولة الكبرى فسيكون بذلك النظام واحداً فى كلا الإقليمين .

من مشاهير أطباء الشام :

ـ أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى كان حيًا فى أوائل القرن الرابع[1] ، كان أبو عثمان من كبار أطباء دمشق رحل من الشام إلى بغداد خلال القرن الرابع الهجرى وقد نقل كتبًا كثيرة إلى العربية من كتب الطب وغيره ، وكان منقطعًا إلى على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر ، وقال ثابت بن سنان المتطبب : إن أبا الحسن على بن عيسى الوزير فى سنة اثنتين وثلثمائة اتخذ البيمارستان بالحربية ، وأنفق عليه من ماله وقلده أبا عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى متطببه مع سائر البيمارستان ببغداد ومكة والمدينة .

ومن كلام أبى عثمان الدمشقى : الصبر قوة من قوى العقل ، وبحب قوة العقل تكون قوة الصبر[2] .

كان لأبى عثمان معرفة بعلم التشريح فقد نقل مقالة جالينوس فى تشريح الأعضاء ، وقد نقلها للمتعلمين ، كى يستفيدوا منها[3] .

كما أن مسائل جمعها من كتاب جالينوس فى الأخلاق ، ومقالة فى النبض وهى جوامعه لكتاب النبض الصغير لجالينوس[4] ، وترجم المقالات السبع الأولى من كتاب طوبيقا ، وترجم « القول فى مبادئ الكل على رأى أرسطوطاليس » وترجم «كتاب البول لمغنس الحمصى»[5] .

ـ أبو بكر محمد بن الخليل الرّقى كان حيًا فى ٣٣٠هـ[6] ، كان فاضلاً فى

---

(١) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٤١٥ ، وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٢٥/٢ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة د عبد الحليم النجار ١١٨/٤ .

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٢٥/٢ .

(٣) فهرس الطب ـ الكتاب الأول ـ مخطوط رقم (٢٤٠) بمعهد المخطوطات وضعه إبراهيم شبوح سنة ١٩٥٩م.

(٤) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٢٥/٢ .

(٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ١١٨/٤ .

(٦) انظر ترجمته فى : طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٢٥/٢ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢٧٩/٣ .

الصناعة الطبية عارفًا بأصولها وفرعها ، جيد التعليم حسن المعالجة ، وهو أول من فسر مسائل حنين بن إسحاق فى الطب ، وكان تفسيره لهذا الكتاب فى سنة ثلاثين وثلثمائة ، وله من الكتب : شرح مسائل حنين فى الطب[١] .

ـ **أبو الفرج يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكى** ، كان طبيبًا مشهوراً عالمًا بصناعة الطب جيداً فى أعمالها ، نقل عنه ابن بطلان مقالته فى علة نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التى كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد ، كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ، ومخالفتهم فى ذلك لمسطور القدماء ، وقد سمع ابن بطلان من أبى الفرج بانطاكية وقد قال عنه : هذا السيد فى زمانه علَم فى العلم مقدم فى الديانة والمروءة ، وله تصانيف جليلة[٢] .

ـ **أبو الحسين بن كشكرايا كان حيًا قبل ٣٥٦هـ**[٣]، كان طبيباً عالمًا مشهوراً بالفضل والاتقان لصناعة الطب ، وجودة المزاولة لأعمالها ، وكان فى خدمة سيف الدولة بن حمدان[٤]، وكان من أجل تلامذة سنان بن ثابت بن قرة ، له فطنة ومعرفة بهذا الشأن[٥] .

ولما بنى عضد الدولة البيمارستان المنسوب إليه ببغداد ، استخدمه فيه وزاد حاله ، وكان أبو الحسن بن كشكرايا كثير الكلام يحب أن يخجل الأطباء بالمساءلة والتهجم، وكان له أخ راهب وله حقنة تنفع من قيام الأغراس والمواد الحادة ، ويعرف بصاحب الحقنة ، ولأبى الحسين من الكتب « كناشه » المعروف بالحاوى ، وله كناش آخر باسم من وضعه إليه[٦] .

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٢٥/٢ ـ ٢٢٦.

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٢٥/٢ ـ ٢٢٦.

(٣) انظر ترجمته فى : أخبار الحكماء للقفطى ٢٦٣ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٣٢/٢ ، وخطط الشام لمحمد كرد على ٣١/٤ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٦٣١/١.

(٤) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٣٢/٢.

(٥) أخبار الحكماء للقفطى ص٢٦٣.

(٦) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٣٢/٢ـ ٢٣٣ .

ـ عيسى الرّقى المنجم الطبيب عاش فى خدمة سيف الدولة الحمدانى[(١)] ، وكان طبيبًا مشهورًا فى أيامه ، عارفًا بالصناعة الطبية حق معرفتها ، وله أعمال فاضلة ومعالجات بديعة ، وكان فى خدمة سيف الدولة الحمدانى ، ومن جملة أطبائه[(٢)] ، وكان عبيد الله بن جبرائيل يقول : سمعت أن سيف الدولة إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيباً ، وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم ، وكان فى جملتهم عيسى الرقىّ هذا يأخذ ثلاثة أرزاق للنقل من السريانى إلى العربى ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين[(٣)] .

وعُرف عيسى الرّقى بالتفليسى ، وكان مليح الطريقة ، وله كتب فى المذهب وكان ينقل من السريانى إلى العربى ويأخذ أربعة أرزاق : رزقًا بسبب الطب ، ورزقًا بسبب النقل ، ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين[(٤)] .

ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمى ت ٣٧٠هـ[(٥)] ، كان أول مقامه فى القدس وقرأ علم الطب به وبغيره من المدن التى ارتحل إليها ، واستفاد من هذا الشأن جزءا متوافراً ، وأحكم ما علمه منه غاية الأحكام ، وكان له غرام وعناية تاة فى تركيب الأدوية ، وعند استغراق فى طلب غوامضه ، وهو الذى أكمل الترياق الفاروقى بما زاده فيه من المفردات وذلك بإجماع الأطباء ، وله فى الترياق عدة تصانيف ما بين كبير ومتوسط وصغير[(٦)] . وكان له معرفة جيدة بالنبات وماهياته والكلام فيه ، وكان متميزاً فى أعمال صناعة الطب والإطلاع على دقائقها ، وقد اجتمع فى القدس مع حكيم فاضل راهب ، وكان هذا الراهب يتكلم فى شىء من

---

(١) انظر ترجمته فى : أخبار الحكماء للقفطى ص ١٦٦ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٣٣/٣ ، وخطط الشام لمحمد كرد على ٣١/٤.

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٣٣/٣ .

(٣) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٦٦.

(٤) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٣٣/٣ .

(٥) انظر ترجمته فى : أخبار الحكماء للقفطى ص ٧٤ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٣/٣ ـ ١٤٦ ، ومعجم المؤلفين ٦٦/٣، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٢٤٧/٣ ، ٤٠/٦، وخطط الشام لمحمد كرد على ٣١/٤ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٩٠/٤ .

(٦) أخبار الحكماء للقفطى ص ٧٤ .

أجزاء العلوم الحكمية والطب ، وكان مقيمًا بالقدس فى المائة الرابعة من الهجرة ، وكان له نظر فى أمر تركيب الأدوية ، ولما اجتمع به محمد التميمى لازمه وأخذ عنه فوائد وجملاً كثيرة مما يعرفه ، وقد ذكر التميمى فى كتابه « مادة البقاء » صنعة صقوف الرجفان الحادث عن المرة السوداء المحترقة(١) .

وكان محمد التميمى مختصاً بالحسن بن عبد الله بن طغج المستولى على مدينة الرمل ، وما أنضاف إليها من البلاد الساحلية ، وكان مغرمًا به وبما يعالجه به من المفردات والمركبات ، وعمل له عدة معاجين ولخالخ طبية ودخناً دافعة للوباء ، وسطر ذلك فى أثناء مصنفاته(٢) .

وحكى ابن أبى الإصبع : لما كان التميمى ببلده بيت المقدس معايناً لصناعة الطب وأحكام التركيبات ، صنف وركب ترياقًا سماه مخلص النفوس وقال فيه : هذا ترياق ألفته بالقدس ، وأحكمت تركيبه ، مختصر نافع الفعل دافع لضرر السمومات القاتلة المشروبة والمصبوبة فى الأبدان ، بلسع ذوات السم من الأفاعى والثعابين وأنواع الحيات المهلكة السم والعقارب وغيرها ، ثم ساق مفرداته وصورة تركيبه فى كتابه المسمى « بمادة البقاء »(٣) .

وله من الكتب رسالة فى صنعة الترياق ، وله كتاب آخر فى الترياق وكتاب فى مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرر من ضرر الأوباء ، وله مقالة فى ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه ، وله كتاب الفحص والأخبار ، وله المرشد إلى جواهر الأغذية، وحبيب العروس وريحان النفوس فى الطب(٤) .

ـ **جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع ت ٣٩٦هـ**(٥)، كان فاضلاً عالمًا متقنا

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٣/٣ ـ ١٤٤ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ٧٤ .

(٣) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٦/٣.

(٤) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٦/٣ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٢٤٧/٣، ٤٠/٦ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٦٦/٣.

(٥) انظر ترجمته فى : أخبار الحكماء للقفطى ص ١٠٢ ـ ١٠٦ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٧٣/٢ ـ ٧٨ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٤٧٥/١ .

لصناعة الطب جيداً في أعمالها ، حسن الدراسة لها ، وله تصانيف جليلة في صناعة الطب ، وكان أجداده في هذه الصناعة كل منهم أوحد زمانه وعلامة وقته[1] ، تلقى جبرائيل علم الطب على طبيب بغداد وكان يعرف بهرمزد فلازمه وقرأ عليه ، وكان من أطباء المقتدر ، وقرأ على ابن يوسف الواسطي الطبيب ولازم البيمارستان والعلم والدرس .

اهتم جبرائيل بن عبيد الله بعلم الطب ، فقد شاوره رجل من كرمان في الفصد فأشار به وفصده ، وكان مع الرسول جارية قد عرض لها نزف الدم ، فلما رآها جبرائيل رتب لها تدابير وعمل لها معجوناً وسقاها إياه فما مضى إلا مديدة حتى برئت وصلح جسمها ، ثم أعطاه الرسول ألف درهم وعطايا أخرى وأعطته الجارية أيضاً ألف درهم وعطايا أخرى .

وسئل جبرائيل عن عصبتي العين فتكلم فيها بكلام حسن ، وعالج وجع المفاصل والنقرس وضعف الأحشاء[2]. ثم جعله عضد الدولة من خاصته وجدد البيمارستان وصار يأخذ رزقين ، وهما برسم خاص ثلثمائة درهم شجاعية وبرسم البيمارستان ثلثمائة درهم شجاعية سوى الجراية ، وكانت نوبته في الأسبوع يومين وليلتين ولشهرة عمله وفعله وفضله وعلمه باللغة الفارسية استدعاه الصاحب بن عباد بالري حيث عرض للصاحب مرض صعب في معدته فعالجه وناظر أطباء الري ، وعمل كناشه الصغير للصاحب بن عباد وهو مقصور على الأمراض التي تعرض من الرأس إلى القدم ولا يخلط بها غيرها . كما ذهب إلى ملك الديلم ليعالجه حيث نحل جسم وقوى استشعاره ، فعمل له جبرائيل مقالة ترجمها في ألم الدماغ ، ثم عاد إلى بغداد فصنف به كناشه الكبير وسماه بالكافي ووقف منه نسخة على دار العلم ببغداد وعمل كتاب المطابقة بين قول الأنبياء والفلاسفة ، ثم سافر إلى بيت المقدس وصام به يوماً واحداً وعاد منه إلى دمشق ، ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد ، ثم إلى ملك الديلم وأقام عنده ثلاث سنوات ، ثم إلى بغداد فالموصل ثم ذهب إلى ميافارقين ثم مات بها سنة ٣٩٦هـ .

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٧٢/٢ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطي ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

وله من الكتب : كناشة الكبير الملقب بالكافى خمس مجلدات ، ألفه للصاحب ابن عباد ، ورسالة فى عصب العين ، ومقالة فى ألم الدماغ بمشاركة فم المعدة والحجاب الفاصل بين آلات الغذاء وآلات التنفس ، ألفها لخسرو شاه ملك الديلم ، ومقالة فى أن أفضل اسطقسات البدن هو الدم ألفها للصاحب بن عباد ، وكتاب المطابقة بين قول الأنبياء والفلاسفة ، ومقالة فى الرد على اليهود ، ومقالة فى أنه لم جعل من الخمر قربان وأصله محرم[١] .

وأنشأ من بعده ولده أبو سعيد عبيد الله بن جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع وكان فاضلاً فى صناعة الطب وله تصانيف كثيرة وأقام بميافارقين[٢] .

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ١٠٢ ـ ١٠٦ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٣/٢ ـ ٧٨ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٤٧٥/١ .

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٧٨/٢ .

من مشاهير أطباء العراق :

ـ أبو بكر محمد بن زكريا الرازى ٣٢٠هـ[١] أوحد دهره ، وفريد عصره ، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء ، وخاصة الطب ، وكان ينتقل فى البلدان وكان باراً بالناس ، حسن الرأفة بالفقراء والأعلام ، حتى كان يجرى عليهم الجرايات الواسعة ويمرّضهم[٢] .

دبّر الرازى مارستان الرى ثم رحل إلى بغداد ودبّر مارستان بغداد فى أيام المكتفى ، وكان إمام وقته فى علم الطب ، والمشار إليه فى ذلك العصر ، وكان متقناً لهذه الصناعة ، حاذقًا فيها عارفًا بأوضاعها وقوانينها ، تشد إليه الرحال فى أخذها عنه ، وصنف فيها الكتب النافعة ، من كلامه : مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب ، وقال أيضاً : إذا كان الطبيب عالمًا والمريض مطيعًا ، فما أقل لبث العلة ، وقال : عالج فى أول العلة بما لا تسقط به القوة .

وكان اشتغاله بالطب على كبر يقال إنه لما شرع فيه كان قد جاوز أربعين سنة من العمر ، وطال عمره ، وكان اشتغاله بالطب على الحكيم أبى الحسن على بن زين الطبرى[٣] . قال القفطى توفى الرازى قريبًا من سنة عشرين وثلثمائة نقلا عن صاعد الأندلسى وقيل غير ذلك ، وكان فى ابتداء أمره يضرب بالعود ثم نزع عن ذلك وأكب على النظر فى الطب والفلسفة وبرع فيهما براعة المتقدمين وألف فى الطب كتباً كثيرة[٤] ، وكان فى جملة من اجتمع على تجديد البيمارستان العضدى وقد استشاره عضد الدولة فى الموضع الذى يجب أن ينى فيه البيمارستان ، وبعد أن انتهى عضد الدولة من استكمال البيمارستان جعل الرازى رئيساً له[٥] .

---

(١) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ٤١٥ ـ ٤٢٠ ، وأخبار الحكماء للقفطى ١٧٨ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٧/٥ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٣٤٣/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٦٣/٢ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٧١/٤ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص٤١٥ ـ ٤١٦ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٤) أخبار الحكماء للقفطى ص١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٥) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٣٤٣/٢ ـ ٣٤٤ .

يعتبر الرازى من أهم من وضعوا الأسس الراسخة والقواعد الثابتة لتعليم الطب وممارسته ليس فى العالم الإسلامى فحسب ، بل وفى أثره البعيد فى تدريس الصناعة الطبية وما إليها من علوم ، فقد كتب باستفاضة فى الطب السريرى والنفسانى ، وصنف فى الكيمياء والعقاقير وتحضيرها ، ووضع أصول فلسفة النظريات الطبية فى هذه الحقبة ، وساعد على تطور أدب الطبيب وأهمية العمل فى البيمارستانات ، والتجربة الطبية ، وكتابات أخرى ، وحارب الرازى الشعوذة فى الصناعة الطبية ، وهاجم جهلاء المتطببين ، وحاول رفع مستوى التعليم الطبى ، ويكفيه فخراً كتاباته ذات الشهرة الواسعة التى تناول فيها كل العلوم مثل علم البصريات والبيئة والأخلاق ومنافع الأعضاء والسموم وأمراض الأطفال ، والجدرى والحصبة والأمراض الوافدة ، وكان رائداً فى تدريس هذه الأبحاث لتلاميذه العديدين ، كما شجع على قراءة الكناشات وسماع المحاضرات وعيادة المريض بصورة منظمة ، وأعدّ موسوعة طبية كبيرة هى كتاب « الحاوى الكبير فى الطب » تناول فيها كل الأمراض من هامة الرأس إلى أخمص القدمين واضعاً العلامات والأسباب وطرق التشخيص والعلاج ، كما ظهر إبداع الرازى فى رسالته التى ألفها فى «الحصبة والجدرى فى التشخيص والوصف» .

ويعتبر الرازى أول من عرف الجدرى والحصبة وفرق بينهما ، وهو أول من ذكر حمض الكبريتيك وسماه الزاج الأخضر واستطاع استخراج الكحول[1] .

لقد اهتم الرازى فى كتابه « الحاوى » بتدبير البدن وحاله ، ويستخرج أيضاً سبب المرض بالنظر إلى السن والزمان والمزاج[2] ، وقد سبق غيره ممن تقدموه بل وفاقهم جميعاً فى تدوين الملاحظات السريرية ، كما استطاع التفريق بين الأمراض المتشابهة الأعراض ، ففرق بين القولونج ووجع الكلى أو بين ذات الجنب أو ذات الرئة وغيرها[3] . ويعتبر الرازى أول طبيب ابتكر خيوط الجراحة المسماه (بالقصاب) وهو

---

(١) انظر مجلة الوعى الإسلامى العدد ٣٣٢ لسنة ١٩٩٣م الصفحة ٤٥ تصدر عن وزارة الأوقاف بالكويت .

(٢) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ٢٧٩/٣ وانظر تحقيق عن حياة الرازى بالعدد الثالث من نشرة الطب الإسلامى بالكويت ص ١٨٠ .

(٣) منهج البحث العلمى عند العرب للدكتور جلال موسى ص١٩٢ ـ ١٩٧ .

كذلك أول من عمل مراهم النبق ، وأول من كتب مقالات خاصة عن أمراض الأطفال[١]. لقد عالج حالات السعال الشديد ومرض السل ، والتهاب الصدر، وعال الاستسقاء ، وأصبح الرازى حجة فى علم الطب وآية حجة ، ومرجعًا أخيراً لكل الحالات المستعصية[٢].

وكان الرازى غزير الإنتاج وبلغ ما ألفه فى الطب حوالى ستة وخمسين كتاباً منها كتاب الحاوى ، وكتاب المنصورى ورسالة فى الجدرى والحبة ودفع مضار الأغذية وكتاب فى برد ساعة وكتاب المرشد ، والفاخر فى الطب والطب الملوكى وغيرهم كثير جداً[٣].

ـ **سنان بن ثابت بن قرة ت ٣٣١هـ**[٤]، كان أبو سعيد سنان بن ثابت أديبًا فاضلاً مؤرخًا عارفًا بعلم الهيئة ماهراً بصناعة الطب ، كان فى خدمة المقتدر ثم القاهر والراضى[٥] قال ابن النديم : إن القاهر بالله أراد سنان بن ثابت بن قرة على الإسلام فهرب ثم أسلم فخاف القاهر فمضى إلى خراسان ثم عاد ، وتوفى ببغداد مسلماً[٦].

كان سنان بن ثابت مفوضًا من قبل الخليفة المقتدر بامتحان كل من يريد صناعة الطب ، ولا يسمح له بممارسة المهنة إلا إذا جاز الامتحان الذى يقيمه سنان بن ثابت وأجاز له الخليفة أيضًا أن يطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه من الصناعة، وقد بلغ عددهم فى الجانبين من بغداد ثمانمائة ونيفاً وستين رجلاً سوى من

---

(١) تاريخ الطب للدكتور فرج محمد الهونى ص١٣٧ .

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب لزيغريد هونكه ص٣٤٥ .

(٣) الفهرست لابن النديم ٤٢٠ ، وأخبار الحكماء للقفطى ١٧٨ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٣٤٣/٢ وما بعدها ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣٠٤/٣ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٢٠٩/٢ ، والمعجم الشامل للدكتور محمد عيسى صالحية ٩/٣ ـ ١٦ .

(٤) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص ٤٢١ ، وأخبار الحكماء للقفطى ١٣٠، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٠١/٢ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٨٠٠/١ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٤٠٢/٣ .

(٥) معجم الأدباء لياقوت الحموى ٤٠٢/٣ .

(٦) الفهرست لابن النديم ص٤٢١ .

استغنى عن امتحانه باشتهاره بالتقدم فى الصناعة وسوى من كان فى خدمة السلطان[١].

وقد كلفه الوزير . على بن عيسى أن يفرد أطباء لمن فى السجون وتحمل إليهم الأدوية والأشربة ويطوفون فى سائر الحبوس ويعالجون من فيها من المرضى ، ويزيحون عللهم فيما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة ، كما كلفه بأن يفرد أطباء وبيمارستانات متنقلة محمولة إلى المناطق النائية عن بغداد ويحملون معهم خزانة للأدوية والأشربة ويطوفون فى السواد ويقيمون بكل صقع منه مدة ما تدعو إليه الحاجة ويعالجون من فيه من المرضى ، ثم ينتقلون إلى غيره ، ففعل ذلك سنان بن ثابت بن قرة[٢] وذلك لما له من مكانة كبيرة عند الأمراء والوزراء ، وقد أشار سنان على الخليفة المقتدر بأن يتخذ بيمارستانًا ينسب إليه فأمره باتخاذه فاتخذه له وسماه البيمارستان المقتدرى وأنفق عليه من ماله فى كل شهر مائتى دينار[٣].

ولأبى سعيد سنان بن ثابت بن قرة من الكتب ، التاجى فى أخبار آل بويه ومفاخر الديلم ورسالة فى أخبار آبائه وأجداده وسلفه وإصلاح كتاب إقليدس فى الهندسة ، وتاريخ ملوك السريان والرسائل السلطانية والإخوانية ، ورسالة فى شرح مذهب الصابئة ورسالة فى النجوم ورسالة فى الاستواء وغير ذلك[٤].

ـ أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبى الأشعث ت فى ٣٦٠هـ ونيف[٥] ، كان وافر العقل ، سديد الرأى محباً للخير كثير السكينة والوقار ، متفقها فى الدين ، وعمّر عمراً طويلاً وله تلاميذ كثيرة ، وكان فاضلاً فى العلوم الحكمية متميزاً فيها ، وله تصانيف كثيرة تدل على ما كان عليه من العلم وعلو المنزلة ، وقد شرح كثيراً من

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص١٣٠ .

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٠٢/٢ .

(٣) أخبار الحكماء للقفطى ص١٣٣ .

(٤) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٠/٢ ، وأخبار الحكماء للقفطى ١٣٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٨٠٠/١ .

(٥) انظر ترجمته فى : طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٤٦/٢ ـ ٢٤٩ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢٩١/١ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٣٦/١ و ٣٥٠/٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥، ٣٨٨ .

كتب جالينوس وفصلها إلى جمل وأبواب وفصول تقسيمًا لم يسبقه إلى ذلك أحد غيره ، وكتبه فى صناعة الطب وغيرها تامة فى معناها لا يوجد لها نظير فى الجودة ، وكان له تلاميذ عدة ، وله من الكتب كتاب الأدوية المفردة ، كتاب فى الحيوان ، كتاب فى العلم الإلهى ، كتاب فى الجدرى والحصبة والحميقاء ، كتاب فى السرسام والبرسام ومدواتهما ، ثلاث مقالات صنفها لتلميذه محمد بن ثواب الموصلى أملاه عليه إملاء من لفظه وكتبه عنه بخطه وذكر تاريخ الإملاء والكتابة فى رجب سنة ٣٥٥هـ، وله كتاب فى القولنج وأصنافه ومداوته والأدوية النافعة ، كتاب فى البرص والبهق ومداوتهما ، كتاب فى الصرع ، كتاب فى الاستسقاء ، كتاب فى ظهور الدم، كتاب فى الماليخوليا ، وكتاب فى تركيب الأدوية ، كتاب فى أمراض المعدة ومداواتها[١] . وله كتاب الغادى والمغتدى ، ومقالة فى النوم واليقظة[٢] .

مما سبق من المؤلفات نستطيع أن نحكم على علم الطب والصناعة الطبية عند أحمد بن أبى الأشعث على أنه مارس أنواعًا كثيرة من علوم الطب سواء علم الباطنة أو الصيدلة أو الفحص التشخيص ، والطب النفسى وغير ذلك[٣] .

- **أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة ٣٦٣هـ**[٤]، كان طبيباً فاضلاً يلحق بأبيه فى صناعة الطب ، خدم بصناعة الطب المتقى بن المقتدر بالله ، وخدم أيضًا المستكفى بالله المطيع لله ، وفى سنة ٣١٣هـ قلده الوزير الخاقانى البيمارستان الذى اتخذه ابن الفرات[٥] .

لقد كان بارعًا فى الطب عالمًا بأصوله فكاكًا للمشكلات من الكتب ، وكان

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٤٧/٢ - ٢٤٨.

(٢) مجلة معهد المخطوطات المجلد (٥) ص ٢٤٩ .

(٣) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٤٨/٢ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٣٦ و ٣٥٠/٢ ، ٣٥٨، ٣٦٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢٩١/١ .

(٤) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص٤٢١ ، وأخبار الحكماء للقفطى ص٧٧ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٠٧/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢١٩/١١ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٣٦٤/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٤٤/٣ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٤٦٦/١ .

(٥) طبقات الأطباء لابن أصيبعة ٢٠٨/٢ .

يتولى تدبير المارستان ببغداد فى وقته[1]، وقد سلك مسلك الطب والفلسفة والهندسة وجميع الصناعات الرياضية للقدماء ، وله تصنيف فى التاريخ أحسن فيه[2].

استطاع أن يعالج يد ابن مقلة عندما قطعت واستدعاه لعلاجها الراضى بالله فبعد أن كادت تفسد وتؤدى إلى موته عالج موضع القطع بالكافور والصندل وماء الورد ، فعاش ابن مقلة واستراح وسكن الضربان[3].

وله من الكتب : كتاب التاريخ ، وكتاب فى أخبار الشام ومصر ، وكتاب فى أخبار القرامطة[4].

ـ **ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحِرانى أبو الحسن ٣٩٥هـ** [5]، وكان طبيبًا محذقًا مصيبًا ، وكان أسوفًا ضنينا بما يحسن[6] ، واستطاع أبو الحسن أن يعالج الوزير ابن بقية من علة أشرف منها على الموت ، وكانت العلة دموية حارة ، ولما تم له الشفاء أعطاه مالا جزيلاً ، وكان دائمًا يسأل المريض قبل بداية العلاج حتى يستطيع التشخيص الصحيح والفحص السليم [7]، وله مواقف كثيرة استطاع أن يحقق نتيجة إيجابية فى علاج المرضى .

وله من الكتب : إصلاح مقالات عن كناش يوحنا بن إسرابيون ، وجوابات مسائل سئل عنها[8].

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص٧٧ .

(٢) شذرات الذهب لابن العماد ٣/٤٥ .

(٣) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢/٢١٠ .

(٤) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢/٢١١ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ١/٤٦٦ ، والمعجم الشامل للدكتور محمد عيسى صالحية ١/٢٩٧ .

(٥) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص٤٢١ ، وأخبار الحكماء للقفطى ص٧٨ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢/٢١٢ .

(٦) الفهرست لابن النديم ص٤٢١ .

(٧) أخبار الحكماء للقفطى ص٧٨ ـ ٨٠ .

(٨) الفهرست لابن النديم ص٤٢١ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢/٢١٨ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ١/٤٦٥ .

- **علي بن العباس المجوسي ت ٣٨٤هـ**[١]، كان تمليذاً لابن السيار ، واعتمد على نفسه في الدراسة والتحصيل ، وظهرت شهرته في القرن الرابع الهجري وكان طبيباً مجيداً متميزاً في صناعة الطب ، وهو الذي صنف الكتاب المشهور الذي يعرف (بالطب الملكي)صنفه لعضد الدولة ، وهو كتاب جليل مشتمل على أجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها ، وكان قد اشتغل بصناعة الطب على يد أبي ماهر موسى وتتلمذ له[٢] كان علي بن العباس رئيساً لبيمارستان عضد الدولة الشهير في بغداد حيث عرف بإطلاعه الواسع ، ويدل كتابه على معرفة واسعة ليست مكتسبة من قراءة الكتب فحسب ، بل هي نتيجة تجربته الشخصية الواسعة وقد انتقد فيه المؤلفين الذين سبقوه على إخفاقهم في وضع كتاب شامل خالٍ من العيوب ، مما يحتاج إليه أهل الصناعة وغيرهم في حفظ صحة الأصحاء ، وردها على المرضى ، وقد حاول في كتابه تفادي ما وقع فيه غيره ممن سبقوه من أخطاء ، فجاء كتابه متقناً في العمل وفي العلم أثبت[٣] .

وقد تعرض في كتابه لأبحاث هامة تثبت مدى امتيازه وجودته في صناعة الطب ، فقد تعرض للعلاجات والبيئة ، والعلاج باليد (الجراحة) وقد تناول في قسم التشريح، تعريف بالأوردة والشرايين ، ووظائف القلب والتنفس وعلم الغرائز ، وأشار إلى فوائد الرياضة ، وتعرض لوصف الحواس ، والجهاز الهضمي وأفعاله وأصناف الأدوية وتأثيراتها ، وأثر السموم في القوى الطبيعية المديرة للبدن[٤] . كما قدم لنا المجوسي في تشريح الحالبين والمثانة وصفًا دقيقًا لمسار الحالبين في جدار المثانة ، وكذلك عن أهمية هذا المسار في عدم رجوع البول عند التبول[٥] .

له من الكتب : الكتاب الجليل المشهور المعروف (بكامل الصناعة) المشتمل على أجزاء الصناعة الطبية[٦] .

---

(١) انظر ترجمته في : أخبار الحكماء للقفطي ص١٥٥ ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٢٣٠/٢ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٤٥٤/١ ، ومختصر الدول لابن العبري ص١٧٢ ، والمعجم الشامل للتراث المطبوع ، د/ محمد عيسى ٤٦/٥ .

(٢) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٢٣٠/٢ .

(٣) الطب والأطباء في مختلف العصور الإسلامية ، د/ محمود دياب ص٢٣٢ .

(٤) مختصر الدول لابن العبري ص١٧٢ ـ ١٧٦ .

(٥) نشرة الطب الإسلامي العدد الثالث ص١٥٤ ، عن مؤتمر الطب الإسلامي بالكويت ، سنة ١٩٨٤م.

(٦) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٢٣٠/٢ .

التأثير والتأثر :

الأمر الواضح الذى لا شبهة فيه أن يكون التأثير والتأثر واضحًا بين علماء الشام وعلماء العراق ، ومرجع ذلك دائمًا للجوار ، وعدم توقف الرحلة فى طلب العلم بين العلماء .

إن المتتبع لعلماء الشام يلاحظ أنهم قد تأثروا تأثراً ظاهراً وجلياً لعلماء العراق فعلى سبيل المثال نجد أبا عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى قد رحل إلى العراق ، ثم انقطع إلى على بن عيسى الوزير ، وقلده بيمارستان بغداد ومكة والمدينة .

وكذلك أبو الحسن بن كشكرايا كان فى خدمة سيف الدولة وقبل ذلك كان من تلامذة سنان بن ثابت بن قرة ببغداد ، ثم انتقل من عند سيف الدولة إلى بغداد وعين فى بيمارستان عضد الدولة .

وجبرائيل بن عبيد الله لم يكن له مكان ثابت فكان متنقلاً بين بيت المقدس وبين دمشق وبين بغداد وبين ملك الديلم وبين الصاحب بن عبّاد ، فكان يؤثر ويتأثر فى كل مكان يرحل إليه .

نلاحظ مما سبق أن علماء الشام سمعوا من علماء العراق ورحلوا إليها وعملوا بها، ثم أننا نجد من أهل الشام من يريد معرفة علم الطب فيسعى إلى بغداد راحلاً إليها فى طلب العلم مثل أبى الفرج البيرودى التى تاقت نفسه إلى تعلم الطب وأقام بدمشق يتعلم صناعة الطب ، ولما تبصر فى أشياء منها وصارت له معرفة بالقوانين العلمية ، وحاول مداواة المرضى ، ورأى اختلاف الأمراض وأسبابها وعلاماتها ، وتفنن معالجاتها وسأل عمن هو إمام فى وقته بمعرفة صناعة الطب والمعرفة بها جيداً فذكروا له بغداد فتأهب للسفر وتوجه إلى بغداد ودرس وسمع إلى أن مهر فى صناعة الطب ، ورغم ذلك قليلاً ما نجد عالمًا خرج من العراق إلى الشام واستقر هناك دون أن يعود إلى كعبة العلم (بغداد) .

المتتبع لمؤلفات علماء العراق يجد أن كثيراً منهم يتسم بالموسوعية ، فى حين أن علماء الشام يكتبون ويصنفون فى نطاق ضيق محدود .

كثير من علماء العراق عنده موسوعية فى علاج الأمراض المتنوعة فى حين أن قليلاً من علماء الشام من يتسم بالموسوعية فى علاج الأمراض المتنوعة .

علم الصيدلة والكيمياء :

أطلق علماء العرب والمسلمين على هذا العلم اسم علم الصيدلة ، والقائم به يُعرف بالصيدلى أو الصيدلانى ، كما سمى أيضاً بعلم المفردات أو العقاقير أو الأدوية ، وقد اشتهر علم الصيدلة بعلم الأدوية [1] ، والصيدلة متصلة بعلم الأعشاب (النبات) وبعلم الحيوان والمعادن والكيمياء ، فإن الأدوية نباتية وحيوانية ومعدنية ، ثم هى تحتاج إلى معالجة وإلى نسب فى التركيب تقتضى المعرفة بالكيمياء[2] .

علم الصيدلة والكيمياء قبل القرن الرابع فى الشام والعراق :

قبل القرن الرابع الهجرى كان كل طبيب فى البلاد العربية هو فى الوقت نفسه صيدليًا ، له بالطبع أعوان يساعدونه فى أعماله ويجمعون له النباتات الشافية والأعشاب الطبيعية ، كما كانوا يتعاطون تجارة البخور والتوابل وغير ذلك ، فكان الدواء ينتقل من يد الطبيب إلى يعد العليل دون أى وسيط[3] .

وكثير من أطباء الشام والعراق فى القرن الرابع الهجرى أدركوا كثيراً من سنوات القرن الثالث وعاشوا فيه واتسموا بهذه السمة الطبيب الصيدلى فى وقت واحد مثل محمد بن أحمد التميمى المقدسى بدمشق ومحمد بن زكريا الرازى ببغداد .

فالعرب كانوا رواداً ومؤسسى علم الصيدلة ، والدليل على ذلك العقاقير التى اكتشفت على يد العلماء العرب ، والصيدليات الكبيرة التى أنشأوها ، كانت دليل عبقريتهم ، فقد برعوا فى معرفة الأدوية وسواء كانت من الأصل النباتى أو المعدنى أو الحيوانى[4] .

لقد ارتبطت الصيدلة بالطب قبل القرن الرابع الهجرى ارتباطًا وثيقًا ، والدليل على ذلك أننا نجد المعالجة بالأدوية والعقاقير والأغذية أخذت حيزاً كبيراً فى المصنفات

---

(١) إسهام علماء العرب والمسلمين فى الصيدلة للدكتور على الدفاع ص١٢٣ .

(٢) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص٢٩٤ .

(٣) إسهام علماء العرب والمسلمين فى الصيدلة للدكتور على الدفاع ص١٢٥ .

(٤) تاريخ الطب للدكتور فرج محمد الهونى ص٢٣٩ .

الطبية العربية ، فلا نجد من الكتب الشاملة إلا وقد خصص مؤلفها فصلاً أو أكثر للأدوية والعقاقير ، وهكذا ارتبطت الصيدلة بالطب ارتباطاً وثيقاً ، وارتبطت الصيدلة من جهة أخرى بعلم الكيمياء نظراً لافتقار صناعة الأدوية إلى التحضيرات والأجهزة العلمية[1] .

وحتى عام ٣٠٠هـ كان كل طبيب فى البلاد العربية وليس فى الشام والعراق وحدهما هو فى الوقت نفسه صيدلياً[2] .

كانت الصيدلة من أربح أنواع التجارة ، فاستفاد من مردودها علماء العرب والمسلمين ، ولم يكن الصيدلانيون كلهم من ذوى الأخلاق الكريمة فكان نفر منهم يغشون الأدوية ، أو يعطى المريض دواءاً غير الدواء المطلوب إذا لم يكن عنده الدواء الصحيح ، لذلك أمر الخليفة المأمون ت ٢١٨هـ خلال القرن الثالث الهجرى بامتحان أمانة الصيادلة ثم أمر الخليفة المعتصم سنة ٢٢١هـ أن يعطى الصيدلى الذى تثبت أمانته منشوراً يجيز له العمل ، ثم أدخلت الصيدلة التى تثبت أمانة صاحبها فى نظر (مراقبة) الحسبة[3] .

قد درس علماء العرب والمسلمين ـ كشأنهم فى جميع فروع المعرفة ـ بكل جدية وإخلاص ما ورثوه عن الحضارة اليونانية والهندية والفارسية حول فن العقاقير التى سماها علماء العرب والمسلمين علم الصيدلة فقد أخذوه وزادوا عليه واستكملوه بفضل خبراتهم الطبية التى اقتبسوها ، واهتموا أيضًا بتحضير الأدوية المفردة والمركبة[4] .

ظل هذا العلم على تلك الوتيرة قبل القرن الرابع واستمر خلال القرن الرابع الهجرى غير أنهم تبنوا فكرة انفصال علم الصيدلة عن علم الطب بسبب كثرة العقاقير، ولكى يستقل الصيدلى بعلم الصيدلة والطبيب يتفرغ لعلم الطب ، لذلك

---

(١) حضارة العراق للدكتور ياسين خليل ٤٩٢/٨ .

(٢) إسهام علماء العرب والمسلمين فى الصيدلة للدكتور على الدفاع ص١٢٥ .

(٣) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص٢٩٥ .

(٤) إسهام علماء العرب والمسلمين فى الصيدلة للدكتور على الدفاع ص١٢٧ .

وجب فصل علم الصيدلة عن علم الطب ، واستقلت الصيدلة بذاتها ، فصار الصيدلى هو الذى يجمع الأدوية ويركبها من الأعشاب ، وهذا لا يمنع من وجود أطباء يمارسون مهنة الطب والصيدلة معاً خلال القرن الرابع الهجرى ، ولا نستطيع أن نجزم بالانفصال الكامل بين علمى الصيدلة والطب خلال القرن الرابع الهجرى عند علماء الشام وعلماء العراق لما تحت أيدينا من أمثلة كثيرة لأطباء شاميين وعراقيين وهم فى نفس الوقت يقومون بتركيب الأدوية ويصنعون الخلطات وغير ذلك من الأمور العلاجية .

كما ظهر قبل القرن الرابع الهجرى أيضًا صيدليات بجوار المستشفيات وظهرت مستقلة أحيانًا ، وأصبحت الصيدلة مهنة مستقلة لها عميدها وعليها مسئوليتها ، وكان المحتسب يباشر نشاطه فى ملاحظة الدقة فى الصيدليات وفى أعمالها ، بحيث يكون الدواء مطابقًا لما كتبه الطبيب(١) .

لذلك نستطيع القول بأن العرب والمسلمين هم أول من وضع الأسس القوية لعلم الصيدلة ، وهم أول من أسس الصيدلة مكانًا خاصًا للأدوية(٢) . وكذلك علم الكيمياء فهو من العلوم التى كان للعرب فضل السبق فى إنشائه على قواعد علمية صحيحة من التجربة والملاحظة والاستنتاج ، كما أنهم وصلوا إلى معرفة عدد من الأحماض ، والمركبات وطريقة تحضيرها وغير ذلك ، واستخدموا هذا العلم فى المعالجات الطبية فكانوا أول من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنية(٣) .

---

(١) الفكر الإسلامى منابعه وآثاره ، تأليف م. م. شريف ، ترجمة الدكتور أحمد شلبى ص١٠٨ .

(٢) حضارة العراق للدكتور ياسين خليل ٤٩٣/٨ .

(٣) العلوم عند العرب لقدرى طوقان ص٩ .

علم الصيدلة والكيمياء فى القرن الرابع الهجرى

أولاً : فى الشام :

لا يختلف علم الصيدلة كثيراً فى بلاد الشام خلال القرن الرابع الهجرى عما كان عليه فى القرن الثالث الهجرى ، غير أنه بسبب كثرة العقاقير الطبية ، وأصبح العبء ثقيلاً على الطبيب كطبيب وصيدلى فى وقت واحد ظهر اتجاه انفصال علم الصيدلة عند كثير من الأطباء عن علم الطب ، مع استمرار بعض الأطباء على حالهم كطبيب وصيدلى فى آن واحد . وهذا الانفصال اتسعت دائرته خلال القرن الرابع الهجرى ولكنه بدأ منذ القرن الثانى للهجرة ، حيث بدأ كل من الطبيب والصيدلى يمارس مهنته بكل استقلال . وهذا العمل ليس بالسهل بل قابل صعوبة شديدة ولكن العلماء أصروا على الفصل لأنهم يرون أن الصيدلى يجب أن يتفرغ لمهنة صناعة الأدوية ، بينما يتفرغ الطبيب لعلاج المرضى ووصف الدواء المناسب لعلاجه[١] .

واستمر العمل فى القرن الرابع الهجرى على ما كان عليه من قبل اتجاه الصيدليات والعمل بها ، لا يستطيع الصيدلى أن يقيم صيدلية إلا إذا ثبتت أمانته فى نظر الحسبة ، وأن يقام له امتحان أمانة الصيادلة[٢] .

وأصبحت الصيدلة مهمة جداً للطبيب ، بل قريبة جداً من صناعة الطب ، ويقول الرازى : إن صناعة الصيدلة إذا انضمت معرفتها للطبيب على علمه كان أفضل ، فإنها شديدة الالتصاق بصناعة الطب[٣] .

كما صار نظام ما قبل القرن الرابع كما هو واستمر فى القرن الرابع من حيث وجود قسم خاص للصيدلية فى المستشفيات ، كما وضعت المؤلفات العديدة فى هذا العلم ، واستمر نظام مراقبة الأدوية وتفتيش الصيدليات أسبوعياً[٤] ، فكان للبيمارستان صيدلية تسمى شرابخاناه ولها رئيس يسمى شيخ صيدلى البيمارستان[٥] . وهذا نظام

---

(١) إسهام علماء العرب والمسلمين فى الصيدلة للدكتور على الدفاع ص١٤٠ .

(٢) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص٢٩٥ .

(٣) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ٢/٢ فى الصيدلة .

(٤) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان ص٦٦ .

(٥) تاريخ البيمارستانات فى الإسلام للدكتور أحمد عيسى ص١٩ .

متبع فى البيمارستانات أن يكون فى كل بيمارستان خزانة للشراب أو شرابخاناه أى صيدلية .

نستطيع أن نحكم على علم الصيدلة فى الشام بالتقدم من خلال رؤيتنا للإشارات القليلة التى توضح وتبين مدى هذا التقدم على يد علماء الشام . مثل ما قام به جبرائيل بن عبيد الله من معجون يوقف نزيف الدم إذا ما شربه المريض(١) . ومثل أبو عبد الله المقدسى الذى استطاع أن يصنع تركيب دواء يكون علاجًا لضرر السم القاتل ولدفع ضرر ذوات السم من الأفاعى والثعابين والحيات والعقارب(٢) .

ولا يفوتنا أن نبين ارتباط علم الصيدلة بعلمى الطب والكيمياء وأن تفوق العلماء فى علمى الطب والكيمياء أعطى فرصة امتيازهم فى علم الصيدلة ، وقد نبغ من علماء الشام من له باع فى علم الكيمياء ووضع مؤلفات قيمة فى ذلك ، كأبى عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد المقدسى ت ٣٧٠هـ بالإضافة إلى شهرته كطبيب وصيدلى ، فله تصانيف عدة ما بين كبير ومتوسط وصغير ، وله عناية تامة فى تركيب الأدوية ومن أشهر كتبه « كتاب مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء »(٣) .

ومؤلفات أطباء الشام إما أن تحتوى على فصل أو فصلين فى علم الصيدلة أو ينفرد بعض المؤلفات بالحديث عن علم الصيدلة فلأبى عبد الله محمد المقدسى كتاب المرشد إلى جواهر الأغذية ، وله رسالة فى الترياق(٤) .

لذلك نستطيع أن نقول عن علم الصيدلة أنه سار قدمًا مع علم الطب والكيمياء فى التقدم والازدهار فى الشام خلال القرن الرابع الهجرى .

ثانيًا : فى العراق :

ظل علم الصيدلة فى العراق خلال القرن الرابع الهجرى كما كان قبل ذلك من

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٦/٣ .

(٣) أخبار الحكماء للقفطى ص٧٤ .

(٤) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٦٦/٣ .

حيث أهميته وارتباطه الوثيق بعلم الطب كعلمين لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر ، لذلك نلاحظ أن علم الصيدلة فى مؤلفات أطباء القرن الرابع الهجرى أخذ حيزاً كبيراً فى التصنيف ، فلا نجد من الكتب الشاملة إلا وقد خصص مؤلفها فصلاً أو أكثر للأدوية التى يصفها للعلاج ، وهكذا ارتبطت الصيدلة بالطب ارتباطًا وثيقًا ، إذا لابد للطبيب أن يكون حاذقًا فى صناعة وتحضير الأدوية التى يصفها للعلاج ، وارتبطت الصيدلة أيضًا خلال القرن الرابع بعلم الكيمياء ، ورغم هذا الارتباط الوثيق إلا أننا نجد عند كثير من العلماء قد انفصل علم الطب عن الصيدلة عن الكيمياء وكل علم له استقلال ذاتى وله أصوله ومصنفاته الخاصة(١) .

لقد تقدم علم الصيدلة تقدماً ملحوظًا خلال القرن الرابع الهجرى وذلك لأن هذا الفن كان مرتبطًا كل الارتباط بعلمى الطب والكيمياء وكل من هذين العلمين قد نضج كثيراً على أيدى علماء العرب والمسلمين فعلم الكيمياء قد استخدم فى الطب لصنع العقاقير وتركيب الأدوية وتنقية المعادن وصناعات مختلفة ، كصناعة الورق والأقمشة والزجاج ودبغ الجلود والروائح العطرية ، وإن من علماء العراق من برع فى هذا العلم كأبى بكر الرازى بجانب شهرته كطبيب وصيدلى ، فقد كان له الفضل فى التأليف عن الكيمياء وإجراء التجارب الهامة ، وأهم كتبه فى ذلك « كتاب الأسرار » وكتاب « سر الأسرار »(٢) لقد أمضى الرازى جلّ وقته فى مقتبل عمره بالكيمياء القديمة وتوصل إلى تحضير بعض السبائك التى تشبه الذهب(٣)، وقيل « أنه ألف ثلاثة وعشرين كتاباً فى الكيمياء »(٤).

ومازال العبء ثقيلاً على بعض أطباء العراق خلال القرن الرابع الهجرى حيث أنه لم يفصل بين علم الصيدلة وعلم الطب فكان طبيباً وصيدلياً فى وقت واحد ، رغم أن العرب قد فصلوا بين علمين من قبل القرن الرابع ، فنجد أبا بكر الرازى يصنف كتابه

---

(١) حضارة العراق للدكتور ياسين خليل ٤٩٢/٨ .

(٢) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان على ص٥٤ .

(٣) أعلام العرب فى الكيمياء للدكتور فاضل أحمد الطائى ص١١٢ .

(٤) Kraus, P : Chapitre de Beruni Contenant le repertoire des Ouvrages de Mahammad B. Zakariya ar - Razi .

المشهور (بالحاوى فى الطب) ويجعل فيه جزءاً للأدوية والعقاقير ، وكذلك على بن العباس المجوسى تناول موضوع الصيدلة فى مؤلفاته الطبية فجعل المقالة الثانية من كتابه (كامل الصناعة الطبية) لموضوع الأدوية ، فتناول خصائصها وفوائدها وكيفية امتحانها وغير ذلك من الأمور الخاصة بها[1].

فالصيدلة مهمة للطبيب وقريبة من صناعة الطب ، ولكنها ليست جزءاً منه فالرازى يرى « أن المعرفة بهذا الفن إذا انضمت للطبيب على علمه كان أفضل ، فإنه شديد الالتصاق بصناعة الطب »[2].

لذلك فالفصل بين الطب والصيدلة أمر واقع فى العراق لأن مهمة الصيدلى أن يتفرغ لمهنة صناعة الأدوية ، بينما يتفرغ الطبيب لعلاج المرضى ووصف الدواء المناسب لعلاجه[3].

أما من حيث إقامة الصيدليات والعمل بها فلابد من إثبات الأمانة فى نظر الحسبة، يقام للصيدلى امتحان أمانة الصيادلة[4]، كما يكون أيضاً بالمستشفيات قسم خاص للصيدلة ، واستمر نظام مراقبة الأدوية والتفتيش عليها أسبوعياً[5].

ولكل صيدلة بالبيمارستان رئيس يسمى شيخ صيدلى البيمارستان[6] فقد دخل ذات يوم البيمارستان العضدى فاتفق له أن ظفر برجل شيخ صيدلانى البيمارستان فسأله عن الأدوية ومن كان المظهر لها فى البدء[7].

من ذلك نستطيع استنتاج ما أوضحناه من وجود شيخ صيدلى لكل بيمارستان فى العراق خلال القرن الرابع الهجرى .

---

(١) تاريخ الطب للدكتور ياسين خليل ٤٩٢/٨ .

(٢) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ٢/٢ ـ ٤ .

(٣) إسهام علماء العرب المسلمين فى الصيدلة ، د/ على الدفاع ص١٤٠ .

(٤) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص٢٩٥ .

(٤) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان ص٦٦ .

(٦) تاريخ البيمارستانات فى الإسلام للدكتور أحمد عيسى ص١٩ .

(٧) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٣٤٢/٢ .

من خلال ما سبق نستطيع أن نحكم على علم الصيدلة فى العراق خلال القرن الرابع كعلم متقدم مزدهر يسير بخطى ثابتة مع علم الطب والكيمياء جنباً إلى جنب يقوم به علماء أجلاء فيصنفون فيه الكتب كالرازى والمجوسى وهذا العلم يخدم الناس فى داخل المستشفيات وخارجها .

تعقيب :

مما سبق عرضه خلال الحديث عن علم الصيدلة والكيمياء فى كل من الشام والعراق ، نلاحظ وجودهما فى كلا الإقليمين بصفة أساسية كعلم الطب سواء بسواء، فارتباط الصيدلة بالطب أمر ضرورى وحتمى فى الشام وفى العراق والارتباط وثيق بين العلمين وبين الكيمياء .

كما يلاحظ أن فيهما أوجه اتفاق أكثر من أوجه الاختلاف كمحاولة استقلال الطب عن الصيدلة ولكل مهنته ، فللطبيب مهنة وللصيدلة مهنة أخرى وذلك واضح فى كلا الإقليمين . كما يتفقان أن منهما علماء مارسوا مهنة الطب ومنة الصيدلة فى وقت واحد كالرازى وعلى بن العباس ممثلا لأطباء العراق[1]، وكأبى عبد الله التميمى المقدسى وجبرائيل بن عبيد الله ممثلا لأطباء وصيادلة الشام[2].

كما يتفق الجانبان فى وجود اختبار لكل من يريد أن يعمل فى الصيدلة يسمى امتحان أمانة الصيادلة ، وأن يكون لكل بيمارستان شيخ صيدلى سواء فى الشام أو العراق .

كما يتفق صيادلة الشام وصيادلة العراق فى التصنيف ، فكل منهما يجعل فى كتبه الطبية جانباً كبيراً للحديث عن الصيدلة أى الأدوية والعقاقير الطبية والمستحدثات الطبية المستخدمة فى علاج المرضى . ككتب الرازى فقد حوت الكثير عن علم الصيدلة وكتب التميمى أيضاً قد حوت الكثير عن علم الصيدلة .

كما ارتبط علم الصيدلة بالطب والكيمياء ولكنها قد نضجت على يد العرب المسلمين قبل القرن الرابع وفى القرن الرابع أيضاً .

---

(١) انظر كتاب الحاوى للرازى جعل منه جزءاً للصيدلة وكذلك المجوسى فى كتابه كامل الصناعة .

(٢) انظر كتب ورسائل التميمى وجبرائيل تجد لهما كتباً ورسائل مستقلة فى الصيدلة .

إنجازات علماء الشام فى علم الصيدلة والكيمياء :

حقق علماء الشام خلال القرن الرابع الهجرى انجازات ملحوظة فى علم الصيدلة والكيمياء كغيرهم من علماء العراق ، ولكن المصادر التى تحدثت عن ذلك قليلة مما يجعل الحصول على أمثلة متعددة ونماذج متكررة أمرا ليس سهلاً .

ورغم ذلك لا يستطيع أى باحث أن يبخس مكانة علماء الشام ، إسهامهم فى علم الصيدلة والكيمياء خلال القرن الرابع ، خاصة وأن علم الصيدلة أحدث تطوراً وتقدمًا فى القرن الرابع سواء فى انتشار الصيدليات أو الرقابة على الأدوية أو جعل شيخ صيدلى فى كل بيمارستان ، أو البراعة فى معرفة الأدوية وإجراء امتحاناتها على الحيوانات قبل التصريح بصلاحيتها للآدميين ، وكذلك عل الكيمياء .

إن انجازات أى فريق بحث لا يأتى من فراغ بل بعد جهد شاق وعمل مستمر وتجارب عديدة ، ثم بعد ذلك تأتى الثمرة المرجوة ، فإن علماء الصيدلة والكيمياء فى الشام قد حققوا إسهامات شهد لهم بها الجميع .

فهذا جبرائيل بن عبيد الله المتقن لصناعة الطب ، الجيد فى أعماله ليس فى الطب وحده بل والصيدلة والكيمياء وتحضير وتركيب الأدوية النافعة ، فقد استطاع أن يوقف نزف الدم بناءً على ترتيب رتبه ودبره ، وعمل له معجون يشربه المريض فيبرأ من المرض ، وفى سنة ٣٥٧هـ استطاع أن يعالج مرض المفاصل والنقرس وضعف الأحشاء عند عضد الدولة فركب له جوارشن تفاحى فانتفع به(١) .

وكان لأبى عبد الله المقدسى معرفة جيدة بالنبات وماهيته والكلام فيه ، وكان متميزاً أيضًا فى صناعة الطب فجمع بين أن يكون طبيبًا وصيدلياً وكيميائيًا وله خبرة فاضلة فى تركيب المعاجين والأدوية المفردة ، واستقصى معرفة أدوية الترياق الكبير الفاروق وتركيبه ، وركب منه شيئا كثيراً على أتم ما يكون من حسن الصنعة ، وله عناية تامة فى حسن اختيار الأدوية ، وما يعالجه بها من المفردات والمركبات ، وعمل له عدة معاجين ولخالخ طبية ، ودخنًا دافعة للوباء ، كما صنف وركب ترياقًا سماه

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٧٣/٢ ـ ٧٤ .

مخلص النفوس ، وقال فيه : ترياق ألفته بالقدس وأحكمت تركيبه ، وهو دافع لضرر السموم‍ات القاتلة المشروبة والمصبوبة فى الأبدان ، بلسع ذوات السم من الأفاعى والثعابين وأنواع الحيات ، والعقارب ، ثم ساق مفرداته وصورة تركيبه فى كتابه المسمى (بمادة البقاء)[1] . كما أن له كتبًا أخرى فى الصيدلة سبق أن ذكرناها فى علم الطب كالمرشد إلى جواهر الأغذية ، ورسالة فى صنعة الترياق ، وكتاب آخر فى الترياق[2] .

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٣/٣ ـ ١٤٦ .

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٦/٣ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٢٤٧/٣ ، ٤٠/٦ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٦٦/٣ .

انجازات علماء العراق فى علم الصيدلة والكيمياء :

لقد حقق علماء العراق خلال القرن الرابع الهجرى إنجازات فى علم الصيدلة والكيمياء لم يحققها أحد من قبل ، فقد برعوا فى معرفة الأدوية سواء كانت من أصل نباتى أو معدنى أو حيوانى ، فنلاحظ أن من انجازات أبى بكر الرازى ت ٣٢٠هـ أنه ابتكر خيوط الجراحة(١) وأول من عمل مراهم الزئبق ، كما استخدم الأفيون فى حالات السعال الشديد والجافة(٢) ، وفى حالات الإسهال الحاد(٣) ، وعالج مرض السل بالحليب والسكر وعالج التهاب الصدر بالخمر ، وأدخل طريقة التبخير فى العلاج وعالج الاستسقاء بالإسهال وإدرار البول(٤) .

كما صنف على بن العباس المجوسى فصولاً فى كتبه عن أصناف الأدوية وتأثيراتها ، نباتية مثل الرياحين أو معدنية مثل أنواع الحجارة والأملاح والزاجات ثم الحيوانية ، وأثر السموم فى القوى الطبيعية المدبرة للبدن(٥) .

لقد أدخل الرازى إلى علم الصيدلة استعمال الملينات وتطبيق المركبات الكيميائية على الطب ، وهو مخترع الفتائل ، فكان يكثر من استعمالها(٦) ، وإن ما اتصف به الرازى من فكر منظم ومعرفة متسقة جعل منه أول واضع لخطه فى تصنيف المواد التى استعملها الكيميائيون آنذاك معتمداً فى تصنيفه على خواص المركبات الطبيعية ، ويعتبر دون شك مؤسس علمى الكيمياء العلاجية والعقاقير ، كما اعتبره « هولميارد » أكثر حذقًا فى معرفة المواد الكيميائية من جابر بن حيان ، ويقول « بأن الرازى قد بزّ جابر بن حيان فى وصف الأجهزة والمواد الكيميائية ، وكان أكثر تدبيراً وتنظيماً »(٧) .

وقد نعته كثير من المؤرخين للحضارة الإسلامية بأنه مؤسس علم الكيمياء الحديثة

---

(١) تاريخ الطب للدكتور فرج محمد الهونى ص١٣٧ .

(٢) كتاب من لا يحضره طبيب لأبى بكر الرازى ص٤٣ .

(٣) الحاوى فى الطب لأبى بكر الرازى ١٧٠/٦ .

(٤) كتاب من لا يحضره طبيب لأبى بكر الرازى ص٥٢ .

(٥) مختصر الدول لابن العبرى ص١٧٠ ـ ١٧٢ .

(٦) تاريخ العرب العام لسيديو ، ترجمة عادل زعيتر ص٣٨٥ .

(٧) Alchemy Pelikan Books, 1956, Holmyard, E. J, P. 110 .

في الشرق والغرب ، ولعل أهم أسس انجازاته في الكيمياء تتلخص في : « قناعته التامة في أن شفاء المريض يرجع إلى إثارة التفاعلات الكيميائية داخل جسم الإنسان ، ومحاولاته الجدية في تخليص الكيمياء من شوائب الخرافات السائدة والغموض والإبهام والطلاسم ، تصنيف مؤلفات منظمة بمصطلحات دقيقة ، سهلة الفهم ، بينما تميزت مؤلفات معاصريه في الكيمياء بالغموض والإبهام والرمزية ، وقد قسم المواد المستعملة في الكيمياء إلى مواد ترابية ونباتية وحيوانية[١] .

كما ميز بين الصيدلة والطب وبين عمل الصيدلي وعمل الطبيب ، وحاجة كل منهما إلى الآخر ، وخالف الرأى القائل بأن الصيدلة فرع من فروع الطب ، وأن على الطبيب واجب معرفة الأدوية والعقاقير بالشكل الذى يعرفه الصيدلي ، وقال : أن المعرفة بالأدوية وتمييزها جيدها ورديئها وخالصها ومغشوشها ، وإن كان ليس بلازم ضرورة كما يحسبه جهال الناس ، فهو أحرى وأزين بها ، ولذلك رأيت أن أجمع هذا الفن وإن لم يكن جزءاً من الطب ضرورياً في كتاب يخصه ، ليعرف ويجتمع الذى خصصها كل واحد منها بكتاب[٢] .

لقد عرض كتاب (الحاوى في الطب للرازى) لكل الأمور المتعلقة بالأدوية فقد وردت فيه وصفات طبية كثيرة لمعالجة كثير من الأمراض وخصص الجزء الثانى والعشرين للأدوية[٣]، وكذلك خصص الجوسى المقالة الثانية من كتابه (كامل الصناعة الطبية) لموضوع الأدوية فتناول فيها الخصائص والفوائد وكيفية اختيارها وذكر الحبوب والبذور والأوراق والثمار والعصارات والصموغ والأدوية المعدنية والحيوانية ، وكل ما يتعلق بالأدوية والعقاقير[٤] .

كما سجل على بن العباس المجوسى في كتابه طرقاً كثيرة لامتحان الدواء ، ومنها استعمال التسخين بالنار ، وخاصة في امتحان الزيوت ، والمواد المراد سحقها لكى

---

(١) الكيمياء في الحضارة الإسلامية للدكتور على جمعان الشكيل ص٥٥ ـ ٥٧ .

(٢) الحاوى في الطب ١/٢ في الصيدلة .

(٣) تاريخ الطب للدكتور فرج محمد الهونى ص٢٤٣ .

(٤) الطب والصيدلة عند العرب للدكتور ياسين خليل ص١٩٥ .

تصبح مسحوقاً ناعماً ، والطعم أيضاً كالطعم الحلو والمرّ والدسم والمالح والقابض[1] .

وكان الرازى يجرب كل العقاقير الجديدة قبل أن يصفها للناس ، فيدرس تأثيرها على الحيوان ويخلص إلى النتائج التى يستصوبها[2] .

لقد ابتكر علماء العراق كثيراً من الأدوية كالكافور والصندل وغيرهما كثير ، وقد عال ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الوزير بن مقلة بعد أن قطعت يده فعالج موضع القطع بالكافور والصندل وماء الورد[3] .

مما سبق نكون قد بينا قدراً من انجازات علماء العراق فى علمى الصيدلة والكيمياء خلال القرن الرابع ، بجانب انجازاتهم فى علم الطب .

تعقيب :

لقد كشف الحديث عن انجازات علماء الشام وعلماء العراق أن لكل منهما جهداً بارزاً ومعروفاً ومشهوراً فى مجال الصيدلة والكيمياء ، لذلك لا نستطيع أن نفرق بينهما من حيث الانجازات اللهم إلا فى الكم ، وذلك متوقف على مدى إمداد المصادر لنا بالمعلومات ، حيث نجد الحديث عن العراق كالعادة باستفاضة سواء فى الحديث عن العلماء أو الانجازات أو العمل بالبيمارستانات أو الصيدليات أو النظم المتبعة فى ذلك ، أما الشام فالحديث عنها بقدر قليل وضيق بين السطور .

فكل من علماء الشام والعراق قد اكتشفوا أدوية جديدة عديدة كما سبق أن وضحنا ، فقد توصل علماء الشام إلى عمل الترياق لعلاج السم ، وغيره من الأمور ، وكذلك علماء العراق قد توصلوا إلى استعمال الملينات وتطبيق المركبات الكيماوية على الطب .

كما يظهر لنا أن كُلاً من علماء الشام والعراق لهم انجاز كبير ومشهود فى المصنفات العلمية سواء فى مجال الطب أو مجال الصيدلة والكيمياء فلهم فى الأدوية المفردة والأغذية وتركيب الأدوية .

---

(١) كامل الصناعة الطبية لعلى بن العباس المجوسى ٨٦/١ .

(٢) إسهام علماء العرب والمسلمين فى الصيدلة للدكتور على الدفاع ص١٣٣ .

(٣) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢١٠/٢ .

فقد يتساوى كل من الإقليمين فى الكيف أما الكم فإن العراق تستطيع أن تحتل مكانة مرموقة فى كمّ المصنفات والرسائل والأعمال التى قد توصلوا إليها لخدمة علم الطب والصيدلة والكيمياء ، فقد كان لأبى عبد الله المقدسى خبرة فاضلة فى تركيب المعاجين والأدوية المفردة ، واستقى معرفة أدوية الترياق الكبير وتركيبه(١) .

وإن كتاب الرازى المسمى (سر الأسرار)(٢) الذى كان بالغ الاهتمام فى ظهور علم العقاقير الكيميائية ، فقد احتوى كتابه على معرفة العقاقير ومعرفة الآلات ومعرفة التدابير ، أما معرفة العقاقير فهى عقاقير ترابية وعقاقير نباتية وعقاقير حيوانية ، أما معرفة الآلات فقد ذكر أسماء وأوصاف مجموعة من الأدوات والأجهزة المستعملة فى صهر المعادن أو فى تحضير الأشكال الصيدلانية . وأما معرفة التدابير ، فيقصد بها مجموعة الأعمال الكيميائية والصيدلانية المؤدية لتحضير الأدوية أو المركبات الكيميائية ، وقد قسمها الرازى إلى تدابير التنظيف والتشميع والحل أو الإذابة والعقد ويقصد به الخلاصة السيالة أو المحلول قواماً لينا أو نصف صلب بواسطة التبخير غالباً(٣) .

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٣/٣ ـ ١٤٦ .

(٢) نشر هذا الكتاب سنة ١٩٥٧م بعناية عبد الله كريموف ، طشقند طبعة المجمع العلمى الروسى فى ١٩١ صفحة ، انظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ١٣/٣ .

(٣) إسهام علماء العرب والمسلمين فى الصيدلة للدكتور على الدفاع ص٢٢٠ ـ ٢٢٢ .

من مشاهير علماء الصيدلة والكيمياء فى الشام :

إن مشاهير علماء الصيدلة والكيمياء فى الشام هم أنفسهم مشاهير علم الطب ، فقد مارسوا مهنة الطب ومعها الصيدلة والكيمياء والدليل على ذلك مصنفاتهم العلمية التى حوت فى حديثها الكلام عنهم .

ولكن عند الحديث عن هؤلاء العلماء هنا نقصر الحديث على أعمالهم فى فن الصيدلة والكيمياء .

ـ جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع ت ٣٩٦هـ، المتقن لصناعة الطب والصيدلة والكيمياء ، وكان غير مستقر فى مكان بعينه فكان كثير التنقل بين الشام والعراق وغيرهما ، ورغم ذلك فإن دوره بارز ومشهور فى الصيدلة بشهرته فى الطب . فهو صاحب المعجون الشهير لايقاف نزيف الدم ، وصاحب علاج ألم المفاصل والنقرس وضعف الأحشاء عن الجوارشن التفاحى[١] .

وله كتب ورسائل متعددة قد سبق ذكرها فى ترجمة مبحث الطب .

ـ وأبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى ت ٣٧٠هـ، الطبيب المعروف المشهور والصيدلى المجدد ، وصاحب الرحلة المتعددة بين الشام والعراق وغيرهما .

وصاحب المؤلفات والرسائل العلمية فى الطب والصيدلة والكيمياء ، وقد سبق الحديث عنها وذكرها فى مبحث الطب .

فأبو عبد الله المقدسى صيدلى مشهور بسبب ما قدمه لعلم الصيدلة من إنجازات علمية وخبرة فى تركيب المعاجين والأدوية المفردة وصاحب (الترياق الكبير الفاروق) ضد السم الناقع ، وصاحب اللخالخ الطبية ، وصاحب ترياق مخلص النفوس الذى ألفه بمدينة القدس بالشام[٢] ، وقد سبق الحديث بإفاضة فى مبحث الطب وعند الحديث عن انجازات علماء الشام فى علم الصيدلة والكيمياء .

كما كان لأبى عبد الله المقدسى غرام وعناية تامة فى تركيب الأدوية وعنده غوص على أمور هذا النوع واستغراق فى طلب غوامضه وهو الذى أكمل الترياق الفاروق بما زاده فيه من المفردات وذلك بإجماع الأطباء[٣] .

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٧٣/٢ ـ ٧٤ .

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٣/٣ ـ ١٤٦ .

(٣) أخبار الحكماء للقفطى ص٧٤ .

من مشاهير علماء الصيدلة والكيمياء فى العراق

إن مشاهير علماء الصيدلة خلال القرن الرابع الهجرى بإقليم العراق هم أنفسهم مشاهير علم الطب رغم أن منهم من دعا لفصل علم الطب عن الصيدلة ـ أبو بكر الرازى ـ ورغم ذلك فقد جمع بين الاثنين لما لهما من ارتباط وثيق ولا يستغنى أحدهما عن الآخر غير أن العالمين بهما كلّ له عمله ومنهجه وموضوعاته وتخصصاته.

ولقد سبق الحديث عن هؤلاء العلماء فى مبحث الطب ، ولكن نكتفى هنا بذكر أشهر أعمالهم فى علم الصيدلة التى تثبت شهرتهم وتفوقهم على من دونهم من العلماء .

ـ **فأبو بكر الرازى ت ٣٢٠هـ** ، أول من عمل مراهم الزئبق ، واستخدم مادة الأفيون فى حالات السعال الشديد ، واستخدم الحليب والسكر فى مرض السّل[١]. واخترع الفتائل وابتكر كثيراً من الأدوية كالكافور والصندل وغير ذلك[٢]، وخصص الجزء الثانى والعشرين من كتاب « الحاوى فى الطب » للأدوية[٣]. وقد استفضنا فى حديث عنه خلال مبحث الطب .

ـ **وعلى بن العباس المجوسى** ، قد صنف فى الأدوية وأصنافها وتأثيراتها نباتية أو معدنية أو حيوانية[٤]. وخصص المقالة الثانية من كتابه « كامل الصناعة الطبية » لموضوع الأدوية ، فتناول فيها الخصائص والفوائد وكيفية اختبارها وذكر الحبوب والبذور والأوراق والثمار والعصارات والصموغ والأدوية المعدنية والحيوانية وكل ما يتعلق بالأدوية والعقاقير[٥].

ـ **وماسويه الماردينى ت ٤٠٦هـ** ، الذى عاش فى بغداد والقاهرة ، وله مؤلف ضخم فى العقاقير فى اثنى عشر جزءاً ، وشاع واشتهر اشتهاراً واسعاً فى الصيدلة[٦].

---

(١) انظر كتاب « من لا يحضرُه طبيب » للرازى ص ٤٣ ، ٥٢ .

(٢) تاريخ العرب العام لسيديو ، ترجمة عادل زعيتر ص٣٨٥ .

(٣) تاريخ الطب للدكتور فرج محمد الهونى ص٢٤٣ .

(٤) مختصر الدول لابن العبرى ص١٧٠ ـ ١٧٢ .

(٥) الطب والصيدلة عند العرب للدكتور ياسين خليل ص١٩٥ .

(٦) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان على ص٦٦ .

ـ **وأحمد بن محمد بن أبى الأشعث** ، كان فاضلاً فى العلوم الحكمية متميزاً فيها أقام بالموصل إلى آخر عمره ، واتخذ له تلاميذ عدة وله من الكتب كتاب الأدوية المفردة ثلاث مقالات ، وله كتاب فى القولنج وأصنافه ومداواته والأدوية النافعة منه مقالتان ، وكتاب فى تركيب الأدوية(١).

تعقيب :

إن قرب الجوار بين الإقليمين سهّل أمر الرحلة وأمر التعليم والتعلم والتأثير والتأثر ، والملحوظ فى علم الصيدلة والكيمياء أن كثيراً من علماء الشام بعد أن نشأ واستقر فى بلاد الشام رحل إلى العراق واستقر بها وسمع من علمائها ودَرّس فيها وعمل بالبيمارستانات العراقية كأبى عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى ، وأبو الحسن بن كشكرايا الذى كان فى خدمة سيف الدولة الحمدانى وقد تتلمذ على يد سنان بن ثابت بن قرة ثم استخدمه عضد الدولة فى البيمارستان العضدى ببغداد(٢).

وكذلك أبو عبد الله التميمى المقدسى تنقل بين الشام والعراق وقرأ علم الطب والصيدلة والكيمياء بالمدن التى ارتحل إليها فقد تأثر فى رحلته إلى العراق حيث صنف كتبًا فى الشام ودخل بها العراق فاستفاد بها أهل الشام وأهل العراق ككتاب الترياق الذى ألفه بالقدس(٣). هذا من جانب علماء الشام .

أما من جانب علماء العراق فلم يسعفنا البحث فى إيجاد أحد من علماء العراق فى علم الصيدلة خرج من العراق ودخل الشام وهذا أمر مستحيل فإنه لابد أن يكون حدث تأثير وتأثر من كلا الجانبين ولكن المصادر لم تسعفنا فى ذلك خلال القرن الرابع الهجرى .

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٤٧/٢ ـ ٢٤٨ .
(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٢٢٥/٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ .
(٣) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٤٦/٣ .

الفصل الرابع

العلوم الرياضية فى الشام والعراق

المقصود بالعلوم الرياضية :

عـرف العـرب العلم الرياضى بأنه : علم غـرضـه إدراك المقـادير ، وأطلقـوه على الحساب والجبر والمقابلة والمثلثات ، والهندسة والفلك .

وقد اشتغل بها العرب والمسلمون منذ عهد مبكر من العصر العباسى ، فى نفس الوقت الذى كانوا يبحثون فيه فى علم الفلك ، وبرعوا فيه وابتكروا فيه نظريات وطرائق خدموا بها الإنسانية عبر العصور ولو لم تكن ابتكاراتهم واكتشافاتهم فى هذا لما رأينا تلك المخترعات الكثيرة المتنوعة التى تسعد بها الإنسانية .

فعلم الحساب : عرفوه بأنه علم الأعداد ، واشتقوا اسمه من كلمة الحساب المصدرية ، ومعناها العدد[١] . ومنفعته ضبط المعاملات وحفظ الأموال وقضاء الديون وقسمة الشركات وهو ما يحتاج إليه فى سائر العلوم[٢] .

وعلم الجبر : قال ابن خلدون : علم الجبر والمقابلة من فروع علم العدد وهو صناعة يستخرج بها العدد المجهول من العدد المعلوم إذا كان بينهما صلة تقتضى ذلك[٣] . ولم يصبح علماً حتى اشتغل به العرب [٤] .

وعلم الهندسة : هو النظر فى المقادير ، إما المتصلة كالخط والسطح والجسم ، وإما المنفصلة كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين[٥] .

وعلم المثلثات : هو فرع من فروع الرياضيات ، يبين النسب بين أضلاع المثلث وزواياه وهو مدين للعرب بما أدخلوه عليه من تحسينات كثيرة ، اكتسب بها شكلاً جديداً وصار صالحاً لتطبيقات ، كان الأغارقة لا يقدرون عليها إلا بشق الأنفس[٦] .

---

(١) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية للدكتور أحمد على الملا ، ص١٥٢ .

(٢) تعريفات العلوم وموضوعها ، مخطوط لعبد الله بن عمر البيضاوى ، ت٥٨٥هـ (الورقة الثالثة) .

(٣) مقدمة ابن خلدون ، ١١٢٨/٣ .

(٤) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ، ص١٤٠ .

(٥) مقدمة ابن خلدون ١١٣١/٣ وتعريفات العلوم وموضوعها مخطوط لعبد الله بن عمر البيضاوى ، ت٦٨٥هـ الورقة (٢)

(٦) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية للدكتور أحمد على الملا ص١٦٠ .

وعلم الفلك أو الهيئة : علم ينظر فى حركات الكواكب الثابتة (فى رأى العين) والمتحركة والمتحيرة ، ومن فروعه علم الأزياج ، والزيج جدول فيه حساب مواقع النجوم والكواكب واحداً واحداً مع حسبان حركاتها فى كل زمن وكل وقت(١) .

العلوم الرياضية قبل القرن الرابع الهجرى فى الشام والعراق :

برع العرب فى الشام والعراق قبل القرن الرابع الهجرى فى العلوم الرياضية وأضافوا إليها إضافات هامة أثارت الإعجاب والدهشة ، مما جعل لهم فضل على البشرية ولهم أثر واضح فى تقدم العلم والعمران .

فعلم الحساب مثلا حتى صدر العصر العباسى كان العرب إذا احتاجوا إلى تدوين عدد دوّنوه بالكلمات (أربعمائة ـ وأربعة دنانير) أو بحساب الجمل أى بالأحرف ولكنهم بعد ذلك وخلال القرن الثالث الهجرى أخذ العرب الأرقام الهندية فوحدوها وهذبوها واستخدموها فى الترقيم (تدوين الأعداد) وفى المسائل الحسابية(٢) .

كما عرف العرب أيضًا (الصفر) واستعملوه فى الترقيم ، كما استعملوه فى المنازل الخالية من الأرقام ، وقد استعمل الخوارزمى محمد بن موسى الذى عاش فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجرى الأرقام الهندية فى كتابه الجبر والمقابلة(٣) . ولسنا فى حاجة إلى القول أنه لولا الصفر واستعماله فى الترقيم لما فاقت الأرقام العربية والهندية غيرها من الأرقام ، ولما كان لها أية ميزة ، بل لما فضلتها الأمم المختلفة على الأنظمة الأخرى المستعملة فى الترقيم(٤) .

وباستخدام الأرقام والصفر هان حل المسائل الحسابية وتدوين الكسور العادية والعشرية وأمكن بناء المعادلات(٥) .

علم الجبر : إذا ذكر علم الجبر فى أى مكان فالفضل يرجع لمحمد بن موسى

(١) مقدمة ابن خلدون ١٣٤/٣ ـ ١١٣٥ .

(٢) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٣) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان ص٤٠ .

(٤) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ص٤٩ .

(٥) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر غروخ ص١٣٣ .

الخوارزمى ت٢٣٢هـ فهو واضع علم الجبر بوضع كتابه « الجبر والمقابلة » بتكليف من الخليفة العباسى المأمون فى أوائل القرن التاسع الميلادى ـ الثالث الهجرى وما كان ينشر هذا الكتاب إلا واستفاد به وسار على دربه أهل العراق والشام وغيرهما بل وكل العرب وأخذوا عنه كثيراً من النظريات[1].

واستعمل الخوارزمى الجبر بشكل مستقل عن الحساب ، وفى قالب منطقى علمى . وقد اعتمد العلماء العرب فى دراستهم عن الجبر على كتاب الخوارزمى .

ففى بغداد بل والعالم الإسلامى وخاصة الجانب الشرقى عمّ استعمال الأرقام العربية أو الهندية وأصبحت شائعة حتى بعد القرن الثالث ، وكذلك فى أمر الجبر بقى كتاب الخوارزمى زمناً طويلاً مرجع العلماء والتجار والحاسبين حتى بعد القرن الثالث والرابع الهجريين[2].

كما جمع ثابت بن قرة ت٢٨٨هـ بين الهندسة والجبر واستخدم الجبر فى بعض الأعمال الهندسية ، كما استخدم لحل بعض الأعمال الجبرية ، فالعرب بذلك واضعو أساس الهندسة التحليلية[3].

إن الدافع الأساسى وراء ابتكار الخوارزمى للجبر هو علم الميراث المعروف بعلم الفرائض ، حيث إنه ابتدع طرقاً جبرية لتسهيل هذا الحقل[4].

علم الهندسة ، ظهر فيه كتاب مترجم لليونانيين هو كتاب أقليدس ، ويسمى كتاب الأصول أو كتاب الأركان ، ولم يستطع أحدٌ بعد إقليدس الذى دوّن علم الهندسة أن يزيد هذا العلم شيئًا أساسيًا وأعظم أفضال علماء الشام والعراق والعرب كلهم على الهندسة أنهم اهتموا بها حينما أهملتها الشعوب كلها ، ثم حفظوها من الضياع حتى وصلت إلى القرن الرابع الهجرى[5] .

---

(١) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية للدكتور أحمد على الملا ص١٥٣ .

(٢) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية للدكتور أحمد على الملا ص١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٣) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ص٥٢ .

(٤) نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات للدكتور على الدفاع ص٣٤ .

(٥) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٤٦ ـ ١٤٧ .

علم المثلثات ، جعل العرب قبل القرن الرابع الهجرى من علم المثلثات علمًا خاصًا عن علم الفلك ، بشكل منظم وعلمى ، ولا يخفى ما لهذا العلم من أثر فى الاختراع والاكتشاف ، وفى تسهيل كثير من البحوث الطبيعية الهندسية والصناعية[1] . وقد نظم العرب المعارف المتعلقة به والتى تناولوها من الهنود خاصة ، ثم جعل منه علم خاص مستقل[2] .

علم الفلك ، لم يكن للعرب اهتمام برصد الكواكب والنجوم ، لا بحساب حركاتها على منهج علمى وقواعد ثابتة حتى جاء العصر العباسى واتسعت حركة النقل والترجمة استطاع العلماء أن يقيسوا درجة واحدة من محيط الأرض على الدائرة العظمى . واشتغل الخوارزمى بالفلك وصنع زيجًا بناه على السندهند ، وكان له أثر كبير فى الشرق والغرب[3] .

وقد اهتم أهل دمشق ببناء المراصد الفلكية ، وكذلك أهل العراق فى بغداد ، واخترعوا وطوروا آلات الرصد المختلفة من الاسطرلابات وغيرها ، ذات الأوتار ، وذات الحلق والآلة الشاملة ، ومناظير متنوعة ، واعتنوا بتكبيرها وتصغيرها حسب الضرورة[4] .

مما سبق نستطيع القول بأن العرب وليس أهل الشام والعراق وحدهما قد برعوا فى العلوم الرياضية قبل القرن الرابع الهجرى ، وهذا معناه أن القرن الرابع سيشهد تقدمًا أكبر من ذلك بل سيشهد ازدهارًا فى العلوم الرياضية وتطورًا ملحوظًا سواء على يد علماء الشام أو يد علماء العراق .

---

(١) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ص٥٨ .

(٢) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٥٨ .

(٣) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٦٢ .

(٤) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان ص٣٤ ـ ٣٥ .

مآثر العلماء فى العلوم الرياضية فى القرن الرابع الهجرى :

أولاً : فى الشام :

لقد برع علماء الشام كغيرهم فى العلوم الرياضية خلال القرن الرابع الهجرى وأجادوا فيها ، وأضافوا إليها آثارا هامة تثير الإعجاب والدهشة .

ففى علم الحساب : استطاع أحد علماء الشام أن يضع علامة الكسر العشرى وقد ابتكر هذا العمل أبو الحسن أحمد بن إبراهيم الإقليدس ت بعد ٣٤١هـ ويُعد هذا أهم ما ابتكره المسلمون فى مجال الحساب[١] . حيث قد نظر فى كتب من تقدم من العلماء بحساب الهند من الحُسّاب ولقى الحذق منهم وقرأ ما كتبوا ، وقد نقل جميع حساب الروم والعرب ، وله كتاب مشهور فى ذلك « الفصول فى الحساب الهندى »[٢] .

كما كان أبو القاسم الأنطاكى ٣٧٥هـ قيما بعلم العدد والهندسة غير مدافِع فى ذلك[٣] ، ولقد برع فى العلوم الرياضية أبو نصر الفارابى وهو من علماء الشام من جعل علم العدد علمين هما : علم العدد العملى وعلم العدد النظرى ، فأما العملى فيبحث عن الأعداد من حيث هى أعداد معدودات ، وأما النظرى فإنه يفحص عن الأعداد بإطلاق على أنها مجردة من الذهن عن الأجسام ، وعن كل معدود منها[٤] .

لقد بحث علماء الشام فى الأعداد وأنواعها وخواصها ، وتوصلوا إلى نتائج طريفة فيها متاع وانتفاع ، ومن هذا يتجلى لنا قوة الاستنتاج عندهم .

وأما **علم الجبر** : فقد اشتغل به علماء الشام فى القرن الرابع الهجرى وقد وضعوا نظريات هامة وأضافوا بحوثا مبتكرة فى الجبر ، من هؤلاء أبو عبد الله البتانى

---

(١) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان على ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) انظر مخطوط « الفصول فى الحساب الهندى » الورقة الأولى لأبى الحسن أحمد بن إبراهيم الإقليدس ، نسخة بمعهد المخطوطات برقم ١١٣ رياضيات .

(٣) أخبار الحكماء للقفطى ص١٥٧ .

(٤) حضارة العراق للدكتور ياسين خليل ٤٠٩/٨ نقلا عن كتاب الفارابى (إحصاء العلوم) .

ت٣١٧هـ فهو أول من عمل الجداول الرياضية لنظير المماس[١] ، وهو أول من أدخل علم الجبر على حساب المثلثات بدلاً من الهندسة[٢] .

وأما علم الهندسة : برع علماء الشام فى علم الهندسة ، وشرحوا قضاياها وفرّعوا منها وألفوا فيها المصنفات ، وكان اهتمامهم بالناحية العملية أكثر من اهتمامهم بالناحية النظرية[٣] . وكان من بين المهتمين بهذا العلم محمد بن جابر البتانى ، حيث اشتهر بتقدمه فى علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحساب النجوم[٤] . وكذلك على بن أحمد الأنطاكى كان يقوم بعلم العدد والهندسة[٥] ، وقد اهتم الأنطاكى بتفسيره كتاب إقليدس فى علم الهندسة وهو كتاب الأصول الهندسية أو الأركان الهندسية ويحتوى على خمس عشرة مقالة ، منها أربعة مقالات فى السطوح الهندسية ومقالة فى المقادير المتناسبة وأخرى فى نسب السطوح بعضها إلى بعض ، وثلاث مقالات فى العدد والتمثيل الهندسى ومقالة فى المنطق ، وخمس مقالات فى المجسمات[٦] .

وأما علم المثلثات : فقد تناوله علماء الشام أيضًا وجعلوه علمًا خاصًا مستقلاً عن علم الفلك ، وقد ساعد البتانى على أن يصبح علم المثلثات علمًا مستقلاً ، فقد ترك الحساب بالوتر ـ كما كان يفعل بطليموس ومن بعده ـ وفضل حساب الهنود بالجيب (بنصف الوتر) ، فكانت عبقرية البتانى فى أنه فضل طريقة قليلة الشهرة صحيحة على طريقة شائعة مشهورة ، ولكن أقل صحة ، وهو أول من وضع جداول للظل التام[٧] .

وقد استعمل البتانى الجيوب بدلاً من أوتار مضاعف الأقواس ، وهذا مهم جدًا فى الرياضيات ، وأن الملمين بالمثلثات ليدركون أهمية ادخال الجيب ويرون ابتكارًا

---

(١) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ص١٢٢ .

(٢) نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات للدكتور على الدفاع ص١٢٨ .

(٣) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٤٧ .

(٤) أخبار الحكماء للقفطى ص١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٥) أخبار الحكماء للقفطى ص١٥٧ .

(٦) نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات للدكتور على الدفاع ص ٥٣ .

(٧) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٥٩ .

ساعد على تسهيل المثلثات كما يعتبرونه تغييراً ذا شأن فى العلوم الرياضية ، وعرف أيضاً القانون الأساسى لاستخراج مساحة المثلثات الكرية ، وأوجد اصطلاح جيب تمام الزاوية ، كما استخدم الخطوط المماسة للأقواس وأدخلها فى حساب الأرباع الشمسية وسماها الظل الممدد ، وهو المعروف بخط المماس(١).

وأما **علم الفلك** : فإن لعلماء الشام فى القرن الرابع الهجرى فضل كبير على علم الفلك ، فقد جعلوه رياضيًا مستنداً على أعمال الأرصاد ، وعلى الأصول الحسابية والهندسية لتعليل الظواهر الفلكية والكونية فهو علم يعلم فيه أحوال الأجرام البسيطة العلوية والسفلية وأشكالها وأوضاعها ومقاديرها وأبعاد ما بينها وحركات الأفلاك والكواكب ومقاديرها(٢).

وكان هدفهم فى ذلك امتحان الإرصادات القديمة التى قام بها من سبقهم من الأمم الأخرى ، فأدى مفهوم الامتحان المنهجى لعلماء العرب إلى التوصل إلى نتائج جديدة تختلف عن النتائج التى توصل إليها سابقوهم ، فقد فاقوا من سبقهم ، بل إن شغفهم بمراقبة النجوم والشمس والقمر أدى إلى تقدم علم الفلك(٣).

لقد استطاع البتانى أن يدرس تأليف بطليموس ، ويقف على دقائق أموره وينتقد بعض النظريات فى مؤلفاته ، ويصلح بعضها ، وقد بيّن حركة الذنب للأرض ، وأصلح قيمة الاعتدالين الصيفى والشتائى ، وقيمة ميل فلك البروج على فلك معدل النهار ، وحقق مواقع كثير من النجوم ، وقد صحح بعض حركات القمر والكواكب السيارة ، وخالف بطليموس فى ثبات الأوج الشمسى ، كما أن له أرصاد جليلة للكسوف والخسوف ، ووضع الزيج الصابى وهو من أهم مؤلفاته ، ويعدّ من أصح الأزياج ، وقد اعتمد البتانى فى زيجه على الأرصاد التى أجراها بنفسه فى (الرقة ـ وأنطاكية)(٤).

---

(١) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ص١٢٣ .

(٢) مخطوط الدر المنظوم فى بيان حصر العلوم لأحمد بن عمر بن هلال الربعى ت٧٩٥هـ (الورقة التاسعة).

(٣) أثر العلماء العرب والمسلمين فى تطوير علم الفلك للدكتور على الدفاع ص٢٧ .

(٤) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ص١٢٣ ـ ١٢٤ .

كما اهتم بكتاب المجسطى لبطليموس ، وقد انتقل فى تقسيم بروج السماء من الترتيب الذى كان معروفًا عند العرب إلى الترتيب الذى عرفه الهنود ، كما اشتغل بإصلاح أرصاد القدماء ، إما لأن القدماء أنفسهم قد أخطأوا فى حسبان هذه الأرصاد أو لأن مواقع النجوم قد اختلفت بالإضافة إلى الأرض على طول الزمن[١] .

ومن أهم آلات الرصد « الاسطرلاب » وهو يعتبر آلة يتوصل بها إلى معرفة كثير من الأمور النجومية ، كارتفاع الشمس ومعرفة المطالع وسمت القبلة وعرض البلاد وغير ذلك[٢] .

لقد استطاع علماء الشام أن يقوموا بدور بارز فى خدمة الحضارة الإنسانية وفى تقدم الحركة العلمية التطبيقية ، وتطورت العلوم الرياضية على أيديهم ، وفتحوا آفاقا جديدة فى الفلك بقياساتهم وأرصادهم ونظرياتهم .

ثانيًا : فى العراق :

برع علماء العراق كغيرهم من علماء الشام فى العلوم الرياضية خلال القرن الرابع الهجرى ، وأضافوا إليها آثارًا هامة ، وأحدثوا تطورًا هائلاً فيها أدى إلى خدمة الإنسانية ، ومتطلبات الحياة ، وأحدثوا تقدمًا فى الحركة التطبيقية ، وفتحوا آفاقًا جديدة فيها .

ففى **علم الحساب** : أخذ علماء العراق كغيرهم علم الحساب عن الهنود فوحدوها وهذبوها واستخدموها فى الترقيم وفى المسائل الحسابية ، وجعلوا الصفر دالا على الجزء الخالى من العدد فابتكروا بذلك الخانات ، وباستخدام الأرقام والصفر هان حلّ المسائل الحسابية وتدوين الكسور العادية والعشرية وأمكن بناء المعادلات ، وتناول بعض علماء العراق البحث فى خواص الأعداد من الفيثاغوريين ثم توسعوا فيه كما ترى عند إخوان الصفا ، وقال أن الأعداد قسمان : عاد (وهو الواحد) ومعدودات

---

(١) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٦٤ .

(٢) انظر الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ٣٤٥/٤ ـ ٣٥٤ .

(وهى سائر الأعداد أى باقيها)، كما اهتموا بالمربعات المجذورة وغير المجذورة ، وشغلوا أنفسهم بالمتواليات[1].

لقد بحث علماء العراق كغيرهم فى الأعداد وأنواعها وخواصها ، وتوصلوا إلى نتائج طريفة فيها متاع وانتفاع ، كما يظهر لنا منها أنهم استعملوا مسائل يجد فيها من يحاول حلها ما يشحذ الذهن ويقوى الفكر ، بحثوا فى الأعداد المتحابة والمتواليات العددية والهندسية وقوانين جمعها[2].

وأما علم الجبر : كانت بلاد المسلمين وخاصة بغداد مركز النشاط العلمى ، وكان تأثير الخوارزمى الذى عاشٍ فى القرن الثالث فى الفكر الرياضى أكبر تأثيراً فى علماء القرن الرابع الهجرى ومَن بعدهم . لقد اشتهر علماء العراق بالجبر وأتوا فيه بأعمال جليلة ، حيث وضعوا قواعد للطرق المستخدمة فى البحوث التجريبية الحديثة باستخدام نماذج رياضية ، وكلها مأخوذة إلى حد كبير من رسالة الخوارزمى فى علم الجبر[3] ، وقيل أن علم الجبر لم يخط بعده فى نحو ثلاثة قرون ، خطوة واسعة ،ثم جاء أبو الوفا البوزجانى ت٣٨٨هـ فشرح كتاب زيوفانطس فى الحساب والجبر ، وكتاب الجبر والمقابلة للخوارزمى شرحين جديدين ، وجمع بين المذهب اليونانى والمذهب الهندى[4].

وشرح أيضاً على بن أحمد العمرانى ت٣٤٤هـ كتاب الجبر والمقابلة لشجاع بن أسلم[5].

وأدخل البوزجانى علم الهندسة على علم الجبر ، وابتكر حلولاً جديدة ، مما أدى إلى اكتشاف الهندسة التحليلية ، وعلم التفاضل والتكامل[6] .

---

(١) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٢) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ص٥٠ .

(٣) نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات على الدفاع ص٤٠ .

(٤) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٤٢ .

(٥) أخبار العلماء للقفطى ص١٥٧ .

(٦) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ص١٤٠ .

وأما علم الهندسة : أحدث علماء العراق خلال القرن الرابع الهجرى تطوراً وتقدمًا ملموسًا فى علم الهندسة ، وقد شرحوا قضاياها ، وألفوا فيها المصنفات ، واهتموا بالناحية العملية أكثر من اهتمامهم بالناحية النظرية ، وكان أبو الوفاء البوزجانى من الأئمة المشهورين فى علم الهندسة وله فيها استخراجات مفيدة لم يُسبق بها ، وله فى استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع(١) . وهو الذى اكتشف الهندسة التحليلية ، ووضع كتاباً فى الهندسة « فيما يحتاج إليه الصناع من أعمال الهندسة»(٢) .

وقد سبقه فى ذلك إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة الحرانى ت٣٣٥هـ وله كتاب أو مقالة فى طريق التحليل والتركيب وسائر الأعمال فى المسائل الهندسية وقد رسم فيه طريقًا للمتعلمين بحيث يشتمل على جميع ما يُحتاج إليه فى استخراج المسائل الهندسية(٣) .

لقد برع علماء العرب فى قضايا الهندسة وشرحوها وفرّعوا منها . وعرفوا تستطيح الكرة وألفوا فيه ومارسوه فنقلوا الخُرُط من سطح الكرة إلى السطح المستوى ، ومن السطح المستوى إلى السطح الكروى ، وفى رسائل إخوان الصفا موجز جيد للهندسة ، ولكن إخوان الصفا يتخذون من العلم والفلسفة وسيلة لبث آرائهم الدينية والاجتماعية(٤) .

وأما علم المثلثات : تناول علماء العراق هذا العلم وجعلوه مستقلا عن علم

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦٧/٥ .

(٢) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ١٤٠ ، وقد طبع هذا الكتاب « فيما يحتاج إليه الصناع من أعمال الهندسة » بتحقيق صالح أحمد العلى ببغداد ١٩٧٩ ، انظر المعجم الشامل للتراث المطبوع لمحمد عيسى صالحية ٢١٨/٢ .

(٣) انظر الورقة الأولى من المخطوط برقم ١٣٨ ، رياضيات باسم مقالة فى طريق التحليل والتركيب وسائر الأعمال فى المسائل الهندسية ، نسخة بمعهد المخطوطات العربية عن نسخة (خدا بختش بنته) .
وله رسالة أخرى فى وصف المعانى التى استخرجها فى علم الهندسة وعلم النجوم ، مخطوط رقم ٩٢ ، رياضيات ، نسخة بمعهد المخطوطات العربية عن نسخة (خدا بختش بنته) .

(٤) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٤٧ .

الفلك وحذا فى ذلك حذو أستاذه البتانى ، وقد تقدم العلماء بهذا العلم وساعدوا على ارتقاءه وتقديم الإنجازات العظيمة فى هذا المجال ، وقد نجح فى حساب جداول حساب المثلثات كعلم مستقل بذاته ، ومؤلفاته لها تأثير فى تقدم العلوم ، ولا سيما الفلك والمثلثات وأصول الرسم(١) .

لقد تأسس علم المثلثات على يد علماء القرن الرابع فى الشام والعراق ، وإن كثيراً من علماء الغرب يرون أن علم المثلثات علم عربى إسلامى ، حيث جعلوه علمًا مستقلاً بعد فصله عن علم الفلك . لذلك يقول الأستاذ دنلوب « أنه من الصعوبة بمكان القول بأن الإغريق كان عندهم علم المثلثات »(٢) ، وقد أدى هذا الاكتشاف إلى تسهيل حساب المسافات بين الأمكنة على كرة الأرض بخلاف ما كان عليه الأمر فى الطريقة الإغريقية من تعقيد ومشقة كبيرة ، والفضل فى ذلك يعود إلى أبى الوفاء البوزجانى وأمثاله من علماء القرن الرابع الهجرى(٣) .

ولم تقف جهود علماء القرن الرابع عند دراسة المثلثات المستوية بل تناولوا المثلثات الكروية ، فتوصلوا إلى إثبات أن نسبة جيوب الأضلاع بعضها إلى بعض كنسبة جيوب الزوايا الموفرة بتلك الأضلاع بعضها إلى بعض فى أى مثلث كروى . وتبدو مكانة أبى الوفاء البوزجانى فى المثلثات واضحة فقد أوجد طريقة جديدة لحساب جداول الجيب ، وكان جيب الزاوية المساوية ثلاثين دقيقة محسوباً فيها حساباً صحيحاً إلى الرقم الثامن من الكسر العشرى ، وكذلك عرف الصلات فى المثلثات ، وكشف عدداً من الصلات بين الجيب والظل والقاطع وتماماتها عموماً . وقد كتب عن ذلك فى الفصل الثانى من النوع الخامس بكتابه «المجسطى »(٤) .

وقد كتب كثير من علماء الرياضيات فى ذلك العلم مثل كتاب علم حساب

---

(١) نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات للدكتور على الدفاع ص١٢٨ ـ ١٣٥ .

(٢) Arab seience the West. D. M. Dunlop. P. 14 .

(٣) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان ص٣٣ .

(٤) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٥٩ وانظر مخطوط « المجسطى » الورقة ٤ ـ ١٢ ، نسخة بمعهد المخطوطات برقم ١٧٧ فلك .

المثلثات للبوزجاني[1]. ومنهم من هذب كتاب أرشميدس فى المثلثات مثل أبى سعيد سنان بن ثابت[2].

أما عن **علم الفلك** : فإن العراق فى القرن الرابع الهجرى لهم فضل كبير على علم الفلك ، فقد جعلوه رياضيا مستنداً على أعمال الأرصاد ، على الأصول الحسابية والهندسية لتعليل الظواهر الفلكية والكونية ، حتى أنهم فاقوا من سبقوهم ، وتقدموا بعلم الفلك إلى مكانة مرموقة . ومنهم من وضع مؤلفات فى هذا العلم هى فى غاية الأهمية ولها أثر كبير فى تقدم العلوم ولا سيما علم الفلك[3]. وقد اهتموا بصور السماء وصنفوا فيها الكتب كأبى عبد الرحمن الصوفى الرازى المتوفى ٣٧٦هـ حيث كتب كتاب « الكواكب الثابتة » أو « صور الكواكب الثابتة » وهو أحسن كتاب وُضع فى الفلك ، وقد ذكر فيه الصوفى جميع صور السماء ورسمها بالألوان وشرح أشكالها وبين خصائصها واستدرك على العلماء السابقين عدداً منها ، وضبط كثيراً من مقاديرها ، ثم لم ينسى أن يجمع أسماءها العربية المعروفة عند البدو[4].

كما أن إخوان الصفا قد تحدثوا فى رسالتهم عن المعارف الفلكية ، حيث أن قيمتها فى رسائلهم ترجع إلى أنها تمثل ما كان عليه علم الفلك فى أيامهم ، ولهم إشارة إلى الفيزياء الفلكية فهم يقولون : إن الأجسام الفكية ليست خفيفة ولا ثقيلة ، لأنها ملازمة لأماكنها الخاصة بها ، وكل جسم فى مكانه الخاص به ليس بثقيل ولا خفيف ، لأن الثقل والخفة يعرضان للأجسام بسبب خروجها من أماكنها الخاصة بها إلى مكان غريب . كما يرى إخوان الصفا أن الأجسام السماوية ليست حارة ولا باردة ولا رطبة[5].

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٩٤ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص١٣٣ ، وأثر علماء العرب والمسلمين فى تطور علم الفلك للدكتور على الدفاع ص٦٦ .

(٣) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ص١٤١ .

(٤) انظر مخطوط « صور الكواكب » لأبى عبد الرحمن الصوفى الرازى مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، برقم (١٤٣) فلك .

(٥) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٦٦ ـ ١٦٧ .

ومن علماء بغداد من كان يحكم صناعة الاسطرلاب والآلات الرصدية غاية الإحكام كأبى حامد الصاغانى ت٣٧٩هـ[١].

وعلى يد علماء العراق قد تم فصل علم المثلثات عن علم الفلك كالبوزجانى ، وكتب فى علم النجوم واستمر فى تطور علم الفلك خلال القرن الرابع الهجرى ، وصنف العلماء فيه مصنفات كثيرة ككتاب الفلك ، ورسالة فى حركة الكواكب ، وكتاب الزيج الشامل للبوزجانى[٢] وفى سنة ٣٨٠هـ توجه عدد كبير من علماء الفلك إلى بغداد ليراقبوا أعمال البوزجانى فى مرصده ، فسيطر البوزجانى على الموقف وذاع صيته بين العلماء آنذاك ، وقد اهتم البوزجانى بهذا العلم فاهتدى إلى معادلة مثلثية توضح مواقع القمر سماها (معادلة السرعة)[٣]. وقد كتب فى كتابه «المجسطى» أن حركات السماء كروية ، وأن الأرض كروية الشكل وغير ذلك[٤].

تعقيب :

القارئ للعلوم الرياضية خلال القرن الرابع الهجرى عند علماء الشام وعلماء العراق يلاحظ أن مآثرهما فى هذه العلوم واضحة جلية ، لا تخفى على أحد ، وأن علماءهما بارزون مجددون ومطورون لهذه العلوم ، بل ظهر على أيديهم أشياء جديدة لم تظهر من قبل .

فعلم الحساب عند كل منهما أخذوه عن الهنود وهذبوه وأضافوا إليه وابتكروا فيه، فأضاف علماء الشام الكسر العشرى[٥]، أما علماء العراق فابتكروا الخانات ، وجعلوا حل المسائل الحسابية هينة ، وجعلوا بناء المعادلات أمر ممكن ، وبحثوا فى خواص الأعداد[٦]. وألفوا فيه مصنفات عديدة .

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص٥٦ ـ ٥٧ ، وقد سبق التعريف بالإسطرلاب عند الحديث عن علم الفلك بالشام .

(٢) نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات للدكتور على الدفاع ص١٢٨ ـ ١٣٥ .

(٣) أثر علماء العرب والمسلمين فى تطور علم الفلك للدكتور على الدفاع ص٦٧ ـ ٦٨ .

(٤) انظر مخطوط « المجسطى » لأبى الوفاء البوزجانى ، مخطوط بمعهد المخطوطات برقم (١٧٧) فلك .

(٥) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان ص٤٠ ـ ٤١ .

(٦) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٣٤ ـ ١٣٥ .

أما علم الجبر : فكل منهما لم يقدم له مثل ما قدموا لعلم الأعداد ، فعلماء الشام عملوا الجداول الرياضية لنظير المماس ، وأدخلوا علم الجبر على حساب المثلثات[1] .

أما علماء العراق فقد أدخلوا علم الهندسة على علم الجبر ، واكتشفوا الهندسة التحليلية ، وعلم التفاضل والتكامل[2] . وصنفوا فيه مصنفات جليلة .

وأما **علم الهندسة** : فقد برع كل منهما فيها وأحدثوا جديداً وابتكاراً وشرحوا قضايا متعددة ، وألفوا فيها كتباً عظيمة واهتم كل منهما بالناحية العملية أكثر من اهتمامهم بالناحية النظرية . غير أن العراق ينفرد بأن علماء قد أضافوا جديداً لهذا العلم عن غيرهم ، كاكتشافهم الهندسة التحليلية ، ووضعوا فيها كتباً ، وعرفوا قضايا هندسية جديدة كتسطيح الكرة وألفوا فيه ومارسوه .

وأما **علم المثلثات** : فقد تبع فيه علماء العراق علماء الشام وحذى البوزجانى حذو البتانى الشامى فى تناول هذا العلم ، وتم فصل علم المثلثات عن علم الفلك عند كل منهما غير أن علماء الشام أول من وضع جداول الظل التام .

وكذلك من علماء العراق هو أول من أوجد طريقة جديدة لحساب جداول الجيب[3] .

وصنف كل منهما كتبًا فى هذا المجال لها الأثر الواضح فى نشر هذا العلم وتطوره .

وأما **علم الفلك** فقد اهتم به كل من علماء الشام وعلماء العراق ، وأصبح لهم فضل كبير فى تطور هذا العلم ، وكل منهما جعله رياضيًا مستندا على أعمال الأرصاد ، وعلى الأصول الحسابية والهندسية لتعليل الظواهر الفلكية والكونية ، ونهض

---

(١) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ، ص١٢٢ ، ونوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات د/ على الدفاع ص١٢٨ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص١٥٧ ، والعلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ص١٤٠ .

(٣) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٥٩ .

كل منهما بعلم الفلك إلى مكانة مرموقة ، واهتموا بوضع مؤلفات فى هذا العلم لها أثر كبير فى تقدم العلوم الرياضية بوجه عام وعلم الفلك بوجه خاص . وعلى يد علماء العراق تم فصل علم المثلثات عن علم الفلك ، وذاع صيت علماء العراق فى علم الفلك . ووجد المرصد الفلكى فى بغداد وكذلك وجد المرصد الفلكى فى الشام حيث بنى البتانى الشامى عدة محطات للرصد[1] .

لقد كانت دراسة العلوم الرياضية عند أهل الشام والعراق مزدهرة فى القرن الرابع الهجرى ، وقاموا بدور ومجهود كبير من أجل التطور الحضارى إذ ألفوا الكتب العديدة فى حقول الحساب والجبر والهندسة والمثلثات والفلك وأثبتوا جميعًا قيمة الأعداد فى التقدم الحضارى ، ومساهماتهم جلية واضحة فى تطور تلك العلوم وخاصة علم المثلثات المبتكرة خلال القرن الرابع الهجرى ، وجعله علمًا مستقلاً بذاته ، ووضع الجداول المثلثية .

وأخيراً يظهر لنا أن علماء الشام وعلماء العراق كانوا باحثين جادين .

---

(١) أثر علماء العرب والمسلمين فى تطور علم الفلك للدكتور على الدفاع ص٥١ ، ٦٧ .

مشاهير علماء الشام في العلوم الرياضية :

ـ أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني ت٣١٧[١] صاحب الزيج الصابي له الأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة ، وأول ما ابتدأ بالرصد في سنة أربع وستين ومائتين إلى سنة ست وثلثمائة ، وأثبت الكواكب الثابتة في زيجه ، وكان أوحد عصره في فنه، وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه[٢] . وورد إلى بغداد مع بني الزيات من أهل الرقة[٣] . وهو أحد المشهورين برصد الكواكب والمتقدمين في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحساب النجوم ، ولا يُعلم أحد بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها ، وله عناية بأحكام النجوم[٤] .

البتاني من عباقرة العالم الذين وضعوا نظريات هامة وأضافوا بحوثًا مبتكرة في الفلك والجبر والمثلثات ، فهو من أنبغ علماء العرب في الفلك والرياضيات خلال القرن الرابع الهجري ، وهو أول من عمل الجداول الرياضية لنظير المماس وعرف قانون تناسب الجيوب ، ومعادلات المثلثات الكرية الأساسية .

كما استعمل الجيوب بدلاً من أوتار مضاعف الأقواس ، وقد عرف القانون الأساسي لاستخراج مساحة المثلثات الكرية ، وأوجد اصطلاح جيب تمام ، كما استخدم الخطوط المماسة للأقواس ، وأدخلها في حساب الأرباع الشمسية وسماها الظل الممدود ، وهو المعروف بخط المماس ، فيعتبر البتاني فيما سبق مبتكرًا وقد أتى بشئ جديد لم يعرفه القدماء . فقد ساهم في وضع أساس المثلثات الحديثة ، كما بيّن حركة نقطة الذنب للأرض وأصلح قيمة الاعتداليين الصيفي والشتوى ، وقيمة ميل فلك البروج على فلك معدل النهار ، وقد صحح بعض حركات القمر والكواكب السيارة ، وله أرصاد جليلة للكسوف والخسوف[٥] . واستبدل المثلثات بالمربعات في حل

---

(١) انظر ترجمته في : الفهرست لابن النديم ص٣٨٩ ، وأخبار الحكماء للقفطي ص١٨٤ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٦٤/٥ ، وتاريخ أبي الفدا ٧٩/٢ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ١٨٩/٣ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٦٤/٥ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص٣٩٠ .

(٤) أخبار الحكماء للقفطي ص١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٥) العلوم عند العرب للدكتور قدري طوقان ص١٢٢ ـ ١٢٤ .

المسائل ، واستبدل جيب الزاوية بالقوس ، وهو الذى صاغ فى حساب المثلثات النسب بالصورة[١]. وصنع زيجًا أثبت فيه الكواكب الثابتة (النجوم الثوابت) واشتغل البتانى بإصلاح أرصاد القدماء ، إما لأن القدماء أنفسهم قد أخطأوا فى حسبان هذه الأرصاد، أو لأن مواقع النجوم قد اختلفت (بالإضافة للأرض) على طول الزمن[٢].

كان البتانى صاحب عقلية قوية ، فكان يستخدم للقياس الأجهزة الميكانيكية لأنه لم يكن توجد فى القرون الوسطى آلات التلسكوب والمنظار الكهربى والرادار .

ومن أجل تقليل الخطأ المرتكب استخدم البتانى الآلات الكبيرة جداً التى لم تستخدم من قبل ذلك فى مدينتى الرقة وأنطاكية ، حيث بنى هناك عدة محطات للأرصاد ، فهو أول عالم أدخل علم الجبر على حساب المثلثات بدلا من الهندسة كما كان فى القديم[٣] .

ومن مؤلفاته : كتاب الزيج ، ومعرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك ، رسالة فى تحقيق أقدار الاتصالات[٤]. وكتاب شرح المقالات الأربع لبطليموس[٥]، وله رسالة فى عمليات التنجيم الدقيقة ، وكتاب عن دائرة البروج والقبة الشمسية ، ومختصر لكتب بطليموس الفلكية ، وكتاب تعديل الكواكب ، وكتاب علم النجوم ، وكتاب فى علم الفلك[٦].

ـ **أبو نصر محمد بن محمد الفارابى ت٣٣٩هـ**[٧] الملقب بالمعلم الثانى ،

---

(١) قصة الحضارة وول ديورانت ١٣/١٨١ ـ ١٨٢ .

(٢) تاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٣) نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات للدكتور على الدفاع ص١٢٨ .

(٤) الفهرست لابن النديم ص٣٩٠ .

(٥) أخبار الحكماء للقفطى ص١٨٥ .

(٦) أثر علماء العرب والمسلمين فى تطوير علم الفلك للدكتور على الدفاع ص٥٠ .

(٧) انظر ترجمته فى : أخبار الحكماء للقفطى ص١٨٢ ، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ص٣٠ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٥/١٥٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢/٣٥٠ ـ ٣٥٤ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٥/٣٢ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣/٥٢٨ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٤/١٣٩ .

ولم يكن قبله أفضل منه فى حكماء الإسلام . قال تلميذه أبو على بن سينا أيست من معرفة غرض ما بعد الطبيعة حتى ظفرت بكتاب لأبى نصرفى هذا المعنى(١) .

حضر إلى بغداد وسمع على أبى بشر متى بن يونس الحكيم ، وكان يحضر حلقته فى غمار تلامذته ، ثم ارتحل بعد ذلك إلى حران فأخذ المنطق عن حيلان الحكيم النصرانى ، ثم رجع إلى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة ، ثم له بعد ذلك كتاب شريف فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يُسبق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء ، ثم سافر إلى دمشق وأقام بها وسلطانها يومئذ سيف الدولة الحمدانى فأحسن إليه . وجلس فى مجلسه ثم أخذ يتكلم مع علماء الحاضرين فى المجلس فى كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقى يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله(٢) .

وقد تحدث أبو نصر الفارابى عن علم العدد فقال أنه علمان : علم العدد العلمى وعلم العدد النظرى ، فالأول يبحث عن الأعداد من حيث هى أعداد معدودات تحتاج أن يضبط عددها من الأجسام وغيرها ، وأما النظرى فإنه إنما يفحص عن الأعداد بإطلاق على أنها مجردة من الذهن عن الأجسام وعن كل معدود منها ، فعلم العدد النظرى يفحص عن الأعداد على الإطلاق ، وعن كل ما يلحقها فى ذواتها مفردة من غير أن يضاف بعضها إلى بعض(٣) .

لقد أكثر من التأليف ما يزيد على المائة ، أتى فيها على الفلسفة بعلومها وعلى النجوم والمناظر والمنطق والعدد والهندسة ، وضعه كثير من العلماء بين المقدمين فى تاريخ تقدم الفكر كاقليدس ، وبطليموس(٤) . لقد درس الفلسفة والطب والعلوم الرياضية ووجد بعد ذلك فى حلب فى بلاط سيف الدولة الحمدانى المكان الصالح للتفكير والتأمل(٥) .

---

(١) تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ص٣١ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٣/٥ ـ ١٥٥ .

(٣) حضارة العراق للدكتور ياسين خليل ٤٠٩/٨ ، نقلا عن كتاب الفارابى (إحصاء العلوم) .

(٤) العلوم عند العرب للدكتور قدرى طوقان ص١٣١ ـ ١٣٨ .

(٥) أخبار الحكماء للقفطى ص١٨٣ ـ ١٨٤ .

لقد شرح مقدمة المقالة الأولى والخامسة من كتاب اقليدس وكتب رسالة فيما صح وما لم يصح من أحكام النجوم ، وكتب حول المبادئ التى بها قوام الأجسام والأعراض ، ومنتخب من كتاب المدخل فى الحساب ، وله إبطال أحكام النجوم وشرح المجسطى ، وله كتاب إحصاء العلوم ، وكتاب عيون المسائل[(١)] .

أبو الحسن أحمد بن إبراهيم توفى بعد سنة ٣٤١هـ[(٢)] ، ذكره بروكلمان باسم أحمد بن إبراهيم ، وذكره آخرون باسم على الإقليدسى واتفق الجميع على أن له كتاب «الفصول فى الحساب الهندى» فقد ابتكر هذا العالم أهم ما ابتكره المسلمون فى مجال الحساب ، حيث ابتكر الكسر العشرى[(٣)] .

ـ **أبو القاسم على بن أحمد الأنطاكى ت٣٧٦هـ**[(٤)] ، كان من أهل أنطامية ، وكان قيماً بعلم العدد والهندسة غير مدافع فى ذلك ، وله التصانيف الجليلة ، رحل إلى بغداد ، وصار من أصحاب عضد الدولة بن بويه المقدمين عنده ، يقوم بعلم العدد والهندسة ، وكان مشاركاً فى علوم الأوائل وكان فصيح اللسان عذب البيان[(٥)] .

وله مصنفات قليلة منها : التخت الكبير فى الحساب الهندى ، وكتاب فى الحساب على التخت بلا محو ، وكتاب تفسير الارثماطيقى ، وكتاب استخراج التراجم، وكتاب تفسير إقليدس ، وكتاب فى المكعبات[(٦)] ، وكتاب الموازين العددية ، وكتاب الحساب بلا تخت بل باليد[(٧)] .

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٣٧/٤ ـ ١٤٤ ، ١٤٥ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٣٢/٦ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كالة ٦٢٨/٣ .

(٢) انظر ترجمته فى : تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٨٣/٤ والعلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان ص٤١ .

(٣) العلوم والفنون عند العرب للدكتور سيد رضوان ص٤١ .

(٤) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص٣٩٥ ، وأخبار الحكماء للقفطى ص١٥٧ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٣٩٨/٢ ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ٥٤٧/٥ ، وخطط الشام لمحمود كرد على ٣١/٤ ، والمهندسون فى العصر الإسلامى لأحمد تيمور باشا ص٢٢ .

(٥) أخبار الحكماء للقفطى ص١٥٧ .

(٦) الفهرست لابن النديم ص٣٩٥ ـ ٣٩٦ .

(٧) أخبار الحكماء للقفطى ص١٥٧ .

مشاهير علماء العراق فى العلوم الرياضية :

ـ أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة ت٣٣١هـ[١] ، كان أديبًا فاضلاً مؤرخًا عارفًا بعلم الهيئة ماهراً بصناعة الطب كان فى خدمة الخليفة المقتدر ثم القاهر والراضى ، له معرفة بالأصول الهندسية ، والأشكال ذوات الخطوط المستقيمة التى تقع فى الدائرة ، وفى الاستواء والنجوم ، وقسمة أيام الجمعة على الكواكب السبعة[٢] ، واستخراج الشئ الكثير من المسائل الهندسية. وهذب كتاب أرشميدس فى المثلثات[٣] . ولم يبق من مؤلفاته التاريخية والرياضية شئ[٤] .

وله من التصانيف فى العلوم الرياضية وغيرها : التاجى فى أخبار آل بويه ، ومفاخر الديلم وأنسابهم ألفه لعضد الدولة ، رسالة فى أخبار آبائه وأجداده وسلفه ، إصلاح كتاب إقليدس فى الأصول الهندسية ، وكتاب تاريخ ملوك السريان ، ورسالة فى الأشكال ذوات الخطوط المستقيمة التى تقع فى الدائرة ، رسالة فى الاستواء ، رسالة فى النجوم ، واصلاحه وتهذيبه لما نقله من كتاب يوسف القس من السريانى إلى العربى من كتاب أرشميدس فى المثلثات[٥] .

ـ على بن أحمد العمرانى الموصلى ت٣٤٤هـ[٦] ، رياضى فلكى له تصانيف فى علم الجبر والمقابلة وغير ذلك[٧] . وهو العالم بالحساب والهندسة ، وكان فاضلاً جماعًا للكتب يقصده الناس للاستفادة منه ، ومنها يأتى إليه الطلبه من البلاد النازحة للقراءة عليه[٨] .

---

(١) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص٤٢١ ، وأخبار الحكماء للقفطى ص١٣٠ ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ٤٠٢/٣ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٨٠٠/١ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٩/٤ .

(٢) معجم الأدباء ٤٠٢/٣ ـ ٤٠٣ .

(٣) أخبار الحكماء للقفطى ص١٣٣ .

(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٧٩/٤ .

(٥) أخبار الحكماء للقفطى ص١٣٣ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٤٠٣/٣ .

(٦) انظر ترجمته فى : أخبار الحكماء للقفطى ص١٥٦ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣٩٧/٢ .

(٧) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣٩٧/٢ .

(٨) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

وله من الكتب : كتاب شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم وله كتاب الاختيارات ، وله عدة كتب فى النجوم وما يتعلق بها[١] .

ـ **أبو حامد أحمد بن محمد الصاغانى ت٣٧٩هـ**[٢]، كان فاضلاً فى الهندسة وعلم الهيئة ، يسلم إليه ذلك فى وقته ، وكان ببغداد يحكم صناعة الاسطرلاب ، والآلات الرصدية غاية الإحكام وآلاته مذكورة بأيدى أرباب هذا الشأن معروفة فى ذلك الزمان وفى هذا الأوان ، ونبغ عدة تلاميذ ، ينسبون إليه ، ويفخرون بذلك ، وله زيادة فى الآلات القديمة ، فاز بها دون غيره من أهل هذا النوع[٣] ، وعليه اعتمد عضد الدولة فى المرصد ببغداد[٤] .

ومن مؤلفاته : كتاب فى كيفية تسطيح الكرة على شكل الإسطرلاب[٥] .

ـ **أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس البوزجانى ت٣٣٨هـ**[٦] ، بلغ المحل الأعلى فى الرياضيات ، وكان حميد الأثر ، انتقل إلى العراق من نيسابور وقرأ العدد والهندسة على أبى يحيى البارودى ، وأبى العلاء بن كرنيب ، وقرأ عليه الناس واستفادوا ونقلوا[٧] ، فهو أحد الأئمة المشهورين فى علم الهندسة وله فى استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وله فى استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع[٨] . لقد نال شهرة عظيمة بإقامة مرصد فى بغداد ، وبشروحه وتعليقه على مؤلفات إقليدس ، وديوفانتوس والخوارزمى[٩] ، وكان من مشهورى القرن الرابع

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص١٥٧ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣٩٧/٢ .

(٢) انظر ترجمته فى : أخبار الحكماء للقفطى ص٥٦ ، والمهندسون فى العصر الإسلامى لأحمد تيمور باشا ص٢٢ ، وتاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٧١ .

(٣) أخبار الحكماء للقفطى ص٥٦ ـ ٥٧ .

(٤) المهندسون فى العصر الإسلامى لأحمد تيمور باشا ص٢٢ ، وتاريخ العلوم عند العرب للدكتور عمر فروخ ص١٧١ .

(٥) المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع للدكتور محمد عيسى ٤٣٨/٣ .

(٦) انظر ترجمته فى : الفهرست لابن النديم ص٣٩٤ ، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ص٨٤ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٦٧/٥ ، وأخبار الحكماء للقفطى ص١٨٨ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٢٢/٤ ، وأثر علماء العرب والمسلمين فى تطوير علم الفلك للدكتور على الدفاع ص٥٩ وما بعدها .

(٧) أخبار الحكماء للقفطى ص١٨٨ .

(٨) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٦٧/٥ .

(٩) تاريخ العلوم عند العرب لعمر فروخ ص١٤٢ .

الهجرى فى الرياضيات ، وقد أبدع فى جميع فروع الرياضيات ، فأدخل علم الهندسة على علم الجبر ، وابتكر حلولاً جديدة ، مما أدى إلى اكتشاف الهندسة التحليلية ، وعلم التفاضل والتكامل . وقد عرّف وبسط بعض النقاط التى كانت غامضة فى مؤلفات العالم المشهور البتانى الشامى . كما عالج أبو الوفاء الكسور الاعتيادية بجميع أشكالها البسيطة وغير البسيطة ، كما ابتكر طريقة جديدة لحساب جداول الجَيب ، وهو أول من وضع النسب المثلثية (ظا) وأول من استعملها فى حلول المسائل المثلثة ، كما أوجد طريقة لحساب جداول الجيب ، وكان علم الفلك مسيطراً على علم حساب المثلثات ، إلا أن أبا الوفاء البوزجانى قد حذا حذو أستاذه البتانى الشامى فى العمل الجاد على فصل علم حساب المثلثات عن الفلك ، وقام بانجازات عظيمة فى هذا المجال ، وقد نجح فى حساب جداول علم حساب المثلثات إلى ثمانية أرقام عشرية[(١)] ، وكتب فى علم النجوم واستمر فى تطوير علم حساب المثلثات كعلم مستقل بذاته عن علم الفلك . ومما لا شك فيه أن مؤلفات أبى الوفاء البوزجانى وبحوثه كان لها تأثير فى تقدم العلوم ولا سيما الفلك والمثلثات وأصول الرسم ، وبهذه المناسبة يمكن القول : إن أبا الوفاء أول من حلّ المسائل المستعصية على الإغريق والهنود باستخدام المسطرة والفرجار[(٢)] .

وله مصنفات عديدة منها : كتاب فى عمل المسطرة والبركار والكونيا ، وكتاب فاخر بالحساب ، وكتاب حساب اليد ، وكتاب الكامل يشبه كتاب المجسطى لبطليموس ، وكتاب يحتوى على زيج الوادى ، وكتاب علم حساب المثلثات وكتاب فى الأشكال الهندسية عموما ، ورسالة فى الرسم الهندى ، وكتاب فسر فيه نظريات ديوفانتوس فى علم الأعداد ، وكتاب فسر فيه حساب الجبر والمقابلة للخوارزمى ، وكتاب فى الفلك ، ورسالة فى حركة الكواكب ، وكتاب استخراج الأوتار ، وكتاب الزيج الشامل ، وكتاب فى استخراج ضلع المربع وكتاب فى الهندسة[(٣)] .

---

(١) العلوم عند العرب لقدرى حافظ طوقان ص١٤٠ ، وأثر علماء العرب والمسلمين فى الفلك للدفاع ص٦٣ .

(٢) نوابغ العرب والمسلمين فى الرياضيات للدكتور على الدفاع ص١٢٨ ـ ١٣٥ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص٣٩٤ ، وأخبار الحكماء للقفطى ص١٨٩ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٢٢/٤ وما بعدها ، وأثر العرب والمسلمين فى تطوير علم الفلك للدكتور على الدفاع ص٦٤ ـ ٦٧ .

تعقــيب :

عند الحديث عن مشاهير علماء الشام والعراق فى العلوم الرياضية نلاحظ توافر الموسوعية فى جميع العلوم الرياضية متوفرة عندهم سواء فى الشام أو فى العراق .

فعلى سبيل المثال نلاحظ العالم أبا عبد الله محمد البتانى كعالم من أهل الشام قـد تكلم فى علم الحسـاب والجبر والهندسة والمثلثـات والفلك ، وصنف الكتب والرسائل فى شتى العلوم.

ونلاحظ أيضاً العالم أبا الوفاء محمد بن محمد البوزجانى كعالم من أهل العراق له مشاركة جليلة فى علم الحساب والجبر والهندسة والمثلثات والفلك . وقد صنف أيضاً الكتب والرسائل فى شتى العلوم .

كما نلاحظ كثرة المصادر التى ترجمت للبتانى والبوزجانى وشهرتهما مما يُعد دليلاً على أثرهما فى تقدم وتطور وازدهار العلوم الرياضية فى القرن الرابع الهجرى فى كل من الشام والعراق .

من حيث التـأثيـر والتـأثر بينهـمـا فـذلك أمر واضح إذ يرحل البتـانى من الرقـة وأنطاكية بالشام إلى بغداد بالعراق لكى يستفيد ويفيد(١) . حيث غزارة فضله وسعة علمه .

لقد تأثر بعض علماء العراق بعلماء الشام حيث حذوا حذوهم وسلكوا طريقهم وتبعوا منهجهم فى بعض المسائل ، فأبو الوفاء البوزجانى قد حذا حذو أستاذه البتانى الشامى فى العمل الجاد على فصل علم حساب المثلثات عن الفلك(٢) .

وهذا أحمد بن جعفر بن محمد بن المنادى أبو الحسين البغدادى ت٣٣٦هـ قد رحل إلى طرسوس ثم عاد مرة ثانية إلى بغداد وله مصنفات كثيرة منها : الحافظ لحركات الشمس والقمر والنجوم وأوصاف الأفلاك والأقاليم وأسماء بلدانها(٣) .

وكـذلك على بن أحمـد الأنطاكى من الشـام يرحل إلى بغداد يعلم فى العـدد والهندسة ويصير صاحباً من أصحاب عضد الدولة(٤) . إن هذا التـأثير والتـأثر أدى فى النهاية إلى مساهمات من كلا الإقليمين أدت إلى تطور العلوم الرياضية وازدهارها .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص٣٩٠ .

(٢) نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات للدكتور على الدفاع ص١٣١ .

(٣) بغية الطلب فى تاريخ حلب لابن العديم ٥٩٥/٢ ـ ٥٩٦ .

(٤) أخبار الحكماء للقفطى ص١٥٧ .

الخاتمة

الخاتمة

يتبين مما تقدم أن التراث العلمى للحضارة الإسلامية فى كل من الشام والعراق ، خلال القرن الرابع الهجرى كانت تدور على محاور أربعة :

المحور الأول : وهو النظام التعليمى الذى ساد كل من إقليمى الشام والعراق ، على مستوى مراحل التعليم ، وبيان مناهج التعليم وأماكنه وطرقه ، وأحوال الطلاب والمعلمين وعلاقاتهم .

المحور الثانى : تصنيف العلوم فى كل منهما إلى علوم إسلامية وعربية ونظرية وطبيعية وعملية ، وقد ظهر خلال القرن الرابع الهجرى عدد من خطط التصنيف انفرد بها علماء الشام والعراق ، لم يجتمع فى قرن من القرون مثل هذا العدد من الخطط وذلك نتيجة الخصوبة العقلية وعظم إسهامها وإسهام الحضارة الإسلامية فى تاريخ الفكر التصنيفى .

المحور الثالث : البحث فى العلوم الدينية واللغوية ، حيث إن المتعلمين أخذوا يبحثون فى كافة النواحى الدينية من قراءات وتفسير وحديث وفقه ومغازى وسير ، وكذلك النواحى اللغوية التى لا تنفصل عن النواحى الدينية من لغة ونحو وصرف وشعر ونثر وبلاغة ونقد .

لقد حازت تلك العلوم قدراً كبيراً من العناية ، إلا أن ذلك لا يمنع من أن العلماء المسلمين قد حرصوا أيضاً على الجانب التطبيقى .

المحور الرابع : البحث فى العلوم العقلية أو التجريبية ، لقد حرص علماء الشام والعراق على عدم التفريق بين علم دينى وعلم دنيوىّ، لذلك نالت العلوم كلها دينية ودنيوية عناية فائقة خلال القرن الرابع ، فبحثوا فى علم الطب والصيدلة والجغرافيا والحساب والجبر والهندسة والفلك .

كما يمكن أن نستخلص كثيراً من النتائج من خلال بحث الحياة العلمية فى الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجرى . فعلى مستوى **العلوم الدينية** نجد :

١ ـ فى القراءات قاموا بجمع القراءات السبع المتواترة المشهورة التى أجمع عيها الجمهور ، وقد بدأ بها ابن مجاهد أحمد بن موسى البغدادى ت٣٢٤هـ، ثم

تبعه بعض علماء الشام كأحمد بن الصقر المنبجى ت قبل ٣٦٠هـ والحسين بن أحمد بن خالويه ت ٣٧٠هـ وغيرهم .

٢ ـ جعلوا تفسير القرآن الكريم علمًا مستقلاً ، وكان من قبل يبحث فى إطار علم الحديث ، منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين ، ووضعوا التفسير لكل آية من القرآن على حسب ترتيب المصحف .

٣ ـ ظهر اتجاه جديد حاول التوفيق بين الدين والفلسفة على يد علماء الشام ، عن طريق التأويل للنصوص والحقائق الشرعية ، بما يتفق مع الآراء الفلسفية ، وهذا ما فعله محمد بن محمد الفارابى فى تفسيره لبعض الآيات القرآنية ، والحقائق التى جاء بها القرآن الكريم تفسيراً فلسفيًا ، وقد اهتموا اهتماماً كبيراً بالتفسير المأثور دون غيره من الأنواع الأخرى .

أما علماء العراق فقد اهتموا بالتفسير المأثور والتفسير بالرأى والتفسير الإشارى أو الصوفى .

٤ ـ اتجاه علماء الشام والعراق إلى التأليف فى علوم القرآن بمختلف أنواعها فى مؤلفات مستقلة يجمع أكبر عدد من علوم القرآن ، وأحيانًا فى مؤلفات منفصلة، كل نوع من علوم القرآن على حدة .

٥ ـ استطاع علماء الحديث بالشام والعراق أن يجمعوا ما تفرق فى كتب الأولين أو يختصروها بحذف الأسانيد أو يقوموا بشيء من الترتيب والتبويب والتهذيب . كما يتميز علماء العراق عن علماء الشام فى أنهم صنفوا مؤلفات تجمع أكثر أبواب مصطلح الحديث على يد محمد بن القاسم الأنبارى ت٣٢٨هـ وأبى عبد الله الحاكم النيسابورى ت٤٠٥هـ.

٦ ـ كان القرن الرابع الهجرى بالنسبة لعلماء الشام والعراق استمرارا لدور النشاط فى الفقه ، وتعدد مراكز التشريع ، وتدوين العلوم ، وبروز كثير من الأئمة المجتهدين ، واستمرار المذاهب الفقهية ، ونمو الفقه الإسلامى وبسط سلطانه على جميع مجالات الحياة ، وانتشار المذاهب الأربعة فى الجمهور الإسلامى ، وظهور الاصطلاحات الفقهية .

أما على مستوى العلوم اللغوية فيستنتج من البحث فيها هذه الأمور :

١ ـ ظهور دراسة « الاشتقاق اللغوى » فى كل من الشام والعراق على يد أبى الفتح عثمان بن جنى ت٣٩٢هـ وسميت بالاشتقاق الأكبر .

٢ ـ الاتجاه إلى دراسة لغة العامة ، وما يعرض فيها من خطأ نتيجة لوجود ظاهرة انتشار العامية بجانب الفصحى فى الشام والعراق ، وتصنيف مؤلفات حول ذلك ، مثل كتاب ابن خالويه المسمى « ليس من كلام العرب » .

٣ ـ تناول علماء العراق كيفية تحديد معانى الكلمات وعمل المعاجم، وأشهر معجم فى ذلك معجم الصحاح أو تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٣هـ.

٤ ـ اهتمام علماء الشام والعراق بعلم النحو على نفس المنهج الذى سار عليه خلال القرن الثالث الهجرى ، حيث يسير فى ثلاثة اتجاهات ، الاتجاه البصرى والاتجاه الكوفى والاتجاه البغدادى .

٥ ـ أضاف شعراء الشام فنوناً جديدة ، وموضوعات مبتكرة ، كشعر الحرب ، وشعر الديارات ووصف الطبيعة ، ووصف تساقط الثلج ، وروميات أبى فراس الحمدانى.

كما أضاف شعراء العراق فنونًا جديدة وموضوعات مبتكرة ، كالشعر الفلسفى حيث ظهرت فيه مصطلحات فلسفية ، والشعر التعليمى استجابة لدواعى التطور العلمى والثقافى ، فنظمت العلوم والمعارف بأسلوب شعرى .

٦ ـ ظهر فن القصة على يد أدباء الشام خلال العقد الثالث من القرن الرابع على يد أبى الفرج عبد الواحد بن نصر البيغاء ت٣٩٦هـ، بينما ظهرت فى العراق خلال العقد الثامن من القرن الرابع على يد بديع الزمان الهمذانى أحمد بن الحسين ت٣٩٨هـ.

٧ ـ ظهر فن المقامة على يد أحد علماء العراق ، وهو أحمد بن الحسين الهمذانى فى الوقت الذى قل فيه نصيب الشام فى هذا الفن .

٨ ـ تطور علم البلاغة والنقد على يد علماء العراق ، حيث اهتموا بها نظرياً وتدوينياً،

على يد قدامة بن جعفر ت٣٣٧هـ، وقد امتزج النقد بالبلاغة عنده ، ثم جاء بعده أبو هلال العسكرى ت٣٩٥هـ فألف كتاب الصناعتين ، جمع فيه بين النقد والبلاغة ، وأضاف سبعة ألوان بلاغية أخرى فأصبح مجموع الألوان البلاغية ستة وثلاثين لونًا . ومن النتائج الجوهرية أن النقاد العرب القدامى هم أول من قال بالوحدة العضوية للقصيدة ، حيث عدوا القصيدة كالإنسان الحىّ فى ترابط أعضائه واتصال بعضها ببعض وتجانس خلقته وهذا هو الحاتمى المتوفى سنة ٣٨٨هـ يقول عن القصيدة : « مَثَلُ القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة فتخون محاسنه وتعفى معالمه ».

أما على مستوى **العلوم الاجتماعية** فيستنتج من البحث فيها هذه الأمور :

١ ـ يتميز القرن الرابع على مستوى الشام والعراق بأن دخل ميدان التأريخ أنواع شتى من الرجال ، يختلفون فى الوظيفة الاجتماعية والتكوين العلمى ، والاهتمامات الفكرية ، وفى العنصر القومى ، والمذهب الدينى ، وفى الإقليم السكنى .

٢ ـ يعتبر القرن الرابع الهجرى نقطة تحول أو تطور فى تدوين المادة التاريخية سواء فى الشام أو العراق ، وإن بقى بالعراق بعض العلماء دون تطور ، فقد أسقط المؤرخون الإسناد فى التدوين ، ولكن الطبرى وابن أعثم الكوفى قد صنفا بطريقة الإسناد ، ومن المؤرخين من يجمع مصادره فى أول الكتاب .

٣ ـ ظهور تضخم كثير من المؤلفات التاريخية خلال القرن الرابع الهجرى على مستوى الشام والعراق ، بحيث وصلت إلى ألوف من الأوراق ، ككتاب « البدء والتاريخ » للمقدسى ، وكتاب « تاريخ الطبرى » للطبرى و« تاريخ المسعودى » للمسعودى .

٤ ـ تنوع المعلومات التاريخية ، وتعدد موضوعاتها تعددًا واسعًا فى كل من الشام والعراق ، بسبب ارتباط التاريخ مع العلوم والمعارف الأخرى وبسبب بلوغ المجتمع فى القرن الرابع الهجرى أوج قوته وفاعليته الحضارية .

٥ ـ ظهور التواريخ المحلية المستقلة وغياب التواريخ العامة ، وتكوين مدارس تاريخية محلية فى كل من الشام والعراق نتيجة للتمزق السياسى ، إذ يعدّ ذلك من إيجابياته .

٦ ـ بحث الجغرافيون فى الشام والعراق الجغرافية الوصفية والإقليمية والرحلات الجغرافية ، ورسم الخرائط ، والجغرافية الرياضية والفلكية والملاحة ، والجغرافية الطبيعية .

٧ ـ اهتمام جغرافيو الشام والعراق بالظواهر الجغرافية ، كالظواهر البحرية كالمد والجزر، والرياح ، ونظم الأرض والمسالك ، وعلاقة الإنسان بالمناخ والأرض ومسير الشمس .

أما على مستوى **الفكر الفلسفى** فيستنتج من البحث فيه هذه الأمور :

١ ـ ظهور مدرسة كلامية جديدة من أهل السنة وهى المدرسة الأشعرية بإقليم العراق فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وانتشرت فى الشام أواخر القرن الرابع الهجرى .

٢ ـ كان الفكر الفلسفى فى الشام والعراق متمثلاً فى الاتجاه الكلامى والاتجاه الفلسفى والاتجاه الصوفى .

أما على مستوى **العلوم العقلية** فيستنتج من البحث فيها هذه الأمور :

١ ـ تطبيق نظام امتحان الأطباء الذين يرغبون فى العمل بمهنة الطب قبل مزاولتها ولا يسمح لأى طبيب بالعمل إلا بعد اجتياز الامتحان الذى يشرف عليه رئيس الأطباء وذلك على مستوى أطباء الشام والعراق وغيرهم .

٢ ـ اهتمام كثير من أطباء الشام والعراق بعلم التشريح وعلم الجراحة وطب العيون وطب النساء والأطفال والأسنان والأمراض الباطنية والعقلية والنفسية ، كما عالجوا الكسور فى الفك الأسفل ، وتجبير الأسنان ، وفحصوا الحلق والحنجرة ، وفرقوا بين الزوائد البولية والتناسلية واستخرجوا الحصاة ، وعالجوا قرحة المعدة والفتق السرى ، والبذل والاستسقاء وعالجوا أمراض العين وشرحوها واهتموا بالبواسير الرحمية والناصور الرحمى ، وانقلاب الرحم ، والتوليد بالجراحة ، واهتموا بوسائل منع الحمل ، واهتموا بمرض الربو ، وضيق التنفس وقروح الرئة، وأمراض القلب والدورة الدموية ، واهتموا بالصَّرَع والسكتة القلبية والفالج .

٣ ـ الاهتمام ببناء المستشفيات بعدد كبير سواء فى الشام أو العراق كما اهتموا بالمستشفيات المتنقلة ، وجعلوا لتلك المستشفيات نظاماً معلوماً تسير عليه .

٤ ـ جُعل فى القرن الرابع الهجرى امتحان للصيادلة قبل أن يمارسوا المهنة استمراراً لما كان عليه ، ولا بد من اجتياز الصيدلى لهذا الامتحان ، ويسمى امتحان أمانة الصيادلة فى كل من الشام والعراق ، وذلك لمن يرغب فى ممارسة مهنة الصيدلة .

٥ ـ استطاع صيادلة الشام والعراق أن يحضروا ويركبوا الأدوية النافعة لعلاج إيقاف نزف الدم ، ومعالجة ألم المفاصل ، والنقرس وضعف الأحشاء وتركيب دواء الترياق لمنع ضرر السم ، ودواء الملينات ، والفتائل .

٦ ـ استطاع صيادلة العراق أن يسجلوا طرقا كثيرة لامتحان الدواء لمعرفة الصالح منه والفاسد .

أما على مستوى **الرياضيات** فنستنتج من البحث فيها هذه الأمور :

١ ـ قام علماء الشام خلال القرن الرابع الهجرى بتهذيب علم الحساب ، وأضافوا إليه وابتكروا فيه ، فأضافوا إليه الكسر العشرى وعملوا الجداول الرياضية ، وادخلوا علم الجبر على حساب المثلثات ، وفصلوا علم المثلثات عن علم الفلك ، ووجد المرصد الفلكى فى الشام .

٢ ـ ابتكر علماء العراق الخانات ، وجعلوا بناء المعادلات أمراً ممكناً ، وبحثوا فى خواص الأعداد ، وأدخلوا علم الهندسة على علم الجبر ، واكتشفوا الهندسة التحليلية ، وعلم التفاضل والتكامل وفصلوا علم المثلثات عن علم الفلك ، ومنهم من أوجدطريقة جديدة لحساب جداول الجيب ، ووجد المرصد الفلكى بالعراق .

* ومن النتائج الجوهرية التى أدى إليها البحث بالدليل القاطع ، موسوعية العلماء فى القرن الرابع الهجرى فى كل من الشام والعراق ، حيث لم يعرفوا التخصص فى فن واحد من فنون العلم ، بل كانوا ضاربين فى كل علم بسبب ، وآخذين من كل علم بنصيب .

على أن هؤلاء العلماء لم تؤثر موسوعيتهم العلمية فى تعمقهم فى كل العلوم التى أدلوا بدلوها فيها ، فقد كنا نجد العالم من علماء تلك الحقبة من الزمن يتكلم

فى علم ما ، كأدق ما يتكلم فيه أهله المتوفرون عليه المنقطعون له ، فإذا تكلم فى غيره كان كذلك من غير قصور ولا نقصان .

ولم يكن هذا مقصوراً على علماء الشام دون العراق ولا على علماء العراق دون الشام ، بل كان سمة مشتركة بين علماء كل من الإقليمين ، ففى الشام نجد على سبيل المثال الحسين بن محمد بن خالويه ت٣٧٠هـ، كان عالمًا فى اللغة والنحو والتفسير والقراءات ، وكان أحد أفراد الدهر فى كل قسم من أقسام العلم والأدب .

وفى العراق نجد على سبيل المثال محمد بن يحيى أبو بكر الصولى ت٣٣٥هـ كان عالمًا فى علوم القرآن والحديث والفقه والنحو والصرف والتاريخ والعلوم الرياضية كالشطرنج والهندسة .

خلاصة القول : إنه فى القرن الرابع الهجرى ، فى كل من الشام والعراق نشأ عدد من العاماء يزدهى بهم العلم فى كل عصر وآن ، شاركوا مشاركة فعالة فى بناء النهضة العلمية ، وخطوا بالإنسانية خطوات فسيحة فى سبيل الرقى والتقدم ، وتنافس الخلفاء والأمراء والحكام فى تقدير العلم والعلماء والانفاق بسخاء على دور العلم ومكتباته ، والإغداق على العلماء ورعايتهم ، وكان الخلفاء يحضرون مجالس العلم والعلماء ، وتعقد المناظرات والندوات بين أيديهم ، وأوقفت الأوقاف السخية على دور العلم والمكتبات ، وكانت الجوامع الكبيرة بالشام والعراق بمثابة جامعات يحج إليها طلاب العلم من كل مكان .

لقد قاد علماء القرن الرابع الهجرى الإنسانية فى مدارج التقدم والرقى ورعوا أمانة العلم ، وحفظوا التراث العلمى وعملوا على إنمائه وزيادته . وكان العالم الإسلامى كله مجالاً مفتوحًا وحراً أمام كل عالم من منطقة إلى أخرى ، وإن العلماء المسلمين كانوا عقولاً مفتوحة للاختصاصات المتعددة ، حتى لقد ندر أن عرف عالم بفرع واحد من فروع العلم .

توصيات : ضرورة القيام على نشر التراث العلمى الضخم الذى شمل جميع فروع العلم نظرية وتجريبية ، مع محاولة تقريبه لأذهان غير المتخصصين من أصحاب الثقافة اليوم من أبناء الأمة حتى نصل حاضر الأمة بماضيها ، وإن المرء ليقف حائراً

أمام بحوث علمائنا السابقين في مجالات الحياة المختلفة ، فى ذلك الوقت المبكر ، وكيف أنهم عالجوا كثيراً من الأمور التى ما زالت تعرض لنا اليوم ، إما كمشكلات لا نستطيع حلها ، وإما كمشكلات قام على حلها غيرنا ، ممن كان هذا التراث مبعث نهضتهم ، ونقطة انطلاقهم فى الآفاق الوسيعة التى ارتادها أسلافنا وتوقفنا نحن على عتباتها .

وإن من التوصيات أيضاً صنع ملخصات لبعض آثار هذا التراث فى مجالات العلوم المختلفة وتقديرها على الدارسين كل فى اختصاصه .

كما نوصى بعمل مسح شامل لبحوث علمائنا المتقدمين فى مجالات الحياة المختلفة لتدخل ضمن مقررات الطلاب فى مراحل التعليم المختلفة .

الجداول والصور

(١) جدول بالظواهر العلمية الجديدة فى الشام والعراق

خلال القرن الرابع

م	الظواهـر العلمية الجديدة	الإقليـــم
١	جمع القراءات السبع	الشام والعراق
٢	فصل تفسير القرآن عن الحديث	الشام والعراق
٣	التوفيق بين الدين والفلسفة والتفسير الفلسفى للآيات	الشام
٤	التأليف حول علوم القرآن	الشام والعراق
٥	الاختصار وحذف الأسانيد والتبويب والتهذيب	الشام والعراق
٦	التأليف حول مصطلح الحديث	العراق
٧	دراسة الاشتقاق اللغوى « الأكبر »	الشام والعراق
٨	دراسة لغة العامة	الشام والعراق
٩	إضافة فنون شعرية جديدة	الشام والعراق
١٠	ظهور فن القصة	الشام والعراق
١١	ظهور فن المقامة	العراق
١٢	تطور علم البلاغة والنقد وامتزاجهما	الشام
١٣	ظهور الوحدة العضوية للقصيدة	الشام والعراق
١٤	دخول أنواع شتى من الرجال فى مجال التأريخ	الشام والعراق
١٥	إسقاط المؤرخين الإسناد فى التدوين	الشام والعراق
١٦	تضخم المؤلفات التاريخية	الشام والعراق
١٧	تنوع المعلومات التاريخية	الشام والعراق
١٨	ظهور التواريخ المحلية	الشام والعراق
١٩	اهتمام الجغرافيون بالظواهر الطبيعية	العراق
٢٠	ظهور مدرسة الكلام (الأشاعرة)	الشام والعراق
٢١	عمل نظام امتحان للأطباء الجدد	الشام والعراق
٢٢	الاهتمام بعلم الطب	الشام والعراق
٢٣	الاهتمام ببناء المستشفيات	الشام والعراق

م	الظواهـر العلمية الجديدة	الإقليـــم
٢٤	الاهتمام بعلم الصيدلة	الشام والعراق
٢٥	امتحان الدواء لمعرفة صلاحيته من فساده	العراق
٢٦	ابتكار الكسر العشرى	الشام
٢٧	إدخال علم الجبر على حساب المثلثات	الشام
٢٨	فصل علم المثلثات عن علم الفلك	الشام
٢٩	ابتكار الخانات ـ وبناء المعادلات	العراق
٣٠	معرفة خواص الأعداد	العراق
٣١	إدخال علم الهندسة على علم الجبر	العراق
٣٢	اكتشاف الهندسة التحليلية	العراق
٣٣	اكتشاف علم التفاضل والتكامل	العراق
٣٤	إيجاد حساب جداول الجيب	العراق

(٢)جدول بأسماء أشهر مكتبات الشام

خلال القرن الرابع الهجرى

م	اسم المكتبة	مؤسسها
١	مكتبة أبى بكر الجعابى	أبو بكر الجعابى / محمد بن عمر بن محمد التميمى ت٣٥٥هـ
٢	مكتبة سيف الدولة	سيف الدولة الحمدانى / على بن عبد العزيز بن أحمد الحمدانى ت٣٤٧هـ
٣	مكتبة ابن حيان التميمى	ابن حيان / محمد بن حيان بن أحمد التميمى ت٣٥٤هـ

(٣)جدول بأسماء أشهر مكتبات العراق
خلال القرن الرابع الهجرى

م	اسم المكتبة	مؤسسها
١	مكتبة دار الحكمة ببغداد	الخليفة المأمون عبد الله بن هارون الرشيد
٢	مكتبة ابن الفرات	أبو الحسن على بن الفرات ت٣١٢هـ
٣	مكتبة بن سوار بالبصرة	ابن سوّار البصرى
٤	مكتبة القاضى محمد بن يوسف	محمد بن يوسف بن يعقوب الأزدى ت٣٢٠هـ
٥	مكتبة جعفر بن حمدان	جعفر بن حمدان الموصلى ت٣٢٣هـ
٦	مكتبة ابن عقدة	أحمد بن محمد بن سعيد لن عقدة الكوفى ت٣٣٢هـ
٧	مكتبة الصولى	محمد بن يحيى بن عبد الله الصولى ت٣٣٦هـ
٨	مكتبة أبى بكر النقاش	محمد بن الحسن بن محمد النقاش ت٣٥١هـ
٩	مكتبة الشريف الرضى	محمد بن الحسين بن موسى الرضى ت ٤٠٦هـ

(٤) جدول بأماكن التعليم فى الشام والعراق
خلال القرن الرابع الهجرى

م	اسم المكتبة	مؤسسها
١	الكُتاب	الشام والعراق
٢	المسجد	الشام والعراق
٣	منازل العلماء	الشام والعراق
٤	حوانيت الورّاقين	الشام والعراق
٥	الصالونات الأدبية	الشام والعراق
٦	البيمارستانات	الشام والعراق
٧	دور الكتب	الشام والعراق
٨	دور العلم	الشام والعراق
٩	المكتبات الخاصة	الشام والعراق

(٥) جدول بمجالس العلم فى الشام والعراق
خلال القرن الرابع الهجرى

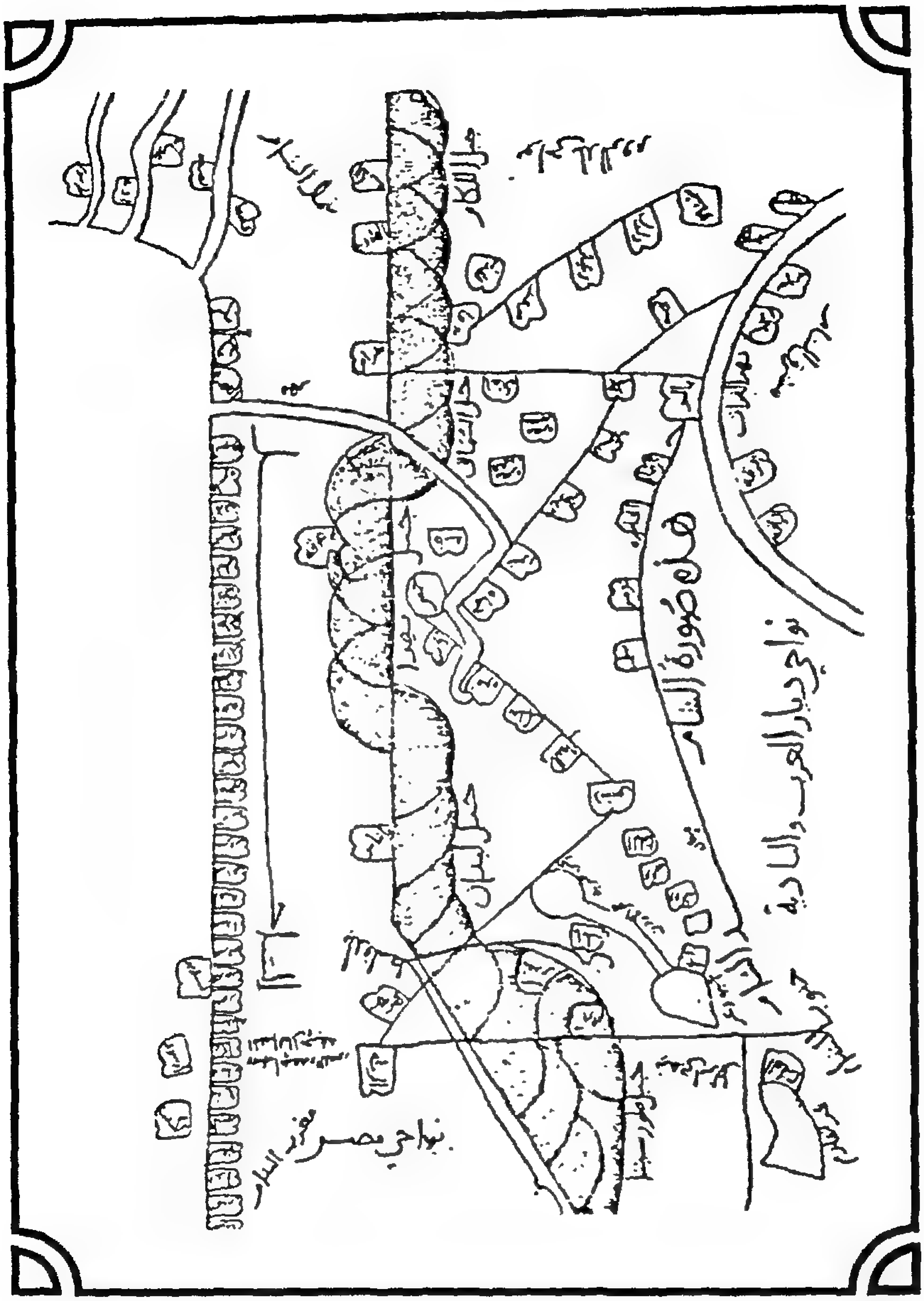
م	اســم المجلس	اسم الإقليم
١	مجالس الحديث	الشام والعراق
٢	مجالس التدريس	الشام والعراق
٣	مجالس المناظرة	الشام والعراق
٤	مجالس المذاكرة	الشام والعراق
٥	مجالس الشعر	الشام والعراق
٦	مجالس الفتوى	الشام والعراق
٧	مجالس الوعظ	الشام والعراق

(٦) جدول بأشهر بيمارستان الشام

اسم البيمارستان	مؤسســـها
بيمارستان القدس	الفاطميون
بيمارستان دمشق	أنشئ فى عام ٧٠٦هـ

(٧) جدول بأشهر بيمارستان العراق

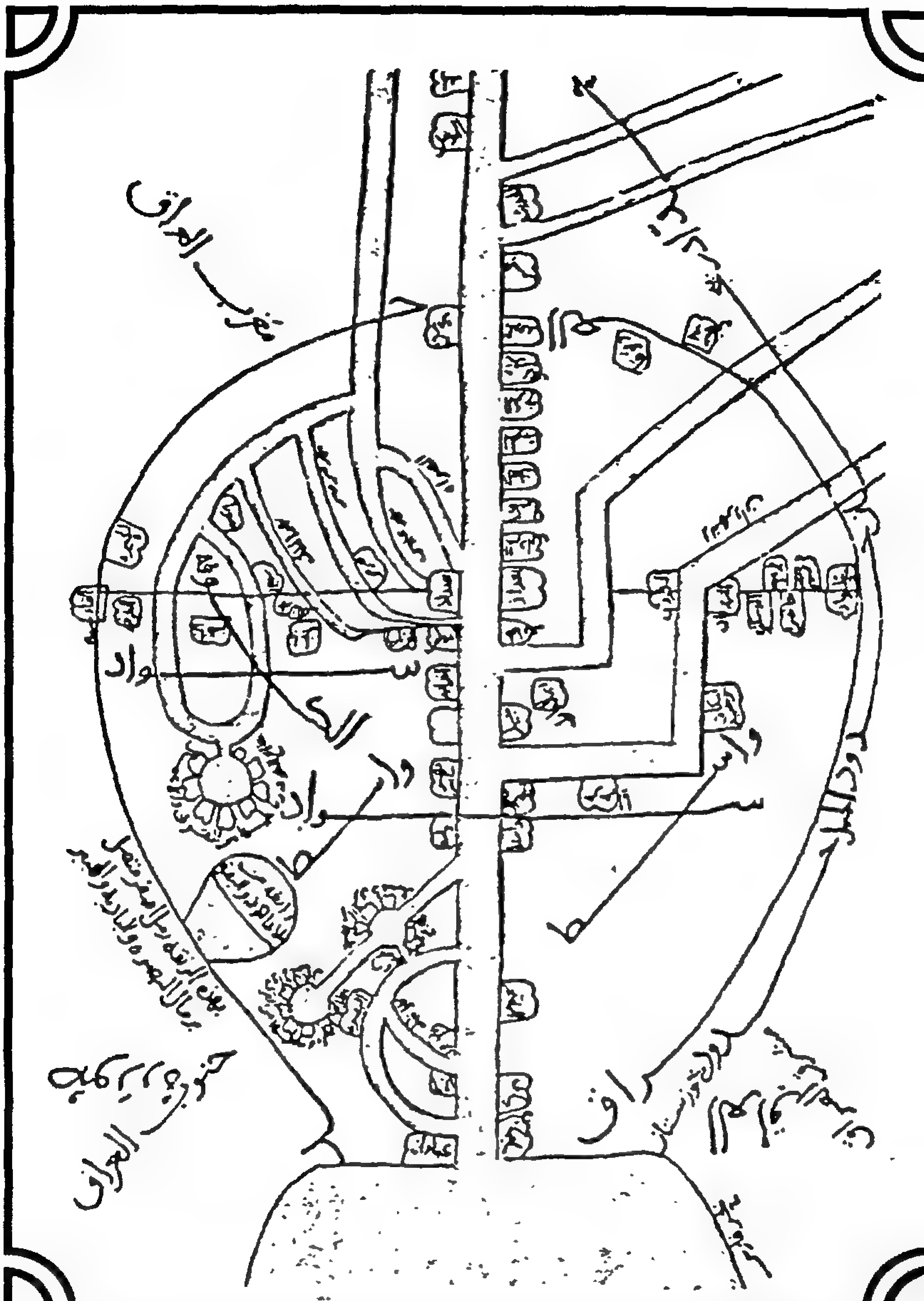
اسم البيمارستان	مؤسســـها
بيمارستان الحرية	الوزير أبو الحسن على بن عيسى البغدادى فى سنة ٣٠٢هـ
بيمارستان أم المقتدر	أم المقتدر بالله فى سنة ٣٠٦هـ
بيمارستان المقتدرى	الخليفة المقتدر بالله فى سنة ٣٠٦هـ
بيمارستان ابن الفرات	الوزير ابن الفرات فى سنة ٣١٣هـ
بيمارستان معز الدولة البويهى	معز الدولة البويهى فى سنة ٣٥٥هـ
بيمارستان العضدى	عضد الدولة ابن بويه فى سنة ٣٧٢هـ



شكل (١)

صورة الشام

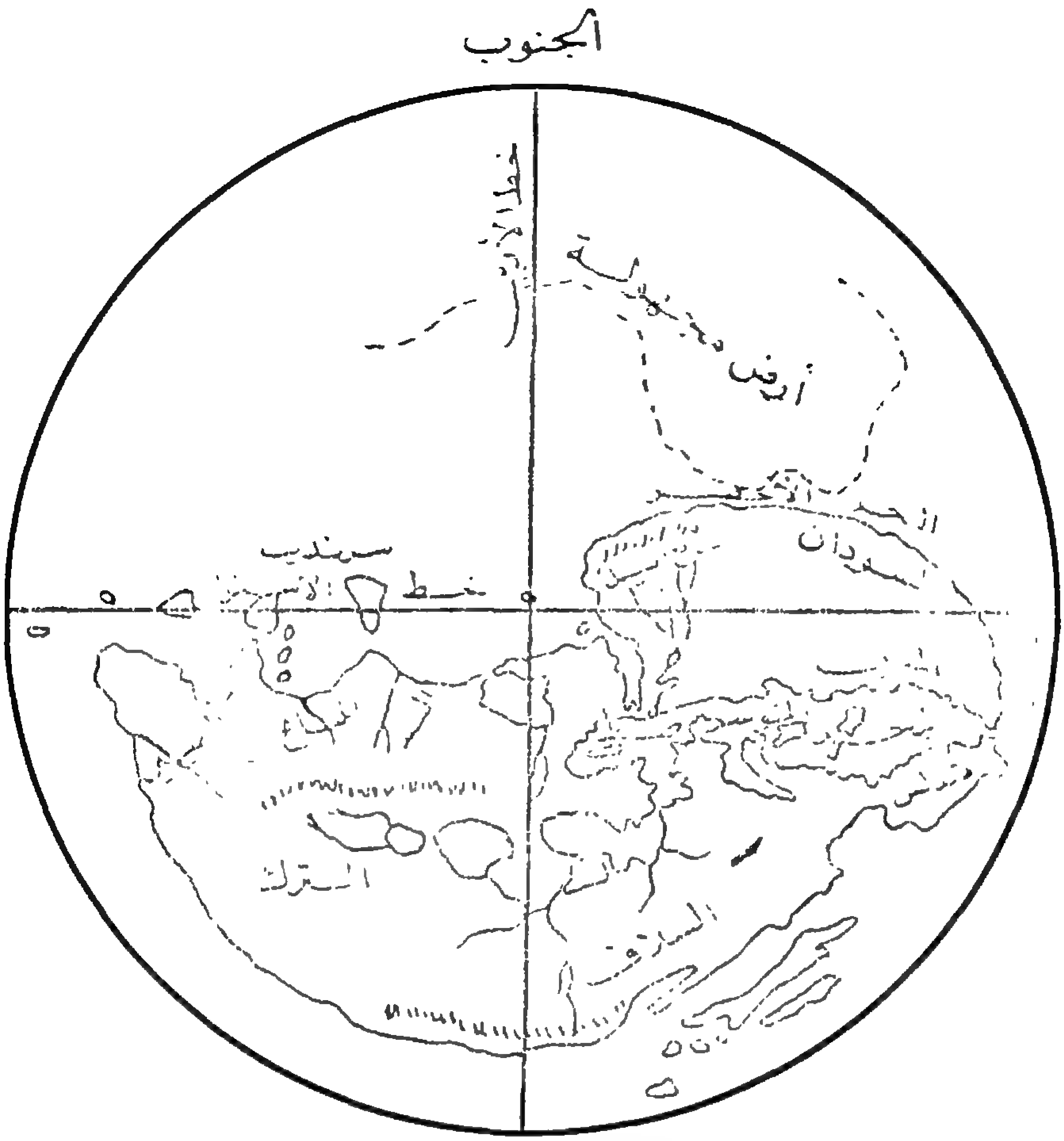
مأخوذة من كتاب "صورة الأرض" لابن حوقل ت٣٦٧هـ



شكل (٢)

صورة العراق

مأخوذة من كتاب "صورة الأرض" لابن حوقل ت٣٦٧هـ



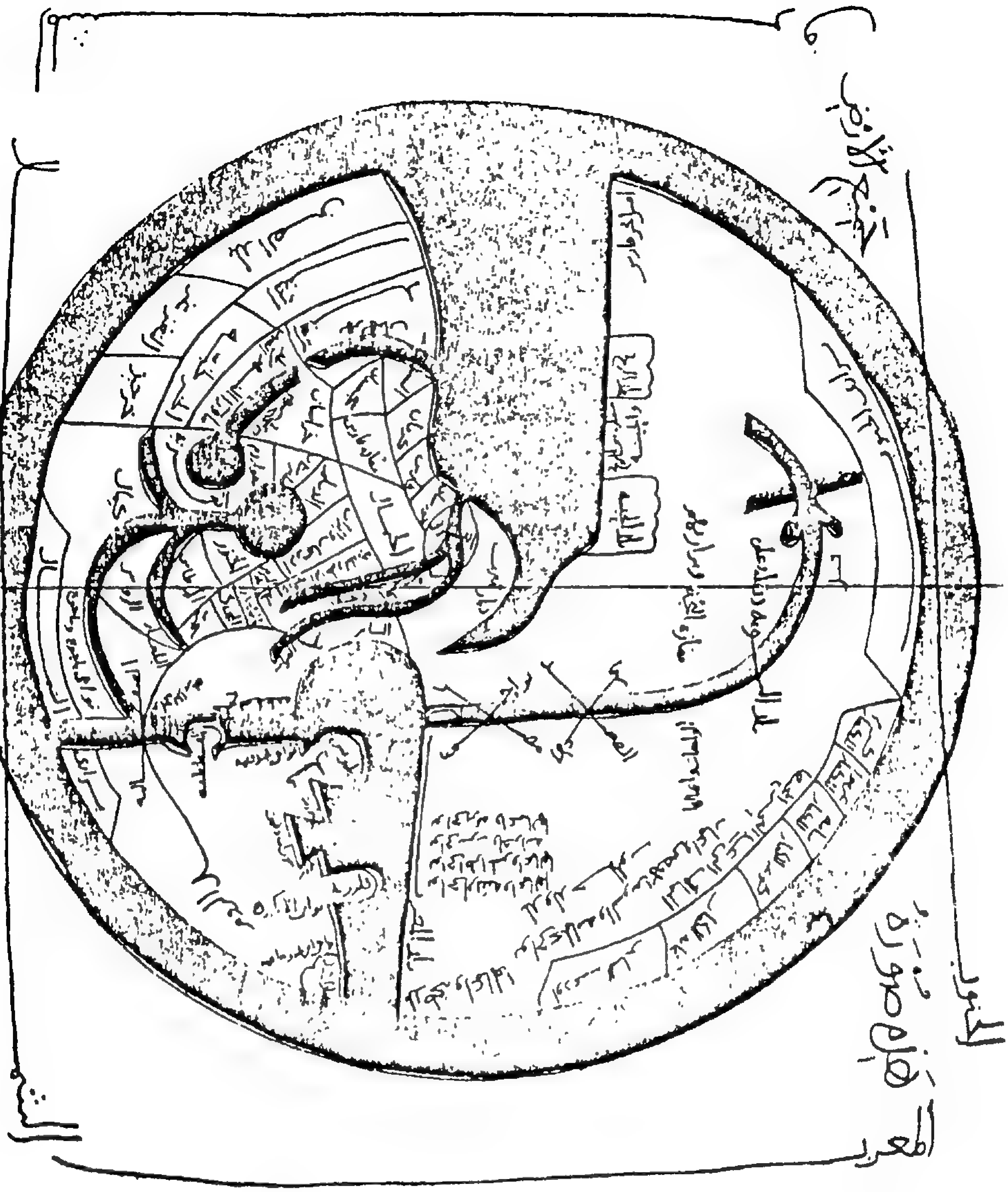
خريطة المسعودى

شكل (٣)

صورة جميع الأرض

للمسعودى ت٣٤٦هـ، مأخوذة من كتاب علم الخرائط

للدكتور محمد صبحى عبد الحكيم والدكتور ماهر عبد الحميد الليثى



شكل (٤)

صورة جميع الأرض

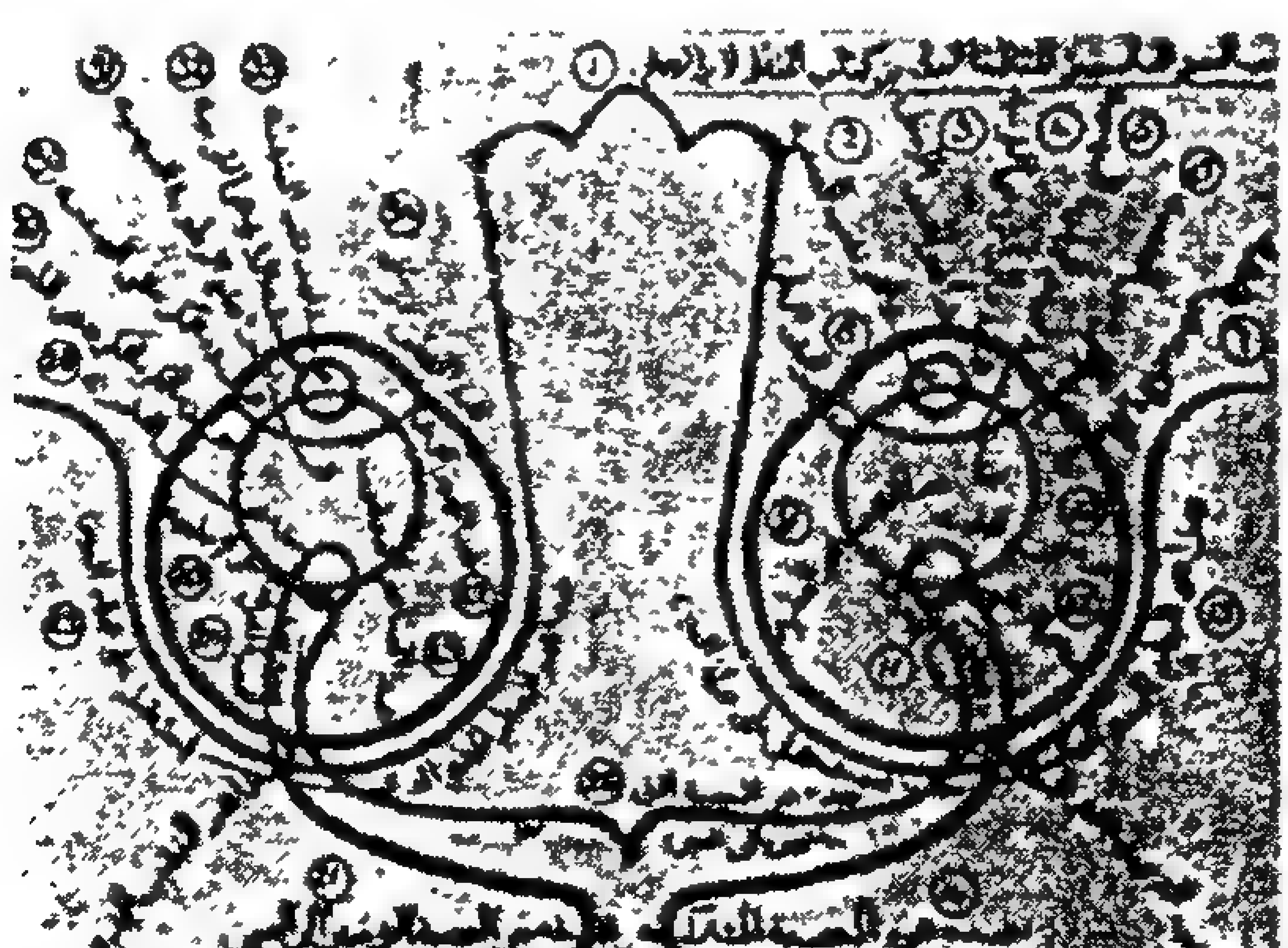
ماخوذة من كتاب "صورة الأرض" لابن حوقل ت٣٦٧هـ



شكل (٥)

صورة تمثل عملية قيصرية.. أمراض نسائية

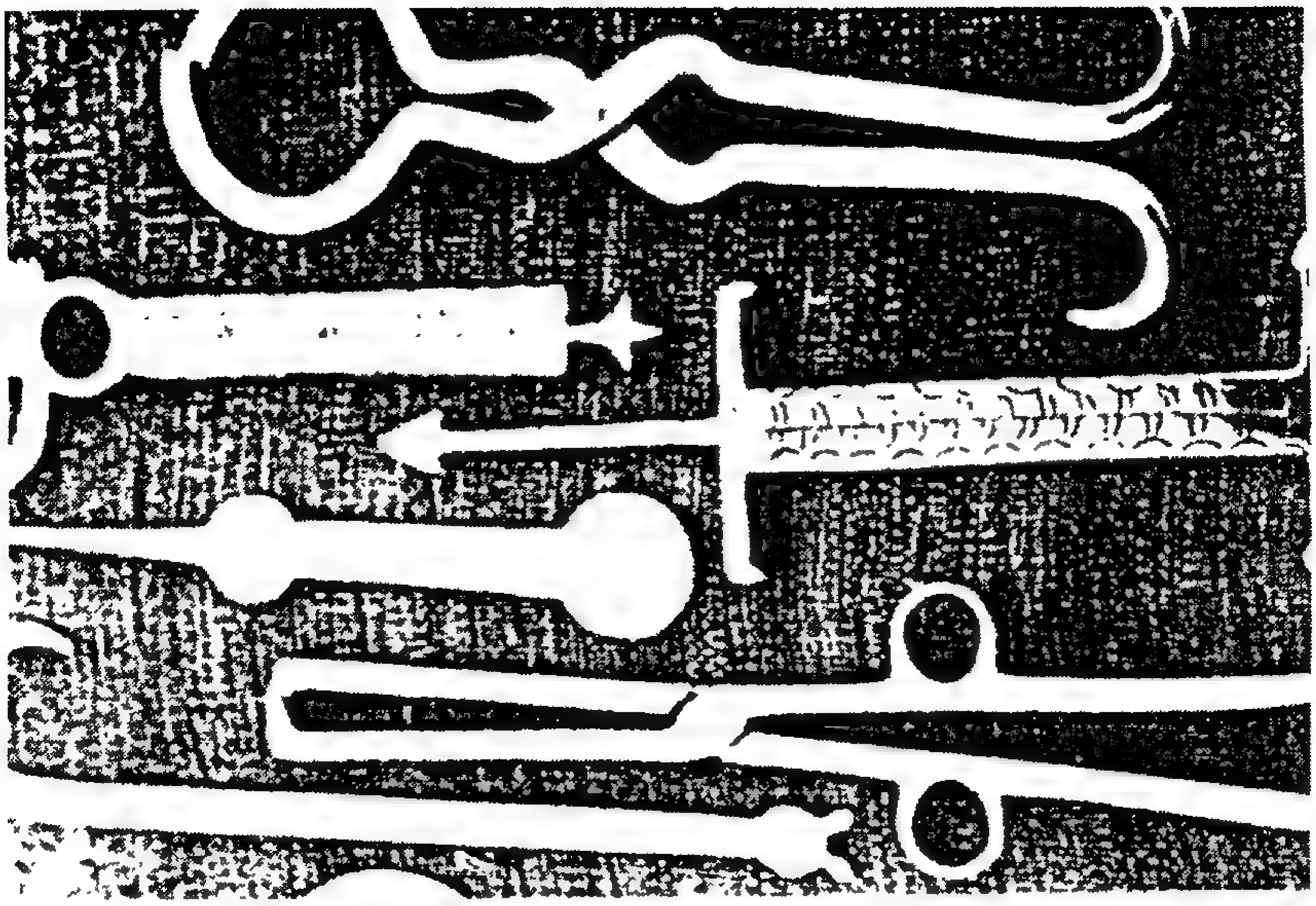
صورة من متحف الطب والعلوم عند العرب فى دمشق



شكل (٦)

صورة تمثل أعصاب العينين وأقسامهما واتصالهما بالمخ

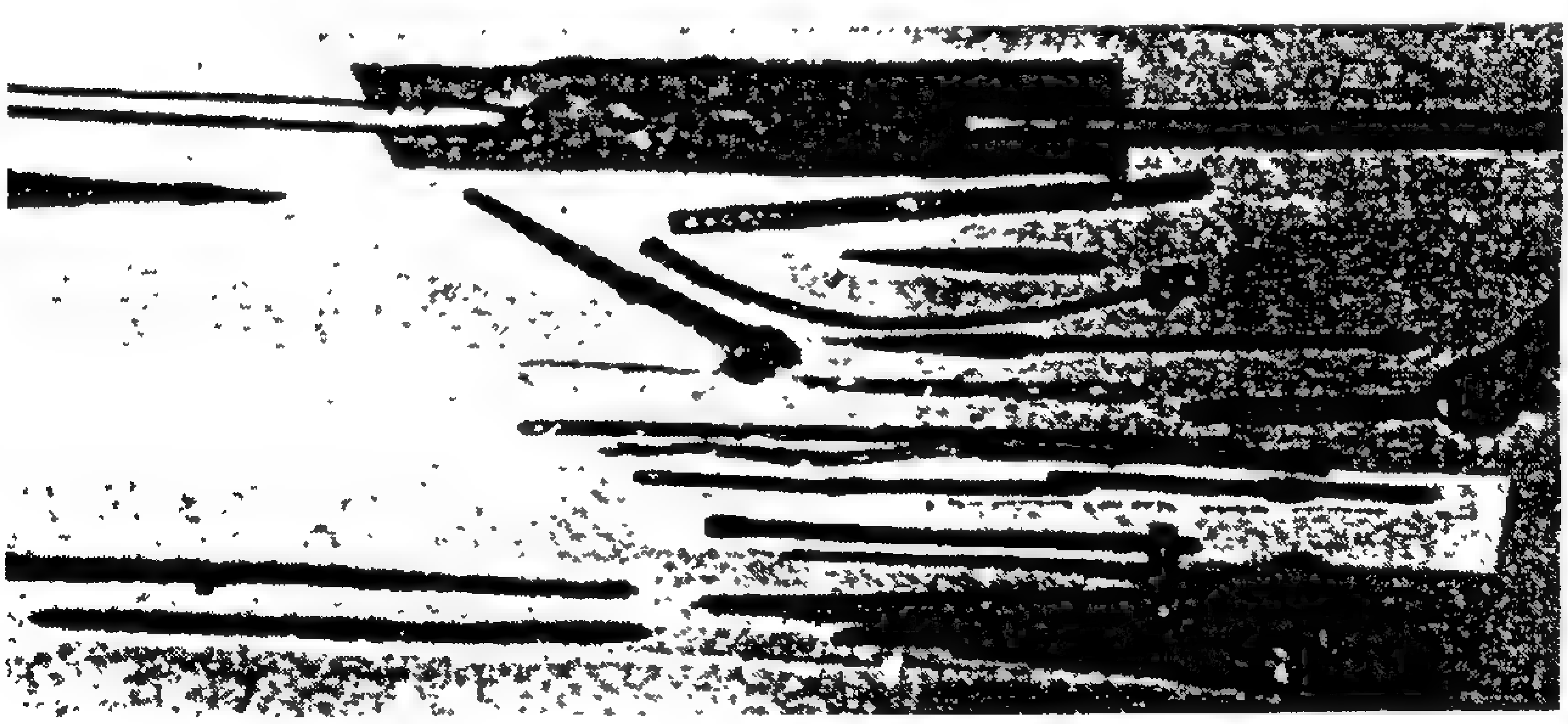
صورة من متحف الطب والعلوم عند العرب فى دمشق



شكل (٧)

صورة تمثل أدوات للقطع والقص ومقابض الجراحة

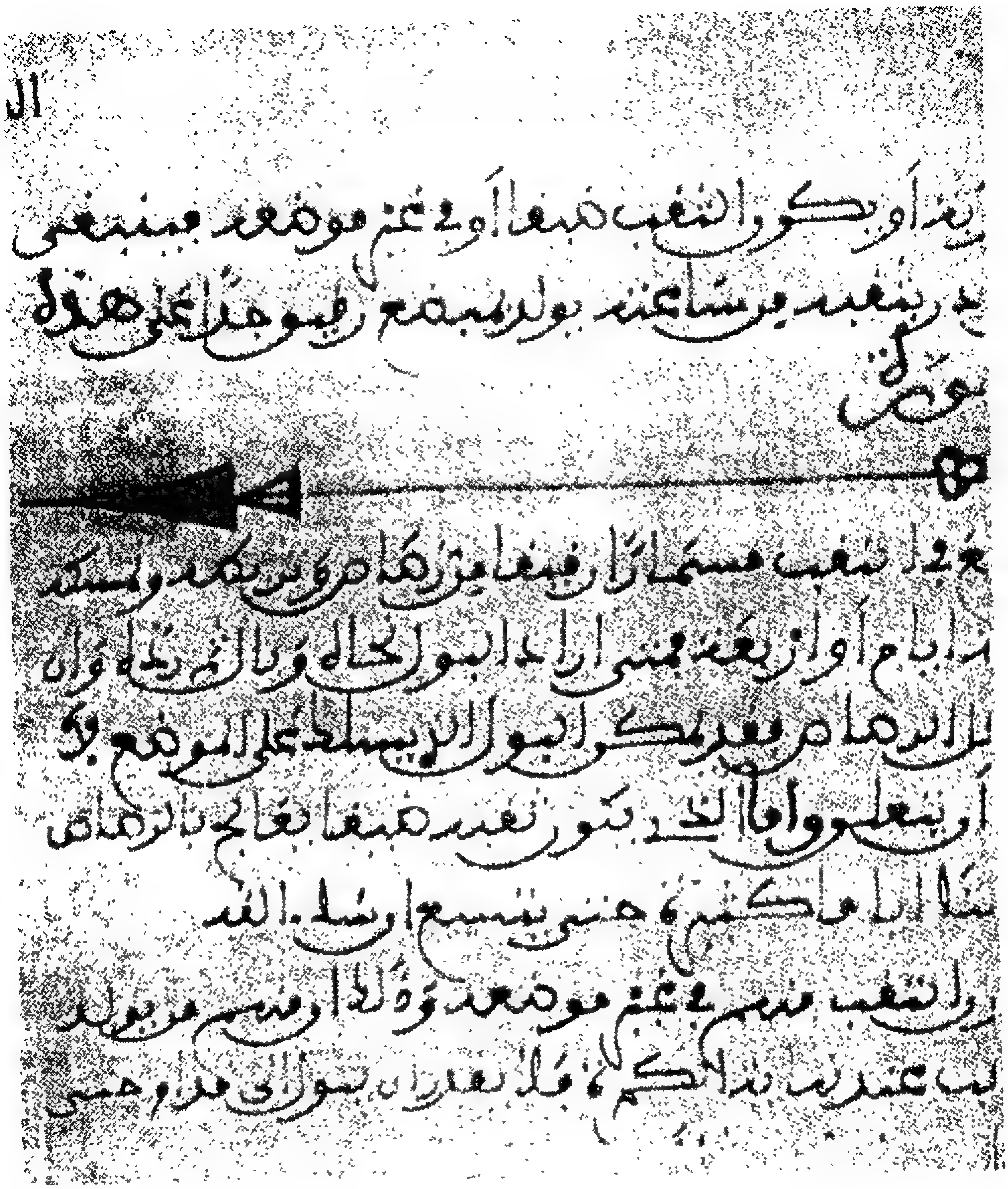
صورة من متحف الطب والعلوم عند العرب فى دمشق



شكل (٨)

صورة تمثل أدوات للقطع والكيّ

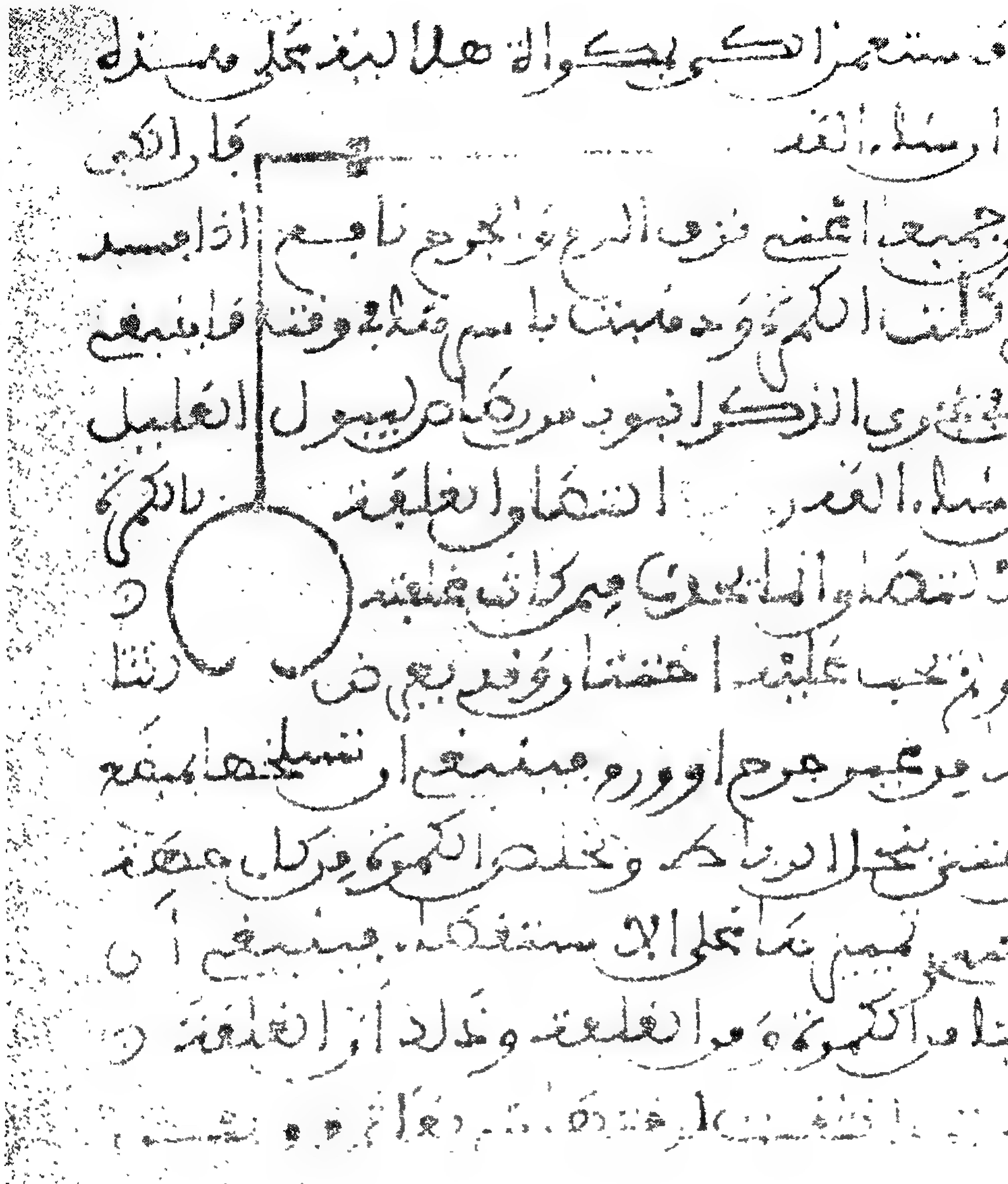
صورة من متحف الطب والعلوم عند العرب فى دمشق



شكل (٩)

صورة تمثل مبضع لعمل ثقب فى الكمرة

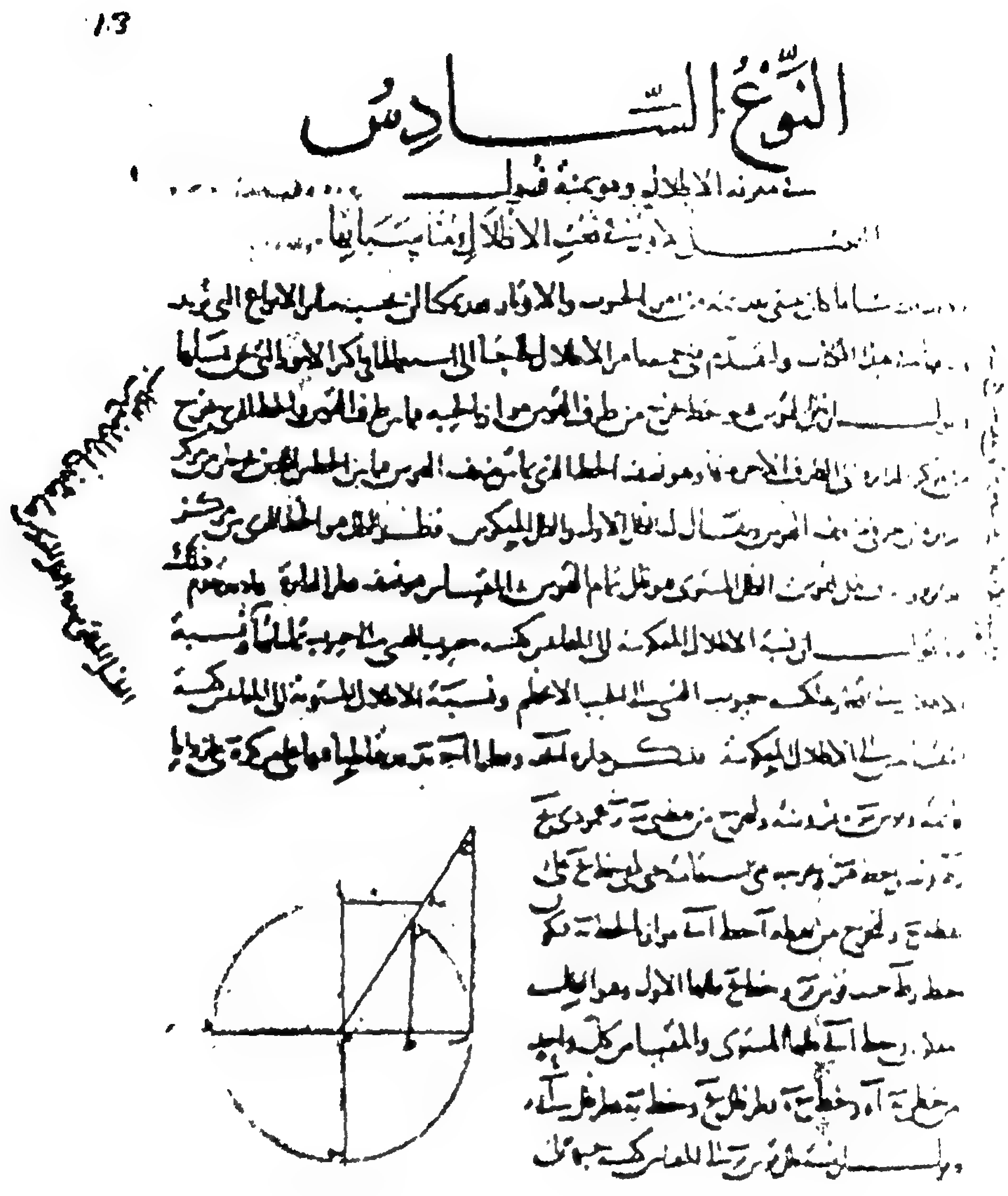
صورة مأخوذة من كتاب الحاوى للرازى ت ٣٢٠هـ



شكل (١٠)

صورة تمثل مكواه لكى بثور القلفة والكمرة والإحليل

صورة مأخوذة من كتاب الحاوى للرازى ت ٣٢٠هـ



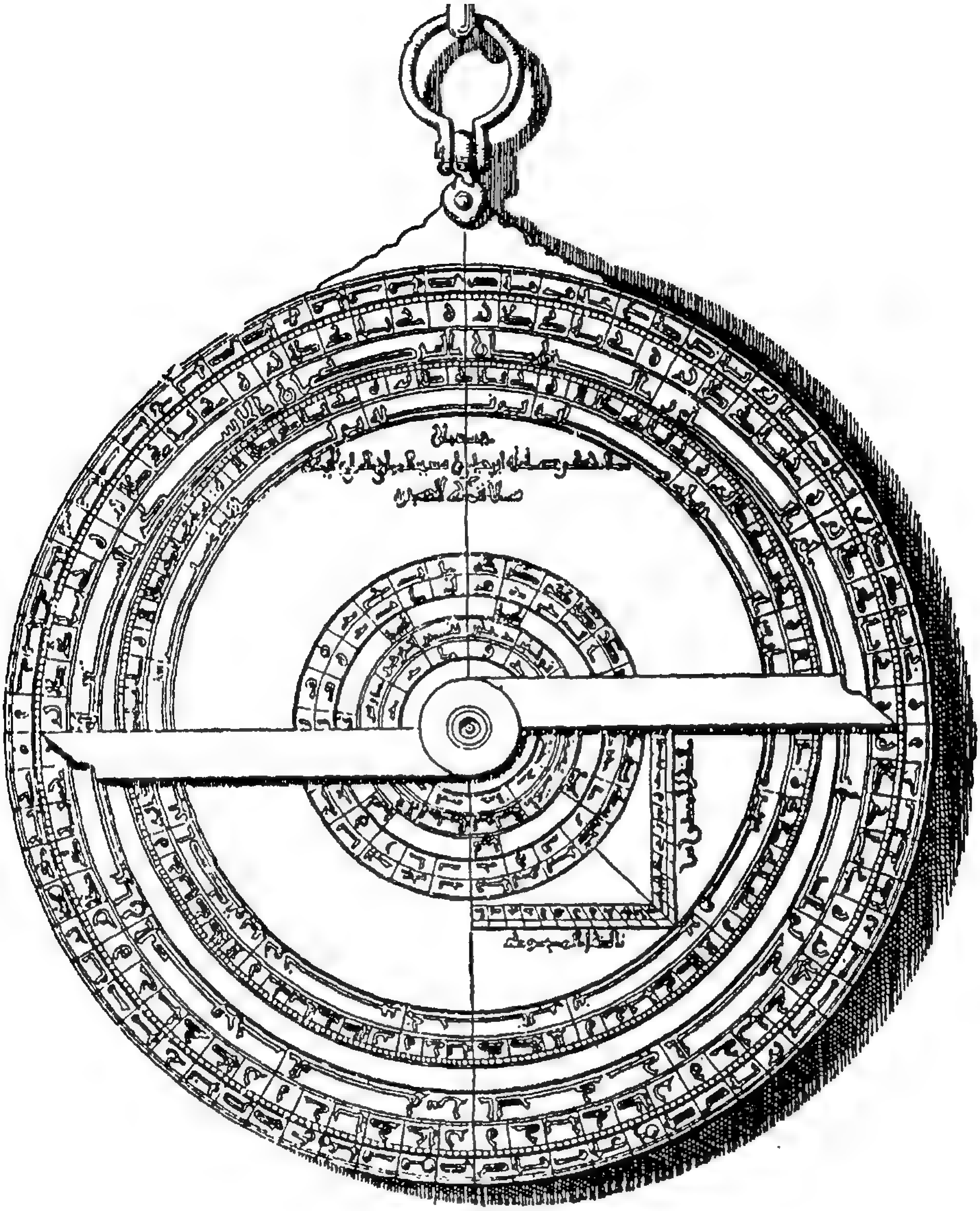
النوع السادس

شكل (١١)

صورة تمثل دائرة وحدة تبين الدوال المثلثية للزوايا

وهى: جيب الزاوية (جا) وجيب تمام الزاوية (جتا)

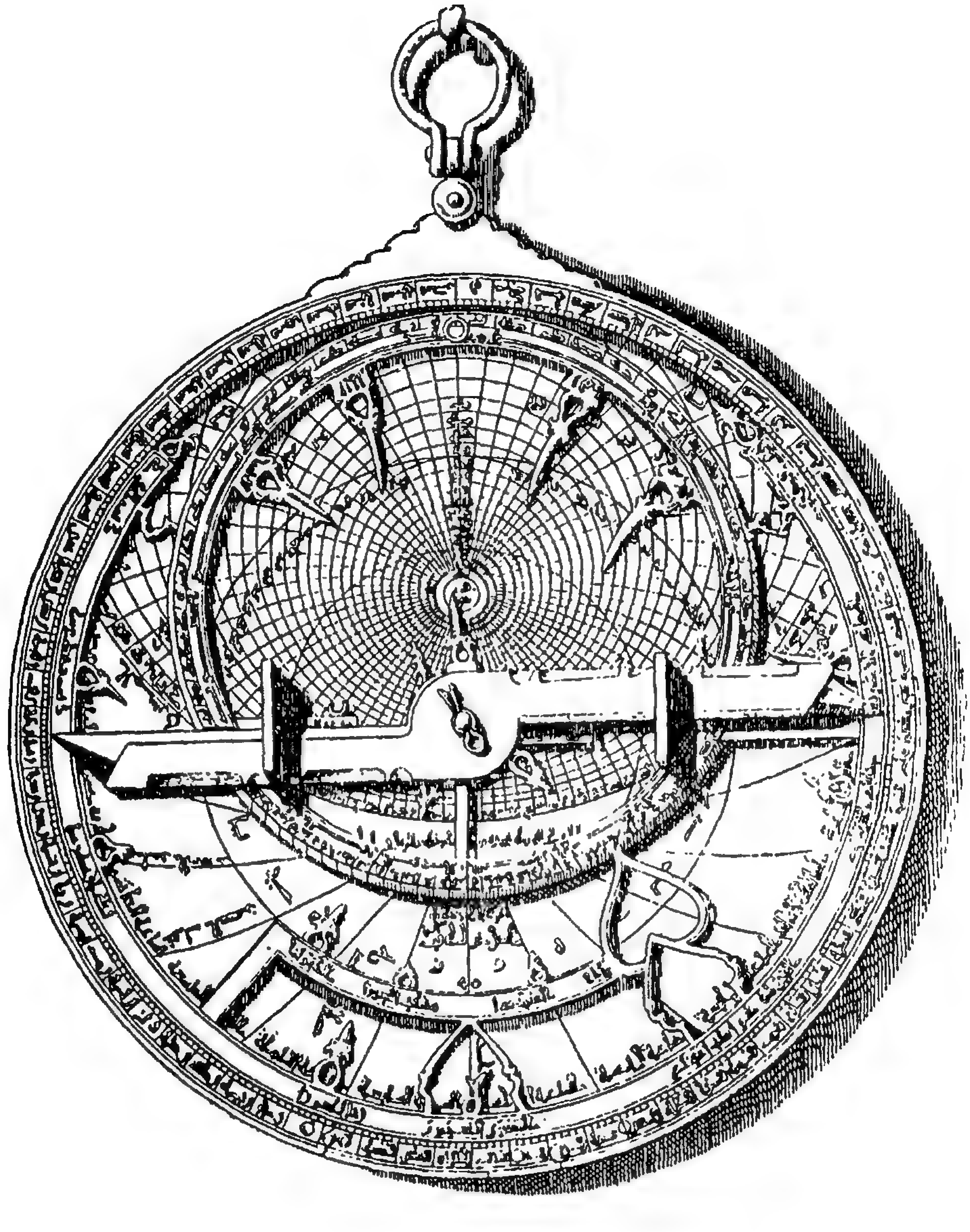
وظل الزاوية (ظا) مأخوذة من كتاب المجسطى للبوزجانى ت٣٨٨هـ



شكل (١٢)

صورة تمثل الاسطرلاب العربى

صورة مأخوذة من كتاب "حضارة العرب لغوستاف لوبون"



شكل (١٣)

صورة تمثل الوجه الثانى للاسطرلاب العربى السابق

صورة مأخوة من كتاب "حضارة العرب لغوستاف لوبون"

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

رتبت هذه المصادر والمراجع على أساس الترتيب الأبجدى لأسماء الكتب

القرآن الكريم

أولاً : المخطوطات :

١ ـ تاريخ مدينة دمشق : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ١٤٥٩ تاريخ ، لابن عساكر على بن الحسن بن هبة الله ت٥٧١هـ.

٢ ـ تعريفات العلوم وموضوعاتها : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ٤ معارف عامة ، للقاضى ناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر البيضاوى ت٦٨٥هـ.

٣ ـ جوامع العلوم : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ٥ معارف عامة ، لمنعبى بن فريعون تلميذ أبى زيد البلخى ت٣٢٢هـ.

٤ ـ خلاصة تحقيق الظنون فى الشرح والمتون : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ٤١٦ معارف عامة ، تأليف كمال الدين محمد أبى الفتوح بن مصطفى بن كمال الدين بن على الصديقى ت١١٨٠هـ.

٥ ـ الدر المنظوم فى بيان حصر العلوم : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم٨ معارف عامة ، تأليف أحمد بن عمر بن هلال الربعى المالكى ت٧٩٥هـ.

٦ ـ رسالة فى وصف المعانى فى علم الهندسة والنجوم : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم ٩٢ رياضيات ، تأليف إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة الحرانى ت٣٣٥هـ.

٧ ـ زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة : مصور بجامعة القاهرة عن نسخة باريس رقم ١٥٧٢ تاريخ ، تأليف بيبرس ركن الدين المنصورى الواداري ت٧٢٥هـ.

٨ ـ سير السلف الصالحين : دراسة وتحقيق د/ كرم فرحات . طبعة دار الراية ـ السعودية ١٩٩٩م، تأليف الإمام إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهانى ت٥٣٥هـ.

٩ ـ شرح كتاب سيبويه : مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٧٤/٢ نحو ، تأليف أبى سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى ت٣٦٨هـ.

١٠ ـ عجائب علوم القرآن : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم ١٤٨ تفسير وعلوم قرآن ، تأليف محمد بن القاسم الأنبارى ت٣٢٨هـ.

١١ ـ الفصول فى الحساب الهندى : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم ١١٣ رياضيات ، تأليف أبو الحسن أحمد بن إبراهيم الاقليدسى ت بعد ٣٤١هـ.

١٢ ـ المجسطى : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم ١٧٧ فلك ، تأليف أبو الوفاء محمد بن محمد البوزجانى ت٣٨٨هـ.

١٣ ـ مقالة فى طرق التحليل والتركيب فى الأعمال الهندسية :مخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم ١٣٨ رياضيات ، تأليف إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة الحرانى ت٣٣٥هـ.

١٤ ـ المناقب العباسية : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم ٤٢٤ تاريخ ، لمؤلف مجهول غر واضح الاسم على الكتاب .

١٥ ـ النجوم الزواهر فى معرفة الأواخر : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم ٢٧٠ تاريخ تأليف أحمد بن خليل بن أحمد الدمشقى ت٨٩٦هـ.

ثانيا : المصادر :

١٦ ـ الإبانة عن أصول الديانة : لأبى الحسن بن إسماعيل الأشعرى ت٣٣٠هـ، المطبعة المنيرية ـ القاهرة ١٩٣٠م.

١٧ ـ إبراز المعانى من حرز الأمانى : لأبى شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى ت٦٦٥هـ، طبعة مصطفى الحلبى ـ القاهرة ١٣٤٩هـ.

١٨ ـ إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى : تأليف أبى عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد بن على المنهاجى شمس الدين السيوطى ت٨٨٠هـ، تحقيق الدكتور أحمد رمضان أحمد ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٤م.

١٩ ـ الإتقان فى علوم القرآن : للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ت٩١١هـ، الطبعة الرابعة بمطبعة مصطفى الحلبى ـ القاهرة ١٩٧٨م .

٢٠ ـ الاجتهاد : للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ت٩١١هـ ، تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم ، طبعة مؤسسة شباب جامعة الإسكندرية ١٩٨٥م .

٢١ ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : تأليف أبى عبد الله محمد بن أحمد المقدسى ت٣٨٠هـ، طبعة دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ١٩٨٧م.

٢٢ ـ إحصاء العلوم : لأبى نصر محمد بن محمد الفارابى ت٣٣٩هـ، تحقيق الدكتور عثمان أمين ، طبعة القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨م.

٢٣ ـ أحكام القرآن : للقاضى أبى بكر بن العربى محمد بن عبد الله بن محمد ت٥٤٣هـ، طبعة القاهرة ـ مطبعة السعادة ١٣٣١هـ.

٢٤ ـ أخبار أبى تمام : لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ت٣٣٥هـ، نشر خليل محمد عساكر وآخرين ، طبعة القاهرة ١٩٣٧م.

٢٥ ـ أخبار الدول وآثار الأول : لأبى العباس أحمد بن يوسف القرمانى الدمشقى ت١٠١٩هـ، طبعة حجر ـ بغداد ١٨٨٢م.

٢٦ ـ أخبار الدول المنقطعة : لعلى بن ظاهر الأزدى ت٦٢٣هـ تحقيق تميمة الرواف، طبع ونشر دار حسان ـ دمشق ١٤٠٦هـ.

٢٧ ـ أخبار الراضى بالله والمتقى بالله : لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ت٣٣٥هـ، عنى بنشره ج. هيورث . دن بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ـ طبعة الصاوى بمصر ١٩٣٥م.

٢٨ ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء : لجمال الدين أبى الحسن على بن القاضى القفطى ت٦٤٦هـ، نشر مكتبة المتنبى بالقاهرة . بدون تاريخ .

٢٩ ـ أخبار النحويين البصريين : لأبى سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى ٣٦٨هـ ، تحقيق طه محمد الزينى ومحمد عبد المنعم خفاجى ، طبعة مصطفى الحلبى ـ مصر ١٩٥٥م.

٣٠ ـ أدب الكاتب : لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ت٣٣٥هـ نشر محمد بهجة الأزى ـ طبعة القاهرى ١٣٤١هـ.

٣١ ـ الأشباه والنظائر فى النحو : للإمام عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ٩١١هـ، باهتمام حسن بن أحمد الحنفى ، طبعة الدكن ـ حيدر آباد ـ مجلس إدارة المعارف النظامية ١٣١٧هـ.

٣٢ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة : شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى ت٨٥٢هـ، طبعة دار صادر ـ بيروت ١٣٢٨هـ.

٣٣ ـ أصول الدين : للإمام عبد القاهر بن طاهر التميمى البغدادى ت٤٢٩هـ، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨١م.

٣٤ ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ت٩٠٢هـ، تحقيق وتعليق فرانز روزنثال ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ بدون تاريخ .

٣٥ ـ الاقتصاد فى الاعتقاد : لأبى حامد محمد بن محمد الغزالى ت٥٠٥هـ ، طبعة القاهرة ١٣٢٧هـ.

٣٦ ـ الإمتناع والمؤانسة لأبى حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى ت٤٠٣هـ، طبعة دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ بدون تاريخ .

٣٧ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة : لجمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى ت٦٢٤هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار الفكر العربى ـ القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ١٩٨٦م .

٣٨ ـ الأوراق فى أخبار آل عباس وأشعارهم : لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ت٣٣٥هـ، نشر ج. هيورث ـ دن ، طبعة مكتبة أولاد الخانجى ١٩٣٤م.

٣٩ ـ الإيضاح فى علل النحو : لأبى القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى ٣٣٧هـ، تحقيق مازك المبارك ، طبعة القاهرة ـ مكتبة دار العروبة ، مطبعة المدنى ١٣٧٨هـ.

٤٠ ـ الباعث الحثيث فى اختصار علوم الحديث : للحافظ أبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى ٧٧٤هـ، طبعة دار التراث العربى ـ القاهرة ١٩٧٩م.

٤١ ـ البداية والنهاية : لأبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى ت٧٧٤هـ، تحقيق مجموعة من الأساتذة ، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٥م.

٤٢ ـ بغية الطلب فى تاريخ حلب : للصاحب كمال الدين عمر بن أحمد الشهير بابن العديم ت٦٦٠هـ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، طبعة دمشق ١٩٨٨م.

٤٣ ـ بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس : لأحمد بن يحيى الضبى ت٥٩٩هـ بعناية فرانتيسكوا كوديرا وهوليانوس ريبيرا ، طبعة مجريط ـ أسبانيا ١٩٨٤م.

٤٤ ـ بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب : تأليف محمود شكرى بن عبد الله الألوسى ت١٣٤٣هـ، طبعة القاهرة ١٣٤٢هـ.

٤٥ ـ تاريخ بغداد : لأبى أحمد بن على الخطيب البغدادى ت٤٦٣هـ، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٦م.

٤٦ ـ تاريخ حكماء الإسلام : تأليف ظهير الدين البيهقى أبو الحسن على بن زيد ت٥٦٥هـ، تحقيق محمد كرد على ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٨م.

٤٧ ـ تاريخ الخلفاء : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ٩١١هـ، طبعة دار التراث ـ بيروت ١٩٦٩م.

٤٨ ـ تاريخ مختصر الدول : لابن العبرى أبي الفرد غريغوريس ، تحقيق انطوان صالحان ، طبعة بيروت ١٨٩٠م.

٤٩ ـ تاريخ مدينة دمشق (الجزء الأول) : لأبى القاسم على بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر ت٥٧١هـ، تحقيق الدكتور صلاح المنجد ـ طبعة دمشق ـ بدون تاريخ .

٥٠ ـ تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة محمد بن عبد الله بن مسلم ت٢٧٦هـ، شرحه ونشره السيد أحمد صقر ، طبعة دار التراث ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة١٩٧٣م.

٥١ ـ تجارب الأمم وتعاقب الهمم : لابن مسكويه أحمد بن محمد بن يعقوب ت٤٢١هـ، طبعة مكتبة المثنى ـ بغداد عن طبعة دى غويه ـ بدون تاريخ .

٥٢ ـ تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى : لأبى العلى محمد بن عبد الرحمن المباركفورى ت١٣٥٣هـ، ضبطه وصححه عبد الرحمن محمد بن عثمان ، نشر محمد عبد المحسن الكتبى بالمدينة المنورة ـ بدون تاريخ .

٥٣ ـ تدبير الحبالى والأولاد والصبيان : لأحمد بن محمد بن يحيى البلدى ت٣٨٠هـ، تحقيق محمد الحاج قاسم ، طبعة بغداد ـ وزارة الثقافة والإعلام ودار الرشيد للنشر ١٩٨٠م.

٥٤ ـ تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم : تأليف العلامة القاضى ابن جماعة الكنانى ت٧٣٣هـ ، إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ، طبعة دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ بيروت ١٣٥٤هـ.

٥٥ ـ تذكرة المحالين : لعلى بن عيسى البغدادى ت٤٠٠هـ، تحقيق غوث محيى الدين القادرى ، طبعة حيدر آباد ـ الدكن ١٩٦٤م.

٥٦ ـ تعليم المتعلم فى طريق التعلم : للإمام برهان الدين الزرنوجى ت٥٩٣هـ، تحقيق صلاح محمد الخيمى ونزيد حمدان ، طبعة دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٨٧م.

٥٧ ـ تفسير جامع البيان عن تأويل آى القرآن : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ت٣١٠هـ، تحقيق محمود محمد شاكر ، طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٦٩م.

٥٨ ـ تكملة تاريخ الطبرى ضمن مجلد ذيول تاريخ الطبرى : لمحمد بن عبد الملك الهمذانى ت٥٢١هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٨٢م.

٥٩ ـ تلبيس إبليس : لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ت٥٩٧هـ، مكتبة المتنبى بالقاهرة ، ومكتبة سعد الدين بدمشق ـ الطبعة الثانية ١٣٦٨هـ.

٦٠ ـ التنبيه والإشراف : لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى ت٣٤٦هـ، تصحيح ومراجعة عبد الله إسماعيل الصاوى ، طبعة دار الصاوى ـ القاهرة ١٩٣٨م.

٦١ ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق : لابن مسكويه أحمد بن محمد بن يعقوب ٤٢١هـ، تصحيح عبد الجواد خلف ، طبعة القاهرة ـ المطبعة الخيرية ١٣٢٣هـ.

٦٢ ـ تهذيب الأسماء واللغات : لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووى ت٦٧٦هـ، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ .

٦٣ ـ ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن : لعلى بن عيسى الرمانى ٣٨٦هـ، ومحمد بن حمد الخطابى ٣٨٨هـ، وعبد القادر بن عبد الرحمن الجرجانى ٤٧١هـ: تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، الطبعة الرابعة بدار المعارف ـ القاهرة ١٩٩١م.

٦٤ ـ جمهرة أنساب العرب : لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى ٤٥٦هـ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الخامسة ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٢م .

٦٥ ـ جواهر الألفاظ : لقدامة بن جعفر ت٣٣٧هـ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، طبعة مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٣٢م.

٦٦ ـ الحاوى فى الطب : لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى ٣٢٠هـ، بتصحيح السيد عبد الوهاب وشرف الدين ومحمد عبد المعين خان ، طبعة حيدر آباد ـ الدكن ـ دائرة المعارف العثمانية ١٩٧٢م.

٦٧ ـ حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ت٩١١هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة عيسى الحلبى بالقاهرة ١٩٦٧م.

٦٨ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى ت٤٣٠هـ، الطبعة الخامسة ، طبعة دار الريان للتراث بالقاهرة ودار الكتاب العربى ببيروت ١٩٨٧م.

٦٩ ـ الخصائص : لأبى الفتح عثمان بن جنى الموصلى ت٣٩٢هـ، تحقيق محمد على النجار ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢م.

٧٠ ـ الخطط والآثار : لأحمد بن على أبو العباس المقريزى ت٨٤٥هـ، تصحيح محمود فتح الله حبيب ، طبعة القاهرة ١٣٢٦هـ.

٧١ ـ دول الإسلام : للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ت٧٤٨هـ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد إبراهيم ، طبعة الهيئة المصرية العامة ـ القاهرة ١٩٧٤م.

٧٢ ـ الديارات : لأبى الحسن على بن محمد الشابشتى ت٣٨٨هـ، تحقيق كوركيس عواد ، طبعة بغداد ـ مطبعة المثنى ـ الطبعة الثانية ، مطبعة المعارف ١٩٦٦م.

٧٣ ـ ديوان أبى فراس الحمدانى ت٣٥٧هـ : شرح ابن خالويه الحسين بن أحمد ت٣٧٠هـ، تحقيق الدكتور سامى الدهان ، طبعة حلب ـ بدون تاريخ .

٧٤ ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد : للإمام ابن القيم الجوزيه شمس الدين محمد بن أبى بكر ت٧٥١هـ، طبعة المطبعة المصرية ـ بدون تاريخ .

٧٥ ـ زبدة الحلب فى تاريخ حلب : لابن العديم عمر بن أحمد الحلبى ت٥٨٦هـ، تحقيق الدكتور سامى الدهان ، طبع المعهد الفرنسى ـ دمشق ١٩٥١م.

٧٦ ـ زبدة الطلب فى تاريخ حلب : لابن العديم عمر بن أحمد الحلبى ت٥٨٦هـ، طبعة بيروت ـ بدون تاريخ .

٧٧ ـ زهر الآداب : لإبراهيم بن على الحصرى القيروانى ت٤٥٣هـ، تحقيق على محمد البجاوى ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٣م.

٧٨ ـ سنن أبى داود ك سليمان بن الأشعث السجستانى ت٢٧٥هـ، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس ، وعادل السيد ، طبعة دار الحديث ـ حمص ـ سورية ١٩٣٤م.

٧٩ ـ سنن النسائى : للحافظ أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على النسائى ت٣٠٣هـ، رقمه ووضع فهارسه عبد الفتاح أبو غدة ـ طبع بيروت ١٩٨٦م.

٨٠ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب : لأبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى ت١٠٨٩هـ، طبع دار المسيرة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

٨١ ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى ت٨٢١هـ، طبعة المؤسسة المرية العامة للتأليف والترجمة ١٩٢٢م.

٨٢ ـ صحيح البخارى : لمحمد بن إسماعيل البخارى ت٢٥٦هـ، طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

٨٣ ـ صحيح مسلم : لأبى الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى ت٢٦١هـ، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقى ـ طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٤م.

٨٤ ـ صورة الأرض : لمحمد بن على بن حوقل البغدادى ت٣٦٧هـ، طبعة دار الكتب الإسلامية بالقاهرة ـ بدون تاريخ .

٨٥ ـ طبقات الأطباء والحكماء : لابن جلجل أبى داود سليمان بن حسن ت بعد ٣٨٤هـ، تحقيق فؤاد سعيد ، طبعة القاهرة ١٩٠٨م.

٨٦ ـ طبقات الحفاظ : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ٩١١هـ، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبان ١٩٨٣م.

٨٧ ـ طبقات الحيوان الكبرى : لكمال الدين محمد بن موسى الدميرى ت ٨٠٨هـ، طبعة القاهرة ١٣٢٤هـ.

٨٨ ـ طبقات الشافعية : لأبى نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى ت٧٧١هـ، طبعة المطبعة الحسينية المصرية .

٨٩ ـ طبقات الشعراء : لابن سلام الجمحى محمد بن سلام ت٢٣٢هـ، بعناية حامد عجمان الكتبى ، طبعة مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٢٠م.

٩٠ ـ طبقات الصوفية : لأبى عبد الرحمن محمد بن الحسين السّلمى ت٤٢١هـ، تحقيق نور الدين شريبة ، طبعة الخانجى ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.

٩١ ـ طبقات الفقهاء الشافعية : لأبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى ت٧٧٤هـ، تحقيق الدكتور أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم ، طبعة مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة ١٩٩٣م.

٩٢ ـ طبقات القراء « معرفة القراء الكبار » : لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ت٧٤٨هـ، تحقيق بشّار عوّاد معروف وشعيب الأرنؤوط وصالح مهدى عباس ، طبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٤م.

٩٣ ـ طبقات المفسرين : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ت٩١١هـ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت ـ بدون تاريخ .

٩٤ ـ طبقات المفسرين : لمحمد بن على بن أحمد الداودى ت٩٤٥هـ، مراجعة لجنة من العلماء ، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ بدون تاريخ .

٩٥ ـ طبقات النحويين واللغويين : لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى الأندلسى ت٣٧٩هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

٩٦ ـ العبر فى خبر من غبر : لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ت٧٤٨هـ، تحقيق محمد السعيد بسيونى ، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ١٩٨٥م.

٩٧ ـ العقد الفريد : لابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسى ت٣٣٨هـ، تحقيق أحمد أمين وآخرين ، طبعة مصرية ١٩٤٠م.

٩٨ ـ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء : لأبى العباس أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة السعدى الخزرجى ت٦٦٨هـ، طبعة دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الرابعة ١٩٨٧م وطبعة ١٩٥٧م.

٩٩ ـ غاية النهاية فى طبقات القراء : لأبى الخير محمد بن محمد بن الجزرى ت٨٣٣هـ ، عنى بنشره ج. برجستر اسر ، نشر مكتبة المتنبى بالقاهرة ـ بدون تاريخ .

١٠٠ ـ فتح المغيث بشرح ألفية الحديث : للحافظ أبى الفضل زين الدين عبد الرحيم ابن الحسين العراقى ت٨٠٦هـ، حققه وعلق عليه الأستاذ محمود ربيع ـ دار الكتب السلفية ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

١٠١ ـ الفخرى فى الآداب السلطانية : لمحمد بن على بن طباطبا ت٨٠٩هـ، طبعة محمد على صبيح بالقاهرة ١٩٦٢م.

١٠٢ ـ الفرق بين الفرق : للإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادى ت٤٢٩هـ، من منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٧٣م .

١٠٣ ـ فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة : لعبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذانى ت٤١٥هـ، تحقيق فؤاد سيد ، طبعة تونس ١٩٧٢م.

١٠٤ ـ الفهرست : لمحمد بن إسحاق بن النديم ت٣٨٥هـ، طبعة دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٩م.

١٠٥ ـ كامل الصناعة الطبية : لأبى الحسن على بن العباس المجوسى ت٣٨٤هـ، تصحيح إبراهيم عبد الغفار الدسوقى ، طبعة القاهرة ـ المطبعة العامرة ١٨٧٧ ـ ١٨٩٤م.

١٠٦ ـ الكامل فى التاريخ : لأبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ، المعروف بابن الأثير ت٦٣٠هـ، طبعة دار صادر ـ بيروت ١٩٨٢م.

١٠٧ ـ كتاب الإعلام بمناقب الإسلام : لأبى الحسن محمد بن يوسف العامرى ٣٨١هـ، تحقيق أحمد عبد الحميد غراب ، طبعة القاهرة ـ دار الكتاب العربى للنشر ١٩٦٧م.

١٠٨ ـ كتاب البديع : لعبد الله بن المعتز ت٢٩٢هـ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ، طبعة الحلبى ـ القاهرة ١٩٤٥م.

١٠٩ ـ كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : لأبى شامة عبد الرحمن بن إسماعيل ت٦٦٥هـ، طبعة دار الجيل ـ بيروت عن طبعة القاهرة ١٢٨٧هـ.

١١٠ ـ كتاب السياسة : لابن سينا بن عبد الله أبو على الشيخ الرئيس ت٤٢٨هـ، تحقيق لويس معلوف ، نشر فى مجلة الشرق ـ بيروت ـ السنة التاسعة ـ المجلد التاسع ، العدد (٢١ ، ٢٢ ، ٢٣) سنة ١٩٠٦م.

١١١ ـ كتاب الصناعتين لأبى هلال الحسين بن عبد الله بن سهل العسكرى ت٣٩٥هـ، تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة عيسى الحلبى ـ القاهرة ١٩٧١م.

١١٢ ـ كتاب اللغات فى القرآن : برواية إسماعيل بن عمرو المقرى ، لابن عباس ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ طبعة القاهرة ـ مطبعة الرسالة ١٩٤٦م.

١١٣ ـ كتاب مَنْ لا يحضره طبيب : لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى ت٣٢٠هـ، باهتمام وتصحيح السيد أحمد حسين وسعيد محمد ناظر ، طبعة إيران ـ بدون تاريخ .

١١٤ ـ لسان العرب : لابن منظور محمد بن مكرم ت٧١١هـ بتحقيق مجموعة من الأستاذة ، طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

١١٥ ـ لسان الميزان : لابن حجر العسقلانى أحمد بن على ت٨٥٢هـ، طبعة حيدر آباد ـ الدكن ١٣٣١هـ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ طبعة القاهرة ـ بولاق ١٢٨٢هـ.

١١٦ ـ مختصر تاريخ ابن عساكر : لابن منظور محمد بن مكرم ت٧١١هـ، تحقيق مجموعة من الأساتذة ، طبعة دار الفكر ـ سورية ١٩٨٤م.

١١٧ ـ المختصر فى أخبار البشر : لعماد الدين إسماعيل أبى الفدا ت٧٣٢هـ، طبعة مكتبة المتنبى ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

١١٨ ـ مراتب النحويين : لأبى الطيب عبد الواحد بن على اللغوى ت٣٥١هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٧٤م.

١١٩ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر : لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى ت٣٤٦هـ، شرح وتقديم مفيد محمد قميحة ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٦م.

١٢٠ ـ المزهر فى علوم اللغة وأنواعها : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ت٩١١هـ، شرح وتصحيح محمد أحمد جاد المولى ، وعلى محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة عيسى الحلبى ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

١٢١ ـ المستدرك على الصحيحين : للحاكم محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابورى ت٤٠٥هـ، طبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ بدون تاريخ .

١٢٢ ـ المسند : للإمام أحمد بن حنبل ، طبع دار الفكر ـ بيروت ـ بدون تاريخ .

١٢٣ ـ مطالع البدور ومنازل السرور : لعلاء الدين على بن عبد الله الغزالى ت٨١١٥هـ ، طبعة مصرية ١٣٠٠هـ.

١٢٤ ـ معجم الأدباء : لأبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى ت٦٢٦هـ، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٦م.

١٢٥ ـ معجم البلدان : لأبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى ت٦٢٦هـ، طبعة دار الفكر ودار صادر ـ بيروت ١٩٨٦م.

١٢٦ ـ معجم ما استعجم : للبكرى عبد الله بن عبد العزيز الأندلسى ت٤٨٧هـ، تحقيق مصطفى السقا ، طبعة عالم الكتب ـ بيروت ـ بدون تاريخ .

١٢٧ ـ مغنى اللبيب عن كتاب الأعاريب : للإمام أبى محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصارى ٧٦١هـ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ طبعة المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ١٩٨٧م.

١٢٨ ـ مفتاح دار السعادة : للإمام أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الدمشقى ابن قيم الجوزية ت٧٥١هـ، طبعة مكتبة الفاروق الحديثة بالقاهرة ـ بدون تاريخ .

١٢٩ ـ المقابسات : لأبى حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى ت٤٠٣هـ، تحقيق وشرح حسن السندى ، طبعة المكتبة التجارية بمصر ١٩٢٩م.

١٣٠ ـ مقالات الإسلاميين : لأبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ن٣٣٠هـ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ طبعة النهضة المصرية ١٩٥٠م ، ومطبعة المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ١٩٩٠م.

١٣١ ـ مقدمة ابن خلدون : للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ت٨٠٨هـ، تحقيق على عبد الواحد وافى ـ الطبعة الثالثة ـ دار نهضة مصر ١٩٧٧م.

١٣١ ـ مقدمة فى أصول التفسير : لتقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت٧٢٨هـ ـ الطبعة الرابعة ـ طبعة المكتبة السلفية ـ القاهرة ١٣٩٩هـ.

١٣٢ ـ الملل والنحل : لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ت٥٤٨هـ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ، طبعة مؤسسة الحلبى بالقاهرة ١٩٦٨م.

١٣٣ ـ الموازنة بين الطائيين : للآمدى أبى القاسم الحسن بن بشر ت٣٧١هـ، طبعة بيروت ـ بدون تاريخ .

١٣٤الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء : للمرزبانى محمد بن عمران بن موسى ت٣٨٤هـ، طبعة دار نهضة مصر ١٩٦٥م.

١٣٥ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى ت٨٧٤هـ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٢م.

١٣٦ ـ نزهة الألباء فى طبقات الأدباء : لابن الأنبارى عبد الرحمن بن محمد ت٥٧٧هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ مطبعة المدنى ١٩٧٦م.

١٣٧ ـ نزهة الأنام فى محاسن الشام : لأبى البقاء عبد الله بن محمد البدرى الدمشقى ، من علماء القرن التاسع الهجرى ، طبعة المطبعة السلفية بمصر ١٣٤١هـ.

١٣٨ ـ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : لأبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسى ، من علماء القرن السادس الهجرى ، نشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ـ بدون تاريخ .

١٣٩ ـ نزهة النظر بشرح نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر : لأحمد بن على بن حجر العسقلانى ت٨٥٢هـ ـ الطبعة الثالثة ـ المكتبة العلمية بالمدينة ـ السعودية ١٩٧٥م .

١٤٠ ـ النشر فى القراءات العشر : لمحمد بن محمد الجزرى ت٨٣٣هـ، تصحيح ومراجعة على محمد الصباغ ـ طبعة القاهرة ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ بدون تاريخ .

١٤١ ـ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة : لأبى على المحسن بن على التنوخى ٣٨٤هـ، طبعة الهند ١٠٢١م.

١٤٢ ـ نقد الشعر : لقدامة بن جعفر ٣٣٧هـ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ـ طبعة مكتبة الكليات الززهرية ١٩٧٨م.

١٤٣ ـ نهر الذهب فى تاريخ حلب : للغزى كامل بن حسين بن مصطفى ، طبعة حلب ـ بدون تاريخ .

١٤٤ ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع فى علم العربية : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ٩١١، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، وعبد العال سالم ، طبعة الكويت ـ دار البحوث العلمية ١٩٧٥م.

١٤٥ ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه : لعلى بن عبد العزيز الجرجانى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوى ، طبعة الحلبى ـ القاهرة ١٩٦٦م.

١٤٦ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لأبى العباس أحمد بن محمد بن خلكان ٦٨١هـ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار صادر ـ بيروت ١٩٧٧م.

١٤٧ ـ يتيمة الدهر فى محاسن العصر : لأبى منصور عبد الملك الثعالبى النيسابورى ٤٢٩هـ، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٣م.

١٤٨ ـ اليواقيت والضرب فى تاريخ حلب : لعماد الدين إسماعيل أبى الفدا ت٧٣٢هـ، تحقيق محمد كمال وفالح البكور ، طبعة دار القلم العربى بحلب ١٩٨٩م.

ثالثًا : المراجع

١٤٩ ـ أبو بكر الصولى ـ العالم ـ النديم ـ الأديب : للأستاذ أحمد جمال العمرى ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

١٥٠ ـ أبو حيان التوحيدى : للدكتور زكريا إبراهيم ، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤م.

١٥١ ـ أبو حيان التوحيدى : للدكتور أحمد محمد الحوفى ، طبعة مكتبة نهضة مصر ١٩٥٧م.

١٥٢ ـ اتجاهات النقد العربى من الجاهلية إلى نهاية القرن الرابع : للدكتور منصور عبد الرحمن ـ طبعة الأنجلو المصرية ١٩٧٩م.

١٥٣ ـ أثر العرب على الحضارة الأوربية : للأستاذ عباس محمود العقاد ـ طبعة دار المعارف ـ مصر ١٩٤٦م.

١٥٤ ـ أثر علماء العرب المسلمين فى تطور علم الفلك : للدكتور على عبد الله الدفاع ، طبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

١٥٥ ـ أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية : للأستاذ أحمد على المُلا ، طبعة دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٩٨١م.

١٥٦ ـ إخوان الصفا (من نوابغ الفكر العربى) : للدكتور حبور عبد النور ، طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.

١٥٧ ـ أدب الاختلاف فى الإسلام : للدكتور طه جابر فياض العلوانى ، طبعة قطر عن رئاسة المحاكم الشرعية ١٤٠٥هـ.

١٥٨ ـ أدب العلماء : للدكتور محمد سويسى ، طبعة طرابلس ـ ليبيا ـ الدار العربية للكتاب ١٩٧٩م.

١٥٩ ـ الأدب فى ظل بنى بويه : للدكتور محمود الزهيرى ، طبعة مصرية ١٩٤٩م.

١٦٠ ـ الأساس فى النقد والبلاغة : للدكتور أحمد الحوفى وآخرين ـ طبعة السعودية ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٠م.

١٦١ ـ الإسلام والحضارة العربية : لمحمد كرد على ، طبعة القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثانية ١٩٥٠م.

١٦٢ ـ إسهام علماء العرب المسلمين فى الصيدلة : للدكتور على عبد الله الدفاع ، طبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٧م.

١٦٣ ـ إسهام المسلمين فى الحضارة الإنسانية : للدكتور ماهر عبد القادر محمد والدكتور عبد القادر البحراوى ـ طبعة دار المعرفة الجامعية ـ بدون تاريخ .

١٦٤ ـ أصول النقد الأدبى : للأستاذ أحمد الشايب ، طبعة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة ١٩٤٦م.

١٦٥ ـ أعلام العرب فى الكيمياء : للدكتور فاضل أحمد الطائى ـ طبعة بغداد ـ دار الرشيد للنشر ١٩٨١م.

١٦٦ ـ الإنسان فى فكر إخوان الصفا : للدكتور عبد اللطيف محمد العبد ـ طبعة القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦م.

١٦٧ ـ بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : للدكتور إبراهيم سلامة : نشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢م.

١٦٨ ـ البلاغة العربية للدكتور على عشرى زايد ، نشر مكتبة الشباب ـ القاهرة ١٩٨٢م.

١٦٩ ـ البيان العربى للدكتور بدوى طبانة ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ الطبعة الرابعة ١٩٦٨م.

١٧٠ ـ بيت الحكمة : للأستاذ سعيد الديوه ـ جى ، طبعة الموصل ١٩٥٤م.

١٧١ ـ بين الشيعة وأهل السنة : لإحسان إلهى ظهير ، طبعة لاهور ـ باكستان ١٩٨٥م.

١٧٢ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : لجورجى زيدان ، مراجعة الدكتور شوقى ضيف ـ طبعة دار الهلال ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

١٧٣ ـ تاريخ الأدب فى العصر العباسى الثانى : للدكتور إبراهيم على أبو الخشب ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ـ بدون تاريخ .

١٧٤ ـ تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى : للدكتور حسن إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة العاشرة ١٩٨٥م.

١٧٥ ـ التاريخ الإسلامى : للأستاذ محمود شاكر ، طبعة المكتب الإسلامى ـ بيروت ١٩٨٥م.

١٧٦ ـ تاريخ البيمارستانات فى الإسلام : للدكتور أحمد عيسى بك ، طبعة دار الرائد العربى ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٨١م.

١٧٧ ـ تاريخ التشريع الإسلامى : للدكتور حسن محمد سفر ، طبع دار النوابغ ـ جدة ـ السعودية ١٤١٤هـ.

١٧٨ ـ تاريخ التشريع الإسلامى : للشيخ محمد الخضرى ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ـ الطبعة التاسعة ١٩٧٠م.

١٧٩ ـ تاريخ التعليم عند المسلمين : للدكتور منير الدين أحمد ـ طبعة دار المريخ ـ الرياض ـ السعودية ١٩٨١م.

١٨٠ ـ تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى : للدكتور عبد المنعم ماجد ، طبعة الأنجلو المصرية ـ الطبعة الرابعة ١٩٨٦م.

١٨١ ـ تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق : للدكتور محمد جمال الدين سرور ـ طبعة القاهرة ـ ١٩٦٥م.

١٨٢ ـ التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنّى فى المشرق الإسلامى : للدكتور عبد المجيد بدوى ، طبعة دار الوفاء ـ مصر ـ الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

١٨٣ ـ تاريخ الطب فى الحضارة العربية الإسلامية : للدكتور فرج محمد الهونى ، طبعة دار الكتب الوطنية ـ بنغازى ـ ليبيا ١٩٨٦م.

١٨٤ ـ تاريخ الطب وآدابه وأعلامه : للدكتور أحمد شوكت ، طبعة دمشق من منشورات وزارة الثقافة ١٩٧٠م.

١٨٥ ـ التاريخ العربى والمؤرخون : للدكتور شاكر مصطفى ، طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٨م.

١٨٦ ـ تاريخ العلوم عند العرب : للدكتور عمر فروخ ، طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الرابعة ١٩٨٤م.

١٨٧ ـ تاريخ الفكر العربى : للدكتور إسماعيل مظهر ـ طبعة القاهرة ١٩٢٨م.

١٨٨ ـ تاريخ المذاهب الإسلامية : للشيخ محمد أبو زهرة ، طبعة دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

١٨٩ ـ تارخ النحو : للأستاذ على النجدى ناصف ، طبعة دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٨م.

١٩٠ ـ تاريخ النقد العربى إلى القرن الرابع : للدكتور محمد زغلول سلام ، طبعة دار المعارف ـ مصر ـ بدون تاريخ .

١٩١ ـ التاريخ والجغرافيا فى العصور الإسلامية : للدكتور عمر رضا كحالة ، طبعة دمشق ١٩٧٢م.

١٩٢ ـ التبيان فى علوم القرآن : للدكتور محمد على الصابونى ، طبعة دار عمر بن الخطاب ، الإسكندرية ١٣٩٠م.

١٩٣ ـ التراث العلمى للحضارة الإسلامية : للدكتور أحمد فؤاد باشا ، طبعة دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٤م.

١٩٤ ـ التراث والمعاصرة : للدكتور أكرم ضياء العمرى ، طبعة قطر ، عن رئاسة المحاكم الشرعية ١٩٨٥م.

١٩٥ ـ التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : للدكتور حسن عبد العال ، طبعة دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٧٨م.

١٩٦ ـ التربية الإسلامية : لمحمد عطية الإبراشى ـ طبعة عيسى الحلبى ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٦٩م.

١٩٦ ـ التربية فى الإسلام : للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٣م.

١٩٧ ـ التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى : للدكتور أحمد شلبى ـ طبعة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة العاشرة ١٩٩٤م.

١٩٨ ـ التفسير والمفسرون : للدكتور محمد حسين الذهبى ، طبعة دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٧٦م.

١٩٩ ـ تيارات الفكر الإسلامى : للدكتور محمد عمارة ـ طبعة دار الهلال ـ القاهرة ١٩٨٢م.

٢٠٠ ـ تيسير مصطلح الحديث : للدكتور محمود الطحان ، طبعة دار التراث العربى ـ القاهرة ١٩٨١م.

٢٠١ ـ جابر بن حيان : للدكتور زكى نجيب محمود ، طبعة مكتبة مصر ـ القاهرة ١٩٦٢م.

٢٠٢ ـ الجمع الصوتى الأول للقرآن : للدكتور لبيب السعيد ، طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٧٨م.

٢٠٣ ـ الحديث والمحدثون : للدكتور محمد محمد أبو زهو ـ طبعة لشركة مساهمة مصرية ١٣٧٨هـ.

٢٠٤ ـ الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى : للدكتور محمد أحمد الخطيب ، طبعة ـ الأقصى بالأردن ، وعالم الكتب بالسعودية ـ الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

٢٠٥ ـ حركة الترجمة فى المشرق الإسلامى : للدكتور رشيد حميد حسن الجميلى، طبعة ـ طرابلس ـ ليبيا ١٩٨٢م.

٢٠٦ ـ الحضارة : للدكتور حسين مؤنس ، طبعة الكويت ـ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ١٩٧٨م.

٢٠٧ ـ حضارة العراق (الجزء السابع والثامن) : لمجموعة من الأساتذة ، طبعة بغداد ـ دار الحرية للطباعة ١٩٨٥م.

٢٠٨ ـ حقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة : للدكتور محمد ربيع هادى الدخلى، طبعة مؤسسة مكة للطباعة ـ السعودية ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

٢٠٩ ـ خزائن الكتب القديمة فى العراق : للدكتور كوركيس عواد ، طبعة دار المعارف ـ بغداد ١٩٤٨م.

٢١٠ ـ خطط الشام : لمحمود كرد على ، مكتبة النورى ـ دمشق ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

٢١١ ـ دراسات فى أصول التربية : للدكتور حسن حسين الببلاوى ، والدكتور محمود قنبر ، والدكتور محمد وجيه الصاوى ـ طبعة دار الثقافة ـ الدوحة ـ قطر ١٩٨٩م.

٢١٢ ـ دراسات فى تاريخ الفلسفة العربية : للدكتور عبده السُّنالى ، طبعة دار صادر ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٩٦٥م.

٢١٣ ـ الدولة العباسية : تأليف الشيخ محمد الخضرى بك ، تحقيق الشيخ محمد العثمانى ، طبعة دار القلم ـ بيروت ١٩٨٦م.

٢١٤ ـ الرسالة المستطرفة : للسيد محمد بن جعفر الكتانى ١٣٤٥هـ، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ـ بدون تاريخ .

٢١٥ ـ السنة فى مواجهة التحدى : للدكتور أحمد عمر هاشم ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٨٠م.

٢١٦ ـ سيف الدولة الحمداني « مملكة السيف ودولة الأقلام »: للدكتور مصطفى الشكعة ، نشر عالم الكتب ـ بيروت ١٩٥٩م، وطبعة المتنبى ـ القاهرة ١٩٧٧م.

٢١٧ ـ الشيعة والسنة : لإحسان إلهى ظهير ، طبعة دار الصحوة ـ القاهرة ١٩٨٦م.

٢١٨ ـ الطب العربى : لأمين سعد خير الله ، طبعة بيروت ١٩٤٦م.

٢١٩ ـ الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات : للدكتور محمود الحاج قاسم محمد ، طبعة الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة ـ المام ١٩٨٧م.

٢٢٠ ـ الطب والأطباء فى مختلف العصور الإسلامية : للدكتور محمود دياب ، طبعة الأنجلو المصرية ـ بدون تاريخ .

٢٢١ ـ ظهر الإسلام : للأستاذ أحمد أمين ، طبعة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الخامسة ١٩٥٢م.

٢٢٢ ـ العالم الإسلامى فى العصر العباسى : للدكتور حسن محمود والدكتور أحمد الشريف ، طبعة دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٦٦م.

٢٢٣ ـ عبقرية العرب فى العلم والفلسفة : للدكتور عمر فروخ ـ طبعة بيروت ـ المكتبة العصرية ١٩٦٩م.

٢٢٤ ـ عصر الدول والإمارات : للدكتور شوقى ضيف ، طبعة دار المعارف ـ القاهرة ١٩٩٠م.

٢٢٥ ـ العصر العباسى الثانى : للدكتور شوقى ضيف ، طبعة دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٥م.

٢٢٦ ـ العقائد الشيعية : لناصر الدين شاه ـ طبعة القاهرة ١٩٨٧م.

٢٢٧ ـ علم أصول الفقه : للشيخ عبد الوهاب خلاف : طبعة دار القلم ـ القاهرة ـ الطبعة العاشرة ١٩٨٤م.

٢٢٨ ـ علم الخرائط : تأليف الدكتور محمد صبحى عبد الحكيم والدكتور ماهر عبد الحميد الليثى ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩م.

٢٢٩ ـ العلوم عند العرب : للأستاذ قدرى حافظ طوقان ـ طبعة مكتبة مصر ـ القاهرة ١٩٧٩م.

٢٣٠ ـ العلوم فى الإسلام : للدكتور سيد حسين نصر ، طبعة الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ١٩٧٨م.

٢٣١ ـ علوم القرآن : للدكتور عدنان محمد زرزور ، طبعة المكتب الإسلامى ـ الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

٢٣٢ ـ العلوم والفنون عند العرب : للدكتور سيد رضوان على ، طبعة دار المريخ ـ الرياض ـ السعودية ١٩٨٧م.

٢٣٣ ـ العلويون بين الأسطورة والحقيقة : للدكتور هاشم عثمان ، طبعة مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ـ بيروت ١٩٨٠م.

٢٣٤ ـ الفارابى (من نوابغ الفكر العربى) : للأستاذ زايد ـ طبعة دار المعارف ـ مصر ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٠م.

٢٣٥ ـ فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية : للدكتور عز الدين فراج ، طبعة دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

٢٣٦ ـ الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا : للدكتور محمد فريد حجاب ، طبعة القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة ١٩٨٢م.

٢٣٧ ـ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : للدكتور شوقى ضيف ، طبعة بيروت ١٩٥٦م.

٢٣٨ ـ فهرس المخطوطات المصورة جـ٢ القسم الرابع (التاريخ) : أعده قسم الفهرسة بمعهد المخطوطات العربية ، مطبعة الشركة العربية للطباعة بالقاهرة ١٩٧٠م.

٢٣٩ ـ فهرس المخطوطات المصورة القسم الأول (الفلك والتنجيم والميقات) : تصنيف باول كونتش ـ مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ـ صدر عام ١٩٥٨م.

٢٤٠ ـ فهرس المخطوطات المصورة (القسم الثالث ـ الرياضيات) : تصنيف فؤاد سيد ـ مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٩٦٠م.

٢٤١ ـ فهرس المخطوطات المصورة (القسم الثانى ـ الكتاب الثانى) ـ الطب : إعداد قسم الفهرسة بمعهد المخطوطات العربية ـ المطبعة العربية الحديثة بالقاهرة ١٩٧١م.

٢٤٢ ـ فهرس المخطوطات المصورة جـ٤ المعارف العامة والفنون المتنوعة : تصنيف فؤاد سيف ، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٩٦٤م.

٢٤٣ ـ فى تراثنا العربى الإسلامى : للدكتور توفيق الطويل ، طبعة المجلس الوطنى للثقافة بالكويت ١٩٨٦م.

٢٤٤ ـ فى التربية الإسلامية : للدكتور عبد الغنى عبود ، طبعة دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٧٧م.

٢٤٥ ـ فيلسوف العرب والمعلم الثانى : للشيخ مصطفى عبد الرازق ، طبعة القاهرة ١٩٤٥م.

٢٤٦ ـ قصة التفسير : للشيخ أحمد الشرباصى ، طبعة المكتبة الثقافية ١٩٦٢م.

٢٤٧ ـ القضاء فى الإسلام : للدكتور عطية مشرفة ، طبعة شركة الشرق الأوسط ١٩٦٦م.

٢٤٨ ـ قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث : محمد جمال الدين القاسمى ١٣٣٢هـ، تحقيق محمد بهجة البيطار ـ طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٣٥٣هـ.

٢٤٩ ـ كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون : لحاجى خليفة ، مصطفى عبد الله القسطنطينى ت١٠١٧هـ، طبعة دار الفكر ـ بيروت ١٩٩٤م.

٢٥٠ ـ الكندى فيلسوف العرب : للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٤م.

٢٥١ ـ الكيمياء فى الحضارة الإسلامية : للدكتور على جمعان الشكيل ، طبعة دار الشروق ـ القاهرة ١٩٨٩م.

٢٥٢ ـ مباحث فى علوم القرآن : للدكتور مناع القطان ، طبعة مكتبة المعارف ـ الرياض ـ السعودية ـ الطبعة الثامنة ١٩٨١م.

٢٥٣ ـ المتنبى : للأستاذ محمود شاكر ، طبعة المدنى بجدة ـ ومكتبة الخانجى بمصر ١٩٨٧م.

٢٥٤ ـ المخطوط العربى منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجرى : للدكتور عبد الستار الحلوجى ، طبعة الرياض ـ من مطبوعات لجنة البحوث والتأليف ، جامعة الإمام محمد ابن سعود ١٩٧٨م.

٢٥٥ ـ المدارس النحوية : للدكتور شوقى ضيف ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة السادسة ١٩٨٩م.

٢٥٦ ـ المدخل إلى تاريخ الحضارة : للأستاذ جورج حداد ـ طبعة دمشق ١٩٥٨م.

٢٥٧ ـ المدينة الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية : للدكتور سعيد عاشور ـ طبعة القاهرة ١٩٦٣م.

٢٥٨ ـ مع الفارابى والمدن الفاضلة : للأستاذ فاروق سعد ـ طبعة دار الشرق ـ القاهرة ١٩٨٢م.

٢٥٩ ـ معالم الفكر العربى فى العصر الوسيط : للأستاذ كمال اليازجى ـ طبعة بيروت ١٩٦٦م.

٢٦٠ ـ المعتزلة : لزهرى حسن جار الله ـ طبعة القاهرة ١٩٤٧م.

٢٦١ ـ المعجم الجغرافى : أعداد لجنة الجغرافية بمجمع اللغة العربية ، إشراف الدكتور محمد محمود الصياد ـ طبعة القاهرة ـ المطابع الأميرية ١٩٧٤م.

٢٦٢ ـ المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع : جمع وإعداد الدكتور محمد عيسى صالحية ، طبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالقاهرة ١٩٩٢م.

٢٦٣ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضعه محمد فؤاد عبد الباقى ـ طبعة دار القلم ـ بيروت ـ بدون تاريخ .

٢٦٤ ـ معجم المؤلفين : لعمررضا كحالة ـ طبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٩٣م.

٢٦٥ ـ المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى : للدكتور زكى نجيب محمود ـ طبعة دار الشروق ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٧٨م.

٢٦٦ ـ المفصل فى تاريخ الأدب العربى : للدكتور أحمد السكندرى ـ طبعة وزارة المعارف العمومية بالقاهرة ١٩٣٤م.

٢٦٧ ـ من تاريخ إخوان الصفا : للأستاذ عامر تامر ـ طبعة بيروت ـ دار مكتبة الحياة ـ بدون تاريخ .

٢٦٨ ـ من روائع حضارتنا : للدكتور مصطفى السباعى ـ طبعة بيروت ١٩٦٨م.

٢٦٩ ـ من رواد الفلسفة الإسلامية : للأستاذ عبد المنعم حمادة ـ طبعة القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣م.

٢٧٠ ـ مناهل العرفان فى علوم القرآن : للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ـ طبعة عيسى الحلبى ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

٢٧١ ـ المنتقى فى تاريخ التشريع الإسلامى : للدكتور محمد أنيس عبادة ، طبعة دار الطباعة المحمدية ـ القاهرة ١٩٦٥م.

٢٧٢ ـ منهج البحث العلمى عند العرب : لجلال محمد موسى ـ طبعة بيروت ١٩٧٢م.

٢٧٣ ـ المهندسون فى العصر الإسلامى : لأحمد تيمور باشا ـ طبعة دار نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٧٩م.

٢٧٤ ـ الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب : للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا ـ طبعة بيروت ١٩٧٠م.

٢٧٥ ـ موسوعة التاريخ الإسلامى : للدكتور أحمد شلبى ، طبعة النهضة المصرية ـ الطبعة الثامنة ١٩٨٥م.

٢٧٦ ـ الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية جـ٨ : للدكتورة فاطمة محجوب ، طبعة دار الغد العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٣م.

٢٧٧ ـ النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى : للدكتور زكى مبارك ، دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٥م.

٢٧٨ ـ نشأة التفسير ومناهجه : للدكتور محمود بسيونى فودة ـ طبعة القاهرة ـ مطبعة الأمانة ١٩٨٦م.

٢٧٩ ـ نشأة النحو : للشيخ محمد طنطاوى ـ القاهرة ـ طبعة السعادة ـ بدون تاريخ .